

أبو حيان التوحيدية

الجزء الثالث

مركز تحقيق ونشر علوم إرسودي

- مفهوم الإنسان
- أفق العقل
- موسيقى الخط
- التفكير النقدي
- الفكر اللغوي
- كتابة المغامرة
- أخى الذى لم أراه
- محنة المثقف

المجلد
الخامس عشر
العدد الأول
ربيع ١٩٩٦



فصول

مجلة النقد الأدبي

مجلة علمية محكمة

٦١٩٨٥



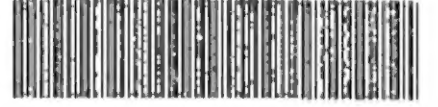
مركز تحقيق كويت علوم إرسدي

ابو حيان التوحيد

الجزء الثالث



تصدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب



٥٨٩٩٩

رئيس مجلس الإدارة: سمير مرجان

رئيس التحرير: جابر عصفور

نائب رئيس التحرير: هادي وصفي

الإخراج الفني: سعيد المسيري

محمود القاضي

مدير التحرير: حسين حمودة

التحرير: حازم شحاته

ناظمة قنديل

مكتبات: أمال صلاح

صالح راشد



مركز تحقيقات كويتية علوم إرسدي

● **الأسعار في البلاد العربية:**

الكويت ١٧٥٠ دينار - السعودية ٣٠ ريال - سوريا ١٢٢ ليرة - المغرب ٥٥ درهم - سلطنة عمان ٢ ريال - العراق ٢ دينار - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - البحرين ٣ دينار - الجمهورية اليمنية ١٠٠ ريال - الأردن ٢٥ دينار - قطر ٣٠ ريال - غزة/ القدس ٢٥٠ دولار - تونس ٥ دينار - الإمارات ٢٧ درهم - السودان ٦٧ جنيه - الجزائر ٢٤ دينار - ليبيا ١٧ دينار - دبي/ أبو ظبي ٣٠ درهم.

● **الاشتراكات من الداخل:**

عن سنة (أربعة أعداد) ١٢٠٠ قرشاً + مصاريف البريد ٢٨٠ قرشاً، ترسل الاشتراكات بحوالة بريدية حكومية.

● **الاشتراكات من الخارج:**

عن سنة (أربعة أعداد) ١٥ دولاراً للأفراد - ٢٤ دولاراً للهيئات. مضاف إليها مصاريف البريد (البلاد العربية - ما يعادل ٦ دولارات) (لأمريكا وأوروبا - ١٦ دولاراً).

● **ترسل الاشتراكات على العنوان التالي:**

سجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب - شارع كورنيش النيل - بولاق - القاهرة ج - م - ع.

● **الإعلانات: يتفق عليها مع إدارة المجلة أو مندوبيها المعتمدين.**

السعر: ثلاثة جنيهات

ابو حيان التوحيدية

الجزء الثالث

• في هذا العدد



رئيس التحرير ٥

١١

• مفتوح

• كلمات

- فاروق حنى
- شوقي ضيف
- إحسان عباس
- ميجيل هيرناندث

المجلد

الخامس عشر

العدد الأول

ربيع ١٩٩٦



• دراسات

٢٣

عاطف العراقي ٢٥

زينب الخضيرى ٣٦

عمار الطالبي ٥٢

صلاح فنصوه ٧٤

جعفر الكنسوسى ٨٤

يوسف زيدان ٩٤

نور الدين أفابية ١١٥

محمد زغلول سلام ١٢٤

محمد بغدادى ١٣٣

عبدالقادر الرباعى ١٤٥

- مفهوم الإنسان عند أبى حيان

- أبو حيان والبحث عن السعادة

- أبو حيان والفلسفة

- أفق العقل لدى التوحيدى

- تعليقات على كتاب الإشارات الإلهية

- هل كان التوحيدى صوفياً

- الاهتمام بالجمال عند التوحيدى

- الموسيقى والغناء فى كتابات أبى حيان

- موسيقى الخط العربى عند التوحيدى

- التفكير النقدى فى كتاب المقامات

- ١٦٣ يوسف أبو العدوس - المبحث النقدي والبلاغي في الإمتاع
١٨٧ محمود فهمي حجازي + الفكر اللغوي في إطار لقاء الثقافات
٢٠٥ نصر الدين صالح سيد - الرؤية اللغوية عند أبي حيان
٢٢٢ هاشم محمد سويقي - النصوص المنسوبة إلى السيرافي
٢٤٣ هاني العممد - التوحيدى مترجما للرجال
٢٨٣ أحمد بولوط - مخطوطات التوحيدى فى تركيا
٢٨٨ هارتموت بوشتين - التوحيدى بين الألمان



الجزء الثالث

- ٢٩١ ● شهادات
أحمد عبد المعطى حجازى - إدوار الخراط -
جمال الغيطانى - خيرى شلبى - واسينى
الأعرج - عبد اللطيف عبدالحليم (قصيدة).

- ٣٢٩ ● ندوة
- ديهان ابن قرمان



مركز تحقيقات كميوتير علوم راسدى

الرغبة الملتبسة للكتابة

«كان أبو حيان قد أحرق كتبه في آخر عمره لقلّة جدواها، وضنا بها على من لا يعرف قدرها بعد موته». جملة مفزعة، مخيفة، باعثة على الدهشة والحيرة والأسى والإحباط في آن، وردت في ترجمة أبي حيان التوحيدي (على بن محمد بن العباس) ضمن التراجم التي يحتويها كتاب ياقوت الحموي «معجم الأدباء» أو «إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب». توقفت عيني طويلاً عند هذه الجملة قبل أن تعبرها إلى غيرها، وتسمرت إزاءها كما لو كانت تفتش بين أحرف الكلمات، أو وراءها، عن الأسباب التي تؤدي إلى هوان الكاتب على عصره إلى الدرجة التي تدفعه إلى قرارة اليأس من هذا العصر، فيقترب فعل الانتحار الرمزي، ويقوم بتدمير أعز ما يملك، ملقياً به إلى النار، احتجاجاً على عصره الكريه الذي دفع به إلى قلب الظلمة وهوة اليأس.

أعرف حالات متعددة في تراثنا العربي، سابقة ولاحقة على أبي حيان، اقترنت بإحراق الكتب. ولكن فعل الإحراق في هذه الحالات كانت تمارسه مجموعات قمعية، متعصبة، لم تعرف معنى التسامح أو الحوار، فأحرقت كتب المخالفين لها باسم الدين الذي هو منها براء، أو باسم التأويل السياسي الذي لا يحتمل وجود المخالفين له. ومثال ذلك ما قام به أولئك الذين شاركوا المنصور ابن أبي عامر في جريمة إحراق كتب الفلسفة، أو أولئك الذين ألقوا بكتاب الإمام الغزالي «إحياء علوم الدين» إلى كومة النيران. وقد روى الذهبي أن الخليفة الأندلسي أبا يوسف المنصور، عقب نقمته على ابن رشد ونكبته إياه، كتب إلى البلاد يأمر الناس بإحراق الكتب، سوى كتب الطب والحساب والمواقيت، أي الكتب الضرورية للمعيشة الاجتماعية لا كتب الأفكار أو التأويل أو التفلسف. أضف إلى ذلك ما قام به متعصبو الحنابلة الذين أحرقوا كتب الأوائل التي كانت عند عبدالسلام بن عبد الوهاب الملقب بركن الدين، حفيد المتصوف الحنبلي الكبير عبدالقادر الجيلاني، وإحراق الخليفة المستنجد كتب أحد القضاة التابعين له لما بلغه من أن فيها كتباً لابن سينا وإخوان الصفا وأشباههم. وهناك أمثلة أخرى متعددة تمتلئ بها كتب التراث، وتكثر في فترات تصاعد الصراع السياسي الاجتماعي الذي يتقنع بقناع التأويل الديني أو يتسلح به، تبريراً للتعصب والغاء لحق الاختلاف.

ولكن ما أبعد الفارق بين أن توجد فئة باغية، متعصبة، تضيق الخناق على المبدع، أو المفكر، وتلقى بإبداعه أو ثمرة فكره إلى النيران، خشية أن ينتشر هذا الإبداع أو ذلك الفكر بين العقول المتطلعة إليه والقلوب المتلهفة عليه، وبين أن يدفع اليأس من العصر ومن البشر جميعاً بالمبدع أو المفكر إلى أن يمارس هذا الفعل المخيف الذى يساوى فعل الانتحار، فيحرق بنفسه، كما لو كان يحرق نفسه، الأوراق الحميمة العزيرة الغالية التى سودها بقلمه، ليودع فيها كشوفه وحدوسه، أحلامه وأشواقه، حيرته وظنونه، أسئلته واتهاماته، لحظات ضعفه ولحظات قوته، تطلعه إلى الخلاص، وإدائه للحاضر الذى يحول بين الناس والغد الواعد بيوتوبيا المستقبل.

ويبدو أن ياقوت الحموى كان يستنطق ما فى داخل أبى حيان من تمرد على عصره، وما فى أعماقه من لهيب الغضب على أهل هذا العصر، عندما قال: بارت البضائع، وغارت البدائع، وكسد سوق العلم، وخمد ذكر الكرم، وصار الناس عبيد الدرهم بعد الدرهم. وتلك عبارات تكشف عن المعاناة القاسية التى انتهت إلى اليأس المدمر، عند كاتب ظل يكتب ويكتب آملاً أن يحقق بعض حلمه، ويسهم فى تنوير عصره، فيمضى الوقت، وتمر الأعوام بعد الأعوام، ويقترب العمر من نهايته، وتصبح الحياة قاب قوسين أو أدنى من الموت، والحلم يتباعد، والعصر يتدنى، وسوق العلم تزدد كساداً، فيتصاعد اليأس، ويصل إلى ذروته التى لا يبقى معها سوى الجنون الذى يقترن بالرغبة فى تدمير الذات. وهى رغبة يوجبها تصاعد حدة الإحساس بالوحدة والتوحد، وتسلب سوء الظن بالحياة والأحياء، وافتقار الصداقة والصدق، وتصور الحياة على أنها غابة موحشة، والنظر إلى البشر بوصفهم كائنات مفترسة لا تعرف سوى الغدر، ولا تدرك معنى ما يخطه القلم، أو قيمة ما تحمله الكتب. وعندئذ يبدو تدمير أبى حيان كتبه التى أحرقتها بالنار وغسلها بالماء، ماحياً إبداعه الذى أنفق فيه أجمل سنين عمره، فعلاً رمزياً، يحمل معنى الاحتجاج على العصر والناس فى دلالة المباشرة الأولى، ويحمل معاني ملازمة فى دلالاته المصاحبة.

وأولى هذه الدلالات تومئ إلى نوع من الإخفاء الذاتى، كما لو كانت الأنا تستأصل وجودها الخصب، أو حضورها الفعال، فى عصره الخلاق، عقاباً لنفسها على ما اقترفت من حلم، وردعاً لها عن التطلع إلى وعد، خاصة فى عالم ليست الصداقة فيه علامة على إنسان آخر هو أنت لكنه بالشخص غيرك، وإنما علامة على قناع خادع يتخفى وراءه وحش يترص بك. وتومئ ثانية هذه الدلالات إلى معنى ملتبس، يمزج الرغبة فى التدمير الذاتى بالرغبة فى الخلاص، خاصة حين يغدو الخلاص انسحاباً من الواقع، وفراراً من مواجهة ما فيه، لكن فى سياق من الترابطات المراوغة لدال النار الذى يومئ إلى دلالات الخلاص والتطهر من الأدران، كما يومئ إلى فعل التضحية أو فعل الدمار الذاتى الذى قد يغدو فعلاً من أفعال الولادة الجديدة.

ولكن هل كان أبو حيان يتطلع إلى ولادة جديدة؟ من يدرى؟! إن ذروة الرغبة فى الموت قد تنطوى على نقيضها المتعلق بالحياة. والفعل الانتحارى لليأس قد يكون تعبيراً عن التعلق الشديد بالحياة وتوقد الإحساس المرهف بها. والنار الحارقة للأوراق، كالماء الذى يغسل الصحائف فيمحو حبر الكتابة، دال تترواح مدلولاته بين نقيضين: الموت والبعث. مؤكداً أن أبا حيان أحرق كتبه كما لو كان يحرق نفسه، وهل كتب الإنسان إلا الإنسان بكل معانيه؟ ولكنه حين مارس هذا الفعل الرمزي، فى ذروة يأسه، كان ينطوى على الرغبة الملتبسة التى تجمع ما بين الموت والحياة، أو التى تحتضن الموت لحبها الحياة، فتدفع صاحبها إلى النقيض الذى ينطوى على نقيضه، وإلى الفعل الذى يبدو، فى وجه من وجوهه، موازياً لفعل الدمار الذاتى الذى يتولد به الفينيق، ذلك الطائر الذى يتجدد من رماده، ويبعث من خرابه، فهو طائر يولد لحظة أن يموت، ويموت لحظة أن يولد، فى التباس اللهب

النارى الذى يعنى الشئ ونقيضه. ولذلك التهمت النار، فى حالة أبى حيان، المعادل الرمزى للوجود الحى، وهو الكتب، ولم تقض على الحضور الحى لذلك الوجود الذى ينطوى على إمكان الكتابة الجديدة. وغسل الماء صحائف الأوراق فى بعض هذه الكتب فمحا حبر الكتابة، ولكن ظلت الصحائف المغسولة نفسها منتظرة تحبيرها من جديد. ولولا ذلك ما قرأنا الرسالة حمالة الأوجه التى كتبها أبو حيان إلى القاضى أبى سهل على بن محمد، شارحاً له الأسباب التى دفعته إلى إحراق كتبه.

وكان القاضى أبو سهل كتب إليه يعذله على صنيعة حين أحرق كتبه، ويبصره بقبح هذا الفعل وشناعته، فكتب إليه أبو حيان كتابة مرواغة، حسبها ياقوت الحموى اعتذاراً، لكنها فى واقع الأمر إدانة للعصر وسخرية مبطنة من قاضى ذلك العصر الذى لم يدرك أبعاد المسألة التى انتهت بإحراق الكتب. وتوهم السخرية إلى نفسها فى عبارات أبى حيان التى تعجب من انزواء وجه العذر عن القاضى فيما اقترفه أبو حيان، كأنه لم يعلم أنه لا ثبات لشيء فى الدنيا، وأن كل شئ هالك إلا وجهه، وأن نهاية كل شئ إلى زوال. والمسكوت عنه فى هذه السخرية هو التعريض بما لدى القاضى وأمثاله من نقيض الكتب، أعنى الثروة التى تكدست فى أيدي الجهال، وحرَم منها أمثال أبى حيان، فى مفارقة الحياة التى وصفها أبو سليمان المنطقى (أستاذ أبى حيان) بقوله إن العلم والمال كالضربتين لا يجتمعان، لأن الأول من قبيل القوة العاقلة والثانى من قبيل القوة الشهوانية، ولا شئ يبقى من قبيل القوة الثانية بينما البقاء للأولى، ما ظلت قائمة فى الصدور، عامرة بها العقول والنفوس. ومازال فى صدر أبى حيان وعقله ونفسه الكثير، فيما يقول صراحة للقاضى فى رسالته إليه، مؤكداً أنه لا يزال ينطوى، مما يحتاج إليه الناس، على ما يملأ القرطاس بعد القرطاس.

ويمضى أبو حيان فى رسالته إلى أبى سهل، قائلاً إنه لم يحرق كتبه إلا بعد أن فكر فى الأمر طويلاً، واستخار الله عز وجل أياماً وليالى، فانتهى إلى ما فعل، غير هيب ولا متردد، خاصة بعد أن أدرك أن العلم يراد للعمل، والعمل يراد للنجاة؛ فإذا كان العمل قاصراً عن العلم، كان العلم كلاً على العالم ومحنة له. وأبو حيان ممن يستعيز بالله من علم يعود كلاً على صاحبه، ويورثه ذلاً، ويصير فى رقبته غلاً. وهذا ضرب من الاحتجاج المخلوط بالاعتذار، فيما يقول التوحيدى متابعاً احتجاجه (غير الاعتذارى) بقوله إن الكتب التى أحرقها حوت من أصناف العلم سره وعلايته. أما السر من العلم، أو المضمون به على غير أهله، فلم يجد له من يتحلى بحقيقته رغباً. وأما المعلن من العلم فلم يصب من يحرص عليه طالباً.

ويواصل أبو حيان السخرية من القاضى، ومن نفسه فى الوقت نفسه، كما لو كان يؤدى فعلاً من أفعال الإدانة للنفس فى موازاة الإدانة للآخرين، مؤكداً أنه جعل أكثر كتبه التى توجه بها إلى الناس لطلب المثالة منهم، ولعقد الرياسة بينهم، وللد الجاه عندهم، فحرم ذلك كله، كما حرم من الولد النجيب، والصديق الحبيب، والصاحب القريب، والتابع الأديب، والرئيس المنيب، فعانى من الغربة التى تحدث عنها فى «الإشارات الإلهية» و«الصدافة والصديق» كما لم يتحدث معاصر له. وذلك أمر انتهى به إلى الضن بكتبه على من لا يعرف قدرها. وتساعد إحساسه بغربة كتبه على قراء عصره، كأن كتبه مرآته والوجه الآخر لحضوره القلق الذى وصفه حين وصف نفسه بأنه غريب الحال، غريب اللفظ، غريب النحلة، غريب الخلق، مستأنس بالوحشة، قانع بالوحدة، معتاد للصمت، ملازم للحيرة، يائس من جميع ما يرى. هذا اليأس هو الذى قاده إلى تدمير كتبه بنفسه قبل أن يدمر الآخرون قيمتها ابتذالاً واستهانة، حين يضعونها فى غير موضعها، أو يستخدمونها فى غير ما وضعت له، أو

حين يتلاعب بها أخساء يدنسونه عرضة إذا نظروا فيها، ويشنعون على غلظه وسهوه إذا تصفحوها، مبرزين نقصه وعيبه إذا تحدثوا عنها. وكيف يترك أبو حيان كتبه لأناس جاورهم سنوات طوالاً فيما يقول، فما صح له من أحدهم وداداً، ولا ظهر له من إنسان منهم حفاظاً. ولقد اضطر بينهم بعد الشهرة والمعرفة في أوقات كثيرة إلى أكل الخضر في الصحراء، وإلى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة، وإلى تعاطي الرياء بالسمعة والنفاق، وإلى ما لا يحسن بالحر أن يرسمه بالقلم، وي طرح في قلب صاحبه الألم.

وفي الكلمات السابقة من الاعتراف بدخيلة النفس ما يمزج بين إدانة الأنا وإدانة الجماعة، في استبطان ذاتي ينعكس عجزه على صدره، على نحو يؤكد أن انحذار الأنا مفروض عليها من الجماعة، وهوانها على نفسها ناتج من هوانها على الناس، فلم تجد خلاصاً سوى تدمير الوسيلة التي أفضت إلى اليأس من الناس، وهي الكتب التي كانت صليب أبي حيان وعذابه المظني وسر شقائه وتعاثه.

وفي هذا السياق، يتحول القاضي أبو سهل إلى مجلى مراوغ لما هو مسكوت عنه في المعلن من الرسالة، خاصة حين يقول له التوحيدى: «حسرت منك ما أضعت منى، ووفيت لك بما لم تف به لى... ولو علمت فى أى حال غلب على ما فعلته، وعند أى مرض وعلى أية عسرة وفاقة، لعرفت من عذرى أضعاف ما أبديته، واحتججت لى بأكثر مما نشرته وطويته». وما طواه أبو حيان فى رسالته هو علاقة المجاورة التى تصل بين القاضي أبى سهل والآخرين الذين فرضوا عليه ما انتهى إليه، فبادلهم فعلاً بفعل، واستبدل بالأمل فيهم اليأس منهم، وبالتوجه إليهم بالكتب إحراق الكتب التى تصله بهم، وذلك فى فعل الرغبة الساعية إلى الخلاص باليأس.

وغير بعيد عن هذا السياق ما يوجهه أبو حيان إلى القاضي أبى سهل، على سبيل الالتفات البلاغى، قائلاً له: «إن أحوال الزمن بادية لعينك، بارزة بين مسائلك وصباحك»، كما لو كان يقول له إنه يتعاضى عن قبح زمنه، أو يتجاهل هذا القبح، لأنه بعض الزمن الذى انحدر به. وما كان يليق بالقاضى أن يلوم أو يدين، فالأولى به أن يفهم ويدرك، مادام لم يمد يد العون أو يبسط جناح الأمل. وعلى أية حال، فلم يعد التوحيدى فى حاجة إلى مثله، فقد كتب رسالته وهو فى عشر التسعين، ولم يعد له بعد الكبر والعجز أمل فى حياة لذيدة. وقد زاده فقد من فقد من الإخوان والأخذان عظة، ومن سبقه من اليائسين فى عصورهم قدوة. ولا يترك أبو حيان القاضي دون أن يكمل السخرية منه، فيقيس الحاضر الشاهد من فعله على الغائب السابق من أفعال سلفه، متظاهراً بالتقليد الذى لم يكن يؤمن به فى نزعة العقلية المتميزة، متواصلاً مع أشباهه الغرباء فى عصور سابقة عليه، فيقول إن أباً عمرو ابن العلاء دفن كتبه فى بطن الأرض فلم يوجد لها أثر. وطرح داود الطائى كتبه فى البحر. وجمع أبو سليمان الدارانى كتبه فى تنوز وأحماها فى النار قائلاً: والله ما أحرقتك حتى كدت احترق بك. ومزق سفيان الثورى ألف جزء من كتبه وطيرها فى الريح. وقال أبو سعيد السيرافى لولده: تركت لك هذه الكتب فإذا رأيته تخونك فاجعلها طعمة للنار.

والعجيب أن كتب الأخبار والتراجم تمر صفحاً على مثل هذه الأخبار، وكتابات المؤرخين تتجاهل هذه الوقائع، وكتب تاريخ الأدب والفكر التقليدية المعروفة تخادعنا عن أمثال تلك الأحداث الدالة كأنها ما وقعت، وكما لو كان مثقفو الماضى لم يعرفوا محنة الكتابة، ولم يكتبوا بنار الرؤيا التى تضيق عنها العبارة، ولم يغترب المتميزون منهم متوحدين ضائعين فى عصورهم، كأنهم علامة على الكتب التى تخون أصحابها، ودليل على الكتابة التى تحرق كاتبها قبل أن يحرق صفحاتها.

ولكن متى تخون الكتب صاحبها؟ ومتى يحترق صاحبها بها؟ ومتى تصبح الكتابة وطأة على الكاتب ومحنة؟ إنها أسئلة تفضى إلى رؤيا الواقع التى تضيق عنها العبارة، كأنها رؤيا القديس يوحنا المعمدان، وإلى الكلمات التى تتأبى على الكاتب وترواغه، وإلى الدنيا التى قد تبدو أقبح من وجه الميوزا، وإلى الواقع الذى يحوج صاحبه إلى ما أحوج التوحيدى، فى زمان تدمع له العين حزناً وأسى، وينقطع عليه القلب غيضاً وضنى وشجى، فيما يقول أبو حيان الذى لم يتردد فى إبلاغ القاضى، فى نهاية الرسالة، أن فى صدره مما يحتاج إليه الناس ما يملأ القرطاس بعد القرطاس إلى أن تنفى الأنفاس بعد الأنفاس، ولكن أكثر الناس لا يعلمون. وتلك عبارات تؤكد، مرة أخرى، الرغبة الملتبسة التى تنطوى على نقائص اليأس والأمل، وتؤكد إمكان تولد الحياة الجديدة للكتابة من رماد الحريق المدمر للكتب، وإمكان التسويد الجديد للصحائف التى غسل الماء ما عليها من أحبار، رغم عشر التسمين، ورغم أن البصر قد كل، واللسان انعقد، وملك الوسواس، وغلب اليأس من جميع الناس، ففى داخل التوحيدى، لحظة كتابة الرسالة، وفيما ينطقه نصها، الرغبة المشتعلة فى الانقطاع عن الناس والاتصال بهم، النفور من الكتابة وعشقها الذى لا يمكن أن يهجره الكاتب المبدع ما ظل فى صدره نفس يتردد.

وأحسب أن التوحيدى ظل معذباً بهذه الرغبة الملتبسة فى السنوات القليلة التى عاشها، منذ أن كتب رسالته إلى القاضى أبى سهل فى شهر رمضان سنة أربعمائة، إلى أن توفاه الله سنة أربع عشرة وأربعمائة من القرن الخامس للهجرة، فهدأت الرغبة فى نفسه، ولكن لتتوقد فينا، نحن الذين نقرأه عام ألف وأربعمائة وستة عشر، فنطرح على أنفسنا السؤال نفسه عن جدوى الكتابة التى يحترق صاحبها بها، فى عصر قاس وضنين، تتولد عنه ومنه وفيه الرغبة الملتبسة التى تعانى الموت والحياة فى آن.

وبعد

فهذا هو القسم الأخير من البحوث الخاصة بأبى حيان التوحيدى. ولا يسعنا، مع هذا القسم الأخير، سوى أن نشكر كل الذين أسهموا فى ألفية التوحيدى بالكتابة والمناقشة والحضور. وإذا كان الشكر واجباً لكل الإخوة والأصدقاء والزملاء فى وزارة الثقافة من الذين عاونوا فى إنجاز الألفية، عاطف منصف وحسين طلبة ومحمد غنيم وفريال صقر وفوزى فهمى ومحمود حجازى وحسين مهران وناصر الأنصارى وأحمد نوار وفاروق عبدالسلام، فإن الشكر أوجب للصديق سمير سرحان الذى أعان بالكثير، وقبل سعيدياً تخصيص أعداد ثلاثة من «فصول» لبحوث ألفية التوحيدى. والواقع أن هذه الألفية ما كان يمكن لها أن تتعقد بالصورة المؤثرة التى اتخذتها لولا الدعم والتوجيه والتشجيع الذى لقيته من الفنان فاروق حسنى وزير الثقافة ورئيس المجلس الأعلى للثقافة، فله شكر محبى التوحيدى فى كل مكان وتقديرهم. أما المثقفون من رجال الإعلام الذين كانوا نعم العون فلهم الشكر جميعاً، وللصديق جمال الغيطانى خالص عرفانى لكل ما فعل لإنجاح الألفية. أما أسرة تحرير «فصول» والمتحمسون لها من شباب الباحثين الواعدين فلولا حماسهم ما كانت هذه الأعداد الثلاثة.

وإلى لقاء.

رئيس التحرير

کلمات



التوحيدى: الرمز المضئ

فاروق حبنى*

ضيوفا الأعزاء، السيدات والسادة :

إن الذاكرة الحية للأمة هى بعض وعيها بالحاضر وحلمها بالمستقبل. ويتأكد دور هذه الذاكرة فى الإبداع الذى يتأسس بقيم الحق والخير والجمال، ويتأصل بتقاليد الحرية التى لا تعترف بالحدود أو القيود، ويزدهر بتطلع العقل والوجدان إلى استنارة بلا ضفاف. وأبو حيان التوحيدى الذى نحتفل بمرور ألف عام على ذكره أحد العناصر المضيفة فى الذاكرة الحية للأمة العربية، سواء فى تأكيده الدور التنويرى للمثقف، والإنجاز الإبداعى للفنان، والإسهام الفكرى للفيلسوف. إنه فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة كما وصفه المؤرخون القدماء والمحدثون، وكما وصفه المتحدثون السابقون، ولكنه فى الوقت نفسه الفنان المرفه الحس، والمبدع المتوحد الوجدان، وعالم الجمال الذى وصل بين الخط واللون، والنغمة والكلمة، وأدرك العلاقة بين الكتلة والفراغ.

السيدات والسادة :

إننا نتبنى فى وزارة الثقافة استراتيجية الاستنارة التى تعمل على إشاعة القيم الخلاقة للعقل والوجدان، وتسهم فى تحرير فكر الإنسان العربى فى كل مكان، أملا فى انتقال هذا الإنسان من مستوى الضرورة إلى مستوى الحرية،

* وزير الثقافة المصرى.

ومن وعى الحاضر إلى وعى المستقبل. وتراث أبى حيان الحى يؤكد هذه القيم، ويرز دور المثقف الذى يتعمد على جمود مجتمعه ليدفع به إلى الأفق اللانهائى لأشواق الإبداع.

وها هو أبو حيان التوحيدي يجسد هذا الأفق، حين يجمع بين المثقفين العرب من مختلف الأنظار العربية، مؤكداً معنى رائعا من المعانى القومية، كما يجمع المثقفين العرب وأقرانهم من أنحاء العالم، مبرزا معنى جليلا من معانى الإنسانية. ونحن نؤمن أن الإنسانية هى الوجه الآخر للقومية، وأنهما جناحا الحلم الإبداعى الذى يصلنا بالتوحيدي، ويدفعنا إلى أن نعيد اكتشافه، كى نلقى الضوء على المعنى المعاصر لإيجازه والدلالة المستقبلية لكتابات.

السيدات والسادة :

لقد أقامت وزارة الثقافة فى الشهر الماضى مهرجان المسرح التجريبي الذى التقى فيه المبدعون من مختلف دول العالم ليؤكدوا المغامرة الخلاقة للإبداع المسرحى، وأقامت دار الأوبرا المصرية مهرجان الأغنية فى قلعة الناصر صلاح الدين لتصل الماضى الإبداعى بالحاضر المتغير، وطبعت الهيئة المصرية العامة للكتاب مكتبة الأسرة التى تقوم بتوصيل كتب الاستنارة إلى كل بيت مصرى، وافتتحنا منذ أيام قليلة متحف محمد محمود خليل، صرحا فنيا رفيعا، يضاف إلى صروحنا الثقافية. وسوف تنعقد جلسات مؤتمرات فى مكتبة القاهرة الكبرى التى افتتحناها منذ أشهر، مع مكتبة مبارك الكبرى، تأسيسا لضرورة القراءة، وتأسيسا لمعنى من معانى الاستنارة. وكان ذلك هو دافعنا إلى إنشاء عشرات المكتبات الجديدة فى القرى المصرية بدعم من صندوق التنمية الثقافية. واحتفينا بالفنون الشعبية التى أقامت لها الثقافة الجماهيرية مهرجانا مهما فى مدينة الإسماعيلية، وأقام لها المجلس الأعلى للثقافة ملتقى قوميا فى العام الماضى، كما احتفينا بالجديد الواعد من الإنتاج المسرحى والسينمائى، وقدمنا له الدعم المادى والمعنوى. ولقد ابتدأنا نظاما جديدا لتفرغ المثقفين، كى نوفر لهم ما يعينهم على الإبداع الحر، وأنشأنا أكثر من جائزة جديدة لتشجيع الإبداع الشاب، وتنشيط التأليف والترجمة فى كل المجالات.

وقد قمنا بتطوير العمل الأثرى وصيانة الآثار المصرية والإسلامية بما يليق بمكانتها. ووضعنا دار الكتب المصرية على طريق المستقبل. وبعد أسابيع، نفتح متحف أحمد شوقي والمركز الجديد لدراسات الإبداع، ومتحف طه حسين ومركزه الثقافى الجديد. وقد تعددت ندوات المجلس الأعلى للثقافة ومؤتمراته ومطبوعاته بما يؤكد استراتيجية الاستنارة التى جعلنا منها هدفا ومبدأ للفعل.

وقد خطونا الخطوة الأولى فى تنفيذ المشروع القومى للترجمة، كى نزيل الفجوة الهائلة بين القارئ العربى والمصر الذى يعيش فيه. ونستعد لعقد مهرجان الموسيقى العربية ومؤتمرها الرابع فى أول الشهر القادم، تأكيداً لوحدة الفنون، ودعما لقيم الإبداع.

والواقع أننا نعمل بلا توقف، وبروح الفريق، فى كل مجالات العمل الثقافى، كى نقوى شعلة الإبداع فى القاهرة، ونمتد أنوار الاستنارة إلى كل شبر من أرض الوطن، ونشع ضوءها فى كل بقعة من بقاع الوطن العربى الكبير، أملا فى ثقافة عربية جديدة واعدة، ثقافة لا تتنكر لذاكرة الأمة، وتبدأ من الواقع لتصوغ أحلام المستقبل، مؤمنة بالحوار بين التيارات المختلفة، إيمانها بالحوار بين مختلف الأجناس والقوميات والتيارات فى كل مكان من عالمنا المعاصر الذى يقترب من بداية القرن الحادى والعشرين.

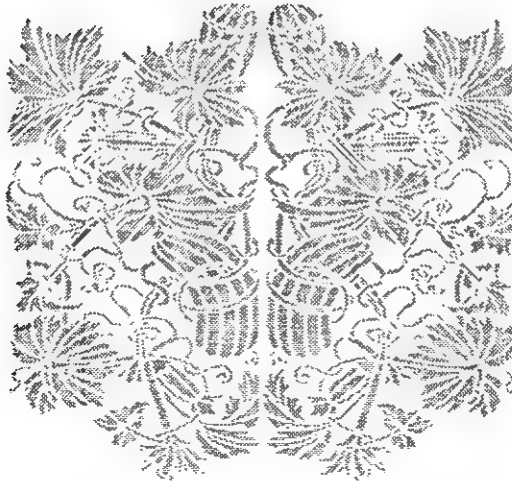
وأحببكم تتفقون معى على أننا، حين نحتمى بذكرى أبى حيان التوحيدي، فى هذه الأيام المجيدة من شهر أكتوبر العظيم، فإننا نحتمل بالقيم المنتصرة فى ثقافتنا العربية، ونزود من الماضى بما يدفعنا إلى المستقبل، ونأخذ

من التراث ما يؤكد دورنا الفاعل فى التاريخ، فنحن لا نتطلع إلى الماضى إلا بما يدفع إلى المستقبل، ولا نأخذ من تراثنا إلا ما يكون سندا لنا فى الغد.

السيدات والسادة :

اسمحوا لى، فى النهاية، أن أرحب بكم جميعا فى الاحتفال بأبى حيان التوحيدى؛ ذلك الرمز المضى الذى يجمع العرب جميعا، ويصلهم بكل أبناء المعمورة الإنسانية، فى مسعى الجمال الذى يظل فى حاجة إلى الكشف. وأتمنى لأنشطة الاحتفال ومؤتمره العلمى كل النجاح، ولكم جميعا حوارات ثرية وأفكارا إبداعية جديدة. واسمحوا لى، أخيرا، أن أرحب بكل المثقفين المبدعين الذين يشرفون هذا الاحتفال، والذين تجشموا عناء السفر، واقتطعوا من وقتهم ما منحوه لأبى حيان معنى وقيمة، وقدموه لنا علما وإبداعا.

والسلام عليكم ورحمة الله.



مؤثرات فى حياة أبى حيان وأدبه

شوقى ضيف*

السيد وزير الثقافة، الأصدقاء الباحثون، السيدات والسادة.

إن المجلس الأعلى للثقافة جدير بالشكر لعقده هذه الذكرى الألفية لأديب عربى فذ، يعد عنوانا دقيقا لثقافة قرن بأكمله فى تاريخ التراث العربى، هو أبو حيان التوحيدى المرأة الناصعة لثقافة القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى. وقد عنيت مصر - منذ العشرينيات من هذا القرن - بنشر كنوز نفيسة من أعماله. ومصر - من قديم - تعنى عناية كبرى بحقوق التراث العربى للأمة وحقوق أعلامه وتحقيق ذخائره ونشره لما له من تأثيرات عميقة فى كيان الأمة وحياتها؛ إذ هو ماضيها الثقافى والدينى والفكرى الذى عاشته قرونا متعاقبة متطاولة، والذى تتفاعل معه لغدها المنتظر وما تأمل فيه من استعادة دورها الحضارى التاريخى.

ولقد عملت مؤثرات عامة مختلفة فى حياة أبى حيان وأدبه؛ ومن أهم هذه المؤثرات تغلغل الثقافة العربية فى الطبقات الشعبية بمجتمع ييشته: بغداد فى القرن الرابع الهجرى، وقد أعدت لذلك عوامل مختلفة فى مقدمتها المساجد؛ إذ لم تكن فى القرون الماضية بيوتا للعبادة والصلاة فقط بل كانت أيضا معاهد مفتحة الأبواب لتعليم أبناء الأمة من جميع الطبقات، وكانوا يتحلّقون حلقات مختلفة حول الأساتذة. وكان أبناء العامة مثل أبناء الخاصة يحملون من هذه الحلقات ما يروقههم: من ألوان المعرفة والثقافة.

* رئيس مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

وعامل ثان عمل على تغلغل الثقافة العربية في الطبقات الشعبية هو وجود مكتبات عامة في بغداد، يختلف إليها الشباب والشيوخ، ويتزودون منها بما يريدون مما قرأوه في كتب الأدب واللغة أو كتب الدراسات الدينية أو كتب العلوم من كل صنف أو كتب الفلسفة أو دواوين الشعر. وعامل ثالث هو نشاط الوراقة والوراقين ببغداد حينئذ، وكان لحوانيتهم سوق كبيرة تباع فيها الكتب، وكان يؤمها الشباب والشيوخ ليشترروا منها ما يريدون من مخطوطات الأدب والعلوم والفلسفة. وكان الوراقون يقومون في بغداد مقام أصحاب المطابع والمكتبات في عصرنا، وكانوا يعرضون مخطوطات لمئات الكتب بل لآلافها، ونرى ابن النديم المعاصر لأبي حيان يحاول إحصاء الكتب لعصره في كتابه (الفهرست).

وهذه العوامل المختلفة التي أثرت في الثقافة العربية ببغداد حينئذ، جعلتها لأبناء العامة والخاصة على السواء قوتاً يومياً وغذاء شهياً انضم إليها مؤثر سياسي أثر في مجتمع بغداد عاليه ودانيه آثاراً سيئة، فقد حكم بغداد وإيران الحكام البويهيون، وتميز عهدهم بكثرة الحروب. وفي الحروب دائماً تختل أحوال البلاد على نحو ما اختلت أحوال بغداد إذكثر فيها نقص أغذية الشعب، كماكثر ارتفاع الأسعار، وجر ذلك إلى ثورات في بغداد نهبت العامة فيها الدور وما كان فيها من متاع ونقد وأثاث ورياش، وكان من بينها دار أبي حيان. ووافق هذا المؤثر السياسي مؤثر أخلاقي، فإن الحروب وارتفاع الأسعار جعلت المعيشة في بغداد قاسية فاختلفت الموازين وساءت أخلاق الناس وقل بينهم صديق مخلص أو من يشبه بالصدق. وكل ما ذكرت من مؤثرات في مجتمع بغداد كان له آثار بعيدة الغور في حياة أبي حيان وأدبه؛ إذ كان من أبناء الطبقات الشعبية الذين أتيح لهم عن طريق المساجد وحلقاتها المتعددة أن ينهلوا ويرتووا من أساتذة مختلفين في الدراسات الدينية واللغوية والفلسفية، مما كان له تأثير واسع في أدب أبي حيان؛ إذ جعله أديباً موسوعياً بحكم أنه ثقف معارف عصره الفلسفية والصوفية والبلاغية واللغوية والإسلامية، واستوعبها وتمثلها كأروع ما يكون التمثل والاستيعاب. وكان ذكياً ذكاءً حاداً فأضاف إليها مالا يكاد يحصى من ملاحظات وآراء في الفلسفة والإلهيات والأخلاق والعقل والنفس والروح. وأبو حيان لا يمثل الطبقات الشعبية في تغلغل الثقافة العربية في نفسه وعقله وتحوله بها إلى أدب موسوعي خصب فحسب، بل هو يمثلها أيضاً شاباً من أبناء عامتها الذين كان يحف بمبعثتهم الشظف والضنك، ومع ذلك يصعدون إلى ذروة ثقافية فكرية لا يلفها نظراؤهم من أبناء الطبقة المترفة. وهي ظاهرة عامة في العصر العباسي؛ أن الذين قادوا فيه الحركات الثقافية والأدبية والعلمية كانوا من أبناء الشعب، وكثير منهم كان من الطبقة العامة التي لا تعرف شيئاً عن رغد العيش وصفوه.

ومن المؤكد أن أبا حيان زار المكتبات العامة مراراً واقتنى منها كثيراً من معارفه؛ بحيث كانت رافداً مهماً من روافد ثقافته الموسوعية، وجذبه - منذ شبابه - حرفة الوراقة لارتفاع عائدها، مما جعل بعض كبار العلماء والأدباء البغداديين يتخذها وسيلة لعيشه هو وأسرته، وكانت من أكبر الأسباب في اتساع ثقافته بل في استحالتها ثقافة موسوعية.

وقد أفاد أبو حيان من الوراقة فائدة كبرى لا تقدر بمال؛ إذ جعلته يتمثل بنسخه لكتب الجاحظ أسلوبه وخصائصه وأسراره تمثلاً رائعاً، وكان الجاحظ يستخدم في أدبه أسلوب المزج. وخلق هذا الأسلوب أبا حيان وملك عليه ذات نفسه، فانفصل عن موجة السجع التي عمت في كتابات الأدباء. واستطاع بحق أن يصل بهذا الأسلوب المزج إلى الذروة التي كان ينتظرها وما يطوى فيه من الترادف والتقطيع الصوتي البديع ومن توليدات وتفرعات للمعاني وتلوينات عقلية رائعة.

ونرى أبا حيان في سنة ٣٥٥ راحلاً إلى مدينة الري بإيران للقاء ابن العميد الكاتب المشهور وزير عضد الدولة البويهى، ويبدو أنه أراد أن يحاكي المتنبي في رحلته إليه قبل ذلك بنحو سنتين، فيغدق عليه الأموال كما

أغدقها على المتنبي. وقد عاد من لدنه خالي الوفاض إلى بغداد وإلى الوراق، وتقع له كارثة كبرى من فساد الحكم البويهى هى نهب العامة لداره وطلب كل ما كان بها من أثاث وثياب، كما أخذت كل ما كان بها من ذهب ادخره أبو حيان من الوراق. وملأت هذه الكارثة نفسه حسرة ولوعة، ودفعته إلى أن يعيد الكرة للقاء وزير لعله يتاح عنده ما يتاح لبعض الأدباء والعلماء الذين يفدون عليه ويجزل لهم فى العطاء. وكان ابن العميد قد توفى وخلقه ابنه أبو الفتح فى الوزارة فوجد عليه وكان مشغولا ولم يلبث أن توفى سريعا، وخلقه صاحب ابن عباد فعرض عليه خدماته، ولم يعرف له قدره، ولقى أبو حيان منه عنتا شديدا فبارحه ساخطا غاضبا، وانتقم منه ومن ابن العميد قلة بكتابه: (مثالب الوزراء).

وكأنى بأبى حيان لم يكن يعرف بدقة مكانته الأدبية ومالها من حقوق عليه، فسمع لنفسه أن يتبذلها وأن يقف بباب ابن العميد والصاحب ابن عباد، منتظرا منهما عطاء جزيلًا وكان - لو فكر فى أدبه الرفيع - أكبر منهما ومن أى عطاء.

وعاد أبو حيان إلى بغداد سنة ٣٧٠ وإلى الوراق، وأخذ يشكو شكوى مرة من البؤس والظنك والحرمان، وأشفق عليه صديقه: مسكويه وأبو الوفاء المهندس، أما مسكويه فألف معه كتاب (الهوامل والشوامل) ليسرى عنه ما به من حزن وهم.

وأما أبو الوفاء المهندس فإنه وصله بابن سعدان أحد كبار رجال الدولة البويهية، وعلم أن أبا حيان يفكر فى تأليف كتاب عن الصداقة والصديق، فحثه على إنجازها وأصبح ابن سعدان وزيرا لسمصام الدولة البويهى حاكم بغداد من سنة ٣٧٣ إلى سنة ٣٧٥ ويتخذ له منتدى ليليا، كان يختلف إليه أعلام الفكر والثقافة فى بغداد، وجعل أبا حيان واسطة عقده ومدير الحوار فيه، وقد ألف لصديقه أبى الوفاء المهندس كتابا سجل فيه الحوار الفكرى بهذا المنتدى فى أربعين ليلة من ليلائه، سماه (الإمتاع والمؤانسة) فى ثلاثة أجزاء، ويستمع صمصام الدولة فى سنة ٣٧٥ إلى وشايات كيدية كاذبة عن وزيره ابن سعدان فيفتك به. وتلق أبواب هذا المنتدى وما كان فيه من حوار فكرى خصب. وتظلم الدنيا فى عين أبى حيان إلا ما كان من شعاع ظل بضئ فى منتدى أبى سليمان المنطقى السجستاني المتفلسف وظل يختلف إليه. وسجل ما كان يدور فى هذا المنتدى من حوار فلسفى وفكرى خصب فى كتابه (المقابسات).

ونمضى مع أبى حيان فى الربع الأخير من القرن الرابع الهجرى حتى نهايته، ونراه يشكو بمرارة من الفساد الخلقي المستشري حوله وما يضغط منه على صدره ونفسه. وليس له ولد يسليه ولا صديق مخلص يواسيه. ويعيش وحيدا فريدا غريبا عن مجتمعه وناسه، ويصف هذه الغربة الموحشة فى كثير من صحف كتابه الأخير (الإشارات الإلهية) وصفا بديعا. والكتاب مناجيات وأدعية وابتهاالات لرب الكون ومدبره، وهو من فرائد أبى حيان وإبداعه الرائعة.

وفى ختام كلمتى أحىى تحية مخلصة الأصدقاء الباحثين من مصر والأقطار العربية والعربية، ويفضلهم جميعا سيعود أبو حيان إلى الحضور الخالد فى الحياة الأدبية العربية، وسيظل يشغل فيها مكانة عليا رفيعة. وأنا باسم الباحثين المصريين أشكر حضراتكم جميعا وأشكر ضيوفنا الباحثين راجيا لهم طيب الإقامة بيننا فى بلدهم الثانى مصر.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

التوحيدى معاصراً لنا

إحسان عباس*

السيد وزير الثقافة... أيها الحفل الكريم.

لم يجد أبو حيان التوحيدى إنصافاً فى عصره، وظل محروماً من هذا الإنصاف على مدى قرون عدة، حتى إذا كان عصرنا بدأت منزلة أبى حيان الأدبية تتضح لدى الدارسين، حينئذ أخذ إحياء كتبه يضع بين أيدي أبناء عصرنا صورة لأديب كبير ذى جوانب ثقافية وعلمية وأسلوبية فارقة، وأخذت الدراسات تظهر تباعاً حول شخصه وأدبه ومميزاته، وما هذا المؤتمر الذى يقام لأبى حيان اليوم إلا حلقة كبيرة من حلقات التقدير لمكانته الأدبية وتراثه المتنوع. لهذا أرجو أن تسمحوا لى بشكر الذين قاموا بتنظيم هذا المؤتمر باسم جميع المشاركين فيه. وإن عقده فى القاهرة عاصمة الثقافة العربية الإسلامية فى الحاضر والماضى ليمثل ملتقى لإعزازنا ولإكبارنا للمنبع الثقافى الذى وردناه جميعاً، فإلى القاهرة الأم العظمى نرفع جميعاً تحياتنا وتقديرنا، وإلى أساتذتنا وأصدقائنا فى ربوعها العامرة نقدم تحية الود والإكبار والاعتراف بالفضل الكبير، وإلى المجلس الأعلى للثقافة كل الشكر والعرفان.

لقد ملك أبو حيان إعجابى وأنا لا أزال على مقاعد الدراسة، طالباً، فحرصت على أن أقرأ كل ما وصلنا من مؤلفاته، وماتزال صداقتى لأبى حيان ناضرة كأول عهداها، وأنا أعتقد أن روح أبى حيان اليوم ممثلة إعجابا بهذا اللقاء، وأن تلك الروح نفسها نادمة على أن صاحبها - فى لحظة ثورة على النفس وعلى الناس - ألقى كتبه فى

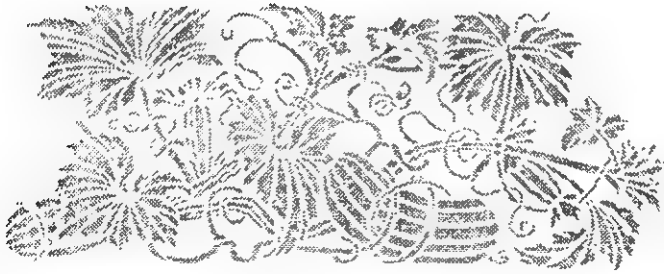
* أستاذ الأدب العربى، ناقد، باحث متفرغ.

النار، ولكنى أستدرك فأقول إن حرق تلك الكتب كان احتجاجاً على توجه النشر العربي في طرق حاطقة، وأن الأمر لو كان إلى لعددت ساعة حرق الكتب، بداية الحداثة في تاريخ النشر العربي.

إننا اليوم حين نلتقي - في هذا المؤتمر - إنما نكرم كاتباً حديثاً معاصراً لا يفصلنا عنه إلا ظواهر استدعاها تعبير بعض المفهومات الأدبية، وتمايز الأنواع الأدبية فيما بينها. لقد كان أبو حيان أديباً معاصراً لنا، لأن فكره كان شديد التفاعل بمشكلات عصره التي يمثل قسم منها مشكلات عصرنا. كان يختلف قليلاً عنا لانشغال جاب من فكره بالقضايا الميتافيزيقية، وكانت تلك القضايا تلجته في بحث الإجابة عنها إلى فريقين؛ فريق الغلاسة وفريق المتكلمين، ولكن كثيراً من القضايا الأخرى كانت حياتية تتطلب علماء اجتماع وآخرين متخصصين في النواحي العملية من الحياة.

وكان أبو حيان أديباً معاصراً لنا حين حاول أن يرفع مستوى حرية الأدب والمفكر في التعبير، وكان أديباً معاصراً لنا حين يتناول أية مسألة أدبية، وكان من خلال دراسته لكل ما يجد من تأليف مواكبة لثقافة عصره في تنوعها، إن الحصانة، التي نَجدها لدى أبي حيان في المصادر التي يعتمد عليها والذوق الرفيع الذي يصاحبه في اطلاعه على مختلف ميادين الأدب، ليقدّم لنا ناقداً دقيق التحسّس للجميل في كل ما يقرأه أو يختاره، هذا إلى حسن عجب في الدقة اللغوية.

لقد بنى أبو حيان لنفسه أسلوباً شديداً الإشراق جميل الإيقاع، ولو استطاع أن يتنازل عن هذا الأسلوب، لقدّر له أن يمارس الكتابة المسرحية، لقد كان ماهراً في تصوير الشخصيات، ولكنه لم يستطع أن يمايز بينها في طريقة التعبير، فجاء الحوار لدى شخصياته من مستوى واحد، هو مستوى أبي حيان، لا مستوى التفاوت الاجتماعي في واقع الحياة.



ثلاث نقاط

ميجيل كروت هرناندت*

السيد الرئيس، أصحاب السعادة، السادة أعضاء المؤتمر، سيداتي، سادتي.

بحكم السن، لا العلم، وباسم أعضاء المؤتمر من غير الأمانة العرب، تحية للجميع، أعبر عن شكرنا العميق للمسؤولين عن الأنشطة الثقافية في مصر، وخاصة للمجلس الأعلى للثقافة المنظم لهذا المؤتمر الذي أتاح لنا الفرصة لتبادل المعارف والأفكار.

وكما هو معروف فإن أبا حيان التوحيدي يعد نموذجا وعلامة على الدور التاريخي للحضارة العربية الإسلامية. وهذا ما سيشتغل مؤتمرننا طيلة انعقاده. لذلك فإنني سأشير فقط إلى ثلاث نقاط: تنظيم العلوم والمعارف التي يتضمنها العمران والحضارة، الدور الجوهري للغة الكتابة في توليد وتنمية هذه الحضارة، والدور المركزي لمصر في الثقافة العربية الإسلامية.

وفيما يتصل بالنقطة الأولى فحسبنا أن نتذكر نص ابن خلدون:

«إن العرب على ما اعتادوا عليه من بساطة الحياة البدوية، لم يشتغلوا أبدا بالفنون، لكنهم عندما أقاموا دولتهم وحكمهم وألفوا الحياة المدنية المستقرة بلغوا درجة عالية من الحضارة لم يبلغها شعب من

* أستاذ تاريخ الأدب العربي والترجمة، جامعة مدريد، إسبانيا.
ترجمة: صلاح فضل، ناقد مصري، أستاذ النقد الأدبي،
كلية الآداب، جامعة عين شمس.

قبلهم. وعندما أخذوا في إتقان المعارف والفنون والآداب بكل فروعها رغبوا في معرفة العلوم الفلسفية لأنهم كانوا قد سمعوا عنها من الكهنة والقسيسين الذين بشروا بها بين أهل القبائل ولأن النفس البشرية تنزع بالطبيعة إلى معرفة هذه العلوم».

وبوسعنا أن نقول إن جزءا كبيرا من المعارف القديمة المشار إليها يتعلق على وجه التحديد بتراث مدرسة الإسكندرية. وهكذا فإن العالم العربي الإسلامي أخذ في تنمية الحضارة منطلقا من أساسين كبيرين؛ هما العلوم النقلية والعلوم الوضعية من ناحية والعلوم الحكمية والفلسفية من ناحية أخرى.

وفيما يتعلق بالمظهر الثاني، فإن التوحيدى قد أكد بشكل قاطع أهمية الكتابة بالنسبة إلى الحياة المدنية المنحصرة. ولنتذكر أن الحضارة مشتقة من «الحضر» وهو مكان حياة الثمدن المستقر وتعود إلى الجذر اللغوى نفسه.

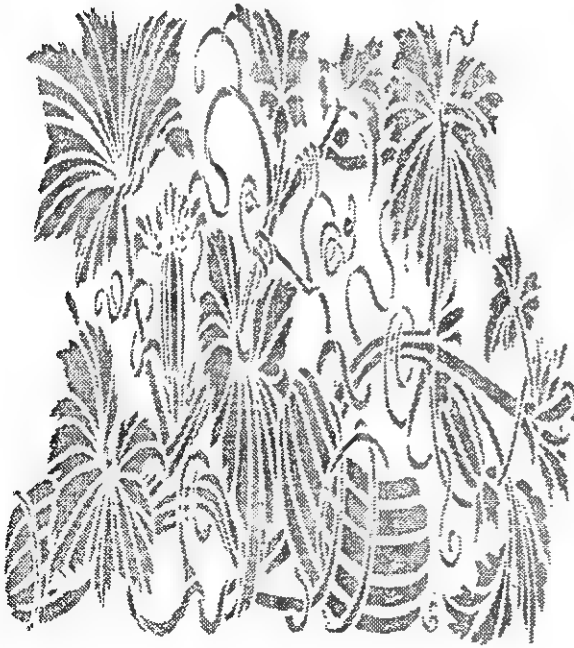
أما المظهر الثالث الذى أود الإشارة إليه، فهو الدور المركزى لمصر من الناحية الاستراتيجية جغرافيا وثقافيا، كما أوضح ذلك المؤلفون فى العصور الوسطى، وجلاء جمال حمدان بعلمه الغزير.

علينا، إذن، أن نشكر هذه الفرصة التى أتاحها لنا منظمو هذا اللقاء هنا، ليجتمع عشاق المعرفة والثقافة العربية الإسلامية.

فإليهم أصدق الشكر

أعانهم الله

إنه هو الحكيم العليم.



دراسات



مفهوم الإنسان عند أبي حيان التوحيدي

عاطف العراقي*

بين الأفكار التي قال بها في مجال التفاؤل ومجال التشاؤم، وتحليل العديد من الظواهر النفسية، كأنه عالم نفسى، وبين الأساتذة الذين استفاد منهم، والمفكرين الذين عاشوا بعده. ونذكر من السابقين والمعاصرين واللاحقين: على أبو سعيد السيرافى، وأبو الحسن على بن عيسى بن عبدالله الرمانى، وأبو بكر محمد بن على القفال بن إسماعيل، وأبو الحسن العامرى، وأبو سليمان بن طاهر السجستانى، وابن سينا، وأبو العلاء الممرى، وكتاب (رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء).

لقد كان الرجل شعلة نشاط، لا يكل ولا يمل، دائم القراءة، والقراءة الفاحصة الواعية. إنه يذكرنا بالجاحظ، وهو نفسه كان دائم الإعجاب بفكر الجاحظ فى كثير من الجوانب والآراء والاتجاهات.

ولابد أن نضع فى الاعتبار أن فكر التوحيدي، ورأيه فى مجال التشاؤم بصفة خاصة لا يمكن فهمه ولا تبريره، إلا إذا

تكشف ثقافة التوحيدي عن تأثيره بالعديد من المفكرين، وبالكثير من التيارات الفكرية التي كانت قائمة فى عصره. لم يكن مقطوع الصلة بمفكرى عصره، بل لقد تأثر بهم، ودخل معهم فى حوار فكرى فلسفى خلاق، بالإضافة إلى أنه قد استطاع أن يستوعب العديد من الأفكار التي قال بها مجموعة من الفلاسفة والمفكرين القدامى، وذلك بعد انتقال الفلسفة إلى المشرق العربى بفضل الجهد الذى قام به المترجمون فى العصر العباسى بصفة خاصة.

وهل يمكن أن ننسى أفكار العديد من أساتذته المباشرين وغير المباشرين. وإذا أردنا أن نتحدث عن فكره الفلسفى والأدبى عامة، وفكره فى مجال الإنسان بصفة خاصة، هل يمكن أن ننسى أوجه الاتفاق، وأوجه الاختلاف

* قسم الفلسفة، كلية الآداب، جامعة القاهرة.

وضعنا في الاعتبار الظروف التي عاشها. إننا نجد ذلك عند أكثر المفكرين الذين قالوا بالتشاؤم، أمثال ابن الرومي وأبي العلاء المعري وشوبنهاور الفيلسوف الألماني. لقد عاش التوحيدى طفولة محرومة من أنواع التعميم أكثره أو كله. كان عمه يكرهه - كما يقول التوحيدى - إذ كان يشكو من أنه يأكل فى كل يوم أربعة أرغفة. كان لدى التوحيدى شعور بالخيبة والخذلان، وبأنه ليس من أهل الدنيا التي لم تكن كريمة معه، وأيضاً ليس من أهل الآخرة، كما يرى.

ربما نجد عند التوحيدى نوعاً من الشعور بالانفصال عن العالم، ونوعاً من الحدة في ثورته على الأغيار. وقد يكون ذلك راجعاً إلى إسراره في لوم نفسه، ومقارنته بين أحوال الأذكىاء في عصره، وما هم فيه من فقر، وأحوال أصحاب المناصب وما هم فيه من غنى. فيروى التوحيدى على سبيل المثال أن أبا سليمان السجستاني قد عجز عن دفع إيجار منزله ورجة غذائه وعشائه، وأن السيرافي كان ينسخ في اليوم عشر ورقات بعشرة دراهم، وذلك لكي يتمكن من أن يعيش.

وبوجه عام، يمكننا القول بأن التوحيدى كان دائم الشكوى، حاد اللسان، وقد نجد في ذلك تناقضا بينه وبين كتاباته في مجال التصوف، خاصة حين يتحدث عن مقامات الخوف والرجاء والشكر والتوبة والزهد والمراقبة واليقين والطاعة والصبر والتواضع والرضا والتوكل والمحبة والشوق، وعن صفات العارفين والرياضات العملية والذكر والسماع والعزلة والخلوة. ولعل هذا هو الذى أدى به إلى أن يلوم نفسه على عدم إخلاصه في التوكل على الله، وكثرة حديثه عن أخلاق الصوفية دون الالتزام بها.

وحياة التوحيدى (الذى ولد حسب أرجح الأقوال عام ٣١٢ هـ، وتوفي عام ٤٠٣ هـ) تعد غاية في الغرابة. لقد كان يمانى - كما سبق أن أشرنا - من نوع من الغربة والحزن على أحواله، بل إنه قام بإحراق كتبه في أواخر عمره. وكم اختلفت الآراء حول حقيقة اعتقاده. فإذا كان ابن النجار يقول عنه: كان أبو حيان فقيراً صابراً متديناً، وكان صحيح العقيدة، فإن أبا الحسين أحمد بن فارس يقول عنه إنه كان قليل الدين والورع عن القذف والمجاهرة بالبهتان.

كما أن أبا الفرج بن الجوزى يقول عنه: زنادقة الإسلام ثلاثة: ابن الراوندى وأبو حيان التوحيدى، وأبو العلاء المعري.

الإشارة إلى حياة التوحيدى تعد، إذن، مسألة ضرورية لتبرير العديد من الآراء التي ذهب إليها. والواقع أن دارس أقواله وأحكامه على الناس، لا بد أن يشعر بنوع من المبالغة في وصف أحواله، خاصة إذا وضعنا في اعتبارنا أن ما حدث له يعد أقل بكثير من الأحداث التي حدثت للعديد من المفكرين قبله وبعده، وفي حياتهم وبعد مماتهم، وبسبب آرائهم التي قالوا بها. فسقراط قد قتل، والحلاج أيضاً، وابن باجه قد مات مسموماً في أغلب الظن، والسهيروردى قد قتل، وابن رشد قد تم نفيه فترة من الزمان، وابن عربى قام ابن تيمية بتكفيره.

من هذا المنطلق، يجب أن يكون حكمنا على التوحيدى وآرائه. لقد قدم لنا الرجل الكثير من الإيجابيات، وهذا ما لا نشك فيه. ولكن من الصعب أن نجد وحدة مذهبية تجمع آراء مفكرنا التوحيدى. ومن يحاول إيجاد نسق فلسفى للتوحيدى، فإن محاولته ستكون غاية في الصعوبة، بل مستحيلة. إننا نجد للرجل الكثير من الأقوال المتناقضة، بل اختلطت بعض آرائه بآراء أستاذه السجستاني، بحيث بات من الصعب أن نقول إن بعض ما نطالع فيه (المقاييسات) وفي (الإشارات الإلهية) وفي (الإمتاع والمؤانسة) هل هو رأيه، أم أن تلك الآراء هي آراء السجستاني وغيره من مفكرين تنمذ على أيديهم. بل إن أحكامه على (رسائل إخوان الصفا) وما فيها من أفكار لا تخلو من نوع من التحامل والإسراف في النقد دون مبرر، وذلك على الرغم مما تجده في (رسائل إخوان الصفا) من اهتمام كبير بالبعد الإنسانى التنويرى.

هذه مقدمة نراها ضرورية للدخول إلى عالم الإنسان عند أبا حيان التوحيدى. إنه يعد واحداً من المفلسفة، وإن لم يكن فيلسوفاً - كما سنوضح - بالمعنى الدقيق للكلمة الفيلسوف.

فلو رجعنا إلى الحياة الفكرية عند العرب، في جانبها الفلسفى، فإننا نستطيع التمييز بين مجموعة من الدوائر تدخل في إطار الفلسفة العربية؛ دائرة يمثلها أصحاب الفرق

ولعل هذا يعد سببا رئيسيا بين أسباب عدة وراء اهتمام أبي حيان التوحيدى بقضية الإنسان؛ فقد احتلت الأخلاق المكانة الأولى عند المتفلسفة، والمسائل العملية بوجه عام، وتقريب الفلسفة إلى الجمهور، كما أن الأديب بصفة خاصة قد يكون أكثر اهتماما بالجانب الإنساني من الفيلسوف، خاصة في العصور الوسطى. وإذا كان أبو حيان التوحيدى قد جمع - كما قلنا - بين الجانب الأدبي والجانب الفلسفى، فإنه كان متوقعا، إذن، الاهتمام من جانبه بالبحث فى قضية الإنسان، تماما كما نجد ذلك عند الجاحظ وعند أبي العلاء المعرى وغيرهما من الأدباء والشعراء.

وأهم ما نود أن نشير إليه، قبل أن نعرض بعض أفكار أبي حيان التوحيدى، أننا فى العصر الوسيط بوجه عام لا نجد فكرا يحلل قضية الإنسان بمعزل عن الجوانب الإلهية. نوضح ذلك بالقول بأننا إذا درسنا آراء المفكرين فى مجال قضية الإنسان، فإننا سنجد هذه الآراء قد امتزجت بدراسة القضايا الإلهية، بحيث تبدو الآراء الإنسانية والآراء الإلهية كالألوانى المستطرفة فى انفصالها واتصالها فى آن.

لقد درس التوحيدى الكثير من القضايا الإلهية التى ترتبط من بعض جوانبها بالبحث فى مشكلة الإنسان، وكم كان التوحيدى متأثرا بالثقافات التى سبقته، ومؤثرا بدوره فى بلورة العديد من الأفكار التى نجدتها عند من عاشوا بعده.

بحث التوحيدى بحثا مستفيضا فى المجالات التى تدخل فى إطار «الإنسان» ولا بد أن نشير إلى أن اهتمام التوحيدى بقضية الإنسان إنما كان مبعثه - كما سبق أن أشرنا - العصر الذى عاش فيه والبيئة التى نشأ فيها، وأيضا الذكاء الحاد والروح النقدية من جانبه. لقد عاش فى بيئة سياسية تسودها الفوضى، شهد فساد الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى دولة بنى بويه، ولم يرتض لنفسه الموقف السلبى، موقف المتفرج اليائس، بل حاول من جانبه الإصلاح.

يقول زكريا إبراهيم فى كتابه عن أبي حيان التوحيدى:

الإسلامية كالمعتزلة والأشاعرة والخوارج والشيعة. ودائرة ثانية يمثلها فلاسفة العرب فى المشرق العربى، كالكندى والفارابى وابن سينا وفى المغرب العربى كابن باجة وابن طفيل وابن رشد. ودائرة ثالثة يمثلها صوفية الإسلام، سواء عبروا عن التصوف السنى كالفزائلى ومن سبقه من الزهاد والعباد كإبراهيم بن أدهم وبشر الحافى ورابعة العدوية، أو كانوا معبرين عن التصوف الفلسفى كالحلاج والسهروردى المقتول وابن عربى وابن سبعين وابن الفارض.

وإذا كنا نميز بين كل دائرة والدائرة الأخرى على أساس المنهج، بمعنى أن أصحاب الدائرة الأولى من المتكلمين كان منهجهم جدليا، وأصحاب الدائرة الثانية من الفلاسفة كان منهجهم يقوم على أساس البرهان، وأصحاب الدائرة الثالثة من الصوفية قد فضلوا المنهج القلبي الذوقى الوجدانى، فإننا نستطيع، من جهة أخرى، داخل الحضارة العربية، التمييز بين الفلاسفة الخالص، والفلاسفة الذين مزجوا بين الفلسفة والأدب، أى عبروا عن فكرهم بروح أدبية، وكانوا بذلك داخلين فى إطار الفلاسفة الأدباء، ومن بينهم أبو العلاء المعرى وأبو حيان التوحيدى، كما أشرنا منذ قليل.

وقد أثار كثير من المؤرخين إلى هذا الجانب، أى الجمع بين الفلسفة والأدب، خاصة حين تحدثوا عن أبي حيان التوحيدى. فمن المؤرخين القدامى: ياقوت الرومى الذى يقول فى كتابه (معجم الأدباء): «أبو حيان التوحيدى فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة ومحقق المتكلمين ومتكلم المحققين وإمام البلغاء».

ومن المؤرخين المحدثين أحمد أمين؛ إذ إنه - فى مجال المقارنة بين الجاحظ وأبي حيان التوحيدى - يرى أن الجاحظ إذا كان أكثر تشعبا وأكثر انطلاقا، فإن التوحيدى كان أجزل لفظا وأوسع علما؛ لأن الجاحظ كان مسجل القرن الثانى. وفى القرن الثانى بدأت نشأة العلوم، وأبو حيان التوحيدى مسجل القرن الرابع، وقد نضجت العلوم، وشتان بين علم ناشئ وعلم ناضج.

هذا يدلنا، بوجه عام، على أن التوحيدى كان كما قلنا واحدا من المتفلسفة الذين جمعوا بين الأدب والفلسفة،

«إن التوحيدى لم يقنع بمعاملة موقفه البشرى، وظروفه الاجتماعية، بل هو قد وقف منها موقفًا إيجابيًا واستجاب لها استجابة فعالة. ولا غرو، فإن الفيلسوف لا يمكن أن يكون مجرد صدى لعصره أو مجرد أسير لمجتمعه، بل هو لابد من أن يواجه الناس بالحقيقة، حتى ولو كانت معارضة لما بين أيديهم. من حقائق... وقد تحدت شخصية أبى حيان التوحيدى بثورته على أخلاق المجتمع الذى كان يعيش فيه ونقده لسير الناس الذين كان يحيا بينهم وتمرده على أحوال العصر الذى كان ينتسب إليه» (ص: ٧ - ٨).

ويمكن القول بأننا نجد فكرة الغربة عند أبى حيان التوحيدى. لقد كان حسه النقدى الشكى وراء تلك الفكرة، إنه يقول بأفكار ولكن لا يجد صدى لها فى المجتمع الذى عاش فيه. ويقينى أننا نجد لديه الكثير من الأفكار المستقبلية التى تتخطى حدود الزمان والمكان. ولكن لابد أن نضع فى الاعتبار أننا لا نجد لديه رؤية ميتافيزيقية يقيم عليها آراءه النقدية أو الآراء التى يقولها فى مجال الغربة، ونقد سلوك أفراد البشر.

واهتمام التوحيدى بالبحث فى مشكلة الإنسان نجده بصورة أو بأخرى فى العديد من الكتب التى تركها لنا، ومن بينها (الصدقة والصدى)، (الإشارات الإلهية)، (الإمتاع والمؤانسة)، و (المقاسبات)، ورسالة الحياة، و (الهوامل والشوامل).

نجد، مثلاً، فكرة الغربة عند التوحيدى. إنه على سبيل المثال يبدأ رسالة: (فى الصدقة والصدى) بقوله: «وقبل كل شئ ينبى أن تثق بأنه لا صديق ولا من يشبه بالصدى».

إن هذه العبارة تكشف عن عدم ثقته فى أفراد البشر وعجزه عن التألف مع أهل عصره حتى انتهى به الحال إلى الكفر بالصدقة، كأنها تعد لفظة جوفاء لا معنى لها، كما نتحدث عن الغول والعفريت.

وفى كتابه (المقاسبات)، نجد يشير إلى جوانب تتعلق بالإنسان، بصورة مباشرة تارة وغير مباشرة تارة أخرى، ومن بينها:

- فى تطهير النفس وتجردها من الشوائب البدنية.
- فى أن الإنسان قد يجمع أخلاقاً متباينة.
- فى كتم السر وعلة ظهوره.
- فى ولوع كل ذى علم بعلمه ودعواه أن ليس فى الدنيا أشرف من علمه.
- فى حقيقة الضحك وأسبابه.
- فى أننا نساق بالطبيعة إلى الموت وبالعقل إلى الحياة.

ولابد أن نضع فى اعتبارنا أن التوحيدى كان متوقفاً منه الاهتمام بالبعد الإنسانى. إنه فى «رسالة فى العلوم» يرى أن كلا من الحساب والهندسة علم وعمل ينبى الجمع بينهما، فهو لم ينظر إلى العلوم نظرة مجردة، بل وضع فى اعتباره فائدتها للإنسان.

هذا بالإضافة إلى تعمقه فى دراسة التصوف. إننا لا نستطيع التغافل عن كتابه المهم (الإشارات الإلهية)، وكم تحدث التوحيدى عن مجالات التصوف فى العديد من كتبه. ولا يخفى علينا الصلة بين التصوف، من حيث هو معبر عن البعد الذاتى، وبين الإنسان. إن للتوحيدى بعض العبارات التى ينبه فيها إلى أن العبرة بالباطن وليست العبرة بالظاهر. المهم هو الإنسان فى داخله وليس الإنسان فى ظاهره. إنه يعجب من العالم الفقيه أو الأديب النحوى، حيث يتكلم كل واحد منهما عن إعراب القرآن الكريم وتأويله وتنزيهه وقصته وشأنه وكيف ورد وكيف حلاله وحرامه، وهو لا يعرف تلاوة حرف من آياته، وعلمه كله لفظ، وروايته كلها حفظ وعمله كله رفض. إن فى كل آية وفى كل لفظ سر مطوى وكلمة مخبوءة.

يقول التوحيدى فى كتابه (الإشارات):

«لقد أخفى الله تعالى هذه الأسرار لتكون ملكوته محفوفة بالعبرة بعد العبرة وذلك لئلا سبيل إلى السؤال عنه، لأنه جرأة عليه، ولا سبيل أيضاً إلى الجواب عنه، وسبحان من لو شاء لأرانا

فى الذى أَرانا غير ما أَرانا، وأَنا من لدنه سوى ما أَنا.

ونود أن نشير إلى أن التوحيدى قد كتب عن التصوف من الخارج؛ إذ ليس من المؤكد أنه عاش حياة الصوفية، أو عاش أحوالهم ومقاماتهم.

ولعل اهتمام التوحيدى بالحديث عن الجوانب الصوفية يعد مرتبطاً بكتابه الكثيرة عن النفس وأحوالها، وعن الأمراض النفسية. لقد تحدث عن أطباء النفوس، وقال فى كتابه (الإمتاع والمؤانسة):

«إن للنفس أمراضها كأمراض البدن، إلا أن فضل أمراض النفس على أمراض البدن فى الشر والضرر، كفضل النفس على البدن فى الخير».

ومن الواضح أن اهتمام التوحيدى بإثارة مجموعة من الأسئلة حول النفس وأمراضها فى العديد من كتبه، خاصة (الإمتاع والمؤانسة) و (الإشارات الإلهية)، إنما كان مبعثه ما كان يعاني منه من قلق نفسى، وارتباط هذا القلق النفسى بالروح التشاؤمية فى كثير من كتاباته، وإن كنا لا نجد لديه نوعاً من التدليلات العقلية الدقيقة على أن التشاؤم هو جوهر الوجود وليس التفاؤل.

لقد كانت لدى أبي حيان التوحيدى القدرة على تحليل كل خلجات نفس الإنسان من القلق والرضا والفرح والحزن، وقد كان موسوعى الثقافة فى الكتابة عن هذه الجوانب، وإذا كان قد تأثر بكتابات السابقين من فلاسفة اليونان وفلاسفة العرب، فإن شخصيته كانت واضحة إلى حد كبير؛ فهو فى كتبه، مثل (المقابسات) و (الإشارات الإلهية) و (الهوامل والشوامل) و (الإمتاع والمؤانسة) يلجأ إلى التحليل والمقارنة والموازنة بين العديد من الآراء، ثم يقول برأى لا يعد مجرد نقل عن الآخرين. وقد لا نجد مفكراً من مفكرى المشرق العربى، اهتم بالبعد الإنسانى مثل اهتمام التوحيدى، خاصة إذا وضعنا فى الاعتبار أنه كان فى كتاباته معبراً عن جوانب نفسية وجودية. نقول هذا بصرف النظر عن اتفاقنا أو اختلافنا مع التوحيدى، سواء فى الرأى أو فى الاتجاه.

ولم يكن التوحيدى من طراز المفكرين الفكريين، الذين يقولون بأفكارهم فوق قمة العقل البارد، أى العقل النظرى الصرف، بل كان من نمط المفكرين الوجوديين الذين نجد لديهم القدرة على الربط بين الفكر والحياة، بحيث كانت حياته - إلى حد كبير - معبرة عن فكره، وكان فكره صدى لحياته.

يقول مسكويه فى افتتاحية كتاب (الهوامل والشوامل) وهو يجيب عن أسئلة التوحيدى:

«قرأت مسائلك التى سألتنى أجوبتها فى رسالتك التى بدأت بها فشكوت فيها الزمان واستبطأت بها الأخوان، فوجدتك تشكو الداء القديم والمرض العقيم».

وهذه العبارة التى قالها مسكويه تشير إلى ما كان يعاني منه التوحيدى من قلق واكتئاب. ولم ينبجج التوحيدى فى إزالة القلق والاكتئاب خاصة أنه كان سعى الظن بالناس وصاحب روح تشاؤمية كما قلنا، حتى إنه رأى إحراق كتبه التى قام بتأليفها طوال حياته، كما سبق أن أشرنا.

هذه الروح التشاؤمية عند التوحيدى لم تخل بينه وبين البحث فى السعادة بحثاً مستفيضاً. ويمكن القول بأن آراءه حول نظرية السعادة لا تخلو من نوع من التأثير بالفارابى، وأيضاً نجد تشابهاً بينها وبين ما نجده عند بعض الفلاسفة والمفكرين الذين عاشوا بعده، خاصة فى المغرب العربى.

فى حديثه عن السعادة، يربط التوحيدى بين الفكر والسلوك، بين العلم والعمل، ويرى أن كل عنصر منهما إنما يرتبط بالعنصر الآخر؛ فإذا رجعنا إلى كتابه (الإمتاع والمؤانسة) وجدناه يقول:

«الزيادة من العلم داعية إلى الزيادة من العمل، والزيادة من العمل جالبة الانتفاع بالعلم»، والانتفاع بالعلم دليل على سعادة الإنسان، وسعادة الإنسان مقسومة على اقتباس العلم والتماس العمل، حتى يكون بأحدهما زارعا وبالأخر حاصداً، وبأحدهما تاجراً، وبالأخر رابحاً».

أما في رسالة «الحياة» تلك الرسالة التي تم تحقيقها منذ أكثر من أربعين عاما، فإننا نجد تحليلا دقيقا عشرة أصناف من الحياة، كما يربط بين حديثه عن أصناف الحياة ودراسة موضوع السعادة في العديد من كتبه، ومن بينها (الإمتاع والمؤانسة) وكتاب (الإشارات الإلهية)، كما أشرنا.

إننا - فيما يقول التوحيدى - نجد أنواعا مختلفة للحياة، من بينها:

- حياة الحس والحركة، تلك الحياة المشتركة بين الإنسان والحيوان.

- حياة العلم والبصيرة، التي يجب أن يعمل الإنسان على الاستزادة منها، ولا أصبح في عداد الحيوانات.

- حياة العمل الصالح، تلك الحياة التي تبين لنا أن الإنسان يعد فردا من أفراد المجتمع، وهي حياة تقوم على الأخذ والعطاء، أو هي حياة العشرة والصدقة.

- حياة الديانة والسكينة، وبها يهتدى الإنسان بحيث يعتمد على الشر والضلال.

- حياة الظن والتوهم، وهي الحياة التي يسعى فيها الإنسان إلى الشهرة والصيت، بحيث يعتمد عن الطريق الحق ظنا من جانبه أن هذا هو طريق الخلود لاسمه.

إن صاحب هذه الحياة يسعى إلى طلب النسل ظنا من جانبه أن هذا هو طريق الاستمرار لشخصه، ولكن هذا يعد قائما على الوهم، فيما يقول التوحيدى.

- حياة العاقبة، أى خلود النفس.

ومن الواضح أن أدنى نوع من الحياة، هو الحياة الأولى حياة الحس والحركة، إذ إنها - كما قلنا - لا تميز الإنسان بما هو إنسان. إن حياة الآخرة هي أعظم حياة، فهي السعادة الحقيقية الباقية.

وهذا يتضح من حديثه عن الغبطة. إن الغبطة في هذه الحياة العادية ليست الغبطة في شهوة تنال، أو في لين يلبس،

أو حلو يتطعم، أو بارد يشرب. إن الغبطة - فيما يقول التوحيدى في كتابه (الإشارات الإلهية) - في حال أخرى أنت منها في قطر شاسع لا يلوح لك ولا يترأى لعينيك. الغبطة في النجاة من هذه الدار إلى محل لا ألم فيه ولا أذى؛ محل تجد فيه النعيم صافيا والحق باديا، محل لا يعتريك فيه ملل، ولا ينتابك فيه علل، حيث تنسى فيه الحزن حسا ورسمًا. حيث يحكمك المولى فتتحكم، ويدنيك إلى حضرته فتنتعم، حيث لا يلتهب لك في صدرك نفس، ولا يخمد بين يديك قس.

والواقع أن هذا القول من جانب أبى حيان التوحيدى، وهو الذى يعد معبرا عن موقف صوفى إلى حد كبير، إنما يرتبط بتأكيد قصور العقل وعجز العلم إلى حد كبير. إنه يقول في كتاب (الهوامل والشوامل): «إن العلم بحر، وظنه أكثر من يقينه، والخافى عليه أكثر من البادى، وما يتوهمه فوق ما يتحققه». ليس في قدرة العقل، إذن، أن يحيط الإحاطة الشاملة بحقيقة الخلود، بل هو مضطر لأن يلجأ إلى الوحي. إن الدليل على ذلك «أن العقل لو كان يكتفى به لم يكن للوحي فائدة ولا غناء»، هذا ما يقوله التوحيدى في كتابه المعروف (الإمتاع والمؤانسة).

إن أقوال التوحيدى، في هذا المجال، تؤدى بنا إلى الذهاب إلى الاعتقاد بأن التوحيدى لم يكن من المؤمنين بقدرة الإنسان الإبداعية وطاقته الخلاقة. بل إن أقواله حول الحرية والجبر تؤدى إلى الاعتقاد بأنه يؤمن بالجبر إلى حد كبير، وذلك على الرغم من أنه يحاول الربط بين الحرية والجبر.

وقد تكون أحكام التوحيدى، في هذا المجال ناتجة عن خبراته الشخصية وتجاربه العديدة. يقول زكريا إبراهيم في كتابه عن أبى حيان التوحيدى:

«لم يكن التوحيدى من المتحمسين لقدرة الإنسان وقوته وعلمه وعمله وشئ مظاهر نشاطه الإبداعى، بل كان - على العكس من ذلك - أعرف الناس بعجزه وقصوره وجهله وتوانيه وشئ مظاهر نقصه. وليس بدعا أن نرى أبى حيان يتأدى

بمعجز الإنسان، فقد أتاحت له خبراته العديدة وأسفاره الكثيرة الفرصة للتعرف إلى الكثير من أعظم الوزراء وكبار الحكام وأفذاذ الكتاب، فما وجد لديهم إلا النقص والسوء والخبث والطمع والجشع والحسد والغيرة والجهل والادعاء والصفافة والتبجح وما إلى ذلك» (ص ٢٣٩).

هذه الآراء من جانب أبي حيان التوحيدي إنما كانت تعبيرا عن تأملاته وبحته المستمر في حقيقة الوجود الإنساني. ونستطيع أن نقول إن التوحيدي، بصرف النظر عن اتفاقنا أو اختلافنا معه حول رأى أو أكثر من آرائه، قد نجح في إثارة العديد من القضايا والتساؤلات، خاصة ما تعلق منها بالإنسان، وهذا يبين لنا أن التوحيدي قد أدرك إدراكا تاما وظيفه الفيلسوف الحقيقية، وعبر عنها من خلال منظور أدبي.

أدبه، إذن، لم يكن من نوع أدب التعبير، بل إنه يمثل أصدق تمثيل أدب التفسير. إن أدب التعبير لا يتضمن عادة نظرية فكرية فلسفية، أما أدب التفسير فإننا نجد معبرا عن روح فكرية واتجاه محدد. فالتوحيدي يصوغ آراءه حول الإنسان وحول مشكلة الألوهية من خلال أسلوب أدبي، ويمكن أن نجد لديه العديد من الآراء الخاصة به من خلال هذا الأسلوب الأدبي. إنه لم يقف عند الظاهر والسطح، بل جاوز ذلك بحثا عن الحق والحقيقية، وجعل الطريق مفتوحا أمام أفراد بنى الإنسان، خاصة أنه أثار العديد من الأسئلة دون أن يقدم بالضرورة إجابة عنها. وليرجع القارئ إلى العديد من كتبه؛ ومن بينها (المقاسبات) و(الهوامل والشوامل) و(الإشارات الإلهية)، وسوف يجد أن جانبها كبيرا من أهمية أبي حيان التوحيدي في مجال الفكر العربي، أدبا كان أو فلسفة، إنما يمثّل في إثارة هذا الكم الكبير من التساؤلات التي تعبر عن نفس قلقة، تهتم بالسؤال أكثر من اهتمامها بتقديم الإجابة عنه.

قلنا إن التوحيدي قد خصص جزءا كبيرا من التراث الذي تركه لنا للبحوث في مجموعة من الموضوعات أو المخالات التي تتعلق بدائرة الإنسان. ومن أكثر الجوانب اتصالا

بقضية الإنسان ذلك الجانب الخاص بالأخلاق. ولو رجعنا إلى الكتب التي تركها لنا التوحيدي، وجدنا من جانبه إثارة لمجموعة من الأسئلة التي تتعلق بالمجالات الخلقية، ومحاولة لتقديم رأى حول كل مجال من مجالات البحث فيها.

إنه يبحث، على سبيل المثال، في الأخلاق وهل يمكن تغييرها، أم أنه ليس بالإمكان تغييرها. وهذه القضية كانت مثارة منذ زمان طويل حتى في الفكر اليوناني، وكم أشار إليها الغزالي بعد ذلك في المشرق العربي من خلال كتابه (إحياء علوم الدين)، وذلك حين أورد آراء الذين يقولون بعدم إمكان تغيير الأخلاق، وقام بالرد على حججهم ذاهبا إلى القول بإمكان انتقال الإنسان من سلوك إلى سلوك، وإن كنا نجد صعوبة في تغيير الأخلاق السيئة، وذلك إذا استمر الإنسان مدة طويلة في فعل الأفعال السيئة.

والتوحيدي قد يكون أكثر ميلا إلى القول بعدم إمكان تغيير الأخلاق وإن كان قد أدرك في الوقت نفسه أهمية أساليب الإصلاح الاجتماعي. فهو يقول في كتاب (الإمتاع والمؤانسة):

«الخلق الحسن مشتق من الخلق، فكما لا سبيل إلى تبديل الخلق، لذلك لا قدرة على تحويل الخلق... لكن الحظ على إصلاح الخلق، وتهذيب النفس، لم يقع من العلماء بالبعث، بل لمنفعة عظيمة موجودة ظاهرة».

ويبحث التوحيدي في الصفات الخلقية ويشير الكثير من الأسئلة حول كونها فطرية أم مكتسبة. ويحاول الربط بين الصفات الخلقية وعللها الفسيولوجية. فالإنسان الشجاع قليل الحقد، تغلب الحرارة عليه في مزاج القلب، والإنسان البليد، غليظ الطباع، تغلب عليه البرودة. وإذا غلبت عليه الرطوبة فإنه يكون لين الجانب سمح النفس، وإذا غلبت عليه اليبوسة يكون صابرا. هذا ما نجده في كتاب (الإمتاع والمؤانسة) كما نجد إشارات إليه في كثير من رسائل أبي حيان.

والواقع أننا نجد الكثير من أوجه التناقض عند التوحيدي وفي حياته على سبيل الخصوص، كما سبق أن

ويرفض أبو حيان في كثير من المناقشات، خاصة في كتابه (الإمتاع والمؤانسة)، فصل السياسة عن الدين، ويقول في إجابة له:

«إن الناظر في أحوال الناس ينبغي أن يكون قائما بأحكام الشريعة، حاملا للصغير والكبير على طرائقها المعروفة، لأن الشريعة سياسة الله في الخلق والملك سياسة الناس للناس، على أن الشريعة متى خلت من السياسة كانت ناقصة والسياسة متى عريت من الشريعة كانت ناقصة».

كما يقول التوحيدى:

«إن الملك مبعوث، كما أن صاحب الدين مبعوث، إلا أن أحد المبعوثين أخفى من الآخر، والثاني أشهر من الأول».

ويحاول التوحيدى إثبات وجهة نظره وذلك حين يستشهد بالآية القرآنية الكريمة: «وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا» (سورة البقرة).

كما أن موقفه من مشكلة التوفيق بين الدين والفلسفة يحتاج إلى وقفة نقدية، نقول هذا لأننا نجد كما كبيرا من الخلط والاضطراب عنده. إنه إذا كان يدافع عن الفلسفة تارة، فإننا نجده يقف موقفا عدائيا إلى حد كبير من رسائل إخوان الصفا واتجاههم التوفيقى. صحيح أن محاولات التوفيق بين الدين والفلسفة لم يقدر لها النجاح، سواء في المشرق العربى عند أمثال الكندى والفارابى وابن سينا، أو في المغرب العربى، عند أمثال ابن طفيل وابن رشد، ولكن من الصحيح أيضا - وهذا هو ما سعى إليه إخوان الصفا من خلال رسائلهم - أن هدف هؤلاء الفلاسفة الذين سعوا إلى التوفيق بين الدين والفلسفة إنما كان محاولة تقرب الفلسفة إلى الجمهور، وهذا ما سعى إليه أبو حيان من خلال رسائله الأدبية والفلسفية، وهذا - فيما نرى - يعد نوعا من التناقض نجده في فكر التوحيدى. وإذا كان الدين يغنى عن الفلسفة في حياة الإنسان - كما يقول التوحيدى من خلال كثير من رسائله وأقواله - فإن الفرد منا لا بد أن يتساءل عن مكان

أشرنا. إنه يعد شخصية قلقة، حائرة. إنه يقوم بتمجيد الزهد تارة مع بيان أثره في حياة الإنسان، وتارة أخرى يجده يتحدث عن اللذات. وقد يكون اتجاهه إلى الحياة الصوفية، من حيث هم فكر قد جاء في مرحلة متأخرة من حياته. لقد حاول تنبيه أفراد البشر إلى أن من الضروري الربط بين الأقوال والعمل أو السلوك. إنه يقول في كتابه (الإشارات الإلهية):

«إلى متى نقول بأفواهنا ما ليس في قلوبنا؟ إلى متى ندعى الصدق، والكذب شعارنا؟ إلى متى نتمادى في الغواية، وقد فنى العمر بلبينا ونهارنا؟ إلى متى نخلد إلى الدنيا وقد دنا منها رحيلا؟».

اهتمام التوحيدى بالبحث في مشكلة الإنسان نجده، إذن، في العديد من الكتب والرسائل التي تركها لنا، فهو لم يدرس مشكلة الإنسان في كتب بعينها، بل لا بد من أن نضع في اعتبارنا ضرورة الرجوع إلى كل ما كتبه التوحيدى، حتى يمكننا تعرف دراسة الإنسان عنده.

وفكرة الغربة عند التوحيدى يمكن أن نجد أمثلة عدة لها عند ابن باجة، فيلسوف المغرب العربى، الذى قدم لنا تصورا للمدينة الفاضلة التي تختلف عن المجتمع الواقع الذى عاش فيه، ونجد ذلك في كتابه المهم (تدبير المتوحد)، بحيث يمكننا عقد مقارنات عدة بين التوحيدى في المشرق العربى، وابن باجة في المغرب العربى.

إن مفهوم الإنسان عند التوحيدى يكمن في الروح الشياؤمية التي تجدها واضحة في كتاباته، سواء منها الفلسفية، أو الصوفية. ولكن لا بد أن نضع في اعتبارنا أيضا ما قد نجده من تناقض عند التوحيدى في حديثه عن الإنسان.

نقول هذا ونحن نقارن بين نظرة التوحيدى من جهة، ونظرة أبى العلاء المعرى - من جهة أخرى - الذى يمكن أن نقول عنه إنه كان كالتوحيدى من المتفلسفة، ولم يكن من الفلاسفة.

خلاصة تجاربه من خلال لغة جمعت بين البعد الفلسفي والتعبير الأدبي.

وإذا كنا نهتم بمفكرينا الكبار من أمثال الفارابي وابن سينا في المشرق العربي، وابن باجه وابن طفيل وابن رشد، فإنه قد أن الأوان لأن نهتم بفكر أبي حيان التوحيدي، هذا الفكر الذي قدم لنا من خلاله مذهباً فلسفياً لم يلجأ في التعبير عنه إلى اللغة الفلسفية الاصطلاحية الدقيقة، بل لجأ إلى الأسلوب الأدبي الرائع، هذا الأسلوب الذي نجده عند الأدباء الذين استطاعوا بلورة الفكر الإنساني حول مبادئ رفيعة وقيم ثابتة راسخة.

نقول ونكرر القول بأن التوحيدي قد قدم لنا الكثير من الإيجابيات، ولكن لا بد أن ننظر إليه على أنه مفكر وليس قديساً؛ مفكر يعد فكره قابلاً للاتفاق معه تارة والاختلاف معه تارة أخرى. ومن يحاول الدفاع عن آراء التوحيدي بحيث ينفي عنه الوقوع في التردد تارة والتناقض تارة أخرى، فوقته ضائع عبثاً. وأعتقد من جانبي، اعتقاداً لا يخالجنى فيه أدنى شك، أن القيمة الباقية من فكر التوحيدي إنما تتمثل في قدرته على توجيه الأسئلة التي تتناول جوانب شتى في الحياة والسلوك والطبيعة، وعلى رأسها ما تعلق بالإنسان.

الفلسفة في فكر التوحيدي؛ ألم يكن الأجدر به، وقد كانت استفادته هائلة من الفلسفة، أن يفسح لها دوراً كبيراً في حياة الإنسان؟

لقد دخل أبو حيان التوحيدي تاريخ التفلسف وتاريخ الأدب من أوسع الأبواب وأرحبها، وسيظل فكر أبي حيان التوحيدي مستمراً في مجال العطاء الإنساني. لقد قال بأفكار في مجال البحث في الإنسان، بصفة خاصة، من واجبتنا أن نقف عندها للدراسة والتحليل.

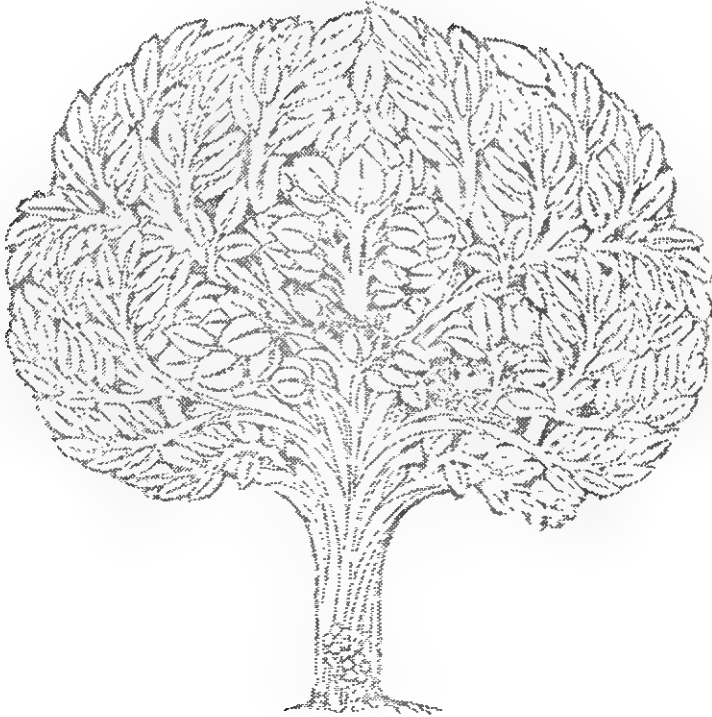
درس التوحيدي أكثر المجالات التي تتعلق بقضية الإنسان وإن كان يبدو متناقضاً مع نفسه في بعض الآراء التي قال بها. ولكن هذا لا يقلل كثيراً من أهمية آرائه. إن هذه الأفكار لم تولد ميتة، بل إنها ستظل حية، خاصة لأنها تثير العديد من القضايا المهمة التي تتعلق ببعد من الأبعاد التي تعد مغبرة عن الاهتمام بقضايا الإنسان. إنه صاحب شخصية فذة من النادر أن نجد مثيلاً لها في تاريخنا الفكري العربي المعاصر. ومن حقنا أن نفخر بالتوحيدي مفكراً عربياً، ومن واجبتنا أيضاً دراسة أفكاره وما أعظمها وما أروعها. لقد أعطانا

المصادر والمراجع:

- التوحيدي: الإشارات الإلهية.
- التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة.
- التوحيدي: البصائر والذخائر.
- التوحيدي: رسالة الصداقة والهدى.
- التوحيدي: رسالة في العلوم.
- التوحيدي: المقابسات.
- التوحيدي ومسكره: الهوامل والشوامل.
- مسكره: تجارب الأمم.
- مسكره: تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق.
- مسكره: الحكمة الخالدة.
- مسكره: الفرز الأصغر.
- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء.
- ابن الأنباري: الكامل في التاريخ.
- ابن الجوزي: مناقب بغداد.
- ابن حزم: رسالة الأخلاق.

- ابن سينا: علم الأخلاق.
- ابن سينا: الإشارات والتبیهات.
- ابن سينا: النجاة.
- ابن سينا: رسالة في دفع الغم من الموت.
- ابن الدم: الفهرست.
- إحصان عباس: أبو حيان التوحیدی.
- أحمد أمين: ظهر الإسلام.
- إخوان الصفا: الرسائل.
- أفلاطون: كتاب الجمهورية - ترجمة فؤاد زكريا.
- أفلاطون: فيثون - ترجمة سامي النشار، عباس الشربینی.
- أوليري: علوم اليونان وسبل انتقالها إلى العرب - ترجمة تمام حسان.
- إميل بریه وآخرون: من الحكيم القديم إلى المواطن الحديث - ترجمة محمد مندور.
- البغدادي: تاريخ بغداد.
- البيروني: الآثار الباقية عن القرون الخالية.
- توفيق الطويل: الفلسفة الخلقية.
- زكي نجيب محمود: العقل واللا معقول.
- زكي نجيب محمود: تحليل لكتاب الإمتاع والمؤانسة (مجلة تراث الإنسانية).
- عاطف العراقي: الفلسفة الطبيعية عند ابن سينا.
- عاطف العراقي: ثورة العقل في الفلسفة العربية.
- عاطف العراقي: العقل والتدوير في الفكر العربي المعاصر.
- جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية.
- جولنتسيهر: العقيدة والشريعة في الإسلام.
- حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون.
- الذهبي: ميزان الاعتدال في نقد الرجال.
- الفارابي: آراء أهل المدينة الفاضلة.
- الفارابي: كتاب الحروف.
- ابن باجه: تدبير الموحّد.
- ابن رشد: فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال.
- أبو بكر الرازي: رسائل فلسفية.
- زكريا إبراهيم: أبو حيان التوحیدی.
- السلمي: طبقات الصوفية.
- السراج الطوسي: اللمع في التصوف.
- عبدالرحمن بدوي: الأصول اليونانية للنظريات السياسية في الإسلام.
- عبدالرحمن بدوي: التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية.
- آدم منز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري - ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة.
- ماجد فخري: تاريخ الفلسفة الإسلامية - ترجمة كمال اليازجي.
- عبدالأمر الأعمش: أبو حيان التوحیدی في كتاب المقابسات.
- الخوانساري: روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات.
- السبكي: طبقات الشافعية الكبرى.
- ابن خلكان: وفيات الأعيان.
- القفطي: إخبار العلماء بأخبار العلماء.
- السيوطي: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة.
- ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين.
- عبدالرزاق محي الدين: أبو حيان التوحیدی.
- أرسطر: النفس - ترجمة أحمد فؤاد الأهواني.

- أرسطو: كتاب الأخلاق - ترجمة أحمد لطفى السيد.
- ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة.
- مرجليوث: مادة التوحيدى - دائرة المعارف الإسلامية - الترجمة العربية.
- ابن حجر العسقلانى: لسان الميزان.
- ياقوت الرسمى: معجم الأدياء.
- محمد كرد على: أمراء البيان.
- خليل الجبر وحنا الفاعورى: تاريخ الفلسفة العربية.
- كوربان: تاريخ الفلسفة الإسلامية - الترجمة العربية.
- Arberry: Avicenna on theology
- Aristotle: Metaphysics.
- Aristotle: The Logic.
- Burnet: Greek philosophy.
- Collingwood: An essay on metaphysics.
- Gilson: History of Christian philosophy.
- Taylor: Plato.
- Ross: Aristotle.



أبو حيان التوحيدى

والبحث عن السعادة

زينب محمود الخضيرى*

والتصوفة فى عصره كان على أشده، وهو فى الوقت نفسه فيلسوف عقلانى يهاجم المتكلمين. وهو ممزق بين التحليق فوق الواقع يدافع تصوفه، وبين الانفراس فيه وتبين كل مشاكله وآلامه. وهو يرى ضرورة الفصل بين الفلسفة والدين، فمن شأن التوفيق بينهما إحداث البلبلة والاضطراب، ولكنه - من جهة أخرى - يرى أن الاثنين يتكاملان. وهو شديد الإيمان بالإسلام، يرى فيه حلا لكل مفسد الناس وطريقا لسعادتهم، ولكنه من جهة أخرى يقول بأراء جريئة انهم بسببها بالإلحاد والزندقة. ومازلنا، بعد أكثر من ألف سنة على وفاته، فى حاجة إلى إعادة النظر فى فكر التوحيدى، وإلى قراءته قراءة جديدة بعد أن أصبحت جل أعماله فى متناول أيدينا؛ الأمر الذى لم يكن متحققا لجيل الرواد من دارسيه.

وبالرغم من تعدد تأويلات التوحيدى، فلقد بدا لنا أن التأويل الأقرب للحقيقة هو أن صاحبنا مفكر «عاش» يبحث عن السعادة طوال حياته، ويأمل فى تحقيقها، شأنه شأن أى

لا يزال الباحثون يتنازعون على التوحيدى مما يضاعف من غموض صاحب (المقابسات). فريق منهم يراه أديبا، فهو خليفة الجاحظ وأحد «أمراء البيان» (محمد كرد على)، أو من أقطاب «النثر الفنى فى القرن الرابع عشر» (زكى مبارك)، مع أن مصطلح الأدب يكتب دلالة خاصة عندما يتعلق الأمر بالتوحيدى. وفريق يراه متفلسفا (أحمد أمين فى مقدمته لـ «الهوامل والشوامل»، ومرجليوث فى «دائرة المعارف الإسلامية»). وفريق ثالث يجعله يجمع بين كل من الأدب والفلسفة، فهو «فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة» (ياقوت الحموى) أو «أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء» (زكريا إبراهيم)، مع أن التوحيدى هاجم الفلسفة الموجودة فى عصره وتطلع إلى نمط جديد من التفلسف. وبما يزيد من غموض هذا المفكر جمعه بين المتناقضات؛ فهو إذا تصوف مال إلى طريقة الفقهاء، مع أن الصراع بين الفقهاء

* قسم الفلسفة، كلية الآداب، جامعة القاهرة.

إنسان، إلا أنه لم يتل إلا خيبة الأمل، فكتب لنا عن تجربته المؤلمة هذه. تلك التجربة التي مرت بمراحل عدة اختلفت في كل منها تصوره لضافته المنشودة.

تمثلت السعادة عنده وهو في مقتبل العمر في حياة الخاصة الفكرية، فسمى إلى أن تكون له «الرياسة» بين هذه الخاصة بواسطة الأدب. ولذا أقبل على التراث كله يجمعه وينقده، كما يتضح من (البصائر والذخائر). ومع ازدياد نضجه الفكرى تحول التوحيدى من جامع للتراث ومؤرخ له إلى صاحب رأى وموقف وقضايا، أى تحول إلى التفلسف الذى تزايد حجمه وعمقه وأصالته مع الأيام، كما يتضح من أعماله. وعندما فشلت الفلسفة بدورها فى تحقيق سعادة التوحيدى، شن حملة عنيفة على «الدنيا» بما فيها من بشر، فاضحا مثالبهم ونقائصهم، ثم تحول إلى البحث عن السعادة الأبدية، وجعل وسيلته لذلك التقرب إلى الله بالمناجاة والحب وأحيانا بالشكوى. وفى ظنى أنه لم ينجح فى هذه الخطوة أيضا، وظل نعا محتاجا إلى الناس، حانقا عليهم لأنهم لم يحققوا له سعادته وتركوه فريسة لغربة موحشة افترسته، مما حال دون نجاحه فى التوجه الخالص المطلق لله. ودلينا على ذلك حرقه كتبه التى ضمنها فكره، أى حياته. يقول فى ذلك:

«على أنى جمعت أكثرها للناس، ولطلب المثالة منهم، ولعقد الرياسة بينهم، وللد الجاه عندهم، فحرمت ذلك كله»^(١).

١ - البحث عن السعادة فى أعماله :

كانت أعمال التوحيدى مرآة لحياته وسجلا لكل جهوده فى البحث عن سعادته وسعادة كل إنسان، ولذا فهى إذا ربت ترتيبا كرونولوجيا أتاحت لنا الوقوف على مراحل هذا البحث الدائب. وأول ما يلحظه قارئ هذه الأعمال هو اشتراكها فى سمة واحدة، هى أن صاحبها وضعها استجابة للآخر، أو نتيجة لاتصاله بالآخر، سواء أكان هذا الآخر الله أم البشر مثله. فمن أوائل أعماله (البصائر والذخائر) و (أخلاق الوزيرين) وقد جاء على إثر اتصاله بالوزراء الثلاثة محمد الحسن بن محمد المهلبى وزير معز الدولة فى بغداد، وبكل من ابن العميد وابن عباد فى الرى، هذا الاتصال الذى كان

ينتهى دائما بفساد العلاقة بينه وبين كل منهم لسبب أو آخر. ولقد أتاح له هذا الاتصال معرفة ومحاورة أئمة عصره فى كل فن، ممن كانوا يحضرون مجالس هؤلاء الوزراء الثلاثة. أما (البصائر والذخائر)، فهو سجل لثقافة عصره وإن لم يعن فيه بالفلسفة إلا نادرا؛ إذ كان جل اهتمامه منصبا على اللغة والأدب. أما (أخلاق الوزيرين)، فهو فاتحته القوية إلى دراسة الإنسان وبالتالي فهو زاخر بالأحكام الأخلاقية وبالحديث عن القيم. فـ (أخلاق الوزيرين) فى رأينا هو بداية ظهور شخصية التوحيدى بوصفه مفكرا همه الإنسان وأخلاقه. ويعلن فى هذا العمل إخوفه من «إعلان» فكره، ومن الانفضاح من خلال الكتابة. يقول:

«فإنى عملت رسالة فى أخلاقه وأخلاق ابن العميد أودعتها نفسى الغزير، ولفظى الطويل والقصير، وهو فى المسودة ولا جسارة لى على تحريرها، فإن جانبى مهيب، ولكره ديب»^(٢).

وبهذا دشن ما سيصبح عادة عنده فيما بعد نتيجة لخوفه من الآخر، وقد يكون هذا هو سبب حرقه كتبه فى آخر أيامه؛ فهو يخشى حتى الخلف.

وبعد أن فارق صاحب ابن عباد الذى لم يعرف قدره بينما كان عظيم التقدير لمسكويه، خصم التوحيدى وصديقه اللدود، عاش فى كنف الوزير ابن سعدان وزير صمصام الدولة ببغداد، الذى كان قد عرقه به أبو الوفاء محمد بن يحيى البوزجاني الشهير بلقب المهندس. وكانت فترة اتصاله بابن سعدان فترة هائلة استمع إليه فيها الوزير واستظرفه، وسأله وأجاب هو، مما جعله يشعر للمرة الأولى فى حياته بأنه من عليا القوم، الأمر الذى كان يحقق سعادته. ونتيجة لهذا، أصبح أهدأ وأحكم فتفلسف. وبالرغم من تأكيد أنه الوزير هو الذى كان يسأل، ويحدد موضوعات الحوار، فإن الأمر الذى لا جدال فيه هو أن التوحيدى كان يعرض لآرائه وهو بصدد التأريخ للمسائل التى يحاوره فيها ابن سعدان، بل كان يطرح الأسئلة كلما سنحت له الفرص. كل ذلك ضمنه التوحيدى كتابه الضخم (الإمتاع والمؤانسة). وفى هذا الكتاب بدأ منهج الحوار التوحيدى الشهير الذى سيكون عماد أعماله التالية: (الهوامل) و (المقابسات) الذى سيتحول

إلى حديث من طرف واحد في (الإشارات الإلهية)، حيث يناجي الله ويشكو له. مع: (الإمتاع والمؤانسة) بدأ أبو حيان يدرك قيمة الحوار أو «الحديث»، فتوقف عنده طويلا في إحدى الليالي. فالحديث يصل الناس بعضهم البعض ويثرى كل الأطراف وكأنه يخلق النفوس من جديد! فإذا كانت الغربة هي مشكلة التوحيدى فالحديث هو حلها. وفي (الإمتاع) يعرض التوحيدى لموقفه من قضايا فلسفية عدة، أهمها علاقة المنطق بالنحو، وذلك من خلال تصويره المناظرة التي جرت بين أبي سعيد السيرافي النحوى ومتى بن يونس المنطقى، وعلاقة الفلسفة بالدين من خلال عرضه فكر «عصابة» إخوان الصفا. وفي (الإمتاع والمؤانسة) يتجاوز التوحيدى مرحلة التأريخ في (البصائر والذخائر) والحكم في (أخلاق الوزيرين) إلى مرحلة أكثر نضجا، هي مرحلة النقد أو ما نعتبره مراجعة لكل التراث الفكرى القائم فى عصره. ولقد أتاح له هذه المراجعة تبين كل القضايا وكل المسائل التي عالجهها الفكر الإسلامى، مما مهد له السبيل إلى طرح جديد بفضل رؤية جديدة في (الهوامل).

وكان اختيار التوحيدى لـ (الهوامل) عنوانا لأسئلته اختيارا بارعا بصور خبير تصوير حقيقة هدفه. فـ (الهوامل) هي الإبل السائمة التي يهملها صاحبها ويتركها ترعى. وهكذا أراد التوحيدى لأسئلته أن تكون مطلقة بلا قيود لأنها أسئلة جديدة على حضارته، أو على أقل تقدير هي مسائل طرحت من قبل واستقرت العقول على إجابات عنها، تصورها هو غير مناسبة للفترة التي يعيش فيها، فرأى ضرورة إعادة طرحها بحثا عن إجابات جديدة. ولو كان التوحيدى يبحث عن الإجابات التقليدية لما سعى أسئلته «الهوامل». ولا ندري من الذى أطلق على إجابات مسكويه اسم «الشوامل»، ومعناها الحيوانات التي تضبط الإبل الهوامل فتجمعها، إلا أننا نؤكد أن اختيار هذا الاسم كان اختيارا دقيقا للغاية؛ إذ إن مسكويه يجيب عن أسئلة التوحيدى بإجابات تقليدية. لم وجه التوحيدى أسئلته لمسكويه بالذات بالرغم من احتقاره له؟ ألم يكن على يقين أن مسكويه سيعجز عن إرضائه بإجابات شافية؟ هل كان كل ما يعنيه فعل طرح السؤال بهدف لفت النظر إلى ضرورة إعادة النظر؟ هل اختار

مسكويه بالذات ليوجه إليه مسائله لأن صاحب (نهذيب الأخلاق) كان يمثل رؤية للإنسان لم ترض التوحيدى فاندفع فى توجيه لطمة «التجديد» إليه؟ والمتأمل فى مسائل التوحيدى الخمس وسبعين ومائة، التي تفجر كل منها العديد من الأسئلة، لا بد له أن يلاحظ أنها تتحدد عناصر الإجابة، بل تفرض فى أحيان أخرى البدائل المختلفة للإجابة، أو تدحض كل الإجابات التقليدية. أليس السائل هنا فى الحقيقة هو المجيب، أو أليس المجيب هو الغافل الذى أراد السائل كشف غفلته؟ فى (الهوامل) التوحيدى فيلسوف بلا جدال، ولكنه فيلسوف من نوع جديد على الحضارة الإسلامية فى ذلك الحين، فهو فيلسوف من نوعية سقراط، يتأمل الحياة والقيم، والمفاهيم واللغة، والعقائد والعلم، وعلاقة الإنسان بما حوله، أى هو فى (الهوامل) فيلسوف يشغله الإنسان ليس على طريقة أرسطو بل على طريقة سقراط. فهو لا يملأ آراءه ويفرضها بل يدعو الآخرين إلى أن يشاركوه فى البحث عن الحقيقة؛ حقيقة الإنسان وماهية سعادته. وكما أنزل سقراط الفلسفة من السماء إلى الأرض مما يعنى أنه غير مجراها، أنزلها هو - التوحيدى - من دائرة المشائية إلى دائرة التساؤل السقراطى أو ما يسميه هو «بالحديث» الذى يجدد ويثري. أدرك التوحيدى أن المتفلسفة المسلمين أصبحوا شراحا وكتاب هوامش على المشائية، ذلك التراث الذى صار قيذا على العقل العربى الإسلامى وأبعده عن جذوره وأصوله الأسمى، وأنه آن الآوان لإعادة الطرح عله هو وأمثاله يتوصلون لرؤية جديدة. كما أدرك التوحيدى أن الفلاسفة المسلمين ضعف حسهم الفلسفى لأنه استهلك فى التكرار (وإن استخدم كلمة الغريزة تعبيرا عن هذا الحس) وأنهم اعتادوا أطروحات بعينها شاعت وفرضت نفسها مع أنها ليست هى الحق، وأن عليهم البحث من جديد عن هذا الحق «البادر» وإن كان «نادرا». يقول فى المسألة الخامسة نقدا لإجابة افترضها عن سؤاله عن علاقة الدنيا بالعلم:

«فليعلم أن المسألة ما وضعت هناك، ولا فرضت كذلك، ولو سدد هذا المعترض فكره عرف الفحوى، ولحق المرمى، ولم يعارض بادرا بشائع، ولم يناقض نادرا بذائع»^(٣).

اصطلح عليه. يقول في مقدمة (المقاييسات) إنه يلبي طلب سائله في :

«تصنيف أشياء من الفلسفة... وخطبت بها رغبتك فيها، ونشاطك لاقتنائها، وإضافة أشياء أخرى تجرى معها، وتدخل في طرازها، وتقوى عمدها، وتدل على شرف جوهرها... عن مشايخ العصر الذي أدركته»^(٨).

ويعترف التوحيدى بأنه لا يقدم صورة مطابقة للحوارات التي دارت بينه وبين شيوخ عصره، وعذره في ذلك أن «الكلام بينهم كان يلتف ويلتبس»^(٩)، مما يفتح باب الشك في حقيقة هذه «المقاييسات»، وبما يجعلنا نجرؤ على التساؤل: ألا يجوز أن يكون التوحيدى قد وضع الكثير من آرائه على أسنة شيوخ عصره، خاصة أن «المقاييسات» تمتلئ بأسئلة قام هو بطرحها عليهم، وبعضها يشير إلى أنه سبق وأن طرحها في (الهوامل)^(١٠)؟

أما رسالته في (الصدقة والضديق) فقد كان موضوعها حاضرا في نفسه منذ عام ٣٥٠هـ، فلما أطلع أحد معارفه على أمرها نقل الخبر إلى الوزير ابن سمدان، فطلب منه هذا الأخير تحريرها ففعل، غير أنه لم يعرضها عليه، وكان ذلك عام ٣٧١هـ. ومنذ ذلك الحين وهو يضيف إليها نتاج خبراته وتأملاته إلى أن كتبها في شكلها النهائي في آخر أيامه عام ٤٠٠هـ^(١١). والرسالة جمع لكل ما قيل في الصدقة، كما أنها تساؤل عن الصدقة، فيها تختلط الفلسفة الإسلامية السائدة برؤيته الجديدة للحكمة، التي يريد استبدالها بالرؤية السائدة. وسنعود للحديث طويلا عن هذه الرسالة عند حديثنا عن الصدقة.

أما (الإشارات الإلهية والأنفاس الروحانية)، فقد ضمنه التوحيدى خلاصة تجاربه الروحية. وهو يفعل ذلك بأسلوب «التائب المنسحق» بتعبير البعض، والمتحرق شوقا إلى ملاقة ربه في آخر حياته^(١٢). في هذا الكتاب، التوحيدى صوفي متفلسف، وهو الذي هاجم صوفية عصره والسابقين عليه. ولقد ذكر له عمدة دراسات التصوف لويس ماسينيون من الأعمال الصوفية رياض العارفين، ورسالة صوفية وأخبار

وهذا البحث الجديد عن الحق لا بد أن تكون قاعدته هي التراث العربي ووعاؤه اللغة على ألا يقبل من الوافد، سواء أكان يونانيا أم فارسيا، إلا ماله أصل في هذا التراث. يقول في المسألة الرابعة والثلاثين التي تسأل فيها عن «نيف وعشرين مسألة» : «ولم أذكر البخت، فإنه ليس من كلام العرب»^(١٣). ولعل ما أطلق عليها «ملكة المسائل» تكشف عن محور تفلسف التوحيدى؛ ونعني به حياة الإنسان المتأرجحة بين السعادة والتعاسة وفقا للإنصاف والظلم. يقول في المسألة الثامنة والثمانين :

«حدثني عن مسألة هي ملكة المسائل، والجواب عنها أمير الأجوبة وهي... السل في الجسم، والحسرة في النفس، وهذا كله لعظم ما دهم منها، وابتلى الناس به فيها، وهي حرمان الفاضل وإدراك الناقص، ولهذا المعنى خلع ابن الراوندى ربة الدين، وقال أبو سعيد الحصري بالشك، وألحد «فلان» في الإسلام، وارتاب «فلان» في الحكمة. والبحث عن هذا السر واجب»^(١٤).

وفي (المقاييسات) يخطو التوحيدى خطوة أبعد في درب التفلسف وفي تحديد نوعية تفلسفه. يقول في المقاييسات الثالثة: «والكلام في الأخلاق مطرب، وكل هذا الكتاب فيها»^(١٥). كما يقول في المقاييسات الثالثة والأربعين: «واعلم أن الغرض كله من هذا الكتاب، وجمع ما أثبت عن هؤلاء الشيوخ إنما هو في إيقاظ النفس، وتأييد العقل، وإصلاح السيرة، واعتياد الحسنه»^(١٦). وبالرغم من زعم التوحيدى أن «المقاييسات» كلها تدور حول الأخلاق، فإن (المقاييسات) نفسها تكشف عن الاهتمام بدائرة أوسع هي دائرة الإنسان حياته ومشاكله وعلاقة عقله بالدين وعلاقة أصوله بالوافد عليه. ففي (المقاييسات) عالِم التوحيدى علاقة الفلسفة بالدين والمتكلمين بالفلاسفة، وعلاقة النحو بالمنطق، كما عالِم الحظوظ والأرزاق. والتزم فيها بمنهج (الهوامل) نفسه ومن قبله في (الإمتاع والمؤانسة)، ألا وهو الحوار أو الحديث، وإن كان يصرح للمرة الأولى بأنه يخلط الفلسفة «بأشياء أخرى»، وهو ما يعنى عندنا أن تصوره للفلسفة مختلف عن التصور السائد في عصره، فالفلسفة في تصوره أوسع دائرة مما

الصوفية، والحج العقلي^(١٣). والغريب أنه لم يذكر (الإشارات الإلهية)، مما يعني أن الجانب الصوفي التوحيدي يحتاج إلى جهود جادة من جانب الباحثين. ولقد عده ماسينيون «فيلسوفاً عظيماً»^(١٤). فسبق بذلك منذ عام ١٩٢٩ كل الباحثين في التوحيدي الذين جاءوا بعده، وإن كان يخامرني الشك أن أحداً منهم لم يطلع على كتاب ماسينيون هذا، كما أن ماسينيون في دراسته المستفيضة الجريئة عن الحلاج ربط بين صاحب (الطواسين) والتوحيدي فيما يتعلق بمسألة الحج. فإذا كان الحلاج قد دعا إلى «إسقاط الوسائل» والتسامي على شاطئ الحج العينية، فقد أجاز التوحيدي الحج العقلي في كتابه المفقود اليوم الذي يحمل الاسم نفسه^(١٥). ولعل حقيقة علاقة التوحيدي بالحلاج من المسائل التي ينبغي أن تدرس من قبل دارسي التصوف حتى تزداد معرفتنا بصاحب (الإشارات الإلهية). ولقد أشار ماسينيون في الدراسة ذاتها إلى التشابه بين نص للحلاج ونص من الصداقة والصديق^(١٦). ولعل إشارات ماسينيون هذه تفسر لنا اتهام التوحيدي بالكفر والزندقة في عصره، بل وضياح الكثير من أعماله التي ذكرها ماسينيون ومنها (الحج العقلي).

٢ - السعادة والفلسفة :

كانت الفلسفة هي وسيلة الخاصة للسعادة في القرن الرابع الهجري، فكتب أبو الحسن العامري الذي أكثر التوحيدي من ذكره والثناء عليه كتابه (السعادة والإسعاد) وكتب مسكويه أعماله الأخلاقية. أما التوحيدي، فيبدو موقفه من الفلسفة غير واضح. فهو يزعم أنه ليس من أهلها مع أنه تتلمذ على كبار متفلسفي عصره وعالج كل تضايها. تناقض آخر؟ لا، بل موقف دقيق يحتاج إلى توضيح.

درج الباحثون على الانطلاق من مقولة ياقوت الحموي التي تذهب إلى أن التوحيدي «فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة» لإثبات انتمائه للفلسفة، ولكنهم جميعاً لم يلتفتوا إلى أمر مهم، ألا وهو أن التوحيدي لم يكن ينتمى إلى فلسفة عصره إنما كان ينتمى للفلسفة بألف التعريف

على ما تتضمنه من تيارات مختلفة. وهو عندما ينفي انتماءه للفلسفة يصدق القول، لأنه لا ينتمى بالفعل للفلسفة السائدة. اعتبره أحمد أمين موسوعياً حاول تسجيل كل الموجود من فنون وعلوم في القرن الرابع الهجري^(١٧)، واعتبره زكريا إبراهيم، الذي يعيل إلى دراسة «الدور الحضاري» الذي قام به التوحيدي في عصر ازدهار الذي عاشه، مفكراً حاول مزج الفلسفة بالأدب، بهدف تقديم حكمة شعبية تكون في متناول الجمهور. أما الفلسفة، فهي الفلسفة اليونانية، وأما الأدب فهو الأدب العربي. ولأن زكريا إبراهيم دارس للفلسفة، فقد انتبه لنزعة التساؤل عند التوحيدي، واجتهد في إثبات أنه «فيلسوف التساؤل» لأن لديه «روحاً تساؤلية» تعشق الجدل، ولا تكاد تكف عن إثارة السؤال تلو السؤال، وجعل هذه الروح التساؤلية هي سبب موسوعيته^(١٨). ومن قبلهما ذهب حسن السندوبي في مقدمته لـ (المقابسات) عام ١٩٢٩ إلى أن التوحيدي نجح في مزج الأدب بالحكمة، والتصوف بالفلسفة، وفي توليد مذهب خاص من هذا المزيج، بحيث لا يمكن أن ينسب إلى فرقة بعينها، ولا إلى مذهب بذاته^(١٩). وتناول البعض موقفه الفلسفي تأويلاً يبدو لنا عجيباً، فالتوحيدي عنده قد عاش في ظل «الحقيقة الفلسفية» لأنها مخدرة لآلامه النفسية. إلا أن التوحيدي لم يكن ذلك المستسلم لتلك الحقيقة إنما تمرد عليها، وأخذ يصارع التيار السائد بروح متمردة، مما جعل منه مثلاً لوعي اجتماعي غير ناضج لأنه وعي «غير مبني على فلسفة متكاملة في الحياة»^(٢٠). هل نجرؤ على القول إن هذا التأويل مجحف للتوحيدي ويعيد كل البعد عن حقيقة صاحب (المقابسات) بالرغم من مكانة صاحبه؟

ماذا يقول التوحيدي نفسه عن علاقته بالفلسفة؟ يقول في (الصداقة والصديق) إنه لن يذكر إجابة أبي سليمان السجستاني لما فيها من فلسفة «موقوفة على أصحابها لا نزاحمهم عليها ولا نماريهم فيها»^(٢١). فهل صحيح أن التوحيدي لم يكن من أصحاب الفلسفة؟ درس على يد السجستاني الذي اشتهر ببراعته في الجدل، وبقدرته الفائقة على تحديد معاني الألفاظ، وشرح المفاهيم الفلسفية. كما كان من ضمن أساتذته يحيى بن عدي، والخوارزمي، والصيمري، ووهب بن يعيش اليهودي، وكل هؤلاء

السادسة من (الإمتاع والمؤانسة)، للمقارنة بين العرب والعجم، وذكر قول ابن المقفع ليثبت أن العرب أصحاب إبداع عقلي بسبب ظروف حياتهم في الصحارى الموحشة، تلك الظروف التي حالت دون اتصالهم بالأمم الأخرى وأخذهم عنها. قال ابن المقفع :

«إن العرب ليس لها أول تؤمه ولا كتاب يدلها، أهل بلد قفر ووحشة من الإنس، احتاج كل واحد منهم في وحدته إلى فكره ونظره وعقله... وجعلوا بينهم شيئا ينتهون به عن المنكر، ويرغبهم في الجميل، ويتجنون به على الدناءة ويحضهم على المكارم... ليس لهم إلا وهم يحاضون به على اصطناع المعروف وبذل المال... كل واحد منهم يصيب ذلك بعقله، ويستخرجه بفطنته وفكرته فلا يتعلمون ولا يتأدبون، بل نحائر مؤدبة، وعقول عارفة، فلذلك قلت لكم: إنهم أعقل الأمم، لصحة الفطرة واعتدال البنية وصواب الفكر وذكاء الفهم»^(٢٢).

وهاجم التوحيدى، شأن كل المجددين، المذهبية التي تنتهى بالضرورة إلى التقليد والجمود. ويتجلى هذا الهجوم في اتهامه ابن السمع بأنه «بالتبعية أشبه» وفي اتهامه القومى أبا بكر بأنه «كالقلد بين المحققين، والتابع للمقدمين»^(٢٣).

كانت أزمة التوحيدى الحقيقية التي عانى منها الكثيرون معه هي تمزق المجتمع بين نزعتين أو عقليتين أو تصوريين للعلاقة بين الله والإنسان، كل منهما تنزع إلى السيطرة على أسلوب حياة البشر من خلال السيطرة على مفاهيمهم وعقولهم. أما هاتان النزعتان فهما النزعة العقلية العلمية الفلسفية اليونانية من جهة والنزعة الشرقية وقوامها الحكمة من جهة أخرى. ولقد سجل التوحيدى في جل أعماله (البصائر والذخائر، الإمتاع والمؤانسة، الهوامل، المقابسات) جهود شيوخ عصره للخروج من هذه الأزمة، إما بالتوفيق بين النزعتين، أو بتغليب واحدة منهما على الأخرى^(٢٤). وما تسجيل التوحيدى لتلك الجهود إلا مشاركة منه في البحث عن الحل. وفي رأينا أن الحل عند التوحيدى تمثل في الفصل بين الفلسفة والدين. وقد يبدو غريبا أن يكون الفصل

متفلسفة. وقبل كل هؤلاء فتن بالجاحظ وكتب عنه تقريرًا وروج له في الأوساط الثقافية، والجاحظ صاحب رؤية اعتزالية متفردة. تكوين التوحيدى، إذن، كان تكوينًا فلسفيًا مما يعنى أن الرجل كان شغوفًا بالفلسفة.

حقيقة الأمر أنه كان متفلسفًا وإن لم يكن فيلسوفًا على غرار الفلاسفة المسلمين السابقين عليه ولا على غرار المعاصرين له، ولذا نراه يكثر من ذكر الفلاسفة اليونان وعلى رأسهم سقراط وأفلاطون ودوجين وأرسطو، ولكنه لا يذكر الكندي أو الفارابي من السابقين عليه، ولا ابن سينا المعاصر له. وهو إذا ذكر مسكويه فإنما يفعل ذلك ليحقر من شأنه، وإذا وجه إليه الأسئلة يفعل ذلك متعاليا مستخفا به. فهل يجوز لنا على استحياء افتراض أن صاحبنا كان يحلم بفلسفة جديدة، أو بمعنى أدق بحكمة جديدة تكون ذات سمة عربية، أى تستقى مفاهيمها وقيمها من التراث العربى المتمثل فى الأدب والشعر العربيين، وهو من حفظتهما المعدودين، وإن استرشدت بالفلسفة اليونانية، وهل يمكننا القول إن فى إعلائه من شأن النحو العربى على المنطق اليونانى، واعتبار النحو هو المنطق العربى على الأصالة، الأمر الذى عالجته فى الليلة الثامنة من ليالى (الإمتاع والمؤانسة)، دليلا على محاولة الاستقلال عن الفلسفة اليونانية، والبحث عن فلسفة عربية أو حكمة عربية فى تراثنا العربى؟ وأليست محاولته لتبيين الفوارق اللغوية الدقيقة بين المترادفات العربية بهدف إظهار الاختلافات الدقيقة بين «معانيها»، ومحاويلته لتبيين المعانى المختلفة للفظ الواحد نوعا من التاصيل الفلسفى العربى للمفاهيم، بما أن اللغة هى وعاء الفكر؟ والأمثلة على تلك المحاولات عديدة من قبيل تفرقه بين كل من القديم والعتيق، والزمن والذهر والحين، والوفاق والاتفاق، والخلاف والاختلاف، ومن قبيل نبينه لمعلاقة قوية بين الحديث بمعنى الحوار والحديث بمعنى الجديد. وأليست مراجعته ومناقشته للتعريفات الفلسفية المختلفة، وأشهرها تعريف أرسطو للصداقة إلا دليلا على أنه أخذ على عاتقه تمحيص المقولات الموحية بالعمق والفراغة من الحقيقة؟ ولو ربطنا بين هذا الموقف ومحاربه الشعبية من جهة، وبينه وبين إعلائه من شأن العرب على كل العجم من جهة أخرى، لانتضحت لنا الصورة أكثر. خصص التوحيدى الليلة

بين الفلسفة والدين هو حل أزمة الصدام بين النزعة اليونانية الفلسفية والنزعة الشرقية في نظر التوحيدى، لكن دهشتنا تتلاشى إذا ما عرفنا أن التوحيدى كان يعتبر أنه إذا كانت الفلسفة يونانية فإن الشريعة عربية^(٢٥). ويفصله بين الفلسفة والدين، كان التوحيدى ينقلب على آلية التوفيق بينهما، التى سادت منذ الفارابى وإن اتخذت أنشكالا عدة، منها الشكل الذى تبناه إخوان الصفا الذين هاجمهم التوحيدى. وذكروا حل التوحيدى المتمثل فى الفصل بين قطبى الصراع بالحل الرشدى الذى جاء بعد قرنين من الزمان، وإن كان ثمة اختلاف كبير بين الموقفين، ونعنى به أن التوحيدى جعل الدين أعلى وأثرى من حيث الحقائق على الفلسفة، وجعل النبى يفوق الفيلسوف، بينما ابن رشد كان يرى الفلسفة والدين توأماً أو وجهين لعملة واحدة، أو يعبران عن حقيقة واحدة. وتجلى هذا الحل الذى ارتآه التوحيدى فى موقفه من إخوان الصفا الذين خصص الليلة السابعة عشرة للحديث عنهم، ولكشف حقيقة فكرهم للمرة الأولى. فقد ظن إخوان الصفا أن الفلسفة هى الوسيلة لـ «الفوز برضوان الله» لأنها «حايوة للحكمة الاعتقادية، والمصلحة الاجتهادية»، وهى التى بإمكانها «غسل» و «تطهير» الشريعة من «الجهالات» و «الضلالات». ولقد رد السجستانى عليهم كما ذكر التوحيدى بأن :

«الشريعة مأخوذة عن الله بواسطة السفير بينه وبين الخلق من طريق الوحي، وباب المناجاة... وظهور المعجزات على ما يوجب العقل تارة، ويجوز تارة... وفى أثناءها ما لا سبيل إلى البحث عنه، والغوص فيه، ولا بد من التسليم للداعى إليه... وهناك يسقط لم ويظل كيف ويزول هلا ويذهب لو وليت فى الريح».

وأكد السجستانى أن الشريعة ليس بها خطاب علمى أو - على حد تعبيره - ليس فيها حديث المنجم، ولا «حديث صاحب الطبيعة»، وأنها مكتملة ولا تحتاج إلى أية تكملة، فلو كانت كذلك لكان فى القرآن وفى أحاديث الرسول إشارة إلى ذلك: الشرائع كلها وليست إسلامية فحسب لا حاجة بها إلى الفلسفة. والفلسفة فى رأى السجستانى تحتاج

إلى الشريعة والعكس غير صحيح^(٢٦). والأمر الذى لم يلتفت إليه الباحثون، وهم بصدد الحديث عن موقف التوحيدى من علاقة الفلسفة بالدين، أن التوحيدى قال بالحقيقتين، ذلك القول الذى كُفر القائلون به فى العصور الوسطى سواء أكانوا من المسلمين أم من المسيحيين بعدهم. وصحيح أنه ينسب هذا القول إلى أستاذه السجستانى، ولكننا نعرف أن التوحيدى تبنى فكر أستاذه بل إنه فيما نظن نسب إلى أستاذه فى كثير من الأحيان بعضاً من فكره هو. يقول السجستانى :

«إن الفلسفة حق لكنها ليست من الشريعة فى شئ والشريعة حق لكنها ليست من الفلسفة فى شئ... من أراد أن يتفلسف فيجب عليه أن يعرض بنظره عن الديانات، ومن اختار التدين فيجب عليه أن يعرِدَ بعنائه عن الفلسفة ويتحلى بهما مفترقين فى مكانين على حالين مختلفين»^(٢٧).

إلا أن التوحيدى يضيف - على لسان السجستانى بالطبع - ما يلقى مزيداً من الضوء على تصويره لتلك العلاقة الدقيقة التى تصورها بين الفلسفة والشريعة، وإن استخدم مصطلح الحكمة فجاءً بدلاً من مصطلح الفلسفة الذى استخدمه فى كل معالجته السابقة؛ يضيف أن الإنسان الذى يفصل بين الاثنين يستعين بهما لعبادة الله، فالدين يقربه من الله بينما الحكمة توقفه على قدرة الله فيزداد معرفة به. ويقول إن الإنسان «يكون بالدين متقرباً إلى الله تعالى... ويكون بالحكمة متصفحاً لقدرة الله تعالى فى هذا العالم»^(٢٨). وللمرة الأولى يتخلى التوحيدى عن علاقة التضاد التى يفترض دائماً أنها تربط بين قطبى كل الازدواجيات التى عرض لها، فبالرغم من اختلاف المجالين واختلاف مصدرهما، فإن غايتهم واحدة؛ ألا وهى معرفة الله والتقرب منه، فى علاقة تكامل وليست علاقة صراع؛ تلك العلاقة التى تصورها التوحيدى تجمع بين الدين والفلسفة، فالإنسان «لا يهدم أحدهما الآخر»^(٢٩). ويربط التوحيدى - على لسان السجستانى - بين الفلسفة والدين من جهة، والسعادة من جهة أخرى. فالسعادة القصوى فى الآخرة تتحقق إما بواسطة الدين أو الفلسفة، أو يكبلهما معاً، وهذا فضل ونعمة من الله. يقول :

ياقوم الفقيه، والنحوى، والطبيب، والمهندس،
والمنطقى... والإلهى... والصوفى؟^(٣٣).

وهذا الموقف من المتكلمين يتفق فى رأينا مع موقفه من
العلاقة بين الفلسفة والدين. لقد هاجم المتكلمين لأنهم
خلطوا بين الفلسفة والدين ذلك الخلط الذى يراه يلحق
الضرر بالعقيدة. يقول فى (البصائر والذخائر) مما يكشف عن
أخذه بهذا الموقف من الكلام منذ بداية حياته الفكرية :

«ولو حمل الأمر على رأيهم [رأى المتكلمين]
فى جميع أركان الشريعة سقط ثلثا الشريعة،
وحصل الثلث... وما أحوج الناظرين للدين إلى
حسن الظن واليقين... فإنه متى حاول معرفة
كل شئ بالرأى والقياس كل ومل، ومضى
استرسل مع كل شئ زل وضل»^(٣٤).

هل كان التوحيدى يهاجم الكلام كله والمتكلمين على
اختلاف فرقهم؟ من المعروف أن التوحيدى الاعتزالى - شأنه
شأن الجاحظ شيخه ورائده - عاش فى فترة ازدهار الأشعرية
وخشوف المعتزلة وتواربهم، وأن المعتزلة فى هذه الحقبة - ربما
تحت ضغط الظروف - غفلوا أو تفاقلوا عن دعوة الاجتهاد
المميزة لهم والمتمثلة فى التأويل، ومالوا إلى الأخذ بالمستقر
من الفلسفة سواء أكان ميتافيزيقا أم منطقيا أم طبيعيا. من
أجل هذا هاجم التوحيدى معتزلة عصره تماما كما هاجم
الأشاعرة. ولعل أقسى نقد وجهه للمعتزلة هو أنهم صاروا لا
يربطون الفكر بالعمل لانسحابهم من المشاركة فى الحياة
العامة. يقول عنهم: «ولهم التشقيق والتعطيط، والدعوى،
والإعراب، والعصبية والتشنج»^(٣٥). كلام.... كلام هذا
كل ما يفعلونه. وهم لا يتورعون عن «ادعاء العدل والعمل
«بالجور»، وعن «الأمر بالمعروف» مع إتيانهم «المنكر»، وعن
دعوة «الناس إلى الله بالقول» مع «التفسير» «عنه بالفعل».
والتوحيدى صادق فيما يقول؛ فهو لم «يهرج» مذهبهم
ولذلك لا حاجة له للاعتذار^(٣٦).

لايد، إذن، من إعادة نظر فى علم الكلام من خلال
إعادة النظر فى مفاهيمه ومقولاته، فالبداية دائما عنده هى
الحدود والمعانى. ولهذا فرق فى (الإمتاع والمؤانسة) بين

«ومن فضل نعمة الله تعالى على هذا الخلق أنه
نهج لهم سبيلين ونصب لهم علمين، وأبان لهم
نجدين ليصلوا إلى دار رضوانه إما بسلوكهما وإما
بسلوك أحدهما»^(٣٧).

ونرى لزما علينا لفت النظر إلى خطأ ورد من قبل
محققى (الإمتاع والمؤانسة) فيما نحن بصدد؛ إذ فسرا
السبيلين والعلمين والنجدين أنهما العقل والعلم، بينما المعنى
المقصود فى رأينا، الذى يستقيم مع سياق النص، أنهما الدين
والفلسفة، فكيف يمكن أن يكون الله قد «نصب لهم
علمين» ثم يكون أحد هذين العلمين هو العلم بينما الثانى
هو العقل^(٣٨). وهذا التفسير وغيره من قبل المحققين ينبغى
أن يكون مدعاة لنا لتقديم تحقيق جديد لكل أعمال
التوحيدى إذا أردنا أن نعرفه معرفة علمية دقيقة؛ إذ كانت
التحقيقات الأولى تهدف إلى التعريف به، الأمر الذى ينبغى
أن نتجاوزه إلى التدقيق فيه. ولقد لفت نظرنا أنه فى الوقت
الذى يدرس فيه بعض المستعربين اتصال وتطور الدراسات
التوحيدية الحديثة فيما بين عام ١٨٨٣ وعام ١٩٦٥^(٣٩)،
لم يزل بعضنا يخطئ فى عام ١٩٩٥ فيما أصبح من
البديهيات فى الدراسات التوحيدية فيجعل (الهوامل
والشوامل) أول أعماله، و (الإشارات الإلهية) سابقة على
(الإمتاع والمؤانسة)، ويجعل (البصائر والذخائر) من أخريات
أعماله، ويجزئ على القول بأن عدد مسائل (الهوامل) مائة
وثمانون، غير حافل بعواقب هذا الاستخفاف الذى قد يجبر
عليه شبهة عدم النظر فى فهرس هذا الكتاب المطبوع.

٣ - هجومه على علم الكلام :

هاجم التوحيدى الكلام المعاصر له لأنه أصبح عقبة دون
تحقيق السعادة بسبب جموده وإصراره على الخلط بين
الفلسفة والدين. وسخر التوحيدى من المتكلمين الذين غالوا
فى الغرور فظنوا أنهم وحدهم المتكلمون. يقول على لسان
يحيى بن عدى إن المتكلمين كانوا يصرحون :

«نحن المتكلمون، ونحن أرباب الكلام، والكلام
لنا، بنا كثر وانتشر وصح وظهر! كأن سائر الناس
لا يتكلمون أو ليسوا أهل كلام؟... أما يتكلم

القديم والعتيق، وبين الزمان والدهر، وأعاد النظر في العلاقة بين القديم أو العتيق من جهة والخلق من جهة أخرى^(٣٧). ولقد أعانه على هذه المراجعة معرفته الدقيقة باللغة وإلمامه الفذ بالتراث العربى، فجاء بجديد يستحق دراسة مدققة من جانب المعنيين بعلم الكلام. وراجع كل قاموس المصطلحات الكلامية الفلسفية فى (الهوامل) خاصة فى المسألة الرابعة والثلاثين، محاولاً بيان الفروق الدقيقة بين «حقائق المعانى». ومن هذه المصطلحات: القوة، والقدرة، والاستطاعة والطاقة... واللطف، والمصلحة... والولاية، والملك، والملك، والرزق^(٣٨). وتساءل عن قضية الصفات الإلهية وعن المعدوم^(٣٩).

وبالرغم من هجوم التوحيدى على المتكلمين، فإنه يستخدم قاموس مصطلحاتهم ينهل منه مع دقة فى الاستخدام. فهو يستخدم على سبيل المثال مصطلح «التصحیح» المشتق من مصطلح «الصحة» الاعتزالي الذى أكثر من استخدامه أحد أئمة الاعتزال المعاصرين للتوحيدى، ونعنى به القاضى عبدالجبار. كما استخدم مصطلحات الإيجاب والتوجيز، والاقتدار والتعجيز، والتعديل والتحوير، والتوحيد والتكفير، والعدل والجور، والجليل - المصطلح الجاحظى - بكثرة فى كل أعماله خاصة فى رسالته عن العلوم^(٤٠). يمكن، إذن، توظيف مفاهيم المتكلمين فى البحث عن السعادة دون أخذ مقولاتهم.

٤ - موقفه من مسكويه :

يبدو أن العلاقة بين التوحيدى ومسكويه سادها دائماً نوع من التوتر ساهم الاثنان فى خلقه. يقول مسكويه فى رسالته التى رد بها على «الهوامل» للتوحيدى:

«قرأت مسائلك التى سألتنى أجوبتها فى رسالتك التى بدأت بها فشكوت فيها الزمان، واستبطأت بها الإخوان، فوجدتك تشكو الداء القديم والمرضى العقيم، فانظر حفظك الله إلى كثرة الساكنين حولك وتأسى، أو إلى الصابرين معك وتسل^(٤١)».

مما يكشف عن نفور من التوحيدى ومن أسلوب تعامله مع الحياة. أما التوحيدى. فلم تفته فرصة لمهاجمة مسكويه صراحة وذمه. يقول:

«فأنت تدعى الحكمة، وتتكلم فى الأخلاق وتزيف منها الزائف، وتختار منها المختار فافطن لأمرك، واطلع على شرك^(٤٢)».

وكان يأخذ عليه اشتغاله بالكيمياء. وكنا نتوقع من هذين الفيلسوفين المعنيين بالإنسان أن يتفقا وأن يتآزرا. هل كان سبب ذلك غير التوحيدى من مسكويه، الذى كان يحالفه الحظ دائماً ويظفر برضاء الكبراء، فيغدقون عليه كما فعل ابن العميد عندما اتخذ منه خازناً لكتبه أم كان السبب عناية مسكويه «بجمع» الحكمة الأخلاقية سواء أكانت شرعية قديمة من فارسية وهندية، أم كانت يونانية، أم عربية، أم إسلامية، بينما التوحيدى لا يرضى إلا بتوظيف التراث العربى وخلق رؤية جديدة للإنسان؟ نميل إلى ترجيح هذا السبب الأخير؛ فمما لاشك فيه أن التوحيدى ما كان يرضيه هذا التوفيق بين العربى وما هو غير عربى، ولا كان يرضيه تبني مسكويه نظريات أرسطو فى النفس والأخلاق، تلك النظريات التى كان التوحيدى يراها براءة فى الظاهر، خاوية من كل حقيقة فى الباطن. ومن الباحثين من تبين انتقال مسكويه فى أول فصول (تهذيب الأخلاق) لنظرية أبى سليمان السجستاني فى النفس؛ تلك النظرية التى عرضها التوحيدى فى (الإمتاع والمؤانسة) بأمانة شديدة^(٤٣). فهل كان التوحيدى على علم بما يقوم به مسكويه من عمل لا يتفق والأخلاق التى يتشدق بها؟

لعل كل هذه الأسباب تضافرت لتجعل من مسكويه رمزاً لما ينبغي تنحيته فى نظر التوحيدى واستبدال به جديد عربى فى الجذور إنسانى فى الشمار. وحتى ما اشترك فيه مسكويه مع التوحيدى، ألا وهو النزعة الإنسانية المتمحورة حول الإنسان وسعادته، كان أساسه عند صاحب (تهذيب الأخلاق) مختلفاً عنه عند صاحب (المقاييسات). فبينما انطلق مسكويه مما يبنى أن يكون عليه الإنسان ليكون سعيداً انطلق التوحيدى من حقيقة الإنسان النعسة التى جسدها هو

حفت بأباطيل... الغبطة... فى حال أخرى...
الغبطة فى النجوة من هذه الدار التى قد ضربت
على غصب الألباب من أربابها... إلى محل لا
ألم فيه ولا أذى... إلى محل تجدد فيه النعيم
صافيا والحق باديا، إلى محل لا يعترى فيه
ملل، ولا يتألبك فيه علل... حيث يحكمك
المولى فتحكم ويدريك إلى حضرته فتطمع^(٤٧).

السعادة فى سلب الألم مفهوم يدل على تشاؤم
التوحيدى الفظيع وعدم ثقته فى وجود السعادة فى الدنيا.

السعادة الدنيوية التى أنفق حياته كلها فى البحث عنها
والطمع فيها، كان فى الحقيقة يعرف أنها غير ما يطمع فيه
وغير ما يتصوره الناس، لأن الحياة نفسها التى تطلب فيها
السعادة مأزق، والسعيد هو من ينجو منها، وإذا تحقق له ذلك
يفضل الزهد فيها نال سعادة الآخرة. يفتح (الإمتاع) بقوله :

«نجا من آفات الدنيا من كان من العارفين،
ووصل إلى خيبرات الآخرة من كان من
الزاهدين»^(٤٨).

ويرفض التوحيدى صراحة التصور الإسلامى للسعادة،
ذلك التصور الوسطى المعتدل الذى يجمع بين سعادة الدنيا
وسعادة الآخرة: «خيركم من أخذ من هذه وهذه». فعنده أن
هذا تصور «مقبول الظاهر موقوف الباطن». والعجيب أن
التوحيدى يرجع عليه التصور المسيحى للسعادة الذى يقابل
بين السعادة فى الدنيا والسعادة فى الآخرة. ألا يكشف هذا
التحرر، وألا تكشف هذه الجرأة فى انتقاء التصورات الأساسية
من الأديان كلها، وكأنها تكون ترانا واحدا يمكن النهل منه
بينما هى متميزة لكل منها خصوصيتها، ألا يكشف هذا
عن اعتقاد بوحدة الأديان بدأ مع العلاج، وكان التوحيدى
أحد القائمين به، وإن أحسن الشقية على عكس العلاج؟ ألا
يكون هذا الإيمان بوحدة الأديان أحد أسباب اتهامه بالكفر
والزندقة؟ ألا يكون هذا هو السبب فى «اعتراف» أحد
الباحثين المسيحيين المتميزين «بأنه ليس بين مفكرى العرب
جميعا من هو أحب إلى نفسه من أبى حيان التوحيدى!»
وبالرغم من اصطناع البراءة، فلم يخف على القارئ أن هذا

نفسه فى حياته. ولا يتسع المقام، هنا، للاستفاضة فى المقارنة
بين هذين الفيلسوفين اللذين اشتركا فى نزعة إنسانية بدت
كنفحة شاذة فى القرن الرابع الهجرى، وهى مقارنة تستحق
دراسة مستقلة، ولذا نكتفى بالقدر الذى قدمناه والذى أردنا
به تفسير علاقة صاحب الهوامل بصاحب الشوامل، تلك
العلاقة التى هى صورة من صور علاقة التوحيدى بالفلسفة
السائدة فى عصره.

٥ - السعادة: المشكلة والحل :

١ - سعادة الآخرة وشقاء الدنيا :

السعادة نوعان؛ سعادة دنيوية وسعادة أخروية، والأولى أقل
شأنا بالطبع من الثانية. يقول التوحيدى: «السعادة العظمى
فى العقبى والسعادة الصغرى فى الدنيا»^(٤٩). ويلوح أحيانا
على لسان محاوريه أن السعادة الحقيقية هى السعادة
الأخروية. يقول التوشجاني معرفا السعادة أنها «نيل النفس
طلبتها» أما طلبتها فهى «عودها إلى معادها برية من كل
دنس وروب، خالصة من كل عارض وشوب»، وفسر العود
بأنه «هو استكمالها وبلوغها غايتها التى كانت قبلتها
ومقصدها»^(٥٠). وحدد وسائل كسب السعادة بأنها العمل
الصالح وإخلاص المعتقد والزهد، فهذه أمور تجملنا ننجو من
شقاء الدنيا التى كان التوحيدى يتشكك فى سعادتها لتحقيق
السعادة الأخروية. فيقول :

«وهل وصل الحكماء القدماء إلى السعادة
العظمى إلا بالاقتصاد فى السعى، وإلا بالرضى
بالميسور... وهل المفهوم بها إلا كالحريص
الجشع؟... هيهات! الرحيل والله قريب، والثراء
قليل،... والمقام مضى، والطريق مخوف... والله
من وراء هذا كله طالب»^(٥١).

ويعرف الغبطة أو السعادة القصوى بأنها ليست كما قد
يظن الإنسان الذى يوجه إليه أحيانا التوحيدى خطابه فى
(الإشارات)، لأنه يوجهه لله فى أغلب الأحيان:

«شجوة تنال، ونعمة تدرك، وحلم يتطمع...
ونديم يضاحك،... هيهات!... هذه أضاليل قد

الساحث الكبير حرص على نعت التوحيدى بالعربى وليس بالإسلامى. أما قول السيد المسيح الذى يقبله التوحيدى فهو:

«الدنيا والآخرة كالمشرق والمغرب متى بدأ أحدكم من أحدهما قرب من الآخر، ومتى قرب من أحدهما بعد من الآخر»^(٤٩).

تبين التوحيدى الذى أطال فى تأمل «قضية» السعادة أن المشكلة الحقيقية تكمن فى أن الإنسان بطبيعته يعشق السعادة ويحبها. هكذا خلقه الله، بينما السعادة لا تخضع لأية ضوابط ولا معايير، فتمنح فى أغلب الأحيان لمن لا يستحقها. والمقصود هنا بالسعادة بالطبع السعادة الدنيوية أو العاجلة. طبيعة السعادة هذه جعلت الإنسان الذى لا يحظى بها يشعر بالظلم، ولذا أرسل الله الرسل والأنبياء، ولهذا أيضاً وجد مفهوم الجبر والاختيار. يقول «متسائلا» «مجيباً» فى (الهوامل):

«ما العلة فى حب العاجلة؟ ألا ترى الله تعالى يقول: «كلا بل تحبون العاجلة»... ومن أجل هذا المعنى ثارت الفتن واستمالت الأحوال وحارت العقول، واحتيج إلى الأنبياء، والسياسة، والمقامع، والمواظع، فإذا كان حب العاجلة طبعاً، ومبذوراً فى الطينة، ومصوغاً فى الصيغة، فكيف استطاع نفسي ومزابلته؟ وكيف يرد التكليف بخلاف ما فى الطبيعة؟ أليست الشريعة مقوية للطبيعة؟... وكيف يطرد العتب على من أحب ما حبيب إليه... وهذا نظر ينسل إلى الجبر والاختيار»^(٥٠).

البحث فى السعادة وعن السعادة أوقع الإنسان، فيما يرى التوحيدى، فى دوامة الحيرة والتخبط التى قد تجعله يقترب من الخروج على العقيدة. خلقنا الله - كما تؤكد الآية العشرون من سورة «القيامة» - نحب الدنيا وما تتيحه من سعادة، فهذا الحب مبثوث فى الطينة التى خلقنا منها، ومع ذلك يأتى التكليف ليحجم ويقمع هذا الحب الطبيعى، أليس فى هذا تناقض؟ أليس من المفروض أن تساند الشريعة طبيعتنا بدلا من أن تعارضها؟ كان طبيعياً والحال هكذا، أى طالما

خلقنا الله نحب الدنيا، ومع ذلك لا يريدنا أن نقبل عليها، أن يرسل لنا الأنبياء، وكان طبيعياً أن يلجأ الإنسان إلى المواعظ، ولأنها لا تكفى كان لابد من السياسة بما فيها من قمع. هذا التناقض بين طبيعة الإنسان التى خلقه الله عليها وبين المطلوب منه أو ما ينبغى أن يكون عليه، هو عين الإنسان وهو علة الفتن وسبب حيرة عقله.

وأحيانا يجعل التوحيدى خطابه خاصا بالأمة فحسب وليس بالإنسانية كلها، فضلاً عن قدر الإنسان التعس تعانى الأمة من «العيش النكد، والشؤم الدنس والخوف الغالب»^(٥١) وفى أحيان أخرى يكلمنا عن نصيبه هو، فهو يعانى من «ألم الفقر» و «فضيحة الحاجة»^(٥٢).

ويشخص التوحيدى التعاسة كما شخص السعادة، ويرجعها إلى سبب واحد هو الظلم، تلك الآفة التى عانى منها التوحيدى طوال حياته، الذى تمثل فى «حرمانه» مما يستحق، بينما حظى «الناقص» بكل شئ. فالظلم عنده يأخذ شكل الحرمان من جهة والعطاء لمن لا يستحق من جهة أخرى. الظلم يكون فى التوزيع، والإنسان لا يظلم إلا بواسطة إنسان ولصالح إنسان. ويطرح التوحيدى الظلم لا على أنه مسألة كما فعل فى سائر مسائل (الهوامل)، إنما باعتباره حقيقة يقينية لا شك فيها، إنما هو يطلب من مسكويه الحديث عنها وإدعاء الرأى. يقول:

«حدثنى عن مسألة هى ملكة المسائل، والجواب عنها أمير الأجوبة، وهى الشجاعة فى الخلق... والسل فى الجسم، والحسرة فى النفس، وهذا كله لعظم ما دهم منها، وابتلى الناس به فيها، وهى حرمان الفاضل وإدراك الناقص، لهذا المعنى خلع ابن الراوندى ربقة الدين، وقال أبو سعيد الحصرى بالشك، وألحد «فلان» فى الإسلام، وأرتاب «فلان» فى الحكمة»^(٥٣).

الظلم يدفع إلى الكفر، إذن، كما يشكك الإنسان فى القيم والمفاهيم؛ لأن العقل يعجز عن تفسيره. لم يدع أحد فى رأى مثلما أبدع التوحيدى فى تصوير الظلم وفى بيان نتائجه. وإنى لألح إشارة ذكية إلى فشل «دعوة» المعتزلة إلى

يتجشون في التقارب والارتباط بعضهم ببعض بالصدقة، إذا ما أدركوا أنه بالرغم من اختلافهم هم متشابهون، أي إذا ما أدركوا أن العلاقة بينهم ينبغي أن تكون علاقة ازدواجية، هي ازدواجية في الفروع وليس في الأصل الذي يجمع بينهم. فالإنسان واحد وإن اختلف أفراداه نتيجة للظروف. قال السجستاني مفسرا علاقة الصداقة التي تربط بينه وبين ابن السيار المختلف عنه:

«هذا هو الذي انفردنا عنه بعد أن ازدوجنا عليه، والأصل أبدا مخالف للفرع لا خلاف الضد للضد ولكن خلاف الشكل للشكل» (٥٦).

وتصور التوحيدى علاقة البشر بعضهم البعض الآخر علاقة عضوية؛ أي علاقة أعضاء الجسم الواحد بعضها ببعض، فهي علاقة وثيقة للغاية بالرغم من اختلاف أطرافها. يقول على لسان الحسين بن سهل مخاطبا أحد أصدقائه:

«أجدني وإياك كالجسم الواحد إذا خص عضوا منه ألم عم سائر فعاثني الله بعافيتك» (٥٧).

والإنسان عند التوحيدى يزدوج مع نفسه أيضا ويختلف بعضه مع بعضه! هذا الازدواج المؤلم صوره التوحيدى بواسطة فعل الانتحار الذي تحدث عنه في باكورة أعماله (البصائر والذخائر). يقول مصورا وضع المنتحر:

«فإذا قلنا قتل نفسه، فالقاتل هو المقتول، أم القاتل غير المقتول، فإن كان أحدهما غير الآخر، فكيف تواسلا مع هذا الانفصال، وإن كان هذا ذاك، فكيف تفاصلا مع هذا الاتصال» (٥٨).

ويلج عليه الانتحار في (الهوامل) فيتساءل عنه في مسألتين متتاليتين، وإن ربط بينه من جهة وبين الإخفاق والفقر من جهة أخرى. يقول في المسألة السادسة والخمسين:

«تري ما السبب في قتل الإنسان نفسه عند إخفاق بتوالى عليه، وفقر يحوج إليه ... وباب ينسد ... وما الذي يتصب أمامه ... ويذهله عن ... حياة عزيزة؟»

العدل؛ الأمر الذي قد يترتب عليه الكفر «بالتوحيد». ويرفض ما يقال عادة لتهدئة الروح من أن ثمة عدلا في القسمة، فإن كان البعض قد حظى بالجاء والمال، فقد منح هو الأدب والفضل والعقل. فمثل هذا القول قد يقبله المؤمن لأنه مفروض على إيمانه، ولكن يرفضه الدهري والتناسخي والثنوى لأنه لا يقنع العقل. ومرة أخرى يجزؤ التوحيدى على التشكك في المقولات الإيمانية. يقول ردا على زعم أحد الشيوخ بأن:

«القسمة عدل، والقاسم منصف، لأنه بإزاء ما أعطاك من الأدب والفضل واللسان والعقل أعطى صاحبك المال والجاء والكفاية واليسار... أبلأك مع الفضل بالحاجة، وأبلأه مع الفنى بالجهالة».

يقول في رده إن هذا النوع من العدل:

«لا يصبر عليه الدهري، ولا التناسخي، ولا الثنوى، ولكن على كل حال فيه تبصرة من العمى» (٥٩).

والتوحيدى يمشق إثارة المشاكل بدلا من البحث عن الحلول، فهو لا يرى إلا السلبي ولا يتبين الإيجابي، ولذا فإننا نرى ضرورة تناول عوائق السعادة عنده قبل تناولنا وسائل الإنسان إلى سعادته.

ب - عوائق السعادة :

لعل أول عائق للسعادة هو الاختلاف بين البشر الذين يحولونه إلى خلاف؛ لأنهم لا يصبرون على اختلافهم بعضهم عن بعض. فالإنسان يصعب عليه، إن لم يكن يستحيل عليه، قبول الآخر المختلف، ولهذا انعدمت الصداقة أو كادت، وهي العلاقة الوحيدة التي يمكن أن تربط بين البشر بالرغم من اختلافهم. وبدا عند التوحيدى أن الاختلاف قانون يتحكم في الوجود الإنساني. فالألم تختلف بعضها عن البعض اختلافا يصنعه اختلاف خلقتهم ويدعمه التاريخ. ويقول: «الناس عقولهم مختلفة وانصباؤهم منها متفاوتة ... وهذا الاختلاف والتفاوت ... بالطبيعة» (٦٠). إلا أن البشر قد

و يقول فى المسألة السابعة والخمسين:

« فإذا قلنا قتل نفسه، فالقاتل هو المقتول، أم القاتل غير المقتول، فإن كان أحدها غير الآخر، فكيف توأصلا مع هذا الانفصال؟ وإن كان هذا ذلك، فكيف تفأصلا مع هذا الانفصال؟ » (٥٩)

كان ابن سينا المعاصر للتوحيدى أول من انتبه إلى الوعى بالذات من خلال صورة الإنسان الطائر، سابقا بهذا ديكارت أبا الفلسفة الحديثة، وهاهو التوحيدى يتتبع إلى الوعى نفسه وإن جعله مزدوجا. كم هى مختلفة رؤية التوحيدى الوجودية للإنسان عن تلك الرؤية «المعقولة» العاقلة العقلانية للإنسان عند فلاسفة الإسلام؟! كم هى مشيرة الرؤية التوحيدية المبتكرة الحقيقية وكم هى باهتة الرؤية السائدة فى حضارتنا.

وفى بعض نصوصه، يوحى لنا التوحيدى بأن هذه البيئونة بين الإنسان ونفسه ملازمة للإنسان على الدوام. يتساءل فى (المقابسات) بصدد الإنسان الذى يحدث نفسه عما إذا كان هو ونفسه فى هذه الحالة «كجارين متلاصقين متلاقين فيتحدثان... وهذا يدل على بيئونة بين الإنسان ونفسه» (٦٠). الإنسان غريب حتى عن نفسه، إذن، وهذا يفسر لنا كثرة حديث التوحيدى عن الغربة. ومن أهم عوائق السعادة طبيعة الإنسان التى فطر عليها، تلك الطبيعة التى تجعل منه مشكلة لنفسه؟! يقول: «فإن الإنسان قد أشكل عليه الإنسان» (٦١).

فالإنسان قلق ضعيف نمرود: «ولكن الإنسان خلق هلوعا، إذا مسه الشر جزوعا، وإذا مسه الخير منوعا» (٦٢). ولا يخفى على القارئ أن التوحيدى يستشهد بالقرآن دليلاً على صحة تصويره للإنسان. ومشكلة الإنسان عند التوحيدى تكمن فى أن الإنسان لا يحقق إنسانيته إلا إذا عاش فى الحياة الدنيا. يقول: «قيل لفيلسوف مات أخوه ما كانت علته؟ قال: كينونته فى الدنيا» (٦٣). ولقد فطر الإنسان على التناقض، مما كتب عليه التأرجح بين الشقاء والسعادة، ولا نجاة له من هذا التمزق القدرى إلا إذا صبغ الله عليه رحمته. يقول:

«لكن الإنسان مضروب بالظن والحدس، ومصنوع بالعقل والحس، ومردد بين النقص والزيادة، ومعرض فى كل وقت للشقاوة، لا فكاك له من جميع ذلك مادام فى مسكه

الطبيعى، وعقله الجزئى، وجهله الكلى، اللهم إلا أن يلبسه الله لباس الرحمة، ويفشيه غشاء العصمة، فحينئذ إن قال قال الصواب وإن فعل فعل الواجب، وإن اعتقد اعتقد الحق».

والعصمة لا تتحقق إلا لـ:

«الفلاسفة الكبار... والبررة الأخيار... ومن قد حصّه بالزلفى» (٦٤).

ضعف الإنسان يتمثل فى عجزه عن التوفيق بين جانبيه الجانب الدنيوى والجانب المتسامى، بين إلحاح شهواته «السعى فى طلب المنزلة عند ربه»، بين العمل «تارة لهذه الدار وتارة لتلك الدار». والإنسان عنده هو «هذا المذبذب الذى لا هو من هذه ولا من هذه» (٦٥).

وإذا كان البعض قد اعتقد أن التوحيدى لا يؤمن بالإنسان انطلاقاً من هذه الصورة القبيحة التى يقدمها عن الإنسان، فإن التوحيدى على العكس من ذلك تماماً كان يؤمن بالإنسان ويعرف أن نصفه إله ونصفه الثانى بشر، ولكنه كان على وعى بأن هذه الازدواجية هى مما يعجز الإنسان بعامة عن تحمله، وأن الندرة من البشر هى التى تنجح فى استكمال نفسها لتحقيق الجانب السامى فى ذاتها. يقول على لسان التوشجاني معرفاً الإنسان أنه:

«شخص بالطينة، ذات بالروح، جوهر بالنفس، إله بالعقل... فان بالحس، باق بالنفس، ميت بالانتقال، حى بالاستكمال... لب العالم. فيه من كل شيء، وله بكل شيء تعليق... من عرف فقد عرف سلالة العالم ومصاصته... فهو مثال لكل غائب، وبيان لكل شاهد» (٦٦).

الإنسان هو لب العالم ومحوره عند التوحيدى، فهل هناك اعتراف بقيمته أكثر من هذا؟ وما ذنب الإنسان وذنب التوحيدى إذا كان العالم قبيحاً؟

جـ - الحل : الصداقة :

كما صور التوحيدى أزمة الإنسان كما لم يفعل أحد من سابقاته ولا معاصريه، قدم لنا حل هذه الأزمة وطريق

تحقيق الصداقة عند التوحيدى. ولا يخفى على القارئ النزعة المسيحية الكامنة فى مفهوم التوحيدى للصداقة. يقول: «والله يا أخى أنى لأحبك فى الله». ويقول: «لو علمت منك ما تعلمه من نفسك لمتنعى من بنفسك ما أعلمه من نفسى» (٦٩).

أما الوسيلة العظمى لتحقيق الصداقة، فهى الحوار الذى يسميه التوحيدى بالحديث أو بالمحادثة. وبالحديث يثرى الناس بعضهم البعض فكريا وروحون بعضهم عن البعض نفسيا. يقول على لسان عمر بن عبد العزيز: «إن فى المحادثة تلقىها للعقول، وترويحاً للقلب، وتسريحاً للهم، وتنقيحاً للأدب». ويربط بين الحديث بمعنى الحوار، والحديث بمعنى الجديد فى مقابل القديم (بالمعنى الكلامى) من حيث إن الاثنين يحملان معنى الخلق وبث الوجود. يقول:

«والحس شديد الملج بالحوادث والمحدث والحديث، لأنه قريب العهد بالكون. ولهذا قال بعض السلف: «حادثوا هذه النفوس فإنها سريعة الدثور» كأنه أراد اصفلوها واجلوا الصدا عنها وأعيدوها قابلة لودائع الخير، فإنها إذا دثرت، أى صدئت، أى تغطت... لم ينفع بها» (٧٠).

الحوار أو المحادثة خلق جديد، إذن، لأطرافه. ألا يعنى هذا أنه إذا انقطع الحوار بين الناس اندثروا، وأليست العزلة هى التى قتلتها فأحرق كتبه التى كان قد كتبها للناس؟ وأليس قوله: «الوقت كدر، والزمان غير، والراجى قانط... فقل لى الآن بمن أتعلى؟ ولمن أتملق؟ وماذا أقول؟ وأى شئ أسمع وفى أى شئ أفكر؟... دليلا على صحة ما نقول.

وكل أشكال العلاقات الإنسانية الحميمة اندثرت عند التوحيدى. يقول:

«إن الصداقة والألفة والأخوة والمودة والرعاية والحافضة قد نبذت نبذا ورفضت رفضا ووطئت بالأقدام ولويت دونها الشفاء وصرفت عنها الرغبات» وأصبح أطول الناس سفرا» من سافر فى طلب صديق» (٧١).

النجاة من الشقاء، وتمثل هذا عنده فى الصداقة. ولقد عالج التوحيدى هنا المفهوم الإنسانى فى كل أعماله تقريبا: (البصائر)، (الإمتاع)، (الهوامل)، (المتناسبات)، (الإشارات)، ونخصص له رسالة شهيرة هى رسالته فى (الصداقة والصديق). الصداقة عنده هى الحل الإنسانى الذى يستطيعه الإنسان ليخرج من أزمتة. والتوحيدى مراجع المفاهيم ومجدها، لم يرض بالتعريفات السائدة فى عصره للصداقة، التى حشدتها كلها فى رسالته فى الصداقة؛ تلك الرسالة التى تعد أكبر جمع لما كتب عن الصداقة؛ سواء عند العرب فى الجاهلية أم فى الإسلام أم عند اليونان والفرس قبل ذلك. لم يتوقف طويلاً عند تعريفات ديوجين وأفلاطون وغيرهما، وإن أضمن النظر والتمحيص لتعريف أرسطو المسيطر، الذى بمقتضاه يكون الصديق «إنساناً» «هو أنت إلا أنه بالشخص غيرك». ويرفضه بزعم «أن الحد صحيح، ولكن المحدود غير موجود»، وذلك لأنه حد عقلى محلق لم يستمد من الواقع: «إن الحد الذى قلتهم حاكين عن الحكيم صنع من ناحية العقل المحدود وفرض فى عالم الحس»، وهو لا يمكن أن يصور الواقع لأن البشر مختلفون - كما سبق أن ذكرنا وكما يكرر - أو يتحكم فيهم «التفاوت والاختلاف بالواجب لا محالة». ويهاجم أرسطو صراحة مخلخلا مكانته فى العقول بقوله:

«إن ذلك الحد صدر عن فضاء العقول... حيث لا تتزاحم الأشياء لا بالمشكلة ولا بالمماندة، فلذلك ما كان حلوا فى السمع مقبولا، كبريها عند العمل مهجورا» (٦٧).

وإذا كان هذا الحد غير متحقق، فإن ثمة شكلا آخر من الصداقة يمكن أن يتحقق، ونعنى به تلك الصداقة القائمة على قبول الاختلاف. يتساءل التوحيدى وإن كان التساؤل فيه تأكيد أن موضع التساؤل قائم فى الواقع: «ما السبب فى تصافى شخصين لا تشابه بينهما فى الصورة وبينهما من الخلاف والاختلاف ما يعجب الناظر إليهما، والفاحص عن أمرهما» (٦٨). قبول الآخر والاختلاف والتمسك بالتسامح المنطلق من أن بكل منا عيوباً ومشالب؛ كلها من وسائل

خاتمة:

«وأنت إذا لم تجد من نفسك - وهي أخص الأشياء بك - مساعدة على رضاك... فكيف تلتبسها من غيرك، وتطلبها من سواك» (٧٣).

انتهت رحلة التوحيدى بحثا عن السعادة بالغبرة المطلقة، والعزلة الموحشة والبأس المقتط. يقول:

«فقدت كل مؤنس وصاحب ومرفق ومشفق...
فقدت أمسية غريب الحال غريب اللفظ غريب
النحلة غريب الحلق مستأنسا بالوحشة قانما
بالوحدة معتادا للصحف ملازما للغيرة... يائسا
من جميع من ترى متوقعا لما لا بد من
حلولة» (٧٢).

وسيطل التوحيدى ذلك الإنسان الذى أتعته إنسانيته، لأنه كان عميق الوعي بها، كما سيطل ذلك الفيلسوف الذى جسد نزعة إنسانية فى عصر لا يحفل كثيرا فى حقيقة الأمر بالإنسان، ويكتفى بأن يقدم له بعض المواعظ أو الأقوال المأثورة لعلها تفيده وتحقق سعادته. من أجل هذا حظى مسكويه بالمكانة وبالجاه، وبلى التوحيدى بالانزواء والذل. وسيظل الوحيد بين العرب الذى نجح فى استغلال اللغة من خلال تحليلها فى ابتكار الجديد فى مجال التفلسف، فكان بذلك «أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء».

لم يستطع التوحيدى أن يتواصل مع الناس ولا أن يرضى بالموجود، وانقسم على نفسه، وانشطرت ذاته، فكان مثالا حيا للتعاسة. ويبدو أن المقربين منه كانوا يعرفون ذلك عنه. فقال له مسكويه فى رسالته التى رد بها على هوامله:

الهوامش

- (١) رسالته إلى القاضي أبى سهل على بن محمد، ضمن المقابسات تحقيق؛ حسن السندوبى، المطبعة الرحمانية بمصر سنة ١٩٢٩.
- (٢) الإمتاع والمؤانسة: تحقيق: أحمد أمين وأحمد الزين، الجزء الأول، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة سنة ١٩٣٩، ص ٥٤.
- (٣) الهوامل والشوامل: نشره أحمد أمين والسيد أحمد صقر، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة سنة ١٩٦١، ص ٣٣-٣٤.
- (٤) السابق، ص ٩٥.
- (٥) نفسه، ص ٢١٢-٢١٣.
- (٦) المقابسات: تحقيق وشرح حسن السندوبى - المطبعة الأولى، المطبعة الرحمانية، مصر سنة ١٩٢٩، ص ١٤١.
- (٧) السابق، ص ٢٠٩.
- (٨) نفسه، ص ١٧٧.
- (٩) نفسه، ص ١٢٠.
- (١٠) نفسه، ص ١٤٦.
- (١١) إحسان عباس: أبو حيان التوحيدى، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٦٣، ص ٧٣.
- (١٢) زكريا إبراهيم: أبو حيان التوحيدى، أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٤، ص ١٠١.
- (١٣) Massignon (Louis): Recueil de textes inédits concernant L'histoire de la mystique en pays d' Islam, Librairie Orientaliste Paul Geuthner, Paris 1929, p 86.
- (١٤) المرجع السابق: الصفحة نفسها.
- (١٥) Massignon (Louis): Al- Hallag, Martyr mystique de L'Islam, tome I. Librairie Orientaliste paul geuthner, paris 1922, pp. 347-348..
- (١٦) Massignon (Louis): Ibid, tome II, p. 908.
- (١٧) أحمد أمين: مقدمة البصائر والذخائر: تحقيق: أحمد أمين والسيد أحمد صقر، المطبعة الأولى، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٣، ص ح.
- (١٨) زكريا إبراهيم: أبو حيان التوحيدى، ص ٧، ص ١٥٣.
- (١٩) حسن السندوبى: مقدمة المقابسات ص ١٧.
- (٢٠) إحسان عباس: أبو حيان التوحيدى، ص ١٠٥-١٠٦، ١١.
- (٢١) فى الصداقة والصديق: ضمن «رسالتان: فى الصداقة والصديق - فى العلوم»، المطبعة الأولى مطبعة الحوالب، قسنطينة ١٣٠١ هـ - ص ٢٣.
- (٢٢) الإمتاع والمؤانسة: الجزء الأول ص ٧٢-٧٣.
- (٢٣) المرجع السابق ص ٣٤-٣٥.
- (٢٤) Arkoun (Mohammed) Introduction à "Traité d'éthique" de Miskawayh, Institut Français de Damas 1969 pp. XI-XII
- (٢٥) الإمتاع والمؤانسة: الجزء الثانى ص ٥.

- (٢٦) المرجع السابق ص ١٠٥.
- (٢٧) نفسه، ص ١٩.
- (٢٨) نفسه، الموضع نفسه.
- (٢٩) نفسه، الموضع نفسه.
- (٣٠) نفسه، الموضع نفسه.
- (٣١) نفسه، الموضع نفسه.
- (٣٢) Bergé (Marc) *Continuité et Progression des études tawhidiennes modernes de 1883 à 1965*, en Arabica, XXII, 1965. (٣٣)
- (٣٣) المقابسات: ص ٢٢٤.
- (٣٤) البصائر والذخائر: تحقيق وتعليق أحمد أمين والسيد أحمد صقر، الطبعة الأولى، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٣، ص ٨٢.
- (٣٥) الهوامل والشواامل: ص ١٣٥.
- (٣٦) أخلاق الوزيرين: تحقيق وتعليق وحواشي محمد بن ثابت الطنجي، دار صادر بيروت ١٩٩٢، ص ٤٧٣.
- (٣٧) الإمتاع والمؤانسة: الجزء الأول ص ٢٥-٢٤.
- (٣٨) الهوامل: ص ٩٥-٩٤.
- (٣٩) المرجع السابق ص ٢٧٨، ٣٤٣.
- (٤٠) Georges Vajda: *Breves notes sur la Risala Fii-L'Ulum d' Abu Hayan Al Tawhidi*, dans Arabica XII, 1965, p. 197 a.
- رسالة في العلوم: ضمن رسائل ثان ص ٣٠٢ - ٢٠٥.
- (٤١) الهوامل والشواامل: ص ١.
- (٤٢) أخلاق الوزيرين: ص ٢٤.
- (٤٣) Arkoun: Op. Cit., p. X.
- وانظر الإمتاع والمؤانسة: الجزء الأول ص ٢٠٢.
- (٤٤) الإمتاع: الجزء الثاني ص ١١٨.
- (٤٥) المقابسات: ص ٤٤.
- (٤٦) رسالته إلى القاضي أبي سهل علي بن محمد، ضمن المقابسات ص ١١٣.
- (٤٧) الإشارات الإلهية: الجزء الأول ومعه ملخص من الجزء الثاني، تحقيق: وداد القاضي، دار الثقافة - بيروت - لبنان - الطبعة الثانية - ١٩٨٢، ص ٣٥٨-٣٥٩.
- (٤٨) الإمتاع: الجزء الأول، ص ١.
- (٤٩) المرجع السابق، والجزء الأول ص ١٥ وانظر أيضاً:
- (٥٠) الهوامل: ص ١٤٧-١٤٨.
- (٥١) أخلاق الوزيرين: ص ٧٣.
- (٥٢) المرجع السابق: ص ٨٣.
- (٥٣) الهوامل: ص ٢١٣.
- (٥٤) المرجع السابق ص ٢١٤.
- (٥٥) الإمتاع والمؤانسة: الجزء الأول، ص ١١٣.
- (٥٦) في الصداقة والصدق: ص ٣.
- (٥٧) المرجع السابق: ص ١٣.
- (٥٨) البصائر والذخائر: ص ١٥٣.
- (٥٩) الهوامل: ص ١٥٠، ص ١٥٣.
- (٦٠) المقابسات: ص ١٦١.
- (٦١) الهوامل: ص ٦٠.
- (٦٢) رسالة في العلوم: ضمن رسائل ثان، ص ٢٠٨.
- (٦٣) البصائر والذخائر: ص ١٣٠.
- (٦٤) المقابسات: ص ١٧٨-١٧٩.
- (٦٥) الإمتاع والمؤانسة: الجزء الأول ص ١٦-١٥.
- (٦٦) المقابسات: ص ٣٧٤.
- (٦٧) المصدر السابق: ص ٣٥٩-٣٦١.
- (٦٨) الهوامل: ص ١٢٩-١٣٠.
- (٦٩) في الصداقة: ص ١٢.
- (٧٠) الإمتاع والمؤانسة: ص ٢٣.
- (٧١) في الصداقة: ص ٢٤.
- (٧٢) المرجع السابق: ص ٦٥.
- (٧٣) الهوامل والشواامل: ص ٣.

أبو حيان التوحيدى والفلسفة

عمار الطالبى*

بالمعنى الاصطلاحي، وليس له مذهب يدعو إليه، ولا نسق فكرى أبدعه، وغاية ما هنالك أنه كلف بالحكمة وأحبها، يتبع مجالسها، ويطون كتبها، ويستمع إلى محاورات المتفلسفين، ويصوغ كل ذلك فى صورة أدبية، تمثل أسلوبه الخاص، وفنه البلاغى الذى تفرد به.

وقد عبر أبو حيان عن كلفه هذا بالحكمة، وأنه لا يتغنى من وراء ذلك بلوغ الغاية منها؛ إذ كان ذلك مستعصيا على إنسان واحد، وإن أوتى ذكاء فائقاً، وذهناً بلغ الغاية فى الدقة، وطبعاً ثراً فى حسن البيان، وجمال العبارة، يقول:

«وإنما أجول فى هذه الأكناف لكلفى بالحكمة
كيف دارت العبارة بها، وأمكنت الإشارة إليها،
لا على التقصى لها، وبلوغ الغاية منها، ومن
يقدر على ذلك؟ ومن يحدث نفسه بذلك،
العالم أبعد غوراً.... وأعجب تركيباً... من أن

الغرض من هذه الورقة الإشارة إلى جانب من جوانب أعمال أبى حيان على بن محمد بن العباس التوحيدى (٣١١ - ٤٠١ هـ)، ألا وهو تأريخه للفكر الفلسفى عامة، وما تفرد به من أخبار، وتسجيل أفكار مفكرين وفلاسفة، وإيراد نصوص، لا توجد فيما يبدو فى مصادر أخرى، خاصة ما يتعلق بالمجالس الفلسفية، أو النوادى الأدبية التى تفرد بنقل أنشطتها، وأسماء أعضائها، وما يدور بينهم من مناظرات ومحاورات على تباين دياناتهم ومذاهبهم، وانجهااتهم، وتخصصاتهم، فى القرن الرابع الهجرى ببغداد، العاصمة الثقافية والسياسية للعالم الإسلامى فى ذلك العهد.

واخترنا هذا الجانب، لأنه فيما يبدو يمثل العمل البارز من أعمال أبى حيان ذات السمة الفلسفية؛ فهو ليس فيلسوفاً

* قسم الفلسفة، جامعة قطر.

يأتى عليه إنسان واحد... وإن بلغ الغاية فى دقة
الذهن، وحسن البيان، وبلاغة اللفظ»^(١).

وإذا كان أبو حيان يخبرنا عن نفسه أنه كلف
بالحكمة فيبعد أن يكون هذا الكلف حدث له فى شيخوخته،
فى سن الخمسين كما يذهب إلى ذلك عبدالأمير الأعسم
استنادا إلى خبر اتصاله بيهيى بن عدى (ت ٣٦٣ هـ)
للمرة الأولى بصحبة البديهي أبى الحسن على بن محمد
البغدادى (ت ٣٨٠ هـ) الذى دعاه إلى حضور مجلس يهيى
بن عدى^(٢)، واستخلص من ذلك أنه: «من الضروري
التمسك بتاريخ بدء درسه (للفلسفة) فى سنة ٣٦١
هـ»^(٣).

وإذا كانت مميزة أبى حيان فى مجال الفلسفة هى
تأريخها، فإن ذلك له خطورته، إذ إن دراسة تاريخ الفلسفة
جزء مهم فى تكوين الذهن الفلسفى، والتربية الفلسفية؛
فتاريخ الفلسفة ليس مقصودا ومهما فى حد ذاته فحسب،
وانما هو مشاركة فى الفلسفة نفسها، فهو دراسة لها، لأن
المشاكل الفلسفية قد طرحها الأسلاف ممن تقدمنا وعالجوها
بطريقتهم. وإذا كانت الفلسفة هى دراسة القضايا الفلسفية
وبرايتها لمعرفة مدى تماسكها بقطع النظر عن سياق
الفيلسوف الاجتماعى التاريخى، وعن مصادره وتأثيره،
فإن تاريخها يعنى بهذا السياق التاريخى الاجتماعى وبالمصادر
وبالتأثر والتأثير»^(٤).

ولذلك، يصف أبو حيان التوحيدى هؤلاء المفكرين
الذين أخذ عنهم أو زاملهم، ويحلل طبائعهم الشخصية، كما
يصف اجتماع البغدادى والعلاقات بين هؤلاء جميعا،
والعلاقة بين المفكرين والسياسيين، وما إلى ذلك.

من أمثلة ما تفرد به أبو حيان فى تاريخ الفكر الفلسفى
أنه هو الوحيد الذى يروى لنا حقيقة جماعة إخوان الصفاء
فى عصره، ويكشف عنهم، ويذكر أسماءهم^(٥).

وظهرت مصادر أخرى تشير إلى أن الذى بدأ تأليف
رسائل إخوان الصفاء هو الإمام أحمد بن عبدالله بن محمد
ابن إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد بن الباقر بن على
ابن الحسين بن على بن أبى طالب (ت ٢١٢ هـ)، كما

أن القاضى النعمان بن حيون المغربى قاضى القضاة فى
الدولة الفاطمية (ت ٣٦٣ هـ) يذكر فى «الرسالة المدهية»
هذا النص: «والدعاة الأربعة مؤلفو رسائل إخوان الصفاء،
وهو عبدالله بن حمدان، وعبدالله بن سعيد وعبدالله بن
ميمون وعبدالله بن المبارك»^(٦)، فيكون تاريخ تأليفها على ما
يبدو أقدم مما ذكره أبو حيان التوحيدى (حوالى ٣٧٣ هـ)،
وأوردت هذه المصادر أسماء أخرى لم يوردها التوحيدى.

١ - الفلسفة اليونانية:

نقل أبو حيان نصوصا عدة تنسب إلى قدماء الفلاسفة
اليونان، ومتأخريهم، منها ما هو صحيح النسبة إليهم، ومنها
ما هو منحول، تبعا لما وصل إلى العرب من نراث الفلسفة
اليونانية فى العهد المتأخر منها، وهذا يبين كيف أن مدرسة
أبى سليمان محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني (ت ٣٧٥ هـ)
كانت تعنى بدراسة هذه النصوص وتنقلها.

فمن ذلك ما ينقله أبو حيان عن إنبادقليس Empedo-
cle (٤٩٠ - ٤٣٠) ق م:

«قرأت على أبى سليمان من كلام إنبادقليس:
إذا استولت المحبة على الأجسام التى منها تركيب
العالم، كان منها العالم الكرى، وإذا استولت
الغلبة كان منها الاسطقسات، والعالم الكائن
الفاقد»^(٧).

وهذا النص واضح أنه غير منحول، على خلاف ما
ينقله الشهرستاني الذى خلط صحيح النسبة بالمنحول^(٨).
هذا ويعتبر إنبادقليس مصدرا من مصادر الآراء الفلسفية
النوصية التى أخذت منها النزعات الباطنية فى الإسلام^(٩).
ومن الفلاسفة الذين نقل عنهم أبو حيان أنكساجوراس
(٥٠٠ - ٤٢٨ ق م) صاحب فكرة أن العقل هو الذى
ينظم العالم، وهو الذى مهد لسقراط وأفلاطون فى القول
بالعقل. نقل عنه: «إن الشدائد التى تنزل بالمرء مسحة
إخوانه»^(١٠) وقوله: «كيف تريد من صديقك خلقا واحدا،
وهو ذو طبائع أربع»^(١١)، ونقل له نصا آخر يشير إلى مدى
قدرة الذهن على ضبط الأشياء:

«كما أن الإناء إذا امتلأ بما يسعه من الماء ثم تجمل فيه زيادة على ذلك فاض وأنصب، ولعله أن يخرج معه شيء آخر، كذلك الذهن ما أمكنه أن يضبطه فإنه يضبطه، وإن طلب منه ضبط شيء آخر أكثر من وسعه تحجر، ولعل ذلك يضيع عليه شيئا مما كان الذهن ضابطا له، وهذا كلام صحيح» (١٢).

ونقل عن أبقرط الطبيب أن: «الإقلال من الضار خير من الإكثار من النافع» (١٣) و«أن الحمية أن تدع من الشهوة بقية» (١٤)، وقال: «منزلة لطافة القلب في الأبدان بمنزلة لطافة الناظر في الأبصار» (١٥)، وقال: «للقلب آفتان وهما الغم والههم، فالغم يعرض منه النوم، والههم يعرض منه السهر، وذلك أن الههم فيه فكر...» (١٦) وأن: «أبقرط مات مغلوجا» (١٧).

ونقل عن فيثاغورس (٥٧٢ - ٤٩٧ ق.م): «إن كثيرا من الناس يرون العمى الذي يعرض لعين البدن فتأباه أنفسهم، فأما عمى عين النفس فإنهم لا يرونه، ولا تأباه أنفسهم، فلذلك لا يستحيون» (١٨)، وقال «كما أن الذي يسلك طريقا لا يعرفه لا يدرى إلى أى موضع يؤديه، كذلك الذي يسمع كلاما لا يعرف الغرض فيه لا يربح منه إلا التعب» (١٩). «وقيل لفيثاغورس ما أملك فلانا لنفسه! قال: إذن لا نصرعه شهوته، ولا نخدعه لذته» (٢٠).

وذكر قصة لفيثاغورس مع امرأة تؤذيه، ومدى صبره عليها، وأنه قيل له: «بما يمكن الإنسان أن يقتدى برأيه؟ قال: بأن يصطنع المعروف» (٢١).

أما سقراط (٤٦٩ - ٣٩٩ ق.م) فقد نقل عنه نصوصا متعددة يتصل أغلبها بالأخلاق منها: «كل مضطر ليس محمودا، بل المحمود ما أمكن فيه الاختيار» (٢٢)، و: «إن لم تكن لى استطاعة فأنا محرك غير محرك» (٢٣)، و: «لا تكن كاملا حتى يأمنك عدوك، فكيف بك إذا كنت لا يأمنك صديقك» (٢٤)، وأكثر ما نجد له من النقول في كتابه (البصائر والذخائر) (٢٥)، منها:

«قيل لسقراط ما أقبح وجهك! قال: ما تقبيح صورتي إلى فأذم، ولا تحسين صورتك إليك فحمد» (٢٦).

وأنه: «قيل لسقراط لم لم تذكر في شرائعتك عقوبة من قتل أباه، قال: لم أعلم أن هذا شيء يكون» (٢٧)؛ و:

«نظر رجل إلى سقراط في ثياب لا تواربه فقال: أهذا سقراط واضع النواميس؟ وأكثر التعجب منه، فقال له سقراط: ليس علة نواميس الحق الكساء الجديد، ولا علة ناموس الباطل الكساء الخلق» (٢٨).

ولعل مضمون هذين النصين الأخيرين يعود إلى أفلاطون لا إلى سقراط، ومنها: «وكان سقراط يقول: ما اخترت أن تحيا به فمت دونه» (٢٩)، ونقل رواية عن حنين ابن إسحاق (ت ٢٦٠ هـ) قول سقراط: «الجهل بالفضائل عدل الموت» (٣٠)؛ و: «ما أصعب على الشهواني أن يكون فاضلا» (٣١)؛ و: «قيل لسقراط إن الكلام الذي قلته لأهل مدينة كذا لم يقبل فقال: ليس يكرهني ألا يقبل، وإنما يكرهني ألا يكون صوابا» (٣٢)؛ وأنه: «قيل لسقراط متى أثرت فيك الحكمة؟ قال مذ بدأت أحقر نفسي» (٣٣)؛ و: «قيل لسقراط أى الأشياء أأذى؟ قال الأدب والتعلم وسماع الأخبار» (٣٤)، وقال: «ينبغي أن يكون كلامك بالليالي حيث لا تكون أعشاش الخفافيش، قال: أراد الخلوة...» (٣٥)، و: «قيل لسقراط: أى بهيمة أجمل قال المرأة» (٣٦)، إلى غير ذلك من النصوص.

والجدير بالذكر أن التوحيدى يعلق على بعض هذه النصوص معجبا بها، مدافعا عن الفلاسفة ضد خصومهم، من هذه التعالين:

«لكلام هؤلاء القويم (الفلاسفة) موقع عجيب، وتأديب محمود، فلا تستوحش منهم، فإنهم جنس من الفضلاء نفعتنا الله عز وجل بحكمهم، ووفانا الله عز وجل شر ما يقال فيهم» (٣٧).

إطلاقك منه، من قبل أنك لم تحبس نفسك فيه، لكن تنتظر الذي حبسك فيه يطلقك منه»^(٥١).

ويخبرنا أن أفلاطون كان على خاتمه: «تحريك الساكن أسهل من تسكين المتحرك»^(٥٢)، ونسب إليه في التربية أنه: «ينبغي إن عوتب الحدث أن يترك له موضع الجحود، لئلا يحمله المراء على المكابرة»^(٥٣)، وأنه: «قبل لأفلاطون أى الأمور أعجب؟ قال: أن يكون العمل على خلاف العلم»^(٥٤)، وأنه: «من القبيح أن نمتنع من الطعام لتصح أبداننا، ولا نمتنع من القبائح لتصفو نفوسنا»^(٥٥)، و: «أنه ينبغي لنا أن نفر من الأشياء الرديئة، والأشياء الرديئة العالم، فينبغي أن نفر من العالم، والقرار هو الاقتداء بالله»^(٥٦)، ونقل عن على بن عيسى ولعله الرمانى (ت ٣٨٤هـ) قول أفلاطون: «من اتصلت الحكمة بطباعه لقحتها، وأخرجت أنواع النبات المخالف لها، فى الشكل والقوة، والصورة»^(٥٧). ونقل فى «الأخلاق» أيضا قوله:

«من ملك منطقته سمي حكيما، ومن ملك غضبه سمي شجاعا، ومن ملك شهوته سمي عفيفا»^(٥٨).

وأنه:

«قيل لأفلاطون أى الأمرين أعلى درجة أن تقول ما تعلم أو تعلم ما تقول؟ فقال: أن تقول ما تعلم، لأن مرتبة العلم فوق مرتبة القول»^(٥٩).

وفى «المعرفة»: «قال أفلاطون: الحق لم يصبه الناس فى كل وجوهه، ولا أخطأوه من كل وجوهه، بل أصاب منه كل إنسان جهة...»^(٦٠)، وأنه: «قيل لأفلاطون: فلان لا يعرف شيئا من الشر، قال فليس يعرف إذن شيئا من الخير»^(٦١)، ونقل نصا فى يتابع البدن كما يتصورها أفلاطون وأنها: الكبد ينبوع الغذاء، والقلب ينبوع الحياة، والدماغ ينبوع الحس، ولكن نسبة إلى أفلاطون على سبيل الظن: «وأظنه أفلاطون»^(٦٢).

فهذه النصوص كلها نسبها إلى أفلاطون، والواقع أن كتابى (المقابسات) و(الهوامل والشوامل)^(٦٣) مليتان بالأراء

ولا يشير أبو حيان إلى مصادر هذه الأقوال إلا قليلا؛ فقد نقل نصا على لسان أستاذه أبى سليمان السجستاني (ت ٣٧٥ هـ) نسبه إلى سقراط، وبين أنه من ترجمة أبى عثمان الدمشقى فى شأن طرب الإنسان للغناء والإيقاع^(٦٤)، وفى النص نزعة فيثاغورية تتعلق بالموسيقى وأفلاطونية فى اتصال النفس بعالم المثل، كما أسند نصوصا متعددة إلى شيخه السجستاني أيضا دون ذكر المترجم، وهى تتصل بالتربية^(٦٥)، والعلم^(٦٦)، وأخلاق النفس^(٦٧).

وأما السوفسطائيون، فإنه ذكر اسم شخصية أحدهم وهو «موزون»، «قال موزون السوفسطائى شيخوخة البدن هى منتهى النفس»^(٦٨).

وذكر أبو حيان أفلاطون (٤٢٧ - ٣٤٧ ق م) وعناوين بعض مصنفاته، منها (كتاب النواميس)^(٦٩) على لسان أبى العباس البخارى أحد تلاميذ أبى سليمان المنطقى، ونقل نصوصا مختلفة نسبها إلى أفلاطون، منها:

«إن للنفس لذتين: لذة مجردة عن الجسد، ولذة مشاركة للجسد، فأما التى تنفرد بها النفس فهى العلم والحكمة، وأما التى تشارك فيها البدن فالطعام والشراب وغير ذلك»^(٧٠).

وينقل عنه كأنه واعظ دينى: «قال أفلاطون: مثل الحكيم كمثل النملة تجمع فى الصيف للشتاء وهو يجمع فى الدنيا للآخرة»^(٧١)، ونقل عنه: «العلم مصباح النفس ينفى عنها ظلمة الجهل، فما أمكنك أن تضيف إلى مصباحك مصباح غيرك فافعل»^(٧٢)، ونسب إلى أفلاطون قوله: «موت الرؤساء أصلح من رئاسة السفلة»^(٧٣)، و: «كيف يسوس النفوس الكثيرة على الحق والواجب، من لا يمكنه أن يسوس نفسه الواحدة»^(٧٤).

ونقل عنه أقوالا أخرى فى الصداقة، منها: «صديق كل امرئ عقله، وعدوه جهله»^(٧٥)، و: «عمر الدنيا أقصر من أن تنطاع فيها الأحقاد»^(٧٦).

ونسب إليه عبارات تتعلق بالنفس، ومنع الانتحار:

«ينبغي لك مع معرفتك بأنك من هذا البدن بمنزلة من هو فى حبس ألا تروم لنفسك

الأفلاطونية، دون أن يذكر اسمه صراحة، وذلك في مختلف المشكلات الفلسفية، خاصة ما يرجع منها إلى النفس والأخلاق والسياسة.

ونقل عن أرسطو (٣٨٤ - ٣٣٢ ق م) الذى يطلق عليه أوصاف هذه: صاحب المنطق^(٦٤)، كما يفعل الجاحظ في (كتاب الحيوان)، كما يطلق عليه: الحكيم، والفيلسوف، ويذكر أنه «مات مجذرا»^(٦٥)، وسمى من مصنفات أرسطو كتاب «بعد الطبيعة»^(٦٦)، وكتاب الحيوان^(٦٧)، ورسالة أرسطو للإسكندر (ت ٣٢٣ ق م) في السياسة^(٦٨)، ونقل رسالة أخرى تلقاها عن أبي سليمان المنطقي ولكنه شك فيها فقال: «هذه رسالة أفانديها أبو سليمان وزعم أنها لأرسطوطاليس، وقرأها بعض مشائخ الفلسفة فقال هي من كلام بعض الملوك، ولا أقف منها على أكثر مما حكيت، ولولا جلالتها في نفسها ما سقتها هاهنا»^(٦٩)، وتقع في صفحات عدة^(٧٠)، وذكر أيضا كتاب الجدل، وأنه هو الكتاب الخامس من كتاب أرسطو في المنطق^(٧١)، وكذلك كتاب الخطابة^(٧٢)، والسماع الطبيعي^(٧٣)، وكتاب النفس^(٧٤)، وبين أنه كان يقرأ على أبي سليمان، وكتاب قاطيغورياس^(٧٥) أو المقولات، وكتاب السماء والعالم، نقل منه نصا من روايته عن أبي النصر نفيس ونقده^(٧٦) لأرسطو في ذلك.

ونقل قطعة من تفسير فورفوريوس الصوري، لكتاب النفس^(٧٧)، كما نقل نصا من كتاب أرسطو للإسكندر: «سوء العادة كمين لا يؤمن وثوبه»^(٧٨).

ومن الأقوال التي نقلها منسوبة إلى أرسطو أنه: «سئل ما أعجب الأشياء؟ فقال ما لم يعرف سببه»^(٧٩)، و: «إنما الإنسان صورة فمن أخطأ العقل، ولزمته الصورة لم يكن إنسانا كاملا، ولم تكن صورته إلا كصورة تمثال لا روح فيه»^(٨٠)، ونسب إليه أقوالا أخلاقية متعددة^(٨١). وينقل من كتاب «بعد الطبيعة» هذا النص: «فوق جوهر السماء جوهر لا عظم له، ولا قدر من الأقدار، مستحيل»^(٨٢) بنوع من الاستحالات، بلا نهاية لقوته، ومن أجل ذلك يفعل فعله بلا زمان، وهو فعال بذاته، فلذلك هو دائم بالفعل، وليس فعله بحركة، ولا فيه شيء بالقوة، ولكن الأشياء فيه بالفعل، وقوته

منبثة في العالم دائما»^(٨٣)، ونقل نصوصا من (كتاب الحيوان) لأرسطو^(٨٤) كما نقل نصا ما ترجمه عيسى بن زرعة المنطقي (ت ٤٩٨ هـ)، ولكن لم يشر إلى أى كتاب من كتبه يعود إليه هذا النص، وهو:

«الإنسانية أفتى، والإنسان متحرك إلى أفقه بالطبع، ودائر على مركزه، إلا أن يكون موقوفا بطبيعته، مخلوطا بأخلاق بهيمية، ومن رفع عصاه عن نفسه، وألقى حبله على غاربه، وشتت هواه في مرعاه، ولم يضبط نفسه عما تدعو إليه بطبعه، وكان لين العريكة لاتباع الشهوات الرديئة، فقد خرج أفقه، وصار أرذل من البهيمة بسوء إثاره»^(٨٥).

وينقل حدودا ثبت أنها لأرسطو مثل قوله: «فأما حدها [الطبيعة] الذى هو لها بالتحقيق فهو ما قال أرسطوطاليس إنه مبدأ الحركة والسكون»^(٨٦)، وينسب إليه أنه قال بخلود العقل: «قال الفيلسوف (أرسطو) العقل وحده لا يموت»^(٨٧)، وكذلك تعريف الصداقة: «الصديق إنسان هو أنت إلا أنه بالشخص غيرك»^(٨٨). وقد سئل أبو سليمان فيما يروى أبو حيان عن شرح هذه العبارة فقال:

«هذا [أرسطو] رجل دقيق الكلام، بعيد المرام، صحيح المعاني، قد طاعت له الأمور بأعيانها، وحضرته بغيبتها وشهادتها، وكان ملهما مؤيدا»^(٨٩).

ومن أقوال أرسطو التي نقلها في الصداقة: «أخلص الإخوان مودة، من لم تكن مودته عن رغبة، ولا رهبة»^(٩٠)، وكتب أرسطو مقاليتين في الصداقة، (المقالة الثامنة والتاسعة) من كتابه (الأخلاق) إلى نيقوماخوس، وأسند إلى أبي سليمان بعض عبارات لأرسطو في الأخلاق^(٩١)، ومن أقواله التي نقلها: «قبل لأرسطوطاليس: إن فلانا عاقل، قال: إذن لا يفرح بالدنيا»^(٩٢)، ومنها:

«قال أرسطوطاليس: لو كنا نطلب العلم لنبلغ غايته، كنا قد بدأنا العلم بتقيضه، ولكننا نطلبه

ديوجانس: من القبيح أن تتحرى في أغذية البدن ما يصلح له، ولا يكون ضاراً، ولا تتحرى في غذاء النفس، الذي هو العلم، لئلا يكون ضاراً^(١٠٣) وأنه:

«قال أيضاً من القبيح أن يكون الملاح لا يطلق سفينته في كل ريح، ونحن نطلق أنفسنا في غير بحث ولا اختيار»^(١٠٤).

وبهذا، يبدو أن المدرسة الكلبية كانت معروفة عند أبي حيان ومدرسة أبي سليمان السجستاني، على الأقل فيما وصل إليهم من نصوص تنسب إلى ديوجانس، إن صحت نسبتها إليه.

وبما أن أرسطو ذو صلة بالإسكندر (ت ٣٢٣ ق م)، فإن أبا حيان يذكره، وينقل عنه الأخبار، وصلته بأرسطو ونصائحه له^(١٠٥)، وروى أبو حيان عن النوشجاني أنه قال:

«قرأت في أخبار الملك الحكيم الإسكندر أنه كتب إلى معلمه أرسطوطاليس يصف له ما رأى في سيرته إلى الهند»^(١٠٦).

وعرفت الرواية كذلك عند أبي حيان، خاصة زينون Zeno (٣٣٦ - ٢٦٤ ق م) الفينيقي الأصل، ومؤسس المدرسة، وأغلب الظن أنه لا يقصد فيما ينسب إليه من نصوص زينون الإيلي. ومن هذه النصوص ما يدل على مادية النفس، وهو مذهب رواقى، مثل: «إنها [النفس] كمثل الصوت الحادث بين البدنين المتضادين...»^(١٠٧)، وينكر الترحيدى هذا الرأي قائلاً: «يضاف هذا القول إلى زينون وهو ظن زائف، ورأى مضبوط»^(١٠٨)، إذ ألف زينون الرواقى عدة مؤلفات، غير أنها ضاعت، ذكر بعضها ديوجانس اللايرسى^(١٠٩).

ومن الرواقيين الذين ذكرهم أريوس السكندري معلم الإمبراطور أغسطس (٦٣ ق م - ١٤ م)، ذكر أنه لما:

«ولى أريوس ولاية فقال له أصدقاؤه: الآن يظهر فضلك فقال: ليست الولاية تظهر الرجل، بل الرجل يظهر الولاية»^(١١٠).

لتنقص كل يوم من الجهل، وتزداد كل يوم من العلم»^(٩٣).

وهكذا، نرى أن العناصر الفلسفية الأرسطية واضحة المعالم في مؤلفات أبي حيان، مع اختلاطها أحياناً بعناصر أفلاطونية محدثة، وفيثاغورية، وعناصر منحولة.

أما شراح أرسطو، فقد أشار أبو حيان إلى بعضهم، أمثال: ثامسطيوس Themistius (٣١٧ - ٣٨٨) ونقل رأيه في مكانة الصديق^(٩٤)، ومن المعروف شروحه لأرسطو. واقفه ابن رشد في تفسير العقل عند أرسطو، ووافق ابن سينا (ت ٤٢٨ هـ) الإسكندر الأفروديسى^(٩٥).

نقل نصوصاً أخرى عدة نسبها إلى ديوجانس Diogene (٤١٣ - ٣٢٧ ق م)، وذكر بعض قصص الكلبين مع الإسكندر الأكبر (ت ٣٢٣ ق م) من ذلك أنه:

«جاء بعض الكلبين، وهم جنس من اليونان إلى الإسكندر فقال: هب لى مثقالاً واحداً، فقال الإسكندر: ليس هذا عطاء الملوك، فقال له: أعطني قنطاراً، فقال الإسكندر: ولا هذا يسؤال كلبى»^(٩٦).

وأنه: «قيل لديوجانس، وكان يونانياً: أملك الروم أفضل أم ملك الفرس؟ فقال: من كان منهما أملك لهواه»^(٩٧)، و: «رأى ديوجانس ... زنجياً يأكل خبزاً أبيض محوَّراً فقال: يا قوم انظروا إلى الليل كيف يأكل النهار»^(٩٨)، و: «قال ديوجانس: من أراد أن يكون مذهبه جيداً فليكن طريقته على خلاف طريقة أكثر الناس»^(٩٩).

وكانت له نظرة سيئة للمرأة فهي عنده مسخ، وله آراء في الصداقة في حوار له مع الإسكندر^(١٠٠)، فيما يذكر أبو حيان، وما نقل في الصداقة أنه:

«قيل له ألك صديق؟ قال نعم، ولكنى قليل الطاعة له، يقصد بذلك العقل»^(١٠١)، و: «قيل له ما الذى ينبغى للمرأة أن تحتفظ منه؟ قال: من حسد إخوانه، ومكر أعدائه»^(١٠٢)، و: «قال

وأورد اسم «فيلون»، إلا أنه غير فيلون الفيلسوف اليهودى (٣٠ ق م - ٤٠ م)، وإنما هو صديق الإسكندر الأكبر، غرق في رحلة له (١١١).

لم يشر - فيما أعلم - أبو حيان إلى أفلوطين الإسبرطى (٢٠٤ - ٢٧٠)، وإنما ذكر تلاميذه فورفوربوس الصورى (٢٣٤ - ٣٠٥) السورى الفينيقي الذى ترجم كتابه إيساغوجى Isagoge أبو عثمان الدمشقى، كما أن كتابه (أخبار الفلاسفة) عثر على بعض نصوص منه بالسريانية، وينقل أبو حيان نصا له قصيرا، ولكنه ذو أهمية فى دلالة، لأنه وصفه بالمفسر لكتاب النفس وهو كتاب أرسطو على ما يبدو، ويذهب فى تفسيره هذا إلى أن العقل خالد، إذا اتصل بالعقل الفعال، وأما بقية العقول فإنها تبطل ببطان البدن، ويحتمل أنه شرح كلام أفلوطين فى النفس، واليك النص:

«قال فورفوربوس وهو المفسر: إن المرء الفاضل قال فى كتاب النفس: إن العقل النفساني إذا اتصل بالعقل الأول الخالص المحض، كان عاقلا دائما، ولم يكن عاقلا مرة ومرة غير عاقل، فإذا فارق البدن كان أخرى أن تلزمه هذه الصفة، ولاتفارقه، وأما الآخر من الحس والنماء والتوهم والفكر فإنها كلها تبطل مع بطلان الجسم، ذلك أنها أثر من النفس فى الجسم، فإذا بطل الجسم، وفارقت النفس، بطلت هذه، وأما العقل فليس من قبل الجرم، ولا من قبل النفس، بل النفس كانت من أجله، وهو صورتها» (١١٢).

ومن موضوعات التسايعيات لأفلوطين ما هو فى النفس، وهى التسايعية الرابعة، ولعل هذا النص مأخوذ من كتاب فورفوربوس: (المدخل إلى المعقولات) الذى تكلم فيه على النفس تبعا لمذهب أفلوطين، وكان فورفوربوس يشرح أفلاطون وأرسطو وأفلوطين جميعا، وفى النص روح أرسطية أيضا.

ونقل أبو حيان فى السياق نفسه نصا نسب لـأرسطو وفسره، وهو:

«قال الفيلسوف: العقل وحده لا يموت، أراد بذلك أن يميزه من قوى النفس النامية الحسية، لأن الحس والنماء إنما يضمحلان، لأن النفس استغادتهما من العالم الهولايى، وأما العقل فلم يستغد من هذا العالم، فلذلك بقى» (١١٣).

وبعد نقله لكلام أرسطو فى العقل والنفس، أشار إلى تفسير فورفوربوس، مما يؤكد أنه يقصد بكتاب النفس هنا كتاب أرسطو لا أفلوطين.

وذكر أبو حيان أسطفانوس السكندرى (فى القرن السابع للميلاد)، وهو أفلوطينى، ونقل نصا فى الصداقة نسبة إليه؛ وهو:

«قيل لأسطفانوس: من صديقك؟ قال الذى إذا صرت إليه فى حاجة، وجدته أشد مسارعة إلى قضائها منى إلى طلبها» (١١٤).

ونقل من مؤلفات بطليموس (القرن الثانى الميلادى)، من كتابه المنحول إليه، وهو (كتاب الثمرة)، من إملاء أبى سليمان، وذلك أن أبى حيان مدح كلمات بطليموس فى هذا الكتاب:

«ما أحسن كلمات بطليموس فى الثمرة، فإنها كالشذور المنخبية، والدرر الثمينة، والأعلاق النفيسة، وقد شرحها ناس أفادوا فيها، وأفادوا منها، وما أحوجنا إلى أخواتهن فى النفس الإلهية والطبيعة، فإنها نوعى وتحفظ...» (١١٥).

يشتمل (كتاب الثمرة) هذا على مائة عبارة، ولكن الذى نقله أبو حيان فى (المقابسات) بلغ مائة وسبع فقرات، أو عبارات، تقع فى عشرين صفحة (١١٦)، وبين لنا أن بعض المشتغلين بالفلسفة وضعوا عليها شروحا، وسمى أحد هؤلاء وهو كاتب آل طولون، أو كاتب طولون (١١٧).

وفى حوار بين سليمان وأبى حيان حول عبارة من عبارات (كتاب الثمرة) نقل نصا آخر فى: «أن دلالة القمر

في الأيام أقوى، ودلالة الشمس والزهرة في الشهر أقوى، ودلالة المشتري وزحل في السنة أقوى^(١١٨)، وذكر كتابه (النجسطي)^(١١٩).

وذكر بطليموس الملك^(١٢٠) وإقليدس^(١٢١) (٣٣٠ - ٢٧٠). وجالينوس (القرن الثاني الميلادي)، ذكر من كتب الأخير كتاب (منافع الأعضاء)^(١٢٢) وأثنى عليه ثناء حسنا:

«قلت [التوحيدى] رأيت جالينوس في (منافع الأعضاء) يذكر أمورا، ويكشف دقائق، ويثير عجائب، ويشرح حكما جليلة، لعمري أن ما خلده في ذلك الكتاب، وقاله، واستنبطه كاد يكون وحى وإلهام، فضلا عن غير ذلك»^(١٢٣).

وأشار إلى نماذج من منافع الأعضاء كالعين مثلا، ونقل له نصا آخر في كتابه (البصائر): «قال جالينوس: ما دخل الرمان جوفاً فاسدا إلا أصلحه، ولا دخل التمر جوفاً صالحاً إلا أفسده»^(١٢٤)، ونقل نصا من رواية الحسن بن سهل أنه: «كان جالينوس أثلغ، وكان مولعا بالجنب، وكان بقراط أحذب، وكان مولعا بالثنين»^(١٢٥)، ونصا آخر عن أحمد بن الطيب في قول جالينوس في طلاب الأدب:

«إن ابن الوضيع إذا كان أديبا كان نقص أبيه زائدا في فضله، وابن الشريف إذا كان غير أديب فشرف أبيه زائد في نقصه، وابن الشريف إذا كان أديبا كان شرف أبيه زائدا في فضله»^(١٢٦).

وأورد عددا من أسماء من لهم صلة بالفلسفة اليونانية من الشراح والشعراء والمشرعين والملوك، والأطباء، منهم طيموثاوس: Timotheus (ت ٨٢٣م) الكاثوليكي النسطوري، وكان يترجم من مؤلفات أرسطو، وله مراسلات مع طبيب الخليفة من عائلة بختيشوع وهو جورجس بن جبريل بن بختيشوع^(١٢٧) (ت ٧٦٥م).

وذكر ثيودوسيوس الملك اليوناني الذي كتب إلى الشاعر كنثس ليزوده بما عنده من كتب فلسفية، وقصته مع قطاع الطرق، والطيور الكراكي الأسطورية^(١٢٨).

وكذلك ثيودوروس: Theodoire of Mopsuestia (٤٢٨م) وزهده في المال^(١٢٩). وأسقليبيوس: Asclepius الطبيب الذي نقل محاضرات أمونيوس: Ammonius وحسبه ابن جندجل من أساطين الحكمة الطبية، مع هرمس، وأبولو Apollo^(١٣٠)، ونسب إليه أبو حيان أنه قيل له: «فلان له همة، قال: إذن لا يرضى لنفسه بدون القدر»^(١٣١).

وذكر أبارينوس ولعله محرف عن Marinus مؤلف (حياة برقلس) أو عن Balinus بليينوس وهو Apollinius مؤلف كتاب (سر الخليفة)، نقل رأيه في الصداقة^(١٣٢)، وثيفايون^(١٣٣) وغالوس^(١٣٤)، ولعله تحريف عن Alinus الذي علق على أحد أعماله ابن سوار^(١٣٥)، ومقاريوس^(١٣٦)، لم اهتم إلى اسمه الحقيقي اليوناني أو اللاتيني، ولكنه معاصر لزيمنوس الذي تخاور معه فيما نقل أبو حيان، وزيمنوس هذا لعله Zosimus العالم المصري الذي ذكره صاعد الأندلسي^(١٣٧)، ونقل عنه أبو حيان قصة نزاعه مع أحد دائنيه، وكان يدعى الحكمة والزهد، لكن مقاريوس اتهمه بالجهل^(١٣٨)، وكشف عن خداعه.

ونقل عن ثيفانوس ولعله تحريف عن Stiphan السكندري البيزنطي من أهل القرن السابع الميلادي وهو أرسطوطاليسي الاتجاه كان يدرس الفلسفة في القسطنطينية بالمدرسة البطرياركية في عهد الإمبراطور هرقل^(١٣٩)، أو أنه فانياس Epiphanius مؤرخ الفلسفة، ونسب إليه عبارة^(١٤٠) هي نفسها التي نسبها إلى إسطفانس الذي أشرنا إليه سابقا، مما يجعلهما شخصا واحدا كتب بصيغتين مختلفتين.

وذكر أبو حيان المشرع اليوناني من أجداد أفلاطون وهو سولون، نقل نصا له: «العلم صغير في الكمية، كبير في الكيفية»^(١٤١).

كما نقل عن هوميروس الشاعر اليوناني، أنه قال: «لا ينبغي لك أن تؤثر علم شيء إذا عبرت به غضبت، فإنك إذا فعلت هذا كنت أنت القاذف لنفسك»^(١٤٢)، وذكر الشاعر الإغريقي أبقيوس^(١٤٣)، وسماه كتش^(١٤٤).

أما الفكر الغنوصي والديني، فإن أبا حيان ينقل عن هرمس أن: «القرابة تحتاج إلى مودة، والمودة لا تحتاج إلى قرابة»^(١٤٥)، وأنه: «إذا كان زحل في حادى عشر والطلع القمر، خيف على قائم الزمان»^(١٤٦).

كما نقل عن أبي حامد المرورودى (ت ٣٦٢ هـ)، أن زرادشت: «لم يكن نبياً»^(١٤٧)، وأنه كان ينبغي للفرس أن يئكلوا به. وأن يقتلوه^(١٤٨) لجهله^(١٤٩).

وذكر مزدك في نص أبي حامد هذا أيضاً^(١٥٠) والمجوس^(١٥١)، والقرامطة^(١٥٢)، وكان في مجالس أبي سليمان بعض المجوس، مثل فيروز الطبيب المجوسى^(١٥٣).

ويذكر من اتهموا بالزند. أبا الحسن أحمد بن الراوندى (ت ٢٤٥ هـ)، ونقضه على النحويين، ووصفه بأنه: «متكلم بارع، وجهيز ناقد، وبحاث جدل، ونظار صبور»^(١٥٤)، وبهذا يكون سابقاً على ابن مضاء الأندلسى الظاهرى فى معارضة كما يروى عن عبد الكريم بن أبى العوجاء المتكلم^(١٥٥)، وذكر على لسان أبى سليمان قوما من الدهريين والملحدّين على حد تعبيره: «منهم صالح بن عبد القدوس وابن العوجاء ومطر بن أبى الغيث وابن الراوندى والصيمرى»^(١٥٦).

ومن الذين يحضرون مجلس أبى سليمان أبو الخير اليهودى الذى روى عنه أبو حيان رأيه فى معرفة الله^(١٥٧)، ونقل نصاً له فى العقل والمعرفة^(١٥٨).

ومن النصارى ابن زرعة (ت ٣٩٨ هـ) وهو أبو على عيسى بن إسحاق بن زرعة بن مرقس النصرانى الذى كان ينقل نصوصاً لأرسطو من السريانية إلى العربية، وله مكانة كبيرة فى الكنيسة اليعقوبية، ويحيى بن عدى (ت ٣٦٣ هـ) المنطقى ذا جذ الفارابى (ت ٣٣٩ هـ)، وترجم عدداً من الكتب من السريانية إلى العربية، وهو نصرانى معتزلى.

ونقل عن الحريرى: «فإن هاهنا من يتفلسف وهو نصرانى كابن زرعة وابن الخمار وأمثالهما»^(١٥٩)، وهاهنا من يتفلسف وهو يهودى كأبى الخير بن يعيش، وهاهنا من يتفلسف وهو مسلم كأبى سليمان والنوشجاني وغيرهما^(١٦٠). هذا وقد ترجم حنين بن إسحاق العهد القديم فى القرن الثالث للهجرة^(١٦١).

من العناصر الثقافية الدينية الصائبة الذين شاركوا فى الأمواج الثقافية المتلاحقة المتمازجة فى بغداد، من هؤلاء ثابت بن قرة (ت ٢٨٨ هـ) رئيس الصائبة^(١٦٢)، وثابت بن سنان بن ثابت (ت ٣٦٥ هـ) الحرانى حفيد ثابت بن قرة، وأبو إسحاق إبراهيم بن هلال الصائبي (ت ٣٨٤ هـ) الحرانى صاحب الرسائل التى نشرها شكيب أرسلان فى عصرنا هذا، وأبو الخطاب الصائبي الكاتب^(١٦٣)، وأبو الحسن الحرانى الذى كان يشارك فى مجالس أبى سليمان، وسمع منه أبو حيان:

«وسمعت أبا الحسن الحرانى يقول: قرأت فى كتبنا، يعنى كتب الصائبيين، إذا أردت أن تكثر النحل فى مكان فضع نحلة من ذهب فى سقف بيت النحل، فإن النحل يزيد ولا ينقص، ولا يهرب»^(١٦٤).

التوحيدى والكلام:

كان للتوحيدى موقف من «الكلام» فتحدث عن عدد من المتكلمين وعن طريقتهم، سواء كانوا من المعتزلة أو الأشاعرة، ويبدو من وصفه للمتكلمين أنه لم يعد يرتضى منهمجهم، لأن:

«الله نهى عن التفرق فى الدين، ومنع من إظهار الشك على اليقين، ودين الله محمى الحریم، عزيز الجانب لا يتلقى بالتعسف والتكلف، ولا يتناول بالتقعر والتنتطح، وما شمت الحاسد المرصد، والطاعن الملحد حتى رأى علماء الدين، وأنصار الشريعة بموجون فى نحلهم، يكفرون أهل القبلة على اعتقادهم... ويظنون أن عقولهم كافية، وألفاظهم شافية... حتى خبطوا كما نخط العشواء... أعجبوا ببعض الإصابة فتهوروا، مع كثير الخطأ...»^(١٦٥).

وعندما حاور أبو حيان شيخه أبا سليمان وسأله عن الفرق بين طريقة المتكلمين وطريقة الفلاسفة، أجابه بأن:

«طريقتهم مؤسسة على مكايلة اللفظ باللفظ، وموازنة الشئ بالشئ، إما بشهادة من العقل

التحديد، وهي صناعة صعبة تحتاج إلى علم واسع بالمنطق، ودرة مع ذلك كثيرة، وغاية ما عند هؤلاء القوم في التحديد إبدال اسم مكان اسم، بل ربما كان اسم الشيء أوضح من الحد الذي يضعونه^(١٧٣)، وعلق على هذا بأن:

«هذه سبيلهم في جميع ما يتكلفونه، إلا ما كان مأخوذاً من المتقدمين، ومنقولاً عنهم، نقلاً صحيحاً، كحد الجسم، والعرض، وما أشبههما، فأما ما تكلفوه من الحدود، فهو بالهذيان أشبه»^(١٧٤).

ونقد أبو حيان أبا عيسى الوراق المعتزلي (ت ٢٤٧ هـ) وما نقله عنه الكعبي المعتزلي (ت ٣١٩ هـ) والمعتزلة عموماً في هذا النص:

«وهذا من سئى القول، وفاحش الاعتقاد، وما أدرى ما أقول في هذه الطائفة التي تبعت آراء مشوية، وأهواء فاسدة، وخواطر لم تختمر»^(١٧٥).

أما على بن عيسى بن علي بن عبد الله الرمانى المعتزلي (ت ٣٨٤ هـ) النحوى الذى جمع منطق النحو ومنطق الفلسفة، وخرج بطريقة جديدة مبتدعة فإن أبا حيان لم يرتض منهجه فبرى:

«أنه لم يسلك طريق واضح المنطق، بل أفرد صناعة وأظهر براعة... أنكره المنطقيون، والنحويون والتكلمون»^(١٧٦).

وأشار إلى أبى الهذيل العنلاف (ت ٢٣٥ هـ) وإلى منهجه الجدلى فى إفحام الخصوم، فى مسألة حدوث العالم^(١٧٧).

وذكر من مصادره^(١٧٨) فى كتابه (البصائر) أبا عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ)، وإعجابه به يعود إلى بيانه لا إلى مذهبه الاعتزالى فيما يبدو.

ويدو أنه تأثر فى موقفه من المعتزلة والتكلمين عموماً بأبى سليمان السجستانى الذى نقل لنا أبو حيان موقفه منهم^(١٧٩). وبأسف أبو حيان ويتألم لما صارت إليه الأمة من انقسام، واستيلاء التقاليد العجمية على الأوضاع السياسية:

مدخولة، وإما بغير شهادة منه البتة، والاعتماد على الجدل، وعلى ما يسبق إلى الحس أو يحكم به العيان، أو على ما يسمح به الخاطر المركب من الحس والوهم والتخيل، مع الإلف والعادة والمنشأ، وسائر الأغراض التى يطول إحصاؤها، ويشق الإتيان عليها، وكل ذلك يتعلق بالمغالطة، والتدافع، وإسكات الخصم بما اتفق، والإيهام الذى لا محصول فيه، ولا مرجوع له، من نواذر لا تليق بالعلم، ومع قلة ناله، وسوء ديانة وفساد دخلة، ورفع الورع جملة»^(١٦٦).

وعرض أيضاً رأى يحيى بن عدى فيهم وفى ادعائهم أنهم وحدهم أهل الكلام^(١٦٧)، وعلق التوحيدى على هذا كله بأن يحيى بن عدى كان يعلم: «أن القوم أحدثوا لأنفسهم أصولاً، وجعلوا ما يدعون محمولاً عليها أو مسلولاً من عرضها وإن كانت المغالطات تجرى عليهم، ومن جهتهم بقصدهم مرة، وبغير قصدهم أخرى»^(١٦٨)، وربط بين جدل المتكلمين، ونظرية أرسطو فى الجدل، بل إن كثيراً من المتكلمين أقدمهم القصور من أن يصلوا إلى مستوى الجدل عند أرسطو^(١٦٩).

ووصف أحد المتكلمين وهو الداركي بأنه علت رتبته فى «الكلام»، ومع ذلك فهو: «قليل اليقين»^(١٧٠) بسبب منهج الكلام: «وذلك أن الطريقة التى قد لزموها، وسلكوها، لا تفضى بهم إلا إلى الشك والارتياب»^(١٧١).

وكان موقفه فى غاية القسوة والتحامل من أبى بكر محمد بن الطيب الباقلانى (ت ٤٠٣ هـ) لما سئل عنه فأجاب بأنه:

«يزعم أنه ينصر السنة، ويفحم المعتزلة، وينشر الرواية، وهو فى أضعاف ذلك على مذهب الخرمية، وطرائق الملحدة»^(١٧٢).

ولا يؤخذ من هذا النص أنه يدافع عن المعتزلة أو أنه من أنصار المعتزلة كما يرى بعض الباحثين، ذلك أن المعتزلة لم يسلموا من نقده اللاذع، فهم عنده كالتكلمين الآخرين، لا يعرفون صناعة التعريف المنطقى: «لا يعرفون صناعة

زيد البلخي لما أوردته في كتاب له هو (اختيار السيرة) عن النفس والأخلاق: «وقد شفى في هذا الباب أبو زيد البلخي في كتابه الذي يسميه باختيار السيرة»^(١٩٣)، ونسب إليه (كتاب أخلاق الأمم)^(١٩٤)، ورسالة لطيفة الحجم «تجمع أصناف ما يقتبس من العلم والحكمة والتجربة في الأخبار والأحاديث»^(١٩٥).

الكندي:

لم يهمل أبو حيان الكندي (ت ٢٥٢ هـ) في مؤلفاته سوى (المقابسات)^(١٩٦)، فذكر أن الكندي من المغاضين للكيمياء: «وأخر من تكلم على بطلان الكيمياء، وإبطال دعاوى أصحابها يوسف بن إسحاق الكندي، وكتابه مشهور في ذلك، ورد عليه محمد بن زكريا الرازي، وكتابه معروف»^(١٩٧)، وذلك فيما روى عن مسكويه، كما أشار إلى رأى الكندي في الفناء، و: «أن الفناء شيء يخص النفس دون الجسم، فيشغلها عن مصالح الجسم، كما أن لذة المأكول والمشروب تشغل الجسم دون النفس»^(١٩٨)، ونقل كلامه في الجواهر: «الذي قوامه بذاته، أعنى الذي لا يحتاج في قوامه إلى غيره، وهو وحده حامل بعينه للاختلاف، غير متبدل في قبوله للاختلاف»^(١٩٩)، وفي وصفه لابن عباد ومزاعمه، وشعره بأنه أربى على: «الكندي في الجزء»^(٢٠٠)، وكان الكندي كان مشهوراً ومتفوقاً في الكلام على الجزء الذي لا يتجزأ. وأورد في كلام أبي سعيد السيرافي (ت ٣٦٨ هـ) في مناظرته لأبي بشر متى بن يونس القنائي المنطقي (ت ٣٢٨ هـ) ما يفيد جهل الكندي باللغة العربية في اصطلاحاته^(٢٠١).

ونسب إلى الكندي رأياً خاصاً به في مسألة الحركة، فقد زاد الكندي نوعاً آخر من الحركة وهي حركة الإبداع، وميز بينها وبين حركة الكون^(٢٠٢).

أما مسكويه (ت ٤٢١ هـ) الذي اشترك معه في تأليف كتاب (الهوامل والشوامل) فقد أخبر عنه أنه كان مفتوناً بكتب محمد بن أبي زكريا الرازي (ت ٣٢٠ هـ) وجابر بن حيان. ومع ذلك، فإن مذهب مسكويه في النفس هو مذهب أرسطو في:

«ألا ترى أن الحال استحالت عجباً: كسرورية وقبصرية»^(١٨٠)، فكان من نتائج ذلك: «هذه الفتن، والمذاهب، والتعصب والإفراط»^(١٨١)، فانهدم الأمن و: «صارت الناس أحزانا في النحل، والأديان، فهذا نصيري، وهذا أشجعي، وهذا جاردودي، وهذا قطعي (إمامي)، وهذا جبائي، وهذا أشعري، وهذا خارجي، وهذا شعبي، وهذا قرمطي، وهذا راوندي، وهذا نجاري، وهذا زعفراني، وهذا قدرى، وهذا جبيري، وهذا لفظي، وهذا مستدركي، وهذا حارثي، وهذا رافضي، ومن لا يحصى عدده إلا الله»^(١٨٢).

ويرى الأعمش أن أبا حيان أحمل المعتزلة، ولم يجد لهم ذكراً^(١٨٣) في كتاب (المقابسات)، وكذلك الكندي، والرازي، وهو في الحقيقة ذكر المعتزلة باعتبارهم مدرسة، وذكر أفراداً منها درس عليهم ونقدتهم في بعض مصنفاته الأخرى، كما رأينا في النصوص التي سبقناها، بل إن أبا حيان ذكر بعض من يذهب إلى تكافؤ الأدلة مثل أبي سعيد الحضرمي وهو من حذاق المتكلمين، وابن البقال، والشكاك المتحيرين^(١٨٤)؛ إذ يرون أن الأدلة متدافعة، وهو موقف شكى على نحو ما يذهب الشكاك اليونان.

الفلسفة الإسلامية:

نجد في مصنفات أبي حيان التوحيدى من المعلومات عن الفلاسفة الإسلاميين، ما يبدو أننا لا نجد لها في مصادر أخرى، سواء كانت تتصل بأعضاء المدرسة التي ينتمي إليها، وهي مدرسة السجستاني أم غيرهم. ومن هؤلاء: أبو زيد البلخي (ت ٣٣٢ هـ) الذي يصفه أبو حيان بأنه: «سيد أهل المشرق في أنواع الحكمة»^(١٨٥)، وأنه يرى بطلان الكيمياء إذ هي محال ولا أصل لها^(١٨٦)، وأنه: «كان فاضلاً يذهب في رأى الفلاسفة، ولكنه تكلم في القرآن بكلام دقيق، لطيف، وأخرج سرائر ودقائق، وسماه: نظم القرآن... ومات أبو زيد في سنين ثلاثين وثلاثمائة، ويقال له جاحظ خراسان»^(١٨٧) وأنه عرضت عليه الوزارة فأبى^(١٨٨)، وأنه مات «عن عمر قصير»^(١٨٩). كما يشير إلى أنه قد ألف (كتاب السياسة)^(١٩٠)، كما ذكر كتابه (أقسام العلوم)^(١٩١) في كلام عيسى بن علي بن عيسى الوزير (ت ٣٩١ هـ) عن مراتب العلوم^(١٩٢)، وأثنى أبو حيان على أبي

والإشارة إلى أعضاء مدرسته ومجالسه، ويعتبر ذلك استمراراً لانتقال المدرسة الفلسفية من الإسكندرية إلى أنطاكية ثم حران ومنها إلى بغداد، وهناك ثلاث شخصيات مهمة ذهبت إلى بغداد هم القويري ويوحنا بن حيلان، وأبو يحيى المروزي، الذين كانوا يعلمون فلسفة أرسطو، وأول تلميذ لهم هو الفارابي (ت ٣٣٩ هـ) ثم أبو بشر متى ثم يحيى بن عدى تلميذ الفارابي، وأبو بشر، ثم السجستاني، وهو من سجستان بخراسان، واستقر في بغداد ملازماً منزله، يقصده الطلاب وعلماء عصره، ومنهم التوحيدى، أحد أصحابه المعتصمين به على حد تعبير القفطى، وهو فيما يقول أبو عبد الله العارض (ت ٣٧٥ هـ):

«رجل يعرف بالمنطقي، وهو من غلمان يحيى ابن عدى النصراني، ويقرأ عليه كتب يونان، وتفسير دقائق كتبهم بقاية البيان» (٢١٣).

وبين التوحيدى موقفه من العلاقة بين الشريعة والفلسفة: «الفلسفة حق لكنها ليست من الشريعة في شيء، والشريعة حق لكنها ليست من الفلسفة في شيء» (٢١٤)، وهو يمثل التراث الفارابي (٢١٥) في المنطق، الذي انتقل إليه عن طريق يحيى بن عدى وبشر بن متى، وهو صاحب كتاب (صوان الحكماء) الذي يمكن القول بأنه أخذ فيه من كتاب (أخبار الفلاسفة) لفورفوروس الصوري، كما أن البيهقي والشهرستاني استفادا منه في كتابيهما المشهورين (٢١٦)، وله «تعاليق حكمية» ذكره ابن أبي أصيبعة وابن البطران في البستان.

وقد ناقش أبو حيان معه مسائل فلسفية متعددة من فلسفة أفلاطون في (المقابسات) و (الإمتاع) (٢١٧).

أما يحيى بن عدى فيطلق عليه أبو حيان أستاذ الجماعة، جماعة السجستاني، وهو قد أخذ عنه كما تقدم سنة ٣٦١ هـ بدعوة من البيهقي (٢١٨) ويطلق عليه أبو سليمان لقب «شيخنا» (٢١٩)، وتلميذ عليه أيضاً أبو محمد المروزي، وكان على حد تعبير أبي حيان: «يتفلسف ولزم يحيى بن عدى دهر» (٢٢٠).

وقد درس عبد الأمير الأعلام المذكورة في (المقابسات) وعرف ببعضهم، وقسمهم إلى مشهورين ومغمورين (٢٢١).

«أن النفس تكمل بقبولها صور المعقولات لتصير عقلاً بالفعل فإذا عقلت صارت هي هو، إذ من شأن المعقول والعقل أن يكونا شيئاً واحداً لا فرق بينهما» (٢٠٣).

ويدور أن أبا حيان على اطلاع واسع على نقد مسكويه للرازي في قدم النفس، وفي نص آخر يقول: «رأيت أبا بكر محمد بن زكريا الرازي وغيره ممن في طبقتهم قد تورطوا في مذهب بعيد عن الحق» (٢٠٤)، فهو أيضاً على دراية بمذهب الرازي الذي أخذ بالفيشاغورية الجديدة، ونقده لآراء أرسطو، كما اتهم بأنه يعميل إلى آراء الصابئة وأنه ألف كتاباً في مذهبهم (٢٠٥)، وذكر أنه كان له نشاط فلسفي وطبي وكيميائي في بلده الري ثم في بغداد (٢٠٦)، وهو القائل بالمبادئ القديمة الخمس: الخالق، النفس، الدهر، المادة، والمكان والخلاء، ومن المعلوم أنه تعلم من كتب جابر بن حيان الفنوصي، وأخذ بمنهجه في الكيمياء والعلوم السرية السحرية (٢٠٧).

إلا أن التوحيدى انتقد مسكويه نقداً مراراً في دعواه أن أمر الكيمياء: «حق، وأن الطبيعة لا تمنع من إعطائه، ولكن الصناعة شاقة» (٢٠٨)، وأنه: «أمضى عمره في الإكباب على هذا بالري، أيام كان بناحية أبي الفضل، وأبى الفتح ابنه، مع رجل يعرف بأبي الطيب» (٢٠٩)، شاهده، ولم أحمد عقله، فإنه كان صاحب وسواس وكذب، وسقط، وكان مخدوعاً في أول أمره، وخادعاً في آخر عمره» (٢١٠). ووصف أبو حيان صديقه مسكويه بأنه: «فقير بين أغنياء، وعبي بين أسيان، لأنه شاذ» (٢١١). ويعيب على مسكويه أيضاً أنه كان في الري ولم يأخذ عن أبي الحسن العامري (ت ٣٨٠ هـ) كلمة واحدة، ولم يع عنه مسألة واحدة، مع أن العامري سكن: «الري خمس سنين جملة، ودرس، وأملى، وصنف، وروى» (٢١٢)، وأنه ندم على ذلك، ولما أقرانه، وقضى زمانه في خدمة السلطان، واتهمه بالبخل، ويدعوى الكرم.

أبو سليمان السجستاني ومدرسته:

من أهم العناصر في تاريخ أبي حيان التوحيدى للفلسفة في بغداد روايته عن أبي سليمان السجستاني (ت ٣٧٥ هـ)،

كما وصف أبو حيان جماعة من المفكرين منهم عيسى ابن علي الوزير، ونظيف الرومي، وابن السمع وغيرهم من مشايخ النصارى بأنهم منحزمون بالفلسفة ومحبيون لها، وأنه جرى بينهم كلام في الفلسفة الأخلاقية عند ابن سعدة^(٢٤١) (ت ٣٧٥ هـ).

المجالس:

من أبرز الظواهر الثقافية المجالس أو النوادي أو الحلقات العلمية التي أרך لها أبو حيان التوحيدى، وسجل كثيراً مما كان يدور فيها من مناظرات، وأحاديث ومناقشات فلسفية، وغيرها، فذكر أسماء الحاضرين أحياناً ويصفهم مثلما فعل مثلاً في مجلس ابن سعدة^(٢٤٢)، ويعقب على هذا بـ «هؤلاء أهل المجلس سوى الطائفتين من أهل الدولة، ولا فائدة في ذكرهم»^(٢٤٣)، كما يذكر وصف ابن سعدة نفسه لأصحاب مجلسه، بأنهم: «أعيان أهل الفضل، وسادة ذوى العقل»^(٢٤٤)، ويقارن بينهم وبين أصحاب مجلس ابن عباد^(٢٤٥)، وكان ابن عباد يختص بأهل الاعتزال، اتباع مذهبه، وأشياح أهل العدل والتوحيد.

يمكن لنا أن نشير إلى عدد من هذه المجالس ليتبين لنا مدى هذه الظاهرة الحضارية المتميزة. وقد استطعت أن أحصى أحد عشر مجلساً منها:

- ١- مجلس يحيى بن عدى.
- ٢- مجلس السجستاني.
- ٣- مجلس أبي الحسن العامري.
- ٤- مجلس عيسى بن علي.
- ٥- مجلس أبي بكر القومسي.
- ٦- مجلس أبي زكريا الصيمري.
- ٧- مجلس ابن سعدة.
- ٨- مجلس الصاحب ابن عباد.
- ٩- مجلس الفسوي النحوي.
- ١٠- مجلس ديسان^(٢٤٦) ابن السمع بباب الطاق بالوراقين ببغداد.
- ١١- طاق الحراني في الوراقين^(٢٤٧).

فالمشهورون عد منهم خمسة عشر شخصاً، والمغمورون خمسة وعشرين شخصاً^(٢٢٢)، فلا داعي لأن نذكرهم هنا، ولا أن نعريف بهم مرة أخرى، وإنما نشير إلى بعض هؤلاء الذين وصفهم التوحيدى^(٢٢٣) ومنهم: العامري أبو الحسن محمد بن يوسف (ت ٣٨١ هـ)، وهو تلميذ لأبي زيد البلخي والأخير تلميذ للكندي، يصفه أبو حيان بـ «الطباع، وجفاء الخلق»^(٢٢٤)، ويقول إنه شاهده ببغداد سنة ٣٦٠ هـ ثم في سنة ٣٦٤ هـ في ركاب ذي الكفائتين، وكان له حديث مع الفلاسفة البغداديين، وأشار إلى بعض مؤلفاته منها: كتاب (إنقاذ البشر من الجبر والقدر)^(٢٢٥)، ونسب إليه كتاباً آخر هو (النسك العقلي وشرحه)، نقل منه التوحيدى فقرات سمع منه أكثرها^(٢٢٦)، وعلق على ذلك بأن العامري: «قد كان قادراً على هذا الجنس من الكلام لطول ارتياضه، وكثرة فكره فيه مع سيرة جميلة»^(٢٢٧)، وروى فقرات أخرى من كلامه لابن العارض^(٢٢٨). وذكر أبو سليمان في كتابه (صوان الحكمة) أن العامري ألف كتاباً في تاريخ الفلسفة اليونانية وعشر عليه مخطوطاً باستانبول^(٢٢٩)، ونسب إليه أبو حيان كتاباً في التصوف^(٢٣٠).

وأشار إلى أبي القاسم عيسى بن علي بن عيسى (ت ٣٩١ هـ) المنطقي المترجم، ونقل عنه نصوصاً عديدة منها: «ليس يرى مجد الحكمة إلا من بصر عينيه في قلبه، لا بصر قلبه في عينيه»^(٢٣١)، وروى عن أفلاطون^(٢٣٢) كما روى عن أرسطو^(٢٣٣)، وقال في وصفه:

«وهذا الشيخ قد أعلى الله كعبه في علم الأوائل، ووفر حظه من الحكمة المبثوثة في هذا العالم»^(٢٣٤).

كما وصف أبا بكر القومسي بأنه: «كان كبيراً في علم الأوائل»^(٢٣٥)، وأنه: «كان كبير الطبقة في الفلسفة لزم يحيى بن عدى زماناً، وكتب لنصر الدولة»^(٢٣٦)، وكان حلو الكتابة، مفسول الجملة^(٢٣٧). وقد نقل عنه مجموعة حكم^(٢٣٨)، ونقل عنه ما نسبته إلى سقراط وأفلاطون^(٢٣٩) وأنه: «كان ذلك في كتب أبي بكر القومسي الفيلسوف بمدينة السلام»^(٢٤٠).

للافكار، مادام يتولى صياغة الأسلوب^(٢٦٣) الذي يمكن أن يؤثر في تجويز الأفكار، وعدم الدقة في مضامينها.

والواقع أن التوحيدى واضح جداً في منهجه؛ فهو يصرح بطريقته، إذا زاد في الصيغة أو أكمل الفكرة، أو جاء بها كاملة، ولم يغب عنه شيء منها.

ويمكن الرجوع إلى ما يتوفر من المصادر التي نقل منها للمقارنة بينها، وهذا ما يمكن القيام به في أبحاث خاصة بهذا الموضوع.

ويبدو أنه أمين فإذا أدخل تعديلاً أشار إليه فمثلاً يقول:

«هذه معانٍ اختلست من مذكرات هؤلاء المشايخ، فلم يمكن أن تورد تامة مستقصاة، لأن الكتب التي توضح هذه الدقائق موجودة، ومن يشرح مشكلتها، ويفتح مستغلقها حاضر، فليكن التعويل في بلوغ غايات هذه المواضع على العلماء والكتب، والقرائع»^(٢٦٤).

ويشير إلى طريقة أخرى في توخي الحق وتنقية الأفكار والتعبير عنها:

«قد مرت في هذه المقابلة التي تقدمت فنون من الحكمة، وأنواع من القول ليس لي من جميعها إلا حظ الرواية عن هؤلاء الشيوخ، وإن كنت استفدت الطاقة في تنقيتها، وتوخي الحق فيها، بزيادة بسيرة، لا نصح إلا بها، أو نقص خفي لا يبالى به»^(٢٦٥).

ويعترف بأن ما جمعه قد: «جرى في مجالس مختلفة، من مشايخ الوقت في مدينة السلام»^(٢٦٦)، كما أنه يعتمد إلى الانتخاب من مصادر متنوعة مثل ما فعل فيما وضع من حدود، «حدود الأشياء»^(٢٦٧)، وهو في ذلك يحافظ على ما ينسب إلى أعلام عصره:

«وإذا كنت في جميع ذلك راوية عن أعلام عصرى، وسادة زمانى، فأنا أفدى أعراضهم بعرضى، وأفنى أنفسهم بنفسى، وأناضل دونهم بلسانى وقللى، ونظمى ونثرى»^(٢٦٨).

وتنفع المناظرات أحياناً أثناء رحلة تنزه في الربيع، بالصحرَاء، قصد التفرج والمؤانسة^(٢٦٨)، وتكون أحياناً أخرى في مجالس الأُنس^(٢٦٩)، ويصف أبو حيان أحاديث أبى سليمان في مجلس الأُنس: «بأنها إن لم تكن من صدر الفلسفة، فإنها لا تخرج من جملتها...»^(٢٧٠)، ويصف المجالس عموماً بأنها: «لا تنصرف إلا عن فوائد كثيرة فلسفية، وغير فلسفية»^(٢٧١)، كما يصف بعض أعضاء هذه المجالس، خاصة مجلس أبى سليمان^(٢٧٢) بأن:

«كل واحد من هؤلاء إمام في شأنه، وفرد في صناعته، سوى طائفة دون هؤلاء في الرتبة، وهم أحياء»^(٢٧٣).

الرواية:

يروى أبو حيان أحاديث وأخباراً ونصوصاً فلسفية وغيرها، ويذكر أن سبب رواية هذه النصوص هو: «إنما يعنى على رواية كل ما سمعت من هؤلاء الجلة الأفاضل عشقى لهم، وحمدى لله تعالى على ما أتاح منهم»^(٢٧٤)، وأن طريقته في الرواية إنما هي أن يلقي على حد ما قد: «سمعت الأذن، ووعاه الصدر»^(٢٧٥)، وأن بعض هذه الأحاديث يأخذها من أنواء الرجال، وبعضها يلتقطها من بطون الكتب، بعد أن يعرض كل ذلك على من يوثق بسمعته في صناعته، وعلى من يرجع إلى خبرته ونقده^(٢٧٦) فيقول مثلاً: «تذكر في هذه حكماً سمعتها من الحراني»^(٢٧٧)، ويأخذها أحياناً أخرى إملاء من أبى سليمان أو غيره^(٢٧٨)، ويتخذ شكل الرواية حواراً في بعض الأحيان، ويكون هو طرفاً فيها^(٢٧٩). وقد أحصى الأعمى عدد المقابسات السماعية ٦٩ مقابلة، منها ٣١ مقابلة من أبى سليمان وحده، وعدد الشخصيات في المقابسات ٢٣ شخصاً^(٢٨٠)، وقد أحصينا عدد المجالس الدائمة والمؤقتة بحوالى ١١ نادياً.

ومن طرق روايته قراءات في مصادر مختلفة من أعمال الفلاسفة، وغيرهم^(٢٨١) وينقل منها. لكن إذا كان أبو حيان مؤرخاً للفلسفة بهذا المنهج فهل يوثق بروايته، وقد نسب إليه تلغيف «رسالة السقيفة» المشهورة؟ هنا نجد موقفين: موقف من يوثقه، ويأخذها أميناً^(٢٨٢)، وموقف من يشك في صياغته

بحق^(٢٧٤)، يضاف إلى ذلك حبه المال، وطموحه السياسي، حتى إن بعض الباحثين شك في تصوفه ووصفه بأنه تصوف مرأى في أول أمره، وأصبح فيما بعد، في آخر عمره تصوفاً حقيقياً.^(٢٧٥)

وربما أمكن القول بأن التوحيدى اتجه اتجاهاً المغربيين من المناطق مع شيخه أبى سليمان، في مقابل اتجاهاً المشرقيين، على حد تعبير ابن سينا، الذى يمثله إخوان الصفاء وهو معارض لهم تبعاً لشيخه، والعامري، وأبو زيد البلخي الذى وصفه التوحيدى بأنه: «سيد أهل المشرق فى أنواع الحكمة»^(٢٧٦).

وما يلاحظ أن الفلسفة فى هذا العهد، كما يتبين من أعمال أبى حيان، انتقلت من عصر الاصطلاح والمعارف المترجمة حرفياً، وما فيها من ركافة وغموض، إلى السبك الأدبى الجميل، وإلى الوضوح فى التعبير، والبسط الذى لا يعجز غير الفيلسوف عن فهمه، ومعنى ذلك أن التفكير الفلسفى أصبح جزءاً راسخاً فى صميم النسيج الثقافى، وأن الثقافة فى بغداد أصبحت ذات طابع عالمى، فيها عناصر متشابهة تألفت من مختلف روافد الأعراق والشعوب والفلسفات، وأنه لاضير على الأدب أو الكاتب، فضلاً عن الفيلسوف، أن يرثف من حكمة الأمم الأخرى، ولذلك ترى أبى حيان حينما نقل لنا حكماً يونانية قال:

«هذه نوادر من كلام اليونانيين، وقد مر فى هذا الكتاب، ويمر ما إذا جمعت وأفردت زادت حسنه، وانتالت عليك فائدته، فخذ منها، ومن غيرها كل حسن بهيج، نفعتك الله بالعلم، وبصرك بالهدى»^(٢٧٧).

كما أنه يجتمع فى هذه المجالس اليهودى، والنصرانى، والمجوسى، والصابئى، مع المسلم، ولاضير أن يكون رئيس المجلس نصرانياً أيضاً، كما كان يحيى بن عدى شيخاً لمجلسه، كما يأخذ المسلم عن النصرانى، والنصرانى عن المسلم وغيره، فنشأ من تفاعل هذه الثقافات كلها نسيج جديد فى عالم حضارى متألق هو الحضارة العربية الإسلامية.

وبهذا، فإن طبيعة عمل أبى حيان التوحيدى الفلسفى أمر واضح، وطابعه التاريخى للأفكار الفلسفية والتيارات الفكرية فى القرن الرابع الهجرى ببغداد لا يمكن تجاهله فى كتابة تاريخ الأفكار فى ذلك العصر، لأنه تفرد بأمور لا توجد فى غير تصانيفه من المصادر^(٢٧٨)، حسب علمنا، وقد أبان عن جوانب منه باحثون معاصرون، منها أثر الأفلاطونية المحدثة فى الأخلاق عند التوحيدى^(٢٧٩)، و«علم الجمال عند أبى حيان التوحيدى»^(٢٨٠) ومنها دراسة عن الحياة الاجتماعية^(٢٨١)، ودراسة ذكرها إبراهيم^(٢٨٢)، ويمكن دراسته صوفياً ولغوياً وأدبياً أيضاً.

خاتمة:

يمكن القول بأن ما نقله أبو حيان من نصوص فلسفية فيها جانب أخلاقى غالب وواضح، وهذا يعود إلى نقله فيما يبدو من مصادر من عهد الفلسفة اليونانية المتأخر الذى يسيطر عليه هذا الطابع، ويبدو كذلك - كما لاحظ الأعمس - الطابع الانتقائى التلغيفى فى الأفكار الفلسفية، وهذا فى نظرى أيضاً يعود إلى كونه سائداً فى الفلسفة اليونانية كما نقلت فى العهد الهلستينى، كما نرى أنه مع الفلاسفة فى العقلانية، وغير راض تماماً عن منهج المتكلمين، وإن كان له مزاج حاد فى نقده، وفى بعض المواقف يتناقض، فتارة يمدح شخصاً ويشى عليه، وأخرى يهاجمه، كما فعل بالنسبة إلى مسكويه، وكذلك تحامله الشديد على المعتزلة، وأبى بكر الباقلانى الذى اتهمه باستعمال طرائق الملحدين.

وهو يجالس أهل السلطة، وأهل الثقافة، ولكنه لم ينجح فى التقرب من أهل السلطة السياسية لصراحته وجراته، وأنفته من الإذلال، ولذلك حرم من الاعتراف بعبقريته، فكان ذلك كله سبباً فى عنفه وتشاؤمه، وبأسه، وشكواه، ولم يكن يستطيع أن ينتهز الفرص، ولا أن يجامل، ولسانه مسلط على الناس كلسان ابن حزم، ولذلك كثر خصومه، وظالموه، وقتلوا ناصروه، والمنصفون له، حتى رمى بالإلحاد.

وهذا المزاج الحاد هو سبب مشاكله وتشاؤمه، فليس تشاؤمه تشاؤماً فلسفياً كما أشار إلى ذلك الأعمس،

اقترح:

وبهذا الصدد نقترح:

في مؤلفاته، وأن تجمع نصوصه الفلسفية الخالصة مفردة.

٣- أن تدرس مؤلفاته دراسة نقدية تحليلية، على نحو ما فعل الأعمى في كتاب (المقاييس).

٤- مقارنة النصوص الفلسفية التي أوردها بأصولها اليونانية المتوفرة ونقدها، وبيان النصوص التي نقلها وضاعت أصولها، كما فعل المؤرخون في الشذرات التي تنسب إلى الفلاسفة قبل سقراط.

١- أن يقوم باحثون بدراسات مفصلة مفردة عن كل فيلسوف من الفلاسفة الذين أشار إليهم أبو حيان، وأن تفرد آراؤه، والنصوص التي تنسب إليه، لتكتمل حلقة من حلقات تاريخ الفكر الفلسفي.

٢- أن تدرس آراء أبي حيان التوحيدى في مختلف مجالات الفلسفة على نحو ما عبر عنها

الهوامش

١ - الإمتاع والمؤانسة، تحقيق أحمد أمين، وأحمد الزين، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ج ٣، ص ١٣٨.

٢ - المقاييس تحقيق محمد توفيق حسين، مطبعة الإرشاد، بغداد ١٩٧٠، ص ١٥٣.

٣ - أبو حيان التوحيدى في كتاب (المقاييس)، دار الأندلس، بيروت، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠، ص ٢٦٥.

٤ - Grayling, A. C. Philosophy, Oxford University Press, 1995, p. 4. and Trevor Pateman, What is Philosophy Edward Arnold, London, 1987, p.8.

٥ - الإمتاع والمؤانسة، نشر أحمد أمين وأحمد الزين، القاهرة، ١٩٤٢ ج ٢، ص ٥٥، وعنه نقل القفطى.

٦ - عارف تاسر، (مقدمة) رسالة جامعة الجامعة لإخوان الصفاء، دار الحياة، بيروت ١٩٧٠، ص ١١ - ١٤ نقلاً عن إدرىس عماد الدين (ت ٨٧٢هـ) عيون الأخبار مج ٤، ص ٢٢٩، وكذلك شرف الدين جعفر بن محمد بن حمزة (ت ٨٣٤هـ) على أن الإمام عبدالله الذى بدأ التأليف خلفه ابنه أحمد (ت ٢٢٩هـ) الذى أشرف أيضاً على إتمامها، انظر الجابري، تكوين العقل العربى، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٩ ص ٢٣٢.

٧ - أبو حيان، المقاييس، تحقيق محمد توفيق حسن ص ٣٠٨، وفسر أبو سليمان هذا النص نفسوا جيئنا، وعبر عن ذلك بالمغالبة والمنافرة، ونقل الشهرستانى الاصطلاح نفسه، وهو المحبة والذلة الملل والنحل، تحقيق عبدالعزيز محمد الوكيل، الحلبي، القاهرة، ١٩٦٨ ج ١، ص ١٢.

٨ - الملل والنحل، ص ١٢ وما بعدها.

٩ - محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربى، ص ١٦٤.

١٠ - أبو حيان، الصداقة والصدق تحقيق إبراهيم الكيلانى، دار الفكر دمشق، ١٩٦٤، ص ٢٤١.

١١ - المصدر نفسه، ص ٧١ وطابق بين هذا القول وقول الشاعر:

١٢ - الجملة الأخيرة نملق أبى حيان الإمتاع ج ٢، ص ٣٥.

١٣ - أبو حيان، البصائر والذخائر، تحقيق إبراهيم الكيلانى، مكتبة أطلس، دمشق، ١٩٦٤ - ١٩٦٦ ج ١، ص ٤٤٨.

١٤ - أبو حيان، المقاييس، ص ٢٨٨.

١٥ - الإمتاع، ج ٢ ص ٤٧.

١٦ - المصدر نفسه، ج ٢ ص ٤٧.

١٧ - البصائر ج ٢، ص ٤٣٦، وضيف إلى ذلك أن: «أفلاطون مات مبرسماً (التهاب الحجاب بين الكبد والقلب) وأرسطوطاليس مات مجدراً، ويقال أيضاً مات بالسل... وجالينوس مات مبطوناً»، ص ٤٣٦.

١٨ - الإمتاع، ج ٢، ص ٣٢.

١٩ - المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٢.

٢٠ - المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٥.

٢١ - البصائر، ج ١، ص ٤٧٥.

- ٢٢ - المقاسات، ص ٢٧٦.
- ٢٣ - المصدر نفسه، ص ٢٨٠، وانظر ص ٢٩٠.
- ٢٤ - الصداقة والصدق، ص ٢٤٠، وانظر وصفه للصدق، ص ٢٥١.
- ٢٥ - انظر فهارس البصائر التي وضعها إبراهيم الكيلاني.
- ٢٦ - البصائر، ج ١، ص ٦٩٧.
- ٢٧ - المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٥١، يبدو في هذا النص الجنيل بين أفلاطون صاحب كتاب التراجي (التواضع) ومتراط، وكثنت في النص الذي بعده.
- ٢٨ - نفسه، ج ٣، ص ٥٤٢.
- ٢٩ - نفسه، ج ٣، ص ٥٨٤.
- ٣٠ - نفسه، ج ٣، ص ٥٧٨.
- ٣١ - نفسه، ج ٣، ص ٥٨٤.
- ٣٢ - نفسه، ج ٣، ص ٥٧٨.
- ٣٣ - نفسه، ج ٣، ص ٥٤٣.
- ٣٤ - نفسه، ج ١، ص ٤٧٦.
- ٣٥ - نفسه، ج ٣، ص ٦١٥.
- ٣٦ - نفسه، ج ١، ص ٤٣٠، وهذا يدل على احتقار الثقافة اليونانية اثرًا.
- ٣٧ - نفسه، ج ١، ص ٤٧٦.
- ٣٨ - الإمتاع، ج ١، ص ٢١٥ - ٢١٦.
- ٣٩ - المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٤.
- ٤٠ - نفسه، ج ٢، ص ٤٦، ٤٥.
- ٤١ - نفسه، ج ٢، ص ٤٧.
- ٤٢ - البصائر والدخائر ج ٢، ص ٤٣١.
- ٤٣ - الإمتاع ج ٢، ص ٢٠.
- ٤٤ - المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٦.
- ٤٥ - نفسه، ج ٢، ص ٤٤.
- ٤٦ - نفسه، ج ٢، ص ٤٥، وعلق أبو سليمان على هذا بقوله: ما أحسن الصباح إذا كان زجاجه نقيًا، وصبره ذكيًا، وزينه قديمًا، وذمالة سويًا.
- ٤٧ - نفسه، ج ٢، ص ٤٦.
- ٤٨ - نفسه، ج ٢، ص ٤٧.
- ٤٩ - الصداقة ص ٢٤٠.
- ٥٠ - المصدر السابق ص ٢٤٠ - ٢٤١.
- ٥١ - البصائر ج ١، ص ١٢٦.
- ٥٢ - نفسه، ج ١، ص ١٤٦، وذكر أنه مات مرسما ج ١ ص ٤٣٦ وأنه كان فقيرًا، ولعلنا بالخطأ، ج ١ ص ٤٢٨.
- ٥٣ - نفسه، ج ١، ص ٤٣١.
- ٥٤ - نفسه، ج ٢، ص ٢٨٢.
- ٥٥ - نفسه، ج ٢، ص ٤٤٩.
- ٥٦ - نفسه، ج ٢، ص ٤٥٠.
- ٥٧ - المقاسات، ص ٢٧٦.
- ٥٨ - المصدر السابق، ص ٢٨٣.
- ٥٩ - نفسه، ص ٢٨٣ - ٢٨٤.
- ٦٠ - نفسه، ص ٢٦١ وأشار إلى قصة النبل وجس العميان له لمعرفته.
- ٦١ - نفسه، ص ٢٨٩.
- ٦٢ - نفسه، ص ٤١١.
- ٦٣ - الهوامل ص ١٩٢ أشار إلى فلسفته في قوى النفس.
- ٦٤ - البصائر، ج ١، ص ١٠٧، ٣٦٠، الإمتاع ج ٢ ص ٢١.
- ٦٥ - المصدر السابق ج ١، ص ٤٣٦.
- ٦٦ - نفسه، ج ٢، ص ٦٠٧.

- ٦٧ - نفسه ج ٢، ص ٦٢٩، ٦٤٦، ٦٤٧.
- ٦٨ - نفسه ج ١ ص ٣٦٠.
- ٦٩ - نفسه ج ٢ ص ٨٥٣.
- ٧٠ - نفسه ج ٢ من ص ٨٥٣ - ٨٥٦ انظر: الصداقة والصديق ص ٣٧٦.
- ٧١ - المقاييسات، ص ٢٠٦.
- ٧٢ - المصدر السابق، ص ٣٢٧.
- ٧٣ - نفسه، ص ٣٢٦.
- ٧٤ - نفسه، ص ٢٤١.
- ٧٥ - الإمتاع ج ١، ص ٣٥.
- ٧٦ - المصدر السابق، ج ٢ ص ٨٧.
- ٧٧ - المقاييسات ص ٤٠٢.
- ٧٨ - البصائر ج ١ ص ٣١٨.
- ٧٩ - المصدر السابق ج ٢ ص ٤١٠.
- ٨٠ - البصائر ج ١، ص ٣٦٠.
- ٨١ - المصدر السابق ج ١، ص ٣٦٠ - ٣٦١، ٣٩٠.
- ٨٢ - كذا ولعله: غير مستحيل.
- ٨٣ - نفسه ج ٢ ص ٦٠٧.
- ٨٤ - نفسه ج ٢، ص ٦٢٩ - ٦٣٠، ٦٤٦، ٦٤٧.
- ٨٥ - المقاييسات ص ١٦٤ وختم النص بقوله: وهذا آخر ما ترجمه من هذا الفصل.
- ٨٦ - المصدر السابق ص ١٣٢ وفي ص ٣١٢: «فهو المعنى الذي حده أرسطو فيقال: بأنه مبدأ الحركة والسكون للشيء الذي هو أولاً والدات لا بالعرض».
- ٨٧ - نفسه ص ٤٠٢.
- ٨٨ - الصداقة والصديق ص ٦٦ والمقاييسات ص ٤٤٩، ٤٥٠، ٤٥٢.
- ٨٩ - المصدر السابق ص ٦٦، وشرحه جيد يدل على فهمه للفلسفة الأرسطية.
- ٩٠ - نفسه، ص ٢٥١.
- ٩١ - الإمتاع، ج ٢ ص ٤١.
- ٩٢ - المصدر السابق ج ٢ ص ٤٥.
- ٩٣ - نفسه ج ٣ ص ١٠٠.
- ٩٤ - الصداقة والصديق، ص ٢٥١.
- ٩٥ - يوسف كرم، الفلسفة اليونانية، ط ٦، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٧٦ ص ٣٠٣.
- ٩٦ - البصائر ج ١، ص ١٠٣.
- ٩٧ - المصدر السابق ج ١ ص ٢٤٢.
- ٩٨ - نفسه ج ١، ص ٣٩٥.
- ٩٩ - نفسه ج ١، ص ٣٩٦، وقيل ديوجانس: المرأة تنفق الشر من المرأة، كما أن الأفعى تأخذ السم من الأفعى، الإمتاع، ج ٢، ص ٣١.
- ١٠٠ - الصداقة ص ٧٠، ٢٦١.
- ١٠١ - المصدر السابق، ص ١٦١.
- ١٠٢ - نفسه، ص ٢٤١.
- ١٠٣ - الإمتاع ج ٢، ص ٣٤.
- ١٠٤ - المصدر السابق ج ٢ ص ٣٤.
- ١٠٥ - الإمتاع ج ٣، ص ٩٨. منها: وقال الحكيم للإسكندر: أيها الملك أريد حياتك لرجالك، ولا ترد رجالك لحياتك وانظر: ج ١، ص ٧٥، وج ٢، ص ٢٢، ٣٣، ٣٤، ٣٧، ٤٦، والبصائر ج ٢ ص ٣٣٧، ٣٣٨، ٨٥٢، وج ٣ ص ٦٨١، وحوار ديمانيوس مع الإسكندر، ص ٦١٨.
- ١٠٦ - المقاييسات ص ٤٥٣.
- ١٠٧ - المصدر السابق ص ٤٠٦، وهو نص طويل نسباً.
- ١٠٨ - المصدر نفسه ص ٤٠٦.
- ١٠٩ -

Fouad Ammon, Les Legs

, Beyrouth, Librairie, 1980, p. 213 et Sentences des philosophes illustres, Tra R. Gemelle, P. 41.

des phéniciens a LA philosophy, Diogene, Vics, doctrines

بقلا عن

- ١١٠ - الإمتاع ج ٢، ص ٣٦.
- ١١١ - المصدر نفسه والصفحة نفسها.
- ١١٢ - المقابسات ص ٤٠٢ - ٤٠٣.
- ١١٣ - المصدر السابق ص ٤٠٢.
- ١١٤ - الإمتاع ج ٢، ص ٣٦.
- ١١٥ - المقابسات ص ٢٤٤. وانظر ص ٢٧٦.
- ١١٦ - المصدر السابق من ص ٢٤٤ - ٢٦٤.
- ١١٧ - ربما لاختلاف النسخ، وهو غير معروف، المقابسات ص ٢٧٦.
- ١١٨ - البصائر ج ١، ص ٦٣.
- ١١٩ - الإمتاع ج ١، ص ٨٩ أثار إليه الجبهتي في حوار مع أحد خصومه.
- ١٢٠ - البصائر ج ١، ص ٤٣١.
- ١٢١ - الإمتاع ج ١، ص ٨٩.
- ١٢٢ - المقابسات، ص ٤٣٦.
- ١٢٣ - المصدر السابق ص ٤٣٦، ٤٣٨، ٤٣٩، وذكر القياس البرهاني البهائي وهما اصطلاحان استعملهما محمد عابد الجابري في عصرنا هذا.
- ١٢٤ - البصائر ج ١، ص ٤٣٠.
- ١٢٥ - المصدر السابق ج ١، ص ٣٢٨.
- ١٢٦ - نفسه ج ٢، ص ٨٣٤.
- ١٢٧ - Peters, F. E. Aristotle and the ARaBS, New York, University Press. University of London Press, 1968 p.44.

- انظر الإمتاع ج ٢، ص ٣٧.
- ١٢٨ - المصدر السابق ج ٢، ص ١٥٣.
- ١٢٩ - نفسه ص ٤٥.
- ١٣٠ - Peters, Ibid, P. 270
- ١٣١ - نفسه ج ١، ص ٤٥.
- ١٣٢ - الصداقة، ص ٢٤١.
- ١٣٣ - المصدر السابق، ص ٢٤١.
- ١٣٤ - الإمتاع، ج ٢، ص ٣٧.
- ١٣٥ - انظر:
- ١٣٦ - ركتب «مقارنوس» أيضا ربما لإحدى المخطوطات.
- ١٣٧ - انظر.
- Peter, F.E. Ibid, p. 285

- ١٣٨ - الإمتاع، ج ٢، ص ٣٧ - ٣٨.
- ١٣٩ - انظر:
- ١٤٠ - الصداقة، ص ٧١، الإمتاع ج ٢، ص ٣٦.
- ١٤١ - الإمتاع ج ٢، ص ٤٦.
- ١٤٢ - المصدر السابق ج ٢، ص ٣٤ وانظر ج ١، ص ١٦٤.
- ١٤٣ - نفسه ج ٢، ص ١٥٣، ١٥٤.
- ١٤٤ - نفسه، فهارس الجزء الثاني للأعلام.
- ١٤٥ - الصداقة ص ٢٥١.
- ١٤٦ - ويقول أبو حيان أنه نقل هذا من خط أبي بكر القوسى (البصائر ج ٣، ص ٤٥٥).
- ١٤٧ - الإمتاع ج ١، ص ٩١.
- ١٤٨ - المصدر السابق ج ١، ص ٩٢.
- ١٤٩ - نفسه ج ١، ص ٩٣.
- ١٥٠ - نفسه ج ١، ص ٩٢.
- ١٥١ - نفسه ج ٢، ص ٨٧، ٣٣، ٩.

- ١٥٢ - نفسه ج ٢ ص ٧٧.
 ١٥٣ - المقابسات ص ٤٢٧، ٤٢٩.
 ١٥٤ - البصائر ج ١ ص ٢١٦ - ٢١٧.
 ١٥٥ - المصدر السابق ج ٢ ص ٣٥٨.
 ١٥٦ - الإمتاع ج ٢ ص ٢٠.
 ١٥٧ - المقابسات ص ١٧٥ - ١٧٦.
 ١٥٨ - الإمتاع ج ١، ص ٢١٨ - ٢٢٠.
 ١٥٩ - المصدر السابق ج ٢ ص ١٤.
 ١٦٠ - نفسه ج ٢ ص ١٤.
 ١٦١ - عبد الرحمن بندي مقدمة الإشارات. وكالة المطبوعات، الكويت ١٩٨١ ص ٣٦.
 ١٦٢ - المقابسات ص ٢٢٨.
 ١٦٣ - المصدر السابق ص ١٠٠، ٢٨٨.
 ١٦٤ - نفسه ص ٢٩٠.
 ١٦٥ - البصائر ج ٣، ص ٤٣١.
 ١٦٦ - المقابسات ص ٢٠٣.
 ١٦٧ - المصدر السابق ص ٢٠٤.
 ١٦٨ - نفسه ص ٢٠٥.
 ١٦٩ - نفسه ص ٢٠٦.
 ١٧٠ - الإمتاع ج ١ ص ١٤٢.
 ١٧١ - المصدر السابق ج ١ ص ١٤٢.
 ١٧٢ - الإمتاع ج ١، ص ١٤٣.
 ١٧٣ - الهوامل والشوامل، ص ١٣٦.
 ١٧٤ - المصدر السابق ص ١٣٦.
 ١٧٥ - البصائر ج ١، ص ٤٠٣ - ٤٠٤.
 ١٧٦ - المصدر السابق ج ١، ص ١٧١.
 ١٧٧ - نفسه ج ٢ ص ٣٢٢ وذكر أيضا أنها هاشم عبدالسلام بن محمد الجبالي (ت ٣٢١ هـ) البصائر، ج ١، ص ١٢٤.
 ١٧٨ - ذكره في أول قائمة مصادر، البصائر ج ١، ص ٤. وانظر الصفحات ٣٩، ٤٠، ١٢٢، ١٣٥، ١٥٨، ٢١٣، ٢٣١، ٢٣٣، ٢٤٢، ٢٩١، ٣٠٧، ٣١٣، ٣١٩.
 ١٧٩ - انظر المقابسات ص ٢٢٧.
 ١٨٠ - الإمتاع ج ٢، ص ٧٦.
 ١٨١ - المصدر السابق ج ٢، ص ٧٦.
 ١٨٢ - نفسه ج ٢، ص ٧٧ - ٧٨.
 ١٨٣ - في كتابه: أبو حيان التوحيد في كتاب المقابسات، ص ٢٧١.
 ١٨٤ - الإمتاع، ج ٣، ص ١٩٠، ١٩٢، ١٩٣.
 ١٨٥ - المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٨ - ٣٩.
 ١٨٦ - نفسه، ج ١ ص ٣٨ - ٣٩.
 ١٨٧ - البصائر، ج ٢، ص ٣٨٠ ووصفه بقوله: «ولما أنا ظم أر في القرآن كتاباً أبعد مرعى، ولا أشرف معاني من كتاب «لأبي زيد البلخي» الإمتاع، ج ٢، ص ١٥.
 ١٨٨ - المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٨٠.
 ١٨٩ - نفسه، ج ٢، ص ٣٨٠.
 ١٩٠ - نفسه، ج ٢، ص ٧٦٤ - ٧٦٥ في نص طويل.
 ١٩١ - المقابسات، ص ٩٥.
 ١٩٢ - المصدر السابق، ص ٩٥.
 ١٩٣ - نفسه، ص ٢٤١.
 ١٩٤ - الإمتاع، ج ١ ص ٢١٢.
 ١٩٥ - المصدر السابق، ج ١، ص ٢٦.
 ١٩٦ - يرى الأعمش أن التوحيدى أعمال الكندي والرازي والفارابي ولعله قصد بهذا الإعمال في المقابسات فقط، موضوع دراسته، أبو حيان التوحيدى في كتاب المقابسات، ص ٧١.

- ١٩٧ - الهوامل، ص ٣٢٦.
- ١٩٨ - البصائر، ج ٣، ص ٤٨٧.
- ١٩٩ - المصدر السابق، ج ٣، ص ٤٩٠.
- ٢٠٠ - الإمتاع، ج ١، ص ٥٨.
- ٢٠١ - المصدر السابق، ج ١، ص ١٢٧.
- ٢٠٢ - نفسه، ج ٣، ص ١٣٢.
- ٢٠٣ - الهوامل والخواهل، ص ١٨٠ - ١٨١.
- ٢٠٤ - الهوامل والشوامل ص ١٨٠ ويقصد بذلك مذهبه في قدم النفس.
- ٢٠٥ - المسعودي، مروج الذهب، ج ٤ ص ٦٧.
- ٢٠٦ - الإمتاع، ج ١، ص ٣٥.
- ٢٠٧ - محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي ص ١٩٧.
- ٢٠٨ - الإمتاع، ج ٢، ص ٣٩.
- ٢٠٩ - وسماء في موضع آخر يلمى الطبيب الكيميائي الرازي، الإمتاع، ج ١، ص ٣٥.
- ٢١٠ - المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٩.
- ٢١١ - نفسه، ج ٢، ص ٣٩ وذكر أنه سلمه صفو الشرح لابن باغوحى وقاضى قوربان من تصنيف غلام أبى الحسن العامرى. المصدر نفسه، ص ٣٥، وانظر: ج ٣ ص ٢٢٧.
- ٢١٢ - الإمتاع، ج ١، ص ٣٦.
- ٢١٣ - المصدر السابق، ج ٢، ص ١٨.
- ٢١٤ - نفسه، ج ٢، ص ١٨.
- ٢١٥ - دى بوز تاريخ الفلسفة فى الإسلام، الترجمة العربية، القاهرة، ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨، ص ١٥٥.
- ٢١٦ - انظر:

Peters, F. E Ibid, P. 248, 286

p. 170

- ٢١٧ - انظر:
- ٢١٨ - المقابسات، ص ١٥٧، يقول: سمعت البيهقي يقول: «وكان صاحب يحيى بن على دهرًا، وهو حملنى بدعوته اللطيفة إلى مجلسه»
- ٢١٩ - المقابسات، ص ٢٠٤.
- ٢٢٠ - المصدر السابق، ص ١٥٣، ١٥٧، وانظر البصائر، ج ١، ص ١٧٢.
- ٢٢١ - عبد الأمير الأعم، المرجع السابق، ص ٢٤٧، والمقابسات، ص ٢٠٤.
- ٢٢٢ - نفسه، ص ٢٥٣ - ٢٥٥.
- ٢٢٣ - الإمتاع، ج ٢، ص ٨٤.
- ٢٢٤ - المقابسات، ص ٣٥٣ - ٣٥٤.
- ٢٢٥ - الإمتاع، ج ١، ص ٢٢٢ وعلق عليه بأنه «كتاب نفيس وطريقة الرجل قوية، ولكنه ما أنفذ البشر من القدرة، ج ١ ص ٢٢٢ - ٢٢٣.
- ٢٢٦ - المقابسات، من ص ٢٤٠ إلى ص ٣٥٣.
- ٢٢٧ - المصدر السابق، ص ٣٥٣.
- ٢٢٨ - الإمتاع، ج ٢، ص ٨٤.
- ٢٢٩ - انظر:

Peters, FE. ibid. p.

- ٢٣٠ - الإمتاع، ج ٣، ص ٩٤ ونقل هذا النص: «فلقينا في الطريق شيخا من الحكماء يقال له أبو الحسن العامرى، وله كتاب فى التصوف قد شحنه بعلمنا وإشارتنا وكان من الجوالين الذين نكبوا فى البلاد، واصلعوا على أسرار الله فى العباد، الإمتاع، ج ٣، ص ٩٤ - ٩٥.
- ٢٣١ - المقابسات، ص ٢٧٥ - ٢٧٦.
- ٢٣٢ - المصدر السابق، ص ٢٧٦.
- ٢٣٣ - نفسه، ص ١٦٤.
- ٢٣٤ - نفسه، ص ٤٣٠.
- ٢٣٥ - نفسه، ص ٩٠.
- ٢٣٦ - وهو حاشيكى، المصدر نفسه، ص ٤٢٠.
- ٢٣٧ - نفسه، ص ٩١، انظر ص ٤٢٠، ٤٢٣.
- ٢٣٨ - نفسه، من ص ٢٨٨ - ٢٩١ (ثلاث صفحات)
- ٢٣٩ - نفسه، ص ٢٩٠.

- ٢٤٠ - البصائر، ج ١، ص ٤٤.
- ٢٤١ - المقابسات، ص ٨٥.
- ٢٤٢ - المصدر السابق، ص ٧٨.
- ٢٤٣ - الصداقة، ص ٧٧.
- ٢٤٤ - المصدر السابق: ص ٨٤.
- ٢٤٥ - نفسه، ص ١٤٦.
- ٢٤٦ - نفسه، ص ١٤٦.
- ٢٤٧ - نفسه، ص ١٦٩.
- ٢٤٨ - نفسه، ص ١١٢.
- ٢٤٩ - نفسه، ص ٣٣٢.
- ٢٥٠ - نفسه، ص ٣٣٢.
- ٢٥١ - نفسه، ص ٢٧٤.
- ٢٥٢ - هم أبو زكريا القسري، وأبو الفتح التونسي، وأبو محمد العروضي، والمقدسي، والقومسي، وغلان زحل.
- ٢٥٣ - المقابسات، ص ٥٧.
- ٢٥٤ - المصدر السابق، ص ٤٣٠.
- ٢٥٥ - البصائر، ج ١، ص ١٠٤.
- ٢٥٦ - المقابسات، ص ٣٥٥.
- ٢٥٧ - المصدر السابق، ص ٢٧٤.
- ٢٥٨ - كما في المقابسات رقم، ٧٣، ٧٤، انظر الأعم، ص ٢٣٨.
- ٢٥٩ - المقابسات، ص ١٢٩.
- ٢٦٠ - الأعم، المرجع السابق، ص ٢٣٢.
- ٢٦١ - نفسه، ص ٢٣٩.
- ٢٦٢ - هو موقف محمد توفيق حسين، (مقدمة لنشرة المقابسات، ص ١٢).
- ٢٦٣ - هو موقف عبدالأمر الأعم، أبو حيان التوحدي، في كتاب المقابسات، ص ٢٢٥.
- ٢٦٤ - المقابسات، ص ١١١.
- ٢٦٥ - المصدر السابق، ص ٣٥٥.
- ٢٦٦ - نفسه، ص ٣٥٦.
- ٢٦٧ - تقع من ص ٣٥٨ إلى ص ٣٧٤ من المقابسات. كما أنه ألف رسالة في «الكلام على الكلام» المقابسات، ص ٢٤٠.
- ٢٦٨ - المصدر السابق ص ٣٥٦.
- ٢٦٩ - الأعم، المرجع السابق، ص ٢٢٠.
- ٢٧٠ - ناجي التكريتي، الفلسفة الأخلاقية الأفلاطونية عند مفكري الإعلام، دار الأندلس، بيروت، ١٩٧٩.
- ٢٧١ - عفيف بهسي، ١٩٧٢.
- ٢٧٢ - عبدالواحد طه، مجلة المورد، مج ٣، المجلد ٤، ص ١٤ - ٢٥.
- ٢٧٣ - أبو حيان التوحدي أديب الفلاسفة وفلاسوف الأدباء، سلسلة الأعلام، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٧٤.
- ٢٧٤ - عارض في هذا زكريا إبراهيم الذي جعله تشاؤما فلسفيا.
- ٢٧٥ - الأعم المرجع السابق، ص ٦٣.
- ٢٧٦ - الإمتاع، ج ٢، ص ٣٨، انظر الجابري، تكوين العقل العربي ص ٢٦٥.
- ٢٧٧ - البصائر ج ٢، ص ٦٧٦ - ٦٧٧ قد جمع ٢١ حكمة يمكن مقارنتها بكتاب المشر بن فائق مختار الحكم بشره بوي، مدريد ١٩٥٨، وكتاب حنين بن إسحاق نواذر الفلاسفة، كتاب صوان الحكمة لأبي سليمان، وتاريخ الفلاسفة لفرغويروس الصوري، وروضة الأفراح للشهرزوري.

أفق العقل

لدى التوحيدى

مساهمة معاصرة فى نقد العقلانية

صلاح قنصوه*

يعوزها الأمان والاستقرار، وبرزت إلى مقدمة المسرح النزاعات بين الأعداء الجدد، فجددت الأقلام، فضلاً عن المال والسلاح، لخدمة الصراع بينها. ومن ثم، انحسرت الاهتمامات ذات الصبغة الإنسانية العامة، والقضايا الثقافية أو الفكرية الحقيقية.

غير أن التوحيدى، الذى كان معبراً عن هموم الثقافة فى الفترة السابقة، وهى مرحلة الصعود، كان يحسب أنه يزجى بضاعة رائجة، كما كان العهد من قبل، وعقل عن إدراك أنها أضحت بضاعة بائرة لا طلب عليها.

وفى مثل هذه الفترات أو المراحل، تتحول الأنشطة الفكرية كلها عن هدفها الأصلي، لى تغدو استثماراً وتربحاً فى بلاط ذوى السلطان. وهنا كانت مأساة التوحيدى. فهو من ناحية يقدم بضاعة رفيعة وضيئة لم تعد ملائمة لسلطان عصره، ولكنه من ناحية أخرى لم يستهدف أثرها الفكرى،

أغلب الظن أن أكثر من ألبوا بحياة التوحيدى قد طالعوا فيه بطلاً درامياً. ولعل ذلك راجع إلى أنه وقع فيما يسمى «بالسقطلة التراجيدية»، أو الخطأ المأساوى أى «الهاماراتيا» عند أرسطو. وذلك أنه، لفرط ثقته واعتداده ببضاعته، راح يروجها فى سوق كاسدة تنفر منها، وربما تستنكرها، وتعادىها، وتخشى عواقبها؛ فلم يلق ترحيباً أو ينال جائزة.

وقد ظهر فى حقبة تصفية حسابات أخيرة بين قوى الركود الغالبة، وفلول النهضة الكسيرة فى القرن الرابع الهجرى عندما انتكست الإمبراطورية الإسلامية إلى ما كانت عليه قبل الفتح الإسلامى العربى، وارتدت إلى دول صغيرة متناحرة. وترتب على هذا تدهور جوانب الحضارة التى بات

* أستاذ علم الجمال، أكاديمية الفنون بالقاهرة.

والرأى، والروية، والتحصيل واليقظة، وكل ما فى قبيلها، بحسب عبارته.

(ج) ويقول فى عبارة نافذة بعيدة الغور: نساق بالطبيعة إلى الموت، وبالعقل إلى الحياة. والطبيعة ضرورة نستسلم لها، أما ما يتعقد بالعقل فقد أحاط به الاختيار. فالاختيارى، كما يقول، لا يكسل عنه لأنه غير حاصل لديك. أى أن العقل من صنعنا، إذا ما مددنا قوله على استقامته المنطقية.

(د) وللعقل، أو لاختيار استخدام العقل، تحريم وتحليل، وحظر وإباحة، ومنع وإجازة، وكف وحث، وإطلاق وقيد، وحبس وبعث... أى للعقل معايير وتقويم، وليس من نتاج القانون المحتوم. وبعبارة أخرى، يمكن القول إن العقل ينتمى إلى الثقافة الإنسانية، ولا يرد إلى الحتمية الطبيعية.

(هـ) وثمة مسألة مشهورة فى تاريخ الفلسفة الإسلامية، وليس من قبيل المصادفة أن التوحيدى هو الذى دونها وأذاعها، وهى تلك المناظرة بين أبى سعيد السيرافى، ومتى بن يونس، عن الموازنة بين المنطق والنحو.

وقد استخلص التوحيدى منها أن المنطق واحد؛ أحدهما المنطق العقلى، والثانى المنطق الحسى؛ أى النحو. والمنطق آلة عقلية، والنحو آلة عرفية. كما أن العقل هو النظر والاستحسان والاستقباح. ويشير هذا بجلاء، إلى أن للعقل وظيفة معيارية تقوم على التفضيل والتقويم. والمنطق نحو عقلى، بينما النحو منطق لغوى، فبينهما - إذن - مناسبة، كما يقول. وما يمكن استخلاصه هنا هو أنهما ينتميان إلى نسق تقوم مهمته على إرساء القواعد والمعايير.

ولقد ترتب على هذا رؤية التوحيدى الثاقبة فى إشاره الفلسفة على علم الكلام الذى يخلط ما بين ما هو عقلى وما هو ليس كذلك. كما كان واضحاً ومستوحياً فى فهمه التمييز والاختلاف بين الفلسفة والشرعة. وكان خصيصاً لدس الفلسفة فى الشرعة وضحها إليها ومنذراً بسوء عاقبة ذلك التخليط الذى تجده اليوم شائعاً فى حياتنا الثقافية، بل والسياسية.

بل أراد بها المال والجاء ليصبح نداً لمن أذعن لمطالب السلطان، وانصرف إلى تكلف الصنعة والزخرف فى الكتابة مثل الكتاب المستوزين كابن العميد والصاحب ابن عباد. وكان حصاد تلك المفارقة المحزنة إسدال ستار النسيان والخمول عليه، فلم ينتفع به أهل عصره، كما لم يقز بحظوة مرموقة لهث طلباً لها فى بلاط أصحاب السلطان ومسامريهم.

وعلى الرغم من ذلك، وبعد قرون عدة، تيسر لنا أخيراً اكتشاف ما تنطوى عليه مؤلفاته من ثراء وعمق، وبعد نظر.

فلقد كان بأسفله الكاشفة، وإجاباتها التى ارتضى تدوينها دون غيرها، معرباً عن الآمال المجهضة فى استئناف النهضة، كما هو حالنا اليوم. وذلك لأنه كان ممثلاً للتمرد والخروج عن الموضوعات السائدة فى عصره، والصناعة الغالبة فى الكتابة.

١ - قضية العقل

الذى يعنينا من كل ذلك هو ما أثاره وعرضه، هنا وهناك، فى مسألة العقل. وهو ما عمدنا إلى اختلافة أولاً، ثم تفجير عناصره لإطلاق ما وسعنا من إمكاناتها حتى توطىء لما نحاول أن نجتهد أو نقترحه لمفهوم العقل والعقلانية من دلالات، أطمح أن يثير الخلاف حولها شبهة الحوار معها.

ولن نعرض بطبيعة الحال لكل ما جاء مساوفاً لمصطلح العقل فى كتابات التوحيدى، بل حسبنا الإشارة ولفت النظر.

(أ) يستخدم صاحبنا كلمة «أفق» للدلالة على الغاية القصوى التى يميز تحقيقها الإنسان عن غيره من البهائم. فالإنسانية، كما يسجل، أفق، والإنسان متحرك إلى أفقه. ولا بد أن استخدام العقل هو وسيلته إلى ذلك. إذن فهناك هدف، وهناك مسمى نحو تحقيق ذلك الهدف.

(ب) ويفرق التوحيدى بين ما يكون للإنسان عن طريق «الملك»، وما يكون عن طريق «التملك». ومعنى هذا أن العقل ليس ملكة أو كياناً أو جهازاً أو حاسة.. إلخ، بل يكون، كما يقول، عن طريق الاختيار، والاستطاعة، والقدرة،

وما يشغلنا في كل ذلك أن العقل يتبوأ مكانته لدى التوحيدى بقدر بعده عما هو طبيعى؛ وربما يباح لنا أن نضيف؛ وبقدر قرب ما هو ثقافى.

٢ - العقل صيغة الثقافة .

تعد الثقافة بمذلولها في العلوم الإنسانية الرصيد الكلى للعمل الإنسانى ومنتجاته الاجتماعية، في مقابل ما ينقل عن طريق الوراثة البيولوجية. فهى مجموع الأنشطة الإنسانية التى تتجلى فى السلوك العملى والفكرى؛ ذلك السلوك القابل للتعليم والنقل عبر النظم والمؤسسات الاجتماعية. وبعبارة أخرى، هى الكل المعقد المتشابك من أساليب الحياة الإنسانية المادية والروحية التى اكتسبها الإنسان، ولا يزال يكتسبها بوصفه عضواً فى المجتمع فى مرحلة معينة من تاريخ تطور ذلك المجتمع. فالثقافة هى كل الجوانب المادية والفكرية التى تصوغ وتشكل ما يصنعه ويدعه الإنسان فى الطبيعة. أى هى العالم الإنسانى الذى يتألف مما يفزوه الإنسان من الطبيعة ويفرضه عليها.

وإذا كانت الطبيعة هى التى تزود الإنسان بالمواد الأولية أو الخام، فإن الثقافة هى التى تحدد أسلوب استعمارها، ومعالجتها لخدمة حاجاته ومطالبه. ولئن كانت القوانين هى التى تسود الطبيعة، فإن القيم والمعايير هى التى تنظمها وتصيغها بطابعها. كما يفصح عنها، على سبيل المثال، فى الدين والفلسفة والفن، ومن قبل ذلك فى اللغة والأساطير والسحر، وكما تتجسد فى التقنيات والمنشآت. ولا يعنى هذا أن يتحد أو يتطابق مفهوم الثقافة ومفهوم المجتمع أو الأمة، بل هى الناتج الإجمالى لمجموع التفاعلات التى تحدث لهما فى مرحلة معينة أو محددة من مراحل تطورها.

ولكل ثقافة بنية تتألف أو تتشكل من جوانب أو أطراف ثلاثة؛ أولها الأطر العامة أو العناصر أو المكونات التى تشترك فيها الثقافات المختلفة جميعاً، كاللغة والدين والفن والعمارة وغيرها. وثانيها المتغيرات أو المحتويات أو المنتجات النوعية الخاصة التى تعين تلك الأطر، وتختلف من ثقافة إلى أخرى. وثالثها، وأهمها جميعاً؛ العلاقات المعينة بين تلك

المحتويات؛ فهى التى تحدد الأوزان النسبية لهذه المحتويات فيما بينها، وغلبة بعضها على البعض الآخر، أو احتوائه له، أو صراعها معه، وهى علاقات غير مستقرة أو ثابتة لأنها هى التى تشير إلى اتجاه تطور المجتمع وفقاً لمحتوى منتجات الثقافة. ومطالب أو مصالح الفئات أو القوى البشرية المسيطرة.

فمن كل ذلك تتخلق بنية الثقافة التى لا تكاد تستقر حتى تعصف بها نشأة علاقات جديدة بين عناصرها تشير التوتر فى نسيجها السائد، ومن ثم تدفع إلى تغير الثقافة واستبدال غيرها بها.

وعلى هذا الوجه، لا يظل العنصر الواحد هو نفسه، سواء فى محتواه أو فى علاقته مع غيره فى كل التفاعلات؛ لأن المكون الثقافى، كالدين أو السلطة أو غيرهما، لا يعمل بمفرده ككيان مستقل، بل يؤثر أو يتأثر بوساطة بشر يمارسونه، ويفهمونه، ويستخدمونه فى اتجاه دون آخر. وعلى هذا يباح لنا أن نميز فى المكون الواحد بين جانبين؛ ثابت، ومتحرك. فأما الأول؛ فهو ما يتعلق بالنص المحفوظ، أو المخزون السابق، والثانى هو الممارسات الموظفة لما هو محفوظ أو مخزون، وهى ممارسات تبدل مواقعها من الثقافة السائدة، ويتفاوت أو يختلف دورها من مرحلة إلى أخرى، ومن فئة أو جماعة دون غيرها.

غير أن جوانب معينة من الثقافات المتعاقبة على المجتمع أو الأمة تظل صالحة للبقاء والاستمرار. واللغة هى أهم تلك الجوانب التى تظل راسخاً راسخاً مهما تعددت المراحل الثقافية، بل إنها تتجاوز فى أدائها مجرد كونها وعاء للفكر لتصبح أسلوباً للتفكير، وصانعاً، لا واعياً، لرؤية العالم. ومن ثم يجوز لنا أن نعيد النظر فيما ذكره التوحيدى عن العقل متفرقاً مبثوثاً فى كتاباته، لكى نلتقط منها ما يرهص بالدلالة الثقافية لهذا المصطلح، وما يقاربه من سائر الألفاظ.

فأول كل شئ، ليس العقل، كما أسلفنا، كياناً أو عضواً أو حاسة؛ لأن الاستخدام اللغوى فى الألسن كافة، هو الذى حملنا على هذا الاعتقاد. وذلك لأن اللغة تسبغ الشيئية على مفرداتها حيث يفترض دوماً أن مجموع علامات اللغة يطابق أشياء العالم بحسب أن العلامات، أى

الألفاظ، بدائل عنها فى عمليات التداول والتواصل بين البشر.

فالإنسان يمتاز عن الحيوان فى تواصله مع أفراد نوعه باللغة التى هى منظومة من علامات، على حين أن الحيوان يستخدم فى اتصاله أفعالا حسية وثيقة الصلة بما يريد حسيا أن يبلغه لأفراد قطيعه أو سربه عن طريق الحركات أو الرائحة أو الصيحات. وليس فى وسع الحيوان أن يتعامل مع أشياء الطبيعة أو يعبر عنها فى غيابها. بينما يستخدم الإنسان الكلمات أو الإيماءات بوصفها نوعاً من التمثيلات، أى إعادة الحضور، أو استعادة المثل، أى التعامل مع الغياب بما يستحضره من أدوات الاتصال الرئيسية لدى الإنسان.

وإدراك الغياب والتعامل معه هو «الخيال» الذى هو أصل الثقافة وجذرها. ففى نطاقه الموهوم يتم تحقيق الغايات التى هى امتداد نحو المستقبل الذى لم يأت بعد. والأفعال الإنسانية جميعاً تنصف بهذا الإسقاط على المستقبل. والخيال تصور، أى خلق صور. والصورة المتخيلة التى انفصل بموجبها الإنسان عن المشهد الطبيعى، وحقت بذلك إمكان سيطرته عليه مؤلفة، بوصفها بنية، من مكونات ثلاثة:

١ - إطار يفصل محتواه عن السديم الخارجى، وليس مجرد حد يحصر داخله ما اقتطعه من أجزاء المشهد الطبيعى بالترتيب الفعلى نفسه الموجودة عليه.

٢ - وعناصر أو وحدات أو محتويات مختارة من هنا وهناك فى المشهد الطبيعى.

٣ - وعلاقات جديدة بين هذه العناصر تقيم ترتيباً وانتظاماً حديثاً لها. فالخيال، إذن، إدراك أو تصور «للغائب» عن الإدراك الواقعى؛ لأنه تصور للغاية المنشودة وهى فى سبيلها إلى التحقق، أى أن تحققها الفعلى لا يزال غائباً غير مائل فى الواقع.

وتكمن أهمية الخيال باللغة فى قدرته على اختراق عتمة أو ظلمة الأشياء، وغلظتها، وضرورتها، وجمودها على ماهيات أو جواهر ثابتة، فيذروها، ويعتجنها، ويصوغ منها شيئاً جديداً يحقق به غاياته. فهو، إذن، مهاد الإبداع، ومنتج اللغة

التي هى كلمات تستدعى بدليها الغائب، دون أن تكون نعمة علاقة بين حروفها ومرجعها الحسى. فالخيال فى كل مجال يتعامل مع الأمور جميعاً بوصفها ممكنات، وليست ضرورات، أى يمكن أن تكون على نحو آخر مختلف عما هى عليه فى الواقع. ولأن اللغة محررة من الوقائع المباشرة، ومستولدة من رحم الخيال، فإنها تقوم بوظائف متعددة منها الاتصال، والتعبير، والدعوة إلى سلوك معين. ولكن سرعان ما ينسى الإنسان ذلك الأصل الخيالى، فتتحول اللغة فى وهم الإنسان إلى بديل للواقع، وتصبح أداة من أدوات سيطرة الإنسان على الطبيعة وعلى غيره من البشر، من خلال تنظيمها الأشياء والأفعال، وخلع قيم معينة عليها. وتقوم بذلك بدور «الوكيل» الثقافى فى الصراع المادى بين البشر. بل إن ما اصطلح عليه بالقيم والمعايير التى هى النظر الثقافى لقوانين الطبيعة، لا تفلت من سيطرة الخيال. فالضرورات التى تتحول إلى ممكنات أو مادة خام مطواعة لمطالب الإنسان، لا بد أن يختار منها ما يصلح أن يكون وسيلة إلى إنجاز الغاية. ومن ثم، تتفاضل الممكنات وتترتب، فيرغب فى بعضها، ويعرض عن غيرها. وهنا تتسلل القيمة، التى هى وعى بالممكنات، واختيار للغايات والوسائل للتأثير فى العالم، والسيطرة على غيرنا من البشر. وعلى هذا النحو، تصبح القيمة «طابع» وجود العالم بالنسبة إلى الإنسان من حيث إن العالم ممكنات متفاضلة مترتبة، كما تكون القيمة، فى الوقت نفسه، «أسلوب» وجود الإنسان إزاء العالم.

وكما يستعمل الإنسان فى عمليات تواصله مع جماعته الألفاظ اللغة (الثقافية) التى تطورت عن الحركات والصيحات (الطبيعية) على النحو الذى ينظمها فى نسق خاص للتعبير والتخاطب، يصنع الأمر نفسه فى شؤون حياته جميعاً، التى ينتقلها من المستوى البيولوجى أو الفيزيائى إلى المستوى اثنقافى الذى ينشئ أنظمته أو أنساقه التى يرتب بها حياته مع غيره فى النسل والاقتصاد والسلطة وغيرها. ففى هذه النظم والأنساق والمؤسسات تتحول وحدات التعامل والعلاقات الاجتماعية إلى مفردات أو وحدات للتداول والتواصل تؤدى دورها بمقتضى أسلوب التفاعل الاجتماعى الذى يتحدد بما يعقد من علاقات بعينها بين هذه الوحدات أو المفردات.

ومن الطبيعي أن يكون لكل مجال أو فاعلية إنسانية في زمن أو مجتمع معين، الإطار أو النسق أو المنظومة الخاصة بالتداول والتواصل الذي يتطور ويتبدل بدرجة أو بأخرى أو على نحو دون آخر.

وتراتب، أو تصاعد، أو ترقى تلك الأطر أو الأنساق التواصلية التداولية وفقاً لدرجة عموميتها، ومساحتها، وشمولها حتى تبلغ أكثر الأطر أو الأنساق عمومية وتجريدًا. وهو إطار الاستدلالات المنطقية الفارغة من المحتوى المحدد، أى المجردة، والقابلة للاستلاء، أو التطبيق على كل مجال وفاعلية بموجب اتساعها وهيمنتها.

وهذا الإطار، أو النسق، أو المنظومة العمومية، هو الذى يختص بالانتقال من مقدمة إلى نتيجة. تلزم عنها، أو تتضمنها. وهذه العملية، بما تشترطه من قواعد وتعريفات، هى التى نسميها «عقلا».

ولأنها لا تتطور أو تتغير إلا عبر حقب زمنية متباعدة جداً، رسخ الاعتقاد بأن لها منتجاً هو «العقل» الذى لا بد أن يكون واحداً، وثابتاً، وأزلياً. بينما هو فى الواقع الإطار أو النسق أو النظام الذى يترجم على قمة أطر التواصل بين البشر بوصفه أعم القواعد أو القيود الملزمة لمعضوية الإنسان الصحيحة فى مجتمعه، وإلا عد مجنوناً أو أقرب إلى الحيوان.

فهو إذن، كما يتجلى فى منطقته، أدنى إلى طبيعة اللغة؛ ولذلك يواصل الباحثون فى الفلسفة والمنطق والرياضيات جهودهم المضنية فى صوغ تعاليمه التى لا تكف عن التوسع والشمول.

ولعل وصفنا لأمر من الأمور بأنه «غير معقول» يكشف عن صحة ما ذهبنا إليه، عندما نصف بذلك كل ما يخرج عن القواعد المألوفة التى يلتزم بها الجميع فى أى مجال من المجالات.

«فقوانين» العقل، إن صح أن له قوانين، قواعد أو معايير، أو شروط يمكن أن تطبق أو تخرق، وليست قوانين علمية نصف وتفسر، بل هى بالأحرى، قوانين تشريعية تبجح أو تحظر.

وتتطور قواعد «شفرة» العقل، من حيث هو أعم أطر التواصل، وفقاً لما يغلب على مسار الثقافة، أى أسلوب حياة الناس، من صبغة أو نزعة مركزية تحدد المنظور الشامل للعلاقة الإنسان بالطبيعة، وعلاقات البشر فيما بينهم.

ويبدو هذا، على سبيل المثال، فى سيادة النظرة «الإحيائية» قديماً التى تضيء الروح أو النفس على كل كائنات الطبيعة. أو فى غلبة النظرة البيولوجية التى تميز بين الفرد والنوع والجنس فى كل الأشياء، كما نجدتها واضحة بارزة فى منطق أرسطو. وكذلك فى سيادة النزعة «الحيوية» التى تفاضل بين الكائنات بحسب نزوع كل منها إلى كماله الخاص، ومن ثم يسمو كمال النوع الذى يشمل الأفراد على كمال الفرد أو الشخص. ويبدو هذا جلياً فى منطق «هيجل» فى الصيرورة، وتوحيده بين الشمول والعينية. كما تأثر «كانط» من قبله بالنزعة «الميكانيكية» التى سيطرت على عهده.

كما نجد فى الفكر العربى الإسلامى عند «الفارابى» و«ابن سينا» وغيرهما هيمنة النظرة «السلطوية» التراتبية التى تقسم الكائنات إلى رؤساء وتابعين... إلخ.

فشمسة إطار مرجعى يمثل الأفق البعيد الذى يحدد قواعد العقل أو ما يمكن أن يترادف مع المنطق بوجه أو بأخر. ولذلك، نتوقع دوماً تطور العقل وفقاً لتطور الإطار المرجعى العام الذى لا يفصح عن نفسه صراحة فى أمور الفكر والسلوك الإنسانى الواقعى. ويستغرق هذا التطور غير الملحوظ زماناً طويلاً بحيث لا يبدو كتغير مباغت إلا على مستوى التنظير الفلسفى والمنطقى. غير أن البشر العاديين يظلمون فى حياتهم اليومية وتصرفاتهم المعتادة على رداء للأساليب المنطقية أو العقلية السابقة على التطورات الجديدة، حتى يآلف أحفادهم بدرجات متفاوتة ذلك العقل الجديد.

فإذا عدنا أدرجنا إلى اللغة العربية لألفينا دعماً لما نزعمه. فالعقل فى اللغة هو القيد والحبس، ومنه المعقل والاعتقال، والعقال، ويرادفه الحجر وهو الكنف والحصن، والنهى من النهى أى الأمر بالامتناع.

القوم أى خرجوا كلهم إلى الغزو، واستوعب أى أخذ الشيء كله، ومنها استوعب الحديث أى تلقاه واستوفاه... إلى آخر هذه المشتقات والاستعمالات.

نخرج من كل ذلك بأن إجراء العقل يعنى أولاً إضفاء الكلية والشمول، كما يدل ثانياً على افتراض مسبق بأن ثمة ما هو أولى أو قبلى، أى يسلم به قبل مزاوله الشجرية أو الخيرية. فكان هناك ما يشبه الجهاز أو العدة التى يستعين بها الإنسان فيما يعرض له من جديد فى شؤون العمل والنظر. ومعنى هذا أننا لا ينبغي أن نستبعد من إجراء العقل أية محاولات للاستيعاب أو الوعى تكون سابقة على استخدامنا الحديث لمصطلح العقل، والعقلى والمنطقى... وعلى هذا يدخل فى تقديرنا كل ما اتصل بالأساطير. فتاريخ المجتمعات أو الثقافات يبدأ بالأساطير، وهى نشاطات وعى أو عقل بوصفها استجابات معرفية منتظمة، ولا يراد لها عند أصحابها أن تكون خرافات أو أكاذيب. فلها رموزها، وعلاقاتها، ونسقها الخاص فى ترتيبها. وتتفق جميعاً، على اختلافها، على فرض شكل أو صورة إنسانية على كل ما يواجهه البشر من أحداث ووقائع. ويصبح هذا الشكل أو الصورة أو الإطار الذى يؤدبه العقل هو نفسه شكل وصورة وإطار العالم أو الواقع المرضوعى الخارجى.

ولا يعترف الإنسان، فى كل العصور والثقافات، بما فى هذا العالم أو الواقع، من شؤون مختلفة، ولا يحكم على صدقها أو بطلانها إلا بقدر ما تحتل هذه الشؤون موقعا معينا فى نطاق هذا الشكل أو الإطار.

ويعتاد الإنسان فى كل الأزمان والثقافات على الاعتقاد بالمطابقة بين رؤيته العقلية النسقية للعالم، وطبيعة العالم نفسها. وهذا هو ما نطلق عليه، فى الفكر الحديث، «المعقولة»، أى القابلية للإذعان للعقل. وهى التى نجدّها تتردد فى مختلف المجالات المعرفية كالفلسفة والعلم وغيرها. فهى التى يفرضها المفكر أو الباحث أو حتى رجل الشارع، على موضوعات اهتمامه لكى يسهل معرفتها والتعامل معها.

وتقوم «المعقولة» بدورها فى جمع ما تشتت أو تفرق من معطيات أو وقائع أو حوادث، فى نسق واحد يؤدى بتلك

ويرتبط به الاعتقاد والمعقولة الذى يحيط بالرقبة، وكذلك المعقولة، وأيضاً اعتناق الرأى، أى إحكام الشد بالعنق.

ويتصل به السبب والملة؛ فالسبب هو الحبل الذى يربط بين الأجزاء ويصل الأشياء بعضها ببعض. والملة هى المرض الذى «يلزم» الفراش. وقد تنشأ الملة أيضاً عن الحياة البيولوجية، أو التكرار المطرد، والانتظام فى الوقوع، فكلمة «علّ»، عللاً، أو عللاً تفيد شرب الماء تبعاً، أى تكراراً.

وعلى أية حال، فإن هذه الأصول الحسية التى تجرد منها مصطلح العقل والعلم وما يقاربهما من ألفاظ تؤكد ما ذهبنا إليه فى بيان التوحيدى لمكانة العقل من حيث بعده عما هو طبيعى، ودنوه عما هو ثقافى. فهو، إذن، وظيفة معيارية تعبر عن الشراكة والرابطة العامة بين البشر، وهذا من شأن الثقافة أصالة وامتيازاً.

فهو، وما يشترك معه من مصطلحات أخرى، ينبئ عن قواعد وشروط لابد أن يلتزم بها عضو الجماعة لكى يجدر بعضويتها، ولا يترك متحرراً من التقيد بها، وإلا أصبح خليعاً منحل الصلة بجماعته، وفاقد الأهلية، بل لا يعترف به إنساناً يستوجب التكليف والمساءلة.

٣ - المعقولة والوعى

وربما لم يكن فيما قدمنا جديداً كاشفاً، إلا إذا أقدمنا على خطوة تالية، وهى التى تعيننا فى شؤون الفكر والنظر. وتتمثل تلك الخطوة فى أسلوب هذا العقل فى إجراء فعله فى تلك الشؤون. وهنا يبرز مفهوم «الوعى»، وقد ينبغي لنا أن نعرض بين يديه أصله اللغوى، أو أرومته الثقافية بعبارة أدق.

فالوعى والاستيعاب يرجعان فى جذورهما اللغوية إلى الجمع والضم فى وعاء واحد. فوعى، يعى، وعياً تعنى الجمع فى وعاء، وتشير، إذن، فى تجريدتها وتعميمها تصعيداً من أصلها الحسى: الحفظ، والفهم، والقبول أو التسليم والافتناع. أما الاستيعاب فمن عبأ التى تستخدم فى التهيفة، والإعداد، والترتيب، والتجهيز (للحرب مثلاً). وكذلك من وعب يعب وعباً، أى أخذته أجمع ولم يدع منه شيئاً، وأوعب

بلداننا العربية عقولا أو معقولات أسطورية، أو سحرية، أو لاهوتية، أو علمية في العصر الواحد الذي يضم «أقاليم» عقلية مختلفة على امتداد الأمة الواحدة أو رقعتها المكانية.

أما «العقلانية»، فمن المصطلحات الدائمة الصيت. ولأنها أصبحت شائعة وبملاك الجميع الإهابة بها، فقد أضحت تشير إلى مدلولات متعددة بقدر تعدد الداعين إليها، ولا ريب أنها تاريخية؛ شأنها شأن المصطلحات جميعا التي يتداولها الناس في أزمان وثقافات مختلفة.

ولعل أبرز دلالاتها، وخاصة لدى من يستخدمها على وجه العموم دون إشارة إلى نزعة معينة أو الالتزام بها، هي الإهابة بالعقل، والالتزام بما يمل به عليه من قواعد ومعايير في الفكر والسلوك، فهي مصدر المعرفة، ومقياس الحكم عليها في آن. وترتب على هذا المدلول أن من يستخدم العقل عليه أن يرفض الوصاية على أمور معرفته وممارسته بحيث لا يلجأ إلى أية سلطة أو قوة تفرض عليه الإذعان، وتحول بينه وبين الاقتناع بما يفكر أو يصنع بنفسه، بما يفضي إلى إقرار مسؤوليته عما يختار. فهي إذن تنكر الامتثال لأمر أخرى تحكمها قواعد مخالفة لما يهدي إليه العقل. ونتيج للإنسان رفض ألوان الوساطة المصطنعة بين مجالات التداول المغايرة بما من شأنه أن يحقق القدرة على توجيه النقد إلى كل ما لا يخضع لفهم الإنسان والاقتناع به وتفسيره. وهذا دون مراعاة أمر مرغوب محمود.

وهنا يقفز سؤال: أية عقلانية نقصدها، وأية معايير نلتزم بها، وهي التي نخفي افتراضاً مسبقاً بأنها مسلم بها ومتفق حولها؟

ولا مفر، للإجابة عن ذلك السؤال، من مواصلة التنقيب في دلالات العقلانية التي نفترب بنا من مسائل فلسفية وكلامية بمبدأ عن دلالاتها الشائعة.

والعقلانية، أو النزعة العقلية، أو المذهب العقلي قديم، وترد أصوله الصريحة إلى مدارس إغريقية متعددة عند «الإيلين» و«الفيناغوريين» و«انكساجوراس» و«أفلاطون». ولكنها في تراثنا الإسلامي العربي تنتسب إلى المعتزلة، وبعدها فلسفة الفارابي وابن سينا وأخيراً ابن رشد.

انتفراقات المناطة بالمشكلة أو الموضوع، إلى أن تتخذ مواقعها ومازلها في هذا النسق دون أن تخلف أية متبقيات خارجه لكي يفنى بشرط الاستيعاب، وهذا نفسه هو الذي ينتج التعميمات، أو يكشف الاطراد، أي الانتظام في الوقوع.

٤ - «الأقاليم الزمنية العقلية» والعقلانية:

وتسود كل ثقافة، وفقاً لما أسلفنا من دلالتها الرحبة، صبغة غالبية لتحقيق «المعقولة». غير أن في العلاقات داخل بنية الثقافة، كما أشرنا من قبل، تتسلل المصالح والمطالب ومراتب الفئات والقوى المختلفة إلى تحديد مستويات التصالح أو الاحتواء، والخصومة والصراع لمنازل أو مكانات المعقولات المتفاوتة، وأنواعها وضرائفها.. فنجد داخل الثقافة الواحدة معقولات مختلفة تنتمي إلى مراحل مختلفة من تطور الثقافات؛ فمنها من يرتد إلى معقولة سابقة، ومنها أيضاً من يستشرف معقولة مرحلة قادمة، وذلك بحسب المواقف المتباينة لإزاء الواقع.

والواقع الواحد ليس شيئاً متجانساً متماثلاً بالنسبة إلى الجميع؛ لأنه ليس لحظة ثابتة تشاهد من موقع واحد ثابت؛ فمنه ما في سبيله إلى أن يذوى ويندثر، ومنه ما قد يبقى ويستمر، ومنه أيضاً ما في طريقه إلى أن يزغ ويظهر، هذا من جهة. ومن جهة أخرى، تصطرع مرصدا الرؤية لدى فئات وقوى المجتمع؛ فمنها من لا يسعه إلا مشاهدة المندثر، ومنها من يقف عند الوضع الراهن، ومنها من يستشرف الجديد الناهض ويحرص على استدعائه واستعجال قدومه، وذلك من وجهة نظر مصالحه ومطالبه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

ومن هنا تتوزع «الأقاليم الزمنية العقلية» التي يقنع كل من ينتسب إليها بمعقوليته التي يحقق بها أمته وإيمانه العقلي، والمعنى واحد في هذا الصدد. وهذه المستويات العقلية، أو مراحلها وأنواعها، توجد متوازية في الأمة الواحدة في العصر الواحد، وإن كان كل منها محنوباً على مراحل تاريخية متفاوتة. وترتب على هذا غياب وجود العقل الواحد في العصر الواحد والثقافة الواحدة، رغم تسلط أحد هذه العقول، أو تلك المعقولات على سائرهما. فنجد لدينا اليوم في

التحسين والتتبع العقليين كما أثرها رفاة الطهطارى
ترجمة بديلة للمنهج الذى انتشر مصطلحه فى فرنسا إبان
إقامته فيها.

ولعل السببين أو المبررين لإيثار العقلانية فى كتابات
نهضتنا هما: الأول، التراث المعتزلى وكذلك الفلسفى
الإسلامى بوجه عام، والسبب الآخر هو اقترابنا من التفكير
الفرنسى أو النموذج الفرنسى، خاصة أن اتصالنا بالغرب بدأ
بفرنسا بالحركة الفرنسية أولاً، ثم عزز بيعتات «محمد على»
ومن جاء بعده.

فالمسألة، إذن، سواء فى أوروبا، أو فى مصر بعد عدة
قرون، قد تعلقنا بالمنهج الذى اتفق فيه «ديكارت» مع
«بيكون» الإنجليزى لأولويته وضرورته إزاء سطوة محفوظ
النصوص القديمة فى العصور الوسطى، وضد سلطة الفكر
الدينى التى تسعى إلى استئناس مرحلة سابقة من مراحل
التاريخ، أو الحفاظ على مصالح مناوئة لقوى التقدم البازغة.

ولعل من الأفضل، هنا، أن نفرق بين المنطق والمنهج
فى سياق مناقشتنا للعقلانية.

فالمنطق هو الذى تحدد به قواعد الاستدلال التى هى
مضمون العقل كما قدمنا، أما المنهج فهو الإجراءات
والخطوات التى تمارس للوصول إلى اكتشاف جديد لم يكن
فى حوزتنا من قبل استخدام المنهج.

أما المنطق، فهو ما يتيح لنا أن نعرض أدلتنا للغير، وأن
نحاول إقناعهم بها. فهو إذن عرض وإقناع، أى بيان وبرهان
معاً. وليس من وظيفته اكتشاف الجديد إلا بقدر المعاونة
عليه. فهو بالتالى متضمن ومنظر داخل المنهج، أى أن المنهج
يفترض وجوده داخله بوصفه «نمط استدلال»، وليس خطوة
للاكتشاف. ولقد أوشكت الحكاية القديمة أن تختفى، تلك
التي كانت تقسم المنهج إلى نوعين هما الاستنباطى
والاستقرائى. حيث يعنى الأول استخلاص النتائج التى
تنطوى عليها المقدمات أو المبادئ أو الكليات أو الفروض
الأولية. على حين يشير الثانى إلى الاتجاه المضاد المساعد
من التفاصيل والجزئيات إلى ما يضمها فى قانون أو قاعدة أو

وعقب عصر النهضة الأوروبية، نجد أعلامها البارزة
متمثلة فى ديكارت أولاً، ثم ليبنتس وسبينوزا وكانط وهيغل.

فأما المعتزلة، فنجد عندهم، فى نطاق أصولهم الخمسة
المعروفة، إلحاحاً على معيار العقل فى أصل «العدل». والعدل
عندهم هو ما يقتضيه العقل من الحكمة، أو صدور الفعل
على وجه الصواب والمصلحة. وربما كان العدل لديهم شاملاً
لكل آرائهم، ومتضمناً إياها.

والعقل فى نظرهم هو أول مقتضيات التكليف، وأهم
مظاهر اللطف الإلهى، وهو الكاشف عن وجوه الحسن
والقبح فى كل فعل. والحكم بالحسن أو القبح فى الأفعال
لا يرجع إلى أن الله سبحانه أراده (أى الحكم) على هذا
النحو، بل لأن الله أراده لما يحمله الفعل من صفات ذاتية
فيه، أى لأنه حسن أو قبيح فى ذاته.

أما فى أوروبا وخاصة فى فرنسا لدى ديكارت فقد
انبثقت العقلانية من المطلب الجديد لعصر النهضة وهو
مطلب المنهج الخلقى بإعادة اكتشاف العالم والإنسان، أى
الأداة أو الأسلوب أو الطريقة التى بموجبها يتم إنتاج المعرفة
الجديدة بعد أن أصاب المعرفة عقم التثبث بمعلومات قديمة
جرى نكريسها وتقديسها، ولم يبق للإنسان سوى حفظها
وشرحها والتعليق عليها. ويشبه هذا ما كان عليه نظام التعليم
لدينا فى الأزهر، وهو نموذج الجامعات الأوروبية من بعده فى
العصور الوسطى. فالتص أو المتن، أى الكتاب الأسمى
المكرس للحفظ والنقل، يستولد منه شرح، وحاشية، وتعليق،
وتقرير، ويغدو الكتاب أربعة كتب بحمد المتن الأسمى.

والعقل، إذا عدنا إلى ديكارت، أعدل الأشياء قسمة
بين البشر، والمهم هو حسن استخدامه بالمنهج الذى يعنى
لديه استخراج ما ينطوى عليه العقل من أفكار فطرية يستولد
منها المعارف جميعاً.

ويبدو أننا فى مصر قد ارتبطنا بالتراث الفرنسى، فاتخذنا
من ديكارت مصدراً ونموذجاً نحتديه ونستخدم مصطلحاته
أحياناً كثيرة.. ومن ثم كانت العقلانية التى ارتضيها عنواناً
على ما ينبغى أن يكون عليه المنهج. فأصبحت العقلانية تعنى

مبدأ، أى الانتقال من الجزئيات إلى الكليات. والواقع أن الاستنباط والاستقراء ليسا منهجين، بل هما نمطان من أنماط الاستدلال. ولقد رسخ، عبر الدرس أو التراث الفلسفى، الترادف أو التكافؤ بين العقلانية والاستنباط، باعتبار أن العقل يحمل فى جوفه المبادئ الكلية الأساسية، وعلى العاقل أن يستخرج منها ما يلزم عنها أو تتضمنه من تفاصيل أو جزئيات.

ويسلمنا هذا إلى الاعتقاد أو الزعم بأن العقل، طالما كان واحداً مشتركاً بين البشر، فإن استخدامه على أفضل وجه سيفضى بالضرورة إلى نتائج لا يختلف عليها الناس جميعاً، ومن ثم تتحقق الموضوعية تلقائياً بانحياز الاتفاق بين الذين تار الخلاف بينهم أول الأمر. وهذا هو ما يطالعا صريحاً معلنا لدى ديكارت وليبنس وكانط وهيجل وسائر العقلانيين، على اختلاف نزعاتهم الميتافيزيقية.

٥ - مزالق العقلانية ومخاطرها

وعلى هذا الوجه، لا يتيسر لنا تجنب مزالق خطيرة فى استخدام مصطلح «العقلانية». وذلك لأنها تفترض منذ البداية أن ثمة أفكاراً أو مبادئ أو تصورات أساسية صحيحة هى الأصل والمصدر الذى ينبغى أن نستمد منه ما يضره من نتائج لابد أن يدعى لها الجميع باعتبارها حقائق يقينية، وإلا كانت آراؤنا ومواقفنا زائفة خاطئة.

فإذن، شرط صحة العقلانية هو صحة مبادئها، وصحة مبادئها مردودة إلى عقلانيتها، أى أنها صحيحة لأن العقل يملئها علينا. ومن هنا، نتبين ما يسمى «بالدور المنطقى» فى الاستدلال الذى يتوقف بمقتضاه ثبوت النتيجة على ثبوت المقدمة، وثبوت المقدمة على ثبوت النتيجة. كما تطل «المصادرة على المطلوب» برأسها إلى جوار «تحصيل الحاصل»؛ لأن معناها فى نهاية الأمر أن نفرض مضمون المبادئ الأولى التى افترضناها وحظيت من قبل بالتأييد والافتناع.

وبخشى أيضاً، إذا ما ألحنا على أهمية العقلانية، أن يتولد الاعتقاد بأن ثمة مبادئ مفطورة فيما يسمى بالعقل،

وهى التى تستمد مشروعية الزعم بوجودها أو قيامها بالعقل بأنها لا تحتاج إلى التجربة أو الخبرة أو الممارسة فى التحقق من صدقها وصلاحياتها، وهى التى يطلق عليها فى الفلسفة بالقضايا الأولية أو القبلية التى نسلم بصحتها «قبل» التجربة، ولا تتطلب حينئذ تدعيم صدقها بالممارسة لأنها أولية وتسبقها فى الرتبة، سواء من جهة المنطق أو الوجود.

بيد أن الأمر لا يجرى على هذا النحو؛ فالأشياء جميعاً تحدث فى خضم أو سديم ثم يتناولها الإنسان؛ المشروط بالزمان والمكان والمصلحة والعقلية؛ فيعيد تصنيفها وترتيبها وفقاً لخانات وأولويات ليست أصلاً فى الأشياء، ولكنها تنتمى إلى عالم الإنسان المصنوع المتغير. وعندما يتم للإنسان ذلك التنضيد الذى يجريه على متوال «كلية» أو «شمولية»، أية معقولة معينة، يكاد أن ينسى أنها من صنيعه، ويعتقد، من ثم، وبيقين، أنها من خصال الأشياء نفسها، فيعيد ترجمة العالم أو الواقع حسب لغته الراهنة.

ولقد قال بعض فلاسفة العلم إن تاريخ العلم، وهو قمة شؤوننا العقلانية، ليس سوى تاريخ مقاومة الوقائع للنماذج؛ أى الكليات والشموليات والمعقولات، كما أوضحنا من قبل.

الذين ينكرون القول بإضفاء الكلية من عندنا، دفاعاً عن الاعتقاد بأن ثمة موضوعية خارجية هناك، لا يختلفون عنا إلا فيما يشترطون لهذه الموضوعية أن تجرى، وفقاً لكليتهم ومعقوليتهم هم أنفسهم التى يزعمونها. وما يقولونه بوصفهم «واقعيين علميين» لا يعدو أن يكون نوعاً من المثالية المستترة العنيدة، بل والفاشية، رغم استنكارهم لشيطن المثالية.

وشأن العقلانية شأن النزعات الفلسفية أو الآراء والنظريات بوجه عام، قد تقوم بوظيفة ثورية فى مرحلة، ولكنها قد لا تكون كذلك فى مراحل أخرى.

فنحن، مثلاً، لانزال نتطلع إلى مراحل معينة فى تاريخ الغرب، ولا نواصل النظر إلى مآلها فيما بعد. فقد قدم ديكارت عقلانية، انقلب عليها كانط، وما لبث هيجل أيضاً أن قوض ما جاء به كانط، وهكذا تنقلب علينا العقلانيات

نشاء، لكى نطمئن إلى دقة ما نرمى إليه، ونجمله أمام غيرنا، ليفهموا عنا بأوضح بيان.

والمنشود، إذن، هو تفكيك مصطلح أو مطلب العقلانية ليفقدو عملة قابلة للتداول، وذلك بأن نصرح ونعلن الأهداف الحقيقية التى نغرينا باستخدام ذلك المصطلح اليتيم.

فينبغى لنا، إذن، أن نصوب نحو مطالبنا مباشرة؛ وهى حرية البحث والحوار، ورفض الوصاية الفكرية، والمواجهة الجسورة لمشكلاتنا الحقيقية، وإعلاء كرامة المواطن.

وربما تيسر لنا إيجاز ذلك كله فى الدعوة إلى نبذ مواجهة التحولات والمتغيرات الجديدة بوصفات جاهزة قديمة.

التى ادعى كل منها بلوغه قمة المرتقى، كما أننا نبتهج بالمعتزلة فى صمودهم، ولا نواصل تأمل صنيعهم فى بغداد إبان محنة خلق القرآن. فالمصطلح من عمل البشر، ويجرى عليه ما يجرى عليهم من تغير وتفاوت. والوقوف عنده يلزمنا أن نصرح بأية دلالة، وأية معايير، وعند من ممن استخدموه.

وقد يؤدى ذلك إلى الاختلاط والتباين والنزاع داخل الدائرة الخائقة للمصطلح الواحد، والأفضل منه أن نعتزف من معين اللغة الفسيحة ما يحدد لنا بدقة ما نطلبه من المصطلح القديم الذى ابتذله كثرة الاستعمال لأهداف متعارضة. فلقد بدت العقلانية مفتاحاً عمومياً لجميع الغرف، و«وصفة مجربة» لحل كل ما يحز بنا من مشكلات. بينما اللغة تفتتح كنوزها الرحبة أماناً لنختار منها، ونصوغ ما



تعليقات على كتاب الإشارات الإلهية

جعفر الكنسوسي*

هذا من تركة ما لوقي به التوحيدى فى أغلب الأحيان، ومما صب على هامته من شأن التشهير منذ أزمان.

لكن، هل طرأ بالفعل تحول أجدر بالتنويه حتى فى وقتنا هذا؟ تحول يفرّب هذا العالم، الذى قرع مسامع أمراء زمانه ليعترفوا له «بمزية الأدب وفضل العلم وشرف الحكمة»، تغريبا متحسنا من جمهور المتبعين، ولا أقول المتخصصين.

وتستشكل المسألة أكثر عند مباشرتنا لمؤلفات أبى حيان المطبوعة بعلوم التصوف، وكتاب «الإشارات الإلهية» الذى سأخطه هنا ببعض تعليقاتى هو من يواظبت وجواهر هذه الطريقة فى الدين.

فما وجه الاستشكال هنا؟

نعم، ما إن نستيقن من وجود مئات الآلاف من الصفحات التى مازالت تنتظر أن تقرأ فقط، ولربما تقوم بدقة

أيها السادة والسيدات:

ونحن بصدد تقويم أثر أبى حيان التوحيدى، رحمه الله، أقص عليكم نكتة من أخبار علماء جامعة ابن يوسف العتيقة بمراكش، وقعت لبعضهم فى عقر داره، مع ولد من بنيه فى طور التعلم، فى الأربعينيات من هذا القرن. دخل هذا الابن مرة إلى منزل أبيه الفقيه العالم وبحوزته نسخة من كتاب «الإمتاع والمؤانسة»، فتلقفه شيخه وأبوه العالم بقوله:

— ما شأنك وكلام الزنادقة؟! أجاب الابن بتلطف وجرأة: هل طالعم الكتاب من ذى قبل ياسيدى؟ فرد عليه أبوه: لا، بل هذا ماحدثنا به بعض مشايخنا، وحاز من عنده الكتاب. وبعدها بأيام قلائل، رد عليه «الإمتاع» وعدل عن سابق رأيه فيه، وهنأ الولد بمطالعمه قاتلا: الحق أن هذا الرجل، أبا حيان، من أهل الله.

*باحث مغربى، مراكش

«فاصرف زمانك كله فى قلبى هذه الأثناء (أى مطاوى كلامه) واستباط هذه الأنباء».

أستهل تعليقاتى الآن تمثيا مع مفهوم حكم الاسم عند أهل التصوف، لماذا مفهوم حكم الاسم الذى هو من مفاتيح إدراك كلامهم؟ جوابى لأن أبا حيان لم يسم مؤلفه الذى نحن بصده بكتاب (الإشارات الإلهية)، أعنى فى متن النص، لكنه غالبا ما نعت بالقصة، وفى مواضع أخرى بالديوان، وسأبين لماذا تسمية الديوان هى أبلغ دلالة عما توخاه. وأخص من هذا التصنيف، علما منا أنه ليس ديوان شعر. وأن غلبة السجع هى النافذة فيه اسأقت بالمعنى العميق الآسى. وهذه «القصة ذات الغصة» لها مدارات ورواجع آسى «يمحو رسوم جميع الأسرار». ولما كانت لها حرمة، خاطب بها من كان من أهلها، أولها، كما يقول:

«فى تهذيب الأخلاق، ووسطها فى أخذ العبر من جميع الآفاق، وآخرها الوصول إلى العزيز الخلاق».

والخاصة فى مجموع هذه الرسائل، بل فى الرسالة الواحدة تتأرجح مابين استعظاف واشتياق وطلب المدد من شيخ عارف بالله أو من جماعة من الصوفية هم «ملوك الدنيا وسادة الآخرة». أو من جهة أخرى، محادثة مريد أبحر فى السلوك ومازال فى طور التربية «يلطف به أبوحيان تارة شفقة عليه، ويعنف به تارة، رياضة له»، وينازله بهذا الديوان الذى هو بمثابة مرآة لهذا السالك يستخرج منه حاله، غوصا فى أعماقه محصلا لحقيقته فيها، «للحاق بالسابقين من أهل القصة».

يقول أبوحيان: «أيها الأجنبي فى هذه الطريقة، المنكر لهذه الحقيقة حرام عليك أن تسمع من هذا الديوان». فلا قدرة للناظر فيه إلا بحساب تقدم هذا الديوان بينه وبين نفسه. ولننظر أيضا فى هذا المحل الثانى كيف استثمرت صورة من صور التبليغ العربى فى القصيدة الشعرية، وكيف تم تخوير معالم النسيب فيها، حيث قال:

«الاقفوا على ديار الهالكين. واستخبروها عنها إن كنتم شاكين... يا منازل الأم الخالية، ومعافل

وانصاف من بعد، عند عظيم الآمال، وما إن نقف على حالة مؤلفات التصوف هاته حتى ينتاب المتقصى لأخبار القوم شعور، وكأنه يسأل الجناح المهجور من صرح تراننا الإسلامى العربى، ناهيك عن طباقه العاليات وفلله المتعلبات. كثير من ساكنة الطباق السفلى من الصرح لم يصعدوا أبدا إلى معاده، فإذا بهم ينكرون عنم يخبرهم بعرضات ورحبات مافوق، فهذا الجناح رياضنا المنسى أسدل عنه حجاب التماخى، وأنفلت بوابته بركام أغبر يتزامن.

وقبل أن أسوق تعليقاتى المنوطة بكتاب (الإشارات) خاصة، عندى ملاحظة أولية حول شخص أبى حيان.

فحينما نقدم لأبى حيان التوحيدى، بوصفه من أبرز علماء الأمة فى وقته، فمن طريف الانشاق أنه بقدر ماهو ذلکم العلم البارز، بقدر ماتبقى مؤلفاته حمالة فى مطاويها لمؤلفات أخرى، يتجدد خلقها بين يدى الباحث. وكما قال الإمام البوصيرى فى برده «ومن شدة الظهور الخفاء»، إذ من اليسير أن نقف المرة تلو المرة فى كتبه (أعنى كتب أبى حيان) على تلميحات يشير بها على قارئه للتليقظ مخفية عبارته، ومخزون كلامه.

فمن ذا الذى يحدثنا من بين أعلام زمانه كحديث أبى حيان، ويرسل كلامه إرسالا فى شأن معرفته القاطعة بمؤلفى كتب إخوان الصفا مثلا، وكلامه الدقيق المتعلق بدائرة جابر بن حيان الكيمياى، وكذلك تحصيله لأغراض فلسفة اليونان، وتبسطها داخل دار الإسلام وغايات طلب بضاعتها من طرف الخلافة الإسلامية، وأخيرا انتصاره لمذهب القوم وتبشيره بما ستؤول إليه أحوال الدوائر العلمية فى الأزمان التى سنأتى من بعد زمنه، وعلى وجه الخصوص سريان الحكمة الإسلامية ذات التعبير العالى.

إن كل مطلب من هذه المطالب إلا ويتنظر تسميتى البحث فيه، وإلا وله نسبة بأبى حيان التوحيدى رحمه الله. فلا غرو إذن حين أنعت بهيرز المعارف، ولا أنعت بهيرز أفلير فى طى تصانيفه اجتمعت كل هذه الألفاظ، مبهلمات وقته، بل فى شخصه اجتمعت. وعلى كل حال أفلير هو المشير علينا بقوله الحضيف:

وأعود الآن إلى لقطة الديوان:

قال جعفر الخلدی كما هو فی «طبقات» السلمی رحمه الله: «عندی مائة ونيف وثلاثون ديوانا من دواوين الصوفية».

أقول، إذن، متى سلطنا بتلعد أبي حيان على جعفر الخلدی، عاد من الممكن أن نقول بافتداء أبي حيان باصطلاحات شيخه فی تسمية كتاب (الإشارات) ونعته بالديوان، هذا المؤلف الذى توسل به أبو حيان بين يدي أهل التصوف بقوله مثلا:

«فيا أجبائي.. حافظوا على ما تحملت فيكم، فقد شربت العلقم من هواكم، وداريت العدا نجملا لكم.. أسأل الله مادة من الصبر على محنتي فيكم، وصنعاً من التوفيق على فتنى بكم».

وعملا بهذا المعطى يترتب عن تعليقي، الاستنتاج الهامشي التالي: يسهل الآن تصور معنى الديوان لاصطلاح صوفى محدد ذلك المقصود فى هذا السياق.

ومادمت أفتنى أثر جعفر الخلدی وأقاربه من التأليف الحياني عله يضىء لنا معالم هيكلية فى ديوان الإشارات، استعدها أبو حيان من لغة القوم، هناك معطى آخر التقطه من ترجمة الجنيد فى «الطبقات». يقول أبو عبد الرحمن السلمى:

«سمعت جعفر الخلدی يقول: رأيت الجنيد فى المنام، فقلت له: أليس كلام الأنبياء إشارات عن مشاهدات؟ فتبسم وقال: كلام الأنبياء نبأ عن حضور وكلام الصديقين إشارات عن مشاهدات».

أول ما أستنتجه من هذا النص الثمين المتعلق بشيخ أبي حيان، أن ذكره وصلنا مقرونا بالحديث عن الإشارة، ولئى هنا تساؤل:

لقد أفرد أبو حيان ديوانا بأكمله حول الإشارة، هل هذا يعنى أن أبا حيان قد كان على قدم شيخه الخلدی إلى

أولى الهمم العالية، ما جعل سكانك الأولون؟.. كيف تعرقت تلك الأجسام الكثيفة، واضمحلت تلك الجواهر الشريفة».

كل هذه المعطيات تتعلق بتسمية «الديوان». لكن لماذا التوقف عندها؟ لأن - فى رأيى - فض خاتم هذه التسمية يعيننا على النفاذ بالقول إلى ما لم يسطر بعد فى حقل البحث، فى مؤلفات التوحيدى.

كل المصادر القديمة سواء أكانت منصفة لأبى حيان أم مخاصمة له، أقرت بلائحة معينة تخبرنا عن مشيخة أبى حيان. والملاحظ أن اسم الشيخ الصوفى المحدث جعفر الخلدی يظهر فى كل هذه اللوائح على مر القرون. والملاحظ كذلك أنه كثيرا ما نقرأ فى الدراسات الحالية عن تلعد أبى حيان للسيرافى وأبى سليمان المنطقى الفيلسوف، تبعا لقولة ياقوت الشهيرة: «أبو حيان فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة». أما نحن فنختص بالذكر ما بقى من (الهوامل) - إن صح التعبير - بالرغم من أهميته القصوى فى حياة أبى حيان، نظرا لما بقى عليه من إخلاص لعلوم التصوف ولمشيخته، منذ فترة التعلم إلى أن علت به السن زمن صياغة كتاب (الإشارات الإلهية).

كلمة منتخبة

حول جعفر الخلدی:

آلت إلى هذا الشيخ جميع أسانيد صوفية وقته وآثارهم. تلعد على أكابر أولياء زمته لكنه لم يرق إلى مقاماتهم. حدث عن الجنيد ودفن عند قبره، وكان راوى حكايات القوم. وهذا البغدادى من حيث مدرسته الصوفية، قال عنه شيخنا العارف الأكبرى (نسبة إلى الشيخ الأكبر سيدى محيى الدين بن عربى رحمه الله) الشيخ فى دروسه البارزية: «كان الخلدی زاول وظيفة كاتب الضبط بالنسبة للتصوف»، أظهر غاية الحذر من الشطاحين والسكرارى الإلهيين، أمثال

معاصره الحسين بن منصور الحلاج، وأقصاء إقصاء من دائرة الولاية، شأنه فى هذا شأن أبى نعيم فى (الحلية)، والأغرب من هذا أنه أنكر عن الترمذى الحكيم صاحب كتاب (ختم الأولياء).

التي كانت تعرض، فرأيت الخطر بالسوح مع هذا البحث المتوالي أهون من هذا الصمت مع هذا البعث المتغالي، فنبست كما ترى. على أنك لو أنصفت علمت أنني في كل ذلك واسطة مستخدم، ومستعار مستقدم، ليس لي في أطرافه إلا ما يتعلق بالنسخ والهجاء، والنفس والأبواء والدليل على ذلك أنني نظرت فيه كله بعد ارتجاعه، بما وجدته في موضع منه: لا بالخوف من الباطن، ولا بالشوف من الظاهر، فإن صدقتني في هذا الخبر فقد قضيت حق الإمام الجامع بيني وبينك في الطريقة، وإن كذبتني فما لي بعد هذا حيلة على الحقيقة... نعم سيدى، نطق بالحق، ونطق للحق، وما نطق ولكنه أنطقنى، على أنه ما أنطقنى حتى، وما خصنى، حتى أذن لى، ولا أذن لى حتى حلانى بحلية الخطباء... فهكذا أجرى أمرى وأعلى وأمجد... ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

أيها السادة والسيدات:

هذا نص أنموذجي خطير كشيخ المعاني، يزخر بمعلومات جمة حول أبي حيان المتصوف ومدارج التصوف آنذاك، لو اتسع الوقت لأبرزت له مقالة خاصة به، لكننى أقول مختصراً: هكذا يتضح لنا من هذه الفقرة أن أبا حيان ليس يسمى رجل الطريقة، بل هو مأذون فى «النطق للحق عن الحق»، مخصوص اختصاصاً إلهياً بحلية الخطباء.

ولزيد من التبيين فى هذه المسألة، مسألة التحدث بالإذن عن الله وهى الحد الفاصل من حيث نوعية كتابة الأولياء، بينهم وبين التأليف الآخر، أورد ماسطره الشيخ الأكبر سيدى محيى الدين ابن عربى، الملقب عندهم بسلطان المعارف، كما كان هو رأس أهل الاحتجاج بينهم. يقول الشيخ الأكبر فى الباب الثانى من «الفتوحات المكية» فى معرفة الحروف ومراتبها:

«فلا أتكلم إلا على طريق الإذن كما أنى سأقف عندما يحى لى، فإن تأليفنا هذا وغيره لا يجرى

حد التأثير البليغ به؛ الشئ الذى يقضى بنا إلى القول إنه من المحتمل أن ما كان يقوله الشيخ إجمالاً، تعرض إليه التلميذ تفصيلاً. فى هذه الحالة سيكون التوحيدى قد زدنا بأصداء ما كان يروج فى مجالس شيخه.

نتوقفنا كذلك عبارة: «وكلام الصديقين إشارات عن مشاهدات». من المعلوم أن الكلام بالإشارة هو فى حد نفسه انتساب إلى التصوف، تبناه القوم لأغراض متأعرض إليها بعد قليل، لكن هاهو أبو حيان يجرؤ على الكلام بصنوف الإشارة مع سابق معرفته أن هذا الضرب من الحديث من اختصاص الصديقين. فهاهو الصديق كاصطلاح عند الصوفية: هذه مسألة حقيقة غاية المعرفة عند القوم، فمنذ رعيهم الأول وحتى كتب أبى حامد الغزالى، واصطلاح «الصديقين» يرمز به إلى أعلى مقام فى درجات الولاية. والصديق عندهم ينطق من عنده، ولا يكتب التصانيف إلا بموجب الإذن الإلهى.

فما حكم كتاب (الإشارات الإلهية) من حيث مسألة الإذن الإلهى؟ أى هل هذا الكتاب هو من محض تجلّى أبى حيان ونظيره إلى نفسه، أم هو مؤيد بإذن إلهى؟

يقول أبو حيان فى الرسالة رقم ١٥ من ديوان (الإشارات):

«لعلك تقول بفيلتك وقلة تجربتك وقصور فهمك: فلوسكت فى الجملة كان أصح من هذه الاستغناء المكررة ومن هذا العويل الطويل، ومن هذه البذاءات المعترضة، ومن هذه الطرق المختلفة. فالجواب عن قولك: إنك لو أحسست بالداعى إلى القول، وبالمهيج على هذا التهويل لكان عذرى عندك مبسوطاً وكان اعتراضك عنى مغبوطاً، ولكنك لا تحس، ولا أظنك تحس بأن تحس. والله ما نبست من هذه السطور الكثيرة والورقات المتصلة بحرف إلا بعد الخناق الشديد، وعصر الفؤاد بالكراهة، وإلا بعد التلويح فى المنام، وإلا بعد الإلقاء والإلمام، وإلا بعد الاعتراض فى المقام والمقام، وكاد روحى يخرج فى هذه الحال

ونقرأ أيضا فى الرسالة رقم ١٦ ما نصه: «هذا لسان التصوف، والتصوف اسم يجمع أنواعا من الإشارة وضروباً من العبارة، وجملة التذلل للحق والتعزز على الحلق»، ومن جهة أخرى نقرأ فى كتاب (إيقاظ الهمم) على لسان الشيخ زروق: «قد حد التصوف، ورسم وفسر بوجوه تبلغ نحو الألفين». أتوقف هنا عند كيفية تعريف أبى حيان للتصوف. وهو تعريف خاص انفرد له عالمنا، تعريف التحمت فيه كلمة تصوف بكلمة «إشارة». فلو أردنا أن نسوق تسمية جديدة لمؤلف أبى حيان، بدلا من كتاب أو ديوان الإشارة، لافترحنا: كتاب فى التصوف عملا بما جاء فى التعريف الحيانى من التحام بين مفهومى التصوف والإشارة كما قلت، وبإصالة الثانى بالأول.

وبما يلتفت النظر كذلك، ذلك التحذر الشديد، الحاضر فى جميع رسائل الديوان، ونسأله: لماذا كل هذا التحذر وكل هذا التحاشى؟

ألكون كل إشاراته مدمجة، موزونة بأناموس الإلهى ومتربة وراء مراسم اللسان المتداول؟ أم لأن أبى حيان يتفادى «توابع» الإشارة، ويكتفى بالتلميح بين الفينة والأخرى، بمثل هذه العبارة: «ثم أين أنت عما وراء ذلك، عما لا يبدو إلا بإذن الحق الذى أخفى الخوفى فى البوady».

أقول، من بين وظائف الإشارة عنده، فضلا عن تهذيبها للدلالة عن الحق، «لأن لا شئ فى الكون سكت عن الدلالة والإشارة إليه»، نعد وظيفتها الانتقائية، منعا من الدخيل بينهم، لكن هل المعرفة الإشارية حكى عن القوم ولا منازع لهم فيها؟

أحتج مرة أخرى بكلام الشيخ الأكبر فى باب معرفة الإشارات من (الفتوحات المكية)؛ يقول الحاتمى فى مستهل هذا الباب: علم الإشارة تقرب وإبعاد.

ويترسل فى كلامه قائلا:

«ومن أعجب الأشياء فى هذه الطريقة، ولا يوجد إلا فيها، أنه ما من طائفة تحمل علما من المنطقيين والنحاة وأهل الهندسة والحساب

مجرى التواليف ولا تجرى نحن فيه مجرى المؤلفين، فإن كل مؤلف إنما هو تحت اختياره، وإن كان مجبورا فى اختياره أو تحت العلم الذى يشه خاصة، فيلقى ما يشاء ويمسك ما يشاء، أو يلقى ما يعطيه العلم ويحكم عليه المسألة التى هو بصدها حتى تبرز حقيقتها، ونحن فى تواليفنا لسانا كذلك، إنما قلوب عاكفة على باب الحضرة الإلهية، مراقبة لما ينفتح له الباب، فغيره خالية من كل علم».

يظهر جليا من هذه المقارنة بين كلام الرجلين، أن أبى حيان قد أقام كتاب (الإشارات) فى قلة متعلية، تغلبت عليه دون جل الكتب من حيث كتابتها المعتادة العادية - إن صح التعبير - ككتابة الأديب صاحب البيان، أو كتابة الفيلسوف صاحب الاستدلال العقلى والحجاج والبرهان، مادام التأليف بلغة الإشارة يندرج فى سلك هذا التواصل الاختصاصى.

تعليق

حول الإشارة:

لقد كرر أبو حيان الجملة الآتية فى محلين متباعدين فى كتابه، وقال: «يا هذا ماترى فنون الإشارة إلى غايات الحقيقة بصنوف العبارة».

وعليه، فغالبا ما جاءت لفظة «إشارة» مرتبطة بلفظة «عبارة» فى السياق. فلما لطفنا الإشارة و«تنزهت عما يتحكم فى الأسماء والأفعال والظروف» وجب إدراك إشارات أبى حيان مدفونة فى عباراته كما يقول. وإذا صحت الإشارة المركوزة فى العبارة، ولو فى عبارة إنسية، بلغت بعدها الإلهى وعادت إشارة إلهية. يقول مؤلف (الإشارات)، متوجها إلى الغريب عن لغته:

«اشغل زمانك باستقراؤها واستراثها، فإنك تقف على أغراضها البعيدة المرامى، السميقة المعامى، لأنها إشارات إلهية وعبارات إنسية».

موقع الكتاب، وكيف ليس أبو حيان شعار التصوف فيه، وانضم تحت لوائهم. ورد في الكتاب نفسه شتم أبي حيان من طرف ذلك الرجل الذي كان السبب في تأليفه، وقذف التوحيدى بالذهاب فى الفسولة التى «اكتسبها بمخالطة الصوفية، والغرباء المحتدين الأدياء الأردباء»!

أما وزير تلك الليالى فكان لأبى حيان الأثر الكبير الظاهر فى تغيير نظرتة إلى التصوف. فبعدما كان جليس أبى حيان يرى فى بداية المسامرات أن الصوفية «لا يرجعون إلى ركن من العلم» صار يشير على أبى حيان فى الليلة ٧ قبل الأخيرة بقوله: «اختتم مجلسنا بدعاء الصوفية»، ويستجيب له أبو حيان ويقول: «سمعت ابن سمعون يدعو فى الجامع فى آخر مجلسه بكذا وكذا...». ولابن سمعون الصوفى تأثير تبين على أبى حيان فى صياغة أدعيته وإبتهالاته فى كتاب (الإشارات)، فمنها ما هو كالأوراد والأحزاب المتداولة فى الطرف حتى الآن.

وبخصوص كتاب (الإشارات) فقد عقلت عليه كما سبق ذكره، من حيث حكم تسميته، ومن حيث اتصال لغة أبى حيان فيه بلغة القوم الإشارية، وكذلك من جهة الإذن الإلهى فى ترقيمه، وينبغى علينا إيراد بعض السمات الأخرى التى انطبع بها كتاب (الإشارات)، والتى أتته كذلك من دائرة علوم القوم.

يقول أبو حيان:

«أيها القوم، انتسبت لكم،....، وعشقت اسمكم، ولهجت بذكركم، وحشت القلوب إليكم». وهذا الانتساب لا أحد يمارى فيه؛ فهو المتحدث على لسانهم، المتوسل بمجاهداتهم فى طلب القرب بالصوم والصلاة، وبالتضرع عند الحطيم وزمزم كما يقول، والآخذ بمصطلحاتهم كلما التجأ إلى رحابتها وغزرتها عند تدقيق كلامه.

ولكن تجدر الإشارة هنا إلى ما هو أهم: ما يتصل فى كلام أبى حيان بوظيفة ديوان الأولياء الوجودية.

فغير ما مرة نفهم بصريح العبارة من مخاطبة أبى حيان لذكلكم العارف المجتهول الواصل، ذلكم المخاطب الموقانى؛ إذ

والتعليم والمتكلمين والفلاسفة إلا ولهم اصطلاح لا يعلمه الدخيل بينهم إلا بتوفيق من الشيخ أو من أهله، لا بد من ذلك، إلا أهل هذه الطريقة خاصة إذا دخلها المريد الصادق، وبهذا يعرف صدقه عندهم وما عنده خبر بما اصطلحوا عليه، ولم يعلم أن قوما من أهل الله اصطلحوا على ألفاظ مخصوصة، فإذا قعد معهم وتكلموا باصطلاحهم على تلك الألفاظ، لا يعرفها سواهم أو من أخذ عنهم، فهم هذا المريد الصادق جميع ما يتكلمون به حتى كأنه الواضع لذلك الاصطلاح ويشاركهم فى الكلام بما معهم، ولا يستغرب ذلك من نفسه، بل يجد علم ذلك ضروريا لا يقدر على دفعه...».

وفى هذا الكلام ما يكفى لاستبانة معالم المعرفة الإشارية عند أكابر الصوفية وموطن التباين الحاصل بين شأن إشارتهم والإشارة فى العلوم الأخرى.

تعليق

حول نسبة أبى حيان إلى التصوف من خلال ديوانه ومؤلفات أخرى له:

ويشتمل هذا كتابه الأوسع شهرة، أعنى كتاب (الإمتاع والمؤانسة)؛ إذ تستوقفنا أول جملة شرع بها التوحيدى مؤلفه هذا:

«نجا من آفات الدنيا (يقول أبو حيان) من كان من العارفين، ووصل إلى خيبرات الآخرة من كان من الزاهدين، وظفر بالفوز والتعيم من قطع طمعه من الخلق أجمعين».

يكتمل فى هذا الكتاب شرط قلما نقف عليه فى معظم التأليف، فحينما نترصد الحمدة والتحلية فى بعض الكتب القلائل، كما هو فى الإمتاع، نجد أن مؤلفه بث فى هذه الجمل الأوائل التى غالبا ما نزهده فى قلبها وتقليبها، قلت، نجد أن أبى حيان بث فيها معطى رئيسيا نستقرئ منه

ما المعطى الأساسى الذى يمكن الوقوف عنده فى هذه العبارة، والذى لم يسطر بعد بدقة بخصوص مدرسة الاصطلاحات الصوفية لأبى حيان.

عاش أبوحيان فى الزمن الأول للتصوف، هذا إذا ما قسمنا تاريخ التصوف إلى ثلاث مراحل؛ الأولى مرحلة الرعيل الأول. والثانية مرحلة القرنين السادس والسابع للهجرة التى اتسمت بظهور الطرق فى مصر ومؤلفات الحاتمى واستتباب الأمر شيئاً فشيئاً للزوايا من جهة، وانهيار الخلافة ببغداد من جهة ثانية. والمرحلة الثالثة هى انتصار المذهب الصوفى وتربعه فى دار الإسلام، بادية وحاضرة، إلى غاية القرن التاسع عشر الميلادى.

إن قرن أبى حيان، وهو القرن الرابع، من سماته حضور ثلاثة أنواع من السلوك الإحسانى: مدرسة بغداد المعروفة باصطلاح التصوف، ومدرستا الملامة والقبوية بخراسان. وحينما نرى أن أبى حيان يستعمل فى كتبه أغلب الوقت اصطلاح التصوف، نستنتج أن أبى حيان انسجمت اصطلاحاته مع مدرسة بغداد، هذا إذن ماينبه المهتم إلى المعطى التالى: لم تستعمل لفظة تصوف للدلالة فى آن على مجموع تصوف - فتوة - ملامة إلا بظهور مؤلفات أبى عبد الرحمن السلمى - معاصر التوحيدى - وعليه، فإن كتبه تكتسب أهمية بالغة فى تاريخ التدوين الصوفى، فبين سنى قلمه انصهرت للمرة الأولى هذه التسميات الثلاث فصارت تسمية واحدة.

ولى تعليق أخير حول نسبة أبى حيان إلى التصوف.

عندما يكتب أبوحيان مثلاً أن الصوفية «ملوك الدنيا وسادة الآخرة»، ويقول فى محل آخر متوجهاً إلى الشيخ من شيوخ القوم: «بالسان الوقت وواحد هذا الورى، وعين الزمان»، هل هى أسماء وأوصاف استعملت مجازاً ومبالغة، من طرف شخص يلهج مسرفاً لفرط محبته فى أحبائه، أم يجب قلبها تمثيلاً مع إشارات أبى حيان؟

وأغرب من هذا أن معظم أخبار المؤرخين فى ذلك الزمن الأول المتعلقة بالصوفية، تتعتمهم بالغرباء، وأصحاب

التوحيدى مسلم له وللقوم بوظائف كونية محددة. فما هو ياترى معنى كلام كهذا، وهو يتوجه به لهذا الشيخ الصوفى، الذى يرفعه أبوحيان إلى مقام شيخه المرجى قاتلاً: «ولله الشكر على ما أفردك به واستفدك له... وهذه درجة الأنبياء الذين هم بين الله والخلق».

مامفهوم النبوة المشار إليه هنا، علماً منا أنه قال فى رسالة أخرى ختمت النبوة؛ أى نبوة التشريع، هل المشار إليه هو مفهوم النبوة المطلقة الحاضر بالقوة فى هذا الكلام، الذى سيفصل تفصيلاً من يعد عند أكابر القوم كالشيخ الأكبر الذى سيعين له درجة من درجات الولاية بتسمية النبوة العامة أو النبوة المطلقة لتمييزها من نبوة التشريع التى ختمت بالرسالة المحمدية.

ولننظر بدقة متزايدة فى العبارة نفسها: «ولله الشكر على ما أفردك به واستفدك له... إلخ..» من حيث ماتخبرنا به فى شأن عقيدة أبى حيان. أقصد هنا دور الوساطة والانتماء إلى الخدمة الإلهية التى حولها التوحيدى للقوم، تلك الوساطة بالتحديد التى رفضها حيز مهم من جمهور علماء الرسوم من الفقهاء منذ أزيد من ألف سنة.

ويعزز ماقلته، كلام أبى حيان فى رسالة أخرى من الديوان:

«الحمد لله الذى أولانى منك مالائىال مباشرة
إلا بتوفيقه وصلى الله الواحد الحق على العارف
الحض».

إن الإيراد المباشر لذكر النبى عليه الصلاة والسلام هو، ولا محالة، إشارة إلى ما اصطلاح عليه الصوفية من بعد، حينما ظهرت علومهم مفصلة مدونة، قلت إشارة إلى الشيخ الحقيقى وهو النبى عليه الصلاة والسلام، أى أن مايستمد من علوم وأسرار من شيخ عارف بالله، عندهم، عبر رابطة الشيخ، مرجعه النبى صاحب المدد الأعظم والمخصوص بالحقيقة المحمدية.

ومن جهة أخرى، قال التوحيدى:

«هذا لسان التصوف، والتصوف معناه أكبر من اسمه، وحقيقته أشرف من رسمه».

ونقرأ هذه الشهادة من صميم غصته فى قصته حينما تحقق من حقيقة حال لا تووت إلا حمرة وعطشاً قديماً.
يقول أبو حيان فى الرسالة رقم ٣٨:

«آه، ماذا ينفعنى شوقى إليهم (للسوفية) إذا لم أكن منهم، وماذا يجدى على نزاعى نحوهم إذا لم أعرف بينهم، وماذا حاصلى من ذكرهم إن كنت مجهولاً عندهم، وماذا يغنى عنى انتسابى إليهم إذا كنت منفياً عندهم».

وكأن أبا حيان لم يراكم نتائج المقامات والأحوال، أعنى العلوم الروحية المكتسبة من جراء النزول بها والتحقيق منها.

انبساط طرفه عين يثاقفه انقباض كاسح، لاسبيل إلى المارج وادخار العلوم الروحية، مجاهداته لرد زهرة الدنيا ومساومتها فى كل وقت وحين. وكأن خشية الاستدراج الإلهى علقت بكل ورقة كتبها التوحيدى، وكأننا لسنا هنا بصدد التمكن من علوم أحواله ومقاماته. هاهو التوحيدى بعيد فى قره من ترقى السالك الذى يورث العلم بالزيادة، هاهو عالماً فى مد وجزر روحين، فمتى قلنا أبو حيان فى أعلى عليين بعلومه إلا ونهوى به فقرة تالية من الرسالة نفسها، إلى قبض الدرك الأسفل مما قد نصلح عليه بالسلبى.

تعليق أخير:

معطيات حول إيصال أبى حيان بالحلاج:

وهو إيصال معروف مشهور مداره حول كتاب أبى حيان المفقود حالياً، «كتاب الحج العقلى إذا ضاق الفقهاء عن الحج الشرعى»، زيادة على بيت شعرى انفلت من أبى حيان فى كتاب (الصدقة والصديق)، أتعرض له من بعد.

وأخص بالذكر أولاً تلك العلائق الإشارية التى وردت فى نص الديوان.

لقد تطرقت فى بداية هذه السطور إلى مصطلح القصة وتناول مطلبى منه وجه مفهوم «حكم الاسم» فيه. أما الآن،

المرفعات، بل حتى فى كتاب (الإمتاع) قد ورد خبر صوفى يقول: «وكنّا جماعة غرباء نأوى إلى دويرة الصوفية لانبرحها»، وبالفعل كان التصوف يمد جذوره بعيداً فى أوساط البسطاء. أستتج من اعتبار هذه المعطيات المتضاربة أن أبا حيان تطفن إلى أولوية شأن التصوف وأهمية ماكان عليه الصوفية، وكشف لنا النقاب على فائدة التصوف وعمقه فيما يخص شخصه هو، كما أخبرنا كذلك على مراتب علومهم وماينتج عنها من وظائف وجودية أو كونية، فالملك الحقيقى عندهم هو من اختصاصهم، وما أمراء الأرض إلا نواب «لسان الوقت وواحد الزمان» سواء أكان لهؤلاء وعى أم لا. ومن أخبار ملوك الدنيا الحقيقيين عند القوم، أن الخليفة العباسى المتوكل كان قطب زمانه وجمع ما بين الخلافة الظاهرة والتقطب، كما نقرأ كذلك فى (الفتوحات المكية) أن أحمد بن هارون الرشيد كان واحد الوقت فى عصره.

تعليق

حول القبض وهو الحال الغالبة على أبى حيان:

بعدما تعرضت نسبة أبى حيان من التصوف، لابد من التطرق إلى مسألة يحار عندها قارئ ديوان (الإشارات). وبعد كل ماقالته، يوشك أن يسلم أن أبا حيان له القدم المكين بين أهل التصوف، لكن سرعان ماتتمالك وتتحفظ. لأن من السمات الغريبة لهذا الكتاب هو حال أبى حيان «الدائرة بين طمأنينة ووسواس». فهل نعد هذا من باب مراقبة السالك لأحواله فقط؟ انقاء للمكر والاستدراج الإلهيين؟ أين، إذن، مبلغ أبى حيان بين المتصوفة؟ هل كانت له منازلهم؟ هل كان له رسوخهم فى علومهم؟ أقول هذا ولأقصد أبداً أن أبت فى مسألة هل فتح لأبى حيان أم لا؛ إذ لا بغية لدى فى الإقرار هل بلغ أبو حيان رحمة الله «تلك الوصلة التى لاهجر بعدها»، بل كل مافى وسعى هو طرح المسألة فقط.

المهم، يظهر أبو حيان فى حال قبض روحى تكاد تكون مستمرة. وفى شتات وجدانى حتى أخبر عن نفسه أنه عاد «شبحاً تحكم فيه البلى، إرادته مشوبة وحاله مختلفة ومعرفته مدخولة».

بل تخير، كلامه من «إنجيل لوقا»؛ حيث قال السيد المسيح متوجهاً إلى الحواريين: «إنكم لن تدرِكوا ملكوت السماوات إلا بعد أن تتركوا نساءكم وأبائكم وأولادكم يتامى»، واسترسل التوحيدى فى كلامه قائلاً:

«وهذا رمز وراء رمز، وإشارة فوقها إشارة... لكن التفتى ملجم، ولا بد من بعض السكوت، كما أنه لا بد من بعض القول. ومن قال كل ماعنده فقد باء بغضب من الله».

هذه الفقرة قد تشغلنا لوقت طويل، لكن أقتصر على الأهم، فحتى الآن قلت جرى كلام التوحيدى على الإشارة، فلما أفرّد ذكر سيدنا عيسى عليه السلام بهذه الصفة الاستثنائية فى الكتاب، أغمض أبوحيان كلامه بإشارة فى الإشارة. ومن جهة أخرى، من الذى قال كل ماعنده «وباء بغضب الله، أهى إشارة إلى العيسوى وصاحبه؟ أهى إشارة إلى ماوقع له، حينما نطق بكل ماعنده، فتكفل به سيف الشريعة كما قال سيدى عيسى الدينى، بل قال كذلك فى باب الأسرار من (الفتوحات المكية): «الحلاج ليس من أهل الاحتجاج» (يعنى عند أكابر القوم). وفى كتاب (كشف الغايات فى سرج كتاب التجليات): قال صاحبه المجهول، إن الحلاج لم يرتق إلى مقام الفرق الثانى؛ أى الرجوع نحو الخلق بعد الوصول والقرية.

ههنا، إذن معطى آخر يقرب التوحيدى من مشرب الولاية على قدم الحلاج. وأشير كذلك موجزاً إلى فقرة أخرى وردت فى الديوان على هذه الشاكلة.

يقول أبوحيان:

«لولا لزومى حدى فى العبودية، وتلطفى فى تصفح الربوبية.. لتسليت على جوانب أسرار، ليس لأحد من البشر عنها خبر ولا أثر. لكن ما أصنع والرقيب بظن ان يحصى أنفاسى، والعدو متكى فى ناحية يهيمى أمراسى ويزلزل أركانى.. خذ حديثه جملة فتفصيله باهظ، وافتح بالعنوان فمفضوضه موحش».

فأسعى فى المقاربة بين وروده فى الديوان وفى كلام الحلاج فى كتاب (الطواسين)، حينما استعمل هذا الولى لفظة «القصة» فى طس السراج، ولربما على هدى نوره تظهر العلاقة، ويتضح أكثر جانب جوهرى من الديوان، يقول الحلاج:

«ماكان فى الآفاق وراء الآفاق ودون الآفاق، أظرف وأشرف وأعرف، وأرأف وأخوف وأعطف من صاحب هذه القصة وهو سيد أهل البشرية، الذى اسمه أحمد ونعته أروحد وأمره أوكد، وذاته أجود.. إلى آخره.

تمدنا، إذن، هذه المقاربة باستنارة جنديدة حول محوريين:

أولاً: استعمل أبوحيان اصطلاح «قصة» بالمفهوم الصوفى نفسه الذى استعمله الحلاج.

ثانياً: يفتح أمام أعيننا طريق أقوم إلى تحديد مصطلح «القصة» أكثر فأكثر عند أبى حيان، ومتى قال «باللحاق بالسابقين من أهل القصة» نجد على رأسهم النبى عليه الصلاة والسلام، كما اتضح من كلام الحلاج، فهو صاحب القصة الأولى.

هكذا تجلت بقوة مركزية الأسوة الحسنة فى كلام الرجلين على السواء: أبوحيان والحلاج، وهذه سمة أخرى نصلها بما قلته حول مفهوم «الشيخ الحقيقى».

وأما من جهة وجود نفحة بلاغية حلاجية فى كلام التوحيدى، فبالفعل نقف هنا وهناك على بعض الأساليب نفسها فى الصياغة، وأقصد بالتحديد تلك الكيفية التى ينتهجها أبوحيان عند إلقائه كلاماً مجملاً لكى يعود فى وقت لاحق لتفصيله وتبيين مبهمه.

ولهذا الإيصال بالحلاج وجه آخر: ذكر أبوحيان سيدنا عيسى عليه السلام فى الرسالة رقم ٢٥، وهى المرة الوحيدة فى تقديرى داخل هذا الكتاب، فجاءت فريدة من نوعها بحيث لم يشهد بنص قرأتى أو آخر مستخرج من الحديث،

وأخيراً، نعرض إلى ذلك البيت الشعري للحلاج المشار إليه الذى انقلت من أبى حيان فى كتاب (الصدقة والصدق)، رغم تحريه البليغ والعدول عن الإشارة إلى العلاج.

روحه روحى وروحى روحه

إن يشا شئت وإن شئت يشا

ومن أغرب الانفاق وجذت نفسى أحفظه لسبب بسيط، لأنه شعر شائع التداول عند ولاع طرب الآلة والصناعات الأندلسية.

فأبو حيان تكتنم ولم يعرف بهذا البيت الحلاجى فى كتاب (الصدقة والصدق)، أما واضعو الصناعات الأندلسية فى الأندلس والمغرب، فقد ورثناه عنهم وأنشده أهل السماع منذ قرون، ومطلع التوشيح معروف محفوظ، كما قلت:

لى حبيب حبه حشو الحشا.

وهذا قليل من كثير، فيما يخص الحلاجية ونسب أهلها بالمغرب، وهذا الباب لا يزال مطموساً مجهولاً شأنه فى الجناح المهجور الذى أشرت إليه فى مستهل كلامى.

أتوقف عند لفظة «بنيان» فقط. فيتبادر للذهن وجود المفهوم نفسه فى كلام الشيخ الأكبر فى تجلى العلة من كتاب التجليات المخصوص بالحلاج (أعنى تجلى العلة)، يقول سيدى محيى الدين:

«رأيت الحلاج فى هذا التجلى» وعندما سأله فى شأن العلة، وعلة العلل، وهذا كلام لا بهمنا فى هذا المقام، يسترسل فى كلامه:

«قلت له: لم تركت بيتك بخرب؟ فتبسم» (أعنى الحلاج): لما استطالت عليه الأكران حين أخليت، فأفئيت ثم أفئيت، ثم أفئيت، فأخلفت هارون فى قومي فاستضعفوه لغيبتى فاجمعوا على تخريبه.. فقلت له (والشيخ ابن عربى هو الذى يتكلم) عندى مائكون به مدحوض (الحجة).

هذا كلام نجيب عال، نحصل منه فقط ما بهمنا سياق الكلام بشأن اصطلاح البنيان أو الدار؛ فالحلاج تركهم يخربون داره، أما أبو حيان، وزمنه ليس ببعيد من زمن الحلاج، فلربما لهذا أثر كاتب ديوان (الإشارات) أن يحث مخاطبه بقوله:

«فما بعد هذا الآن إلا أن تسد سمعك عن هذا الكنه اللطيف تحريماً للسلامة، وأزم لسانى عن هذا الخير خوفاً من لاذع الملامة».



هل كان التوحيدى صوفياً أو فيلسوفاً؟

يوسف زيدان*

تمهيد :

أما إذا نظرنا إلى التوحيدى نظرة فاحص مدقق، ودرسته على ما يوجبه الدرس الصحيح القائم على الفهم والنقد والإحاطة؛ فإن إشكالات الرجل تترى وتتراكب، حتى يصح القول: لا يمكن الكلام عن التوحيدى من جانب واحد، ولا يمكن النظر إلى الرجل من الجوانب كافة؛ إلا بالخوض فى إشكالاته.

وهذه الورقة البحثية تنقسم إلى ثلاثة أقسام، يستعرض الأول منها تلك الإشكالات المتعلقة بالتوحيدى - أو التى تعلق هو بها - كإشكال التاريخى الخاص بمولده ووفاته، وإشكال إحراقه كتيبه؛ وغير ذلك من الأمور التى يطرحها درس التوحيدى وفحص سيرته وأخباره ومؤلفاته... وهذا القسم من البحث بمثابة «المدخل» إلى القسمين الباقيين، إذ كل قسم منهما يتعرض - بتفصيل أكثر - إلى مشكلة. يتناول القسم الثانى من هذا البحث، مشكلة انتساب التوحيدى إلى التصوف، وهل كان التوحيدى صوفياً حقاً، وشيخاً من

فى التراث العربى / الإسلامى، كما فى واقعنا المعاصر، شخصيات «مشكلة» يحار فيها الباحثون اليوم، مثلما حار فيها بالأمس القدماء.. فمن هؤلاء: ابن سبأ، خالد بن يزيد، الحلاج، ابن الراوندى، نصير الدين الطوسى، العفيف التلمسانى، أبو بكر الرازى، الششتى وغيرهم - وهم كما ترى - من كل عصر، وفى كل فن.

بيد أن التوحيدى واحدٌ من أكثر الشخصيات التراثية إشكالاً ومجلبةً للحميرة.. صحيح أن بإمكاننا أخذ الأمور على علانها، مكتفين بالانكفاء على أحكام مسابقة تقرر، ونكررت، عن هذا الرجل / المشكل، ومستدين إلى شهادات قدمها عنه مترجم قديم أو مؤلف معاصر؛ وهنا سيختفى الإشكال وبصير التوحيدى: فرد الزمان وفيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة وشيخ الصوفية والمبدع والوجودى و... إلخ!

* قسم الفلسفة بآداب دمهور، جامعة الإسكندرية.

وعن كتبه، تحدث : حاجي خليفة، فى مواضع عدة من (كشف الظنون) - البغدادي، فى مواضع عدة من (إيضاح المكنون) - بروكلمان فى (تاريخ الأدب العربى). وقد نشرت مخطوطات التوحيدى كلها، ولا أظن أن هناك عملاً مهماً من أعماله لا يزال مخطوطاً لم ينشر؛ وكان «آخر» حصر لمؤلفات التوحيدى المطبوعة، هو ذلك الذى قدمه محمد عيسى صالحية فى كتابه (معجم التراث العربى المطبوع)، وسوف نرى أن الكثير من هذه المؤلفات تعددت طبعاته وتحقيقاته، على النحو التالى :

* «أخلاق الوزيرين» تحقيق محمد بن تاووت الطنجى، المطبعة الهاشمية، دمشق ١٩٦٥، وبتحقيق إبراهيم الكيلانى، «مئذبات الوزيرين» دار الفكر بدمشق ١٩٦١ (طبعتان) محققتان).

* «الإشارات الإلهية والأنفاس الروحانية» تحقيق عبدالرحمن بدوى القاهرة ١٩٥٠، الكويت ١٩٨١؛ وبتحقيق وداد القاضى، دار الثقافة ببيروت ١٩٧٣ (تحقيقان وثلاث طبعات).

* «الإمتاع والمؤانسة» تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين: القاهرة ١٩٣٩، ١٩٤٢، ١٩٤٤، وطبعة ثانية ١٩٥٣، المكتبة المصرية ببيروت ١٩٥٧، دار مكتبة الحياة، بيروت (تحقيق وأربع طبعات).

* «البصائر والذخائر»؛ بعناية أحمد أمين وأحمد صقر، القاهرة ١٩٥٣، وبتحقيق عبدالرازق محبى الدين، مطبعة النجاح ببغداد ١٩٥٤، وبتحقيق إبراهيم الكيلانى، مكتبة أطلس ومطبعة الإنشاء بدمشق ١٩٦٤، وبتحقيق وداد القاضى، الدار العربية بتونس ١٩٧٨ (أربع طبعات محققة).

* «الرسائل»؛ تسع رسائل بتحقيق إبراهيم الكيلانى، دار طلاس بدمشق ١٩٨٥، تشمل هذه النشرة المحققة على رسائل: السقيفة - علم الكتابة - الحياة - العلوم، وخمس أخرى كتبها التوحيدى لمعاصريه.

* «الرسالة البغدادية»؛ نشرة هايلدبرج ١٩٠٢، وبتحقيق عبود الشالجي، دار الكتب ببيروت ١٩٨٠ (طبعتان محققتان).

مشايخ الطريق ذا مريدين وأتباع - كما زعموا - أم هو محض «متصوف»؟ وشتان بين الصوفى والمتصوف.. أم تراه أبعد ما يكون عن التصوف والصوفية؟ وهكذا يعالج هذا القسم من البحث جانباً من أهم جوانب التوحيدى، ويعيد النظر فيما استقر وتناقضت الأقلام.

والقسم الثالث الأخير يبحث فى علاقة التوحيدى بالفلسفة، وهل كان الرجل فيلسوفاً أم محض متفلسف أم هو مؤرخ للفلسفة. وما الذى دعاه إلى خوض غمار الفلسفة - أو الجمع بين أشتات منها - وما هى فى النهاية «فلسفة» التوحيدى النظرية والعملية؟

على هذا النحو السابق، نسعى إلى الإجابة عن التساؤل/ الإشكال الذى جعلناه عنواناً للبحث: هل كان التوحيدى صوفياً أم فيلسوفاً؟

أولاً: إشكالات التوحيدى

على الرغم من زعم البعض أن التوحيدى «لم ينل ما يستحقه من عناية»، وهى عبارة يحلو للكثيرين ترديدها.. فإن الرجل - فيما أرى - قد نال الكثير من عناية القدماء والمحدثين؛ فقد وردت ترجماته فى: (معجم الأدباء) لياقوت الحموى ٥٢٠/١٥؛ (وفيات الأعيان) لابن خلكان ١١٢/٥ - (شد الإزار) للشيرازى ص ٥٣ - (طبقات الشافعية) للسبكي ٢٨٦/٥ - (طبقات الشافعية) للإسنوى ٣٠١/١ - (سير أعلام النبلاء) للذهبي ١١٩/١٧ - (ميزان الاعتدال) للذهبي ٥١٨/٤ - (الوفى بالوفيات) للمصفى ١٦٨/١٢ - (تهذيب الأسماء واللغات) للنووى ٢٢٣/٢ - (لسان الميزان) لابن حجر ٣٨/٧ - (بغية الرعاة) للسيوطى ١٩٠/٢ - (روضات الجنات) للخرانيسارى.. إلخ.

وفى المراجع الحديثة : (أبو حيان التوحيدى) لإبراهيم الكيلانى - (أبو حيان التوحيدى) لعبد الرزاق محبى الدين (أبو حيان التوحيدى) لتركيا إبراهيم - (أمراء البيان) لمحمد كرد على - (كنوز الأجداد) لمحمد كرد على - (أبو حيان التوحيدى) لأحمد الحوفى - (أبو حيان التوحيدى فى كتاب المقابسات) لعبد الأمير الأعسم.. إلخ.

«الاهتمام» بالتوحيدي وآثاره وأفكاره، فلا تزال الأحكام متضاربة حوله؛ وصفه ياقوت بأنه «صوفي السمى والهيئة، وكان يتأله والناس على ثقة من دينه. وكان متفنناً فى جميع العلوم.. فهو شيخ فى الصوفية وفيلسوف الأدباء وأديب الصوفية ومحقق الكلام ومتكلم المحققين. فرد الدنيا الذى لانظير له ذكاءً وفطنة وفصاحة ومكنة، كثير التحصيل للعلوم»^(٣). وفى المقابل، بدأ الذهبى ترجمته التوحيدي بقوله:

«الضال الملحد، أبو حيان.. كان كذاباً قليل الدين والورع عن القذف والمجاهرة بالبهتان، تعرض لأمر جسام من القدح فى الشريعة والقول بالتعطيل.. ولم يؤثر عنه إلا مثلية أو مخزية.. وهو الذى نسب نفسه إلى التوحيد.. كان يقول: أناس مضوا تحت التوهم وظنوا الحق معهم وكان الحق وراءهم! قلت: أنت حامل لوائهم»^(٤).

وإذا كان من الطبيعى أن تتضارب الآراء والأقوال حول شخصية مثل التوحيدي، فإنه من غير الطبيعى - بعد كل هذه الكتب والمقالات - أن تحظى شخصية التوحيدي بهذا الكم من الإشكالات :

١ - إشكال مولده ووفاته :

لا أحد يعرف متى، وأين، ولد التوحيدي! فمع كل هذه البحوث والكتابات العربية التى ذكرناها منذ قليل - وهناك أيضاً بحوث استشراقية وترجمات لأعماله - فإن الذين كتبوا عن التوحيدي تأرجحوا فى تحديد سنة مولده، ورجحوا أن يكون هذا الميلاد ببغداد، أو شيراز، أو نيسابور، أو واسط^(٥) سنة ٣١٠ هجرية، أو ٣١١ هجرية، أو فى حدود ذلك؛ وذلك لأنهم استدلووا على مولده من إشارة وردت فى بعض رسائله .

وحقق عبدالأمير الأعسم مولد التوحيدي، وعرض لاختلاف الأقوال فيه، مقررًا: إن التوحيدي مجهول الميلاد ولم يشر هو نفسه إلى ميلاده وظروف مولده، والوثيقة الوحيدة التى تؤرخ لنا حياته هى الرسالة التى بعثها إلى القاضى أبى سهل على بن محمد يخبره فيها بأنه أحرق

* «رسالة الحياة»؛ بتحقيق إبراهيم الكيلانى، المطبعة الكاثوليكية ببيروت ١٩٥١، وبحقيق كلود أودير، المطبعة الكاثوليكية ببيروت - أيضاً - ١٩٦٥ (ثلاث طبعات محققة).

* «رسالة السقيفة» نشرة حسن السندوبى مقدمة تحقيقه لـ «المقابسات» وبحقيق إبراهيم الكيلانى، المطبعة الكاثوليكية ببيروت ١٩٥١ (ثلاث طبعات محققة).

* «رسالة فى العلوم»؛ نشرة أحمد فارس الشدياق، مطبعة الجوائب، القسطنطينية ١٨٨٣، المطبعة الشرقية، القاهرة ١٩٠٥، وبحقيق مارك بيرجه، دمشق ١٩٦٤، وبحقيق على متولى، مكتبة الآداب بالقاهرة، المطبعة النموذجية ١٩٧٢ (ثلاثة تحقيقات وست طبعات).

* «الصدقة والصديق»؛ نشرة أحمد فارس الشدياق، مطبعة الجوائب ١٨٨٣، المطبعة الشرقية ١٩٠٥، وبحقيق إبراهيم الكيلانى، دار الفكر بدمشق ١٩٦٤، وبحقيق على متولى صلاح، مكتبة الآداب والمطبعة النموذجية ١٩٧٠، ١٩٧٢ (ثلاثة تحقيقات وخمس طبعات).

* «المقابسات»؛ نشرة ميزرا حسين الشيرازى، الهند ١٨٩٨، ونشرة حسن السندوبى، المطبعة التجارية الكبرى بالقاهرة ١٩٢٩، وبحقيق محمد توفيق حسين، مطبعة الإرشاد ببغداد ١٩٧٠، وحققها دانيال واتريكاف فى رسالته بالسربون - غير مطبوعة - سنة ١٩٧٤ (أربعة تحقيقات وثلاث طبعات).

* مناظرة بين متى بن يونس والسيرافى؛ نشرة مرجليوث، الجمعية الملكية الآسيوية بلندن ١٩٠٥، نشرة حسن السندوبى، المكتبة التجارية الكبرى - فى مقدمة «المقابسات» ١٩٢٩ (طبعتان)

* «الهوامل والشوامل»؛ تحقيق أحمد أمين وأحمد صقر، مطبعة الناشر بالقاهرة ١٩٥١^(٦).

.. أما المقالات والدراسات وبحوث المؤتمرات، عن التوحيدي، فلا تكاد تقع تحت الحصر^(٧). ومع كل هذا

«نعلم يقيناً أنه مات سنة ٤١٤ هجرية»^(١٠). ونقرأ: «إن كل التواريخ التي تشير إلى وفاة التوحيدى قبل سنة ٤٠٠ هـ نرفضها هنا ولا نهتم بها، فهي مغلوطة وتدل على جهل قائلها بمؤلفات أبي حيان، وأحسب هنا أنه توفي سنة ٤٠١ هـ»^(١١). فكيف: «روى أبو إسحاق إبراهيم الشيرازي أنه استمع إلى التوحيدى في شيراز سنة ٤١٠ هـ»^(١٢) فهل: «وقف الوزير صاحب - ابن عباد - على بعض ما كان يدغله التوحيدى ويخفيه من سوء الاعتقاد، فطلبه ليقتله، فهرب.. ثم طلبه الوزير المهلبى، فاستتر منه ومات فى الاستار»^(١٣) أم:

«أنا لا نعلم ماذا كان من أمر التوحيدى بعد إحراقه لكتبه عام ٤٠٠ هـ، وليس بين أيدينا من المراجع ما يقطع بنوع الحياة أو أسلوب المعيشة الذي عاشه أبو حيان فى سنواته الأخيرة.. ولابد من أن يكون أبو حيان قد أمضى هذه الفترة الطويلة من الشيخوخة فى التبعذ والتسلك والاستغفار، بصحبة بعض إخوانه ومريديه من الصوفيين»^(١٤).

وعلى هذا النحو تترى التساؤلات: «فأين قضى التوحيدى مدة أربعة عشر عاماً، بعد سنة ٤٠٠ للهجرة؟ أطوف في البلاد متنقلاً من بلد إلى بلد يقف على الأبواب، شأن المكذبن من طائفة الساسانية - المتسولين؟ أم كان يعيش منزوياً يخالط الصوفية والغرباء والمجتهدين الأدياء الأردباء؟ أم جاور بيت الله الحرام؟ أم رجع إلى شيراز؟ تلك نقاط مهمة فى حياة التوحيدى يقف عندها المؤرخ حائراً عاجزاً»^(١٥). وتوالى الترجمات:

«إذا كان أبو حيان فى عشر التسعين فى رمضان ٤٠٠ هـ، وبعد اختراق اليأس لأعماق نفسه، وسقوطه فى بئر ملئ بالتشاؤم، مع ما حل به من مرض وعجز وأذى؛ فكيف يتصور أنه عاش بعد ذلك أربعة عشر عاماً؟ إن أبا حيان كتب رسالته للقاضى أبى سهل، كما اعتقد، وهو على فراش الموت»^(١٦).

وبعد، فلقد أراح أحد الباحثين - أعنى زكى مبارك - نفسه من بعض الأمر، فكتب: «لا تسألنى متى ولد التوحيدى، ولا أين ولد فذلك رجل نشأ فى بيئة خاملة لم

كتبه، فهذه الرسالة هى الدليل على أن التوحيدى كان حياً حتى رمضان سنة ٤٠٠ هجرية (كانت غرة رمضان ٤٠٠ هـ، تقابل ١٨ أبريل - نيسان ١٠١٠ م وآخره يصادف ١٧ مايو - آيار ١٠١٠ م)، ففى مطاوبها يشير إلى أنه فى عشر التسعين، فاستدل القدماء والمحدثون على أنه ولد حوالى سنة ٣١٠ هـ، بل حسب عبد الرزاق محبى الدين من قبل الاحتمال أنه ولد بين ٣١٠ و ٣٢٠ هـ كأنه لا يستطيع البت فى تأريخ ميلاده، كما سيفعل بتأريخ موته، أما السندوبى، وهو غير دقيق مع أنه يحسم الأمور حسماً قاطعاً، فيؤرخ ميلاده بسنة ٣١٢ هـ وكأنه على يقين»^(١٧).

بيد أن رسالة التوحيدى إلى القاضى أبى سهل، ليست هى الوثيقة الوحيدة التى تؤرخ لميلاده، فثمة إشارة «وثائقية» أخرى، وردت فى (المقابسات)، وهى التى اعتمد عليها إبراهيم الكيلانى، مقررأ: إذا نقصنا جميع ما قيل عن التوحيدى وأحصينا ما تفرق من أخباره، أمكننا القول إنه ولد فى بغداد حوالى سنة ٣١٠ هـ، وقد استنتجنا تاريخ وفاته من مصدرين، أولهما كتاب أرسله التوحيدى إلى القاضى أبى سهل سنة ٤٠٠ هـ يقول فيه إنه بلغ عشر التسعين، وثانيهما كتاب (المقابسات) الذى ألفه سنة ٣٦٠ هـ وكان عمره يومذاك خمسين عاماً بدليل قوله: «وما يرجو المرء بعد الالتفات إلى خمسين حجة وقد ضاع أكثرها وقصر فى باقيها»^(١٨).

ويظل الشك، من بعد ذلك، قائماً فى تاريخ مولد التوحيدى؛ فكلنا الإشارتين (الوثيقتين) غائمة غير محددة، فالأولى «عشر التسعين» والثانية «الالتفات إلى خمسين حجة» فلا الأولى دلّت صراحة على تسعين سنة، ولا الثانية صرحت بدلتها على خمسين سنة، وإنما دارت كل إشارة (وثيقة) منهما حول عدد من السنوات، مما لا يمكن معه القطع فى الاستدلال على تاريخ المولد، وقد أسلفنا أنه لم يستدل - بدقة - على موضع الميلاد.

أما وفاة التوحيدى فهى أمر أكثر إشكالاً من مولده؛ ففى بعض المراجع: كان حياً قبل ٣٨٠ هـ^(١٩). بل: «قد تظهر سنة ٣٦٠ هـ أيضاً سنة لوفاة أبى حيان»^(٢٠). ولكن:

وخير قرطاس تكتب عليه هو الرمل الذى تذروه الرياح، والماء الجارى الدائم التجدد^(٢٠)؛ إذ تنكشف للإنسان تفاهة الحياة الدنيا، وبطلان لذاتها وآلامها، فلا يلبث أن يدرك معنى «العيب» بكل حدثه وقسوته وليس من شك عندنا فى أن إدراك أبى حيان لهذا المعنى هو الذى حدا به إلى إحراق كتبه. وإذن، فليحرق التوحيدى كتبه قبل أن يحترق بها، أو فليحرقها حتى لا يحرق نفسه، فما كتبه إلا بديل منه، أو ماهى إلا بضعة من نفسه. إذن فلترحل كتب التوحيدى قبل أن يودع صاحبها الحياة، وليستمتع هو برؤية صفحاتها المثانة لتلهمها النيران، وليعلم من لا يعلم أن الفكر عابر، والمفكر عابر، وكلاهما مع رياح الموت طائر^(٢١) فزيت له نفسه أن يقدم للنار أحد عشر من بنيه، وربما كانوا أكثر من ذلك عدداً، ليس فيهم خامل ولا متخلف، وليس من بينهم إلا من ينافس أخوته فى العلا والبهاء^(٢٢).

وهكذا، نجح التوحيدى فى تحويل الباحثين إلى شعراء! بيد أننا هنا سوف نحذر الوقوع فى هذا الشرك، فننظر إلى الإحراق - والرسالة - نظرة موضوعية لا تنأى عن التناول المثانى للواقعة (الإحراق) والنص (الرسالة) .. ولنبدأ بتحليل نص الرسالة على ما أوردها ياقوت فى (معجم الأدباء).

بدأ التوحيدى رسالته بتملق رقيق للقاضى أبى سهل ولوم شفيف:

«حرسك الله أيها الشيخ من سوء ظنى بمودتك وطول جفائك، وأعاذنى من مكافأتك على ذلك، وأجارنا جميعاً مما يسود عهد إن رعيناه كنا مستأنسين به، وإن أهملناه كنا مستوحشين من أجله، وأدام الله نعمته عندك، وجعلنى على الحالات كلها فداك».

فالتوحيدى هنا يترقى فى الخطاب، ويحن إلى عهد الوصال مع القاضى أبى سهل الذى قطعه الأخير بطول جفائه. وقد كان التوحيدى مشتاقاً إلى عتاب القاضى، منتظراً السؤال عن إحراق الكتب؛ يقول:

«وافانى كشايب غير محتسب ولا متوقع، على ظمأ برح بى إليه، وشكرت الله على النعمة به على وسائلته المزيد من أمثاله».

نكن نطمع فى مجد حتى تقيد تاريخ ميلاده^(١٧). ويمكن لباحث آخر أن يبيع نفسه من بقية الأمر، فيكتب: لا تسألنى متى توفى التوحيدى، ولا أين توفى، فذلك رجل انتهى إلى حالة خاملة غامضة، ولم يتمكن المؤرخون من تسجيل يوم وفاته على وجه الدقة.. ويبقى الإشكال قائماً!

٢ - إشكال إحراقه كتبه :

هل من اللازم هنا أن نؤكد ذلك الارتباط الوجدانى العميق بين المؤلف وكتبه، بل بين المؤلف والكتب عموماً؟ لا أظن هذا الأمر بحاجة إلى تأكيد، فلقد حفل تراثنا العربى/الإسلامى بالعديد من المواقف الدالة على شدة ارتباط العلماء بالكتب، فها هو الجاحظ يبيت فى ذكاكين الوراقين حتى تتسنى له المطالعة فتقع عليه الكتب ذات ليلة فتدفعه ويكاد يلقى حتفه تحتها. وها هو حنين بن إسحاق يجرده الخليفة المتوكل من كتبه ومتاعه وممتلكاته، فنراه يتألم من فقدانه الكتب بأشد مما تألم لفقدان بيته وماله.. بل ها هو ابن الملحن مخترق خزانة كتبه، فيصاب بالجنون!!

والأمثلة السابقة إنما تدل على تعلق العالم والأديب بكتب غيره، فما بالك بكتبه هو. وهنا يثور الإشكال الخاص بإحراق التوحيدى كتبه، وماذا كان المقصود بهذا الإحراق؟

اشتهرت واقعة إحراق التوحيدى كتبه - بيده - من خلال هذه الرسالة التى نقلها ياقوت الحموى بكاملها، وتناقلها من بعده معظم الذين كتبوا عن التوحيدى. فى هذه الرسالة، يعتذر التوحيدى إلى القاضى أبى سهل على بن محمد الذى كتب إليه «يعذله على صنيعه، ويعرفه قبح ما اعتمد من الفعل وشنيعه»^(١٨) فرد التوحيدى معتذراً، مبرراً هذا الفعل القبيح الشنيع. وقد أسرت هذه الرسالة ألباب الناس، وانفعل الباحثون المحدثون.. فكتبوا: «إن لهذه الرسالة التى كتبها التوحيدى فى أشد ساعاته حرجاً، قيمة كبرى فى فهم نفسه فى أواخر حياته، والتوحيدى شأنه فى كل ما كتب أن يجيد التعبير عن عواطفه والإنصاح عن نزعات وجدانه بلهجة توجب الرقة وتدعو إلى الإشفاق»^(١٩). إن هذه الفعل - الإحراق - لا تصدر عن مغرور، بل عن شعور شخصية نبيلة ترى أن كل كتابة هى حادثة فانية زائلة عابرة،

طامعاً فى صلاتهم ووصالهم، أم كافرًا بكتبه، أم مستخيراً لله فى إحراقها، أم مستبشراً ببقاء مع القاضى أبى سهل؛ لقاء يسر النفس ويذكر بحديث الأُمس؟

والسؤال الأخير: هل كان التوحيدى قد نغم على الكتب والكتابة حقاً، أم يموء على الناس بحركة (تراجيدية) تستدر عطفهم وأموالهم؟ وما معنى إحراقه الكتب.. هل يوهم بالخلاص منها، وهو يعلم أن أصولها موجودة فى خزائن من كتبها لهم ليسامروها، وأن نسخها الخطية محفوظة لدى الوراقين ليستنسخوها، حتى وصلت إلينا اليوم.. لتسر النفس وتذكر بحديث الأُمس!

فى ضوء هذه التساؤلات البريئة، يمكن النظر إلى الأسباب التى ساقها أبو حيان التوحيدى ليبرر فعلته البريئة وهى ما يمكن حصره فى الآتى: الاحتجاج بأن «كل شئ هالك إلا وجهه» و«كل من عليها فان»، فلا ثبات لشيء من الدنيا وإن كان شريف الجوهر كريم العنصر - الزعم بأنه ما انبرى لذلك ولا اجتراً عليه حتى استخار الله عز وجل فيه، أياماً وليالى، وحتى أوحى إليه فى المنام بما بعث السعزم - تقرير أن العلم يراد به العمل، وأنه يعود بالله من علم عاد كلا وأورث ذلاً وصار فى رتبة صاحبه غلام - القول بأنه جمع هذه الكتب لطلب المثالة والرياسة والجاه فحرم ذلك كله، فكرة أن تظل الكتب حجة عليه لا له - وأنه فقد الولد والصدى والصاحب والتابع والرئيس، فلم يشأ أن يترك كتبه ليقوم يتلاعبون بها ويدنسونه عرضه إذا نظروا فيها، فقد جاور الناس فما صح له من أحدهم وداد - أنه فقد الأمل فى حياة لذينة والرجاء فى حال جديدة - أنه اقتدى ببعض الأئمة الذين تخلصوا من كتبهم بأيديهم - أن جامع الكتب كجامع الفضة والذهب والمنهون بها كالحريص الجشع عليها.. هيهات، الرحيل قريب.

تلك هى الدواعى التى عددها التوحيدى، نقلناها على الترتيب وبعبيراته نفسها.. وكلها مردودة! فاحتجاج بالقرآن هنا ليس فى محله، وإلا مرق العلماء كتبهم بحجة أنه لادائم غير وجه الله، وأنها لن تبقى على أى حال (كان ابن النفيس يقول: لو لم أعلم أن تصانيفى تبقى بعدى عشرة

والتوحيدى يصف كتبه التى أحرقها بأنها «النفيسة». ومع ذلك، فإن نفاستها تلك لم تقيها من إقدامه على إحراقها بالنار وغسلها بالماء. ويعد أن يعدد التوحيدى أسباب إقدامه على ذلك (سوف نعود إليها فيما بعد) يعاود لوم القاضى:

«ما أردت أن أجيبك عن كتابك لطول جفائك، وشدة التوالت عمن يزل على رأيك مجتهدك، وفى محبتك على قربك ونأيك.. ولكنى حرست منك ما أضعته منى، ووفيت لك بما لم تف لى به.. وما حداني على مكاتبك إلا ما أتمثله من تشوقك إلى وتحرقك على».

وهو يرجوه معاودة الوصال بينهما، كأنه يستدرك على الرسالة بعدما ختمها بالسلام، فعاد يقول للقاضى:

«إن سرى، جعلنى الله فداك، أن تواصلنى بخبرك، وتعزنى مقر خطابى هذا من نفسك فافعل، فإنى لا أدع جوابك إلى أن يقضى الله تلاقياً يسر النفس ويذكر حديثنا بالأُمس».

والسؤال هنا: كيف يقدم التوحيدى على فعلته هذه - مخلصاً - وهو لا يزال على شوق لأبناء الزمان، داعياً صاحبه القديم إلى معاودة الوصال، مستعداً للكتابة إليه، مرة أخرى، مؤكداً أنه لن يتأخر فى الجواب: إلى أن يقضى الله تلاقياً (يسر) النفس ويذكرهما بحديث الأُمس؟

والسؤال الآخر: إذا كانت رسالة التوحيدى إلى القاضى أبى سهل مؤرخة بشهر رمضان سنة ٤٠٠ هجرية (٢٣)، فمتى أحرق التوحيدى كتبه أصلاً حتى يبلغ ذلك القاضى، فيرسل رسالة العتاب والعذل للتوحيدى، فيرد عليه التوحيدى فى رمضان سنة ٤٠٠ هجرية، فى الوقت الذى نعرف فيه أن التوحيدى قبل أقل من شهرين، أعنى فى رجب سنة ٤٠٠ هجرية، كان يبيض رسالته (فى الصداقة والصدى) التى كان قد سامر بها الوزير ابن سعدان (٢٤). فهل كان التوحيدى، فى أقل من شهرين: مؤلفاً يبيع الرسائل فى الصديق والصداقة، أم كارهها لأهل زمانه حائناً عليهم، أم

الدنيا؟ وكيف يستقيم ذلك مع ما نعرفه فيه من بلاغة وإحاطة بثقافة عصره، وهو أمر تلزمه الهمة العالية والصبر في التحصيل؟

ومن إشكالات التوحيدى ذلك التناقض الشديد فى نعتة وأوصافه فى المصادر الأصلية، حتى نتحير فى اختيار جانب من الصفات يرجع على نقيضه؛ فحتى ياقوت الحموى وهو أول من اهتم بالتوحيدى بعد وفاته بعشرات السنين، نراه يورد علينا متناقض الأوصاف! فالتوحيدى عنده:

«سخيف اللسان، عمدة للمتسولين بنى سامان، قليل الرضا عند الإساءة إليه والإحسان، الذم شأنه والثلب دكانه، محدود، محارف، يتشكى صرف زمانه ويكى فى تصانيفه على حرمانه... بأبى إلا الاشتغال بالقدح والذم وثلب الناس!».

وهو أيضاً :

«صوفى السمى والهيئة وكان يتأله والناس على نقى من دينه، متفنناً فى جميع العلوم، فهو شيخ فى الصوفية وفيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة ومحقق الكلام ومنكلم المحققين وإمام البلغاء.. فرد الدنيا الذى لا نظير له!».

ولا أعرف كيف يكون التوحيدى «فرد الدنيا» فى عصر كان يعيش فيه أعلام مثل ابن سينا؟ فهل هى تعبيرات مجانية سكبها «ياقوت» على التوحيدى، وكيف تستقيم هذه الأوصاف مع نقيضها عند المؤرخ نفسه. ناهيك عن التناقض الوارد عند مؤرخين عدة قدامى وباحثين محدثين ترجموا للتوحيدى؟

ثانياً: هل كان التوحيدى صوفياً؟

للتصوف تعريفات لا تكاد تقع تحت الحصر، وللصوفية مسالك إلى الله تعددت حتى قيل: الطرق إلى الله على عدد أنفاس البشر! ومع ذلك، فإنه من العسير أن نجد تعريفاً أو مفهوماً للتصوف ينطبق على أبى حيان التوحيدى، ومن الصعب أن نضع سيرته التى نعرفها فى إطار تلك الطرق إلى

آلاف سنة، ما وضعتها) والزعم بأن الله أوحى إليه فى المنام بما فعل، بعد أيام وليال ظل يستخيره فيها؟ زعم مغلوط، لأننا نعرف أنه قبل شهرين كان يشتغل بالتأليف.. وقوله «العلم يراد به العمل» مغالطة أخرى؛ إذ أغلب كتب مسامرات وحكايات وطرائف جلسات، فلا توصف بالعلم ولا يراد منها العمل أصلاً.. والاقتداء بمن كانوا قبله، فيه نظر، لأنه لم يشتهر عن غير التوحيدى — فى المصادر المعتمدة — أنه أحرق كتبه بيده، إلا فى بعض الأخبار المفردة التى لا يعول عليها.. وفقدانه «الأمل فى حياة لذيدة والرجاء فى حال جديدة» يناقض رغبته فى لقاء مع القاضى أبى سهل «يسر النفس ويذكر بحديث الأُمس».. وكذلك زعمه بأنه جاور الناس «فما صح له من أحدهم وداده» يناقض قوله للقاضى أبى سهل «والسلام عليكم بحق الصفاء الذى بينى وبينك، وعلى جميع إخوانك عاماً بحق الوفاء الذى يجب على عليك».. وأخيراً؛ فالجمع بين جامع الكتب وجامع المال، وكأن كليهما طالب دنيا، جمع واضح البطلان والتضيق.

.. ريقى الإشكال قائماً!

ولانزال هناك إشكالات عدة أخرى متعلقة بالتوحيدى، لا يمكن البت فيها بسهولة. فمن ذلك علاقته بذوى النفوذ فى عصره، والحافه فى سؤالهم، وتذلل العجيب للوزراء والكبراء؛ بل كما عبر هو عن نفسه :

«ولقد اضطررت إلى بيع الدين والمروءة، وإلى تعاطى الربا بالسمة والنفاق، وإلى مالا يحسن بالحر أن يرسمه بالقلم» .

فهل كان ذلك - كما قرر بعض الباحثين - بسبب ظروف العصر التى حتمت على أهل الفكر والعلم الاحتماء بذوى السلطان والالتجاء لذوى المال؟ وكيف يستقيم هذا التبرير ونحن نعلم أن الكثيرين من العلماء والمفكرين المعاصرين للتوحيدى، كانوا أشد منه فقراً وأرق حالاً، ولم يقسوا مع ذلك على أبواب الكبراء والأغنياء؛ ومنهم «القومسى» صديق التوحيدى؟ فهل يرجع الأمر إلى خسة بنفس التوحيدى وفطرة مجبولة على الاتضاع والتذلل وطلب

الله، التى هى بعدد أنفاس البشر. هذا من حيث الإجمال، وللأمر تفصيل يأتي :

١ - هل كان التوحيدى زاهداً؟

حين تعرضنا فى بحث آخر، لطبيعة التصوف وتعريفاته، وجدنا أربعة من هذه التعريفات تكاد تلخص الأمر كله^(٢٥)، هى قول معروف الكرخى المتوفى ٢٠٠ هجرية^(٢٦)؛ التصوف هو الأخذ بالحقائق واليأس مما بأيدى الخلائق. وقول أبى بكر الشبللى المتوفى ٣٢٠ هجرية^(٢٧)؛ التصوف هو الجلوس مع الله بلا هم. وقول أبى بكر الكتاتى المتوفى ٣٢٢ هجرية^(٢٨)؛ التصوف خلق، فمن زاد عليك فى الخلق زاد عليك فى الصفاء. وقول الإمام عبد القادر الجيلانى المتوفى ٥٦١ هجرية؛ الصوفى من جعل ضالته مراد الحق منه، ورفض الدنيا وراءه... وهو محمول القدرة، كرة المشيئة، مربى القدس، منبع العلوم والحكم، بيت الأمن والفوز، كهف الأولياء والأبدال، عين القلادة، درة التاج، منظر الرب^(٢٩).

وتدور هذه التعريفات كلها حول الزهد، باعتباره شرطاً للتصوف، وباباً للعروج من الدنيا إلى الحضرة الإلهية، فيتحلى الصوفى بالخلق والصفاء حتى يصير على ما وصفه به الإمام الجيلانى فى النصف الأخير من تعريفه.. ومن شروط الزهد، الذى هو شرط التصوف، عدم الوقوف بأبواب الحكام والأغنياء، وقد أفاض ملاً على القارى فى بيان هذا الشرط حين كتب رسالته، المخطوطة، بعنوان: «تبعيد العلماء عن تقرب أبواب الأمراء والظلماء»^(٣٠).

ولم يكن التوحيدى زاهداً، بل كانت حياته وقوفاً متتالياً على أبواب الوزراء والكبراء. وإذا كان زكريا إبراهيم قد قسم حياة التوحيدى إلى: عهد الطلب — عهد التنقل^(٣١)، فإننا نرى كلا المهيدين عهد الطلب، ففى الأول طلب التوحيدى المعرفة من الكتب التى ينسخها ومن مجالس العلماء ليتوصل بها إلى أبواب الوزراء والأغنياء طمعاً فى هباتهم، وفى الأخرى طلب هذه الهبات متوسلاً بمعارفه الكثيرة؛ فهو على الحالين طالب. غير أنه حصل فى الأولى

المعرفة ولم يرض بما حصله فى الثانية من هبات. نقول «لم يرض» لأن الكثيرين من دارسى التوحيدى وناشرى كتبه، برروا إحافه فى سؤال الناس بأنه كان شديد الفقر والحاجة. وهو تبرير لا يتفق مع حقائق وردت فى سيرة التوحيدى؛ فقد كانت صلات الوزراء تأنيه، وظل يعيش فى كنفهم حتى بلغ الخامسة والستين من عمره، خدم المهلبى ثم ابن العميد ثم ابنه ثم صاحب ابن عباد ثم ابن سعدان — وكانت إقامته مع الأخير رغدة، فهو يخاطب الوزير بالكاف والتاء — وبين هذا الوزير وذاك، كان التوحيدى يتردد أيضاً على العديد من القضاة وسراة الناس كالدلجى الذى ألف له (المحاضرات) وحصل منه على راتب سنة كاملة نظير رواية بيتين من الشعر^(٣٢). والعجيب أن المحدثين يبالغون فى تصوير بؤس التوحيدى، حتى إن بحانة مثل أحمد أمين يتعلل للتوحيدى؛ فيقول :

«إن أبا حيان يظهر أنه كان مكبوت الغريزة الجنسية وذلك بحكم فقره وتقصه الجبرى، فلم نسمع مثلاً فى تاريخ حياته أنه تزوج أو رزق أولاداً، ولو كان لتحديث عنهم كثيراً، لأن سره دائماً مكشوف، ثم كان فقره الفظيع يحول بينه وبين التبرى كما كان حال الأغنياء فى زمنه»^(٣٣).

والعجب هنا من أحمد أمين الذى يقطع بفقر التوحيدى الفظيع الذى أعجزه عن التبرى، وهو ما يناقض خبراً رواه التوحيدى بنفسه، فى كتاب نشره أحمد أمين نفسه؛ يقول التوحيدى فى (الإمتاع) : إن العيارين ناروا سنة ٣٦٣ ببغداد فدخلوا الحى الذى يسكنه، ونهبوا من منزله كل ما وجدوه من ذهب وملابس وأثاث، وقضت جاريته من الخوف^(٣٤). ويقول التوحيدى فى الكتاب نفسه إنه أحصى مع جماعة بالكرك — وهى مدينة صغيرة — عدد الجوارى فوجدهن ٤٦٠ جارية، ومائة وعشرين حرة، وخمسة وتسعين من الصبيان البدور؛ يقول: هذا سوى ما كنا لا نظفر به ولا نصل إليه لعزته وحرسه ورقبائه^(٣٥). وكان ذلك الإحصاء سنة ٣٦٠ هجرية؛ وهكذا كان التوحيدى يحصى الجوارى والمرد فى مدينة صغيرة، وهكذا كان له ببغداد جارية ومنزل به ذهب وأثاث.. فما معنى تقرير أحمد أمين أن التوحيدى

كان «مكبوت الغريزة الجنسية بحكم فقره»! وما معنى الاستدلال بعدم كلامه عن زوجه وأولاده على أنه لم يتزوج ولم يتجب! فالتوحيدى لم يتحدث عن والده وأسرته، فهل نستدل من ذلك على شيء؟

بيد أن ما يعنينا، هنا، هو الكلام عن تصوف التوحيدى. وقد مر أن قاعدة التصوف هى الزهد وترك التعلق بالمتاع الدنيوى، والتخلق بخلق الربانيين. فأين ذلك كله فى سيرة التوحيدى، لقد هدده أبو الوفاء المهندس وتوعده، فكتب له التوحيدى - ليسترضيه - أشهر كتبه (الإمتاع والمؤانسة) ليبداه قائلا :

«فإلى الله أفرع من كل ريث وعجل، وإليه أتوكل فى كل سؤال وأمل، وإياه أستمع فى كل قول وعمل» (٣٦).

وتلك بداية طيبة للكتاب، أما النهاية، فسوف نتقلها هنا كاملة، ليس فقط لأنها قطعة فريدة فى أدب التسول، وليس لكونها نصاً فريداً فى التذلل - ولا يوجد لها مثيل فى التراث العربى كله - وإنما لأنها، علاوة على ذلك، تقطع بانقطاع صلة قائلها بالزهد والتصوف. يقول التوحيدى لأبى الوفاء المهندس، ما نصه :

«أيها الشيخ، سلمك الله بالصنع الجميل، وحقق لك وفيك وبك غاية المأمول، هذا آخر الحديث... وأنا أسأل الله أن يحفظ عنايتك على، كسابق اهتمامك بأمرى.. خلصنى أيها الرجل من التكلف، أنقذنى من لبس الفقر، أطلقنى من قيد الضرر، اشترنى بالإحسان، اعتبدنى بالشكر، استعمل لسانى بفنون المدح، اكفى مؤونة الغداء والعشاء.. أجبرنى فإننى مكسور، اسقنى فإننى صدي، أغشى فإننى ملهوف، شهرنى فإننى غفل، حلنى فإننى عاطل.. أيها الكريم، ارحم.. أيها السيد، أقصر تأملى.. أنفق جاهك فإنه بحمد الله عريض، وإذا جدت بالمال فجد أيضاً بالجاء فإنهما أخوان.. دع هذا، ودع لى ألف درهم، فإننى أتخذ رأس مال وأشارك بقال المحلة فى درب الحاجب، ولا أقل من ذا.. وأنا الجار القديم،

والعبد الشاكر، والصاحب المخبور، ولكك مقل كالمرعش، ومقدم كالمؤخر، وموقد كالحمد؛ تدنبنى إلى حظى بشمالك، وتجذبنى عن نيله بيمينك، وتغذبنى بوعد كالعلل، وتعيشنى بياس كالحظ.. افعل ما ترى، واصنع ما تستحسن، وابلغ ما تهوى، فليس والله منك بد، ولا عنك غنى، والصبر عليك أهون من الصبر عنك، لأن الصبر عنك مقرون بالياس، والصبر عليك ربما يؤدى إلى رفع هذا الوسواس» (٣٧).

هكذا تحدث التوحيدى ..

٢ - هل كان للتوحيدى شيخ صوفى؟

إذا كان «الزهد» هو أحد شروط التصوف، فإن «الشيخ» شرط آخر لا يقل أهمية؛ وللصوفية كلام مطول فى ضرورة صفة المريد لشيخ يأخذ بيده فى زمن البداية؛ فالشيخ هو المرشد الروحى الذى سلك طريق الحق، وعرف المخاوف والمهالك والحدود، فتولى تربية المريد (٣٨). يقول الصوفية: من كان بلا شيخ فشيخه الشيطان .

وكان ياقوت الحموى - وهو أول من اهتم بالتوحيدى - قد أغفل ذكر شيوخه فى التصوف، وهو ما استدركه السبكي بعد ذلك، ونصر على أن شيخ التوحيدى هو جعفر الخلدى (٣٩).. ومثلما تناقل الكتاب عن ياقوت قوله إن التوحيدى «شيخ الصوفية» تناقلوا عن السبكي أن الخلدى «شيخ التوحيدى».

ومن حيث التاريخ، ليس هناك ما يمنع أن يكون التوحيدى قد تتلمذ فى الطريق الصوفى على جعفر الخلدى، فقد تعاصرا، وكانت وفاة الشيخ سنة ٣٤٨ هجرية ببغداد، حيث كان يعيش التوحيدى. بيد أن قراءة سيرة التوحيدى وأثاره، لاتدل على هذه التلمذة إطلاقاً. فمن عادة الصوفية الإشادة بمشايعهم والاستشهاد بأقوالهم، بل فى التصوف ما يسمى بفناء إرادة المريد فى الشيخ؛ لكن الخلدى غير مذكور عند التوحيدى، بل لم ترد إشارة إليه! وقد نقل التوحيدى كلام الكل من فلاسفة وأدباء وشعراء ومتماجين وعقلاء

وجانين، وكتبه مليئة بالأقوال والملح والتوارد ونكات القول، وليس من بين ذلك كله كلمة لجعفر الخلدى.. شيخه، على ما زعموا.

إن المدقق فى الفقرات «الصوفية» الواردة فى (الإمتاع) و (الذخائر) و (المقاسبات) - وهى كتب التوحيدى الشهيرة - سيلاحظ أنها جاءت عفواً الخاطئ، ففى (الإمتاع) يسأله الوزير ابن سعدان أن يذكر جماعة منهم، فيقول التوحيدى: الجيد بن محمد الصوفى البغدادى العالم، والحارث بن أسد المحاسنى، ورويم، وأبو سعيد الخراز، وعمرو بن عثمان المكي، وأبو يزيد البسطامى، والفتح الموصلى الذى سمع وهو يقول «إلى متى ترددنى فى سكك الموصل، أما أن للحبيب أن يلقى حبيبه» فمات بعد جمعة. فيقول الوزير: هذا عجب، ولقد مر فى هذا الفن ما كان فوق حسابنى، وأكثر مما كان فى ظنى، وكم من شئ «حقير» يطلع منه على أمر كبير^(٤٢).

وهكذا يرد وصف الصوفية بالحقارة، ويعجب من إتيانهم الأمر الكبير. وقد كان سبب سؤال الوزير عن الصوفية، أن التوحيدى قص عليه أن جماعة منهم راحوا ينتقلون من شيخ إلى شيخ، وكلما زاروا شيخاً سألهم عن أخبار الناس، فيتركونه إلى غيره ساخطين، حتى قابلهم أبو الحسن العامرى فشرح لهم السر وراء سؤال المشايخ عن أحوال أهل الزمان، فعقب الوزير قائلاً:

«كنت أرى أن الصوفية لا يرجعون إلى ركن من العلم ونصيب من الحكمة، وأنهم يهذون بما لا يعلمون، وأن بناء أمرهم على اللعب واللهو والمجون».

ثم سأل التوحيدى أن يذكر جماعة منهم، ففعل، كما مر بنا. وهنا نلاحظ أن التوحيدى قد صحح صورة الصوفية فى ذهن الوزير، لكننا نلاحظ أيضاً أنه جعل الفيلسوف (العامرى) أستاذاً للصوفية ومرشداً.

ومرة ثانية، يجعل التوحيدى من المنطقى (السجستاني) متفوقاً على الصوفية. ففى (المقاسبات): رويت لأبى سليمان كلاماً لبعض الصوفية فلم يفكه ولم يهش عنده، وقال: لو قلت أنا فى هذه الطريقة شيئاً لقلت:

فإذا رجعنا إلى آثار الخلدى، لنرى كيف كانت تلمذة التوحيدى المزعومة على يديه، وجدنا طريقة الخلدى وأقواله وأفعاله تخالف تماماً ما كان التوحيدى يقوله ويفعله. كان الشيخ - جعفر الخلدى - يقول: «لا تسأل أحداً شيئاً، ولا تأخذ من أحد شيئاً، ولا يكون معك شئ تعطى منه أحداً»^(٤٣). وكان يقول: «الفتوة احتقار النفس وتعظيم حرمة المسلمين»^(٤٤). وقد كان التوحيدى يسأل الناس إلحافاً، ويعتد بنفسه ويعجب ببلاغته أليماً إعجاب، ولا يتورع عن الحط من الناس - لا عوام المسلمين فحسب، بل مشاهير رجالهم كابن عباد وابن العميد، وهذا كله يناقض طريقة الخلدى، بل طريقة الصوفية عموماً.

وربما قال قائل: إنما هى فترة فى حياة التوحيدى، كان فيها يستجدى ويحط من الناس ويطمع فيما بين أيديهم، ثم أنه تاب وأتاب ورجع عما كان فيه، وتصوف! وهذا مردود، لأن النهايات - كما يقول الصوفية - لا تصح إلا بصحة البدايات. صحيح أن بعض أولياء التصوف كانت لهم فى أول الأم حياة غير صوفية، ثم تحولوا: كرايمة، وإبراهيم بن أدهم، والغزالي، وجلال الدين الرومى.. لكن ذلك التحول كان وليد «أزمة روحية» أعقبها نوع من الجذب؛ وقد رأينا فى آخر كتابات التوحيدى - أعنى رسالته إلى القاضي أبى سهل، سنة ٤٠٠ هجرية - أنه كان يعانى «أزمة مادية» ويتشكى الفقر وصروف الزمان، ويحن إلى لقاء يسر النفس ويذكر بحديث الأمس.

٣ - كيف نظر التوحيدى إلى أهل التصوف؟

كان لابد للتوحيدى، وهو المثقف الكبير، أن يقف عند التصوف، أحد أهم السمات الثقافية للعصر. وكان لابد للتوحيدى، وهو المسامر الكبير ومجالس الكبراء والوزراء، أن يتعرض للصوفية؟ وهم من أهم ملامح العصر. وكذلك، كان لابد أن يظهر التصوف فى كتب التوحيدى التى أظهرت

«الحواس مهالك، والأوهام مسالك.. إلخ، قال أبو الخطاب الكاتب: أيها الشيخ، هذا والله أحسن من كل ما سمع منهم، فلو زدنا منه؟ فقال: الحواس مضلة، والأوهام مزلة.. إلخ، واستزاده مظهر الكاتب البهदाوى، فاستعفى وقال: هذا حديث قوم أباعد منا على بعض المشاكهة، وما قلناه كافٍ فيما قصدنا.. ولكل أفسق يدرون عليه، ومركز يطمثون إليه، وجو يتنفسون فيه، وفنن يقطفون منه»^(٤٣).

وفى (الذخائر)، نقل التوحيدى بعض العبارات الصوفية لرابعة ويحيى بن معاذ الجند والبسطامى والرقاق، وعقب على ذلك بقوله: ما أحوجنا إلى عالم منطبق يكشف لنا كلام هذه الطائفة^(٤٤).

من هذه الشواهد الواردة فى كتب التوحيدى، يظهر أن الرجل نظر إلى الصوفية لا نظرة واحد منهم، بل باعتبارهم طائفة من أهل زمانه، فهم بالنسبة إليه «الآخرون» أو «هذه الطائفة»، ولقد أورد أخبارهم فى معرض المسامرة وتصوير ثقافة العصر، لا من حيث كونه أحدهم. وقد اختار من أخبارهم ما يناسب المسامرة والسياق، اختار لطائف ما يروى عنهم وبعض بدائع أقوالهم - مما كان مشهوراً بالفعل آنذاك - ولم يصف أحدهم بأنه شيخه، كما وصف علماء اللغة والمنطق، ولم يذكر شيخاً مرموقاً عاصره أو أفاد منه بصحة أو قول. هذا ما نراه فى كتابات أبى حيان التوحيدى المقطوع بصحة نسبتها إليه. أما (الإشارات الإلهية والأنفاس الروحانية) فنلك قصة أخرى.

٤ - هل كتب التوحيدى «الإشارات» ؟

قد يبدو من الغريب أن نشك فى نسبة كتاب (الإشارات الإلهية) إلى التوحيدى. فقد ذكر الكتاب ياقوت الحموى وهو يترجم لأبى حيان، ونشره عبدالرحمن بدوى، اعتماداً على نسخة خطية كتبت ٤٧١ هجرية، ثم أعادت وداد القاضى نشره وتحقيقه، وبات الأمر فى المصادر والمراجع كافة، كأنه اليقين.

ويبدو أن ما أسلفناه من إثبات أن التوحيدى لم يكن صوفياً، فلا هو زاهد، ولا هو مريد لشيخ، ولا هو متبع لأهل الطريق.. يجعلنا نتشكك فى نسبة (الإشارات) إليه، خاصة أن لهذا الشك ما يبرره؛ فمن ذلك :

يخالف (الإشارات) بقية أعمال التوحيدى المعروفة فى بنيتها العامة، فقد عودنا التوحيدى الإبهار والإكثار ونقطع الأخبار والجمع بين الشئتين من كل فن. و (الإشارات) غير ذلك، فهى نفس طويل، هادئ، لا يحيل إلى خبر، ولا يعمل على منقول، ولا يستشهد بعبارة علم، ولا يتكى على ما خطه قلم. فالكتاب رسائل متتالية، ومواعظ متوالية، تصدر عن شيخ أفنى عمره فى معالجة أمر الباطن، وصار يتكلم على البواطن، ألفاظه مناسبة رقيقة، لا يشتمل - كما فى كتب التوحيدى - على بذاءة أو حماقة. والكتاب شبيه بأعمال صوفية من نوع (جلاء الخاطر فى الظاهر والباطن) للجيلانى، و (السبعيات فى مواعظ البريات) للهمداني، وكلاهما مخطوط^(٤٥)، ولا شبه بينه وبين كتب التوحيدى ورسائله الأخرى.

و (الإشارات) كتبه مؤلفه بعد أن بلغ السبعين^(٤٦)، فإن كان التوحيدى فقد كتبه فى حدود سنة ٣٨٠ هجرية، وهو مالا يتفق.. ففى سنة ٤٠٠ هجرية كان التوحيدى يكتب (الصدقة والصدق) ويحرق كتبه، ويرد على القاضى أبى سهل متمنياً لقاء يسر النفس ويذكر بحديث الأمس.. فكيف يتفق لهذا الصوفى الذى كتب (الإشارات) أن يعود إلى ما سافر به الوزراء - فالصديق والصدقة سافر بها التوحيدى ابن سعدان - وكيف يجوز له أن يحرق كتبه لسخطه على الفقر، والفقر باب عظيم عند الصوفية... يقول الجيلانى [قال الله له]: «باغوث الأعظم، قل لأصحابك وأحبائك: من أراد منكم صحبتى فعليه بالفقر، ثم فقر الفقر، ثم الفقر عن الفقر، فإذا تم فقرهم، فلا ثم إلا أنا»^(٤٧).

ولم يكن التوحيدى، باتفاق الدارسين، شاعراً. ومؤلف (الإشارات) شاعر مطبوع، وشعره موزون فى الشكل، لرى فى المضمون، فى أبياته سمات الشعر الصوفى الحالى، يقول:

يكشف لنا كلام هذه الطائفة^(٤٩). أما مؤلف (الإشارات) فيقول بين فقرات رموزه وإشاراته العالية، ما نصه :

«يا هذا، إنك إن عرفت هذه اللغة، واستخرجت
حالك من هذا الديوان، وحصلت مالك وعليك بهذا
الحساب، أوشك أن تكون من المجذوبين إلى
حظوظهم، والراسخين في علمهم، والخالدين في
نعمتهم؛ وإن كنت من هذه الكنايات عمياً، وعن
هذه الإشارات أعجمياً، طاحت بك الطوائع وناحت
عليك النوائع، ولم توجد في زمرة الغوادى والروائع..
إلخ»^(٥٠).

ويقول ما نصه :

«يا هذا.. فإن كنت منا، وفهمت لغتنا، وتصرفت في
ديواننا، ونطقت بلساننا، وكتبت بأقلامنا؛ فلك مالنا
وعليك ما علينا، وإن تكن الأخرى، فاكفنا مؤونتك،
فقد وهبنا لك كلك وبعضك، ووفرنا عليك أحمرك
وأصفرك؛ وتمتع كيف شئت بأهلك وولدك، ووطن
ما شئت بمن خالفك وباينك، فلست منا ولنا
منك»^(٥١).

يضاف لذلك، هذا القدر الكبير من المصطلحات
الصوفية الدقيقة التى انتظمت فى عقد نصوص (الإشارات)،
مثل: الفتق والرتق ص ٢٣ - الوحشة والأنس ص ٢٤ - بحر
بلا ساحل ص ٢٦ - خلع القميص ص ٣٧ - الجمع والفرق
ص ٤٧ - المرید والمراد ص ٤٨ - الاستغراق ص ٤٨ - الورد،
الوظيفة ص ٢٢٥... إلخ، ولم تظهر هذه المصطلحات، وغيرها
الكثير، فى شكل تنوعات، ولم يتكلف المؤلف توظيفها فى
النص؛ وإنما انسابت بين العبارات لتؤلف هذه النصوص التى
يعرف المشتغل باللغة الصوفية، كم هى بديعة الصياغة دافئة
الإيقاع.. والصوفية تقول: كل كلام يحرج وعليه رائحة
القلب الذى منه خرج.

والتوحيدى حياته معروفة، فمتى كان فى تلك المرتبة
التي يتحدث منها مؤلف (الإشارات). لقد أشار المؤلف إلى
مرتبة الإنسان الكامل - وهى نظرية صوفية متطورة تدور حول

كيف يصفو سرور من ليس يدرى

أى وقت يسببه لحظ العيون

ويقول :

أعلل فيك النفس والنفس صبة

إليك، ومبا تعللها عنك نافع

ويقول :

تواصلنى وتقطعنى

وتدعــــــــــــــــــــو ثم تمتنع

فلا وصل ولا قطع

ولا يأس ولا طمع

ويقول :

ربؤسنى وعد كورد بقيعة

متى رمته كلت بيداء بلقما

وهل ينفع الوعد الصحيح ونخته

عقارب لا يتركن للجنب مضجعا

ويقول :

يا قايى النار من زنى تعالجه

اقدح بزन्दك فى همى وأحزائى

ما النار أسرع إلهاباً لموتها

فى العمود من زفرة فى قلب حران

وهذه الأشعار المتنوعة فى عروضها، المتننة فى مراميها
الدوقية، وردت فى صفحة واحدة فقط من (الإشارات)^(٤٨).
وللمؤلف فى بقية صفحات (الإشارات) أشعار أخرى كثيرة.
فهل انقلب التوحيدى، فجأة، شاعراً؟

وقد مر علينا أن التوحيدى كان يقف عاجزاً أمام
المصطلح الصوفى، وكان يقول: ما أحوجنا إلى عالم منطبق

قطب الوجود ونقطة دائرة الولاية - فقال : بالسان الوقت،
وواحد الورى، وعين الزمان^(٥٢).. وهى صفات لا تليق بغير
الإنسان الكامل، ثم يحل هذا المؤلف هذا المقام، فيقول :

« بالله، أما ترانى، كيف أترأى لك عياناً، وكيف
أنوارى عنك خبيراً، فلا عياني يخبرك عني، ولا
خبرى يصدقك مني؛ خفيت في بدوى لأنى متقلب
في حالى، وبدوت في خفائى لأنى متقلب إلى أمر
عال^(٥٣)».

ويقول :

« يا هذا، استعفيتك من الكلام، فاعلم أن فيضى
زاهر؛ وإذا حضضتك على السماع، فاعلم أن نحوى
نازح، وإذا أنشدتك بيتاً فاعلم أن إشارتى وراءه، وإذا
رويت لك حكاية فاعلم أن مغزأى دونها، وإذا أبرزت
لك العين فاعلم أن مرادى عرفانك بها.. فانظر
كيف تدبىرى لك، وكيف جودى عليك، فلا
تشهدنى فيما أقول، ولا تعجب منى فيما تسمع،
فإنما ذلك كله قسط من الحق فى خلية القبض،
ويحاش من الخلق فى شكل الإناس، وبعث لغرائب
نسيم الغيب.. فخذ الآن لحالك إن كان لك فى هذه
اللغة عبارة، أو هبت فى حجاب صدرك من هذا
الحديث إشارة^(٥٤)».

وقد مرت علينا فيما سبق، تلك القطعة الفريدة من
أدب الاستجداء - أعنى خاتمة (الإمتاع والمؤانسة) - فكيف
يستقيم أن يكون صاحبها، التوحيدى، هو صاحب
(الإشارات) الذى يقول :

« يا هذا، هذا لسان التصوف، والتصوف اسم يجمع
أنواعاً من الإشارة، وضرورياً من العبارة، وجملته
التذلل للحق بالتميز على الخلق^(٥٥)».

وقد عاش التوحيدى متنقلاً بين البلاد، ولم تعرف
له - إذا كان شيخاً صوفياً - طريقة باسمه؛ أما مؤلف
(الإشارات) فهو شيخ متمسك لتربية المريدن؛ وما (الإشارات)
فى معظمها إلا «مجالس» توجه فيها هذا الشيخ الصوفى إلى

مريديه بالخطاب.. يقول : «أينما المسترق للسمع، المتوالى فى
هذا الجمع، إذا سمعتنى أدعو الله، فتق بحسن ظنى به، وإذا
رأيتنى أدعوك إليه فتق بخالص نصحى لك^(٥٦)».. ويقول :
«يا هذا قدم إلى حضرى شخصك، وأخر عن فهم مقالتي
نقصك، وقرب أذنك، وفرغ بالك^(٥٧)».

وكان من عادة التوحيدى أن يشير إلى الوقائع والأخبار
المتعلقة به وبمعاصريه، ولا يوجد شئ من هذا فى
(الإشارات). ولقد أشار التوحيدى، فى بعض كتبه، إلى كتبه
الأخرى، تراه يذكر (مثالب الوزيرين) مرة، ومرة أخرى
يتعرض لمسألة فيذكر أن لها سؤالاً فى (الهوامل) وله إجابة
فى (الشوامل). لكن (الإشارات) لم يشر فيها مؤلفها إلى
مؤلفات أخرى له - أو لغيره - وكذلك لم ترد إشارة إلى
(الإشارات) فيما كتبه التوحيدى من كتب ورسائل.

وحين نشر عبدالرحمن بدوى (الإشارات) نسبها إلى
التوحيدى، مستنداً إلى أربعة اعتبارات، هى : أن ورقة داخل
غلاف مخطوطة الظاهرية - بدمشق - ورد فيها : «الأول من
كتاب الإشارات الإلهية والأنفاس الروحانية من تصنيف أبى
حيان...» وأن ياقوت الحموى ذكر أن للتوحيدى كتاباً بهذا
العنوان، وأن للكتاب (الإشارات) مختصراً مع شرح قام بهما
عبدالقادر بن محمد بن بدر المقدسى المتوفى ٩٣٤، وأصله
اخطوط موجود برلين، وأنه من الممكن أن تكون هناك
اقتباسات وردت من (الإشارات) فى كتب التوحيدى
الأخرى^(٥٨). وسوف نرد فيما يلى على هذه الاعتبارات كلها:

أولاً : إن وجود هذه العبارة فى داخل غلاف مخطوطة
الظاهرية - وهى المخطوطة الوحيدة التى اعتمد عليها بدوى
فى نشر الكتاب - أعنى عبارة «الأول من الإشارات الإلهية
والأنفاس الروحانية من تصنيف أبى حيان».. لا يثبت شيئاً!
فأغلغلة اخطوطات تتألف من مجموعة أوراق يرى المجلد أنها
لا قيمة لها، فيحشو بها جلد الغلاف. وبغرض أن المجلد فعل
ذلك بجهد، وأن الورقة بالفعل من المخطوطة نفسها، فإن
المؤلف المذكور عليها «أبا حيان» لا يشترط أن يكون
«التوحيدى»؛ فلدينا الكثير من الأعلام كانت كتبهم: أبو
حيان. يضاف إلى ذلك ما يعرفه من اشتغل بفهرسة

حاجي خليفة الذى لم يذكر الكتاب للتوحيدى وإنما لسعد الدين مسعود بن أحمد. وكذلك لم يشر إلى هذا الكتاب مؤرخون ترجموا للتوحيدى، مثل السبكي والسيوطى وابن خلكان.

.. وهب أن (الإشارات) بعد ذلك كله، من تأليف التوحيدى! فهل يثبت ذلك تصوف الرجل؟ إن (الإشارات) كلام. والصوفية، كما قال الغزالي: أرباب أحوال، لا أصحاب أقوال! ولقد كانت أحوال التوحيدى أبعد ما يكون عن التصوف.

وبعد، فإن ماسبق هو محاولة مخلصة لحل إشكال واحد من إشكالات التوحيدى الكثيرة؛ أعنى إشكال علاقته بالتصوف. وإذا كنت قد انتهيت إلى أن الرجل مقطوع الصلة بالتصوف والصوفية، فلا أرى فى ذلك انتقاصاً من شأنه، فهو - بلا شك - أديب عظيم، ومثقف كبير فى عصره، وشخصية مليئة بالحياة والصخب والمواقف الدرامية، لكنه - فقط - ليس صوفياً! بل إننى لا أرى معنى فى إلصاق الرجل بالتصوف، بل الإصرار على هذا الإلصاق. انظر إلى عبد الرزاق محيى الدين وهو يقول:

«لولا فترة من حياة التوحيدى قضاها متسكماً على أبواب الوزراء، ولولا رغبة خامرته فى زج نفسه فى أوساط الخاصة، ثم لولا نزعة منه إلى ثلب الناس والتعقب لهم وإيراد بعض المجون المبتذل فى مؤلفاته، لكان الرجل متحلياً بأسمى صفات المتصوفة المتألهين»^(٦٠).

وانظر إلى إبراهيم الكيلانى حين يقول:

«والخلاصة أن صوفية التوحيدى واعتزاله وموقفه من الحديث الشريف، هذه الأمور الثلاثة مجتمعة كانت من العوامل التى شجعت خصومه على الشك فى عقيدته ونسبته إلى الكفر والزندقة، وهو لا يباله من هذا الوزر إلا بقدر ما يبال كل صوفى معتزلي»^(٦١).

ولا أعرف كيف يكون الرجل صوفياً ومعتزلياً فى الوقت نفسه؟ بل لا أعرف، فى التاريخ الإسلامى كله، رجلاً جمع بين التصوف والاعتزال!

المخطوطات من أن العديد والعديد من المخطوطات منسوبة إلى غير أصحابها، ومن هنا يأتي دور «التحقيق» لإثبات صحة نسبة الكتاب.

وثانياً: إنه من الغريب أن تكون مخطوطة برلين «مختصر مع شرح» لكتاب (الإشارات)، فنحن نعرف أن فى التراث العربى كتب المختصرات، وهناك كتب الشروح.. ولم نر من قبل «مختصر مع شرح»، فهذا لا يتفق مع ذلك؛ فالكتاب إما مختصر لكتاب كبير، أو شرح عليه وتحشية. و(الإشارات) كتاب لا يمكن اختصاره - فهو نفس واحد طويل - وإن كان يمكن شرحه لاشتماله على رموز صوفية؛ والشروح العربية أنواع: شرح «قال أقول» الذى يعتمد على نقل الفقرة من الكتاب الأصلي ثم شرحها، دون التفريط فى أية فقرة.. وشرح ممزوج، وفيه يمزج الشارح كلام المؤلف الأصلي بكلماته الشارحة فيضع الأولى بالجبر الأحمر وكلمات الشرح بجبر أسود - أو العكس... وشرح الغوامض، وفيه يختار الشارح بعض فقرات المؤلف الأصلي، مما يرى أنها بحاجة إلى شرح، فيشرحها. ولا يوجد «مختصر مع شرح» اللهم إلا إذا كان الكتاب الأصلي قد اختصره لاحق على المؤلف، فجاء لاحق على المختصر فشرح مختصره. عموماً فإن بدوى يقول إنه: لم ير مخطوطة برلين أصلاً!

وثالثاً: إن الاقتباسات من (الإشارات) أو فيها، وهى ما يسميه بدوى «الدليل غير المباشر» هى أمر لا وجود له. وقد اعترف بدوى فى مقدمة تحقيقه (الإشارات) بأن: «خلاصة البحث هنا، أن الدليل غير المباشر، لا يزال يعوزنا فيما اتصل بنا حتى الآن من مصادر»^(٥٩)، مما يعنى أن هذا الدليل غير قائم فى وقت تحقيق (الإشارات). وقد حققها بدوى منذ قرابة نصف قرن، ولم يظهر حتى الآن دليل من هذا النوع.

وأخيراً:

فإن ياقوت الحموى ليس حجة فيما حكاه عن التوحيدى، فقد رأينا أنه جعله «شيخ الصوفية» وليس للرجل أى نصيب فى التصوف، ناهيك أن يكون شيخاً صوفياً.. وقد انفرد ياقوت بذكر (الإشارات) للتوحيدى، ولم يكن ياقوت مفهرساً من نوع ابن التديم، والذى من نوع ابن التديم هو

ثالثاً: هل كان التوحيدى فيلسوفاً؟

للفلسفة، كالتصوف، تعريفات لاتكاد تقع تحت الحصر. بل يدلى كل فيلسوف بتعريف خاص للفلسفة، يتفق مع موقفه ومذهبه^(٦٢). بيد أن المشهور من أمر الفلسفة أنها «محبة الحكمة» كما قرر فيثاغورث، وأنها بحث عن الحقيقة، اعتماداً على المصادر المختلفة للمعرفة - عقلية، تجريبية، حدسية - وأنها تبحث في الوجود (الأنطولوجيا) والمعرفة (الإبستمولوجيا) والقيم (الإكسيولوجيا)، وأنها تنشغل بالموضوعات الثلاثة الكبرى المطروحة أمام الوعي الإنساني: الله، العالم، الإنسان.

وكان ياقوت الحموى - أيضاً - هو أول من نسب التوحيدى إلى الفلسفة، بل جعله «فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة»^(٦٣)، وهى العبارة التى وصفها عبد الأمير الأعمى بقوله:

«وتلك عبارة، لعمري، تصاعد رنينها لسنين متجاوزا القرون منذ ألف عام، وهى تدغدغ أسماع محبى أبى حيان، ولا أستبعد اليوم الذى سيأتى فتتفرّد دراسة فى بحث الخيط الرفيع بين شطرى عبارة ياقوت البليغة هذه»^(٦٤).

وسار الباحثون فى ركاب عبارة ياقوت، فكتب عبد الرحمن بدوى دراسته التى قدّم بها (الإشارات) بعنوان «أديب وجودى فى القرن الرابع الهجرى»، جامعاً من التوحيدى «وجودياً» فى وقت كانت فيه الفلسفة الوجودية تتجتاح العالم المعاصر^(٦٥)، وكتب زكريا إبراهيم:

«لقد بذل التوحيدى جهداً كبيراً فى الظفر بضرب من الاستقلال الرواقى»^(٦٦)، لكنه ظل مع ذلك منفقراً إلى الآخرين، معتمداً على بعض الرؤساء والوزراء، ولاغربة فى ذلك، فإن الفيلسوف لا يمكن أن يكون بمثابة حرية محضة تملك من الاستقلال ما تستطيع معه التغلب على سائر شروط الموقف البشرى.. بيد أن التوحيدى لم يقنع بمعاناة موقفه البشرى، وظروفه الاجتماعية، بل هو قد وقف منها

موقفاً إيجابياً. استجاب لها استجابة فعالة! ولاعرو، فإن الفيلسوف لا يمكن أن يكون مجرد صدى لعصره، أو مجرد أسير لاجتماعه»^(٦٧).

وكتب الأعمى: فإذا كان الجاحظ أستاذ علماء الكلام فى الأدب فى القرن الثالث، فأبو حيان بحق أستاذ الفلاسفة فى الأدب فى القرن الرابع^(٦٨).

وقبل الدخول إلى تفاصيل علاقة التوحيدى بالفلسفة، علينا الانتباه إلى أن التوحيدى عاش فى عصر فلاسفة الإسلام الكبار، أمثال: أبو بكر الرازى، المتوفى ٣٢٠ هجرية - أبو نصر الفارابى، المتوفى ٣٣٩ هجرية - ابن هندو، المتوفى ٤٢٠ هجرية - ابن سينا، المتوفى ٤٢٨ هجرية، وغيرهم الكثير. والسؤال الآن:

١ - كيف تلقى التوحيدى الفلسفة؟

يتفق الباحثون على أن التوحيدى درس الفلسفة على يد: يحيى بن عدى، أبى سليمان السجستاني.. والأول توفى ٣٦١ هجرية، والآخر ٣٧١ هجرية، وأنه كان على صلة بأبى بشر متى بن يونس ومسكويه.. والآن ندقق:

أما يحيى بن عدى، فكان الغالب عليه المنطق، وجمع إليه الفلسفة. وقد درسه سحبان خليفات ونشر مقالاته الفلسفية - أغلبها فى منطق أرسطو - وتحدث عن تلاميذه، فذكر الكثيرين.. ولما ذكر التوحيدى قال ما نصه:

«من الصعب أن نقول إن أبى حيان (المعتزلى) قد تأثر بفلسفة يحيى بن عدى، فالفارق الدينى كان حائلاً دون قيام شئ من هذا القبيل، ولعل هذا يفسر لنا قسوة التوحيدى على ابن عدى، إننا نستطيع أن نقول بكل ثقة إن أبى حيان المعتزلى كان - بالمثل - المصدر الذى عرف ابن عدى من خلاله آراء المعتزلة فى الاستطاعة مثلاً»^(٦٩).

وكان التوحيدى قد ذكر فى (المقابسات) أنه حضر سنة ٣٦١ هـ مجلس يحيى بن عدى^(٧٠). والحقيقة أن التوحيدى ذكر ذلك كالتالى، قال: «قال يحيى بن عدى،

تلك هي صورة «فلاسفة العصر» عند التوحيدى، ولهذا نراه لا يحشر نفسه معهم؛ أفستغرب إذا أخرجه المؤرخون من زميرتهم، ولم يترجم له مؤرخو الفلاسفة؟ ومع ذلك، فكتب الرجل مليئة بكلام الفلسفة، فهو يورد الكثير من أقوالهم ونكاتهم ونوادرهم .

٢ - هل كان التوحيدى مؤرخاً للفلسفة ؟

لا يمكن الاطمئنان إلى التوحيدى مؤرخاً، فهو متهم بالوضع والاختلاق فيما هو خطير، كرسالة السقيفة^(٧٤)، ولذلك: «لست أستبعد أن يكون أبو حيان قد نزيد في (الإمتاع) واخترع أشياء لم تجر في مجلس الوزير، فقد اتهمه العلماء من قبل^(٧٥)». والكلام هنا عن (الإمتاع) يكتسب أهمية خاصة؛ إذ أورد فيه التوحيدى واحدة من أخطر النصوص المتعلقة بتاريخ الفلسفة، أعنى المناظرة الشهيرة بين السيرافى وأبى بشر متى بن يونس.

في هذه المناظرة الشهيرة يحكى التوحيدى واقعة جرت - بالقطع - قبل سنة ٣٢٨ (سنة وفاة متى بن يونس) في مجلس الوزير ابن الفرات، ولا نظن أن التوحيدى شهد المناظرة، فقد جرت - على ما يقول هو - سنة ٣٢٦ هجرية^(٧٦)، وهو وقت لم يكن فيه التوحيدى يجالس الوزراء.. فهو إذن روى الواقعة^(٧٧)، واختصرها، فجاء ذلك على النحو التالي :

بدأت المناظرة بطلب من الوزير ابن الفرات، لتتخذ بدايتها - على ما يرويه لفظ التوحيدى - صيغة «الحرب» وليس المناظرة العلمية. تأمل قول السيرافى: ليس البراز في معركة خاصة كالمصاع في بقعة عامة. فيرد الوزير عليه: اعتذارك عن غيرك يوجب عليك الانتصار لنفسك، والانتصار في نفسك راجع إلى الجامعة بقضلك، فيقول أبو سعيد: مخالفة الوزير فيما رسمه هجئة. ونعوذ بالله من زلة القدم، وإياه نسأل حسن المعونة في الحرب والسلام!

. إلى هنا لا يظهر متى بن يونس في المشهد الروائى، ثم يظهر فجأة عقب عبارة (الحرب والسلام) الأخيرة؛ يقول التوحيدى: ثم واجهه - يعنى أبا سعيد - متى^(٧٨). وسوف

فى درس البديهي عليه سنة ٣٦١ وأنا حاضر: مبدأ الجوهر الصورة والمادة.. إلخ^(٧٩). وهذه العبارة لا تدل على تلمذة التوحيدى لابن عدى، فكل ما فى الأمر أنه حضر مجلساً، فى السنة التى توفى فيها ابن عدى! وكان التوحيدى - تقديراً - قد تجاوز الخمسين.

وأما أبو سليمان السجستاني، فهو منطقى محض، أدى به اشتغاله بمنطق أرسطو إلى تعرف بعض جوانب الفلسفة المشائية (الأرسطية)، وقد تعلم منه التوحيدى بالفعل. لكن التوحيدى نراه يخوض فى عرض أستاذه، ويخبر الوزير ابن سعدان أن أستاذه أبا سليمان السجستاني «يجتمع مع قوم للشراب، ويذكر بعضهم الوزير بالسوء»! وقد استشهد أحمد أمين بذلك وهو فى معرض الرد على الافتراض القائل إن التوحيدى ألف (الإمتاع والمؤانسة) لأبى سليمان السجستاني^(٧٢).

والعجب من القائل بصلة التوحيدى بأبى بشر متى بن يونس، وقد توفى الأخير سنة ٣٢٨ هجرية، فمتى كانت هذه الصلة؟ والأعجب، صلة التوحيدى بمسكويه، تلك الشخصية الفلسفية المهمة، صاحب: تهذيب الأخلاق، طهارة النفس، تجارب الأمم.. إلخ، وصاحب الفضل على التوحيدى على المستويين المادى والمعنوى. فعلى المستوى المادى ذكر التوحيدى أن مسكويه أوجد له وظيفة - مع صاحب البريد - وقد رفضها التوحيدى. وعلى المستوى المعنوى، رد مسكويه بالشواغل على أسئلة التوحيدى «الهوامل»... فكيف وصف التوحيدى صاحبه الفيلسوف؟ قال:

«وأما مسكويه فلطيف اللفظ رطب الأطراف، رقيق الحواسى، سهل المآخذ، قليل السكب، بطىء السبك، مشهور المعانى، كثير التوانى، شديد التوفى، ضعيف الترقى، يرد أكثر مما يصدر، ويتناول جهده ثم يقصر، ويطير بعيداً ويقع قريباً، ويسقى من قبل أن يفرس، ويمتدح من قبل أن يميه، وله بعد ذلك مآخذ كشدو من الفلسفة، وتأت فى الخدمة، وقيام برسوم الندامة، وسنة فى البخل، وغرائب من الكذب؛ وهو حائل العقل لشغفه بالكيمياء»^(٧٣).

تخليط وزرق وتهويل ورعد وبرق، وإنما بودكم - يقصد المناطق - أن تشغلوا جاهلاً وتستذلوا عزيزاً، وغابتكم أن تهولوا بالجنس والفصل والنوع : ص ١٢٣ (يصمت بعد ذلك أبو بشر، ويتفرد السيرافي بالخطاب وقد خلت له خشبة المسرح). وتنتهي هذه المناظرة بأن يقول السيرافي: لقد حدثنا أصحابنا الصابئون^(٧٩) عنه - يقصد أبا بشر - ما يضحك التكللى ويشمت العدو ويغم الصديق، وما ورث هذا كله إلا من بركات يونان وفوائد الفلسفة والمنطق، ونسأل الله عصمة وتوفيقاً.. فيقول الوزير للسيرافي: عين الله عليك أيها الشيخ، فقد نذبت أكباداً وأقررت عيوناً وبيضت وجوهاً.

وهكذا يؤرخ التوحيدى للمنطق والمناطق، ولا أظنه إلا قد أراد رضى الوزير ابن سعدان، فقص عليه الخبر على هذا النحو من التقنية الفنية البديعة، والأفهام معنى معاودة التوحيدى طرح المسألة نفسها (الصلة بين المنطق والنحو) مرة أخرى فى (المقاسبات)، ولكن بشكل رصين. قال التوحيدى: قلت لأبى سليمان - السجستاني - إني أجد بين المنطق والنحو مناسبة غالبية، ومثابة قريبة.. إلخ، قال السجستاني: النحو منطق عربى والمنطق نحو عقلى.. إلخ. وتستمر المقابلة لتستعرض رأى السجستاني تفصيلاً، وتبين أهمية المنطق وموضوعه وفوائده.

القضية، إذن، أن التوحيدى يريد من أخبار المنطق والمناطق ما تسمح به المناسبة، فإن كان يسامر الوزراء خطأ، وإن كان يخاطب الخاصة علا واعتلى بما سمعه من السجستاني. وما هكذا يكون التاريخ للمنطق وأهله فى القرن الرابع! وما ينسحب هنا على المنطق ينطبق أيضاً على الفلسفة عند التوحيدى، فالرجل احتاج إلى أقوال الفلاسفة وآرائهم وهو يلخص ثقافة العصر وما يعتمل فيه من اتجاهات فكرية وأدبية.. ولهذا تراه فى (المقاسبات) يتحدث عن «النفس» حديث الفلاسفة المشائية الأرسطية، وهو فى (الإشارات) - المنسوب إليه - يتناول النفس من حيث قواها العقلية والغضبية والشهوية، وهو حديث أفلاطونى؛ فالمهم هنا ليس الفلسفة وإنما المسامرة والحشد والإكثار، حتى إنه يورد فى (الذخائر) ما كان مكتوباً على خاتم أفلاطون! ومن أدراه أن أفلاطون كان يلبس الخواتم؟

نلاحظ طيلة المحاورتين: الأول أن التوحيدى استخدم الكنية للإشارة إلى السيرافي (أبى سعيد) ولم يستخدم كنية متى بن يونس (أبى بشر). وهكذا جرت المناظرة كلها بين المتحاورين (أبو سعيد - متى)، ونحن نعلم أن العرب كانت تقدر الرجل إذ تناديه بكنيته، وتحقره إذا استعملت الاسم دون الكنية. والملاحظة الثانية: أن التوحيدى جعل السيرافي طيلة الوقت مهاجماً، وأبى بشر طيلة الوقت يدافع؛ وقد وضع التوحيدى على لسان أبى سعيد السيرافي هذه الألفاظ التى «حاور» بها المنطقى الفيلسوف، يقول لمتى: أخطأت: ص ١٠٩ - أراك بعد معرفة الوزن فقيراً إلى معرفة الموزون: ص ١١٠ - وبعد، فقد ذهب عليك شئ: ص ١١٠ - لقد مرهت بهذا المثال، ولكم عادة بمثل هذا التمويه: ص ١١١ - أخطأت، قل فى هذا الموضوع: بلى: ص ١١١ - أخطأت ونعصبت وملت مع الهوى: ص ١١٢ - وهذا جهل وعناد: ص ١١٣ - أخطأت: ص ١١٤ - أخطأت: ص ١١٥ - حدثنى عن الواو ما حكمه؟ فإنى أريد أن أبين أن تفخيمك للمنطق لا يفنى عنك شيئاً.. وأنت تجهل حرفاً فى اللغة التى تدعو بها إلى حكمة اليونان ومن جهل حرفاً أمكن أن يجهل حروفاً، ومن جهل حروفاً جاز أن يجهل اللغة بكاملها: ص ١١٧ - هذا جهل من كل من يدعيه: ص ١١٧ (هنا يتدخل الوزير ابن الفرات فى المسرحية التوحيدية فيقول للسيرافي: أيها الشيخ الموفق أجبه بالبيان عن مواقع الواو حتى تكون أشد فى إفحامه، وحقق عند الجماعة ما هو عاجز عنه، ومع هذا فهو مشتع به) أفئتيت على غير بصيرة ولا استبانة: ص ١١٩ - إذا حضرت الحلقة استفتدت ليس هذا مكان التدريس (هنا نلاحظ أن السيرافي كان فى مقتبل العمر وكان أبو بشر قد صار شيخاً لم يبق فى عمره غير عامين، ومع ذلك فالسيرافي يدعو إلى الجلوس من بين تلاميذه فى حلقة الدرس) إذا حضرت الحلقة استفتدت، ليس هذا مكان التدريس هو مجلس إزالة التلبس مع من عبادت التمويه والتشبيه والجماعة تعلم أنك أخطأت: ص ١١٩ (يتدخل الوزير مرة أخرى فى النص المسرحى قائلاً للسيرافي: نعم لنا كلامك فى شرح المسألة حتى تكون الفائدة ظاهرة لأهل المجلس والتبكيك عاملاً فى نفس أبى بشر) - هذا كله

وفى تراثنا العربى، تجلّى هذا الملمع الفلسفى قبل التوحيدى وبعده، صاغ الحكيم الترمذى - المتوفى ٣٢٠ هجرية - أسئلته الروحانية التى ظلت تدور فى فلك ثقافتنا القديمة حتى أجاب عنها الشيخ الأكبر محبى الدين بن عربى - المتوفى ٦٣٨ هجرية - وسأل الإمبراطور فريدريك ملك صقلية أسئلته الشهيرة لعلماء المسلمين، فرد عليه ابن سبعين بما معناه: إن الإمبراطور لم يعرف كيف يسأل؛ وإنما يكون السؤال عن هذه الموضوعات على النحو التالى.. وأورد التساؤلات ثم أجاب عنها بما توجهه الفلسفة الأرسطية، ثم قدّم الإجابة على ما يوجبه الرأى الصحيح من وجهة نظره، وجعل ذلك كله تحت عنوان: الكلام على المسائل الصقلية. وحتى عهد قريب فى تراثنا، كان الشيخ أحمد الدمنهورى - المتوفى ١١٩٢ هجرية - يدبج الأسئلة ويطرحها على علماء مصر كافة.

ومع المعرفة الواسعة التى حصلها التوحيدى من الكتب والمقالات والمسامرات، حتى كاد يحيط بثقافة عصره كاملة، ومع هذا القلق الإنسانى الذى تعذّب به التوحيدى، ومع هذه البلاغة الباهرة فى لفظه؛ استطاع أن يصوغ السؤال.. ليس فقط فى «الهوامل» وإنما فيما بثّه بين أرجاء كتبه، وبهذا - فقط - يكون التوحيدى فيلسوفاً أو متفلسفاً. بهذا المعنى وحده يمكن الإشارة إلى «الروح الفلسفية» عند التوحيدى.

من هنا، كان التوحيدى يحشد الأخبار الفلسفية (مع اللغوية مع الصوفية مع الأحاديث النبوية مع الفواحيش) ثم يوجه الخطاب فى (الذخائر) قائلاً لمن ألف له هذا الكتاب: هذا رأى ثابت بن قرة.. أتينا به على ما عنّا لنا، فإن وقع مطابقاً لاختيارك فاعتد به، وإن نقيته بحكمك وزيفته بنظرك فدعه لغيرك^(٨٠). ويقول بعد ذلك بصفحات... وهذا بكلام الفلاسفة أشبه، ولكن كذا أصبته فى كتاب ابن أبى طاهر صاحب «المنظوم والمنثور» وإنما أحكى ما أجد^(٨١). ويقول: ولا عليك أن تستقصى النظر فى جميع ما حوى هذا الكتاب^(٨٢).

فإذا كان التوحيدى، من حيث هو مؤرخ للفلسفة، لا يعتد به كثيراً، فما نصيب الرجل من الفلسفة:

٣ - التساؤل:

إن الملمع الفلسفى الأصل عند التوحيدى، هو قدرته على صياغة السؤال، وليس هذا بالأمر الهين، فما الفلسفة عبر تاريخها الطويل إلا سؤال! بدأت الفلسفة على يد طاليس بسؤال عن أصل الوجود، واستمرت عبر العصور خلال أسئلة طرحتها عقول الفلاسفة فى كل عصر. وتعددت الإجابات، وظل «السؤال» هو ركيزة النظرة الفلسفية؛ بل إن تاريخ الفلسفة يشهد تساؤلات عظيمة، بأكثر مما يقدم إجابات شافية.

الهوامش :

- ١ - محمد عيسى صالحي: معجم التراث العربى المطبوع (معهد اغضوطات العربية - القاهرة ١٩٩٣) ٢٤١/٢: ٢٤٦؛ وأيضاً: أبو حيان التوحيدى لعمد الأسير الأعسم، (دار الشؤون الثقافية - بغداد ١٩٨٦)، ص ٧١ وما بعدها.
- ٢ - انظر نيت المقالات التى كتبت عن التوحيدى بدائرة المعارف الإسلامية والمجلات العلمية والثقافية نى: كحالة - معجم المؤلفين، (دار إحياء التراث العربى - بيروت)، ٢٠٦/٧.
- ٣ - الأعسم: أبو حيان التوحيدى (مراجع سابق)، ص ٣٢٥ وما بعدها.
- ٤ - ياقوت الحموى: معجم الأدباء، دار إحياء التراث العربى، بيروت - طبعة مصورة ١٥/٦٠٥.
- ٥ - الذهبى: سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة - بيروت ١٩٨٣، الطبعة الأولى، ١١٩/١٧.
- ٥ - انظر: معجم الأدباء - سير أعلام النبلاء - معجم المؤلفين.
- ٦ - الأعسم: أبو حيان التوحيدى، ص ١٢.
- ٧ - النكلياتى: أبو حيان التوحيدى، ص ١٢.
- ٨ - كحالة: معجم المؤلفين، ١٧/٢٠٥.
- ٩ - الأعسم: أبو حيان، ص ٥٧.

- ١٠ - الكيلاني: أبو حيان، ص ٢٤.
 ١١ - الأعم: أبو حيان، ص ٥٨.
 ١٢ - انظر:
 - ابن حجر: لسان الميزان، حيدر آباد ١٣٣١ هـ، ٣٧٣/٦.
 - الكيلاني: أبو حيان، ص ٣٥.
 - زكريا لإبراهيم: أبو حيان التوحيدى أدهب الفلاسفة وفلاسوف الأدباء، أعلام العرب - المؤسسة المصرية العامة، ص ٦٣.
 ١٣ - الذهبي: سير أعلام النبلاء، ١٧/ ١٢٠.
 ١٤ - زكريا لإبراهيم: أبو حيان، ص ٦٣.
 ١٥ - الكيلاني، ص ٥٨.
 ١٦ - الأعم: أبو حيان، ص ٥٨.
 ١٧ - زكي مبارك: النشر الفني في القرن الرابع الهجري، مطبعة دار الكتب - القاهرة ١٩٣٤، ١٣٣/٢.
 ١٨ - ياقوت: معجم الأدباء، ١٦/ ١٥.
 ١٩ - إبراهيم الكيلاني: أبو حيان، ص ٣٣.
 ٢٠ - عبدالرحمن بدوي: مقدمة الإشارات الإلهية، صفحة كد.
 ٢١ - زكريا لإبراهيم: أبو حيان، ص ٦١: ٦٣.
 ٢٢ - أحمد الحوفي: أبو حيان، مكتبة نهضة مصر - الطبعة الثانية، ص ٢٢٩.
 ٢٣ - ياقوت الحموي: معجم الأدباء ٢٦/ ١٥.
 ٢٤ - المرجع السابق، ٧/ ١٥.
 ٢٥ - انظر كتابنا: عبدالقادر الجيلاني، باز الله الأشهب، (دار الجيل - بيروت ١٩٩١) ص ١٦ وما بعدها.
 ٢٦ - راجع ترجمة الكرخي وأقواله وأحواله. في: طبقات الصوفية، حلية الأولياء ٣٦٠/ ٨ - الرسالة القشيرية ص ٧٩ - تاريخ بغداد ١٩٩/ ٣ - صفه الصفوة ٧٩/ ٢ - طبقات الحنابلة ٣٨١/ ١ - وفيات الأعيان ٢٣١/ ٥ - العبر ٣٣٥/ ١ - سير أعلام النبلاء ٣٣٩/ ٩ - دول الإسلام ١٢٦/ ١ - امرأة الجنان ٤٦٠/ ١ - طبقات الأولياء ص ٢٨٠ - شذرات الذهب ٣٦٠/ ١.
 ٢٧ - انظر: طبقات الصوفية، ص ٨٢ - حلية الأولياء ٣٣٦/ ١٠ - تاريخ بغداد ٣٨٠/ ١٤ - الرسالة القشيرية - منتظم ٣٤٧/ ٦ - وفيات الأعيان ٢٧٣/ ٢ - العبر ٢٤٠/ ٢ - امرأة الجنان ٣١٧/ ٢ - سير أعلام النبلاء ٣٦٧/ ١٥ - البداية والنهاية ٢١٥/ ١١ - النجوم الزاهرة ٢٨٩/ ٣ - شذرات الذهب ٣٣٨/ ٢ - ديوان الشبلي بتحقيق كامل مصطفى الشبي.
 ٢٨ - انظر طبقات الصوفية ٩١ - حلية الأولياء ٣٥٧/ ١٠ - تاريخ بغداد ٧٤/ ٣ - الرسالة القشيرية: ص ٢٦ - صفه الصفوة ٢٥٧ - العبر ١٩٤/ ٢ - النجوم الزاهرة ٢٤٨/ ٣ - شذرات الذهب ٢٩٦/ ٢.
 ٢٩ - يوسف زيدان: عبدالقادر الجيلاني مرجع سابق، ص ٢٢، ٢٤.
 ٣٠ - توجد عدة نسخ خطية من هذه الرسالة بدار الكتب المصرية، وبلدية الإسكندرية والمكتبة العامة بجامعة القاهرة والإسكندرية.
 ٣١ - زكريا لإبراهيم: أبو حيان، ص ٤٢.
 ٣٢ - قال أبو حيان التوحيدى: دخلت على الدلجى بشيراز ركت قد تأخرت عنه أياماً، وهذا الكتاب - يعنى كتاب المحاضرات - جمعته له بعد ذلك، ولأجله أنعت نفسى. فقال لى: يا أبا حيان، من أين؟ قلت:

إذا شئت أن تغلى فزّر منواتراً وإن شئت أن تزداد حباً فزّر غيباً

وهذا لملال ظهر لى منه، وقليل إعراض على فى يوم. فقال لى: ما هذا البيت إلا بيت جيد يعرفه الخاص والعام. وهو موافق لما بذكر من أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: زرعاً تزود حباً. فلو كان لهذا البيت أخوات كان أحسن من أن يكون فرداً. قلت: فله أخوات. قال: فأشندنى. قلت لا أحفظها، قال: فأخرجها، قلت: لا أهندي إليها. قال: فاطلبها لأقدم رسلك. قلت فقدّمه الآن على شريطة أنه إذا جاء الوقت المعتاد إطلاقه فيه كل سنة أطلقت أيضاً. قال: أفعل. قلت: فحذها الآن. سمعت العروضى أبا محمد يقول: دخل بعض الشعراء على عيسى بن موسى الرافقى وبين يديه جارية يقال لها خلوب فقال لها اترجى عليه، فقالت:

إذا شئت أن تغلى فزّر منواتراً وإن شئت أن تزداد حباً فزّر غيباً

أجزء بأبيات تلين به فأنشد:

يقسميت بلا قلب قسميتى هائم	فسهل من معير بها خلوب لكم قلما؟
حلقت برت البسيت أنك منبىنى	فكونى لمعنى ما نظرت لها نعبا
عسى الله يوماً أن يرنيك خالياً	فيسرداد لحطى من محاسنكم عجباً
إذا شئت أن تغلى فزّر منواتراً	وإن شئت أن تزداد حباً فزّر غيباً

- فأنتزلى ما وعد، ووفى بما شرط، وكان ينق عليه سوق العلم مع جنون كان يعتريه، ويتخطى في أكثر أوقاته فيه. (ياقوت: معجم الأدياء ١٥/١٤، ١٥).
- ٣٢ - أحمد أمين: مقدمة البصائر والذخائر، (لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة ١٩٥٣) صفحة ٥٠.
- ٣٤ - أحمد الحوفي: أبو حيان، ص ٢٤.
- ٣٥ - التوحيدى: الإمتاع والمؤانسة، نشره أحمد أمين وأحمد الزين مكتبة الحياة - بيروت، دون تاريخ، ١٨٣/٢.
- ٣٦ - المرجع السابق، ٢/١.
- ٣٧ - المرجع السابق، ٣/٢٣٠.
- ٣٨ - يوسف زيدان: الطريق الصوفي، دار الجيل - بيروت - ١٩٩١، ص ٤٣ وما بعدها.
- ٣٩ - هو الشيخ الإمام القدوة المحدث، شيخ الصوفية، أبو محمد جعفر بن محمد البغدادي، كان يسكن محلة الخلد؛ توفي في رمضان سنة ٣٤٨ وله من العمر خمس وتسعون سنة (الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٥/٥٥٨) انظر ترجمته في: طبقات الصوفية: ٤٣٤ - ٤٣٩، حلية الأولياء: ١٠/٣٨١، تاريخ بغداد: ٧/٢٢٦ - ٢٣١ - الرسالة القشيرية: ٢٨، الأنساب: ١٦١/٥ - ١٦٢، المنتظم: ٣٩١/٦، معجم البلدان: ٢/٣٨٢، المعبر: ٢/٢٧٩، مرآة الجنان: ٢/٣٤٢، البداية والنهاية: ١١/٢٣٤، طبقات الأولياء: ١٧٠ - ١٧٤، غاية النهاية: ١٩٧/١ - ١٩٨، النجوم الزاهرة: ٣/٣٢٢، شذرات الذهب: ٢/٣٧٨.
- ٤٠ - السلمي: طبقات الصوفية، تحقيق نور الدين شريه، مكتبة الخانجي - القاهرة، ص ٤٩.
- ٤١ - المرجع السابق، ص ٤٣٨.
- ٤٢ - التوحيدى: الإمتاع والمؤانسة، ٩٧/٣.
- ٤٣ - التوحيدى: المقابسات، تحقيق حسن السندوي، المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة ١٩٢٩، ص ٣٢٧.
- ٤٤ - التوحيدى: البصائر والذخائر، نشره أحمد أمين وأحمد صقر، لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة ١٩٥٣، ص ١٤٨.
- ٤٥ - توجد نسخة خطية من جلاء أخطاظر بالمكتبة العامة لجامعة القاهرة، وتوجد نسخة خطية من السبعيات بالمكتبة العامة لجامعة الإسكندرية.
- ٤٦ - الإشارات الإلهية والأنفاس الروحانية، ص ٢٢٦، ص ٤٥٥.
- ٤٧ - الجبلاني: الديوان، تحقيق يوسف زيدان، مؤسسة أخبار اليوم - القاهرة ١٩٩٠، ص ٢١٦. وفي كتاب الإشارات ما لا حصر له من الأقوال الحاضرة على ترك الدنيا ومتاعها!.
- ٤٨ - الإشارات الإلهية، ص ١٢ - وانظر أيضاً على سبيل المثال صفحات ٥٧، ٥٣، ٣٠، إلخ.
- ٤٩ - التوحيدى: البصائر والذخائر، ص ١٤٨.
- ٥٠ - الإشارات الإلهية، ص ٣.
- ٥١ - السابق، ص ١٨٩.
- ٥٢ - نفسه، ص ٧١.
- ٥٣ - نفسه، ص ٤٣.
- ٥٤ - نفسه، ص ٣٠٨.
- ٥٥ - نفسه، ص ١١٥.
- ٥٦ - نفسه، ص ١١٧.
- ٥٧ - نفسه، ص ١٢٥.
- ٥٨ - عبد الرحمن بدوي: مقدمة الإشارات، صفحة ٥٥، وما بعدها.
- ٥٩ - المرجع السابق،: صفحة ٥٦.
- ٦٠ - عبد الرزاق محيي الدين: أبو حيان، ص ١٦٧.
- ٦١ - إبراهيم الكيلاني: أبو حيان، ص ٥٨.
- ٦٢ - علي عبدالمعطي: المدخل إلى الفلسفة، دار المعرفة الجامعية - الطبعة الثانية ١٩٩٣.
- ٦٣ - ياقوت الحموي: معجم الأدياء ١٥/٥١.
- ٦٤ - عبدالأمر الأعسم: أبو حيان، ص ٣٣.
- ٦٥ - انتشرت الوجودية انتشاراً واسعاً في منتصف القرن العشرين، وهي فلسفة حمل لواءها سارتر وألبير كامى وعبدالرحمن بدوي نفسه. وتنطلق هذه الفلسفة من الوجود الإنساني الملتصق وتعالج موضوعات الحرية والقلق والاعتراب وما إلى ذلك.
- ٦٦ - الرواية فلسفة يونانية متأخرة حمل لواءها زينون، وهي تقوم على الزهد الكامل سعياً وراء حالة الاطمئنان النفسى الكاملة (الأبيقيا).
- ٦٧ - ركيزا إبراهيم: أبو حيان، ص ٧.
- ٦٨ - عبدالأمر الأعسم: أبو حيان، ص ٧١.
- ٦٩ - سحان حليقات: مقالة يحيى بن عدى الفلسفية، منشورات الجامعة الأردنية - عمان - ١٩٨٨، ص ٥٢.
- ٧٠ - المرجع السابق: ص ٥١.
- ٧١ - التوحيدى: المقابسات، ص ١٥٦.
- ٧٢ - أحمد أمين: مقدمة الإمتاع والمؤانسة، صفحة ل.
- ٧٣ - التوحيدى: الإمتاع والمؤانسة، ١٣٦/١.

٧٤ - انظر، أبو حيان، لأحمد الحوفي، ص ٢٠٦.

٧٥ - أحمد أمين: مقدمة الإمتاع، صفحة ف.

٧٦ - التوحيدى: الإمتاع والمؤانسة، ١٠٨/١.

٧٧ - يقول التوحيدى إنه سمع ماجرى بين أبى سعيد وأبى بشر من على بن عيسى الرمانى وكتبه بإملائه. يقول التوحيدى: وكان أبو سعيد قد روى لمأ من هذه القصة (الإمتاع والمؤانسة ١٢٨/١).

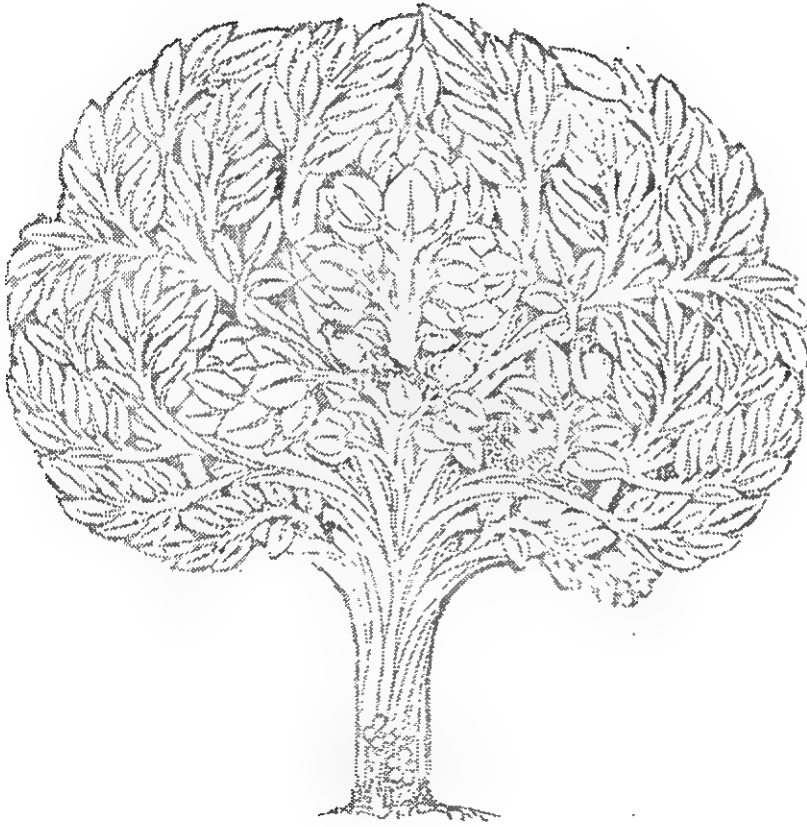
٧٨ - التوحيدى: الإمتاع والمؤانسة، ١٠٩/١، وما بعدها.

٧٩ - الصابئة، جماعة مدينة كانت تعد الكواكب النجمة، وكان أبو بشر منهم.

٨٠ - التوحيدى: الذخائر والبصائر، ص ١٩٩.

٨١ - المرجع السابق، ص ٢٠٥.

٨٢ - المرجع السابق، ص ٢٤٧.



الاهتمام بالجمال عند التوحيدى

محمد نور الدين أفاية*

أشكال إدراك الإنسان العربى المسلم للعالم. أما المستوى الأول، فلا أحد يجادل فى الفنية الشرقية والرفيعة للإبداع العربى الإسلامى، فى حين أن مبحث الجمال - من حيث هو حقل للنظر والتأمل - لم يستقطب اهتمام التراث الكلامى، الفلسفى والصوفى الإسلامى بالشكل الذى يوفر له شروط إنتاج نظرية جمالية منسجمة. قد نجد آراء فى الجمال أو كتابات عن بعض الصناعات والمهارات الفنية، كالشعر والموسيقى، ولكن أن نعرش على نظرية فى الجمال، فذلك ما يصعب الدفاع عنه.

ومهما يكن، فإن انشغالنا بموضوعات الفن والجمال فى التراث العربى الإسلامى، ونوع حضور الاهتمام الجمالى عند أبى حيان التوحيدى، يحكمه سؤال يبدو صعب المعالجة، على أكثر من صعيد. وهو سؤال قابل لأن نصوغه بأكثر من طريقة. هل توفر لنا الثقافة العربية الإسلامية الكلاسيكية إمكان إقامة جماليات محددة الأسس، معينة المفاهيم تكثف

تعددت الكتابات التى تتناول الفن والجمال العربى الإسلامى، واختلفت منطلقات أصحابها ومناهجهم ومقاصدهم. فمنهم من يرى أن الفن الإسلامى لا يستمد قيمته من كونه فناً قائماً بذاته بقدر ما هو فن «إسلامى»؛ أى فن دينى فى خدمة رسالة دينية يشاطر ضمن قواعدها ويكتسب شرعية جماليته من رموزها وآياتها. وهناك من يعتبر أن ما ينعت بـ «الفن الإسلامى» لا يمدو أن يكون أعمالاً تزيينية تؤثث بعض فضاءات المسلمين، وتضفى عليها بهاء جاذباً يستحضر من خلاله علامات المتخيل العربى الإسلامى. ونجد صنفاً آخر من الباحثين ينطلق، فى تناوله هذا المجال، من ضرورة التمييز بين مستويين للنظر؛ الأول، هو اعتبار الفن الإسلامى إبداعاً إنسانياً لأشياء جميلة. والثانى، يتمثل فى تناوله من زاوية فلسفة الجمال؛ أى باعتباره شكلاً من

* كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الدار البيضاء، المغرب.

الحيرة العربية الإسلامية، وأنماط التذوق المتراكمة عبر الزمن والتماثل واختلاف صيغ الأحكام؟ هل هناك إمكان للتقاط عناصر خطاب جمالي يحتضن مقومات متخيل استقرت في ثناياه رموز هاجرت من أكثر من حضارة ومن فضاء ثقافي، لتجد تعبيرها البليغ في النسق الدلالي والرمزي للغة العربية؟

يعتبر البعض أنه :

«إذا ميزنا في فلسفة الجمال، كوجه من وجوه العالم أو كوجه من وجوه إدراك الإنسان للعالم، وبين الفن كإبداع إنساني لأشياء جميلة، ونظرنا إلى التراث الفلسفي العربي: في ضوء هذا التمييز، فإننا نجد أن مبحث الجمال لم يستأثر باهتمام الفلاسفة العرب بقدر ما استأثر به مبحث الفن. لقد كتب هؤلاء الفلاسفة في نظريات بعض الفنون، كالشعر والموسيقى، أشياء كثيرة، أضافوا فيها إلى نظرية المحاكاة إضافات مهمة، إلا أنهم لم ينصرفوا إلى نظرية الجمال على العموم. فظل مبحث الجمال شديد الانكماش في مجمل التراث الفلسفي العربي».

وهذا الانكماش تولد عنه :

«ضمور اهتمام الفلاسفة العرب بنظرية الجمال»^(١١).

وبالمقابل، يمكن للمطلع على تاريخ الفن الإنساني أن يرى، على العكس من ذلك، أن الفن الإسلامي، بحكم اعتدائه برؤيا فلسفية وجمالية تشمل الإنسان والكون، لا بد وأنه حامل لعناصر نظرية في الجمال. فالفن الذي استطاع الجمع بين طرفي «الغيب والوجود، السماء والأرض، الرب والعبد، الروح والجسد، التجريد والحس»^(١٢)، هذا الفن، المختزن لكل هذه الأبعاد، لا يمكن حصره في مهارات أدائية أو قدرة عملية على الفعل الإبداعي بقدر ما هو «ترجمة فنية لرؤيا شاملة». فعندما «ندرك أن كل ظاهر هو زائل، ندرك لماذا لم يرسم الفنان المسلم الشجرة والنهر والوجه الإنساني»^(١٣). ولم يصور الفنان المسلم هذه الموجودات لأن الدين حرم التصوير، كما ذهب إلى ذلك عدد غير قليل من الباحثين ولا سيما المستشرقين منهم، بل لأن الفنان لم يهتم بضرورة

إعادة إنتاج الطبيعة أو الإنسان اعتماداً على أسلوب «المحاكاة» كما تم التعبير عنه في الفن اليوناني ومن سار على مواله. فالمشكلة ليست «محصورة بالدين، وبتحريماته، بل هي محصورة في النظرة إلى الفن وفي أهداف وغايات الفن»^(١٤).

فمن يتطلع إلى مقارنة هذا الفن وما يفترضه من إمكانات النظر الجمالي، وهو مقيد بمقولات التراث الفلسفي والجمالي الغربي سيسقط، لا محالة، في مشاهات وأحكام تبعده عن اكتناه حقائق الفن الإسلامي ومقاصده. فإذا كان الفهم الحديث للفن ينطلق من اعتباره تجلياً رمزياً وجماليًا للإنسان واجتماع في صراعاته وتوتراته، أو حقلاً إبداعياً يصف الطبيعة والإنسان في نموده وأحلامه... إلخ؛ إذا كان الأمر كذلك بالنسبة إلى الثقافة الغربية الحديثة، فإن الفن الإسلامي، على العكس من ذلك، فن لا يصف ولا يخبر، ولا يحرض، ولا يصارع ولا يعبر؛ فهو فن الشهادة لا فن التعبير، لا يطرح الأسئلة ولا يتساءل، فهو فن الجواب لا فن السؤال.. فهو فن المبدأ لا فن الذاتية. إنه فن يتجاوز «أنا» الفرد و«أنا» الفنان ليقيم الحق، «ليقيم الله كنقطة في وسط دائرة الكون والغيب. منه الانطلاق، وحوله الطواف واليه الرجوع»^(١٥).

لعل هذا القول يحشرنا نواً، في قلب الميتافيزيقا، فلا مجال، على ما يبدو، من تناول أسئلة الإبداع الفني وبعض عناصر النظر الجمالي إلا ضمن دائرة تلقى الاعتبارات والأبعاد الميتافيزيقية. كيف يمكن أن يقوم نظر جمالي في إبداع فني تحتجب فيه الأنا وتمحى؟

من المعلوم أن الذاتية مسألة حاسمة في الفكر الغربي الحديث، وفي نشأة ما يسمى بالجماليات أو «الاستيقا»^(١٦). فالأنا هي الدائرة المركزية للإبداع، وباستقلال الذات المبدعة عن مختلف أشكال السلطة، اتجه الفن نحو استقلالية أكبر في الكينونة والحضور، في حين أن «أنا» الفنان ضمن الأسس المبدئية للفن الإسلامي محتجة مد البداية. والسؤال المتلبس الذي تفترضه هذه الحالة المتفردة هو التالي. كيف يمكن أن تكبر «أنا» الفنان لتصير كلاً؟ وكيف كانت نفى عن ذاتها لتبقى في الكل؟ وكيف يمكن أن تتساوى وتمثل نقطة مركز الدائرة مع نقاط محيط هذه الدائرة؟

العربی، فإن ذلك لا یعفينا من استحضار نصوص من اشغل بأسئلة الجمال فی هذا الفكر، ومن بينهم أبو حیان التوحیدی. ویبدو لنا أنه لا حدیث عن جمالیات عربية، کیفما كانت ادعاءاته ومنطلقاته، دون استعادة ما زخر به تاریخ الفكر الفلسفی الإسلامی من اهتمام بالجمال.

الوجود، الذات والمعرفة عند التوحیدی

كل اقتراب من اهتمام التوحیدی بالجمال يفترض النظر إليه ضمن التصور الخاص الذى صاغه عن الوجود والمعرفة والإنسان. فنصوصه الحاملة لهذا الاهتمام ولذاک التصور تبدو أنها تركبت فی ثنائها من مصدرین فکریین اثنين: الفكر الفلسفی اليونانى كما مثلته الفلسفة الماقبل - سقراطية، ثم سقراط، أفلاطون وأرسطو. وهو فی جل كتاباته لا یکف عن الإحالة إلى هذه الأسماء. من ناحية ثانية، لا یصدر التوحیدی، فی أغلب نصوصه، عن ذاته بقدر ما يستحضر، وبطريقته البلاغیة المتفردة، كل ما تمکن من التقاطه واستيعابه من الأسانذة الذین سبقوه وعلى رأسهم أبو سليمان السجستانی. فأساليب السماع والمحاورة والإسناد المتسرى جعلته یکشف فی نصوصه كل التركة الفکریة والفلسفیة التى ورثها عن الکندى والجاحظ والفارابى وابن سینا وإخوان الصفا، والآمدى والجرجانى والسجستانی ومسکویه... إلخ، فجمعه بین الأدب والفلسفة جعل منه «فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة».

یرى التوحیدی أن معرفة الوجود نفترض البدء بمعرفة الإنسان لذاته، لأن معرفة الذات تسعف على معرفة العالم وأشياء الوجود المختلفة. وإذا لم ينطلق المرء من هذه الحقيقة، فإنه یبقى سجين وضع أقرب إلى المستوى الحيوانى. بقول:

«زعمت الحكماء على ما أوجبه آراؤها ودياناتها أن من الوحي القديم النازل من الله قوله للإنسان: «اعرف نفسك فإن عرفتتها عرفت الأشياء كلها»، وهذا قول لا شيء أقصر منه لفظاً، ولا أطول منه فائدة ومعنى. وأول ما يلوح منه الزرابة على من جهل نفسه ولم یعرفها. وأخلق به إذا جهلها أن يكون لما سواها أجهل،

إن الفن الإسلامی فی ارتباطه العمیق بالإسلام، من حيث هو نسق دینی، یوفر إمكان توليد رؤیا، وأشکالا، ولا یتج مواضع بالضرورة. ليس لأن الإسلام یحرم التصوير، بل لأنه یدرج الفعل الفنى ضمن تصور عام للكون والوجود. من المعلوم أن الفن الأوروبى الحديث ألقى، هو بذوره، الموضوع فی سياق تطوره الخاص، فأجاز للعمل الفنى أن یتعد عن موضوع أفعال الإنسان ومظاهر الطبيعة جاعلا من الشكل الفنى مضموناً بحد ذاته. إلا أن النهج الأكثر اقتراباً لفهم غياب الموضوع فی الفن الإسلامی یتحمل فی الوعى بحقیقة العلاقة بین الفن والدين بوصفهما مجالین متجين للروحى والمتسمالى، وليس فى إرجاع ذلك إلى اعتبارات ظرفیة أو شروط اجتماعیة وسیاسیة تحکمت فی مسار هذا الفن، كما هو الشأن بالنسبة إلى الفن الغربى.

لتجلیات الوجود، من طبیعة وإنسان، فی الفن الإسلامی، وجود اعتبارى. وهذه خاصیة فی غاية الأهمية. لذلك، فإن تجنب المحاكاة أو تغميب الموضوع أو انعدام التجسيم أو غياب التمثيل، يرجع إلى القاعدة القائلة بعرضیة الظاهر، وبوهميته وبالتالي بزواله. فی الفن الإسلامی لا نعثر على مظاهر الصراع بین الإنسان والعالم، أو بین الإنسان والإنسان، بل هناك تماثل واتحاد؛ لأن الأمر لا یتعلق بفن یروى وإنما بفن یشهد.

نحن، إذن، أمام أطروحتین اثنتين: واحدة تنفى إمكان العثور على نظر جمالى وصیابة فکریة للذوق والحساسة الفنیة التى أنتجتها الخیلة العربیة الإسلامیة فی أكثر لحظات الحضارة الإسلامیة إشراقاً، وذلك بسبب «انكماش مبحث الجمال» و «ضمور اهتمام الفلاسفة العرب بنظرية الجمال»، أو بسبب استحالة التفكير فی الجمال دون تكمیس دائرة الميتافیزيقا وخلخللة البنية اللاهوتیة التى یتكى عليها التراث العربی الإسلامی، والأطروحة الثانية تسلم بغنى التراكم الفنى الإسلامی. وتؤكد تنوع مصادره. ولأنه كذلك، فإنه، لاشك یوفر أكثر ما یلزم من العناصر لتشکیل رؤية جمالیة ذات عمق فلسفی أصیل.

وسواء قلنا بانكماش مبحث الجمال فی التراث الفلسفی العربی الإسلامی أو بوجود رؤیا فلسفیة أكيدة للجمال

الحية، وبها يتمكن من تعرف ذاته وإدارة قواه المختلفة بحكمة وتوازن. الوعي بالذات، عند التوحيدي، هو قاعدة الحرية وأساس الاختيار.

يميز التوحيدي بين النفس والروح. ويرى أن الروح متصلة بالبدن. فمن يمتلك روحاً لا يمتلك نفساً بالضرورة، ولكن كل ذي نفس له روح. لذلك :

«لم يكن الإنسان إنساناً بالروح بل بالنفس، ولو كان إنساناً بالروح لم يكن بينه وبين الحمار فرق، بأن كان له روح ولكن لا نفس له. فأما النفس الأخرى اللتان هما الشهوة والغضب، فإنهما أشد اتصالاً بالروح منهما بالنفس، وإن كانت النفس الناطقة تدبرهما، وتصدهما، وتأمرهما، وتنهاهما»^(١٠).

والنفس، عنده، تحوز من القوة ما يسعها على التعالي عن المكان والزمان، كي يلتحق بالعالمة الأولى. فالنفس :

«علامة بالذات، دراية للأمور بلا زمان، وذلك أنها فوق الطبيعة... فمتى لم تعقها عوائق الهولي والهيوليات، وحجب الحس والمحسوسات، أدركت الأمور وتجلت لها بلا زمان»^(١١).

إن الكائن الإنساني نتاج تركيب من نفس وجسد والنفس أعلى وأشرف بحكم كونها مصدر المعرفة والإرادة والتمييز والفضيلة. أما الجسد، فإنه أحسن جزء في هذا التركيب، لأنه مكون من عناصر متنافرة. ومع ذلك، لا بد من استدعاء القوتين الأخرين. فهناك :

«ضرورة إلى الشهوة لاجتذاب المطاعم التي بها قوام البدن، والارتكاب من لظى المناكح التي بها بقاء النسل، وضرورة أخرى إلى الغضب لدفع الظلم وإباء الضيم، والأنفة من العار، والذب عن الحریم، إلا أنه يجب أن تكون هاتان النفسان تحت طاعة النفس الناطقة وسلطانها»^(١٢).

على الإنسان، إذن، أن يتعالى على مغريات الجسد ويتسامى إلى مستوى النفس الناطقة لإدراك فضائلها :

وعن المعرفة به أبعد فيصير حينئذ بمنزلة البهائم بل أرى أنه أسوأ منها وأشد انحطاطاً»^(٧).

معرفة الوجود تشترط، في تصور التوحيدي، معرفة الذات. فالإنسان حين يعرف العالم من خلال ذاته يستبعد استنساخ نظرة الآخرين للعالم. والتوحيدي بالرغم من تبليغه بأهمية الآخر في الذات، فإنه يلج على أن يشكل الإنسان معرفة ذاتية متميزة عن العالم. فحين يدرك المرء ذاته يغدو حائزاً على إمكان فهم الذات الكلية بحكم التشابه الموجود والتفاعل الضروري الحاصل بينهما:

«إن نفسك هي إحدى الأنفس الجزئية من النفس الكلية، لا هي عينها، ولا منفصلة عنها، كما أن جسدك جزء من جسد العالم لا هو كله ولا منفصل عنه»^(٨).

وعى الذات بذاتها أساس معرفة الآخر. ومعرفة العالم تؤدي، ضرورة، إلى معرفة مصدر الخلق. لذلك، فإنه من :

«أخلاق النفس الناطقة - إذا صفت - البحث عن الإنسان ثم عن العالم، لأنه إذا عرف الإنسان فقد عرف العالم الصغير، وإذا عرف العالم فقد عرف الإنسان الكبير، وإذا عرف العالمين عرف الإله الذي بوجوده وجد ما وجد، وبقدرته ثبت ما ثبت وبحكمته ترتب ما ترتب»^(٩).

إن الإنسان، في نظر التوحيدي، يتشكل من قوى ثلاث، هي النفس الناطقة (العقل)، النفس الشهوة (اللذة) والنفس الغضبية (الانفعال). النفس الأولى تتقدم على الثانية والثالثة بحكم كونها مصدر الإدراك والتمييز والإرادة، وبواسطتها يتمكن الفرد من التفريق بين ما هو حق وما هو باطل، بين الحسن والقبيح. غير أن إعطاء الأولوية للنفس الناطقة لا يعنى الانتقاص من أهمية دور النفس الشهوة والغضبية. كل ما في الأمر، هو أن الإنسان يتعين عليه خلق ما يلزم من التوازن بين هذه القوى حتى لا تتجرف اللذة لإغراءات الحس والشهوات، أو يطغى الانفعال فيحصل الظلم والعدوان. فالنفس الناطقة هي ما يتميز به الإنسان عن باقي الكائنات

تأكيد التعالی لا لتقاط أشياء عالم المثل، عند التوحیدی، لا یعنی إهماله الحس والجسد. فللحس ولذذة أهميتهما، شريطة الاعتدال وعدم تجاوز الحدود التي من شأنها خلخلة التوازن الذي تحكمه النفس الناطقة.

الاهتمام بالجمال عند التوحیدی :

في (كتاب السياسة المدنية) يحدد الفارابی تصوره الجمال على الشكل التالي :

«والجمال والبهاء والزينة في كل موجود هو أن يوجد وجوده الأفضل: ويبلغ استكماله الأخير. وإذا كان الأول وجوده أفضل الوجود، فجماله إذن فائت لجمال كل ذي جمال. وكذلك زينته وبهاؤه. وجماله له بجوهره وذاته، وذلك في نفسه وبما يعقله من ذاته» (١٧).

الواضح من هذا النص أن الفارابی غير مهتم بضرورة التمييز بين الجمال والبهاء والزينة. كأن الأمر عنده يتعلق بشئ واحد. فالجمال، هنا، ليس الجمال بالذات، بل الجمال الحاضر أى كل موجود. أى أن كل موجود يحوز جماله الخاص المطابق لوجوده الخاص. إلا أنه لن يتحقق جمال أى موجود إلا بتحقيق الوجود الأفضل للموجود ووصوله إلى استكماله الأخير. ومن ثم، فإن الجمال الذاتي لكل موجود لا يرقى إلى مستوى الجمال الحقيقي إلا في الوقت الذي يبلغ فيه كماله الأخير. أما الوجود الأول، فبحكم أن وجوده يعد أفضل الوجود فإنه لا يفتقر إلى شكل من أشكال الاستكمال. فجماله يتعالى على جمال كل موجود آخر. وبما أن الوجود الأول، في جوهره، عقل محض، ولا فارق فيه بين العاقل والمعقول، فالجمال فيه — أى في الوجود الأول — هو تعبير آخر عن كمال وجوده.

انطلاقاً من هذا التحديد للموجود الأول ولجماله، يميز الفارابی بعد ذلك ما بين الجمال الإلهي والجمال الإنساني. إلا أن الموجود الإنساني لن يبلغ الكمال، أو في تطلعه إليه، إلا بالنظر إلى مساقه الاجتماعي من حيث هو إنسان يدخل في علاقة تبادلية مع الآخر. يقول الفارابی بأن كل واحد من:

«الناس مفطور على أنه محتاج في قوامه وفي أن يبلغ أفضل كمالاته، إلى أشياء كثيرة لا يمكنه

«ليرتقى بها إلى درجات الإلهيين ويُقَلَّ العناية بها يعوق عنها... وصرف باقي الزمان بالهمة إلى تلك الفضائل التي هي السعادة» (١٣).

تبدو النزعة الصوفية غالبية على نظر التوحیدی للنفس الناطقة والنفس الشهوية. بل إن تصوره للعالم وللوجود يغطي عليه تأثير أفلاطوني لافت. يقول :

«إن الأمور الموجودة على ضربين: ضرب له الوجود الحق، وضرب له الوجود، ولكن ليس الوجود الحق. فالأمور الموجودة قد أعطت الباقية نسباً من جهة الوجود، وارتجعت منها حقيقة ذلك. فالحاكم بالاعتبار، الفاحص عن هذه الأسرار، إن أصاب فبنسبة الوجود الذي لهذا العالم السفلى إلى ذلك العالم العلوي، وإن أخطأ فيما فات هذا العالم السفلى من النسبة إلى ذلك العالم العلوي» (١٤).

ويضيف معتبراً أن :

«هذا العالم السفلى مع تبدله في كل حال، واستحالاته في كل طرف ولح، مستقبل لذلك العالم العلوي، شوقاً إلى كماله، وعشقاً لجماله، وطلباً للتشبه به، وتحققاً بكل ما أمكن من شكله، فهو بحق التقبل يعطى هذا العالم السفلى ما يكون به مشاكها للعالم العلوي» (١٥).

وجود العالم الأرضي، إذن، في نظر التوحیدی، وجود :

«متهافت، مستحيل، لا صورة له ثابتة، ولا شكل دائم، ولا هيئة معروفة، فكان بهذا فقيراً إلى ما يصده ويشده» (١٦).

العالم العلوي عالم مؤثر والعالم السفلى عالم قابل. ولمعرفة هذه الحقيقة لابد من الانطلاق بمعرفة الذات لإدراك الوجود في تمايزه وحقيقته، والوصول بالتالي إلى مصدر الموجودات وخالقها. فالعالم، عند التوحیدی، فيضى إلهي، متى ما تأملت هذا العالم وتعاليت عن المعرفة الجزئية، وتحررت من عوائق الحس وارتقيت إلى المعنى، تمكن العقل من استلهام نور العلة الأولى. فسمو النفس الإنسانية يستمد من سمو الله. فجمالها من جماله.

أن يقوم بها كلها هو وحده... فلذلك لا يمكن أن يكون الإنسان ينال الكمال، الذى لأجله جعلت له الفطرة الطبيعية، إلا باجتماعات جماعة كثيرة متعاونين» (١٨).

وهكذا :

«يرتبط بلوغ الإنسان الوجود الأفضل والكمال الأخير، أى جماله وبهاؤه، بحركة استكمال المعرفة العقلية عبر التاريخ، ويكون جمال كل موجود إنسانى مشروطا ليس فقط بمرتبه فى نظام القوى والملكات النفسانية فى المجتمع، بل بالمرحلة التاريخية التى تحتازها البشرية فى سعيها إلى الخروج من العقل بالقوة إلى العقل بالفعل» (١٩).

ابن سينا لا يختلف، من حيث الجوهر، عن الفارابى فى تصويره الوجود والموجود والجمال، ولكن ما يرتبط بهذا المفهوم من لذة وإدراك وعشق... إلخ، إلا فى الصياغة اللغوية.

أما التوحيدى، المتأثر أيمًا تأثر بالفلسفة اليونانية، وبمن فكر فى قضاياها من داخل اللغة العربية، فيعتبر أن الله، باعتباره وجوداً مطلقاً، يجسد المثل الأعلى فى الجمال، وأن كل الكائنات والأشياء الأخرى تستلهم زينتها وبهاءها منه. فالوجود الإلهى وصفاته وأفعاله، هى :

«من الحسن فى غاية لا يجوز أن يكون فيها وفى درجتها شئ من المستحسّنات، لأنها هى سبب حسن كل حسن، وهى التى تفيض بالحسن على غيرها؛ إذ كانت معدنه ومبدأه، وإنما نالت الأشياء كلها الحسن والجمال والبهاء منها وبها» (٢٠).

فأله هو مثال الجمال وهو أصل الجمال الأرضى. إلا أن الجمال الإلهى لا يندرج ضمن منطق الكون والفساد؛ فهو خارج إطار المكان والزمان والتغير. ولأنه مصدر جمال الأشياء، فإن هذه الأشياء تنطلق شوقاً إلى كماله:

«إن هذا العالم السفلى، مع تبدله فى كل حال، واستحالته فى كل طرف ولمح، متقبل لذلك العالم العلوى، شوقاً إلى كماله، وعشقا لجماله، وطلباً للتشبه به، وتحققاً بكل ما أمكن من شكله» (٢١).

للعالم الأرضى وجود «متهافت، مستحيل، لا صورة له ثابتة، ولا شكل دائم». لذلك فإن الإنسان:

«مضطروب بالظن والحدس، ومصنوع بالعقل والحس، ومردد بين النقص والزيادة، ومعرض فى كل وقت للشقاء والسعادة، لا فكاك له من جميع ذلك، مادام فى مسه الطبيعى، ولبسه البشرى، وشكله الفلكى، وطينه العنصرى، وعقله الجزئى، وجهله الكلى، اللهم أن يليه الله تعالى لباس الرحمة، ويغشيه غشاء العصمة، فحينذاك إن قال قال الصواب، وإن فعل فعل الواجب، وإن اعتقد اعتقد الحق، وإن هم هم بالخير، وإن نوى نوى الجميل، وإن حث حث على الصلاح» (٢٢).

وعلى الرغم من تأثر التوحيدى الواضح بالتصور الأفلاطونى للعالم، فإنه بحكم حضور عامل الدين فى ثقافته العميقة، يرى أن جمالية الموجودات آتية من جمال الوجود الإلهى، والتطلع إلى هذا الجمال يفترض الافتراق عن عوائق الحس والاهتداء إلى مرجعية الجمال المثالى عن طريق العقل. وأى تشوش يحصل فى معرفة الجمال بالعقل يكون مصدره الحس. فلا مجال للخلط بين المستويين. هناك جمال مثالى متعال يعرف بالعقل، وهناك، بالمقابل، جمال مادى يدرك بالحس. الجمال الأول مطلق ثابت. أما الثانى، فإنه خاضع لتبدل الأحوال. العقل وحده يمكن الاعتماد عليه لاكتناه حقيقة الجمال. أما الحس، فإنه يكفى بوضعية «قبول صور المحسوسات دون حواملها» (٢٣). ومن ثم، يشوش على عمل العقل فى تطلعه إلى معرفة الوجود المطلق والجمال المثالى.

اهتمام التوحيدى بالجمال لا يقتصر على بعده الميتافيزيقى أو على تعبيره الحسى المتبدل. لأنه يلح على إعطائه أبعاداً تفعية تخلق بعض فرص السعادة للإنسان.

من هنا، تأتى دعوته إلى العشق. العشق باعتباره انفصالاً عن الذات للارتقاء فى الآخر، فهو عنده «تشوق إلى كمال ما بحركة دالة على صبوة ذى شكل إلى شكله»^(٢٥). العشق هو تلك الحالة التى ينفصل فيها الإنسان عن ذاته للالتحاق بكمال مصدر الخلق، بهدف خلق توازن وجودى ونفسى بين كمال النفس والكمال الذى يجسده الجمال المطلق. العشق دعوة إلى التلذذ بالجميل، إلى انتزاع الذات من إيقاعها الرتيب والدفع بها إلى الاتحاد بالمعشوق. العشق تعال وانجذاب نحو الجميل. أما الشهوة، فهى «تشوق على طريق الانفعال إلى استرداد ما ينقص مما فى البدن»^(٢٦)، بل إن التوحيدى لا يتردد فى التحريض على ممارسة العشق والحث عليه. يقول:

«اعشقوا وإياكم والخرام، فإن العشق يطلق لسان العى، ويفتح جبلة البليد، ويسخى قلب البخيل، ويسعث على التنظف، وتحسين الملبوس، وتطيب المطعم، ويدعو إلى الحركة والذكاء وشرف الهمة»^(٢٧).

للجمال، وما يفترضه من عشق وتشوق، أبعاد تطهيرية، تفجر فى الذات مكبوتاتها وتحرر مخزوناتا لتعطيها معنى فى الوجود، يوفر لها إمكان إدراك الأشياء جمالياً، واستيعاب تفاصيل العالم بطريقة تحشها على الفعل والحركة. بل إن التوحيدى، على الرغم من مفهومه غير المتحمس للشهوة، فإنه فى تعريفه للرغبة لا يتردد فى اعتبارها «حركة تكون من شهوة يرحى بها منفعة»^(٢٨)، إلا أن هذا الميل الواضح نحو العشق بوصفه عملية انفصال للذات عن ذاتها، للالتحاق بالجمال والمثال، فإنه يحذر من تجاوزات هذا الانفصال إذا ما طغى العشق على النفس وشوش على عمل العقل. ففى هذه الحالة يمكن للمحبة أن «تغنى المساوى»، وتظهر المحاسن إن كانت موجودة وتدعيها إن كانت معدومة»^(٢٩). العشق مجال مغر، لكن لابد من ضبط جموحه والتمييز ما بين الحسن والقبيح خصوصاً أن منابع: «الحسن والقبيح كثيرة منها طبيعى، ومنها اجتماعى ومنها دينى ومنها فلسفى ومنها غريزى»^(٣٠).

ويظهر أن التوحيدى، وإن اهتم بشكل ملحوظ بالعشق ويدوره فى التلذذ بالجمال، فإنه، ولا اعتبارات وجودية، ذاتية

فالجمال والقبح مرتبطان بأفعال الإنسان الخيرة منها والشريرة؛ إذ الفعل الذى يروم هدفاً خيراً يكون جميلاً، أما إذا استهدف غاية شريرة فهو قبيح. صفة الجمال لا تنسب إلى الأشياء، فى نظر التوحيدى، إلا بقدر ما توفره من خير، وقبحها يأتى مما تقدمه من شر.

لا يكتفى التوحيدى بالنظر إلى الجمال من منظور عقل محض، وإنما يربط تصوره للجمال المادى بهاجس عملى منبعث من داخل عقل عملى ظاهر التأثير بمذهب الاعتزال. وهكذا، فإن :

«اليسار والتمكن من الدنيا ليس بخير ولا شر حتى ينظر فى ماذا يستعمله صاحبه: فإن استعمل يساره وماله فى الأشياء التى هى خير فإن يساره خير، وإن استعمله فى الشر فهو شر. وكذلك كل شئ كان صالحاً للشئ ولضده فليس يطلق عليه على أنه واحد منها، بل الأولى أن يقال إنه يصلح لها جميعاً، كالآلات التى يصلح بها، ويفسد، فإن الآلات لا توصف بأنها مصلحة ولا مفسدة، ولا تسمى أيضاً بالصلاح والفساد إلا بعد أن تستعمل... هكذا يجب أن يقال فى الأمور التى تستحسن أو تستقبح فى أحوال، وبحسب عادات إنها ليست حسنة عند العقل ولا قبيحة على الإطلاق حتى يتبين واضها ومستعملها»^(٣١).

للجميل بعد نفعى واضح، فكلما كان الشئ نافعاً كان جميلاً. إلا أن التوحيدى، على الرغم من ربطه بين الجمال المادى ذى المضامين الاجتماعية، والحس العملى، فإننا نجد أميل إلى الجمال المثالى. فمنتهى الخير يتمثل عنده، فى معرفة الجمال الموضوعى المتجسد فى الله. وليس على الجمال الحسى، العابر، إلا الدخول فى عملية تشوق مستمرة سعياً وراء الالتحاق بالجمال الثابت. فمجاهدة النفس بهدف التسامى إلى الجمال الموضوعى تمنح المرء ابتهاجاً داخلياً يمكنه من خلق التوازن بين ذاته والعالم ومن نسج علاقات ذاتوية مع الآخرين.

توزعاً مستمراً بين القول بأولية الجمال المطلق وضرورة الاهتمام بالجمال المادى، أى أن نصوصه تتأرجح بين نزوعين: نزوع المفكر المتزهد، المتطلع إلى اكتناه تعبيرات الجمال بالذات، ونزوع المفكر الفنان المتفهم إنسانية الإنسان، المدرك لاقتصاد الرغبة واللذة فيه. وبين هذا وذاك حرص التوحيدى على الخروج من هذا التوزع بالقول بالاعتدال وخلق ما يلزم من التوازن للاستمتاع باللذتين معاً: اللذة الروحية واللذة الحسية، بكل ما يترتب عن ذلك من جمالية روحية وجمالية حسية. هل الأمر يتعلق بحضور عميق للفهم الإسلامى للعالم، على الرغم من تأثر التوحيدى بالفلسفة اليونانية؟ أم بنزعة توفيقية، ربما لا إرادية، بين الشقافة الإسلامية والفلسفة اليونانية؟

ومن الواضح أن التوحيدى لا يهتم بالفن والجمال فى مبحث خاص. فهو فى «رسالة العلوم» يذكر الفقه، والكتاب، والسنة، والقياس، والكلام، والنحو، واللغة، والمنطق والحساب والهندسة والبلاغة والطب والنجوم والتصف (٣٤)، كما أن مارك بيرج عندما أحصى كتابات التوحيدى وصنفها حسب العلوم والمجالات، ابتداءً بالأدب، ثم الأدب الصوفى، فالأدب السجالى، والأدب القانونى، ثم تاريخ الأدب، ليجتصم فى الأخير كتاباً واحداً لما سماه «الأدب الفنى»، وهى الرسالة التى وضعها التوحيدى حول «علم الكتابة» (٣٥).

مبحث الجمال، إذن، من حيث هو حقل قائم الذات، غير قائم فى تراث التوحيدى. هناك شذرات فى هذا النص أو ذاك، ونحات منبثة فى سياق الحديث عن مواضيع مختلفة، على الباحث استجماعها وإعادة تركيبها. لكن نتيجة ذلك يصعب على المرء معها أن يخلص إلى القول بأن التوحيدى اقترح علينا نظرية جمالية أو نظرية فى الجماليات. وإذا كانت النظرية تهتم بتجاوز الإشكال، فإنه يبدو لنا أن اهتمام التوحيدى بالجمال يقى يدور ضمن إطار الإشكال الذى طرح على أكثر من فيلسوف ومتصوف عربى إسلامى، دون القيام بصياغة نظرية لعناصره ومكوناته. غير أن وعيه الحاد بأهمية الجمال، بعمديه المطلق والمادى، وبوظائفه العملية، الحسية والاجتماعية، يسمح لنا بالقول بأن أبا حبان التوحيدى يندرج ضمن القائمة القليلة، من فلاسفتنا

اجتماعية، يعبر عن ميل واضح للمرجعية الصوفية، بكل ما تقتضى من تسام عن الزمن وتبرم من مغريات الوجود. إن الجمال الحق هو الجمال الموضوعى. وبما أن الوجود المطلق يفيض على الأشياء، فإن حقيقتها تجل للحقيقة الإلهية، والجمال بالذات هو مصدر جمال الأشياء برمتها. ومن ثم، فإن الوعى بالذات ومعرفة النفس شرط لبلوغ الجمال والخير، بحكم أن المعرفة الحقة استلهم للمعرفة الإلهية، والجمال الحقيقى فيض من الجمال الربانى. وتغدو اللذة الفعلية هى تلك التى تحصل عن مجاهدة النفس للتلاحم بمصدر الجمال والوجود والخير. والتوحيدى حين يدعو إلى هذا النوع من الانفصال عن «الزمنى»، لا يسعى، مع ذلك، إلى حرمان الإنسان مما يمكن للذة الحسية أن تمنحه من سرور وابتهاج، شريطة ضبطها والتحكم فى رأسمالها الغريزى.

اهتمام التوحيدى بالجمال، إذن، يحكمه تصويره العام للخلق والوجود والإنسان. وهو تصور يندرج ضمن فهم مشبع بالتراث الفلسفى اليونانى وبالاجتهادات الفكرية الإسلامية. وإن كان التوحيدى قد حوله الهانجس البلاغى واللغوى إلى ظاهرة ثقافية إسلامية فى إبداعية أسلوبها وجمالية قاموسها، فإنه يعطى الحكمة والفلسفة أهمية خاصة فى كتاباته. فالحكمة عنده هى «علم الحق والعمل بالحق» (٣٦)، ولطائفها :

«تعرض لمن صبح ذهنه، واتسع فكره، ودق بحثه، ورق تصفحه، واستقامت عادته، واستنار عقله، وحسن خلقه، وعلت همته، وخمد شره، وغلب خيره، وأمل رأيه، وجاد تميزه، وعذب بيبانه» (٣٧).

وأما الفلسفة، فهى «لطائف العقل»، تستند فى اشتغالها إلى العقل والمنطق، الذى هو «نحو عقلى». وأما إذا اجتمع المنطق العقلى والمنطق الحسى فهو الغاية والكمال» (٣٨).

داخل حقل رمزى لا تنافر فيه بين حدود الأدب والفلسفة، يقدم لنا التوحيدى فهماً متميزاً للجمال، يجمع بين الأبعاد المتعالية فيه وبين المقاصد النفعية. وميله إلى الجانب الميتافيزيقى والروحى لم يمنعه من الاهتمام بالعمق الإنسانى للعشق والحب والتواصل. ويظهر أن التوحيدى عاش

ومتصوفينا العرب والمسلمين الذين انشغلوا، بقوة، بالشأن الفني والجمالي واتخذوه أفقاً في سياق توتر وجودي وفكري، للتأمل في الذات والمجتمع والتاريخ. هل يمكننا جعل هذا الرصيد الرمزي والتخييلي والنظري الثري أفقاً للتركيب النظري؟ وإذا كانت الجماليات في تاريخها الغربي، جعلت من الذاتية أساس تكوينها وتطورها، ألا يسمح لنا أفول القرن العشرين، بعد احتكاك طويل ومتوتر بالغرب، باستدعاء

ذاتية عربية إسلامية واستبانتها في النظر الفلسفي والجمالي العربي لتكوين تركيب مبدع في حقل الجماليات؟

لا شك أن الميتافيزيقا تشكل عائقاً كبيراً أمام هذا التركيب. ولكن هل يمكن تصور جماليات منفصلة، جذريا، عن الميتافيزيقا؟ ذلك ما نشك فيه، وذلك ما يدفعنا إلى القول بأن خطاب التوفيق والتفاوض الفكري مازال مدرجين على جدول أعمال الفكر العربي المعاصر.

الهوامش

- (١) ناصيف نصار، تعريف الجمال من وجهة ميتافيزيقية؛ مجلة الوحدة، العدد ١٩٨٦، ص ٧.
- (٢) سمير الصايغ، الفن الإسلامي، قراءة تأملية في خصائصه وفلسفته الجمالية؛ دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٨، ص ٣٤.
- (٣) المرجع السابق، ص ٣٥.
- (٤) نفسه، ص ٣٥.
- (٥) نفسه.
- (٦) انظر: voir duc Ferry, Homs Aestheticus, L'invention du goût à L'age d'eun cretique' yl. Grasset et Esquelle, Paris, 1990.
- (٧) التوحیدی؛ الإشارات الإلهية، القاهرة، ١٩٥٠، ص ٣٩٤.
- (٨) التوحیدی؛ الإمتاع والمؤانسة؛ منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت الجزء الأول، ص ١١٤.
- (٩) التوحیدی؛ المرجع السابق، الجزء الأول، ص ١٤٧.
- (١٠) نفسه، الجزء الثاني، ص ١١٤.
- (١١) التوحیدی، الهوامل والشوامل، لجنة التأليف والترجمة والنشر؛ القاهرة ١٩٥١، ص ٩٢.
- (١٢) التوحیدی، الإشارات الإلهية، ص ٣٩٧.
- (١٣) التوحیدی، الهوامل والشوامل، ص ٢٨.
- (١٤) التوحیدی، المقابسات، دار المدى للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٦، ص ٥٨.
- (١٥) المرجع السابق، ص ٥٨ - ٥٩.
- (١٦) نفسه، ص ٥٩.
- (١٧) الفارابي؛ كتاب السياسة المدنية، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٦٤، ص ٤٦.
- (١٨) الفارابي، كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٥٩، ص ٩٦.
- (١٩) ناصيف نصار؛ المرجع السابق، ص ١٠.
- (٢٠) التوحیدی، الهوامل والشوامل، ص ٤٣.
- (٢١) التوحیدی، المقابسات، ص ٥٨ - ٥٩.
- (٢٢) المرجع السابق، ص ٩٨.
- (٢٣) المرجع نفسه، ص ٢١٤.
- (٢٤) التوحیدی، الهوامل والشوامل، ص ٣١٨.
- (٢٥) التوحیدی، المقابسات، ص ١٥٤.
- (٢٦) المرجع السابق، ص ٢١٦.
- (٢٧) التوحیدی، البصائر والذخائر، مكتبة أطلس، دمشق، ١٩٦٤، الجزء الأول، ص ١/٣٢.
- (٢٨) التوحیدی، الإمتاع والمؤانسة، الجزء الثالث، ص ١٨٦.
- (٢٩) التوحیدی، الهوامل والشوامل، ص ٤٤.
- (٣٠) التوحیدی، الإمتاع والمؤانسة، الجزء الأول، ص ١٥٠.
- (٣١) التوحیدی، المقابسات، ص ٨٨.
- (٣٢) المرجع السابق، ص ١٠٩.
- (٣٣) المرجع نفسه، ص ٩٩.
- (٣٤) التوحیدی، رسائل أبي حيان التوحیدی، تحقيق: إبراهيم كيلاني، دار طلائع للدراسات والنشر، دمشق، ١٩٨٥، ص ٣٣٦.
- (٣٥) Marc Berge, Le Corpus Tawhidien; in Annales islamologues; T XIII, 1977, P 45.

الموسيقى والغناء فى كتابات أبى حيان التوحيدى

محمد زغول سلام*

بالوفاة، واتصلت أسبابه بالعلوم والفنون عن طريقها، كما أن هذه الحرفة وصلته بعلماء بغداد ومشقفيها المرموقين، وجمعت بينه وبينهم فى صحة وملازمة. ووصلت أسبابه برجال الدولة من كتاب و وزراء .

وكان ممن اتصلت بهم أسبابه من العلماء أبوسعبد السيرافى وأبو حامد المروروذى القاضى، وأبوسليمان المنطقى، وأبوالوفاء المهندس، ومسكويه، وأبو عبدالله المرزبانى ويحيى بن عدى المنطقى، ومتمى بن يونس القنائى... وكثيرون تردد ذكرهم فى كتبه فضلاً عن بعض الشعراء والكتاب؛ أمثال ابن نباتة وأبى الحجاج.

و وفد إلى بغداد، وهو بها، الشاعر الكبير المتنبى وعاش بها زمناً. كما عاش بها المهلبى الوزير الأديب، والناقد الشاعر أبوالحسن الحاتمى.

وغادر بغداد فى فترات قاصداً المشرق سعياً وراء الشهرة والمال، وقد اجتذبه مجالس وزيرين أديبين عرفا باستقدام

يعد عصر أبى حيان التوحيدى - القرن الرابع الهجرى - عصر ازدهار الحضارة العربية الإسلامية؛ فقد بلغت فيه العلوم والفنون والصناعات درجة من الرقى جعلت بغداد عاصمة الدولة محط أنظار العالم^(١)، فقد ازدانت بشمرات تلك الحضارة المادية والمعنوية، وارتادها الناس من المشرق والمغرب ينهلون من عذب فرائها ويقبسون من نور علومها وفنونها، وازدحمت تلك العاصمة بالعلماء والأدباء والفنانين من أقطار دولة الإسلام، والعرب فى كل مكان على اختلاف الأجناس والشقافات. وبها امتزجت، وتجاورت العقول والمواهب، وأنتجت هذا النتاج الباهر الذى بقى على الدهر، سجلاً شاهداً، وفخراً خالداً.

وعاش أبو حيان فى بغداد القرن الرابع معظم حياته، فيها ولد وقضى زمن صباه وشبابه، وجانباً من كهولته، وبها عمل

* قسم اللغة العربية، كلية الآداب، بينها.

العلماء والأدباء والشعراء ورعايتهم هما أبو الفضل ابن العميد والصاحب ابن عباد.

وقد قصدها قبله بزمن ليس بالبعيد المتنبى، فلقى من ابن العميد ترحيباً، إلا أنه أسقط ابن عباد، واستصغره في نظره، فقال منه وعاداه. وكذلك لقي أبو حيان من الوزيرين الأديبين ما لم يرض عنه، ورجع عنهما ساخطاً، نأثر النفس بعد أن قضى في بلاط كل منهما سنوات لم يحظ فيها بطائل يرضيه.

ولقى كذلك في الري وشيراز وبعض عواصم المشرق جماعة من العلماء كانت له معهم محاورات ومجاولات.

وعكست كتابات أبي حيان صور تلك الحياة الثقافية النابضة، والازدهار الحضارى في شتى جوانب الدولة الإسلامية، فكانت كتبه وكتاباته سجلاً لما عاشته عاصمتها بغداد وغيرها من العواصم التي زارها من حياة فكرية وفنية وأدبية بفضل من اجتمعوا بها من الفلاسفة، والعلماء، والفقهاء، والكتاب والشعراء، والموسيقيين والمغنيين من كل لون ومذهب.

عاش، إذن، أبو حيان بغداد القرن الرابع بكل ما ازدحمت به الحياة فيها، وتقلب في أحيائها الفقيرة والغنية، والتقى بنماذج بشرية متعددة من أهلها، وكما قالت مصادر ترجمته^(٢)، فقد كان الرجل موهوباً في ذكائه، ودأبه على العلم وحرصه على المعرفة، لكنها صورت شخصه وطبائعه بصورة تبدو غير محبة للناس.

وعرض لشخصيته بعض الباحثين والدارسين المحدثين والمعاصرين^(٣). فتناولها زكريا إبراهيم في ضوء نظرية يوج عن الشخصية المنبسطة Extrovert والمنقبضة أو المنطوية Introvert، ولاحظ أن معظم تصرفاته توحي بأنه ممن يندرجون تحت المنطوية، إلا أنه مع ذلك كان يتمتع ببعض خصائص الشخصية المنبسطة؛ كان أبو حيان عاكفاً على قراءة الكتب، حريصاً على الاجتماع بعلماء عصره للأخذ عنهم، وتحصيل ما نبغوا فيه من علم.

ولم يكن في سماته ما يحجب الناس فيه، كذلك أخذ عليه أبو الوفاء المهندس الجهامة، وعدم إحسانه محادثة الناس ومجاملتهم. ولم يكن أبو حيان دائماً منطبعاً بطابع واحد في شخصيته، فإن الصفة التي تصدق على شخصيته ربما كانت القلق، فهو شخصية قلقة لا تستقر على حال، وتدل كتاباته على ذلك بوضوح؛ فهو صريح عدواني أحياناً، مجامل إلى حد الزلفى والتذلل أحياناً، مقبل على الحياة متطلب للمال يسعى إليه ويشق على نفسه في طلبه وإن عاد خاوي الوفاض، صفراليدن وهو عايس متجهج جاد متشائم أحياناً، وساخر ضاحك هازل، مستمتع مستلمي من ملاذ الحياة وملاهيها يحب الغناء ويضطرب له. ويرتاد أماكن اللهو في الكرخ منفرداً أو مع بعض رفاقه، وأسأذته. ويسامر الوزير ابن سعدان، ويطرح عليه آخر الليل طرفة أو فكاهة تدخل المسرة على النفس بعد مشقة ما تحاوروا فيه من جاد الكلام، وعويص القضايا الفكرية.

لقد حاول بعض الباحثين أن يقرنوا بينه وبين الجاحظ لما رأوه من تعلقه به ومحاوله تقليده، والإشادة بعلمه وأدبه فيما روى ياقوت عنه من حديث عن تقيظ الجاحظ.

ولكن شخصية أبي حيان تتفق مع الجاحظ في بعض الملامح، وتختلفها في ملامح أخرى كثيرة، فأبو حيان موسوعي، مفكر، يميل إلى الاعتزال، ويجرى في حديثه بعض الفكاهة ليروح أحياناً على القارئ.

إلا أن الجاحظ يختلف عنه في أنه كان رجلاً مكتمل الشخصية واثقاً من نفسه، معتدا بعلمه، لم تغلب عليه السوداوية، ولا كانت نظراته متشائمة وأنه كان يقف من أعدائه وحساده موقف المتعالي، بسخريته سخرية الائق المتمكن على غير الحال بالنسبة إلى أبي حيان، فإن هجومه على أعدائه كان هجوم المنتقم الضعيف الذي يلجأ أحياناً إلى الكلمة الخارجة ليموض به نقص شخصيته أو عجزه.

وقد يشبه أبو حيان في قلقه الفكري أو العقلي وحيرته فيلسوف القلق والتشاؤم أبا العلاء المعرى. يشبهه في زهو وانصرافه عن الدنيا، ويشبهه في ضيقه بالحياة والناس، وعدم اعتقاده لمذهب من مذاهب العقيدة والفكر.

لكنهما يختلفان في نوع الزهد، والتشاؤم، وفي أسبابه ودوافعه. فأبو العلاء ارتضى الزهد وهو يملك من أسباب الغنى ما كان يستطيع به أن يستمتع بالحياة، وينعم بما فيها، وكان بإمكانه أن يحصل من المال لو أراد ما يفي بحاجته ويزيد لكنه أعرض راضياً، وارتضى محبسه زاهداً. أما أبو حيان فبختلف موقفه، فقد طلب من الدنيا فلم تعطه وعاندته، وألزمته عوزاً بلبس المرقعات، والانضمام إلى طائفة فقراء الصوفية، وأقنع نفسه بهذا المال، فلم يجد أمامه سواه، وعاتب ربه في ابتهالاته بـ (الإشارات الإلهية)؛ لأنه رغب فلم يعط، وطلب فلم يستجب إلى طلبه.

هكذا، كان حال التوحيدى، وتلك كانت شخصيته، وتقلبت به الحياة في بغداد وغيرها بين نعيم وبؤس، وغلب عليها الشقاء، على الرغم من أنه كان حريصاً على نعيمها إلا أنه اتخذ لتحقيقه وسيلة لا توصله إليه. اتخذ حرفة الأدب حرفة الفقر، فضاق بها آخر الأمر، وأحرق كتبه معلناً للعالم في صرخة مدوية أن العلم والأدب لا يحصلان المال، وأن على الإنسان أن يختار بين العلم أو المال.

عاش أبو حيان في بغداد القرن الرابع الهجرى العاشر الميلادى متقلباً بين علمائها ومجالس علمها، واقفاً على ما تموج به أرجاؤها من علوم، وفنون ومذاهب، وعقائد، إلا أنه لم يتعلق بمذهب فكرى بعينه، وإن قيل إنه كان معتزلياً، إلا أنه لم يحقق آراء المعتزلة، ولم يلتزم بتعاليمهم وقد كان شيخه الجاحظ الذى أعجب به معتزلياً ملتزماً، كما كان شيخه المرزبانى من المعتزلة الملتزمين.

وبعرض صورة لأبى عبد الله المرزبانى المعتزلى، وقد استمع إلى غناء أبيات للعباس بن الأحنف تلمس فيها هذا التحرر، إن لم يكن السخرية من شيخه؛ إذ يقول (٤):

«ولا طرب الزهرى على «خلوب» جارية أبى
أيوب القطان إذا أهلت واستهلت، ثم اندفعت
وغت:

إذا أردت سلوا كان ناصركم

قلبى، وما أنا من قلبى بمنتصر

فأكثروا أو أقلوا من إساءةكم

فكل ذلك محمول على القدر

وضعت خدى لأدنى من يطيف بكم

حتى احتقرت، وما مثلى بمحتقر

وأبو عبدالله المرزبانى شيخنا إذا سمع هذا جن واستغاث، وشق الجيب وحولق، وقال: يا قوم! ألا ترون إلى العباس بن الأحنف ما يكفيه أن يفجر حتى يكفر؟! متى كانت القبائح والفضائح والعيوب والذنوب محمولة على القدر؟ ومتى قدر الله هذه الأشياء، وقد نهى عنها، ولو قدرها كان قد رضى بها، ولو رضى بها لما عاقب عليها. لعن الله الغزل إذا شيب بمجانة، والمجانة إذا قرنت بما يقدح فى الديانة.

ورأيت أبا صالح الهاشمى يقول له: هون عليك يا شيخ، فليس هذا كله على ما تظن، القدر يأتى على كل شئ، ويتعلق بكل شئ، ويجرى بكل شئ وهو سر الله المكتوم، كالعالم الذى يحيط بكل شئ، وكل ما جاز أن يحيط به علم جاز أن يجرى به قدر. وإذا جاز هذا جاز أن ينشره خبره وما كان هذا التضايق والتحارج فى هذا المكان.

والشاعر يهزل ويجد، ويقرب ويبعد، وبصيب ويخطئ، ولا يؤاخذ بما يؤاخذ به الرجل الديان، والعالم ذو البيان.

وترى أبا حيان وقد ساق هذه الحكاية عن المغنية والشاعر الغزلى ابن الأحنف ورجلين ممن استمعوا إلى الغناء يختلفان فى الرؤية والذوق والمذهب الفكرى والعقدى، منتهزا الفرصة ليسجل هذا الحوار الكلامى، ولا تدرى أسجله كما دار أم تدخل فيه، أى أنه حفظ مضمونه، وشكله بطريقته وأسلوبه.

لقد كان أحد الرجلين - كما هو واضح - معتزلياً متمتماً، وهو شيخه أبو عبدالله المرزبانى، ولا يخفى ما رسم به

صورته وقد استمع إلى الشعر من المغنية وهى صورة حرص على خطوطها الكاريكاتورية ليسر انفعال الرجل وضيقه لا بفناء المغنية، ولكن بما تضمنته كلمات الأغنية من معارضة لعقيدته، فهى تقول بالجبر، والرجل يؤمن بالاختيار على قول المعتزلة. ورد عليه آخر من الجبرية، وهو غالباً رجل يذهب مذهب أهل السنة.

ولم يعرض صورة الجبرى بمثل ما عرض صورة المعتزلى، والمفروض إذا كان يلتزم بالاعتزال أو يتعصب له ألا يكون موقفه كذلك.

وهذا مجرد مثال على ما نقول من أن الرجل لم يلتزم بمذهب بعينه، فقد أطلق لنفسه حرية التفكير والاعتقاد وفق ما يميله عليه الموقف، أو ما يميله عليه فكره.

كان موقف أبى حيان من الموسيقى والغناء كموقفه من كثير من قضايا العصر، مما كان مشار اهتمام الناس بين مفكرهم، خاصتهم وعامتهم. وكان موضوع الموسيقى والغناء مجالا للجدل بين المحرمين والمحللين.

وذهب معظم فقهاء السنة إلى تحريمهما على درجات فى هذا التحريم؛ فمنهم من حرمهما على الإطلاق، ومنهم من حرم الموسيقى، وأحل الغناء الذى لا يخرج على حدود الدين والأخلاق، والذى لا يحض على رذيلة. ومنهم من حرم بعض الآلات الموسيقية، وأحل بعضها.

ويروى أبو الفرج الأصبهاني حكاية عن كراهية أبى يوسف القاضى صاحب أبى حنيفة للغناء فى خبر له مع ابن جامع المغنى المشهور^(٥). ولم يوافق أبو حيان من ذهب إلى تحريم الغناء من أهل السنة، وهذا دليل آخر على أنه لم يلتزم بأرائهم مع اتهام بعضهم له بأنه سنى متأثر بأستاذه أبى حامد المرورودى، وأبى سعيد السيرافى، حتى إنهم اتهموه بوضع «رسالة السقيفة» التى تؤيد موقف أبى بكر وعمر فى مواجهة الإمام على بن أبى طالب.

ولم يكن حديث أبى حيان فى كتبه عن الغناء مجرد ذكر أخبار المغنين، أو الحديث عنهم فى مجال السمر وترجية

الفراغ، بل كان حديث العالم الفيلسوف الباحث فى فلسفة الغناء، وأثاره فى النفس، مستمعينا بآراء بعض أساتذته من علماء بغداد آتذ كأبى سليمان المنطقى وغيره. وكان موقفه من الغناء موافقاً لثقافته ومباشرة للفلاسفة، ومعظمهم يرى فى الغناء سموً بالنفس. وأردف الحديث الفلسفى عن الموسيقى والغناء بأحاديث مطولة وحكايات طريفة عن المغنين والمغنيات الذين رأهم بنفسه، واستمع إليهم فى بعض ضواحي بغداد والكرخ خاصة.

وأخصى لنا التوحيدى عدداً من المغنين فى بغداد فى عصره لا يتصور وجوده فى بلد واحد بهذه الكثرة. فيقول^(٦):

«وقد أحصينا ونحن جماعة بالكرخ أربعمائة وستين جارية فى الجانبين، ومائة وعشرين حرة، وخمسة وتسعين من الصبيان البدور، يجمعون بين الحسن والحدق والظرف والعشرة. هذا سوى من كنا لا نظفر به، ولا نصل إليه لعزته وحرسه ورقبائه، وسوى ما كنا نسمعه ممن لا يتظاهر بالغناء والضرب إلا إذا نشط فى وقت، أو نمل فى حال، وخلع العذار فى هوى قد حالفه وأضناه وترغم وأوقع، وهز رأسه، وصعد أنفاسه وأطرب جلاسه، واستكتمهم حاله، وكشف عندهم حجابهم، وادعى الثقة بهم، والاستئانة إلى حفاظهم».

وأيد اهتمام الناس خاصتهم وعامتهم بالغناء فى بغداد وغيرها من عواصم الإسلام فى القرن الرابع ما كتبه كل من أبى الفرج والشعالبي فى تأييد الغناء والقول بضرورته للحياة فضلاً عن إباحته. يقول الشعالبي^(٧):

«قال بعض الفلاسفة: أهميات لذات الدنيا أربع: لذة الطعام، ولذة الشراب، ولذة النكاح ولذة السماع». «فاللذات الثلاث لا يوصل إلى كل منها إلا بحركة وتعب ومشقة، ولها مضار إذا استكثر منها، ولذة السماع قلت أم كثرست صافية من التعب، خالصة من الضرر».

وقال:

«ومن خواص السماع أنه لا يحجزه شيء، وأن الجمع بينه وبين كل لذة وعمل ممكن، وأن الإبل والخيل والحمير تستطيعه، والصبيان الرضع تستلذه، والوحوش والطيور تصفى إلى الفائق منه وتفرح عليه».

ويقول:

«وكان بعض فقهاء المتكلمين يقول: قد اختلف الناس في السماع فأباحه قوم وحظره آخرون، وأنا أخالف الفريقين، فأقول إنه واجب لكثرة منافعه، ومرافقه، وحاجة النفوس إليه وحسن أثر استمتاعها به.

ونقل عن بعض الصالحين والخلفاء والشعراء والفلاسفة أقوالاً تؤيد هذا الاستحسان ومنه قول بختيشوع: الغناء غذاء للروح، كما أن الطعام غذاء للجسم»^(٨).

وتحدث أبوحيان عن الموسيقى والغناء في مواضع من كتبه، أهمها ما جاء في (الهوامل والشوامل)، وفي (المقابسات)، وفي (الإمتاع والمؤانسة)، وقد أطل الحديث وفصله عن المغنيات والمغنين وأحوال السامعين. وفي (الإشارات الإلهية) كان حديثه عن سماع الصوفية، وأثره في تخليص الروح من قيود الجسد، ورفع درجات الوجد عند السالكين.

ونبدأ حديثنا عما كتبه بما جاء حول فلسفة الغناء.

يسأل في (الهوامل والشوامل) مسكويه أسئلة عن التذوق الفني، ومنها ما يتعلق بتذوق الألحان والغناء. يقول: [مسألة رقم ٩ ص ١٣٩].

«لم إذا أبصر الإنسان صورة حسنة، أو سمع نغمة رخيمة قال: والله ما رأيت مثل هذا قط، ولا سمعت مثل هذا قط، وقد علم أنه سمع أطيب من ذلك، وأبصر أحسن من ذلك»^(٩).

ويسأل^(١٠):

«لم صار من يطرب للغناء، ويرتاح للسماع يمد يده ويحرك رأسه وربما قام، وجال، ورقص، وعمر وصرخ، وربما عدا وهام، وليس هكذا من يخاف، فإنه يقشعر وينقبض، ويوارى شخصه، ويغيب أثره ويخفض صوته ويقل حديثه؟».

ويسأل^(١١):

«ما سبب تصاغى البهائم والطيور إلى اللحن الشجي، والنغم الندى وما الواصل منه إلى الإنسان العاقل المحصل حتى يأتي على نفسه».

وكما نرى، فإنها أسئلة كلها تدور حول المستمع وتأثره بالغناء.

ويجيبه مسكويه بإجابات مطولة شارحاً ذلك ومبرراً.

وفي (المقابسات) يخص المقابلة رقم ١٩ بالحديث عن الغناء. يقول^(١٢):

«خرج أبو سليمان - المنطقي - يوماً ببغداد إلى الصحراء بعض أيام الربيع قصداً للتفرج والمؤانسة، وصحبته، وكان معنا أيضاً صبي دون البلوغ جهم الوجه بغض الحيا شتيم المنظر، ولكنه كان مع هذه الصورة يترنم ترنماً ندياً عن جرم ترف، وصوت شج، ونغمة رخيمة، وإطراق حلول. وكان معنا جماعة من طراق المحلة، فلما تنفس الوقت أخذ الصبي في فنه، وبلغ أقصى ما عنده، فترنح أصحابنا وتهادوا وطربوا، فقلت لصاحب لي ذكي، أما ترى ما يعمل بنا شجي هذا الصوت، وندى هذا الحلق، وطيب هذا اللحن وتفنن هذه النغمة؟!

فقال: لو كان لهذا من يخرج به، ويعنى به، ويأخذه بالطرائق المؤلفة والألحان المختلفة لكان يظهر أنه آية، ويصير فنة، فإنه عجيب الطبع بديع الفن».

بالنفس والإنسان وأحوالهما. وأما غيرهم فطربهم شبيه بما يعترى الطير وغيرها.

كان أبى حيان فى تعقيبه على القول المنقول عن سقراط يرى أن هذا تعليل فلسفى، افتراضى عقلى، ويريد أن يقول إن انفعال الإنسان للطرب واهتزازه له إنما هو اتصال تلقائى غريزى لكل صوت جميل ذى إيقاع منتظم لطبيعة الإيقاع المنتظم المركبة فى كل المخلوقات.

ويمضى حديث أبى حيان وإجابته عن الطرب والغناء لابن سعدان الوزير فيسأل الوزير عن المعنى إذا راسله - أى جأبه ورد عليه الغناء - آخر من بطانته لم يكون الذ وأطرب.

فيقول أبو حيان عن أستاذه أبى سليمان:

«ذكر أن المسموع الواحد إنما هو بالحس الواحد، وربما كان الحس الواحد أيضا غليظا أو كدرا، فلا يكون لنيله اللذة به بسط ونشوة، ولذاذة. وكذلك المسموع ربما لم يكن غاية الصفاء على تمام الأداء بالتقطيع الذى هو نفس فى الهواء، فلا تكون أيضا إنالته للذة على التمام والوفاء، فإذا نثي المسموع - أعنى توحد النغم بالنغم - قوى الجسي المدرك فنال مسموعيه بالصناعة، ومسموعا واحدا بالطبيعة، والحس لا يصنع الموحدة، والمناسبة والاتفاق إلا بعد أن يجدها فى المركب كما أن العقل لا يعشق إلا بعد أن ينالها فى فضاء البسيط».

وهكذا، يمضى فى حديث أبى سليمان المنطقى الفلسفى فى تبرير طرب السامعين للمعنى بجأبه آخر أو آخرون، أو تشاركه الآلة الموسيقية، ويقوم الكورس أو البطانة المصاحبة بما تقوم به الآلات الموسيقية فى بعض صور الغناء القديم والحديث. ولا تستخدم الآلات الموسيقية غالبا فى التواشيح والأنشيد الدينية ويستعاض عنها بالبطانة أو «الكورس».

ويصف لنا بعض مشاهد الغناء وآثاره على السامعين مختلفى الطبائع والمذاهب والثقافات، وأحوالهم عندما يطربون ويبلغ بهم الطرب مبلغا، فيقول فى معرض من طرب من مشاهير الأعلام فى عصره:

ويتدخل أبو سليمان فى الحديث فيردد القول حول الصناعة أو الفن بين الطبيعة، والتحصيل، أو الموهبة والدراسة والتثقيف، فيرى أن الفتى قد وهب طبيعة الغناء، وأن الطبيعة محتاجة إلى الصناعة فى هذا المكان، لأن الصناعة ها هنا تستعمل من النفس والعقل، وتعلم على الطبيعة.

ويمضى فى شرح هذا القول، فى حوار مع تلاميذه وجلسائه يستجلون غامضه ويطلبون زيادة المعرفة من معلمهم الفيلسوف.

وفى (الإمتاع والمؤانسة)^(١٣) يطول حديث أبى حيان فى الموسيقى والغناء، فيروى مشاهداته للمغنين والمغنيات، وهيئاتهم، وحركاتهم فى التمهيد للغناء وفى أنثائه، وأثر الغناء على السامعين مبدعا فى تصويره دقائق ما يرى، كأنه يثبت بالمشاهدة والواقع ما ذكره المفكرون والفلاسفة فيما روى عنهم وذكرنا جانباً منه.

ويقدم حديثه عن الطرب بفذلكة كلامية فيقول:

«وسأل الوزير مرة عن الطرب على الغناء والضرب وأشباههما فكان الجواب: قيل لسقراط فيما ترجمه أبو عثمان الدمشقى، لم طرب الإنسان على الغناء والضرب؟، فقال: لأن نفسه مشغولة بتدبير الزمان من داخل ومن خارج، وبهذا الشغل هى محجوبة عن خواص ما لها من المثالات الشريفة والسعادات الروحانية من بعد ذلك العالم لأن ذلك وطنها بالحق؛ فأما هذا العالم فإنها غريبة فيه، والإنسان تابع لنفسه، وليست النفس تابعة للإنسان، لأن الإنسان بالنفس إنسان وليست النفس نفسا بالإنسان، فإذا طربت النفس، أعنى حنت، ولحظت الروح التى لها تحركت وخفت، فارتاحت واهتزت.

ولهذا يطرح الإنسان ثوبه عنه، وربما مزقه، كأنه يريد أن ينسل من إهابه الذى لصق به، أو يقلت من حصاره الذى حبس فيه، ويهرول إلى حبيبه الذى تجلى له، وبرز إليه، إلا أن هذا المعنى على هذا التنزيذ إنما هو للفلاسفة الذين لهم عناية

«ولا طرب البرداني على غناء «علوة» جارية ابن
علوية في درب السلوك إذا رفعت عقيرتها فغنت
بأبيات السروي:

بالورد في وجنتيك من لطمك

ومن سقاك المدام لم ظلمك

ولا طرب ابن فهم الصوفي على غناء «نهاية»
جارية ابن المغني إذا اندفعت بشدوها:

استودع الله في بغداد لي قبراً

بالكرخ من فلك الأزار مطلقه

ودعته وبودي لو يودعني

صفو الحياة، وأني لا أودعه

فإنه إذا سمع هذا منها ضرب بنفسه الأرض،
ونمرغ في التراب، وهاج وأزيد وتعفر شعره...
ويخرق المرقعة قطعة قطعة، ويلطم وجهه ألف
لطة في ساعة.

«ولا طرب ابن غيلان البزاز على ترجيعات
«بللور» جارية ابن اليزيدي المؤلف بين الأكباد
المحرقة، والمحسن إلى القلوب المتصدعة، والعيون
الباكية إذا غنت:

أعط الشباب نصيبه

مادمت تعذر بالشباب

وانعم بأيام الصبا

واخلع عذارك في التصابي

فإنه إذا سمع منها هذا انقلبت حماليق عينيه،
وسقط مفشياً عليه، وهات الكافور وماء الورد،
ومن يقرأ في أذنه آية الكرسي والمعوذتين».

«ولا طرب الجراحي أبي الحسن مع قضائه في
الكرخ، وردائه المحشي، وكميه المفورين
(الواسمين) ووجنتيه المتحلجين، وكلامه الفخم،
واطراقه الدائم، فإنه يغمز بالحاجب إذا رأى

مرطاً، وأمل أن يقبل خدا وقسطاً على غناء
«شعلة»:

لا بد للمشتاق من ذكر الوطن

والياس والسلوة من بعد الحزن

وقيامته تقوم إذا سمعها ترجع في لحنها:

لو أن ما تبطيني الحادثات به

يلقى على الماء لم يشرب من الكدر

فهناك ترى شيبة قد ابتلت بالدموع، وفؤاداً قد
نزا إلى الدهاء، مع أسف قد ثقب القلب،
وأوهن الروح، وجاب الصخر، وأذاب الحديد».

ويقول:

«وهناك والله ترى أحداق الحاضرين باهتة،
ودموعهم متحدرة، وشهيقهم قد علا رحمة له،
ورقة عليه، ومساعدة لحاله!! وهذه صورة إذا
استولت على أهل مجلس وجدت لها عدوى لا
تملك، وغاية لا تدرک، لأنه قلما يخلو إنسان
من صبوة أو حسرة على فائت، أو فكر في
متمنى، أو خوف من قطيعة، أو رجاء لمنتظر، أو
حزن على حال.

وهذه أحوال معروفة، والناس منها على جديدة
معهودة».

«ولا طرب ابن نبانة الشاعر على صوت
«الخاطف» إذا غنت:

تلهب الكف من تلهبها

وتحسر العين إن نقصاها

كأن نارا بها محرقة

تهابها مرة ونفشها

نأخذها نارة وتأخذنا

فتحن فرسانها وصرعها».

مشغولة القلب بين أحلام أراها رديئة، وبخت إذا
استوى التوى، وأمل إذا ظهر عشر ثم اندفعت
وغنت».

«وابن بهلول إذا أخذ القضيبي وأوقع بينانه
الرخص، ثم زلزل الدنيا بصوته الناعم، وغنته
الرخيمة، وإشارته الخالبة، وحركته المدغدة،
وظرفه البارع، ودمائه الحلوة.. وغنى».

و «قلم» القضيبيبة إذا تناوأت فى استهلالها،
وتضاجرت على خنجرتها، وتذكرت شجوها
الذى قد أضناها، وانضأها، وسلبها منها، وأنساها
إياها ثم اندفعت وغنت بصوتها المعروف:

أقول لها والصبح قد لاح نوره

كما لاح ضوء البارق المائل».

«.. وظلوم إذا قلبت لحنها إلى حلقها، استزلته
من الرأس!».

«وه حلية» جارية أبى عائذ الكرخى إذا أخذت
فى هزجها، واشتملت بنارها..».

ويختار التوحيدى من أصوات الغناء التى يشدها المغنون
والمغنيات أشعاراً جميلة المعاني رقيقة الألفاظ، نالت إعجاب
السامعين فى عصره على اختلاف طبقاتهم، وتألفت مع
الألحان، وأصوات المؤدين، وهو يرى ضرورة التلاؤم بين
النص المغنى، واللحن والصوت المؤدى. ينقل عن أبى سليمان
المنطقى قوله^(١٤): «عن اللفظ. يحلو ويعذب ويلذ بالموسيقى
واللحن:

«وأما الصورة اللفظية فهى المسموعة بالالة التى
هى الأذن. وإن كانت عجماء فلها حكم، وإن
كانت ناطقة فلها حكم، وعلى الحالين فهى
على مراتب ثلاث إما أن يراد بها تحسين
الأفهام، وإما أن يكون المراد بها تحقيق الإفهام
وعلى الجميع فهى موقوفة على خاص مالها فى
بروزها من نفس القائل ووصولها إلى نفس
السامع. ولهذه الصورة بعد هذا كله مرتبة أخرى

«ولا طرب أبى حجاج الشاعر على غناء «قنوة
البصرية»، وهى جارتة وعشيقته وله معها
أحاديث، ومع زوجها أعاجيب هناك ومكابدات،
ورمى ومعاربات وإنشاء نكات إذا أنشدت:

يالىتنى أحيا بقبرهمو

فإذا فقدتهم انقضى عمري

ثم ننت بصورتها الآخر:

هيبنى امرءاً إما بريفا ظلمته

وإما مسيئاً تاب بعد فأعتبا

فكنت كذى داء تبغى لدائه

طبيباً فلما لم يجده تطيباً»

«ولا طرب ابن معروف قاضى القضاة على غناء
«علبة» إذا رجعت لحنها فى حلقها الحلو
الشجى بشعر ابن أبى ربيعة:

أنيرى مكان البدر إن أفل البدر

وقومى مقام الشمس ما استأخر الفجر

ففيك من الشمس المنيرة نورها

وليس لها منك المحاجر والنفرة»

ويحسن التوحيدى تصوير مشاهد الغناء، كما رأينا،
بقلمه البليغ، متنقلاً بالقارئ بين حال المغنى، والصوت أو
اللحن، والكلام المغنى، والسامع وما يحدثه الطرب به.

ويستخدم فى وصف حال المغنين، وأصواتهم، التى تخرج
مفصحة أو تعتورها بحة، وما تفتن فيه الشادية أحياناً من
تقليب طبقات صوتها، وتلويته بتنوع مخارجه، وكأن الرجل
موسيقى عارف بصناعة اللحن والغناء فتراه يقول عن غناء
علية:

«إذا رجعت لحنها فى حلقها الشجى»، وعن

غناء سندس: «إذا تشاحت، وتذلت، وتفتلت،

وتكسرت، وتيسرت وقالت: أنا والله كسلانة

التي وصلتنا تشهد بتقديره الموسيقى والغناء وفائدتهما البالغة في الحياة، وأثرهما على الإنسان من تهذيب للنفس، واستثمار للجمال، وسمو بالأحاسيس والمشاعر.

وهو يرى في (الإشارات الإلهية) فائدة السماع للمتصوفة في مجالس أذكارهم، فهو يرفع درجة الوجد، ويساعدهم على التصاعد في مدارك الذهول والغيبة عن الحس.

وجدير بالذكر أن الغناء والموسيقى كانا من بين اهتمامات المثقفين والمفكرين وخاصة الناس نظرا وسماعا. ويكاد لا يخلو واحد من أولئك المشهورين منهم من له فيهما نصيب بالمشاركة أو التأليف. وقد مر بنا في أثناء الحديث أسماء كثيرين من أعيانهم، نضيف إليهم أسماء الفارابي والمعري، فالفارابي ألف كتابا معروفا في الموسيقى وما كتبه المعري في (الفصول والغايات) يكشف عن إلمام واضح بعلم الموسيقى^(١٧). كذلك الإمام الغزالي.

وبعد، فلعل أبا حيان أراد أن يشارك في الجدل حول هذين الفنين وأن يرد ردا حاسما بالنظرية والتطبيق على من يدعون في الموسيقى والغناء دعاوى إن دلت على شيء فإنما تدل على يوسنة في الطبع وانحراف في الذوق والمزاج عن سائر البشر، بل سائر مخلوقات الله.

إذا مازجها للحن والإيقاع بصناعة الموسيقى، فإنها حينئذ تعطى أمورا ظريفة أعنى أنها تلذ الإحساس، وتلهب الأنفاس، وتشدع الكاس والطاس وتروح الطبع، وتنعم البال، وتذكر بالعالم المشوق إليه، المثلث عليه.

ويشير في موضع آخر^(١٥) إلى أن الأغنية تكون منظومة لتتفق مع إيقاع اللحن فيقول:

«من فضائل النظم أنه لا يغني ولا يجدي إلا بجيده، ولا يؤهل للحن الطنطنة (حكاية صوت الطنبور - آلة موسيقية) ولا يجلي بالإيقاع الصحيح غيره، لأن الطنطنات والنقرات، والحركات والسكنات لا تتناسب إلا بعد اشتغال الوزن والنظم عليها... والغناء معروف الشرف، عجيب الأثر، عزيز القدر، ظاهر الفضح في معانية الروح، ومناغة العقل، وتنبية النفس، واجتلاب الطرب وتفريج الكرب، وإثارة الهزة، وإعادة العزة، وادكار العهد، وإظهار النجدة، واكتساب السلوة، ومالا يحصى عدده»^(١٦).

ولا نجد دفاعا عن الموسيقى والغناء أبلى من كلمات التوحيدى هذه، والحق أن كتاباته حول الموضوع في كتبه

الهوامش

- (١) راجع كتاب آدم منز، ترجمة: أبو ريعة.
- (٢) من أول من ترجم له ترجمة موسعة ياقوت الرومي في معجم الأديباء، وابن خلكان في وفيات الأعيان.
- (٣) ممن اهتم منهم بالكتابة عن شخصيته زكريا إبراهيم في كتاب أبو حيان التوحيدى فيلسوف الأدياء ص ٩٣، وإحسان عباس في كتابه عنه.
- (٤) الإمتاع والمؤانسة ١٨٧ / ٢ - ١٨٨.
- (٥) الأغاني، ج ٢ ص ٧٧٨ / ٧٧٩، طبعة دار الشعب.
- (٦) الإمتاع ١٨٣ / ٢.
- (٧) من غاب عنه المطرب، ص ١٨٩، وراجع خاص الخاص له.
- (٨) من غاب عنه المطرب ١٩٤.
- (٩) راجع تعليق زكريا إبراهيم في أبو حيان، ص ٢٧٢.
- (١٠) الهوامل، ص ٣٣٥.
- (١١) المصدر نفسه، ص ٢٣٠.
- (١٢) المقابسات بتحقيق السندوبي، ص ١٦٣.
- (١٣) الإمتاع والمؤانسة تحقيق: أحمد أمين ٢ / ٢١٥.
- (١٤) الإمتاع، ١٤٤ / ٣.
- (١٥) المصدر نفسه ١٣٦ / ٢.
- (١٦) الإمتاع، ١٣٦ / ٢.
- (١٧) الفصول والغايات، ص ٨٨.

موسيقى الخط العربى

عند

أبى حيان التوحيدى

محمد بغدادى*

فالرجل كان فناً ناقداً، وفيلسوفاً مبدعاً، وخطاطاً بارعاً وهو أديب حكيم وصوفى جميل. وعلى الرغم من أن الوراقة (أى نسخ الكتب) كانت مهنة كبار الكتاب فى عهده، فإنه لم يصب من وراثتها مركزاً مرموقاً، ولا جاهاً أو رفعة، حتى إن المتبع لسيرته يكشف بسهولة:

«أن المسافة بين جبروت عقله، ونهايت شخصيته شاسعة جداً، حتى ليصعب على قارئه، أن يدرك اجتماع هاتين الشخصيتين المتضاربتين: فكر حر قوى، ونفس متهالكة متخاذلة!!»^(٢).

وهذا ما دفعه إلى إحراق كتبه تحت وطأة شعور الخيبة والأسف، لهذا عاش فقيراً، ومات غريباً مجهولاً.

وكانت مهنة التوحيدى التى احترفها سبباً فى سعة اطلاعه، وازدياد معارفه؛ إذ كان يعمل ورقاً، «وكان النسخ معيناً له على القوت، ووسيلة إلى الارتزاق»^(٣).

لو كان يعلم «على بن محمد بن العباس التوحيدى» - الذى اشتهر باسم «أبى حيان التوحيدى» - أنه أول من وضع أسس علم الجمال عند العرب، بل أنه يعد أول ناقد عربى، لما أقدم على هذه الفعلة الحمقاء؛ إذ أحرق - وهو فى العقد التاسع من العمر - كل آثاره، وأتلف كل كتبه ومخطوطاته التى أبدعها طوال سنوات العمر المديد، وانصرف بعدها إلى الزهد والورع والتصوف، حتى إذا جاءت سكرة الموت، فاجتمع حوله مريدوه، مكثرين من ذكر الله، يسألونه اللطف به، والعفو عنه، فرفع رأسه يقول لهم:

«أترؤنى أقدم على جندى أو شرطى؟! .. إنما أقدم على رب غفور»^(١).

* كاتب وصحفى بمجلة «روز اليوسف»، القاهرة.

وهذا ما جعل من أبي حيان دائرة معارف جيله على الرغم من أنه كان ضحراً من حرفته، وسماها «حرفة الشوم» وطمع في عمل أقل عناء وأكثر جدوى.

ولعل اتصاله بمهنة النسخ، وهو كاره لها، جعله يقبل عليها بنفس متحمدة وروح نزقة متحفزة، حتى إذا ضاق صدره وازداد تهرمه بما ينسخه من كتب، راح ينتقد النص وكتابه بشدة. وربما من هنا بدأت تظهر عنده بوادر الكتابة النقدية، بل إنه برع في إظهار مثالب الكتاب في عصره. يقول عبد الرزاق محي الدين في رسالة المايجستير التي حصل عليها من جامعة فؤاد الأول في سيرة التوحيدى وآثاره عام ١٩٤٨:

«تبع مؤلفات أبي حيان فوجدته كثير النعمى على متكلمي زمانه، دائم السخرية بهم، والحط من شأنهم، لا أستثنى من ذلك فرقة، ولا أصحاب مقالة، كما وجدته مناصراً أصحاب الحديث أنصار الأثر والرواية، وبفضلهم على المتكلمين من أصحاب الرأي والقياس».

ولعل تفضيله المتكلمين والرواة جعله ينحو نحوهم فيما كتب، حتى إننا نجد أن:

«كل ما كتبه أبو حيان في علم الجمال ما هو إلا مجموعة آراء المفكرين العرب والأدباء الفنانين الذين اهتموا بالفن والصياغة، وتمخض هذا عن النظرية العربية التي شملت مشاكل علم الجمال الحديث ومنها مشاكل الإبداع والتذوق»^(٤).

وقال عنه ياقوت الذى ترجم له:

«.. فهو شيخ الصوفية، وفيلسوف الأدباء، ومحقق الكلام، ومتكلم المحققين، وإمام البلغاء، وهو فرد الدنيا الذى لا نظير له ذكاء وفطنة، وفصاحة ومكنة، كثير التحصيل للعلوم فى كل فن حفظه، واسع الدراية والرواية»^(٥).

ولأن التوحيدى كان راقاً، فمن الطبيعي أن يكون حسن الخط بارعاً فيه، عارفاً بفنونه وأنواعه. وقد رُفِّقَ لزيد بن رفاعه، واستكتبه الوزير ابن العارض كتاب (الحيوان) للجاحظ، وكان حسن الإلمام بعلم الخط قديراً على ضبطه. وقد نسخ له رسالة لأبى زيد البلخى، وقد سأله ابن عباد أن ينسخ له ثلاثين مجلداً من رسائله.

ولشدة حبه للخط العربى ألف فيه رسالة قيمة «ربما تكون من أقدم ما ألف فى العربية عن الخط العربى.. وزاد على تجويده للخط وتزيينه، وزخرفته، قدرته على ضبط النسخ، وسلامته مما يدخله الوراقون من تصحيف وتحريف»^(٦)؛ أى أنه كان دقيقاً ومدققاً فيما ينسخ من نصوص، ولم يكن يحتاج إلى مراجعة من أحد لتصحيح ما يكتب.

وتقع رسالة التوحيدى فى علم الخط فى ست وثلاثين صفحة، ولها مخطوط فى مكتبة «فيينا» ونسخة مصورة فى مكتبة جامعة القاهرة، وهى من أوائل المراجع التى وضعت قواعد للخط ووصفاً لمخطوط بعض معاصريه، وقد عدّد لنا التوحيدى أنواع المخطوط العربية وأقسامها فى زمانه، فقال:

«كانت العبرة فى زمانهم قواعد الخط الكوفى بأنواعه، وهى اثنتا عشرة قاعدة: الإسماعيلية، والمكبية، والمدنية، والأندلسية، والشامية، والعراقية، والعباسية، والبغدادية، والمشعب، والريحانية، والمجردة، والمصرية، فهذه المخطوط العربية التى كان منها ما هو مستعمل قديماً، ومنها قريبة الحدوث، أما هذه الطرائف المستنبطة فهى مروية عن الصحابة حتى اتصلت بابن مقلة وياقوت»^(٧).

وجاءت رسالة أبى حيان التوحيدى عن الخط متضمنة كل ما يتصل بهذا الفن من مقولات ونصائح وتوجيهات، وكل ما يشعل بأسرار فن الخط من أدوات وطرق للكتابة. وقد أورد التوحيدى فى رسالته أقوال الأقدمين من الفلاسفة والكتاب والمبدعين عن الخط العربى؛ إذ إن العرب أكدوا

أهمية فن الخط لأنه يحمل خصائص الجمال المجرد، فقد تضافر الرقش العربى وهو الفن الزخرفى المجرد مع الخط العربى فى تحديد شخصية الفن العربى. يقول هاشم بن سالم فى الرسالة: «.. قد تكون صورة المداد فى الأبصار سوداء، ولكنها فى البصائر بيضاء».. أى أن رؤية الفن تتم بالبصيرة وليس بالبصر فقط. ويقول ابن المقفع عن القلم: «يريد العلم يخب بالخبر، ويجلى مستور النظر، ويشحذ إكليل الفكر ويجتنى من مشقة ثمرة الغير والعبر». ويعرف أبو حيان الجمال فيقول: إنه كمال فى الأعضاء، وتناسب بين الأجزاء مقبول عند النفس».

وفى الرسالة يضع أبو حيان شروطاً للخط الجميل فيقول:

«.. والكاتب يحتاج إلى سبعة معان: الخط المجرد بالتحقيق، والمحلى بالتحديق، والمجمل بالتحويق، والمزين بالتحريق، والمحسن بالتشقيق، والمجداد بالتحديق، والمميز بالتحريق».

وتنفرد رسالة التوحيدى فى الخط بتفسير هذه المعانى، فيقول:

«أما المجرد بالتحقيق: فإبانة الحروف كلها منورها ومنظومها.

«أما المراد بالتحديق: فإقامة الحاء والخاء والجيم وأشبهاها على تبيض أساطها.

«أما المراد بالتحويق: فإدارة الواوات والفاءات والقافات.

«أما المراد بالتحريق: فتفتيح وجوه الهاء والعين والغين.

«أما المراد بالتحريق: فإبراز النون والياء مثل عن وفى ومتى.

«أما المراد بالتحقيق: فتكنف الصاد والضاد والكاف.. مما يحفظ عليها التناسب والتساوى،

فالخط فى الجملة كما قيل هندسة روحانية بألة جسمانية.

«أما المراد بالتنسيق: فتعميم الحروف كلها مفصولها وموصولها.

«أما المراد بالتوفيق: فحفظ الاستقامة فى السطور من أولها إلى آخرها.

«أما المراد بالتحديق: فتجديد أذنان الحروف بإرسال اليد واعتمال سن القلم.

«أما المراد بالتحريق: فحفظ الحروف مزاحمة بعضها لبعض وملابسة أول منها لآخر ليكون كل حرف منها مفارقاً لصاحبه بالبدن، جامعاً بالشكل الأحسن»^(٨).

ويحدثنا التوحيدى فى رسالته عن أنواع الأقلام وطرق بريها وقطعها، فيقول على لسان أحد أرباب المهنة:

«خير الأقلام ما استمكن نضجه فى جرمه، وجف ماؤه فى قشره، وقطع بعد إلقاء بزره، وصلب شحمه، وثقل حجمه».

وقال آخر:

«والقلم المحرف يكون الخط به أضعف وأحلى، والمستوى أقوى وأصفى، والمتوسط بينهما يجمع أحد حاليهما، وما كان فى رأسه طول فهو يعين اليد الخفيفة على سرعة الكتابة، وما قصر فيخالفه».

أما يرى القلم فىرى التوحيدى أن له أربع طرق وهى الفتح والنحت والشق والقط. أما القلم فهو أنواع، منه الفارسى والبحرى والنبطى، حسب نوع القصة.

أما مبادئ تعليم الخط، فيحدثنا بها التوحيدى على لسان إبراهيم بن العباس مخاطباً غلامه:

«ليكن قلمك صلباً بين الدقة والغلظة، ولا تبره عند عقدة، فإن فيه تعقيداً للأمر، ولا تكتب بقلم ملتو، ولا ذى شق غير مستو، واجمل سكينك أحده من الموسيقى وأجسود الخط أبيته»^(٩).

ويظهر الخط العربى ربحت الحضارة والتراث الإنسانى نوعاً جديداً من الفنون التشكيلية. وفى تصورى أن الفنان العربى، فى إبداعاته المتنوعة واستخداماته المتعددة للخط العربى، استطاع أن يسبق حركة الفن التشكيلى المعاصر فى نزوعه إلى التجريد. وقد لجأ الفنان العربى إلى التجريد هروباً من التشخيص فى بداية الدعوة الإسلامية، وهى حالة فرضتها عليه ضرورة الامتثال لأوامر بعض الفقهاء الذين فسروا بعض أحاديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) على أنها تحريم للتصوير، وإن استقر رأى الكثير من المفسرين والباحثين على أن هذه الأحاديث كان يقصد بها فى البداية صرف المسلمين عن عبادة الأصنام، خاصة أنه لا يوجد نص قرآنى بالتحريم أو تجريم التصوير.

فلما كان المسلمون فى البداية على غير وفاق بالتصوير والنحت، فلم يكن أمام الفنان المسلم سوى كتابة آيات من القرآن الكريم داخل المسجد وفوق جدران المآذن، تبركا وتقرباً إلى الله وتجيلاً وتزيينا لبيوته. ولا نعتقد أن الفنان الإسلامى الذى أبدعت يده تلك الآيات المحفورة أو البارزة على شرفات المآذن العالية قد كتبها وهى على هذا الارتفاع الشاهق ليقرأها المارة أو المصلون، وإنما كتبها ليزينها «بصرياً» للناظرين، ويشرى عمارة المسجد بلوحات بصرية مجردة ولمسات جمالية رائعة.

ومن هذا المنظور للوحات الخطية، نستطيع أن نقول إن الفنان العربى أنجز أعظم لوحات تجريدية باستخدامه وحدات الحرف العربى فى التشكيل. وقد ساعده على ذلك قابلية الحرف العربى للمدد والمط والاستدارة والبسط والصمود والهبوط واللين والجفاف. حتى عند تعامله مع الكائنات الحية والأوراق والفصوص النباتية، لجأ إلى تلخيصها وتحويرها،

خوفاً من أن يكون محاكياً لطبيعة الكائنات التى هى من صنع الله وحده.

وهروبه من المحاكاة مكنه من النجاح فى التوصل إلى حلول جديدة هى أقرب إلى التجريد بمفهومه المعاصر، وإلى الفن البصرى الحديث.

وإذا كان فيكتور فازاريللى، وهو رائد مدرسة الفن البصرى التمسوى، قد أنجز أفضل أعماله فى الفن البصرى المعاصر، فإننا نعتقد أن الفنان العربى كان قد سبقه إلى ذلك بقرون عدة، وإن اختلفت طرق المعالجة. فقد استخدم هذا الفنان العربى وحدات الخط العربى فى تكوينات التضاضط والتخلخل، متباعدة مرة ومتقاربة أخرى، فى تناغم حركى وتشكيل رائع، لتضعنا فى النهاية أمام فن بصرى بالغ الجمال، منتظم الحركة. ونجح الفنان العربى منذ زمن بعيد فى تحريك مساحات الأبيض بين الأسود والزخارف الدقيقة والمنمنمات بين شموخ الحرف وقوته، وفعل ذلك منطلقاً من رؤية فنية محسوبة بدقة، وخبرة اكتسبها عبر ممارسات طويلة بإيمانه الشديد بعمله، وصبره العجيب للوصول إلى أعظم النتائج. حتى إننا نجد الفنان ليوناردو دافنشى، أحد رواد عصر النهضة، يقدم نصائحه لتلاميذه من أربعة قرون فقط!! والتى مازال معمولاً بها حتى يومنا هذا فيقول:

«إن الألوان تبدو أكثر وضوحاً إذا وضعت أضدادها.. فاللون الأبيض يبدو أكثر ضياء مع الأسود»^(١٠).

ولم يكن دافنشى يعلم أن أبا حيان التوحيدى كان قد سبقه فى إهداء هذا النصح الفنى بقرون عدة، فهو يروى لنا فى رسالته على لسان العسجدى:

«للخط دياجاة متساوية، فأما وشيه فشكله، وأما التماعه فمشاكله بياضه لسواده بالتقدير، وأما حلاوته فافتراقه فى اجتماعه».

ويعود أبو حيان فيؤكد لنا علاقة الخط بالتصوير من حيث الإتقان الفنى، فيقول فى رسالته:

وتعليقا على الوصف السابق، واتساقا وراء أفكار كلى نفسها، يقول أبو سليمان المنطقى فى رسالة التوحيدى:

«لكنما اشتق هذا الوصف من الموسيقى، لأنه يزن الحركات المختلفة فى الموسيقى، فتارة يخلط الثقيلة بالخفيفة، وتارة يجرّد الخفيفة من الثقيلة، وتارة يرفع إحداها على صاحبها، بزيادة نغمة، أو نقصان نغمة، ويعرّف فى أثناء الصناعة بالطف ما يجسد من الحس فى الحس، ولطيف الحس متصل بالنفس اللطيفة، كما أن كثيف النفس متصل بلطيف الحس».

ولا أظن أن بول كلى ابتعد كثيرا عن هذا المعنى الذى أورده التوحيدى فى رسالته عن الخط العربى، خاصة إذا استثنينا ما تراكم من خبرات علمية وفنية فى جعبة التراث الإنسانى عبر العصور، استفاد منها كلى لإثبات ما كان قد توصل إليه التوحيدى بشكل نظرى.

ويؤكد لنا هذا الكلام ما قاله الناقد التشكيلى العراقى عفيف بهنسى، عندما يحدثنا عن هندسة الخط فى اللوحة التشكيلية:

«.. لقد تبين أن فى الخط المستقيم صلابة وتكلفا بعيدا عن الجهد، وهو ضعيف التعبير عن الجمال، ناقص المدلول، فهو لا يثير انتباهها حادا، ولكنه انتباه عفيف إذ يعبر عن القسوة وعن القلق، كما يعبر عن الجفاف والجفاء، أما الخط المنحنى فهو خط اللطافة والحركة التى تبرز بلا تكلف أو جهد».

ومن حيث انتشار الخط، يقول أيضا:

«فهو إما خط رفيع أو خط عريض أو متقطع أو هو أفقى أو مائل، على أن تأثير الخط لا يبدو واضحا ما لم يكن فى حالة بوليفونية؛ أى مختلطا مع أنواع أخرى من الخطوط».

«... إن للخط الجميل وشيا وتلوينا كالتصوير، وله التمازج كحركة الراقصين، وله حلاوة كحلاوة الكتلة المعمارية».

ولعل بول كلى klee واحد من الذين استطاعوا أن يعيدوا اكتشاف تلك الحقائق القديمة لإثبات هذه العلاقات مستخدما تقنيات العلم الحديث فى التحليل والدراسة، فقد اعتنى بتركيز العلاقات بين الموسيقى والتصوير. فنحن، عندما نتحدث عن الإيقاع فى الموسيقى ثم ننقل هذا إلى العمارة والتصوير، فإننا فى الواقع نحلل العناصر التقنية وليس الفنية. ودراسات كلى قادت إلى نوع من الرسم «البوليفونى». والمقصود هنا بالبوليفونى فى لوحة أو مقطوعة موسيقية هو عدة أصوات متوافقة ومتداخلة وفق أسلوب مصطلح عليه، وهذه الأصوات قد تكون ألوانا ومساحات وقيما ضوئية، أو دقة فى المنظور. وعندما تتعمق وتتداخل عناصر القطعة الموسيقية أو تتعمد عناصر اللوحة وتتداخل (كما فى الفن البصرى)، فإن قواعد الطبايق تتحكم فى الألحان والتوفيق بين العناصر التقنية كالإيقاع واللحن، وكذلك فى التصوير نجد الظاهرة نفسها والعلاقات نفسها فى الإيقاع الخطى واللونى، أو الشكل والصيغة فى الفن التجريدى أو الزخرفى البصرى، أو التضاد اللونى والمنظور والتدرج:

«حتى إننا نجد أن أكثر الفنانين التجريديين أخذوا الآن يهتمون بالقواعد النظرية فى الموسيقى ويحاولون تطبيقها فى التصوير، وأصبحنا نرى الآن لوحات تحمل اسم سيمفونية»^(١١).

ومن الغريب أن كلاما يتضمن المعنى نفسه تقريبا كتبه أبو حيان التوحيدى فى القرن الرابع الهجرى؛ إذ يقول فى رسالته على لسان على بن جعفر:

«لا شئ أنفع للخطاط من ألا يأشر شيئا بيده فى رفع ووضع، خاصة إذا كان الشئ ثقيلا فإن الحركات إذا تمثلت بالحروف، والحروف إذا اندفعت بالحركات، كانت الصورة الخطية، والحروف الشكلية محفوظة الأعيان بامتلائها بها، محروسة الأبدان بانتسابها إليها».

فينا حتى الآن، حتى إنه عندما يتحدث عن حسن الخط وعن دور القلم، فإنما يتحدث عن الفن بصورة عامة؛ ذلك أنه:

«كخطاط وراق وأديب مبدع، وباحث لا يستجلب أمثلته ولا تدور أفكاره إلا من معين مهنته وفنه».

وهكذا، فإن ما نستخلصه من مبادئ علم الجمال قالها أو جمعها عن غيره من المشتغلين في مهنته أو البارعين في فنه ليزيد موضوع علم الجمال العربي ثراء ووضوحاً، فيقول التوحيدى على لسان على بن عبيدة: «القلم أصم ولكنه يسمع التجوى، وأبكم ولكنه يفصح عن الفحوى». ويستعرض التوحيدى تعريفه للفن فيقول:

«.. الفن مؤلف من شكل ومضمون، من فكر هو الحكمة، وإبداع هو البلاغة، وهو لرى العقول الطائفة والنفوس التواقفة للجمال».

*

ذلك هو أبو حيان التوحيدى، وتلك كلماته عن الفن ورؤيته في علم الخط. ورغم احتفاء المستشرقين والمؤرخين بأبى حيان، فإن الناس أنكروه في عصره. وقد تعاونت أسباب كثيرة على تنكر الناس له، وهذا ما انعكست ظلاله على شخصيته. وقد ساعدهم أبو حيان على نسيانه والتنكر له؛ إذ:

«عاش في عزلة عن الناس... ثم أحرق كتبه وغسلها بالماء فأثلفها... فمهد للتاريخ من بعده أن يتجاهله ويتناساه وأن يطويه فيما طوى من كنوز» (١٣).

ولعلنا، في تلك المجالة، ننجح في إلقاء بصيص من الضوء على دور التوحيدى في إرساء مبادئ علم الجمال وفن الخط في حياتنا، أو لعلنا نوفيه بعضاً من حقه الضائع في عصر تنكر له وتناساه وسلبه حقه، في تاريخ زاخر بالاحتفاء بمن هم دونه علماً وفناً وموهبة.

ومن الملاحظ هنا أن مجمل هذا الكلام الذى يوضح هندسة «الخط» فى اللوحة التشكيلية؛ باعتباره أحد العناصر الأساسية فى اللوحة كالألوان والنور والظل والتكوين... إلخ، يمكن أن تقدمه لوحة الخط العربى أيضاً، بل إن كثيراً من الفنانين المعاصرين استفادوا كثيراً، بل صاروا متميزين بين أقرانهم لأنهم قرروا أن يستفيدوا، من هندسة «الخط» فى اللوحة التشكيلية، لأننا نعتقد أن ذلك ما يقدمه الخط العربى فى تراكيبه المتشابهة فى «خط الثلث المركب» و «الديوانى الجلى» و «الكوفى المورق المظفر»، سواء كان عباسياً أو فاطمياً أو مملوكياً أو أندلسياً، بل إن «خط الطغراء» ما هو إلا نموذج حتى للاتفاق التام مع المعنى السابق.

ورغم أن الخطوط العربية أحرزت تطوراً كبيراً، عبر عصور متتابعة من التجديد والابتكار والإبداع، فإن التوحيدى فى رسالته عن الخط يتفق معنا ومع عقيف بهنسى فى المعنى ذاته؛ إذ يقول على لسان ابن المرزبان:

«.. الخط هندسة صعبة، وصناعة شاقة، لأنه إن كان حلواً كان ضعيفاً، وإن كان متيناً كان مفسولاً، وإن كان جليلاً كان جافياً، وإن كان رفيقاً كان منتشرًا، وإن كان مدوراً كان غليظاً، فليس يصح له شكل جامع لصفاته الكبير والصغير إلا فى الشاذ المستندر».

ويقول التوحيدى أيضاً: «أصلح الخطوط وأجمعها لأكثر الشروط ما عليه أصحابنا بالعراق». فسأله أبو عبد الله بن الزنجى ما تقول فى خط الخطاط الوزير ابن مقلة، فقال: «... ذاك نبى فيه، أفرغ الخط فى يده كما أوحى إلى النحل فى تسديس بيونه».

والواقع أن أباً حيان التوحيدى نجح فى رسالته عن الخط فى أن «يشير العديد من المشكلات المعاصرة فى الفن وفى قواعده» (١٢).

ومن هنا، يعد التوحيدى واحداً من أهم النقاد الفنانين العرب؛ إذ إن حقائقه القديمة مازالت صالحة لإثارة الدهشة

الهوامش

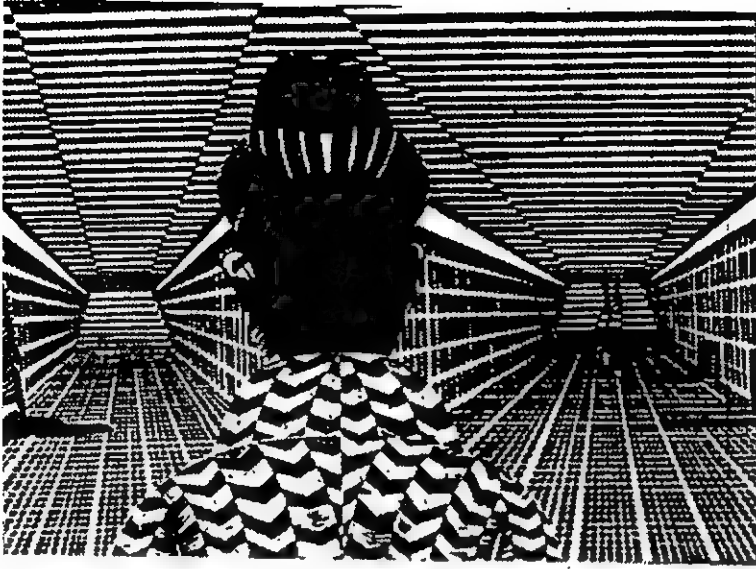
- (١) لسان الميزان، لأحمد بن على بن حجر العسقلانى.
- (٢) سيرته - آثاره، لعبد الرزاق محبى الدين.
- (٣) المصدر السابق.
- (٤) علم الجمال عند أبى حيان، عفيف بهنسى.
- (٥) معجم الأدباء.
- (٦) المصدر السابق.
- (٧) الرسائل، لأبى حيان التوحيدى.
- (٨) نص الرسالة.
- (٩) نص الرسالة.
- (١٠) علم الجمال عند أبى حيان، عفيف بهنسى.
- (١١) المصدر السابق.
- (١٢) المصدر نفسه.
- (١٣) سيرته - آثاره لعبد الرزاق محبى الدين.

ملحق

- لوحة معاصرة عنوان (تكوين)
- لوحات مقارنة للإيضاح
- نموذج من الفن المعاصر للفنان الفرنسى «موريليه»
- نموذج من الخط الكوفى يصلح لأن يكون فناً بصرياً للخطاط العراقى هاشم البغدادى: «لله الملك وحده».
- فن بصري معاصر
- لوحة بالخط الديوانى الجلى كتبها محمد شفيق سنة ١٢٩١هـ.
- كلام اللوحة:
- وأعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم؛
- اللهم يا مفتاح الأبواب افتح لنا خير باب».
- نلاحظ هنا أن القيمة الجمالية للتكوين وتداخل الخطوط وعلاقات الأبيض والأسود متحققة بشكل أكثر جمالاً فى لوحة الخط العربى، وهى تصلح كرمز «بوليفونى معاصر»
- صفحة من القرآن الكريم تحقق فيها روعة التكوين والجوخ للتجريد لدى الفنان الإسلامى.

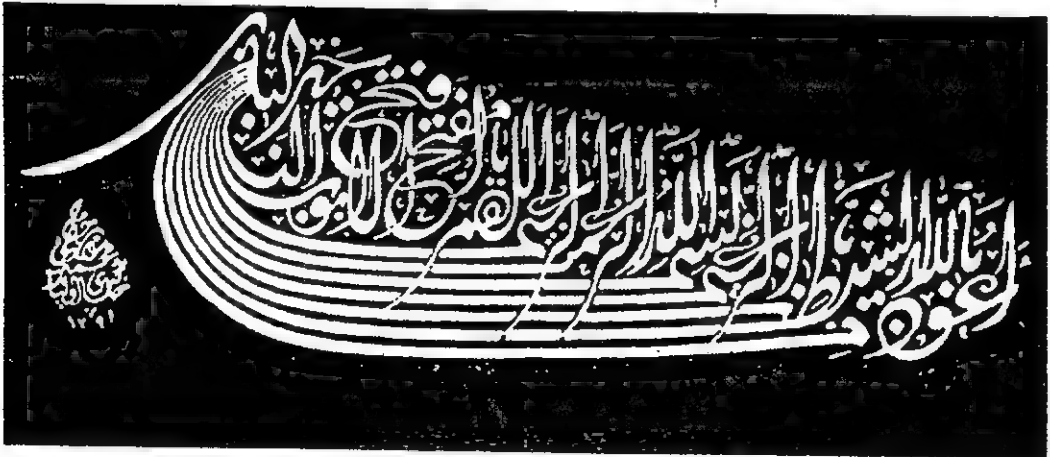
ملحق

لوحات مقارنة للإيضاح

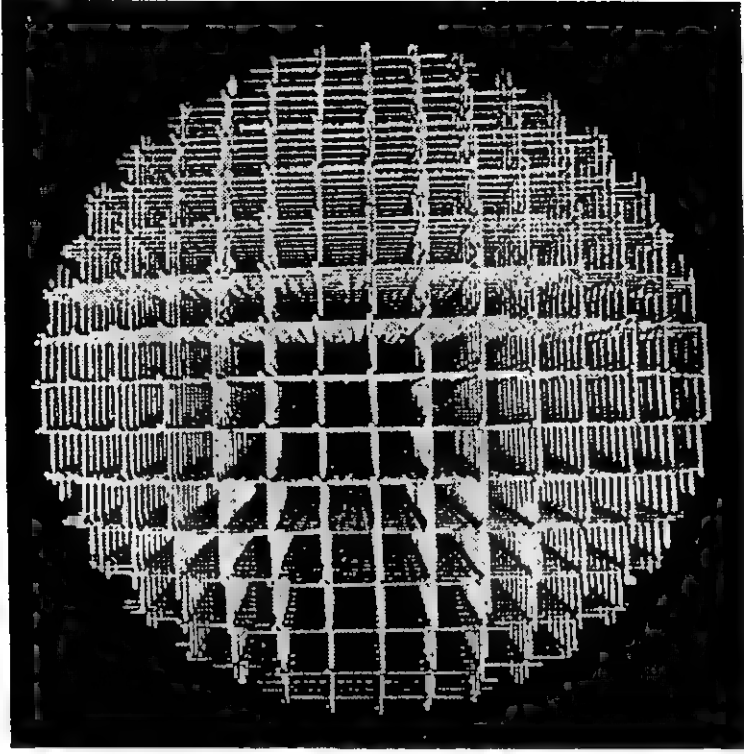


فن بصري معاصر

لوحة بالخط الديواني الجلى كتبها محمد شفيق سنة ١٢٩١ هـ كلام اللوحة:
وأعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم:
الهم يامفتح الأبواب افتح لنا خير باب.



نلاحظ هنا أن القيمة الجمالية للتكوين وتداخل الخطوط وعلاقات الأبيض والأسود متحققة بشكل أكثر حمالاً في لوحة الخط العربي وهي تصلح كرسوم «بوليفوني معاصر».

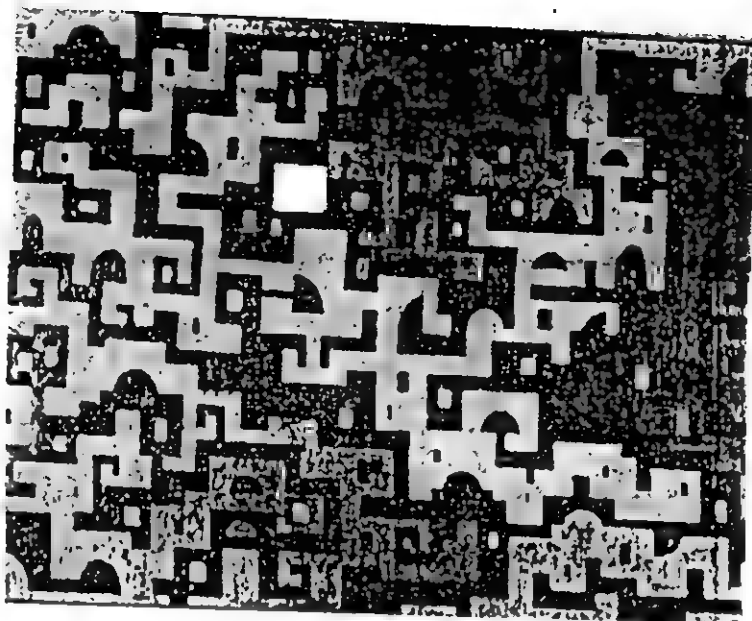


نموذج من الفن المعاصر للفنان الفرنسى «موريليه»

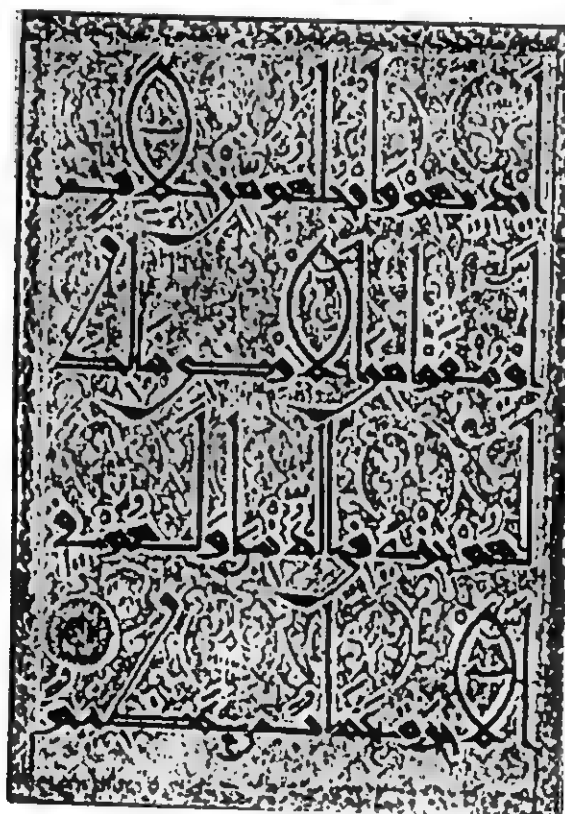


نموذج من الخط الكوفى يصلح لأن يكون
فنّاً بصرياً للخطاط العراقى هاشم البغدادى:

«لله الملك وحده»



لوحة معاصرة عنوان: «نكوب»



صفحة من القرآن الكريم تحقّق فيها روعة النكوب والحوح
للتجريد لدى الفنان الإسلامي.

التفكير النقدي

فى كتاب المقاييسات للتوحيدى

«مقاربات نصية. وقراءة ذاتية»

عبد القادر الرباعى*

- ١ -

عاماً ومسطحاً وموجزاً؛ إذ لم يأخذ إلا أربع عشرة صفحة (ص ٢٦٨ - ٢٨٢).

كان لابد، إذن، من إيجاد منهج يبحث رأسياً فى جانب من فكر التوحيدى ثم ربطه، بعد ذلك، بفلسفته المركزية المحورية. من هنا وقع اختيارى، تحقيقاً لهذا الهدف، على كتاب (المقاييسات) - الكتاب الفلسفى الذى حوى أهم آرائه فى الإنسان، والحياة، والعلم، والمعرفة، واللغة، والأدب: شعراً ونثراً.

وبعد قراءة متأنية للكتاب، وجدت أن التفكير النقدي فيه متقدم يتعدى الحديث المباشر عن المنظوم والمنثور أو البلاغة والبيان، إلى حوار شامل فى أحوال متنوعة ينتظمها خط فلسفى موحد لبواعتها، راصد لتشعباتها، جامع لمخرجاتها. لأجل ذلك وجدت الخوض فى عباها قد يحقق ميزة ربما لم تنهياً لدراسة سابقة عليه، فكان هذا البحث ثمرة ذلك الخوض، وعلامة على الاجتهاد فيه.

كثرت الكتابة حول أبى حيان التوحيدى وكتبه وأفكاره. ولكن الدراسة فى هذه الكتابات كانت بحثاً أفقياً فى مسائل عامة وشاملة^(١)، حتى إن الكتاب الذى خصصه عبدالأمير الأعمش - أستاذ الفلسفة الإسلامية بجامعة بغداد - لدراسة كتاب (المقاييسات) يندرج فى هذه الدراسات الأفقية، لأن الجانب الذى تناول فيه المنهج التحليلى للكتاب لم يأخذ سوى جزء يسير من كتابه، ولم يبحث فيه إلا مسائل شكلية حول تركيب الكتاب من السماع والمحاور والأمالى وغيرها، وحول التعريف بالفلاسفة الذين حاورهم أبو حيان، والقاسم المشترك بينهم. أما التحليل الموضوعى للأفكار الفلسفية فى الكتاب - وهو التحليل المعول عليه فى باب - فكان تحليلاً

* قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة اليرموك، إربد، الأردن

موجودة ... واعلم أن الغرض كله في هذا الكتاب، في جميع ما يثبت عن هؤلاء الشيوخ، إنما هو في إيقاظ النفس، وتأبيد العقل، وإصلاح السيرة، واعتياد الحسنة، ومجانبة السيئة» (ص ٧٩ - ١٨٠).

وهذا يعني أن كل الأفكار النقدية حول الأدب والشعر تنحصر نحو هذا الهدف النبيل.

ونالها: أن من يتعرض لفلسفة أبي حيان النقدية في (المقاييس)، عليه أن يدرك شمولية هذه الفلسفة التوحيدية من جهة، وأن يردّها إلى أساسيات القوى الداخلية للإنسان من جهة ثانية. فأبو حيان لا يفصل آراءه في الأدب واللغة والبلاغة عن آرائه في الموجودات الأخرى كالحركة، والسكون، والحب، والعشق، والهوى مثلاً. ذلك لأنها جميعاً تردّ عندّه إلى قوى داخلية تقوم على بحث هذه العلة أو تلك، وإحيائها، وتنظيمها وفق حاجات إنسانية ملحة في زمان ما، ومكان ما، وعلى هيئات متفاوتة في القرب والبعد أو الارتفاع والانخفاض، والشدة والرخاوة، والثبات والتغير، وما إلى ذلك من أحوال.

إن فلسفة أبي حيان مبنية على أساس شمولي تداخل يرسى في الحركة والفاعلية والتركيب الأساس هنا وهناك، فهو ينقل عن العامري قوله:

«والمرض والعافية في الأبدان بمنزلة الغنى والفقر في الأحوال. والغنى والفقر في الأحوال بمنزلة العلم والجهل في القلوب، والعلم والجهل بمنزلة العمى والبصر في العيون».

ثم يتابع:

«والفساد، والصلاح في الأمور بمنزلة الضمة والرفعة في المراتب. والضمة والرفعة في المراتب بمنزلة القبح والحسن في الصور. والقبح والحسن في الصور بمنزلة العمى والبصيرة في الألسنة. والعمى والبصيرة في الألسنة بمنزلة الاعوجاج والاستقامة في الأعضاء» (ص ١٧٨ - ١٧٩).

اعتمدت النص التوحيدي منهجاً للقراءة الذاتية، والتأويلات الفردية، دون أن أرند في ذلك إلى قراءة غيري لأنني أو أختلف معه. فكل ما سيأتي من تأويلات جاء من المقاربة بين النصوص المتباعدة في الكتاب مكاناً وموضوعاً، وإمعان النظر في النصوص المتقاربة مكاناً وموضوعاً أيضاً. وقصدى أن أشكل من التباعد جمعاً، ومن الكثرة وحدة، ومن التعدد كلاً، رغبة مني في الوصول إلى لب البناء الفكري النقدي الذي حكم الآراء في الكتاب.

كان ضم النصوص إلى بعضها بعضاً يكشف أمام البصر والبصيرة ما هو مستور داخل ثنايا النص الواحد في حال كونه معزولاً عن أخيه وجاره وابن عمه. لكن هذه النصوص احتاجت مني قراءات وتأملات حتى التأمت الكلمات والعبارات والجمل على معان متوافقة، وآراء متوائمة. وخرجت من هذه التجربة بقناعة يقينية هي أن النصوص المتجاورة على الاتفاق أو الاختلاف أو التعارض تؤلف مورداً عذبا صافياً لا يخل متدبره ومتذوقه وشاربه.

عند اقتربنا من فلسفة التوحيدى في كتاب (المقاييس) (٢) علينا استحضار أمور ثلاثة مهمة:

أولها: أن أبا حيان يبدو لنا في الظاهر ناقلاً عن شيوخ عدة، وعلى رأسهم أستاذه أبو سليمان النجستاني المنطقي، لكن هذا النقل لم يكن - على الحقيقة - نقلاً محايداً، وإنما هو إعادة صياغة المفاهيم على قدر الإيمان بها، والوعى العميق بأسرارها، والتبني الكامل لأبعادها ومراميها، وهذا كاف لأن تكون هذه الأفكار أفكار التوحيدي نفسه. وقد تكون تعريفاته الخاصة حول مضامين الكتاب ومصطلحاته (ص ٢٤٥ - ٢٥٧) دليلاً مقنعاً على أنه يكتب بوعيه وفهمه، ويعبر عن فلسفته كما بلورها هو نفسه.

وثانيها: أن أبا حيان حدد هدفه من الكتاب فجعله لفائدة الإنسان وخيره. قال:

«فما أحوج الإنسان ... إلى بقظة بها يكسب في معاشه، ومنها يقتبس لمعاده ... فباب الخير مفتوح، وداعي الرشاد ملح، وخاطر الحزم معترض، ووصايا الأولين والآخرين قائمة، ومزاجهم

أما العقل، فهو - كما ينقل عن النوشجاني:

«خليفة العلة الأولى عندك، يناجيك عنه» (٣) ويناغيك به، ويبلغ إليك منه، ويدلك على قصده، والسكون في حرمه، ويدعو إلى مواصلته والتوحد به... بل العقل إذا رنوت إليه، وهو في يفاع القدس، ومغنى الإله، أيقنت أنه صورة سمردية مشاكهة للمبدأ الأول، يكاد يكون بها كأنه هو (ص ٤٦٧ - ٤٦٨).

وهو - كما ينقل عن العامري: «خليفة الله تعالى في هذا العالم» (ص ١١٨). وللعقل جهات ثلاث: «جهة إلى الباري، وجهة إلى المعقولات [أي الموضوعات] وجهة إلى ذاته» (ص ٣٩٦).

أما الحس فهو - كما عرفه في موضع: «قوة روحانية تفعل فعلها من خارج» (ص ٣٧٣)، وكما عرفه في موضع آخر: «هو قبول صور المحسوسات دون حواملها» (ص ٣٦٣).

والعقل، عند التوحيدى وشيوخه، أشرف من الحس وأرفع. أما الحس فأدنى من العقل، وأقل شأنًا. لذلك كان الحس خادماً للعقل، رائداً له، والعقل مستريداً له. فعندما سئل أبو سليمان: فلم استغنى في نهاية المعقول عن الحس، ولم يستغن في نهاية المحسوس عن العقل؟ قال:

«لأن المعقول في نهايته عقل، والعقل غنى عن كل شيء ينحط عنه. والمحسوس في نهايته حس، والحس يحتاج إلى ما ارتفع عليه. ولابد من حس يبين به الخلق في العموم ولابد من عقل يوصل به إلى الباري. على الخصوص. والحس رائد ولكنه يرود لمن هو أعلى منه. والعقل مستريد ولكنه يستريد من هو دونه» (ص ١٣٩ - ١٤٠).

فإذا كان الحس ينحدر إلى الأرض والخلق بعامة، فإن العقل يصعد إلى الباري تعالى بخاصة. وهذه شقة واسعة بينهما، لكنهما - مع ذلك - يطلبان معاً، لأن الأحوال والأمور لا تتم إلا بتكاملهما وتساندهما. فالعقل وحده - على شرافته - لا يكفي لإدامة الحياة، كما أن الحس -

فالأشياء والمعاني في الحياة - كما يستنتج من النص السابق - تتشاكل، وتتلاقى مهما اختلفت منابعها، وتنوعت أحوالها. فما ينطبق على الأدب ينطبق على أمور في الحياة بعيدة عن جوه وسماته. حين احتاج التوحيدى - مثلاً - أن يجد نقيضاً لعلم التنجيم، الذى لا يثق بنتائج، أورد العلوم الأخرى مجتمعة، فساوى بين الطب والهندسة والشعر والنحو وما إلى ذلك. قال:

«قيل لم خلا علم النجوم من الفائدة والثمرة؟ وليس علم من العلوم كذلك، فإن الطب ليس على هذا... وكذلك النحو... وكذلك الشعر... والبلاغة، والصناعات كلها كالهندسة... والهيئة» (ص ٥٨ - ٦٠).

هو في نظرنه الشمولية هذه يصدر عن توافق في المخرجات والنواج، بقطع النظر عن العلة المسببة لها:

«فكل ما فعلته النفس بالأدب - كما قال أبو سليمان - فعلته الطبيعة بالعادة، وفعله العقل بالتشقي، وفعله الباري تعالى بالجوده» (ص ٢٧٩).

وقد تستند شمولية نظرنه إلى طبيعة التفكير الفلسفى العام الذى عليه كتاب (المقابسات). إنه - كما يقول عبدالأمير الأعسم:

«سجل للأفكار الفلسفية بالدرجة الأولى، فهو كتاب يحمل على كتب الفلسفة بالمعنى الدقيق لكلمة فلسفة» (انظر كتابه السابق ص ١٠٩).

- ٢ -

تشكل ثنائية العقل والحس الأساس الأول والأهم الذى بنى عليه التوحيدى أفكاره الفلسفية بعامة، والأدبية بخاصة. إن منطلقاته الفلسفية والمنطقية أعلنت كثيراً من قيمة العقل، وحطت من قيمة الحس، كما سئرى من خلال صفات كل منهما في الكتاب. وقد لا يخطئ المدقق إذا ما قرر أن كل فلسفة التوحيدى في (المقابسات) ترتد إلى الموازنة بين العقل والحس.

على قلة شأنه قياساً بالعقل - لا يستغنى عنه للغرض عينه، فهو لازم لزوم العقل سواء بسواء. فسماعة الإنسان - برأيه - تقوم على أساس المحسوس والمعتول معاً. قال:

«فاسعد أيها الإنسان بما تسمع وتحس وتعقل، فقد أردت لحال نفسية، ودعيت إلى غاية شريفة، وهيئت لدرجة رفيعة، وحليت بحلية رائعة، ونوجيت بكلمة جامعة» (ص: ٥٧).

وتظل الحسيات معابر للعقليات، لأننا لا نستطيع أن نصل إلى عالم العقل متجردين من أشياء الحس، وحين نصل إلى حقائق العقل نفارقها مستغنيين عنها:

«ولما كنا بالحس في أصل الطبيعة، لم ننفلك منه، ولما كنا بالعقل في أول الجوهر لم نجهل فضله... ففنى كل محسوس ظل من العقل» (ص: ١١٨).

وتكامل الحس والعقل يشير إلى أن كل واحد منهما يد جانباً في الإنسان، فإذا كان الحس يدل على الجانب الضعيف المحدود، فإن العقل يشي بالجانب القوى المطلق، ذلك لأن:

«الحس ضيق الفضاء، قلق الجوهر، سيال العين، مستحيل الصورة، متبدل الاسم، متحول الثمت. والعقل فسيح الجو، واسع الأرجاء هادي الجوهر، قار العين، واحد الصورة، راتب الاسم، متناسب الحلية، صحيح الصفة» (ص: ١٧١).

كما أنهما معاً توحيد للظاهر والباطن من الإنسان، فالحس مجاله الجسم البادى، والعرض الظاهر. أما العقل فمجاله المعدن الدفين، والجوهر الثمين.

والإنسان مركب من متناقضات، لأنه مشتمل على العقل والحس معاً، لذلك هو - كما قال النوشجاني:

«شخص بالطبنة، ذات بالروح، جوهر بالنفس، إله بالعقل، كل بالوحدة، واحد بالكثرة، فان بالحس، باق بالنفس، ميت بالانتقال، حي

بالاستكمال، ناقص بالحاجة، تام بالطلب، حقير في المنظر، خطير بالخبر، لب العالم، فيه من كل شيء شيء، وله بكل شيء تعلق» (ص: ٤٧٣).

تكامل العقل والحس في الإنسان، إذن، شاهد على نوازم المتناقضات فيه، وعلى التقائهما معاً في الحياة. فإذا كان العقل خاصاً بالكليات، فإن الحس منتسب إلى الجزئيات. والوحدة في العقل تجميع للكثرة في الحس، ووراء الحس أمر يعقل لتحقيق التوحد. كأن هذا يشي بما يعرف في لغة النقد الحديث؛ الوحدة في التنوع والتعدد:

«فبالواجب خالف حكم الحس حكم العقل حتى صار في المعتول كل مختلف متفقاً، وكل كثير واحداً، وكل بعيد قريباً، وكل مظنون متفياً، وذلك لأن الوحدة العقلية في الكثرة الحسية مدججة» (ص: ٢٣٣ - ٢٣٤).

وهما معاً متلازمان لحبوية الحياة وبعث المشاعر الإنسانية المتقاطعة والمتعانقة، لأنه لو «استوى الطرفان لسقط البحث وزال المرء، وكان لا يشتاق الغريب إلى وطنه، ولا يحن الجوهر إلى معدنه» (ص: ٢٣٤). فمن خلال فكرة المخالفة أو التناقض التي تجمع بين الحس والعقل على أساس بث الحيوية والفاعلية الإنسانية في أشياء الكون، انتسب الحس إلى الحركة، والعقل إلى السكون. لكن حركة الحس - مع ذلك - لا تتم إلا بتأثير فاعلية العقل، لأن الحس - كما مر بنا - لا يستغنى عن العقل. وحين سئل أبو محمد العروضي عن الحركة والسكون، أجاب:

«كل حس فقوامه بالحركة، وكل عقل بالسكون ونظامه بالهدوء، وخاصته بالطمأنينة، وأثره بالقرار، وقوته باليقين... والسكون عند العقل عدم الحس، والحركة عند الحس بتأثير العقل» (١٥٥).

وهكذا كان التباعد بين العقل والحس، وهكذا كان التقارب والتلاحم والتكامل، لكنهما معاً في نياعهما وتقاربهما يصدران عن الإنسان في توافقاته، وتناقضاته.

- ٣ -

ومادونا في حيز القواعد الداخلية التي يستند إليها تفكير أبي حيان النقدي، فإن علينا أن نقف عند قاعدتين أخريين هما: الطبيعة والنفس.

الترتيب التنازلي لهاتين القاعدتين بالنسبة إلى العقل كالتالي: العقل أولاً، والنفس ثانياً، والطبيعة ثالثاً. «فالنفس تستمد من العقل الصور، والطبيعة تستمد من النفس، وتقوى بها، وإشراق الشمس عليها يقوى على قواها، ولولا ذلك لضعفت وانقضت» (ص ٣٩٦). وهذه القوى الثلاث تتساند، ولا تعمل متفاصلة، بل متعاونة لأنها من أصل واحد، ونسب جامع. وإذا كانت هناك تفرقة بينها فالتفرقة:

«لا تقع من جهة الطبيعة الأولى»^(٤) لأنها واحدة سارية في الجميع، لكنها وقعت من جهة المواد^(٥) والقوابل بالزائد والناقص... فالطبيعة نفس في الأصل، والنفس عقل في الأول، والعقل هو المبدأ. وكل هذا واحد إذا لحظت القوة الفاضلة والجود المنجر» (ص ٤٥٩ وما بعدها).

أما النفس، فعالها معقد يصعب أن يحاط به، فالتوحيدي يعذر كل:

«خطيب مصقع، وكل طالب مترفق إذا تكلم في النفس ويبحث عن شأنها أن يعيا ويحصر ويقصر، فإن المطلوب فيها صعب، والغاية بعيدة، والشوط بطيء، والعجز شامل» (ص ٤١٥).

ولكنها - مع ذلك - تؤلف بين موجوداتها، على تباعد هذه الموجودات وتناظرها. ويعينها على مهمتها هذه الأصل الذي نشأت منه، فهي جوهر «عقلي متحرك من ذاته بعدد مؤتلف، أو جوهر علامة مؤلفة بالعقل» (ص ٣٧٢).

وعلى الرغم من أن التوحيدي يرفع من شأن العقل على النفس، فإنه - من جانب آخر - يجمعهما معاً على أساس من التكامل والتوحد، «فهو العقل بوجه آخر، والعقل هو بوجه آخر» (ص ١١٠).

ومن القيمة الكبرى التي أعطاها كتاب (المقابسات) للنفس أن الإنسان - كما يقول الضيمري - «إما هو إنسان بالنفس، وللنفس ما هو إنسان» (ص ١١٠). وعن أبي سليمان:

«أن الإنسان قد يكون ذا ثوب، وذا مال، وقد لا يكون. ويستحيل أن يكون إنساناً إلا وهو ذو نفس، لأنه بالنفس ما هو إنسان، ولولا النفس لم يكن إنساناً» (ص ١٣٧).

وأما الطبيعة: «فصورة عنصرية ذات قوتين: متوسطة بين النفس، والجرم»^(٦)، لها بدء الحركة وسكون عن حركة» (ص ٣٧٣). وهي - بكلمة أخرى:

«اسم مشترك يدل على معان: أحدها ذات كل شيء، عرضاً كان أو جوهرًا، وبسيطاً كان أو مركباً، كما يقال طبيعة الإنسان، وطبيعة الفلك... أو المعنى الذي حده أرسطوطاليس، بأنه مبدأ الحركة والسكون للشيء الذي هو منه أولاً، بالذات لا بطريق العرض» (ص ٣١٢).

وذلك يعني أنها طبيعة الشيء التي تؤسس أحواله وصفاته وحركته، وفي فضائله ورذائله، لهذا كانت دعوة التوحيدي للإنسان بأن يكون بطبيعته إنساناً فاضلاً، لأن من:

«غمس نفسه في غمار الطبيعة هلك وطاح، ومتى محا الإنسان آثارها وجلا أصداءها أبصر ما يشئ طرفه عنها، ويرقبه إلى اغل الأسنى» (ص ٢٥٤ - ٢٥٥).

- ٤ -

أول ما يستوجب النقاش من مسائل الفن والأدب والنقد بعد العقل والحس والنفس والطبيعة هو البديهة والإلهام، والروية والفكر أو المطبوع والمصنوع. فالإلهام - كما قال أبو سليمان:

«يحكي الجزء البشري... فمن أجل انقسام الإنسان بين شيء ينبعث منه مشتاقاً إلى مطلوبه، وبين شيء يبعثه شائقاً إلى مطلوبه ما وجب أن

يكون له روية هي به، وبديهة هي إليه»
(ص ٢٢٨).

لعل المقابلة بين المشتاق/ والشائق في النص نوحى بأنهما يعملان في خطين متقابلين متخالفين إن لم يكونا معاكضين، لكنهما يلتقيان في الوسط ليولفاً كلاً واحداً.

إن هذا يعنى أن الإبداع لا يتم بالإلهام وحده، كما لا يحصل بالفكر وحده، وإنما يكتمل بالجانبين معاً: الجانب الفطري الموهوب، والجانب الجهدى المبذول. لكأن أبا حيان التوحيدي يتحدث عن الجانب الذى أخذ مساحة واسعة من النقاش فى الفكر النقدى العربى وهو المطبوع والمصنوع.

لقد تعرض كتاب (المقاسبات) إلى هذا الجانب، وناقشه فى أكثر من موقع، ولكن من جهة حاجة الطبيعة إلى الصناعة. وقد فسر أبو سليمان هذه الحاجة بقوله:

«إنما الطبيعة احتاجت إلى الصناعة فى هذا المكان، لأن الصناعة هاهنا تستملى من النفس والعقل، وتملى على الطبيعة، وقد صح أن الطبيعة مرتبتها دون النفس، وأنها تعشق النفس، وتتقبل آثارها، وتمثل بأمرها، وتكمل بإكمالها»
(ص ١١٣).

لقد بنى هذه الحاجة على أن الصناعة تستمد قوتها وفاعليتها من النفس والعقل، ثم تؤثر بهذه القوة وتلك الفاعلية على الطبيعة، معتمداً على أن الطبيعة عاشقة للنفس التى هى فوقها، تتأثر بها، وتقبل أوامرها، وتكمل معها. ولكي يؤيد ما ذهب إليه ضرب مثلاً على ذلك الموسيقى، قائلاً:

«والموسيقار إذا صادف طبيعة قابلة، ومادة مستجيبة، وقريحة مؤاتية، وآلة متقادة، أفرغ عليها تأييد العقل والنفس لبوساً موفناً، وتأليفاً معجباً، وأعطاهما صورة معشوقة وحلية موفقة... فمن هاهنا احتاجت الطبيعة إلى الصناعة، لأنها وصلت إلى كمالها من ناحية النفس الناطقة^(٧)، بوساطة الصناعة الحاذقة التى من شأنها استملاء ما ليس لها، وإملاء ما يحصل

فيها استكمالاً بما تأخذ وإكمالاً بما تعطى»^(٨)
(ص ١١٣).

فالروية هي: (التمثيل بين خواطر النفس) (ص ٣٦٦).

وتكامل البديهة والروية، أو الإلهام والفكر، أو المطبوع والمصنوع فى أنهما «يجريان من الإنسان مجرى منامه ويقظته، وحلمه وانتباهه، وغيبته وشهوده، وانبساطه وانقباضه» (ص ٢٢٨ - ٢٢٩). فهذه أحوال متغيرة فى الإنسان، لكنها أجزاء منه، فيها معاً يحيا ويتحرك ويتنفس ويعيش لغزاً يعرض ذاته على التحليل والاستنتاج باستمرار، تماماً كالعمل الفنى الناضج، الفن الذى يحتاج دوماً إلى محلل مدقق يجتهد فى حل إشكالاته.

إن الصناعة أو بذل الجهد فى التفكير لبلوغ الكمال فى الفن المبدع، لذكرنا بما يقوله التوحيدي عن المعدن الذى «يخل بما فيه إلا لمستحقه بالطلب والجهد والمعاناة والكدح» (ص ٣٧٦). وينطبق هذا على المبدع الذى يحتاج لإخراج معدن فنه ورؤاه إلى جهد ومعاناة، كما ينطبق على الناقد الباحث عن معدن النص وجوهره؛ إذ يحتاج هو الآخر إلى كدح واجتهاد، تحقيقاً للهدف الجليل.

- ٥ -

ويقودنا حديثه عن الإلهام والروية، أو الطبع والصنعة إلى المناقشة حول الحقيقة والاستعارة، أو الواجب والخيال من وجهة النظر الفلسفية التى تطرح فى كتاب (المقاسبات). قال عن الحقيقة:

«ليس لشيء وجود، ولا وجوب إلا للبارى الحق، فلا حقيقة إذن لشيء إلا له، لأنه هو الواجب، وكل ما عداه فإنما هو به واجب»^(٩)، وبه تمتنع، وبه ممكن. والوجود الحق له. فكل وجود يرسم للممكن أو للممتنع فإنما هو بالاستعارة، والتقريب، والتحلية، والتنبيه» (ص ١٨٧).

أو كما نقول نحن اليوم: بالخيال.

هذا النص مهم لأن كتاب (المقاسبات) قد رسم فيه الخط الفكرى الفلسفى لحدود الحقيقة، وحدود الاستعارة -

الخيال. فالحقيقة الوحيدة هي للبارى تعالى، وطريقها طريق العقل، لأن العقل كما مر بنا سابقاً - هو الدال على هذه الحقيقة، وهو الأقرب إلى البارى تعالى. وما عدا هذه الحقيقة فهو اقتراب منها على الاستعارة أو التشبيه، أو بكلمة جامعة على الممكن، لأنه - كما قال:

«لا طبيعة للممكن، وإنما هو موقوف على فرض الفراض، ووهم الواهم، ووضع الواضع، وظن الظان، وليس كالواجب الذى هو ثابت على وتيرة واحدة. ولا كالممتنع الذى هو أيضاً على هيئة واحدة... ثم إن الإمكان بعد هذا كله استعار من الواجب شبهاً، واقتطع منه ظلاً، واستعار من الممتنع شبهاً، واسترق منه ظلاً» (ص ١٨١ - ١٨٣).

فلما كانت الحقيقة حالة حية ثابتة، والممتنع مقيماً على حالة العدم الثابتة، فإن الممكن - هو الاستعارة والتشبيه والخيال - يقع في الوسط، يلتفت إلى الوجود فيستعير منه ظلاً، وإلى العدم فيستعير منه ظلاً، ليكون ممكناً، أى متردداً بين الوجود والعدم. وهذه الحالة عائمة لا طبيعة لها، كما قال.

لعل قول النوشجاني يزيد المسألة وضوحاً؛ حيث قال:

«البارى الحق، والأول الأوحد منبعس الأشياء كلها ومنبعها، عنه تفيض فيضاً، وفيه تفيض غيبضاً، لا على حد اللفظ... بل على حد العقل... فإن الأشكال والحدود من الأقوال والأعراض منفية في ساحة الألوهية، لكنها رسوم محركة للنفوس تحريكاً، وكلمات مقربة من الحق تقريباً. تبلغ بالسامع إلى ما وراء ذلك كله تبليفاً. وكلما كانت هذه الرسوم أتم وأحسن، والكلمات أبهى وأبين كان التحريك ألطف، والإدراك أسرف. ولهذا ما يضرب عن بيان إلى بيان، ويؤثر كلام على كلام. وكمثال على هذا التحريك، وهذا التحرك: حاضر الأشكال والخطوط والصور والنقوش» (ص ١٦٣).

يفيدنا النص أموراً كثيرة أهمها أن اللفظ في الأدب يقابل العقل في الفلسفة. وإذا كان الأول عاجزاً عن إدراك الحق، فإن الثانى قادر على ذلك الإدراك. ومنها أن الصور والأشكال والخطوط والنقوش ناخج الاستعارة والخيال^(١٠٠)، وهى بعيدة عن الساحة الألوهية، لكنها تحفز النفس للاقتراب منها، وكلما كانت تلك الرسوم أتم وأكمل، كانت مهمتها أسهل. لأجل هذا تأتى البراعة فى الصنعة الأدبية، فيضرب عن بيان إلى بيان، طمعا فى التوحيد، وإغراء فى الوصول.

إن هذا يعنى أن مهمة وسائل الأدب والشعر والفن النزوع نحو الحق بتحريك النفوس والتأثير عليها، لكنها تظل - على أية حال - قاصرة عن مهمة العقل الذى يسكن الساحة الألوهية بنفسه، ودون أن يستعين بغيره، أو يحتاج إلى الحركة والتحريك. إن هذا يذكرنا بنص العروضى السابق الذى جعل الحركة عند الحس، والسكون عند العقل. فالعقل «من فيض العلة الأولى وجوده، لأن هذا النعت لكل ما دونه بالاستعارة، وله بالواجب والحقيقة» (ص ١٥٥). وكان قد قال: «العقل سلم إلى الله تعالى، به الخير كله» (ص ٢٤٩).

وفى عالم الاستعارة يستخدم أبو حيان التوحيدي مصطلحات أخرى كالاختيار والمقاييس والانفعال. وكلها توحى بالمحاكاة الأفلاطونية التى تعنى نزوع العالم السفلى إلى محاكاة العالم العلوى، كما سنرى فى نصوص تالية:

عن أبى سليمان أن:

«الأشياء تتحرك وتسكن... فمحركها هو مسكنها لأنها إليه تتحرك إذا تحركت، وبه تسكن إذا سكنت... وذلك أن كل من أوجب الحركة العلوية بالفعل أوجب الحركة السفلية بالانفعال» (ص ٤٤٢ - ٤٤٣).

وقال فى موضع آخر:

«الانفعال على ثلاثة أنحاء: فتحو ينحط به المنفعل عن خاصة جوهره باستحالة صورته وانحلال كينونته، وضرب يتحرك به المنفعل على

نفسه إما نقصاً لما اجتمع، واستخلاقاً لما انحل عنه. وضرب يتناول به المنفعل إلى ما فوقه مقتبساً لنوره، وتشوقاً إلى كماله. فهذا المنفعل من وجه الاختيار أكمل وأفضل» (ص ٢٧٧).

فالمنفعل الثالث نزاع إلى العالم العلوى كى يقتبس من نوره نوراً، ومن كماله كمالاً، أو - بكلمة أخرى - ليستعير نوره وكماله، أو ليحاكيهما، خيالاً وانفعالاً، طمعاً فى تجاوز موقعه السفلى إلى الموقع العلوى.

وهو يستخدم المقاييس فى معنى الانفعال السابق. قال:

«العقل الأول يدرك الأشياء بغتة، والعقل الثانى يدركها أيضاً بغتة إذا كان بالعقل الأول، لا تعوقه عنه الأشياء الهيولانية، فإذا عاقته احتاج أن يتوصل بالمقاييس ويدرك شيئاً بعد شيء» (ص ٤٠١).

ويوافقه على ذلك أبوعلی عيسى بن زرعة إذ يقول:

«فجاليونوس قد تهجم بنظره وتفجسه عن علتين: إحداهما موضوعة لذلك ومطبوعة على ذاك، والأخرى يدنيها منها ويضيئها إليها ويشبهها بها اقتداء بالفعل البشرى، وتصرفاً بالقياس الإنسى، فالعلة الأولى طباعية، والأخرى صناعية، والقياس المشار إليه من الأولى برهاني، والقياس المدلول عليه من الأخرى بياني» (ص ٤٣٨).

ولعل آخر كلمة فى النص تفيد بأن الاستعارة، والقياس، والانفعال وسائل بيانية أو أدبية مقابل البرهان الذى هو وسيلة عقلية.

والتوحيدى فى نصوص أخرى يستخدم الفكر والروية والوهم فى الاتجاه ذاته؛ إذ يقول:

«للفعل النفساني طرفان: أحدهما يلى الوهم، والآخر يلى العقل الأول، فإذا مال إلى الوهم كان فكراً وروية، لأنه يلى عليه الوهم فيريد أن يتخلص، فإذا مال إلى العقل الأول كان عقلاً مدركاً للأشياء بلا فكر ولا روية ولا زمان.

فالفكر إنما هو العقل الوهمى... ولا يقدر الوهم على أن يتوهم شيئاً بلا شكل» (ص ٤٠٢).

كما يستخدم الاجتهاد فى المعنى نفسه إذ يقول:

«إنما كان العلم حقاً، والاجتهاد فى طلبه مخلصاً، والقياس فيه صواباً، وبذل السعى دونه محموداً لا شتباك هذا العالم السفلى بذلك العالم العلوى، واتصال هذه الأجسام القابلة بتلك الأجسام الفاعلة... وإذا صح هذا الاتصال والتشابك... صح التأثير العلوى وقبول التأثير من السفلى بالمواصلات الشعاعية، والمناسبات الشكلية» (ص ٦٤ - ٦٥).

كأنه يستخدم الشكل فى النصين مرادفاً للاستعارة وما شاكلها أيضاً.

ما يجمع النصوص السابقة - على أية حال - فكرة أساسية هى أن العقل الأول هو المثال الذى يسكن الساحة الألوهية، فهو يدرك الأشياء دون فكر أو روية أو زمان. إنه فوق القوى البشرية، كما أنه فوق الزمان أو خارجه، لذا أصبح موضوعاً يستحق المحاكاة أو المقايسة أو الاستعارة، بواسطة الانفعال أو الفكر والروية. وهذه جميعاً أحوال وأشكال تخص الأدب والشعر والبيان.

لكنه فى حديثه عن القياس والاستعارة إنما يتحدث عن الخيال الذى يرسم النصور على مثال أعلى بطريق غير طريق الحقيقة، وذلك أن المصطلحات السابقة تنتمى فى مفهومها الحديث إلى عمل الخيال الأدبى بسبب من الأسباب. ومما يساعد على هذا الاستنتاج أن الكلام كله مستند إلى العلاقة بين الحقيقة والاستعارة بالمفهوم الذى ابتدئ الحديث به، وهو الحديث الذى ورد فى قول آخر على أساس العلاقة بين الحقيقة والحجاز. قال:

«أنت صورة لنفسك وبدنك. إلا أنك منقسم بين حقيقة ورثتها عن نفسك، ومجاز دخل عليك من بدنك. فوفر عنايتك على ما يستخلص حقيققتك من مجازك. ويفضى إلى أشرف غاياتك» (ص ٢٥٧).

(ص ٢٥٢). لكن لا وجود لشيء إلا بصورته وهيولاء. فأما الهيولي بذاتها فغير موجودة، وكذلك الصورة:

«فكل ما يقوم فإنما يقوم بهما معاً، ثم يصير بذلك المتقوم صورة أخرى محفوظة الظاهر والباطن إلى الأولين اللذين هما: الهيولي والصورة. ثم على حسب ما عليه الصورة في هذا المتقوم يكون شرف جوهره، لأنه يستفيد البساطة من الصورة، والتركيب من الهيولي. وكذلك على حسب غلبة هيولاء فيه يكون صفة جوهره» (ص ٢٨٤ - ٢٨٥).

والمقوم هنا هو الجسم المشكل منهما معاً، والموحد لها جميعاً، فهو صورة جديدة لكن قد يغلب عليه أحدهما، فإن كانت الغلبة من نصيب الصورة شرف جوهره، وإن كانت من نصيب الهيولي انحدرت قيمته. وتظل:

«الهيولي عاشقة للصورة مع المناقاة بينهما، لأنها بها تكمل، والصورة قالية للهيولي لأنها بها تخس، إلا أن يكون المقوم منها وافر النصيب من الصورة» (ص ٢٥٠).

والذي أعلى من قدر الصورة أنها نابعة من النفس والعقل معاً:

«فالنفس والعقل - كما قال بعض الأوائل: بصوران صوراً تحتلهمما، فإذا تمت تلك الصورة، وأمكنت أعطتها النفس تمام ما تهيأت له، فتكون في أدنى طبقات الأنفس وهي النامية» (ص ٣٩٦).

والذي حط من قدر الهيولي أنها مضادة للروح الصافية الرزيا، فإذا تخلصنا منها تخلصنا من الحاجز بيننا وبين ذواتنا الحقيقية، حتى نرى الأمور بوجهها المثالي كما يستنتج من النص التالي:

«إذا أردنا أن نحس بأنفسنا، وأن نعلم العلوم الشريفة، حرصنا على أن نفارق أنفسنا الهيولانية، فنصير كأننا نصير خالصة نرى ذاتنا، فإذا رأينا ذاتنا

فالمجاز في النص يلتقي مع الاستعارة وما شاكلها في النصوص السابقة، لكن النص يعطينا أكثر من ذلك. إنه يوحي لنا بأن المجاز أو لغة الأدب والشعر تزول إلى غاية شريفة إذا وجهها ناظموها وجهة الحقيقة، حسب مفهومه لهذه الحقيقة.

- ٦ -

ويسوقنا الحديث عن الحقيقة والاستعارة إلى الحديث عن الصورة والهيولي:

فالصورة أرفع شأنًا من الهيولي، مثلما العقل أعلى قيمة من الحس، لكن الكمال في ائتلافهما معاً. هذا ما قاله أبو سليمان حين سئل عن معنى قولهم: فلان ملء العين والنفس. قال: هذا جمع:

«بين المنظر المقبول بالعين إذا نظر إليه، وبين الخبر الممدوح باللسان إذا أشرف عليه. وكان هذا كالرمز بين الناس بالفرق بين الشخص والنفس. وإن أحدهما لابه الآخر كمل الإنسان فيهما، وإذا أخطأ أحدهما كان نقصه من جهته، فإذا من النقص بد فلان يكن من قبل العين أولى، أعنى أن يكون الإنسان ملء النفس غير ملء العين، لأنه إذا كان ملء النفس غير ملء العين كان روحاً... وإذا كان ملء العين غير ملء النفس كان بدنًا كله كثافة وغلظا. وكان أحدهما نصيبه من الهيولي أكبر والآخر قسطه من الصورة أوفر. وإذا ائتلفا كان الكمال المطلوب» (ص ٢٢٨).

نستنتج من النص أيضاً أن الصورة تنتسب إلى الروح، والهيولي تنتمي إلى البدن، ولذلك اتجهت الهيولي إلى المادة، بينما كمنت الصورة في عالم القيمة:

«الهيولي في عالم الكون والفساد أقوى لأنها في محل عزها، والصورة في عالم الحق أتم لأنها في معدن كمالها» (ص ٢٤٩).

والصورة مؤيدة بالعقل لا تفهم سرارها إلا به. أما الهيولي فخلابة تغرى بالسقوط، ولا يتخلص منها إلا بقوة النفس.

استفدنا منها علوماً شريفة. وكنا نحن الناظر والمنظور إليه، والعالم والمعلوم» (ص ٣٩٨).

وكان قد جاء في تعريفات التوحيدى أن الصورة هي: «التي بها الشيء هو ما هو» (ص ٣٦٤). كأنه يريد أن يقول: هي التي تعرض جوهر الأشياء في أشكالها. كما جاء في تعريفه للهيولى بقوله: هي «قوة موضوعة لحمل الصور منفعة» (ص ٣٧١). وكان جعل الهيولى وسيلة لغاية أكثر قيمة.

ومهما يكن فإن الإنسان يحتويهما متحدين معاً، لأنه:

«مسجون بالضرورة والاختيار. والصورة عنونت الاختيار، والهيولى رسمت الاضطراب... وإنما كان الاختيار منسوباً إلى الصورة بحق الشرف، وإنما كان الاضطراب منسوباً إلى الهيولى بحق الخسة. والإنسان كالإناء لهما» (ص ٢٣٥ - ٢٣٦).

- ٧ -

كأن أبا حيان في تعرضه للصورة والهيولى يعالج قضية المعنى واللفظ. وهو بإعلائه العقل يجب أن يكون في صف المعنى المماثل للصورة، على حساب اللفظ المباهر للهيولى. وقد يكون هذا الاستنتاج صحيحاً، إذا ما استحضرنّا رأيه في اللفظ والمعنى، فقد صرح بأنه يتسامح في قصور اللفظ إن تحصل له المعنى. قال على لسان أبي سليمان:

«والدليل على أن المعنى مطلوب دون اللفظ الموشع بالوزن المحمول على الضرورة أن المعنى متى صودف بالسانع والخابر، وتوفى الحكم، لم يبل بما يفوته من اللفظ الذي هو كاللباس، والمعرض والإناء والظروف» (ص ٢٣٩).

وقد كرر هذا الرأي في مكان آخر فقال:

«إذا استقام لك عمود المعنى في النفس بصورته الخاصة فلا تكبرث ببعض النقيصة في اللفظ» (ص ٣٧٥).

لعل عبارة «صورته الخاصة» في النص هي الصورة نفسها التي تقابل الهيولى، وإذا استقامت للإنسان، حسب رأى أبي سليمان، فإنه لا يبالى ببعض القصور في اللفظ. لكن أبا سليمان في موقع آخر يخالف نفسه، حين يرى ضرورة عدم الإخلال باللفظ والمعنى كليهما، فقد ورد على لسانه، وهو يوازن بين المنطق والنحو، قوله:

«وجل نظر المنطقي في المعاني، وإن كان لا يجوز له الإخلال بالألفاظ التي هي كالحل والمعارض. وجل نظر النحوي في الألفاظ، وإن كان لا يجوز له الإخلال بالمعاني التي هي كالحقائق والجوهر... وكما أن التقصير في تجهيز اللفظ ضار ونقص وانحطاط، كذلك النقص في تحرير المعنى ضار ونقص وانحطاط» (ص ١٢١).

قد يكون السبب في هذه اغتالفة الذاتية أنه في الموضع الأول يتحدث عن اللفظ وزناً، بينما يتحدث في الموضع الثاني عن اللفظ نحواً، لذلك جاز أن يتهاون في المقام الأول، ولم يسمح لنفسه أن يتجاوز التجاوز نفسه في المقام الثاني. وقد يشفع لهذا الاستنتاج قوله:

«الوزن معشوق الطبيعة والحس، ولذلك يغتفر له ما يعرض من الاستكراه في اللفظ» (ص ٢٣٩).

كل هذا يرنّد إلى فلسفته الأساسية في قيمة كل من العقل والحس، ذلك أن اللفظ من الحس، والمعنى من العقل. قال على لسان أبي بكر القومسي:

«الألفاظ يشملها السمع، والسمع حس، ومن شأن الحس التبدد في نفسه... والمعاني تستفيد منها النفس، ومن شأنها التوحد بها، والتوحيد لها. ولهذا تبقى الصورة عند النفس... وتبطل عند الحس... والحس تابع للطبيعة. والنفس متفلة للعقل. فكأن الألفاظ على هذا التدبيح والتنسيق من أمة الحس، والمعاني المعقولة من أمة العقل» (ص ٩١ - ٩٢).

ترتجناه (ص ٢٧٢). وثانيتها قوله: «لأننا بالطبيعة أكثر منا بالعقل. والوزن معشوق الطبيعة والحس» (ص ٢٣٩).

إن هذه الآراء جميعاً ترتد، في الواقع، إلى لب فلسفة أبي حيان، وهو إيمانه بالعقل الذي كان قد دعا الإنسان أن يكون به سامياً، وشكله بالطبيعة، التي كان قد رآها أرضية، فمن غمس نفسه في غمارها هلك وطاح. وعلى أية حال، فإنه يحاول في نهاية الأمر - شأنه دائماً - المزج بينهما، وتوحيد النظر إليهما معاً، ولكن على أساس تدخل العقل في أحوال النظم حتى يصبح للنشر ظل فيه، وله ظل في النشر. قال:

«لكن العقل، مع هذا، قد يتخير لفظاً بعد لفظ، ويمشق صورة بعد صورة، ويأس بوزن دون وزن، ولهذا يشق الكلام بين ضروب النشر، وأصناف النظم، وليس هذا للطبيعة، بل الذي يستند إليه من الكلام ما كان حلواً في السمع، خفيفاً على القلب، بينه وبين الحق صلة، وبين الصواب وبينه أصرة. وحكمها مخطوط بإملاء النفس، كما أن قبول النفس راجع إلى تصويب العقل» (ص ٢٣٩).

فهو يرى أن احتواء الواحد منهما على بعض خصائص الثاني هو السبب المباشر لإمتاعنا وإقناعنا في وقت واحد، قال:

«ومع هذا ففي النشر ظل من النظم، ولولا ذلك ما خف، ولا طاب ولا تحلا. وفي النظم ظل من النشر، ولولا ذلك ما تميزت أشكاله، ولا عذبت موارده ومصادره، ولا اختلفت بحوره، ولا انتقلت وصائله وعلائقه» (ص ٢٤٠).

أعتقد أن فكرته عن تدخل العقل في اختيار عناصر الشعر المنظوم، تتساند مع فكرته الثانية القاضية بأن في الشعر ظلاً من النشر، لأن النشر في النهاية ينتمى إلى العقل. ويبدو أن الفكرتين معاً كونتا أساساً مكيناً لديه في تقويم الشعر والحكم عليه، كما بدا ذلك جلياً في كل نقده التطبيقي:

وكما كان الكمال بتوحيد الحس والعقل هناك، أصبح الكمال بتوحيد اللفظ والمعنى أو الشكل والمضمون هنا، ذلك لأن النقص في الثاني يؤدي إلى النقص في الأول، والعكس صحيح أيضاً.

- ٨ -

ومن اللفظ والمعنى إلى المنظوم والمنثور:

النشر عند أبي حيان أشرف جوهرراً من النظم، وأعلى مقاماً، أما النظم فهو أشرف عرضاً. وقد علل لذلك مرة فقال على لسان أبي سليمان: «لأن الوحدة في النشر أكثر، والنشر إلى الوحدة أقرب، فمرتبة النظم دون مرتبة النشر، لأن الواحد أول، والتابع له ثان» (ص ٢٧٢). والواقع أنه يفضل النشر على النظم لأسباب أخرى هي أن النشر أقرب إلى العقل، ففي العقل - كما مر بنا - تتم الوحدة، بينما الشعر أقرب إلى الحس، لأن ألفاظه الموزونة تتوجه إلى السمع قبل توجيهها إلى العقل وفي الحس يحدث الاختلاف. وقد قال في موضع آخر: «النظم أدل على الطبيعة، لأن النظم من حيز التركيب، والنشر أدل على العقل لأن النشر من حيز البساطة... والوزن معشوق الطبيعة والحس» (ص ٢٣٩).

هناك سبب آخر فضل النشر لأجله على النظم هو:

«أن الكتب السماوية وردت بألفاظ منشورة، ومذاهب مشهورة، حتى إن من اصطفي بالرسالة في آخر الأمر غلبت عليه تلك الوحدة، فلم ينظم من تلقاء نفسه، ولم يستطع» (ص ٢٧٢).

كأنه أراد القول: إن الرسل غلب عليهم النشر لانتمائهم للعقل والوحدة، وما كان لهم أن ينظموا الشعر لاختصاصه بالطبيعة والحس وهما أقل شأناً من العقل. ومن عليه على الرسل له فضيلة التقدم وشرف الجواهر.

كان تفصيل النشر على النظم منقولاً على لسان أبي سليمان، وحين ووجه بسؤال عن غلبة النظم علينا، وتقبلنا الشعر الذي يطربنا أكثر من النشر، أجاب إجابتين: أولاً قوله: «لأننا منتظمون، فما لاءنا أطربنا، وصورة الواحد فينا ضعيفة، ونسبتنا إليه بعيدة، فلذلك إذا أنشدنا

قال التوحيدى: قلت لأبى سليمان يوماً: أنشدنى
أبو بكر الصيمرى عن سمكة القمى عن أبى
محارب الفيلسوف: لنفسه:

أصد عن الدنيا على حصى الدنيا
ولا بد من دنيا لمن كان فى الدنيا
وأدغمها عنى بكفى ملالة
وأجذبها جذب اغداغ بالأخرى

فقال:

«هذا كلام رقيق الحاشية، حسن الطباع، مقبول
الصورة، يدل على ذهن صاف، وقريحة شريفة،
واختيار محمود، وذهن ناصع، ورأى بارع» (ص
٣٣٣ - ٣٣٤).

فالأبيات تحوى معانى فلسفية، وصداماً فكرياً، وحكمة
أكثر مما تحوى قيماً فنية تعبيرية، لكن إعجاب أبى سليمان
بالمعنى العقلى دفعه إلى أن يعجب بها إعجاباً كبيراً. ولو
حاولنا استخلاص بعض جملة وتعبيراته فى حكمه الإيجابى
السابق عليها لاستنتجنا أنه كان يصدر فى أقواله عن فلسفته
العقلية: فالصورة المقبولة، والذهن الصافى الناصع، والقريحة
الشريفة، والاختيار المحمود، كلها صفات تتحى جهة العقل
أكثر من انتحائها جهة الحس والطبيعة.

ومن ذلك استحسانه البديهى فى قوله:

لا تحسدن على تظاهره نعمة

شخصاً تبیت له المنون بمرصد

أوليس بعد بلوغه آماله

يفصى إلى عدم كأن لم يوجد

وكان يقول: «ما أفلح البديهى قط إلا فى هذه الأبيات» (ص
٣٣٥). والذى أعجب أبى سليمان المعنى الفلسفى، والمقايسة
العقلية، والا فحظ البيتين من الفن قليل.

ولعل إعجاب أبى سليمان بأبيات نالية لبعض الإلهيين
يؤيد ما ذهبنا إليه من أن حكمه نابع من تقديره للمعانى
العقلية، وشكه فيما يصدر عن الحس، والأبيات هى:

لما تجاوز حصى
وفات مى ولمى
رجعت نحوى لشرط
نفتيت عنى حصى
فلاح تحت ضلوعى
ما قد من قرن شمسى
فقلت هذا طريقى
من غير شك ولبس
وغصت حنى تجلى
وأشرفت منه نفسى

قال أبو سليمان: «ما أحسن الأدب والحكمة إذا كان هذا
من نمرها» (ص ٣٣٦ - ٣٣٧).

والأبيات - كما ترى - ذات مرام صوفية، بتجانبى
صاحبها عن الحس، ويتعلق بالروح التى أشرفت تحت
ضلوعه، فاتخذها طريقه حتى تجلت له الذات الإلهية التى
أشرفت منها نفسه.

إن فلسفة أبى حيان التوحيدى لا تخلو من ملامح
صوفية^(١) على أية حال، لأن العقل - فيما يرى - خليفة
الله، وهو الأقرب إليه تعالى. لكن أبى سليمان - مع ذلك -
كان يعترف، عندما نزع نفسه من سلطان فلسفته، أن الشعر
يحتاج أكثر مما فى النماذج السابقة وأمثالها، فحين أنشد
لنفسه بعد إلحاح من تلميذه أبى حيان:

بكيت على مفارقة الشباب
وأيام التسحنى والعشباب

بباض الشيب أعلام المنايا

نشرون نذيره لك بالذهاب

هو الكفن الذى يبلى ويبلى

ويأتى بعده كفن التراب

أتبع الأبيات بقوله:

«الإقلال من هذا الباب أولى بناءً، فلنا من هذا الفن، وسمة التقصير لائحة علينا، ودالة على نقصنا، فإن خفى ذلك فبنظرنا فينا، لأن الإنسان عاشق نفسه، ولين فى مؤاخذتها على تقصيره» (ص ٣٣٦).

لقد جاء اعترافه بتقصير أمثاله عن فن الشعر الحقيقى، لأنه - أمام محاسبة نفسه - تمثل له متلقو الشعر من لا يعدون فلاسفة عقلانيين دائماً، أو من هم بالطبيعة أكثر منهم بالعقل، وأدرك أن حكمهم على هذا الفن لا يتوافق وحكمه فيلسوفاً عقلانياً، لذلك وقف وقفة صادقة مع نفسه، وأمر أصحابه وتلامذته أن لا يذيعوا شعره قائلاً:

«من انتحل لضعفه قوة غيره قحة وجساسة فقد استجر إلى نفسه فضيحة وخساره» (ص ٣٣٥).

والكذب فى الشعر مسوغ. قال التوحيدى:

«وجرى يوماً بحضرة أبى سليمان حديث أحكام النجوم، فقال: من طريف ما ظهر لنا منه أنه ولد فى جيسرتى ابن نبانة، فقيل لى: لو أخذت الظالم، فأخذته وعرضته على على بن يحيى، فنظر وعمل وقوم، فقال لنا فيما قال: هذا المولود يكون أكذب الناس، فعجبنا منه. فما ضالت الأيام حتى ترعرع، وخرج شاعراً كما ترى معدوداً فى أهل عصره» (ص ٣٣٣).

وقال الصيمرى:

«قد يكذب البليغ ولا يكون بكذبه خارجاً من بلاغته. فقال - أبو سليمان: ذلك الكذب وقد

أليس ثوب الصدق وأعجم عليه حلية الحق» (ص ٣٢٧).

من الواضح أن هذا التسويغ للكذب فى الشعر والبلاغة مبني على أساس أنهما - فى رأى هؤلاء الفلاسفة - يهدفان إلى الجبر دائماً.

يظل أبو حيان التوحيدى وأستاذه أبو سليمان، على أية حال، مع الشعر المقترب بالحكمة والعقل، شأنهما فى ذلك شأن أرسطو والنقاد العرب الذين طبعوا النظرية الشعرية العربية بطابع العقل. فقد كان أبو سليمان يقول:

«هذه الآداب والعلوم هى قشور الحكمة وما انتشر منها على فائت الزمان، لأن القياس المقصود فى هذه المواضع، والدليل المدعى فى هذه الأبواب، معها ظل يسير من البرهان المنطقى، والرمز الإلهي، والافتناع الفلسفى. وقد بين هذا الباب أرسطوطاليس فى الكتاب الخامس - وهو الجدل - كل ما فى الإمكان التعليق به، والاحتجاج منه مع الترمويه والمغالطة» (ص ٣٠٥ - ٣٠٦).

الواقع أن الآداب فى نظره أقل شأنًا من الحكمة، وإن ارتبطت بها بعض ارتباط، لأنها - كما قال: «قشور الحكمة» وليس لبها، كما فيها «ظل» يسير من البرهان المنطقى، والرمز الإلهي، والافتناع الفلسفى، والظل إشارة على وجود، ولكنه ليس الوجود بعينه. وهذا يتناسب مع ما لاحظناه سابقاً من أن العقل - فى رأيه - قد يتدخل فى عناصر الشعر ليخرجه وقد اتشح بالصواب، واتسم بالحق.

ومما يلاحظ فى نصه أيضاً أنه جعل العلوم والآداب فى صف واحد، مع أنه كان قد قال فى الصفحة ذاتها: «النحو والشعر واللغة ليس بعلم» (ص ٢٠٥). كما أنه فى موقع آخر فصل بين لغة الأدب ولغة العلم فقال:

«وهذا علم كلما قلت الحروف فيه كان المعنى بها أتم وأخلص، وكلما كثر اللفظ كان ما يراد به، ويعنى فيه أنقص. وليس كذلك باقى العلم

أما الشعر فحسب تعريف أبي حيان له هو:

«كلام ركب من حروف ساكنة ومتحركة
بقواف متوازنة، ومعان معتادة، ومقاطع موزونة،
وفنون معروفة» (ص ٣٥٩).

إن كل الصفات التي وصف بها الشعر تتعلق بالفاظه ما
عدا قوله «ومعان معتادة» أو «ومعان معادة». في رواية أخرى.
قد تكون كلمتا «معتادة» و«معادة» اللتان وصف الشعر بهما
أو بإحدهما ندلان، بطريقة ما، على مقابلة المعنى الشعرى
بالمعنى الفلسفى، فإذا كان المعنى الشعرى معاداً مكروراً، أو
معتاداً مألوفاً، فإن حظه من الحقيقة قليل، خصوصاً إذا ما
قورن بالمعنى الفلسفى الذى يمتلك الحقيقة كلها حسب
نظر الفيلسوف.

- ١٠ -

لم يكن التوحيدى سئى الظن بالأدب والشعر والبلاغة
على الرغم من أنه لا يساويها بالفلسفة. إنه يدرك خطرها في
توجيه النفس إلى ما تحب، أو صرفها عما تكره. في كتاب
(المقاييس) ثلاثة نصوص في تعريف البلاغة منقولة على
لسان أبي سليمان:

أولها قوله:

«هى الصدق فى المعانى، مع ائتلاف الأسماء والأفعال
والحروف، وإصابة اللغة، وتحرى الملاءمة
والمشاكلة، برفض الاستكراه، ومجانة التعسف»
(ص ٣٢٧).

وثانيها قوله:

«فأما البلاغة فإنها زائدة على الإفهام الجيد
بالوزن، والبناء والسجع والتفغية، والحلية الرائعة،
وتخير اللغة، وإحضار الزينة بالركة والجزالة
والحلاوة والمتانة، وهذا الفن لخاصة الناس، لأن
القصد فى الإطراب بعد الإفهام، والتوصل إلى
غاية فى قلوب ذوى الفضل بتقويم البيان»
(ص ١٢٢).

والسبب فى ضيق هذا العلم أنه بحث عن
حقائق الموجودات، وقصد إلى أعيان المعقولات،
والحقائق عرية من العلل والشبهات، بعيدة عن
الشكوك والمعارضات، غنية عن التأويلات
والاحتمالات، لأنها تصون أغراضها عن زخارف
القول، وترتفع عن مواقع الاستعارة والغلط
والتجوز والاتساع» (ص ٣٧٩).

فكل الصفات التى تتجافى عنها لغة العلم، مثل
التأويلات، والاحتمالات، والاستعارة، والتجوز، والاتساع،
هى من خصائص لغة الأدب. لكن عبارة: «وليس كذلك
باقى العلم» توحى بأنه يفرق بين علم وعلم. فالعلم
الموصوف بالنص السابق هو علم الفلسفة وحده. وهو يختلف
عن باقى العلوم.

كأنه عنى بباقى العلوم علم الكلام. فقد سجل كتاب
(المقاييس) كراهية الفلاسفة لأهل الكلام. فهذا يحيى بن
عدى، شيخ أبى حيان، يقول:

«إنى لأعجب كثيراً من قول أصحابنا إذا ضمنا
وإياهم مجلس: نحن المتكلمون، ونحن أرباب
الكلام. والكلام لنا، بنا كثر وانتشر، وصح
وظهر. وكأن سائر الناس لا يتكلمون، أو ليسوا
أهل الكلام. لعلمهم عند المتكلمين خرس، أو
سكوت؟» (ص ٢٠٥).

وبعيداً عن أسلوب السخرية والتهكم هذا، كان أبو سليمان
يفرق بين طريقة المتكلمين وطريقة الفلاسفة فيقول:

«طريقتهم مؤسسة على مكايلة اللفظ باللفظ،
وموازنة الشئ بالشئ، إما بشهادة من العقل
مدخولة وإما بغير شهادة منه البتة، والاعتماد
على الجدل، وعلى ما يسبق إلى الحس...
والفلسفة محدودة بحدود كلها تدل على أنها
بحث عن جميع ما فى العالم مما هو ظاهر
للعين، وباطن فى العقل ومركب بينهما.... مع
أحلاق إلهية، واختيارات علوية ومياسات عقلية»
(ص ٢٠٤).

وثالثها قوله:

٦ - أنها تقوم على أساس جمع المتناثرات والتأليف بين المتعاندات، ورفض الاستكراه، ومجانبة التعسف، وإصابة اللغة وتخيرها.

فهذه أحوال نافعة في البلاغة، لكن الوصول إليها لا يتم بلغة ليست عادية الجمال كما أراد أن يقول. إنه في ذلك كله مدرك لتفاعلية البلاغة، وتأثيرها في النفوس. وقد نقول القول عنه في تعريفه الشعر:

قال علي لسان أبي سليمان:

«وكذلك الشعر الذي منتهاه قائم في النفوس من صاحبه، ثابت في قريحته، يجيش به صدره، ويجود به طبعه، ويصح عليه ذوقه، من مدح مأمول وترقيق غزل، وهجو مسيء، واستنزال كريم، وتوشية لفظ، وخلية وزن، وتقريب مراد، وإحضار خدعة، واستمالة عزيز، وضرب مثل، واختراع معنى، وانتزاع تشبيه مع تصرف في الأعارض بين، وقيام بالقوافي ظاهر» (ص ٥٩).

يحوي النص - في لغتنا - أموراً أهمها:

- ١ - أن مصدر الشعر هو النفس. فالشعر تعبير عما يجيش في صدر الشاعر من أفكار وأحاسيس ومعان. وفي هذا التفتت إلى المبدع - الشاعر، وحاجاته النفسية المضاعفة.
- ٢ - أن الشعر يختلف في ماهيته وقيمه باختلاف الشعراء، لأن كلا منهم يصدر عن طبعه الذي طبع عليه، والذوق الخاص به.

- ٣ - أن الشعر مؤلف من الطبع والصحة، فهو - فضلاً عن صدره عن طبع صاحبه - يحتاج إلى توشية لفظ وخلية وزن. لعل هذا يذكرنا باهتمام التوحيدى بالفناء فهو يعرفه بقوله: «شعر ملحن، داخل الإيقاع والنغم الوترية»، وما الإيقاع عنده إلا «صوت بترجيع، خارج من غلظ إلى حدة، ومن حدة إلى غلظ، بفصول بيبة للسمع، واضحة للطبع» (ص ٣٥٩). فاهتمام أبي حياد بالوزن والموسيقى بائن في الكتاب كله.

«قد علم صاحبها وطالبها ما ينتهي إليه، ويقف عليه من تنميق لفظ، وتزويق عرض، وتقطعية مكشوف، وتعمية معروف، وإحضار بيبة، وإظهار بصيرة، واختصار باب، وتقليل ناب، وتسكين مارد، وهداية متخير، وإرشاد متسكع، وإقامة حجة، وإبارة برهان... وتلطيف قول في عتاب، ونسيهل طريق في أعتاب، وتهنئة مسرور، وتسلية محزون، وتلهية عاشق، وتزهيد راغب... وقلب حال عن حال حتى تضم بها أمور منتشرة، وتندمل بها صدور منقطعة، وتتسق بها أحوال متعاقدة، وتستدرك بها حشرات فائتة، وتخدم نيران ملتبهة» (ص ٥٩ - ٦٠).

فإذا أردنا تحليل نصوصه السابقة عن البلاغة، وحولناها إلى لغتنا، قسمناها أفكاراً أهمها:

- ١ - أن صاحب البلاغة على علم بالهدف الذي ينشئ بلاغته خدمة له، بل إن طالبها يدرك غايتها أيضاً. وغايتها نبيلة، ومعانيها صادقة، وهي للخاصة لا للعامة.
- ٢ - أن تحميل الوسائل البلاغية من تنميق اللفظ، وتزويق العرض، وتخير اللغة، وغري الملاءمة تأتي ضمن الغاية البلاغية القيمة، وليست مجرد تخلية زائفة أو زائلة.
- ٣ - أن الهدف الذي تسعى البلاغة لتحقيقه يندرج ضمن الأهداف السامية من هداية متخير، وإرشاد متسكع، أو إضراب الحاصة بعد الإفهام، والتوصل إلى غاية في قلوب ذوي الفضل.
- ٤ - أنها تيسر لصاحبها مكاناً مقبولاً في مجتمعه، فتظهره لطيفاً في العتاب، مرضياً في الاعتبار، مشاركاً في الأفراح والأفراح، معيماً على العشق، مرغباً في الزهد.
- ٥ - أن لها قوة سحرية في تغيير الأحوال إلى الأفضل والأحمل، فتندمل بها صدور منقطعة، وتستدرك بها حشرات فائتة، وتحميد نيران ملتبهة.

٤ - أن فضيلة الشعر في الابتكار، لأنه بحاجة إلى اختراع معنى، وانتزاع تشبيه، مع تصريف في الأعارض بين وظاهر.

٥ - أن للشعر قوة تأثير في السامع، لأنه يقرب المراد، ويضميل العزيز، ويستنزل الكريم، وفي هذا استحضار للمتلقى ولالتقاء مع المبدع على أحوال نفسية واحدة يستثيرها الشعر.

٦ - أن في الشعر معاني خالدة تصلح أن تكون مثلاً.

٧ - أن موضوعات الشعر موضوعات معروفة كالمده، والغزل، والهجاء.

يلاحظ أن التوحيدى هنا أكثر إنصافاً للشعر من تعريفه السابق له، فهو هنا يسجل للشعر ابتكاراً للمعاني، بينما كان قد قال سابقاً: إن معاني الشعر معتادة أو معادة. لكن قد يلتقى القولان دون تناقض إذا كان قد عني بالمعاني المعتادة هنا الأغراض الشعرية كالمده، والغزل، والهجاء، فهى أغراض قد تكون معتادة في الشعر حتى زمنه، ولكن اعتيادها لم يكن بمنع الابتكار والابتداع فيها.

- ١١ -

لقد تعرض التوحيدى للابتكار والتقليد في نصوص أخرى:

فحين سئل الخوارزمي الكاتب: لم إذا قيل لمصنف أو كاتب أو خطيب أو شاعر: هات بدل هذا اللفظ لفظاً... نهافتت قوته، وصعب عليه تكلفه... ولو رام قصيدة مفردة كان عسره عليها أقل، أجاب:

«لأن رقع ما وهى يحتاج إلى تدبير قد فات أوله من جهة صاحبه الأول، ومن كان أولى به، وكان كالأب له، وذلك شبه بعلم الغيب... وليس كذلك إذا افترع هو كلاماً وابتدأ فعلاً، واقتضب حالاً لأنه يستقل حينئذ بنفسه، ولا يحتاج فيه إلى شيء كان من غيره أو يكون، فعقله يبقظه يعطيه تمام ما قد فتح عليه سده، وقدح عليه زنده. ولم يكن هكذا حاله في كلام معروض عليه، لم يهجر قط في نفسه، ولا أعد

له باله شيئاً من فكره... وفي الجملة كل مبتدئ شيئاً بقوة المبتدأ تفضى به إلى غاية ذلك الشيء. وكل متعقب أمراً قد بدأ به غيره، فإنه بتعقبه يقضى إلى حد ما بدأ به في تعقبه، وبصير ذلك مبدأ له، ثم تنقطع المشاكلة بين المبتدأ وبين المتعقب» (ص ١٠٢). وقارن بقول مشابه للقومى (ص ١٠٧).

يقرر النص أن الابتكار أكثر يسراً من ترقيع الأفكار، وأن الابتداع الذاتى أسمح من تقليد الآخرين، أو التصنع لملاءمتهم في أفكارهم. فالمسألة مبنية على تنوع المعاني واختلافها باختلاف منشئها. فالأب في النص يعنى المبتدع الأوحد للمعنى المنتج. وليس هناك إمكان لأن يكون لمثل هذا المعنى أبوان في آن. ثم إن النص ليسوى بأبعد من ظاهر ألفاظه. فمسألة ترقيع الأفكار قد لا تخص أفكار الآخرين فقط، ولكنها قد تعنى صعوبة ترقيع الشاعر نفسه، بعد أن ينجب عنها زماناً ما، لأنها - كأفكار الآخرين - تصبح مع الزمن رجماً بالغيب. ويكاد النص ينفي التقليد على إطلاقه، لأنه أثبت أن المتعقب أمراً بدأه غيره تصبح الأفكار في الأمر المتعقب، مبتدأ لأفكار جديدة يؤسسها عليها، ثم تنقطع، بعد ذلك، المشاكلة بينها وبينه.

لكن التوحيدى يخالف نفسه، ويقر التقليد في نص آخر. قال على لسان القومى:

«وبالجملة الألفاظ وسائط بين الناطق والسامع. فكلما اختلفت مراتبها على عادة أهلها، كان وشبهها أروع وأجهر. والمعاني جواهر النفس، فكلما اختلفت حقائقها على شهادة العقل كانت صورتها أنصع وأبهر. وإذا ما وفيت البحث حقه فإن اللفظ يجزل تارة، ويرق أخرى، ويتوسط تارة بحسب ملاسته التي له من نور النفس، وفيض العقل، وشهادة الحق، وبراعة النظم. وقد يتفق هذا التعديل لإنسان بمزاجه الصحيح، وطبيعته الجيدة واحتياجه الحمود، وقد يفوته هذا فيتلأفاه بحسن الاقتداء بمن سبقه بهذه المعاني إليه، فيكون اقتدائه حافطاً عليه نسبة البيان على شكله المعجب، وصورته المعشوقة.

والحس. فالعقل - حسب رأيه - خليفة الله تعالى والعلة الأولى، وموقعه في العالم العلوي. أما الحس ففوق إنسية، وموقعه في العالم السفلي، لكن ما في الأسفل يظل في داخله تشوق نحو الالتحام بما في الأعلى. وإذا ما تحقق الاتحاد بينهما وصلا إلى درجة الكمال المطلق. وبهذا أصبح كل أمر، وكل معنى، وكل عنصر في مجال النقد الأدبي، متأثراً بذلك التباعد، أو بهذا الاقتراب والاتحاد بين العقل والحس. وقد جاء في مكان ما من هذا البحث أن فلسفة أبي حيان التوحيدي في كتاب (المقابسات) منشأة على أساس العلاقة بين العقل والحس، قريباً، أو بعداً، أو اتحاداً.

ومن القواعد الداخلية الأخرى التي يتعرض لها أبو حيان التوحيدي النفس والطبيعة، فهما يأتيان بهذا الترتيب بعد العقل وقبل الحس. فالنفس تستمد الصور من العقل، أما الطبيعة فتقوى بالنفس، وهي الأقرب إلى الحس.

تنأسس على هذه القواعد الداخلية أفكار أبي حيان التوحيدي حول مسائل الأدب والشعر، مثل حاجة الإلهام إلى الفكر، أو البديهة إلى الروية. وحاجة الطبيعة إلى الصناعة. وعلاقة الاستعارة بالحقيقة، ذلك أن الحقيقة الوحيدة الموجودة الثابتة هي الباري تعالى. وكل حقيقة أخرى فإنما هي بالاستعارة؛ إذ تعد الحقيقة العليا مثلاً يجذب إليه ما دونه، أو موقعاً شريفاً يتعشقه كل منحن عن منزلته. وقد حاول التوحيدي التوصل عن طريق هذا الجذب اليقيني إلى تلمس توق ما أسماه بالعلة الثانية نحو العلة الأولى، أو العقل الثاني جهة العقل الأول، مفترضاً حدوث ذلك بوسائل عدة منها الاستعارة، والتشبيه، والتحلية والتقريب، والقياس، والفكر، والوهم وغيرها. وهذه وسائل توحى بالحكاية الأفلاطونية أو بما يمكن أن نسميه الخيال حسب مصطلحاتنا الحاضرة. وما يؤكد هذا أنه قال بأن الدليل على وجود العلة الأولى دليل برهاني، والدليل على وجود العلة الثانية وارتباطها بالأولى دليل بياني.

وناقش أيضاً الصورة والهيولى من زاوية اقتراب كل منهما من العقل، وابتعادها عنه. وقد قدم الصورة لأنها ناتج العقل بالاختيار، مستقلاً شأن الهيولى لأنها ناتج الحس بالاضطرار، ولأنها تشكل إعاقاً للحركة نحو التسامي وبلوغ المطلوب.

ومدار البيان على صحة التقسيم، وتخير اللفظ، وزينة النظم، وتقريب المراد، ومعرفة الوصل والفصل، وتوخى المكان والزمان، ومجانبة العسف والاستكراه وطلب العفو كيف كان (ص ٩٢).

يهنأ قبل تحليل النص القول: إنه مروي عن أبي بكر القومسي، وكان - كما يصفه التوحيدي - كبير الطبقة في الفلسفة (ص ٩١) - بينما كان النص السابق عليه مروباً عن الخوارزمي. وقد بدا الاختلاف في النصين على لغة كل منهما. فلغة الخوارزمي لغة أدبية بعيدة عن مفاهيم الفلاسفة. أما لغة أبي بكر القومسي فلغة استخدمت المصطلحات الفلسفية، وأفكار الفلاسفة حول النفس والعقل، وغير ذلك، لهذا كانت الآراء في هذا النص منسجمة تماماً مع أفكار التوحيدي وتوجهاته العقلية.

لأجل هذا، جاء الاعتقاد الفلسفي بأن أناساً خاصين فقط هم الذين يستطيعون ابتداء الألفاظ مختلفة المراتب، وابتكار المعاني جواهر مؤلفة الحقائق على شهادة العقل. وقد مر بنا أن الفلاسفة يعتقدون بأن جمال الألفاظ في اختلافها، وجمال المعاني في اختلافها وتوحيدها (ص ٩١)، لذلك انقسم المؤلفون بين مبتدع للألفاظ والمعاني على عقيدة الفلاسفة العقلانيين، وبين مقتد حسن التقليد تنحصر قدرته في المحافظة على ما اخترعه غيره في المعاني، ثم الاجتهاد في نهضة البيان على الشكل المعجب المعشوق.

نظرة أبي حيان التوحيدي للبيان، هنا، أدنى من نظرتة للبلاغة، ذلك أنه حصره في الجانب الشكلي، لأن مداره - كما جاء في نص القومسي - على صحة التقسيم، وتخير اللفظ، وزينة النظم وما شاكل ذلك، بعيداً عن المعنى والغاية الشريفة. إن اهتمامه بالمعنى والعقل هنا أفقده الثقة في بعض الأدباء والشعراء، فجعل منهم مجرد ناقلين لمعاني غيرهم، ولكن بشكل مجمل ومزوق.

وتفضيله الصورة هنا منطقي؛ لأنه على تفضيل المعنى المرادف لها - حسب اصطلاحاته - على اللفظ المتناظر مع الهيولى. والمعنى منتسب إلى العقل، بينما اللفظ متم إلى الحس.

وعالج المصور والمنظور مفضلاً الأول على الثاني، لأن المنشور أقرب إلى العقل، بينما المنظوم ألصق بالحس والطبيعة. وحين ووجه بسؤال حول ميل الناس إلى المنظوم أكثر من ميلهم إلى المنشور أجاب: لأن الإنسان بالطبيعة أكثر منه بالعقل.

وما يسجل له أنه في كل معالجاته للثنائيات السابقة، كان حريصاً على تأكيد تكاملية هذه الثنائيات أو تلاحمها أو امتزاجها معاً، وذلك بسبب تعلقها بالثنائية الكبرى في فلسفة التوحيدى وشيوخه، وهي ثنائية الحس والعقل، أو الثنائية التى تؤلف الجانبين الإنسانيين المتناقضين: جانب الضعف، وجانب القوة. وهذان الجانبان، على تعارضهما وتناقضهما، متلازمان ومتكاملان، ولا يستطيع الإنسان الاستغناء عنهما، لأنهما بتكاملهما يوجدان التوازن الداخلى الضرورى لإدامة الحياة، مع تناقض ما فى هذه الحياة.

الهوامش

(١) انظر مثلاً على ذلك:

- إحسان عباس، أبوحيان التوحيدى: دار جامعة الخرطوم للنشر، الخرطوم ط ٢، ١٩٨٠.
- عبد الرزاق محيى الدين، أبوحيان التوحيدى - سيرته وأثاره، بيروت، ١٩٧٩.
- محمود إبراهيم، أبوحيان التوحيدى فى قضايا الإنسان واللغة والعلوم: بيروت، ١٩٧٤.
- عبد الواحد حسن الشيخ، أبوحيان التوحيدى وجهوده الأدبية والفنية: الإسكندرية، ١٩٨٠.
- عبد الأمير الأعسم، أبوحيان التوحيدى فى كتاب المقابسات: بيروت، ١٩٨٠.
- أبوحيان التوحيدى: أدب الفلاسفة، وفلاسف الأدباء، سلسلة أعلام العرب رقم ٣٥ القاهرة.
- محمد الحونى، أبوحيان التوحيدى: القاهرة ط ٢.
- إبراهيم الكيلانى، أبوحيان التوحيدى: سلسلة نواحي الفكر العربى رقم ٢١، القاهرة.
- على دب، الأدب المفكر أبوحيان التوحيدى: تونس، ١٩٨٠.

(٢) اعتمدت كتاب: المقابسات لأبى حيان التوحيدى، تحقيق: محمد توفيق حسين، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٧٠.

(٣) الضمير يعود على «العلمة الأولى». وقد عاملها معاملة المذكر، وعرفها فى مكان آخر من الكتاب بقوله: «العلمة الأولى: مبدع الكل، منعم الكل، غير متحرك... وأيضاً خبر محض، يشناقه كل شئ سواء، ولا يشناق إلى شئ سواء، وأيضاً هو وجود مطلق لكل وجود عقلى وحسى. وأيضاً الواحد بالقول المطلق، لا بالجنس الواحد، ولا بالشخص الواحد» (ص ٢٧٣)، «وكانه عنى به (الله تعالى)».

(٤) أى الجوهر.

(٥) أى العرض.

(٦) أى الجسد والمادة.

(٧) أى الإلهام والوحدة.

(٨) جاء تعليق أبى سليمان هذا على قصة حكاها التوحيدى عن صبي يجيد ضرب العود فقال: «خرج أبو سليمان يوماً إلى الصحراء وصحبته. فكان منا صبي دون البلوغ، جهل الوحى، بعض الحياء، شبيب المنظر، ولكنه كان مع هذه العورة، يترنم ترنماً يفرح عن جرم، وصوت شخ، ونغمة رخيصة... وكان منا جماعة من أطراف المهلة، وفتيان السكة، وليس فيهم إلا من نادى بلىق به، وعلب عليه، فلما تنفس الرقت أخذ الصبي فى فنه، وبلغ أقصى ما عنده، فترنح أصحابها، ونهادوا وطربوا. فقلت لصاحب لى ذكى: أما ترى ما يعمل بنا شجى هذا الصوت، وندى هذا الحلق، وعلب هذا اللحن ونفت هذه التسم؟ فقال لى: لو كان لهذا من يفرجه، وبين به، ويأخذه بالطرائق المولفة، والألحان المختلفة، لكان يظهر أبة، وبصير فتنة، وإنه عجيب الضمير، بديع الفن، فقال أبو سليمان: حدثنى عن الطبيعة لم احتاجت إلى الصنعة» ص ١١٢.

(٩) الواجب هو الحقيقة. وقد عرفه التوحيدى بقوله: «هو الذى بالفعل فيما وصف به أبدأ» ص ٣٧٠.

(١٠) يعرف التخيل فى مكان آخر بقوله: «هو قول صور المحسوسات ببد مفارقتها وزوالها عن الحس» ص ٣٦٣.

(١١) انظر فى تصوف أبى حيان التوحيدى، إحسان عباس: أبوحيان التوحيدى، ص ١٧٤ وما بعدها.

ومع أن التوحيدى يرى البلاغة والبيان والشعر أقل درجة من الحكمة، فإنه يحسن الظن بغايتها وبأدائها، ولا يحفى إعجابه بالطريقة الجميلة التى تلتئم بها وسائلها؛ إذ يعترف بأن هذه الوسائل، بما فيها من تزيين لفظ، وتزويق وزن، وتوأم أجزاء، وصحة لغة، قادرة على التأثير فى النفس، والتغيير من حال إلى حال. وهو يرى أن النفس هى مصدر هذا الفن عند المبدع، ومستقره عند المتلقى. لكنه، كأرسطو ومعظم النقاد العرب، يربط بين جمال البلاغة والأدب والشعر وبين تدخل العقل فى اختيار بيان دون بيان، و وزن دون وزن، حتى تصل به إلى الصواب والحق.

وينزلق فى أثناء حديثه عن الأدب والشعر إلى قضية التقليد والابتكار فيرى أن افتراع الأفكار وابتداعها أسهل من ترقيع أفكار الآخرين، لأن الإنسان فى الحالة الأولى يملك حرية يستطيع بها توسيع حركة اختياره كيف شاء. أما فى الحالة الثانية، فهو مقيد بما ابتدأه غيره، لذا يصبح كمن يسير فى غياهب مظلمة، وعوالم ضيقة لا يدرى كيف ولا أين يضع قدمه، حتى يسلم من زلة، أو ينجو من عثرة.

المبحث النقدي والبلاغي

في كتاب الإمتاع والمؤانسة

لابي حيان التوحيدى

يوسف أبو العدوس*

«كان متفننا فى جميع العلوم، من النحو واللغة والشعر والأدب والكلام... كثير التحصيل للعلوم فى كل فن حفظه، واسع الدراية والرواية»^(١).

ومن منطلق الثقافة الواسعة المتعمقة التى يتمتع بها أبو حيان، فقد ذم الصاحب ابن عباد (ت. ٣٨٥هـ) لأنه «نتف من كل أدب خفيف أشياء، وأخذ من كل فن أطرافاً»^(٢).

عرف التوحيدى نتاج سابقه فى النقد والبلاغة وسائر الفنون الأخرى، وتأثر به، وعلق عليه، وأعجب بعمقه، وهاجم بعضه الآخر. وقد كان الجاحظ (ت. ٢٢٥هـ) من الأدباء الذين أعجب بهم التوحيدى؛ إذ كان مولعاً بأدب الجاحظ وطريقته، وألف كتاباً فى تقريره^(٣)، ونسخ كتاب (الحيوان)^(٤).

يعالج هذا البحث جانباً من جوانب شخصية أبى حيان التوحيدى، وهو الجانب النقدي والبلاغي فى كتابه (الإمتاع والمؤانسة). ويحاول البحث الوقوف عند عدد من القضايا المهمة التى تتعلق بهذا الجانب، ومنها: مصادر ثقافة أبى حيان النقدية، وعملية الإبداع الفنى، واللفظ والمعنى، وفن البلاغة، والعلاقة بين النظم والنثر^(٥)....

لقد تنوعت مصادر ثقافة التوحيدى النقدية، وتعددت روافدها، وما ساعد فى تنوع هذه الثقافة الموسوعية ريادة التوحيدى مجالس الأدب والفكر المتنوعة، وتلمذه على عدد من الشيوخ من مذاهب وميول مختلفة، ومن هنا وصف ياقوت الحموى (ت. ٦٢٦هـ) ناقدنا بأنه:

* قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة اليرموك، الأردن.

وأروى في الحديث، وأقضى في الأحكام، وأفقه في الفتوى...» (١٥).

ويصف ناقدنا موسوعية شيخه بقوله:

«بعيد القرين، لأنه كان يقرأ عليه القرآن والفقه والشروط والفرائض والنحو واللغة والعروض والقوافي والحساب والهندسة والحديث والأخبار، وهو في كل هذا إماماً في النهاية، وإماماً في الوسط» (١٦).

وقد روى التوحيدى عن أبى عبد الله المرزبانى (ت. ٣٨٥هـ)، وقرأ عليه الشعر، وذكر رأيه في شعر الغزل وعلاقته بالدين والأخلاق، وأظهر التوحيدى في طريقة عرضه لذلك تهكما ومعارضة (١٧).

واطلع التوحيدى على آراء أبى الحسن الرمانى، وامتدحه بقوله:

«وأما على بن عيسى فعالى الرتبة في النحو واللغة والكلام والعروض والمنطق... وقد عمل في القرآن كتاباً نفيساً، هذا مع الدين الشخين، والعقل الرزين» (١٨).

ورأى أن الرمانى «لم يسلك طريق واضح المنطق، بل أفرد صناعة، وأظهر براعة» (١٩).

ولزم التوحيدى مجلس الصاحب ابن عباد فترة من الوقت، وقال عنه:

«الغالب عليه كلام المتكلمين المعتزلة، وكتابته مهجة بطرائقهم، ومناظرته مشوبة بعبارة الكتاب، وهو شديد التعصب على أهل الحكمة والناظرين في أجزائها كالهندسة والطب والتنجيم والموسيقى والمنطق والعدد» (٢٠).

وهاجم التوحيدى الباقلانى (ت. ٤٠٣هـ)، فعندما سئل عنه قال:

واعتمد التوحيدى على المبرد (ت. ٢٨٥هـ)، وأخذ عنه رأيه في أبى تمام (ت. ٢٣١هـ) والبحترى (ت. ٢٨٤هـ) (٥). وامتدح نقد قدامة بن جعفر (ت. ٣٣٧هـ) في النشر فقال: «وما رأيت أحداً تنهى في وصف النشر بجميع ما فيه وعليه غير قدامة بن جعفر في المنزلة الثالثة من كتابه» (٦). وارتاد مجلس أبى على الفارسى، وقال عنه إنه كان «أشد تفرداً بالكتاب» (٧).

وقد تأثر التوحيدى بشيخه أبى سعيد السيرافى (ت. ٣٦٨هـ)، وكان السيرافى من أكثر شيوخ أبى حيان تأثيراً في ثقافته اللغوية والنحوية؛ إذ كان من المهتمين بكتاب سيبويه، وشرحه في ثلاثة آلاف ورقة (٨)، حتى قال ابنه يوسف عن ذلك: «وضع أبى النحو في المزابيل في الإمتاع» (٩). وهذا الشرح في رأى التوحيدى أثار حسد بعض النحاة، لأن هذا لا تم للمبرد، ولا للزجاج، ولا لابن السراج، ولا لابن درستويه مع سعة علمهم، وفيض كلامهم (١٠). وقد قرأ التوحيدى هذا الشرح على السيرافى (١١).

وصرح التوحيدى بأنه يحتفظ بأجوبة للسيرافى على مسائل في القرآن والشعر واللغة والنحو تقع في ألف وخمسمائة ورقة، وهى أجوبة شيخه على أسئلة بعث بها إليه ملوك وأمراء (١٢)، لكن هذه الأجوبة لم تصل إلينا. وقد سمع التوحيدى من شيخه جزءاً من مناظرته مع متى بن يونس في المنطق والنحو العربى، ورواها مشروحة عن الرمانى (ت. ٣٨٤هـ) (١٣).

لقد كان للسيرافى منزلة خاصة في نفس التوحيدى، فقال عنه: كان «يصوم الدهر، ولا يصلى إلا في الجماعة، ويقيم على مذهب أبى حنيفة...» (١٤)، وعندما يقارن التوحيدى السيرافى بغيره من العلماء يقول:

«أبو سعيد أجمع لشمل العلم، وأنظم لمذاهب العرب، وأدخل في كل باب، وأخرج من كل طريق، وألزم للجادة الوسطى من الدين والخلق،

فما شر الثلاثة أم عمر

بصاحبك الذي لا تصيحنا

يزعم أنه ينصر السنة، ويفحم المعتزلة، وينشر الرواية، وهو في أضعاف ذلك على مذهب الخرمية، وطرائق الملحدة^(٢١).

ولعل تأثير جماعة إخوان الصفا على التوحيدى كان كبيراً. ويمود الفضل في الكشف عن هذه الجماعة للتوحيدى الذى اطلع على بعض رسائلهم، وقال عنها:

«هى مبثوثة من كل فن تنفا بلا إشباع ولا كفاية، وفيها خرافات وكنائيات وتلفيقات وتلزيقات، وقد غرق الصواب فيها لغلبة الخطأ عليها»^(٢٢).

وكان أهم مجلس أثر في ثقافة التوحيدى الفلسفية هو مجلس أبى سليمان السجستاني (ت. ٣٩١هـ)، حيث التفت جماعة من مفكرى القرن الرابع حول أبى سليمان، وشكلت ما عرف بجماعة السجستاني، ومن أعضاء هذه الجماعة يحيى بن عدى (ت. ٣٦٣هـ)، والتوحيدى، وأبو الحسن العامرى (ت. ٣٨١هـ)، والقومسى، والبديهى.

كان يحيى بن عدى تلميذاً للفارابى، وهو أستاذ أبى سليمان أو أستاذ الجماعة كما يذكر التوحيدى^(٢٣). وقد امتدح التوحيدى مجلس ابن عدى، إلا أن رئاسة هذا المجلس آلت بوفاة ابن عدى إلى أبى سليمان الذى سمت الجماعة باسمه، وقد تعلق التوحيدى بأبى سليمان حتى قال له ابن سعدان (ت. ٣٧٥هـ): «إنيك جاره ومعاشره، ولصيقه وملازمه، وقافى خطوه وأثره وحافظ غاية خبره»^(٢٤). ووصفه التوحيدى بقوله:

«غزير البحر، واسع الصدر، لا يغلق عليه فى الأمور الروحانية، والأنباء الإلهية، والأسرار الغيبية، وهو طويل الفكرة، كثير الوحدة... أفرز

الشرعية من الفلسفة، ثم حث على انتحالهما معا...»^(٢٥).

وعندما يقارنه بغيره يقول:

«أما شيخنا أبو سليمان فإنه أدقهم نظراً، وأقهرهم غوصاً، وأصفاهم فكراً، وأظفرهم بالدرر، وأوقفهم على الغرر»^(٢٦).

وقد أخذ التوحيدى عنه الكثير من الآراء المتعلقة بقضايا النقد والبلاغة^(٢٧).

ومن أعضاء الجماعة أبو الحسن العامرى الذى أعجب التوحيدى بكلامه فى الفقه بالفاظ الفلسفة، ونقل بعض آرائه. «ذكر له عدداً من الكتب منها: (إنقاذ البشر من الجبر والقدر)، وكتابه فى التصوف»^(٢٨).

أما صلة التوحيدى بمسكويه (ت. ٤٢١هـ)، فليس أدل عليها أكثر من ذلك العمل المشترك كتاب (الهوامل والشوامل) الذى تضمن آراء وثيقة الصلة بالنقد.

*

وناقش التوحيدى عملية الإبداع الفنى، وتحدث أولاً عن الإلهام ورأى أن النفس الإنسانية جوهر إلهى، يتميز بها عن الحيوان، يقول:

«فأما النفس الناطقة فإنها جوهر إلهى، وليست فى الجسد (على خاص ما له فيه) ولكنها مديرة للجسد؛ ولم يكن الإنسان إنساناً بالروح، بل بالنفس، ولو كان إنساناً بالروح لم يكن بينه وبين الحمار فرق، بأن كان له روح ولكن لا نفس له...»^(٢٩).

ويوضح التوحيدى طبيعة الإلهام من خلال المقارنة بين الإنسان والحيوان، يقول:

يتسهل مرة ويتعسر مرارا، ويدل طورا، ويعز أطوارا، ومادته من العقل، والعقل سريع الحؤول، خفى الخداع، وطريقه على الوهم، والوهم شديد السيلان، ومجره على اللسان، واللسان كثير الطغيان، وهو مركب من اللفظ اللغوى والصوغ الطباعي، والتأليف الصناعى، والاستعمال الاصطلاحي، ومستملا من الحجا، ودرية بالتمييز، ونسجه بالرفقة، والحجا فى غاية النشاط...» (٣٤).

وواضح من هذا النص أن الكلام الذى يسبح به الطبع قلما يجى كلاما بليغا، لأن فى البلاغة من الفن ما يتطلب حسن السبك، وجودة الصياغة، وترتيب الألفاظ ومجانبة التكلف والتزام الأصالة دون إطالة.

وألح التوحيدى على ضرورة الطبع وأهمية دوره فى عملية الإبداع الفنى، وقد ردد هذا المعنى كثيرا. يقول التوحيدى وقد عرض لمذهب الجاحظ فى الكتابة معددا عوامل عبقرية الفريدة فذكر الطبع على رأسها جميعا:

«ألا يعلم أبو الفضل (ابن العميد) (ت ٣٦٠هـ) أن مذهب الجاحظ مدبر بأشياء لا تلقى عند كل إنسان، ولا تجتمع فى صدر كل أحد: بالطبع، والمنشأ، والعلم...» (٣٥).

وقال، منتقدا شخصية ابن عباد الأدبية، وقد رأى فيه مثال المغرور المتطاول: «وابن عباد بلى فى هذه الصناعة بأشياء كلها عليه لا له... فأول ما بلى به أنه فقد الطبع، وهو العمود...» (٣٦).

إن الطبع عند التوحيدى مرادف للجبل والسجبة، فعندما سئل التوحيدى عن السجبة قال: «سمعت الأندلسى يقول: فلان يمشى على سجيته، أى طبعه» (٣٧). والطبع عنده يفتى عن علم المروض، وهو عمود الكتابة ومدارها (٣٨).

«ولما كان الحيوان كله يعمل صنائعه بالإلهام على وثيرة قائمة، وكان الإنسان يتصرف فيها بالاختيار، صح له من الإلهام نصيب حتى يكون رفدا له فى اختياره... إلا أن نصيب الإنسان من الإلهام أقل كما أن قسط سائر الحيوان من الاختيار أنزر؛ وثمرة اختيار الإنسان إذا كان معانا بالإلهام أشرف وأدوم وأجدى وأنفع وأبقى، وأرفع من ثمرة غيره من الحيوان إذا كان مرفودا بالاختيار، لأن قوة الاختيار فى الحيوان كالحلم، كما أن قوة الإلهام فى الإنسان كالظل» (٣٩).

إن الإلهام «الظل» يتعرع وينمو فى رحاب الفكر والفكر مفتاح الصنائع البشرية، كما أن الإلهام مستخدم للفكر، والإلهام مفتاح الأمور الإلهية» (٤٠).

وبين التوحيدى أن للإلهام درجات تكمل بالتعلم، فالمهمل عنده أنواع، أحدهم ملهم فيتعلم ويعمل، ويصير مبدأ للمقتبس من، المقتدين به، الآخذين عنه. وواحد يتعلم ولا يلهم فهو يماثل الأول فى الدرجة الثانية. وواحد يتعلم ويلهم، فتجتمع له هاتان الخلتان، فيصير بقليل ما يتعلم مكثرا للعمل والعلم بقوة ما يلهم، ويعود بكثرة ما يلهم مصفيا لكل ما يتعلم ويعمل (٤١). وبذلك ربط أبو حيان التوحيدى العلم والعمل بالإلهام، وعلى قدر تعلم الإنسان وعمله تكون مدى قوته فى عمله، بل مقدرة الفنية على الصياغة والإبداع، فالذى يلهم ويتعلم صاحب منزلة رفيعة حتى يصبح مبدأ، أما الذى يتعلم فهو يؤدى ما قد حفظ (٤٢).

ورق التوحيدى عند صعوبة عملية التعبير الفنى، ورأى أن:

«الكلام صلف نياه لا يستجيب لكل إنسان، ولا يصحب كل لسان، وخطره كثير، ومتعاطيه مغرور، وله أرن كأرن المهر، وإباء كإباء الحرون، وزهو كزهو الملك، وخفق كخفق البرق، وهو

ويحاول التوحيدى تبين العلاقة القائمة بين الطبيعة والصناعة؛ إذ إن أول ما يتبادر إلى الذهن هو أن يقال إن الطبيعة فوق الصناعة، وإن الصناعة دون الطبيعة، بدليل أن الصناعة تحاول التشبه بالطبيعة فلا تكاد تقوى على ذلك، فى حين أن الطبيعة لا تشبه بالصناعة ولا تكمل بها. هذا إلى أن الطبيعة قوة إلهية، فكيف للصناعة البشرية أن تساويها أو أن تكون مستعلة عليها، فى حين أنه لا سبيل لقوة بشرية أن تتساوى مع قوة إلهية، إن من قريب أو بعيد؟ (٤٢).

ويؤكد التوحيدى تأثير البيئة الفكرية فى عملية الإبداع الفنى، فهى فى نظره عامل مهم فى تكوين الأدب. وقد عرض لهذا المعنى فى مواطن عديدة من كتابه (الإمتاع والمؤانسة). فمما امتاز به الجاحظ على غيره من الكتاب عوامل ساعدت فى تكوينه ومهدت لتبوعه، منها المنشأ فـ:

«مذهب الجاحظ مدير بأشياء لا تلتقى عند كل إنسان بالطبع والمنشأ؛ والعلم والأصول، والعادة، والعمر، والفراغ، والعشق، والمنافسة، والبلوغ، وهذه مفاخ قلما يملكها واحد، وسواها مغالط قلما ينفك منها واحد» (٤٣).

وسبب فشل ابن عباد - فى نظر التوحيدى - يعود إلى عدد من الأسباب منها البيئة:

«هو [أى ابن عباد] مجتهد غير موفق، وفاضل غير منطوق... وطباع الجبلى مخالف لطباع العراقي، يشب مقاربا فيقع بعيدا، ويتناول صاعدا فيتقاعس قعيدا» (٤٤).

ويعلل جودة امتياز أبى إسحق الصائبي (ت. ٣٨٤هـ)

قائلا:

«فأما أبو إسحق فإنه أحب الناس للطريقة المستقيمة، وأمضاهم على المحجة الوسطى... وأبو

لم يكن إعلاء شأن الطبع عند التوحيدى تجاهلا لإنقان الصنعة وحذقها، فلكل دوره وأهميته، فالكلام «مركب من اللفظ اللغوى والصوغ الطباعى، والتأليف الصناعى، والاستعمال الاصطلاحي» (٣٩). ويلحظ أن نظرة التوحيدى إلى الإبداع، الفنى بشكل عام، كانت بتأثر من شيخه أبى سليمان، فقد أورد التوحيدى نظرة شيخه للبديهة والروية وأثرهما فى النظم والنثر، مبرزاً أثر نفاع الطبع والصنعة، وتضافرهما فى إبداع العمل الأدبى ليصل هذا العمل إلى مرتبة عالية من الجودة والكمال، يقول التوحيدى.

«قال شيخنا أبو سليمان: الكلام ينبعث فى أول مبادئه إما من عفو البديهة، وإما من كد الروية، وإما أن يكون مركبا منهما، وفيه قواهما بالأكثر والأقل؛ ففضيلة عفو البديهة أنه يكون أصفى، وفضيلة كد الروية أنه يكون أشفى، وفضيلة المركب منهما أنه يكون أوفى؛ وعيب عفو البديهة أن تكون صورة العقل فيه أقل، وعيب كد الروية أن تكون صورة الحس فيه أقل، وعيب المركب منهما بقدر قسطه منهما: الأغلب والأضعف، على أنه إن خلص هذا المركب من شوائب التكلف، وشوائب التعسف، كان بليفا مقبولا حلوا، تحتضنه الصدور، وتحتلسه الأذان، وتنتهبه المجالس، ويتنافس فيه المنافس بعد المنافس، والتفاضل الواقع بين البلغاء فى النظم والنثر، إنما هو فى هذا المركب الذى يسمى تأليفا ورصفا» (٤٥).

ويقول التوحيدى فى هذا المعنى:

«فإن قيل: إن النظم قد سبق العروض بالذوق، والذوق طباعى، قيل الجواب: الذوق وإن كان طباعيا، فإنه مخدوم الفكر» (٤٦).

الصناعة دون الطبيعة، فإن الصناعة نشاط بشري يصدر عن العقل ويستملى من النفس، فليس بلحا أن نراها تملى على الطبيعة وتحاول أن تصقلها وتهذبها (٥٢).

*

عالج التوحيدى قضية اللفظ والمعنى، وحلل جوانبها المختلفة، ولا غرو فى ذلك، فاللفظ والمعنى ركنان مهمان من أركان القصيدة، بل ركن واحد لارتباط الشكل بالمضمون ارتباطا وشيخاً.

استأثرت قضية اللفظ والمعنى بجهود القدماء وعنايتهم، فهى مبشورة فى كتبهم هنا وهناك، حتى إن هذه القضية استأثرت بثلاث من قواعد عمود الشعر العربى القديم: شرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته، ومشكلة اللفظ للمعنى. وقضية اللفظ والمعنى لا تخلو من غموض واضطراب وتعقيد، وعلى الباحث أن يتعامل معها بفكر ناقد.

دعا التوحيدى إلى المساواة بين اللفظ والمعنى، واهتم بامتزاج الصورة بالمادة، وتكافؤ الشكل مع الموضوع فقال: «لا تمسك اللفظ دون المعنى، ولا تهو المعنى دون اللفظ» (٥٣). وقال:

«أحسن الكلام ما رق لفظه، ولطف معناه، وتلاؤاً رونقه، وقامت صورته بين نظم كأنه نشر، ونثر كأنه نظم، يطعم مشهوده بالسمع، ويمتنع مقصوده على الطبع حتى إذا رامه مريغ حلق، وإذا حلق أسف، أعنى يبعد عن المحاول بعنف، ويقرب من المتناول بلطف» (٥٤).

وعلى البليغ أن يستمع لقول السيرافى كما أورده التوحيدى:

«وقدر اللفظ على المعنى فلا يفضل عنه، وقدر المعنى على اللفظ فلا ينقص منه... فأما إذا

إسحق معانيه فلسفية، وطباعه عراقية، وعادته محمودة...» (٤٥).

ويشيد مرة أخرى بالبيئة العراقية وتفوقها على غيرها من البيئات الإسلامية من الوجهة الأدبية قائلاً:

«إذا أنصفنا التزامنا مزية العراقيين علينا بالطبع اللطيف، والمأخذ القريب، والسجع الملائم، واللفظ المؤنق، والتأليق الحلو، والسبوة الغالبة، والموالاة المقبولة فى السمع، الخالية للقلب... الدالة على غزارة المغترف...» (٤٦).

وفى نهاية الحديث عن عملية الإبداع الفنى عند أبى حيان التوحيدى لابد من الإشارة إلى الملاحظتين الآتيتين:

الملاحظة الأولى: لقد اهتم النقاد العرب القدماء - كاهتمام التوحيدى - بالموهبة وسموها: الطبع، وجعلوها ركناً أساسياً من أركان الشخصية الأدبية. وقد رأى بشر بن المعتمر (ت. ٢١٠هـ) أن الأدب هبة وطبع (٤٧). وأوضح الجاحظ أن المعنى إذا كان شريفاً، واللفظ بليغاً، وكان صحيح الطبع، بعيداً عن الاستكراه، ومنزهاً من الاختلال، مصوناً من التكلف، صنع فى القلوب صنيع الغيث فى التربة الكريمة (٤٨). واهتم ابن طباطبا (ت. ٣٢٢هـ) بالطبع، وجعله ركناً من أركان الشخصية الأدبية (٤٩). والمطبوع من الشعراء عند ابن قتيبة (ت. ٢٧٦هـ) هو الذى سمح بالشعر، واقتدر على القوافى... وتبيت على شعره رونق الطبع، ووشى الغريزة (٥٠). وبين القاضى الجرجانى (ت. ٣٩٢هـ) أن الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء ثم تكون الدربة مائة له وقوة لكل واحد من أسبابه (٥١).

الملاحظة الثانية: إن الموهبة الطبيعية لا تكفى وحدها لخلق الفنان، وإنما لابد من أن تنضاف إليها الحرفة أو الصناعة، مادام من الضروري لكل موهبة طبيعية أن تصقل وتهذب حتى تستحيل إلى موهبة فنية. وليس من الصحيح أن

أبى سليمان، وهذا المنحى يبين أن الحياة العقلية التي كانت سائدة في عصر ناقدنا كانت تتطلب المزيد من الدقة في تحديد معاني الألفاظ، ووضع حد لعمليات التلاعب اللفظي، فكان على جماعة الفلاسفة الأدباء أن يضطلعوا بهذه المهمة، توطيداً لدعائم الصلة بين الفكر واللغة (٥٨).

وزداد التأليف حسنا وجمالا بازدياد المعنى وضوحا، ونلمس منحنى هذا الوضوح عند أبى حيان في فهمه للبلاغة (٥٩). وقد وصف التوحيدي الشاعر الحانمي بأنه «غليظ اللفظ، كثير العقدة» (٦٠). ويجب على الكاتب أن يتجنب اللغة العويصة المعقدة (٦١). وعاب التوحيدي على ذى الكفائتين أبى الفتح بن العميد (ت. ٣٦٦هـ) بأنه «نزر المعاني، شديد الكلف باللفظ» (٦٢). ويظهر التوحيدي إعجابه بالمعنى في بعض الأبيات، ومن ذلك تعليقه على أبيات الأعرابي:

«أنا الغلام الأعسر الخير فى الشر

والشر فى أكثر

«وهذا معنى بديع، ولم يرد أن البداءة بالشر خير من الخير، وإنما أراد أنى أتقى بالشر، وإذا أقبل الشر قلت له: مرجباً، وأدفع الشر ولو بالشر، والحديد بالحديد يفلح، وقد قال الآخر:

وفى الشر نجاة حيد. من لا ينجيك إحسان» (٦٣).

واستحسن التوحيدي الاقتداء بالبادية إذا أحسن الشاعر فى اقتدائه، واستقيح من تكلف ذلك، فقد امتدح الشاعر ابن نباتة لأنه حسن الاقتداء بالبادية فى شعره (٦٤). فى حين كان الحسانمى «يحب أن يكون بدوياً قسحاً، وهو لم يتم حضرياً» (٦٥).

وهكذا نجد التوحيدي يحذر من الوحشى والمستكره والغريب والركيك، وعلى الأديب أن يعتمد الرقيق والعزل،

حاولت فرش المعنى، وبسط المراد فأجل اللفظ بالروادف الموضحة، والأشبه المقربة، والاستعارات الممتعة، وبين المعانى بالبلاغة...» (٥٥).

وقد ضرب التوحيدي مثالين تطبيقيين بين فى أحدهما التزام أبى إسحق الصابى بالموازنة بين اللفظ والمعنى، وهذا جيد فى نظر ناقدنا، وبين فى الآخر قصور اللفظ عن المعنى فى كتاب (نقد الشعر) لقدامة بن جعفر، وهذا بالنسبة إلى أبى حيان التوحيدي قصور لا مبرر له. يقول:

«فأما أبو إسحق فإنه أحب الناس للطريقة المستقيمة، وأمضاهم على الحججة الوسطى... وأبو إسحاق معانيه فلسفية» (٥٦).

ويقول التوحيدي على لسان أبى سليمان المنطقى، مشروطاً بالبلاغة فى الكلام على البلاغة، معلقاً على كتاب نقد الشعر لقدامة بن جعفر:

«واختبرته فوجدته قد بالغ وأحسن وتفرد فى وصف فنون البلاغة فى المنزلة الثالثة بما لم يشركه فيه أحد من طريق اللفظ والمعنى، مما يدل على اختار المجتبى، والمعيب المجتنب. ولقد شاكلة فيه الخليل بن أحمد فى وضع العروض، ولكنى وجدته هجين اللفظ، ركيك البلاغة فى وصف البلاغة، حتى كأن ما يصفه ليس ما يعرفه، وكأن ما يدل به غير ما يدل عليه... ولولا أن الأمر على ما ذكرت لكان ذلك الطريق الذى سلكه، والفن الذى ملكه، والكنز الذى هجم عليه، والنمط الذى ظفر به، قد برز فى أحسن معرض، وتخلى بالطف كلام، وماس فى أطول ذيل، وسفر على أحسن وجه، وطلع من أقرب نفق، وحلق فى أبعد أفق» (٥٧).

لقد عرف التوحيدي بتقصيه الدقيق معانى الألفاظ، ومحاوله التمييز بينها، وهو فى هذا التوجه متأثر بشيخه

والصفائح مصقولة، والأمثلة خفيفة المأخذ،
والهواذى متصلة، والأعجاز مفصلة.

أما بلاغة الخطابة فهي:

«أن يكون اللفظ قريباً، والإشارة عالية، والسجع
عليها مستولياً، والوهم فى أصفافها سابحاً،
ويكون فقرها قصاراً، ويكون ركابها شوارد
إبل» (٦٩).

ولا شك أن هناك تداخلاً بين البلاغات الثلاث، يصعب
معه وضع الفوارق الواضحة بينها، فقد جاءت بلاغة الشعر
خالية من الإشارة إلى الوزن، وقد فرض العقلانية على
البلاغات الثلاث، فالمعنى يجب أن يكون فى الشعر مكشوفاً،
وفى النثر مشهوراً، واللفظ يجب أن يكون فى النثر متناولاً،
وفى الشعر الغريب بريئاً، وفى الخطابة قريباً. يضاف إلى ذلك
أننا نجد صفات كملو الرونق والتهديب والرقعة فى النثر تصلح
لبلاغة الشعر، وكذلك الكناية والمؤاخاة والمواءمة فى الشعر
تصلح للنثر.

ويتحدث أبو سليمان عن بلاغة المثل وهى:

«أن يكون اللفظ مقتضباً، والحذف محتملاً، والصورة
محفوظة، والمرمى لطيفاً، والتلويع كافياً، والإشارة
مغنية، والعبارة سائرة».

أما بلاغة العقل والبديهة والتأويل فكان حديث أبى
سليمان فيها عن المضامين، واعتذر عن إيراد أمثلة لأنها
موجودة فى الكتب (٧٠).

وواضح أن أبا سليمان المنطقى غير منطقى فى هذه
القسم، لأنه ينظر من زوايا مختلفة، فحيناً ينظر إلى النوع
فيقسم الكلام إلى شعر ونثر، ثم ينظر إلى النثر نفسه وفق
اختلاف وجوهه فيقسمه إلى خطابة ونثر ومثل، ثم يتحدث
عن المحتوى المعنوى ويسميه بلاغة العقل، ثم ينظر إلى طبيعة
الإبداع نفسه فيعد شيئاً يسميه بلاغة البديهة، ثم يقف وقفة

وهو بذلك يدعو إلى مذهب النمط الأوسط فى التعبير،
وهذا النمط يمتد فى جذوره إلى الجاحظ الذى قال:
«وكما لا ينبغي أن يكون اللفظ عامياً، وساقطاً وسوقياً،
فكذلك لا ينبغي أن يكون غريباً وحشياً» (٦٦). ويمكن أن
نلمس هذا التوجه عند التوحيدى فى رأيه فى شعر أبى تمام
والبحترى، حيث أبدى تحفظاً، ثم أحالنا على رأى المبرد فى
قوله:

«أبو تمام يعلو علواً رفيعاً، ويسقط سقوطاً قبيحاً،
والبحترى أحسن الرجلين نمطاً وأعذب
لفظاً» (٦٧).

وأخيراً، يمكن القول بخصوص هذه القضية إن التوحيدى
قد عزف فى حديثه عن العلاقة الوطيدة بين الألفاظ والمعانى
على أنغام طائفاً عزف عليها معاصروه، وطالما عزف عليها
سلفه وخلفه، وهذا ما نجده فى كتابات ابن رشيق
(ت. ٤٦٣ هـ)، وإخوان الصفا، وابن سينا (ت. ٤٢٨ هـ)،
وقدامة بن جعفر، والباقلانى وغيرهم (٦٨).

وقد ذكر التوحيدى عن شيخه أبى سليمان أنواعاً مختلفة
من البلاغة وهى: بلاغة الشعر وبلاغة الخطابة، وبلاغة النثر،
وبلاغة المثل، وبلاغة العقل، وبلاغة البديهة، وبلاغة التأويل.

أما بلاغة الشعر فهي:

«أن يكون نحوه مقبولاً، والمعنى من كل ناحية
مكشوفاً، واللفظ من الغريب بريئاً، والكناية
لطيفة، والتصريح احتجاجاً، والمؤاخاة موجودة،
والمواءمة ظاهرة».

وبلاغة النثر:

«أن يكون اللفظ متناولاً، والمعنى مشهوراً،
والتهديب مستعملاً، والتأليف سهلاً، والمراد
سليماً، والرونق عالياً، والحواسى رقيقة،

وقات هؤلاء أن البلاغة فن يحتاج إلى دراسة وتحصيل وطول مراس، فإن الكاتب لا يكون كاملاً، ولا لاسمه مستحقاً، إلا بعد أن ينهض بدراسة أصول هذه الصناعة، ويجمع إليها أصولاً من الفقه، وآيات من القرآن، وعلماً واسعاً بالحديث، وأخباراً كثيرة مختلفة في فنون شتى لتكون عدة له عند الحاجة إليها، مع الأمثال السائرة، والأبيات النادرة، والعبارات المأثورة، والتجارب المعهودة^(٧٤).

ومن أهم القضايا التي عالجهما التوحيدى قضية العلاقة بين النظم والنثر، والمفاضلة بينهما، وهذه القضية واحدة من القضايا التي تفرض نفسها على النقاد القدماء. وقد بحث النقاد هذه القضية من زوايا مختلفة فرأى ابن طباطبا العلوى أنه لا فرق بين القصيدة والرسالة إلا فى الوزن، وأن «الشعر رسائل معقودة، والرسائل شعر منحلول»، وأنهما يشتركان فى موضوعاتهما ومعانيهما وفى طريقة بنائهما^(٧٥). وفاضل الحاتمي (ت. ٣٨٤هـ) يميز بين الشعر والنثر مبيناً أن قيمة الشعر أعلى من قيمة النثر^(٧٦). وكذلك فعل أبو هلال العسكري (ت. ٣٨٤هـ)^(٧٧)، وأبو بكر الباقلاني^(٧٨)، كما أشار الآمدي (ت. ٣٧١هـ)^(٧٩)، والمزباني^(٨٠) إلى هذه القضية. وكتب أبو إسحق الصابى رسالة فى الفرق بين المترسل والشاعر، رداً على سؤال لسائل أراد أن يعرف السبب فى أن أكثر المترسلين البلغاء لا يفلقون فى الشعر، وأن أكثر الشعراء الفحول لا يجيدون فى المترسل^(٨١). وقد أجاب الصابى عن هذا السؤال، جاعلاً إجابته منطلقاً لأسئلة ثلاثة أخرى هى:

١ - من أية جهة صار الأحسن فى معانى الرسائل الوضوح، وفى معانى الشعر الغموض؟

٢ - لم كان المترسلون قلة والشعراء كثرة؟

٣ - لم ارتفعت مكانة أولئك [المترسلون] وتدنت مكانة هؤلاء [الشعراء]^(٨٢)؟ وقد شكلت إجابة الصابى عن

طويلة عند نوع من النثر يتحمل أوجها من التأويل، ويفرده بالأهمية، ويرى أن سائر فنون البلاغة إنما تكون فى خدمته^(٧١).

وحلل التوحيدى فى موضع آخر فن البلاغة، وبين أن هذا الفن مركب من اللفظ اللغوى، والتأليف الصناعى، والاستعمال الاصطلاحي والمشتغل بهذا الفن بحاجة إلى نشاط ذهنى، واستدلال عقلى، وقدرة على التمييز، وطاقة على ممارسة البرهان. ويشور أبو حيان التوحيدى على أدباء الزخرف، والتحسين اللفظى، وينصح الأديب قائلاً:

«ولا تمسك اللفظ دون المعنى، ولا تهو المعنى دون اللفظ، وكن من أصحاب البلاغة والإنشاء فى جانب، فإن صناعتهم يفتقر فيها أشياء يؤاخذ بها غيرهم، ولست منهم، فلا تشبه بهم، ولا تجر على مثالهم، ولا تنسج على منوالهم»^(٧٢).

ولا يرى التوحيدى موضعاً للمفاضلة بين البلاغة وغيرها من الفنون، أو بينها وبين ما عداها من العلوم، فإن حاجة الإنسان إلى الحساب والهندسة والكيمياء، لا تنفى حاجته إلى التحرير والكتابة والإنشاء. وليس من الصحيح ما ذهب إليه البعض من أن:

«من عبر فى نفسه بلفظ ملحون أو محرف أو موضوع غير موضعه، وأفهم غيره، وبلغ به إرادته، وأبلغ غيره، فقد كفى؛ والزائد على الكفاية فضل يستغنى عنه كثير»^(٧٣).

والبليغ عند التوحيدى يستمد بلاغته من العقل، ويصدر فيها عن التمييز الصحيح، والبلاغة جد يجمع ثمرات العقل، وفن يقوم على إحقاق الحق وإبطال الباطل. وقد أساء بعض أهل الإنشاء والتحرير إلى فن البلاغة؛ حيث اصطنعوا شتى أساليب التشادق والتفيقه والكذب والخداع، فأوهمو الناس بأن هذا الفن زخرفة وبهرجة وبراعة فى الخديعة والاحتتيال،

هذه الأسئلة مادة الرسالة والمخاور الأربعة الأساسية التي أدار عليها الحديث في رسالته.

وقبل الحديث عن رأى التوحيدى فى هذه القضية، لابد من الإشارة إلى أن منشأ هذه المسألة فلسفى الطابع، فقد عرف التوحيدى وغيره من المفكرين الذين عالجوا هذه القضية ما حام حول الفكر الفلسفى من أمر التفاوت بين الخطابة والشعر فى حظهما من الصدق والكذب. وقد ذهب كل فريق من المتجادلين يستعين فى تفضيل الشعر أو النثر بأمر خارجة عن طبيعتهما أحيانا. فكان أبو سليمان المنطقى وأبو عابد الكرخى صالح بن على، وعيسى الوزير، وأبو طرارة الجريرى، وابن هندو الكاتب ممن يفضلون النثر وتتفاوت حججهم بين السطحية والعمق. أما الذين يفضلون الشعر فهم فى الغالب من طبقة الشعراء، وهذه الخصومة ما كانت لتصل إلى هذا المستوى لولا تعصب كل فريق لما يحسنه، ومع ذلك فإن التوحيدى كان يرى أن الأكثرين يقدمون النظم على النثر دون أن يحتجوا فيه بظاهر القول، وأن الأقلين يقدمون النثر ويحاولون الحجاج فيه (٨٢).

يذهب التوحيدى إلى أن ما قيل فى تقديم النظم أو النثر مقبول ومنصف، لكنه يستثنى فئات لفتها التعصب والجدل، فقصرت حججهم عن بلوغ المراد:

«وقد قال الناس فى هذين الفنين ضروريا من القول لم يبعدوا فيها من الوصف الحسن، والإنصاف المحمود، والتنافس المقبول، إلا ما خالطه من التعصب والحك، لأن صاحب هذين الخلقين لا يخلو من بعض المكابرة والمغالطة، ويقدر ذلك بصير له مدخل فيما يراد تحقيقه من بيان الحجة أو قصورها لما يرام من البلوغ بها، وهذا آفة معترضة فى أمور الدين والدنيا، ولا مطمع فى زوالها، لأنها ناشئة من الطباع المختلفة، والعادات السيئة، لكنى مع هذه الشوكة

الحادة، والخطبة الكادة، أقول ما وعيته عن أرباب هذا الشأن، والمتتمين لهذا الفن، وإن عن شئ يكون شكلا لذلك وصلته به تكميبا للشرح، واستيعابا للباب، وصمدا للغة، وأخذنا بالحياطة» (٨٤).

لقد اعتمد بعض من فضل النثر على النظم فيما اعتمد على الاعتقاد السائد بأن النثر أصل الكلام، ذلك أن الإنسان يقصد النثر فى أول كلامه منذ طفولته، بينما يأتى النظم تاليا بدواع عارضة، والشرف هنا لما هو أصل، وقد ذكر التوحيدى عن أبى عابد الكرخى أن:

«النثر أصل الكلام، والنظم فرع، والأصل أشرف من الفرع، والفرع أنقص من الأصل: لكن لكل واحد منهما زائئات وشائئات؛ فأما زائئات النثر فهى ظاهرة، لأن جميع الناس فى أول كلامهم يقصدون النثر، وإنما يتعرضون للنظم فى الثانى بداعية عارضة، وسبب باعث، وأمر معين... ألا ترى أن الإنسان لا ينطق فى أول حاله من لدن طفولته إلى زمان مديد إلا بالمشور المتبدد، والميسور المتردد، ولا يلهم إلا ذاك، ولا يناغى إلا بذاك، وليس كذلك المنظوم...» (٨٥).

وقد رأى الكرخى أن النثر طبيعى أكثر من الشعر، وأنه مبرأ من التكلف، وهو إلى الصفاء أقرب (٨٦).

وكانت الكتب السماوية والحديث النبوى الشريف عناصر تفضيل للنثر على الشعر، فالكتب السماوية خلت من تلك الأوزان للنظم:

«ومن شرفه أيضا أن الكتب القديمة والحديثة النازلة من السماء على ألسنة الرسل بالتأيد الإلهى مع اختلاف اللغات كلها منشورة مبسطة، متباينة الأوزان، متباعدة الأبنية، مختلفة

أما أبو عابد الكرخي فيرى أن قيد الوزن في الشعر سبب في هبوط مرتبته دون النثر، ذلك أن الشعر:

«صناعي، ألا ترى أنه داخل في حصار العروض وأسر الوزن، وقيد التأليف، مع توفى الكسر، واحتمال أصناف الزحاف، لأنه لما هبطت درجته عن تلك الربوة العالية، دخلته الآفة من كل ناحية» (٩٢).

والنثر بالمقابل:

«مبشراً من التكلف، منزّه عن الضرورة، غني عن الاعتذار والافتقار، والتقديم والتأخير، والحذف والتكرير، وما هو أكثر من هذا مما هو مدون في كتب القوافي والعروض لأربابها الذين استنفدوا غايتهم فيها» (٩٣).

ويذهب آخرون إلى تقديم النثر على النظم بناء على مكانة النثر الاجتماعية، فالكتاب يتقلدون مناصب مهمة في الدولة، ويخدمون بنشرهم مرافقها، فهم جزء من السلطة، بينما يقتصر دور الشعراء غالباً على خدمة الوزراء واستعطف ولاية الأمر، ويورد التوحيدى عن ابن ثوبة الكاتب قوله:

«لو تصفحنا ما صار إلى أصحاب النثر من كتاب البلاغة، والخطباء الذين ذبوا عن الدولة، وتكلموا في صنوف أحداثها، وفنون ما جرى الليل والنهار به، مما فتق به الرثق، ورتق به الفتق، وأصلح به الفساد، ولم به الشعث، وقرب به البعيد، وبعد به القريب، وحقق به الحق، وأبطل به الباطل، لكان يوفى على كل ما صار إلى جميع من مال الشعر ولاك القصيدة، ولهج بالقريض، واستماخ بالمرحمة، ووقف موقف المظلوم، وانصرف انصراف المحروم، وأين من يفتخر بالقريض، ويدلل بالنظم، ويباهى بالبديهة، من وزير الخليفة، ومن صاحب السر، ومن ليس

التصارييف، لانتقاد للوزن، ولا تدخل في الأعاريف، هذا أمر لا يجوز أن يقابله ما يدحضه، أو يحرض عليه بما يحرضه» (٨٧).

ويذكر التوحيدى عن أبي كعب الأنصاري أن:

«من شرف النثر أن النبي صلى الله عليه وسلم لم ينطق إلا به أمراً ونهياً، ومستخبراً ومخبراً، وهادياً وواعظاً، وغاضباً وراضياً، وما سلب النظم إلا لهبوطه عن درجة النثر، ولا نزه عنه إلا لما فيه من النقص، ولو تساوى لطق بهما، ولما اختلفا خص بأشرفها الذى هو أجول في جميع المواضع، وأجلب لكل ما يطلب من المنافع» (٨٨).

وينقل الجاحظ عن ابن هندو الكاتب ما يشير إلى تقارب في الإيقاع بين النظم والنثر، يقول:

«إذا نظر في النظم والنثر على استيعاب أحوالهما وشرائطهما، والاطلاع على هوائيهما وتواليهما كان أن المنظوم فيه نثر من وجه، والمنثور فيه نظم من وجه، ولولا أنهما يستهيمان هذا التمت لما اختلفا ولا اختلفا» (٨٩).

إن النثر - تبعاً لبعض الآراء - يتحلله من قيد الوزن صار أكثر حرية وانطلاقاً. يذكر التوحيدى عن عيسى الوزير أن النظم قد «غلبت عليه الضرورة، واحتيج إلى الإغضاء عما لا يجوز مثله في الأصل الذى هو النثر» (٩٠). ويرى ابن طرارة أن:

«النثر كالحرّة، والنظم كالأمّة، والأمّة قد تكون أحسن وجهاً، وأدث شمائل، وأحلى حركات، إلا أنها لا توصف بكرم جوهر الحرّة، ولا بشرف عرقها، وعنت نفسها، وفضل حياتها» (٩١).

النثر المتحرر من هذه القيود الشرف عند من يقدم النثر، فإن صناعة الشعر نفسها، وما تحويه من أصول وقواعد، هي حجة عند من يقدم النظم، لأن هذه الصناعة متميزة بمعالمها الخاصة، لا يطرقها إلا من حذقها، وأعطى قدرة وموهبة، كما أن أولية النثر هي دلالة ابتذال عند من قدم النظم، لأن النثر ينطق به جميع الناس. ينقل التوحيدى عن السلامى قوله:

«من فضائل النظم أن صار لنا صناعة برأسها، وتكلم الناس فى قوافيها، وتوسعوا فى تصاريفها وأعاريفها، وتصرفوا فى بحورها، واطلموا على عجائب ما استخزن فيها من آثار الطبيعة الشريفة، وشواهد القدرة الصادقة؛ وما هكذا النثر، فإنه قصر عن هذه الذروة الشامخة، والقلعة العالية؛ فصار بذلك بذلة لكافة الناطقين من الخاصة والعامة والنساء والصبيان» (٩٧).

وبعد أن تحدث السلامى عن الفضيلة الأولى من فضائل النظم - علما بأن نظريته إلى النثر كانت نظرة عامة، ولم يخصص النثر الفنى - ينتقل إلى الحديث عن فضيلة أخرى للنظم، هي الوزن الذى أهله للفناء والطرب، يقول:

«من فضائل النظم أنه لا يغنى ولا يحدى إلا بجيسده، ولا يؤهل للحن الطنطنة، ولا يحلى بالإيقاع الصحيح غيره، لأن الطنطنات والنقرات، والحركات والسكنات لا تتناسب إلا بعد اشتغال الوزن والنظم عليهما، ولو كان فعل هذا بالنثر كان منقوصاً، كما لو لم يفعل هذا بالنظم لكان محسوساً؛ والفناء معروف الشرف، عجيب الأثر، عزيز القدر، ظاهر النفع فى معاناة الروح ومناغاة العقل، وتبنيه النفس، واجتلاب الطرب، وتفريج الكرب؛ وإثارة الهزة، وإعادة العزة...» (٩٨).

ويحتج من قدم الشعر بالناحية الوظيفية له، وبالمكانة الاجتماعية للشاعر، فهذا الخالع يقول:

بين لسانه ولسان صاحبه واسطة، ولا بين أذنه وأذنه حجاب؟! ومتى كانت الحاجة إلى الشعراء كالحاجة إلى الوزراء؟! ومتى قام وزير لشاعر للخدمة أو للتكرمة؟! ومتى قعد شاعر لوزير على رجاء وتأميل؟! بل لا ترى شاعراً إلا قائماً بين يدى خليفة أو وزير أو أمير باسط اليد، ممدود الكف، يستعطف طالباً، ويسترحم سائلاً؛ هذا مع الذلة والهوان، والخوف من الخيبة والحرمان، وخطر الرد عليه فى لفظ يمر، وإعراب يجرى، واستعارة تعرض، وكناية تتمرض، ثم يكون مقلباً مشيناً بما يظن به من الهجاء الذى ربما دلّاه فى حومة الموت، وقد برأ الله تعالى بإحسانه القديم، ومنه الجسميم صاحب البلاغة من هذا كله، وكفاه مؤونة القدر به، والضرر فيه» (٩٩).

وقد عرض التوحيدى للوحدة واختصاص النثر بها دون الشعر، وامتيازها بها عليه، والوحدة عند أبى حيان بعض من جوهر النثر، وموضع شرفه وفضله:

«ومن شرفه [النثر] أيضاً أن الوحدة فيه أظهر، وأثرها فيه أشهر، والتكلف منه أبعد، وهو إلى الصفاء أقرب، ولا توجد الوحدة غالباً على شئ إلا كان ذلك دليلاً على حسن ذلك الشئ وبقائه وبهائه ونقاؤه» (١٠٥).

ويرى التوحيدى أن:

«النثر من قبل العقل، والنظم من قبل الحس، ولدخول النظم فى طى الحس دخلت إليه الآفة، وغلبت عليه الضرورة، واحتيج إلى الإغضاء عما لا يجوز مثله فى الأصل الذى هو النثر» (١٠٦).

أما آراء من قدم النظم فلا تختلف كثيراً فى ركائزها ومنطلقاتها عن ركائز من قدم النثر ومنطلقاته، فإذا كانت صناعة النظم المقيدة بالوزن والقافية تشكل عاملاً فى إعطاء

«المعاني المعقولة بسيطة في بحبوحة النفس، لا يحوم عليها شئ قبل الفكر، فإذا لقيها الفكر بالذهن الوثيق، والفهم الدقيق ألقى ذلك إلى العبارة، والعبارة حينئذ تتركب بين وزن هو النظم للشعر وبين وزن هو سياق الحديث» (١٠٣).

وبعد ذلك قدم أبو سليمان معايير للنظم والنثر بقوله:

«وكل هذا راجع إلى نسبة صحيحة أو فاسدة، وصورة حسنة أو قبيحة، وتأليف مقبول أو ممجوج، وذوق حلو أو مر، وطريق سهل أو وعر، واقتضاب مفضل أو مردود، واحتجاج قاطع أو مقطوع، وبرهان مسفر أو مظلم، ومتناول بعيد أو قريب، ومسموع مألوف أو غريب .. فإذا كان الأمر في هذه الحال على ما وصفنا فللنثر فضيلته التي لا تنكر، وللنظم شرفه الذي لا يجحد ولا يستر، لأن مناقب النثر في مقابلة مناقب النظم، ومثالب النظم في مقابلة مثالب النثر؛ والذي لا بد منه فيها السلامة والدقة، وتجنب العويص، وما يحتاج إلى التأويل والتخليص» (١٠٤).

لقد أكثر التوحيدى من آراء الذين قدموا النثر، وأطنب في بعضها، رغم قوله إن الأكثرية قد قدمت النظم، وكانت غالبية من قدم الشعر من الشعراء، وحججهم أقل قرأاً من جوهر الموضوع، في حين كانت حجج من قدم النثر أكثر موضوعية وعمقاً. ويحس الباحث أن قضية المفاضلة بين النثر والشعر كانت في بدايتها وفي بعض مناحيها معتمدة على أساس اجتماعي، ونابعة من تعصب كل جماعة لفنها، وقلماً توقف الذين عرضوا لهذه القضية عند التفريق بين فن النثر وفن الشعر، أو عند الإبداع الفني عند الناثر والشاعر. وقد اهتمت بعض الآراء عن جوهر النثر والشعر، كما آراء المتعلقة بوظيفة كل فن من الفنين، أو مكانة الشاعر والناثر.

إن المفاضلة التي يوردها التوحيدى بين الناثر والنظم ليست جديدة، بل هي استمرار لتقليد يعلى من مكانة الناثر

«لشعراء حلبة، وليس للبلغاء حلبة، وإذا تتبع جوائز الشعراء التي وصلت إليهم من الخلفاء وولاة العهود والأمراء والولاة في مقاماتهم المؤرخة، ومجالسهم الفاخرة، وأنديتهم المشهورة، وجدتها خارجة عن الحصر، بعيدة عن الإحصاء؛ وإذا تتبع هذه الحال لأصحاب النثر لم تجد شيئاً من ذلك؛ والناس يقولون: ما أكمل هذا البلغ لو قرض الشعر! ولا يقولون: ما أشعر هذا الشاعر لو قدر على النثر! وهذا لغنى الناظم عن الناثر، وقدر الناثر إلى الناظم...» (٩٩).

أما ابن نباتة (ت. ٣٨٤هـ) فيجعل اتخاذ الشواهد من الشعر عامل تقديم له، يقول:

«من فضل النظم أن الشواهد لا توجد إلا فيه، والحجج لا تؤخذ إلا منه، أعنى أن العلماء والحكماء والفقهاء والنحويين واللغويين يقولون: «قال الشاعر»؛ وهذا كثير في الشعر، و«الشعر قد أتى به»، فعلى هذا الشاعر هو صاحب الحجة، والشعر هو الحجة» (١٠٠).

ويرى السلمي (ت. ٣٩٣هـ) أن صورة المنظوم محفوظة، بينما صورة المنشور ضائعة، لذلك يقال:

«ما أحسن هذه الرسالة لو كان فيها بيت من الشعر، ولا يقال: ما أحسن هذا الشعر لو كان فيه شئ من النثر، لأن صورة المنظوم محفوظة، وصورة المنشور ضائعة» (١٠١).

أما أبو سليمان فقد جعل النثر من حيز البساطة، وهو دال على العقل الذي يطلب المعنى، وبلاغة العقل تكون بالبساطة فيه أغلب من التركيب» (١٠٢).

وقد أحس أبو سليمان بتقارب الإيقاع بين النظم والنثر، وحاول ربط ذلك بأوائل ولادة العمل الأدبي؛ حيث قال:

أو الكاتب، وهذا ما تجده في رسالة عبد الحميد الكاتب (ت. ١٣٢ هـ) إلى الكتاب^(١٠٥)، و (أدب الكاتب) لابن قتيبة^(١٠٦)، و (أدب الكتاب) للصولي (ت. ٣٣٦ هـ)^(١٠٧)، و (مواد البيان) لعلی بن خلف (عاش في منتصف القرن الخامس الهجري)^(١٠٨)، و (نثر النظم وحل العقد) للشمالي (ت. ٤٢٩ هـ)^(١٠٩)... إلخ. وهؤلاء وغيرهم ممن هم على شاكلتهم يعلون من مكانة النشر في مقابل انخفاض مكانة الشعر؛ لأن صناعة الكتابة مهمة، والكاتب ينال بالكتابة الوزارة، وليس كذلك الشاعر. وعلى كل حال، فإنه تجدر الإشارة هنا إلى أن «لسنج» أحد أركان النقد الأوروبي قد تنبه إلى قضية التفريق بين فن الشعر من ناحية، وفن الرسم والنحت من ناحية أخرى، وقد فصل القول في هذا الأمر، وعالجه من جميع جوانبه، ومن هنا تعد نظريته في الفروق بين الفنون أول نظرية متكاملة في هذا الموضوع^(١١٠).

ويتضح جهد التوحيدى في النقد من خلال إرسال الأحكام الموجزة حول الشعراء والكتاب المعاصرين، وهذه الملاحظات كانت مجملية، بناها عما كونه من رأى في كل واحد منهم بعد أن عرف إنتاجه. ومن ذلك قوله:

«أما السلامى فهو حلو الكلام، متسق النظام، كأنما يسم عن ثغر الغمام، خفى السرقة، لطيف الأخذ، واسع المذهب، لطيف المنارس ... لكلامه لينة بالقلب وعبث بالروح، ويرد على الكبد؛ وأما الحاتمي فغليظ اللفظ، كثير العقد، يحب أن يكون بدوياً قحاً، وهو لم يتم حضرياً، غزير المحفوظ، جامع بين النظم والنثر، على تشابه بينهما في الجفوة، وقلة السلاسة، والبعد عن السلوك، نادى العورة فيما يقول، لكأنما يرسز ما يخفى ويكدر ما يصفى، له سكرة في القول إذا أفاق منها حيز، وإذا حمز سدر، يتناول شاخصاً، فيتضاءل

متقاعساً، إذا صدق فهو مهين، وإذا كذب فهو مشين»^(١١١).

وقد يبدو هذا الكلام مرسلأ لأنه غير مؤيد بالشواهد مثلما يتحمل الخلط بين تقدير أبى حيان للشاعر وتقديره للشعر في آن. وإذا كانت المعاصرة تتحمل الوجه الثانى، فإن التدقيق في هذه العبارة قد ينفي القول بأن كلام أبى حيان تعميمى، لأن كل حكم يرسله يدل على تعمق في الدراسة، مع انتحاء الناحية التصويرية أحياناً في هذه الأحكام^(١١٢).

وفي موضع آخر يصف التوحيدى الشاعر ابن نباتة بقوله: «حسن الحذو على مثال سكان البادية، لطيف الائتمام بهم، خفى المخاص فى واديههم، ظاهر الإطلال على ناديههم؛ هذا مع شعبة من الجنون وطائف من الوسواس»^(١١٣). وانتقد التوحيدى الشاعر ابن حجاج بقوله:

«ليس للعقل فى شعره مثال، لأنه سخييف الطريقة، بعيد من الجدد، قريع فى الهزل؛ ليس للعقل من شعره مثال، ولا له فى قرضه مثال؛ على أنه قديم اللفظ، سهل الكلام...»^(١١٤).

ويهتم أبو حيان التوحيدى أحياناً بالجانب الأخلاقى للشاعر وشعره. فهو يصف الحاتمي بأنه «إذا صدق فهو مهين، وإذا كذب فهو مشين»^(١١٥). ويتحدث عن ابن العميد فى شعره ويصفه بالخبت فى أخلاقه^(١١٦)، وقد أخرج الشاعر ابن حجاج (ت. ٣٩١ هـ) من زمرة الشعراء، اعتماداً على مضامين شعره، فيقول:

«وأما ابن حجاج فليس من هذه الزمرة بشئ، لأنه سخييف الطريقة، بعيد من الجدد، قريع فى الهزل، ... وشماله نائية بالوقار عن عادته الجارية فى الخسار، وهو شريك ابن سكرة فى هذه الغرامة، وإذا جد أقمى، وإذا هزل حكى الأنمى»^(١١٧).

وأبو حيان فذ فى هذه الطريق التصويرية فى النقد - كما يقول إحسان عباس - تلك الطريقة التى استخدمها أيضاً

ويتهمه بأنه:

«كثير التعصب على أهل الحكمة والناظرين في أجزائها... وليس عنده بالجزء الإلهي خبر... ولا يرجع إلى الرقة والرأفة والرحمة، والناس كلهم محجمون عنه لجبرته وسلطته واقتداره وبسطته، شديد العقاب، طفيف الثواب، طويل العتاب، بذئ اللسان... مغلوب بحرارة الرأس، سريع الغضب... حصور حقوق، وحسده وقف على أهل الفضل، وحقدته سار إلى أهل الكفاية... وقد قتل خلقاً، وأهلك ناساً، ونفى أمة نخوة وتعتاً ونجبراً وزهواً، وهو مع هذا يخدعه الصبي، ويغلبه الغبي...» (١٢٢).

إن المتتبع لسيرة ابن عباد يجد أن أبا حيان قد بالغ في نقده، ووصف الرجل بما ليس فيه، فقد قال الثعالبي عن صاحب:

«ليست تحضرني عبارة أرضاها للإفصاح عن علو محل صاحب في العلم والأدب، وجلالة شأنه في الجود والكرم، وتفرد به بفايات المحاسن، وجمعه أشنات المفاخر، لأن همة قولي تنخفض عن بلوغ أدنى فضائله ومعاليه، وجبة وصفني يقصر عن أيسر فواضله ومسايعه. ولكني أقول: هو صدر المشرق، وتاريخ المجد، وغرة الزمان، ونبوع العدل والإحسان، وكانت حضرته محط رجال العلماء، والأدباء، والشعراء، وموسم فضلائهم، ومترع آمالهم، أمواله مصروفة إليهم، وصنائمه مقصورة عليهم، وهمته في مجد يشيده، وإنعام يجدده» (١٢٣).

وذكر الثعالبي أسماء ثلاثة وعشرين شاعراً، جمعتهم حضرته، ثم قال: وغيرهم ممن لم يبلغني ذكره، أو ذهب عني اسمه، ومدحه شعراء آخرون مكاتبة، ذكر منهم الشريف الرضي وأبا إسحق الصائبي، وابن الحجاج، وابن سكرة، وابن

في الحديث عن الناثرين فقال في الصائبي مثلاً: «لا يثب ولا يرسب، ولا يكل ولا يكهم، ولا يلتفت وهو متوجه، ولا يتوجه وهو ملتفت» (١١٨). وقد حاول من كتبوا المقامات النقدية من بعد أن يحتذوا هذه الطريقة، فلم يكن لهم ذكاء أبي حيان ولا جمال نظيره وتصويره (١١٩).

*

وفي النهاية لا بد من الإشارة إلى الملاحظات الآتية:

الملاحظة الأولى: يلحظ الباحث في كتاب «الإمتاع والمؤانسة» - كما هو الحال في بقية كتب أبي حيان - النقد الاجتماعي اللاذع الذي يصل إلى حد الشتم، وهنا يمكن اختيار شخصيتين هاجمهما التوحيد في كتاب «الإمتاع والمؤانسة» إلا أن حكم ناقدنا لم يكن دقيقاً، إذ إن للنقاد والأدباء الآخرين آراء مغايرة لرأي أبي حيان. ولنبداً بالصاحب ابن عباد الذي قال عنه التوحيدى:

«أول ما بلى به أنه فقد الطبع، وهو العمود، والثاني العادة وهو المؤاتية، والثالث الشغف بالجاسي من اللفظ وهو الاختيار الرديء؛ والرابع تتبع الوحش وهو الضلال المبين، والخامس الذهاب مع اللفظ دون المعنى؛ والسادس استكراه المقصود من المعنى، واللفظ على النبوة، والسابع التعاظم المجهول بالاعتراض؛ والثامن إلف الرسوم الفاسدة من غير تصفح ولا فحص؛ والتاسع قلة الانتعاض بما كان للثقة الواقعة في النفس من الفئات، والعاشر تنفيق المتاع بالانتدار في سوق العز، وهذه كلها سبل الضلالة، وطرق الجهالة» (١٢٠).

وينقل أبو حيان عن غيره بأن ابن عباد كان:

«مجنون الكلام، تارة تبدل لك منه بلاغة قس، وتارة يلقاك بعبى بأقل... كثير السركة، سئ الإنفاق، رديء القلب والعكس، فروقه في إيراده، هزيمته قبل هجومه، وإحجامه أظهر من إقدامه...» (١٢١).

ببائة (١٢٤). وأضاف أن دار الصاحب كانت لا تخلو في كل ليلة من ليالى رمضان من ألف نفس مفطرة فيها (١٢٥). وذكر ابن الجوزى أن الصاحب كان يتفد في كل سنة إلى بغداد، خمسة آلاف دينار، تفرق في الفقهاء وأهل الأدب (١٢٦).

ويروى ياقوت الحموى أن الصاحب استدعى يوماً شراب من شراب السكر، فجئ بقدر منه، فلما أراد شربه قال له بعض خواصه: لا تشربه فإنه مسموم، فقال له: وما شاهد على صحة ذلك؟ قال: بأن تجربته على من أعطاكه، فقال: لا أستجيز ذلك ولا أستحله، قال: فجربه على دجاجة، قال: إن التمثيل بالحيوان لا يجوز، وأمر بصب ما في القدح، وقال للغلام: انصرف عني، ولا تدخل داري بعدها، وأقر رزقه عليه، وقال: لا يدفع اليقين بالشك، والعقوبة بقطع الرزق نذالة (١٢٧).

ونقد أبو حيان ابن العميد على طريقته في إرسال النقد على لسان الغير، فقال:

«فأما ابن العميد فإنني سمعت ابن الجمل يقول: سمعت ابن ثوبة يقول: أول من أفسد الكلام أبو الفضل، لأنه تخيل مذهب الجاحظ وظن أنه إن اتبعه لحقه، وإن نلاه أدركه، فوقع بعيداً من الجاحظ، قريباً من نفسه...» (١٢٨).

ويتابع أبو حيان القول:

«وأما ابنه ذو الكفائتين، فلو عاش كان أبلغ من أبيه كما كان أشعر منه، ولقد تشبه بالجاحظ فافتضح في مكانته لإخوانه، ومجانبته في كلامه، ومسائله لمعلمه التي دلتنا على سرقة وغارته وسوء تأنيبه، في تستره وتغطيه؛ ومن شاء حقق نفسه؛ وكان مع هذا أشد الناس ادعاء لكل غريبة، وأبعد الناس من كل قسرية؛ وهو نزر المعاني، شديد الكلف باللفظ؛ وكان أحسد الناس لمن خط بقلم،

أو بلغ باللسان، أو فلج في المناظرة، أو فكه بالنادرة... ولقد لقي الناس منه الدواهي لهذه الأخلاق الخبيثة؛ وقد ذكرت ذلك في الرسالة...» (١٢٩).

ولعل هذا الكلام أو غيره عن ابن العميد ينافي ما قاله الثعالبي عنه؛ إذ إن ابن العميد بالنسبة للثعالبي:

«عين المشرق، ولسان الجبل، وعماد ملك بني بويه، وصدر وزرائهم، وأوحد العصر في الكتاب، ممدوح المتنبي، ومنتجع الشعراء والأدباء، والذي قال له الصاحب، بعد أن عاد من بغداد ممتدحاً لها: بغداد في البلاد، كالأستاذ في العباد» (١٣٠).

وتجدر الملاحظة إلى أن نقد أبي حيان لابن العميد والصاحب ابن عباد قد اعتمد بشكل رئيس على العلاقات الشخصية التي كانت تربط بينه وبينهما، فقد كانت علاقته بهذين الوزيرين غير جيدة، ولم ينل أبو حيان احتراماً في مجلس ابن العميد، ولم يتحقق من طموحه شيء، وبما ذكره في إعراض الوزير عنه قوله: وقصدت مع أبي زيد المروزي (ت. ٣٧١هـ) دار أبي الفتح ذي الكفائتين فممنعنا من الدخول عليه أشد منع، وذكر حاجبه أنه يأكل الخبز فرجعنا بعد أن قال أبو زيد للحاجب: أجلسنا في الدهليز إلى أن يفرغ من الأكل فلم يفعل، فلما انصرفنا خزايا أنشد يقول متمثلاً:

على خبز إسماعيل واثية البخل فقد حلّ في دار الأمان من الأكل
وما خبز به إلا كآوى يرى ابنه ولم ير أوى في الحرز ولا السهل
وما خبز به إلا كعقواء مغرب نُصّر في بطن الملوك ونرى النسل
يحدث عنها الناس من غير رؤية سوى صورة ما أن نمر ولا نحلى (١٣١)

ويخلف ابن عباد ابن العميد في وزارته، فبتصل به التوحيدى، إلا أنه لم يكن موثقاً في توثيق صلته بابن عباد من أول جلوسه بين يديه، يقول التوحيدى:

وهناك سبب آخر قد يكون وراء مهاجمة أبي حيان لابن العميد والصاحب ابن عباد وهو أنه أراد إرضاء وزيره ابن سعدان، فعندما رجع التوحيدى إلى بغداد سنة ٣٧٠هـ (١٣٧) التقى صديقه القديم أبا الوفاء المهندس، فشكا له أمره، وطلب منه المساعدة، فعينه مراعيًا لأمر البيمارستان (١٣٨). وانصرف التوحيدى زمانًا في الوراقة والتأليف.

وفي سنة ٣٧٢هـ أصبح ابن سعدان وزيراً لـصمصام الدولة البويهى، فيتوسط أبو الوفاء لصديقه أبي حيان عند الوزير، رغم اعتقاد أبي الوفاء أن أبا حيان «غير لا هيئة له في لقاء الكبراء ومحاوره الوزراء» (١٣٩). ويلحقه ابن سعدان في خدمته ويخاطبه: «قد سألت عنك مرات شبخنا أبا الوفاء فذكر أنك مراعى لأمر البيمارستان من جهته، وأنا أرى بك عن ذلك، ولعلى أعرضك لشيء أنبه من هذا وأجدى، ولذلك فقد تآقت نفسى إلى حضورك للمحادثة والتأنيس...» (١٤٠). وكان من ثمره هذه المجالس كتاب (الإمتاع والمؤانسة).

يضاف إلى ذلك أن التوحيدى قد عرف بميله إلى الثلب والذم، فكان الذم شأنه والثلب دكانه، مجبولاً على الغرام بثلب الكرام، كما يقول ياقوت الحموى (١٤١). وقد أحس أستاذه السيرافى بهذه الخصلة فيه فقال له: «تأبى إلا الاشتغال بالقدح والذم وثلب الناس» فرد التوحيدى: «أدام الله الإمتاع، شغل كل الناس بما هو مبتلى به مدفوع إليه» (١٤٢).

الملاحظة الثانية: إن جل الآراء النقدية التى وردت فى كتاب (الإمتاع والمؤانسة)، ومعظم القضايا التى طرحها أبو حيان التوحيدى قد نسبها إلى آخرين، حتى إن ناقدنا لم يعط رأيه فيها فى كثير من الأحيان، وأثبتها كما هى دون تمحيص أو نقد. ومن هنا، فإن رأيه النقدي لم يكن متميزاً، بل كان صدى وتابعاً لآراء الآخرين. وعندما ننظر مثلاً إلى مناقشة التوحيدى لقضية البلاغة نجد أنه يتحدث عن عدد من البلاغات، ونسب الحديث إلى أبي سليمان دون أن يعلق

«فإنى حين وصلت قال لى: أبو من؟ قلت: أبو حيان، قال: بلغنى أنك تتأدب، قلت: تأدب أهل الزمان، قال: فقل لى أبو حيان ينصرف أو لا؟ قلت: إن قبله مولانا لا ينصرف، فلما سمع هذا تنمر، وكأنه لم يعجبه وأقبل على واحد إلى جانبه فقال له بالفارسية سفها على ما فسر لى، ثم قال لى: الزم دارنا، وانسخ لنا هذا الكتاب، فقلت: أنا سامع مطيع...» (١٣٢).

ويسأله ابن عباد مرة أخرى: «ها أبا حيان هل تعرف فيمن تقدم من يكتنى بهذه الكنية؟»، فيذكر التوحيدى له بعض من كنى بذلك برواية وإسناد، لكن هذا لم يلق قبولا عند الوزير فيقول التوحيدى: «فحين انتهيت أنكرت طرفه، وعلمت سوء موقع ما رويت عنده» (١٣٣).

ويبحث ابن عباد للتوحيدى بثلاثين مجلدة من رسائله لينسخها، فيتأفف التوحيدى ويقول لخدام ابن عباد «لو أذن لخرجت منه فقراً كالغمر، وشذوراً تدور فى المجالس...» وعندما سمع ابن عباد ذلك قال: «طعن فى رسائلى وعابها، ورغب عن نسخها، وأزرى بها، والله لينكرن منى ما عرف، وليعرفن حظه إذا انصرف».

ويعلق التوحيدى:

«كأنى طعنت فى القرآن أو رميت الكعبة بخرق الحيز، أو عقرت ناقة صالح...» (١٣٤).

ويستمر التجاذب والجفاء حتى وصل الأمر بابن عباد أن يخاطب التوحيدى: «أقعد فالوراقون أحسن من أن يقوموا لنا» (١٣٥). وما زاد الجفاء بينهما مدح التوحيدى لابن العميد فى مجلس ابن عباد وقراءته رسالته إلى ابن العميد على مسمع ابن عباد، حتى قيل له بعد ذلك: «جنيت على نفسك حين ذكرت عدوه بخير، وبينت عنه وجعلته سيد الناس» (١٣٦).

على هذا الرأي أو ينتقده، في حين كنا نتوقع من أديب كالتوحيدى، أن ينتقد مثل هذا الرأي ويمحصه، فبلاغة الخطابة تدخل ضمن بلاغة النشر، وبلاغة المثل يمكن أن تنضف كذلك تحت بلاغة النشر، وبلاغة العقل مهمة لكل البلاغات ، وبلاغة البديهة يمكن أن تكون هي الطبع والموهبة، والتأويل يعتمد على العقل، فلماذا هذه التقسيمات المنطقية التي لا تعتمد على المنطق؟ ولماذا هذا الخلط في العناوين؟ وأين رأى التوحيدى من هذا كله؟

الملاحظة الثالثة: التفت كثير من نقاد العرب وأدبائهم إلى أثر البيئة في الأدب والأدباء، فهذا ابن قتيبة يتنبه إلى أثر البيئة في شعر عدى بن زيد ويقول:

«كان يسكن الحيرة ويدخل الأرياف، فثقل لسانه، واحتمل عنه شئ كثير جداً، وعلمناؤنا لهذا لا يرون شعره حجة» (١٤٣).

وقدر الجرجاني أثر البيئة في الإنتاج الأدبي وهو يتحدث عن اختلاف أسلوب الشعر باختلاف الطبائع وتركيب الخلق، وقال:

«ومن شأن البداوة أن تحدث بعض ذلك. ولأجله قال النبي ﷺ «من بدا جفا»، ولذلك تجدد شعر عدى وهو جاهلى أسلس من شعر الفرزدق، ورجز رؤبة، وهما أهلان للضرورة، والحاضرة، وإيطانه الريف، وبعده عن جلالة البدو، وجفاء الأعراب... فلما ضرب الإسلام بجرانه، واتسعت ممالك العرب، وكثرت الحواضر، ونزعت البوادي إلى القرى، نشأ التأدب، والتطرف، اختار الناس من الكلام ألينه، وأسهلّه، وعمدوا إلى كل شئ ذى أسماء كثيرة، اختاروا أحسنها سمعاً، وألطفها من القلب موقعاً...» (١٤٤).

ويشير المرزبانى (ت. ٣٨٤هـ) إلى أثر البيئة في الأدب، عندما يروى عن محمد بن أبى العتاهية؛ إذ يقول:

«أنشدت أبى شعراً من شعري فقال: اخرج إلى الشام قلت: ولم؟ قال: لأنك لست من شعراء العراق، أنت ثقیل الظل، مظلم الهواء، جامد النسيم» (١٤٥).

وبنه حازم القرطاجنى إلى أن الأديب ابن بيته وابن مجتمعه، يتفاعل معهما وفيهما، ويتحول بهما إلى قدرة خلاقية مبتكرة. وبصر حازم على أن يكون المجتمع مساعداً للأديب وعلى أن تكون البيئة إيجابية معه. وإلا تعطلت أدواته وضاعت قدراته وخسر الفن والأدب، وهو يتوسع في معنى البيئة بحيث يشمل البيئة المادية أى المؤثرات الطبيعية والبيئية المعنوية، أى المناخ الفكرى والحالة النفسية (١٤٦).

وفي القرون الحديثة بدأ اهتمام الفلاسفة والنقاد الغربيين بدراسة أثر البيئة في الفن عامة ومن جاوروا بفكرة تأثير البيئة مونتسكيو Montesquieu في القرن الثامن عشر في كتابه (روح القوانين)، ويرى أن أذواق الناس وأذواق الأمم خاضعة إلى حد كبير لهذا «الوسط المادى»، وتبعاً لهذا فإن التطور الأدبى فى كل أمة خاضع لهذا الوسط أيضاً (١٤٧).

وقد قال دى بس Du Bos بنظريتى الجنس والبيئة، وأهميتهما فى الدراسات الأدبية، وذلك فى مؤلفه (أفكار نقدية فى الشعر والتصوير) (١٤٨).

وقرر هيبوليت تين Hippolyt Tain أن الإنسان هو غاية الأنواع الراقية فى الحيوانية، وأنه لهذا التفوق ولهذه المميزات التى اختص بها، يستطيع أن ينتج فلسفة وأدباً، وقد شبه بدودة القز مرة، وبالنحل مرة أخرى، فدود القز ينتج الحرير، والنحل يصنع الخلية، ويخرج العسل، وهذا الإنتاج هنا أو هناك يتوقف على شروط حيوية لا يوجد إلا إذا تحققت، فتمتّى وجد دود القز شجرة تغذى منها، ثم يأخذ فى التحول المعروف حتى ينتج الحرير، ومتى كان هناك حديقة ونحل كانت هناك خلية وعسل. وقد وقع تين على هذه المقارنة بعد دراسة للشاعر القصصى لافونتين La fontaine. ومن خلال هذه الدراسة عرف أنه تربى فى الغابة، وعلق بها، ورأى

حيواناتها، ونباتاتها، حتى اتصل بها اتصالاً نفسياً وشعورياً، فصار إذا تكلم عن طائر فيها، كان شعره صورة من لغة هذا الطائر، وكانت انتقالاته في الوزن والقافية كانتقالات هذا الطائر من فنن إلى فنن ومن شجرة إلى شجرة. وكان إذا وصف مرتفعاً علا به، ثم انحدر في منحدره، وإذا وصف جدولاً كان في عباراته ما في صفاء الماء، جارية مجراه. وهكذا علم تين أن لافونتين كان كالنحلة متى وجدت الزهر كونت الخلية، وأخرجت شراباً شافياً لذيقاً، ومن هنا خلص إلى الناحية المسيطرة على أدب الأديب وإلى العوامل الثلاثة المؤثرة على أدبه وهي: الجنس Race والعمر Epoch، والبيئة Environment^(١٤٩).

وهكذا، يلاحظ أن التوحيدى لم يكن موفقاً في حديثه عن الموازنة بين البيئة العراقية وغيرها من البيئات الأخرى،

وبالتالى تفضيله البيئة العراقية على غيرها من البيئات من حيث ملاءمتها لقول الشاعر، وتوقعها على البيئات الأخرى بالطبع اللطيف. ولعل التوحيدى تبنى هذه المقولة لإرضاء الوزير ابن سعدان الذى كان يقيم في بغداد وبالتالي مهاجمة صاحب ابن عباد وابن العميد اللذين أقاما في الري ولم يجد عندهما التوحيدى ما يسر خاطره. ومن هذا المنطلق، قارن التوحيدى بين بغداد وأصبهان في (الرسالة البغدادية) المنسوبة إليه في أرجح الآراء. فامتدح بغداد وطيب هوائها، وأثنى على تأنق البغداديين في لباسهم ومساكنهم وعطورهم وموائدهم وفي مجالس شربهم وغنائهم. وهو في كل فصل من فصول الرسالة إذا أتم الحديث عن بغداد، عاد فقارن ذلك بما يقابله في أصبهان، وأسرف في ذم أهلها^(١٥٠).

الهوامش

* حول النقد الأدبي عند أبي حيان التوحيدى انظر: البشير المجذوب، «النقد الأدبي عند أبي حيان التوحيدى»، مجلة الحياة الثقافية، وزارة الشؤون الثقافية، تونس، ١٩٧٧م، ج ٢، ص ٤٨ وما بعدها؛ المؤلف نفسه، حول مفهوم النثر الفنى عند العرب القدامى، الدار العربية للكتاب، تونس، ١٩٨٢م، ص ٣٥٢ وما بعدها؛ محمد عبد العزى الشيع، أبو حيان التوحيدى، وآيه في الإعجاز وأثره في الأدب والنقد، الدار العربية للكتاب، تونس، ١٩٨٣، كامل يوسف عتوم، نقد الشعر عند أبي حيان التوحيدى، رسالة ماجستير مخطوطة بجامعة اليرموك، الأردن، ١٩٩٢.

- (١) باقرى الحموى، معجم الأدياء، دار الفكر، بيروت، ط ٣، ١٩٨٠، ج ١٥، ص ٦٥.
- (٢) أبو حيان التوحيدى، الإمتاع والمؤانسة، تصحيح أحمد أمين وأحمد الزين، دار مكتبة الحياة، بيروت، (د.ت)، ج ١، ص ٥٤.
- (٣) معجم الأدياء، ٧/١٥.
- (٤) الإمتاع والمؤانسة، ٥/١.
- (٥) المصدر السابق، ١٨٦/٣.
- (٦) نفسه، ١٤٥/٢.

- (٧) نفسه، ١٣١/١.
- (٨) معجم الأدباء، ١٥٠/٨ - ١٥١.
- (٩) المصدر السابق، ١٤٩/٨.
- (١٠) الإمتاع والمؤانسة، ١٣١/١.
- (١١) المصدر السابق، ٢٢٢/١.
- (١٢) نفسه، ١٣٠/١.
- (١٣) نفسه، ١٠٧/١ وما بعدها.
- (١٤) نفسه، ١٣٢/١.
- (١٥) نفسه، ١٢٩/١.
- (١٦) نفسه، ١٣٣/١.
- (١٧) نفسه، ١٧٧/٢ - ١٧٨.
- (١٨) نفسه، ١٣٣/١.
- (١٩) نفسه، ١٣٣/١.
- (٢٠) نفسه، ٥٤/١.
- (٢١) نفسه، ١٤٣/١.
- (٢٢) نفسه، ٤/٢ - ٦.
- (٢٣) نفسه، ١٨/٢، ٣٧.
- (٢٤) نفسه، ٢٩/١.
- (٢٥) نفسه، ٢٣/٢.
- (٢٦) نفسه، ٣٣/١.
- (٢٧) نفسه، ١٣٢/٢ وما بعدها.
- (٢٨) نفسه، ٢٢٢/١، ٨٤/٢، ٨٩، ٩٤/٣.
- (٢٩) نفسه، ١١٣/٢.
- (٣٠) نفسه، ١٤٥/١.
- (٣١) نفسه، ١٣٤/٢.
- (٣٢) نفسه، ١٤٥/١ - ١٤٦.
- (٣٣) نفسه، ٤٣/٢.
- (٣٤) نفسه، ٩/١ - ١٠.
- (٣٥) نفسه، ٦٦/١.
- (٣٦) نفسه، ٦٤/١ - ٦٥.
- (٣٧) نفسه، ٢٢٠/١.
- (٣٨) نفسه، ١٠٧/١.
- (٣٩) نفسه، ٩/١.
- (٤٠) نفسه، ١٣٢/٢.
- (٤١) نفسه، ١٣٤/٢.
- (٤٢) نفسه، ٣٩/٢، ٤٠، ١٣٧/٣.
- (٤٣) نفسه، ٦٦/١.

- (٤٤) نفسه، ٦٢/١.
- (٤٥) نفسه، ٦٧/١.
- (٤٦) نفسه، ٦٤/١.
- (٤٧) الجاحظ، عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، ط٤، القاهرة، ١٩٤٨، ج١، ص ١٣٨.
- (٤٨) المصدر السابق، ٨٣/١.
- (٤٩) ابن طباطبا، محمد بن أحمد، عيار الشعر، تحقيق: عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٢، ص ٩.
- (٥٠) ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري، الشعر والشعراء، تحقيق: مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، ط٢، بيروت، ١٩٨٥، ص ٣٧.
- (٥١) القاضي الجرجاني، علي بن عبد العزيز، الراسطة بين المتبني وخصومه، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد الجاوي، دار إحياء الكتب العربي، القاهرة، ١٩٥١، ص ١٥.
- (٥٢) انظر: زكريا إبراهيم، أبو حيان التوحيدى أديب الفلاسفة، وفيلسوف الأدباء، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والإنباء والنشر، ص ٢٧٨.
- (٥٣) الإمتاع والمؤانسة، ١٠/١.
- (٥٤) المصدر السابق، ١٤٥/٢.
- (٥٥) نفسه، ١٢٥/١.
- (٥٦) نفسه، ٦٧/١.
- (٥٧) نفسه، ١٤٥/٢ - ١٤٦.
- (٥٨) زكريا إبراهيم، أبو حيان التوحيدى، ص ٢٠١.
- (٥٩) الإمتاع والمؤانسة، ١٤١/٢.
- (٦٠) المصدر السابق، ١٣٥/١.
- (٦١) نفسه، ٦٢/١ وما بعدها.
- (٦٢) نفسه، ٦٦/١.
- (٦٣) نفسه، ٤٦/١.
- (٦٤) نفسه، ١٣٧/١.
- (٦٥) نفسه، ١٣٥/١.
- (٦٦) البيان والتبيين، ١٤٤/١.
- (٦٧) الإمتاع والمؤانسة، ١٨٦/٣.
- (٦٨) انظر: ابن رشيقيرواني، العمدة في صناعة الشعر ونقده، تحقيق: محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٦٣م، ج١، ص ١٢٤ - ١٤٧.
- إخوان الصفا وخلان الوفا، رسائل إخوان الصفا، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٥٧، ج٢، ص ٦؛ ابن سينا، حسين بن عبد الله، النجاة، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٣٨، ص ٨٣. قدامة بن جعفر، نقد الشعر تحقيق: كمال مصطفى، مكتبة الخانجي بمصر والمثني ببيداد، ١٩٦٣، ص ٢٢، وما بعدها؛ الفارابي، محمد بن محمد، المدينة الفاضلة، دار العراق، بيروت، ١٩٥٥م، ص ٢٨؛ الاقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب، إعجاز القرآن، تحقيق: السيد سقر، دار المعارف بمصر، ١٩٦٣، ص ١١٧.
- (٦٩) الإمتاع والمؤانسة، ١٤١/٢.
- (٧٠) المصدر السابق، ١٤١/٢ - ١٤٣.
- (٧١) إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الشرق، عمان، ص ٢٢٨ - ٢٢٩.
- (٧٢) الإمتاع والمؤانسة، ١٠/١.
- (٧٣) المصدر السابق، ١٠٢/١ - ١٠٣، ٩٧.
- (٧٤) نفسه، ٩٦/١ وما بعدها.
- (٧٥) عيار الشعر، ط٤، بيروت، ١٩٨٢، ص ٨١.

- (٧٦) الحانسي، أبو علي محمد بن الحسن، حلية المخاضة في صناعة الشعر، تحقيق: جعفر الكتاني، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٧٩، ١٢٤/١ - ١٢٧.
- (٧٧) أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل، كتاب الصناعتين، تحقيق: مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٤، ص ص ١٥٤ - ١٥٧.
- (٧٨) إعجاز القرآن، ص ١٥٥.
- (٧٩) الآمدي، أبو القاسم الحسن بن بشر، الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، تحقيق: السيد أحمد صفوة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦١، ص ص ٤٠٤ - ٤٠٥.
- (٨٠) المزياني، أبو عبد الله محمد بن عمران، الموشح في مأخذ العلماء على الشعراء، تحقيق: علي محمد الجاوي، القاهرة، ١٩٦٥، ص ٣٨٥.
- (٨١) أبو إسحق الصائبي، رسالة أبي إسحق الصائبي في الفرق بين المترسل والشاعر... تحقيق: زياد الزعبي، مجلة أبحاث اليرموك، سلسلة الآداب واللغويات، مج ١١، ع ١، ١٩٩٣، ص ص ١٢٩ - ١٦٥.
- (٨٢) المصدر السابق، ص ص ١٣٦ - ١٣٧، ١٥٦ - ١٥٨.
- (٨٣) إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص ص ٢٢٠ - ٢٢١.
- (٨٤) الإمتاع والمؤانسة، ١٣١/٢.
- (٨٥) المصدر السابق، ١٣٢/٢ - ١١٣.
- (٨٦) نفسه، ١٣٣/٢ - ١٣٤.
- (٨٧) نفسه، ١٣٣/٢.
- (٨٨) نفسه، ١٣٥/٢.
- (٨٩) نفسه، ١٣٥/٢.
- (٩٠) نفسه، ١٣٤/٢.
- (٩١) نفسه، ١٣٤/٢.
- (٩١) نفسه، ١٣٤/٢.
- (٩٢) نفسه، ١٣٣/٢.
- (٩٣) نفسه، ١٣٤/٢.
- (٩٤) نفسه، ١٣٧/٢ - ١٣٨.
- (٩٥) نفسه، ١٣٣/٢.
- (٩٦) نفسه، ١٣٤/٢.
- (٩٧) نفسه، ١٣٥/٢ - ١٣٦.
- (٩٨) نفسه، ١٣٦/٢.
- (٩٩) نفسه، ١٣٦/٢ - ١٣٧.
- (١٠٠) نفسه، ١٣٦/٢.
- (١٠١) نفسه، ١٣٦/٢.
- (١٠٢) نفسه، ١٤٢/٢.
- (١٠٣) نفسه، ١٣٨/٢.
- (١٠٤) نفسه، ١٣٨/٢ - ١٣٩.
- (١٠٥) انظر: إحسان عباس، عبد الحميد بن يحيى الكاتب وما تبقى من رسائله ورسائل سالم أبي العلاء، دار الشروق، ط ١، عمان، ١٩٨٨، ص ص ٢٨١ - ٢٨٨.
- (١٠٦) ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم، أدب الكاتب، تحقيق: محيى الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٦٣م، ص ٩ - ١٦.
- (١٠٧) الصولي، محمد بن يحيى، أدب الكاتب، تحقيق: محمد بهجة الأثري، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت)، ص ص ٢١ - ٢٨.
- (١٠٨) علي بن خلف الكاتب، مواد البيان، تحقيق: حسين عبد اللطيف، منشورات جامعة الفاخ، طرابلس، ١٩٨٢، ص ص ٤٠ - ٥٠.
- (١٠٩) الثمالي، عبد الملك بن محمد، نثر النظم وحل العقد، دار الرائد العربي، ١٩٨٣، ص ص ٦ - ٨.
- (١١٠) وليام ويمزات وكلينث بروكس، النقد الأدبي، تاريخ موجز، ترجمة: حسام الخطيب ومحيى الدين صهي، مطبعة جامعة دمشق، ١٩٧٤م، ج ٢، ص ٣٨٢ وما بعدها.

- (١١١) الإمتاع والمؤانسة، ١٣٤/٢ - ١٣٥.
- (١١٢) إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص ٢١٨.
- (١١٣) الإمتاع والمؤانسة، ١٣٧/١.
- (١١٤) المصدر السابق، ١٣٧/١.
- (١١٥) نفسه، ١٣٥/١.
- (١١٦) نفسه، ٦٦/١ - ٦٧.
- (١١٧) نفسه، ١٣٧/١.
- (١١٨) المصدر نفسه، ٦٧/١، إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص ٢١٨.
- (١١٩) إحسان عباس، المصدر السابق، ص ٢١٨.
- (١٢٠) الإمتاع والمؤانسة، ٦٤/١ - ٦٥.
- (١٢١) المصدر السابق، ٦١/١ - ٦٢.
- (١٢٢) نفسه، ٥٤/١ - ٥٥.
- (١٢٣) التعالي، أبو منصور عبد الملك بن محمد النيسابوري، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة، ١٩٥٦، ج ٣، ص ١٩٢.
- (١٢٤) المصدر السابق، ١٩٢/٣.
- (١٢٥) نفسه، ١٩٧/٣.
- (١٢٦) ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الحميد بن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، طبعه حيدر آباد الدكن، ١٣٥٧هـ، ج ٧، ص ١٨٠.
- (١٢٧) معجم الأدباء، ٢٨١/٢.
- (١٢٨) الإمتاع والمؤانسة، ١٦٦/١.
- (١٢٩) المصدر السابق، ٦٦/١ - ٦٧.
- (١٣٠) يتيمة الدهر، ١٥٨/٣ وما بعدها.
- (١٣١) معجم الأدباء، ٩/١٥ - ١٠.
- (١٣٢) مثالب الوزراء، ص ٢٠٣.
- (١٣٣) المصدر السابق، ص ٢٠٤ - ٢٠٦.
- (١٣٤) نفسه، ص ٣٢٥.
- (١٣٥) نفسه، ص ٩٩.
- (١٣٦) نفسه، ص ٣٣٢.
- (١٣٧) نفسه، ص ٢٠٧.
- (١٣٨) الإمتاع والمؤانسة، ١٩/١.
- (١٣٩) المصدر السابق، ٥/١.
- (١٤٠) نفسه، ١٩/١.
- (١٤١) معجم الأدباء، ٥/١٥ - ٦، ١٨٧/٦.
- (١٤٢) المصدر السابق، ٩/١٥.
- (١٤٣) الشعر والشعراء، ص ١٣٠.
- (١٤٤) الوساطة، ص ١٨ - ١٩.
- (١٤٥) المرزباني، محمد بن عمران بن موسى، الموشح في مأخذ العلماء على الشعراء، تحقيق: محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٨٥هـ، ص ٢٣٦.
- (١٤٦) حازم القرطاجني، أبو الحسن بن محمد بن حسن، منهاج اليلقاء وسراج الأدياء، تحقيق: محمد الحبيب بن خوجة، دار العرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨١، ص ٤٠ - ٤٢.

- (١٤٧) انظر: إبراهيم سلامة، تيارات أدبية بين الشرق والغرب، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٥١ - ١٩٥٢، ص ص ٢٦١ - ٢٦٩.
- (١٤٨) عز الدين إسماعيل، الأسس الجمالية في النقد العربي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٤، ص ٢٦٣.
- (١٤٩) Northrop Frye, *Anatomy of Criticism*, Princeton, 1957, pp. 33-67; Rene Wellek, *A history of Modern Criticism*, London, انظر: ١٩٤٩.
- 1970, pp. 27-55, Geoffrey Breton, *A short History of French Literature*, the Chaucer Press, London, 1976, p. 247ff.
- (١٥٠) انظر أبو حيان التوحيدي، الرسالة البغدادية، تحقيق: عمود النالجي، مطبعة الكتب، بيروت، ١٩٨٠م، ص ٤٦ وما بعدها.



الفكر اللغوى

فى إطار لقاء الثقافات

عند التوحيدى

محمود فهمى حجازى*

«إذا كان العلم شريفاً وأشرف من كل شئ فقد استوعب الجنس هذا العموم واشتمل على الأصل والفرع على الإطلاق؛ لأن العلم بالألف واللام لا يختص معلوماً دون معلوم ولا مشاراً إليه دون مدلول عليه، فقد دخل فى هذا الطى كل ما أنبأ عن شئ كان ذلك من قبيل الحسن عند مصادمته أو من قبيل العقل عند مصادفته»^(١).

وهذه الفكرة يبدو منها موقف التوحيدى من تكامل التخصصات فى إطار العلم، وهذه التخصصات تمثل بيئات ثقافية وتقاليد علمية متعددة، ومن هنا كانت أهمية قضية الفكر اللغوى الذى يمثل جانباً أساسياً مهماً من الثقافة العربية فى إطار لقاء الثقافات المتعددة التى كونت ملامح العلم فى تلك الحقب.

هدف هذا البحث إيضاح ملامح الفكر اللغوى فى إطار تعدد روافد الحياة الثقافية فى القرن الرابع الهجرى. لقد كانت هذه الروافد التى تمثل اللغات والبيئات الثقافية والتقاليد العلمية المختلفة، تتوازى كثيراً وتلتقى قليلاً وتتعارض أحياناً، ويبدو فيها التناقض والصراع حيناً. وأدت هذه المواقف المتعددة فى عصر التوحيدى إلى طرح القضية كلها، كتب التوحيدى فى رسالته للعلوم بأن فى عصره من يقول: «ليس للمنطق مدخل فى الفقه، ولا للفلسفة اتصال بالدين ولا للحكمة تأثير فى الأحكام»، ويرد التوحيدى على هذا كله بأن البحث العميق قمين بأن «يستبدل بالخلاف وفاقاً وبالمنازعة خلافاً»، وأن هذه الخلافات أدنى إلى أن تكون «سوء تحصيل»، «وضيق عطن وحر ج صدر ومجازفة فى القول وانحرافاً عن الصواب». وذلك لأن الرد على ذلك كله كامن فى مفهوم شامل للعلم. كتب التوحيدى:

* قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، جامعة القاهرة.

مثار خلاف وتوفيق، ولكن أكثر الاهتمامات انصرفت إلى بحث التغيرات الصوتية والسمات الصوتية ومدى التعبير الصرفي في الكلمات المعربة، إلى جانب محاولات متواضعة لنسبة هذه الكلمات إلى لغتها الأصلية. وهذه المحاولات كانت أدنى إلى إثراء العمل المعجمي منها إلى تنمية الفكر اللغوي^(٣).

ولكن الاهتمام بتراث اليونان في الفكر اللغوي كان في بيئة علمية أخرى، تصله - في المقام الأول - بترائهم في المنطق والفلسفة. ومشكلة بدايات معرفة العرب بتراث اليونان المتصل بفلسفة اللغة أنه ارتبط - إلى حد ما - بموضوع هو أدنى إلى التنجيم منه إلى الفكر اللغوي. إن صوفية الحروف لم تدخل وحدها في مثل هذا الوقت المبكر إلى دوائر إسلامية، بل دخلت معها أيضاً مع تعاليم عن ميزان الحروف منتشرة، منذ أواخر العصر الهيلينستي. إن أشهر مثل لهذه التعاليم في دوائر الحضارة العربية الإسلامية هو جابر بن حيان. إنه نتيجة لاقتناعه بالنظام الرياضي في عالم المادة ومحاولته تفسير التحولات الكيفية للأشياء على أساس كيفي، افترض جابر وجود علاقة بين الحروف والطبائع، وأنه يمكن رد هذه العلاقة إلى أسس دقيقة. سمى جابر بن حيان هذا الجانب من نظريته في التوازن «ميزان الحروف» أو «ميزان الهجاء» أو «ميزان لفظي»، واتخذ هذا بمضى الوقت عنده شكل نظام مفصل وكامل. ورأى اللغة أيضاً في إطار هذا النظام وظنه خاضعا للقوانين نفسها مثل الطبيعة.

إن تأملات جابر بن حيان في هذا الصدد قد جمعها ياول كراوس جمعا ممتازا من كتبه الكثيرة ورسائله وبحثها فؤاد سزكين في دراسات عدة له^(٤). منطلق جابر في أفكاره الفلسفية هو مبدأ توازن الأشياء في الطبيعة، وفي هذا يقوم ميزان الحروف بدور جوهرى. تابع جابر المصادر الأفلاطونية المحدثة والفيشاغورية المحدثة ولكنه تجاوز تأملات سابقه تجاوزا بعيدا من حيث الحجم والاطراد المنطقي. في فلسفة اللغة عنده تتكون الكلمات من الحروف، كما تتكون الأجسام من الطبائع الأربعة. ونظرا إلى أن الطبيعة الواحدة لا يمكن أن توجد وحدها ولتفسيها، فإن الحرف المفرد الواحد أيضا لا يمكن أن ينطق وأن يكون حقيقة لغوية. وكما يعالج النحاة

ظل الاشتغال بعلوم اللغة منذ بداياته المدركة في القرن الثانى الهجرى يمسى بصفة عامة فى اتجاهات متوازية تتكامل مجالاتها فى داخل كل اتجاه. يتضح هذا التوازي من النظر فى جهود الخليل بن أحمد وسيبويه والأصمعى، فإنهم يلتقون، على الرغم من جوانب الاختلاف الفردى بين اهتماماتهم النوعية، فى إطار علوم اللغة العربية. الخليل بن أحمد (المتوفى ١٧٠هـ) مدرك لكون العربية والكنعانية متقاربتين، وأن الكنعانيين «كانوا يتكلمون بلغة تضارع العربية»، والأصمعى (المتوفى ٢١٧هـ) واع بأوجه الشبه بين العربية والآرامية ويقدر من النظائر الصوتية وأن الظاء العربية تقابلها الطاء عند النبط وفى الآرامية بصفة عامة. وثمة ملاحظات كثيرة فى المعجمات العربية تنسب كلمات كثيرة إلى العربية الجنوبية، وأكثرها يرجع تسجيلها إلى هذه البدايات. ونجد سيبويه يفرد بابا للمعرب من الفارسية وللتغيرات الصوتية الناجمة عن تحول الكلمة من البنية اللغوية الفارسية إلى العربية^(٥). وتمثل هذه الاهتمامات صلة عدد من المشتغلين بالعربية بنية ومعجما بلغات عرفتها المنطقة العربية قبل تعريبها واستمرت فيها بعد تعريبها، وإن كان ذلك بشكل متناقص. وهى اهتمامات كادت تتركز فى مجالات جزئية فى مقدمتها الأصوات والمفردات، وظل الرافد الأساسى للعمل اللغوى ينطلق من المادة اللغوية المستقاة من البادية ونصوص العربية فى عصور الاحتجاج، ويتكامل فى المقام الأول مع الاشتغال بالشعر والنص القرآنى وبتراث العرب القديم.

وكان موضوع «المعرب» من أدق الموضوعات التى نذل بشكل تطبيقي على درجة اهتمام بعض اللغويين، فى إطار الثقافة العربية الإسلامية، باللغات المختلفة التى افترضت منها العربية، ونجد فى هذا الصدد آراء علماء مبكرين؛ منهم الأصمعى وأبو عبيدة معمر بن المثنى (المتوفى نحو ٢٠٨هـ)، وأبو عبيد القاسم بن سلام (المتوفى ٢٢٤هـ)، ويستمر الاهتمام بموضوع المعرب عند أبى بكر بن السراج (المتوفى ٣١٦هـ). وكانت قضية وجود المعرب فى القرآن، أو القول بأن هذه الكلمات أصولها أعجمية ثم صارت عربية

بنية الكلمة فإن الفلاسفة الطبيعيين يتناولون تركيب الأشياء من العناصر الأربعة.

وجد جابر بن حيان في الخط العربي قصورا لأن الحروف التي تختلف عن بعضها البعض عن طريق النقط، تؤدي إلى أخطاء. والواقع أن الباء والتاء والثاء والنون، والياء، ثم الجيم والحاء والهاء، ثم الدال والذال، ثم الزاي والراء، ثم السين والشين، ثم الصاد والضاد، ثم الطاء والظاء، ثم العين والغين، ثم الفاء والقاف، تكون كل مجموعة منها حرفا واحدا من حيث الشكل، حتى إذا ضممنا إليها حروف الألف والكاف واللام والميم والواو والهاء فإن العدد الحقيقي هو ستة عشر نمطا للحروف فقط. فإذا وضعنا في مكان كل واحد من هذه الحروف المتشابهة شكلا غير مماثل، فإننا يمكن أن نعصم مستخدمى الخط من الأخطاء الممكنة. وهذا في رأيه قصور في أشكال الحروف العربية لم يعد من الممكن تصحيحه، حتى مع وجود رأى مضاف. لقد ذكر جابر - أيضا - في كتاب (الإخراج) ترتيبا صوتيا للحروف، وأكد أنه عالج هذا الموضوع في كتاب (الموسيقى). وفوق هذا فإنه من المهم هنا خبر عن جابر بأنه ألف كتابا يضم سبعمئة حرف يمكن أن تدون بها الأصوات المنطوقة والأصوات غير المنطوقة والطبيعية.

لقد ناقش جابر بن حيان أيضا في فلسفته للغة قضية أصل اللغة، وهل ترجع إلى الاتفاق أو إلى المصادفة أو إلى النزوع الطبيعي للنفس. في رأيه أن اللغة مادة من أصل طبيعي ترجع إلى نزوع النفس ولكنها لا ترجع إلى تركيب، ولأن أفعال النفس مادية فإن الحروف التي تكون مادة الكلام مادية أيضا. يطرح جابر على نفسه أيضا، وفق نظريته في التوالد الصناعي للجواهر، قضية ما إذا كان الإنسان يستطيع أن يخترع لغة جديدة كل الجدة. لقد جعل هذا ممكنا من الناحية النظرية، ولكن لغة جديدة لا يمكن أن يضعها سوى إنسان واحد موهوب على نحو خارق.

ويختلف حنين بن إسحق (المتوفى ٢٦٠هـ / ٨٧٣م) في فكره اللغوي عن جابر بن حيان. كان حنين طبيبا و مترجما رائدا وموجها ومراجعا لترجمة منظومة كاملة من

اليونانية والسريانية إلى اللغة العربية، اهتم أيضا بعلم الآثار العلوية وبالمناطق وبمؤلفات جالينوس على وجه الخصوص. يلفت النظر هنا أنه ألف كتابا في النحو، وكتابا في المنطق، وكتابا بعنوان (أحكام الإعراب على مذهب اليونانيين)، ولم يصل إلينا هذا الكتاب^(٥).

أما الفيلسوف يعقوب بن إسحق الكندي (المتوفى بعد ٢٥٦هـ / ٨٧٠م) فلديه مواضع قليلة محدودة في قضايا فلسفة اللغة. وجد الكندي، مثل جابر بن حيان، أن الكتابة العربية لا تصلح بشكل كامل لتدوين الكلمات تدوينا كاملا على الورق، أو بمعنى آخر لا يمكن أن تقدم المنطوق تقديمًا صحيحًا، وقد غابت عن مخترعها هذه النقيصة. ولهذا وجد الناس أنفسهم مضطرين فيما بعد أن يسدوا هذا النقص عن طريق علامات للحركات، وفوق هذا قارن الكندي علامات الإعراب الثلاثة للرفع والنصب والجر بالحركات الطبيعية الثلاثة، أي بالحركة من الوسط مثل النار والهواء، والحركة إلى الوسط مثل التراب والماء والحركة حول الوسط مثل حركة الأجرام السماوية. وكان اهتمام الكندي بالأصوات اللغوية مقصورا على: رسالة في اللغة، من وجهة نظر طبية وهذه الجهود مهدت لإثارة الاهتمام ولكنها لم تكد تطرح قضايا نظرية في الفكر اللغوي^(٦). كانت هذه الجهود تتوازي مع جهود النحاة واللغويين ولا تكاد تلتقي بها أو تعارضها، أو تحاول أن تأخذ مكانتها في النسق المعرفي.

ثانيا: البدايات النظرية:

إن البدايات النظرية للفكر في اللغة على نحو يتجاوز اللغة العربية إلى رؤية شاملة للغات الأخرى واللغة الإنسانية يرجع إلى القرن الثالث الهجري.

كان الفيلسوف - الفيلسوف الطبيعي - أبو العباس أحمد بن محمد بن الطيب السرخسي (المتوفى ٢٨٦هـ / ٨٩٩م)، معروفاً باهتمامه باللغات. ذكر حمزة بن الحسن الأصفهاني في كتاب (التنبيه على حدوث التصحيف) أن السرخسي اخترع نظاما خاصا به من أربعين حرفا واستطاع أن يكتب ويقرأ لغات اليونان والعجم والسريان دون أدنى صعوبة، وهذه الرموز ضاعت وفقدت بمضى الوقت عند

نسخ الكتاب. وفوق هذا فإن السرخسى كان أول مؤلف صنف كتابا عن الفروق بين النحو العربى والمنطق، وقد ضاع كتابه بكل أسف، وكان عنوانه (مقالة فى تبين الفصل بين صناعتى المنطق الفلسفى والنحو العربى) (٧).

تبدأ مرحلة جديدة بأبى نصر محمد بن محمد بن طرخان الفارابى، (المتوفى ٣٣٩هـ / ٩٥٠م)، خصص الفارابى فى معالجته لمسائل فلسفية مكانا أساسيا لقضايا اللغة. نعرف من أخبار حياته أنه كان يلتقى فى بغداد باللغوى البصرى أبى بكر السراج (المتوفى ٣١٦هـ / ٩٢٧م) وأنه قرأ عليه النحو وتعلم ابن السراج منه المنطق (٨). وفى كتابه (إحصاء العلوم) الذى خصصه لتصنيف العلوم جعل علم اللسان مقدما على المجموعات الأربعة الأخرى من العلوم. وأهم بكثير من عباراته فى هذا الموضوع فى إحصاء العلوم ما جاء فى كتابيه الآخرين، وهما: (الألفاظ المستعملة فى المنطق) و(كتاب الحروف)، ويتضمنان آراء الفارابى فى فلسفة اللغة. حاول الفارابى فى كتاب الألفاظ المستعملة أن يقوم فى المقام الأول بجمع مصطلحات المنطق وأن يحددها، ولكن الفارابى أراد أن يصنفها ويقسمها على النحو المؤلف عند اليونان. إن قضية علاقة النحوى الفارابى بسابقه من اليونان تتبعها الباحث الألمانى جيتيه فى بحثه عن تقسيم العلاقات اللغوية عند الفارابى. إن كتاب الحروف هو - فى الأصل - شرح على أرسطو، ولكن الفارابى قدم تحديثات منطقية للأدوات وللمفاهيم النحوية الأخرى، وعمم ذلك على المصطلحات النحوية والفلسفية. ونبه أيضا إلى الفرق بين المصطلحات النحوية والمنطقية. وفوق هذا، فتحة أهمية لعبارات الفارابى عن نشأة اللغات وعلم اللغة وتطورهما ومراعاة الخصائص اللغوية لشعوب مختلفة، مثل اليونان والهند والفرس والسريران والصغد، وقدم لبعض المفاهيم مصطلحات من اليونانية والفارسية وأناد - كذلك - من التراث النحوى العربى (٩).

كان - فى الوقت نفسه - ثمة موقف رافض عند النحاة للمناطق، ونسبت مناقشة حادة فى موضوع أهمية المنطق للنحو قبيل ٣٢٠هـ / ٩٣٢م. تمت المناقشة فى قصر الوزير أبى الفتح الفضل بن جعفر بن الفرات ودارت بين أبى

بشر متى بن يونس النسطورى؛ بوصفه ممثلا للمنطق والفلسفة وتراث اليونان بصفة عامة من جانب، واللغوى أبى سعيد السيرافى؛ بوصفه يمثل النحو والعلوم العربية الإسلامية بصفة عامة من الجانب الآخر. ومن هذه المناقشة التى وصلت إلينا فى نصها يتضح أن كليهما، بوصفه ممثلا للمنطق أو النحو، قد تمسك بتفوق علمه على العلم الآخر (١٠).

واتخذت القضية مسار المناقشة والحوار عند أبى زكريا يحيى بن عدى (المتوفى ٣٦٣هـ / ٩٨٤م) الذى ألف فى هذا الموضوع (مقالة فى تبين الفصل بين صناعتى المنطق الفلسفى والنحو العربى) (١١). وعلى العكس من السيرافى ومتى بن يونس اللذين حاول الأول منهما أن يرى النحو أفضل من المنطق وحاول الثانى أن يرى المنطق أفضل من النحو، فإن يحيى بن عدى شق طريقا وسطا بأن بين مزايَا كل علم وحدده تحديدا مناسباً. واستمر الاهتمام بهذه القضية حتى زمن التوحيدى، ظل أبو سليمان المنطقى محمد ابن طاهر بن بابا السجستانى (المتوفى بعد ٣٩١هـ / ١٠٠١م) يناقش قضية النحو والمنطق. كان السجستانى تلميذا لمتى بن يونس، ويعد من أولئك المناطق الذين اشتركوا فى المناقشة عن الفرق بين النحو والمنطق. وله وجود واضح فى مناقشة هذه القضية فى (المقابسات).

وخصص إخوان الصفا الرسالة السابعة عشرة فى إطار الطبيعيات لفلسفة اللغة. وفيها عالجا عدة قضايا منها قضايا الصوت والحرف واللغة وتركيب الأصوات واختلافها وبداية الكتابة وأصوات الأجرام السماوية والأصوات الأرضية ونشأة الأصوات واختلاف الأصوات ونشأة اللغة والفرق بين الكلام والصوت وحديث العقل واختلاف الحديث وكيفية إدراك قوى السمع للشيء وعلاقة قوى السمع بالأصوات المدركة وطبيعة الأصوات وتركيبها واختلافها ونشأة الحروف والكتابة العربية واللغة العربية. يلفت النظر هنا أن تفسير الظواهر اللغوية عند هؤلاء المؤلفين بطريقة فيزيائية واضحة. فإذا كان الناس مثلاً يختلفون فى كلامهم ولغاتهم، فإن ذلك يرجع إلى اختلاف أجسامهم وأخلاقها. إن أصل اختلاف اللغة كامن فى أصل قدرة أعضاء النطق. وكان إخوان الصفا

محاولة لتجاوز النسق العربي ورؤية للمشارك والمختلف بين اللغات. وهكذا عرف القرن الثالث ثم القرن الرابع أنماطا من الفكر اللغوي تحاول المعرفة اللغوية، والموازنة بين عدد من اللغات، وكل هذا أثار الفكر النظري في اللغة.

ثالثا: التوحيدى ولقاء الثقافات:

التوحيدى مثال متميز للقاء الثقافات في القرن الرابع الهجرى، نلتقى في كتبه الثقافة العربية والثقافة اليونانية مع رؤية لثقافات الشعوب الأخرى حتى ذلك الوقت. نجد - على سبيل المثال - في مقدمة كتابه (البصائر والذخائر) عرضا لمصادره العربية:

«جمعت ذلك كله في هذه المدة الطويلة مع الشهرة الثامة، والحرص المتضاعف، والدأب الشديد، ولقاء الناس، وفلى البلاد، من كتب شتى حكيت عن أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ الكنانى، وكتبه هي الدر النثير، والنور المطير، وكلامه الخمر الصرف، والسحر الحلال، ثم كتاب «النوادر» لأبى عبد الله محمد بن زياد الأعرابى، ثم كتاب الكامل لأبى عبد الله العباس محمد بن يزيد الشمالى، ثم كتاب «العيون» (*) لأبى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الكاتب الدينورى، ثم «مجالسات نعلب»، ثم كتاب ابن أبى طاهر الذى رسمه بالمنظوم والمنثور، ثم كتاب «الأوراق» للصولى، ثم «كتاب الوزراء» لابن عبدوس، و «الحيوانات» لقدامة. هذا إلى غير ذلك من جوامع للناس مضافات وإلى حفظ ما فاهوا به واحتجوا له، واعتمدوا عليه فى محاضرتهم، ونواديهم، وحواضرهم وبواديهم، مما يطول إحصاؤه ويمل استقصاؤه».

وفى الوقت نفسه، فإن الأعلام الذين تحفل بهم كتبه والذين تدور أسماؤهم فى مجلس العلم تغطى دلالة واضحة على الصلة بثقافة اليونان ومن تمثلوها وساروا على نهجهم فى بيئات الثقافة العربية، ومن هؤلاء الأعلام: ابن زرعة، وابن

يدركون اختلاف المدخل اللغوي عن المدخل الفلسفى، وهذا التقابل واضح فى تمييزهم «المنطق اللغوى الذى هو أمر جسماني محسوس عن المنطق الفكرى الذى هو أمر روحاني معقول» (١٢).

ظل الاهتمام باللغات وعلوم اللغة فى الثقافات الأخرى سمة واضحة فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى. أفرد محمد بن إسحق النديم سنة ٣٧٧هـ مقالة كاملة فى كتاب (الفهرست) لوصف لغات الأمم من العرب والمجم ونموت أقلامها وأنواع خطوطها وأشكال كتاباتها. يلفت النظر هنا ما كتبه عن الكتابة على ألواح طينية وعن الخط المسند الحميرى وعن خطوط المصاحف وعن القلم السريانى وعن القلم الفارسى بأنماطه المختلفة وعن القلم العبرانى والقلم الرومى وقلم لكبرده وساكسه وأنماط قلم الصينى والقلم المنانى وقلم الصغد وقلم السند وأقلام الترك والروس والفرنجية والأرمن، وهى معلومات لها أهميتها فى المعرفة باللغات والكتابات. أما المعرفة بالاشتغال بعلوم اللغة فتترد عنها معلومات عارضة، ولكنها مهمة، وذلك مثل الكتابة عن المصونات Vowels فى الخط اليونانى، وعن عدم وجود ستة أحرف من اللغة العربية فى اللسان اليونانى، يلفت النظر - أيضا - استخدام ابن النديم مفهوم «الإيطومولوجيا» وهو النحو الرومى (١٣). وترد عند ابن النديم معلومات كثيرة عن لغات وكتابات العالم القديم والوسط.

أما أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمى (المتوفى فى نهاية القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى) فقد خصص للنحو الفصل الثالث من كتابه الموسوعى (مفاتيح العلوم) ويتناول وجوه الإعراب على مذهب فلاسفة اليونانيين (١٤).

وكانت خصائص اللغة الفارسية موضع اهتمام لغوى هو أبو عبد الله حمزة الأصفهاني (٨٩٣/٢٨٠ - ٩٧٠). ألف كتابه (الخصائص والموازنة بين العربية والفارسية) (١٥)، كما تضمن كتابه (النتيبه على حدوث التصحيف) معلومات مفيدة عن الأصوات وتدوينها برموز إضافية لا تتضمنها الحروف العربية المألوفة. فى الكتابين

الخمار، وابن السمع، والقومى، ومسكويه، ونظيف، ويحيى ابن عدى، وعيسى بن على.

وفوق هذا، فإن أدباء العربية نجد لهم وجودا واضحا فى ثقافة التوحيدى، ومنهم إبراهيم بن العباس الصولى صريع الغواني وأشجع السلمى وأبو يوسف فى القضاء، الإسكافى فى الموازنة، وابن نوبخت فى الآراء والديانات، وابن مجاهد فى القراءات، وابن جرير فى التفسير، والكندى فى الجزء، وعلى ابن سيرين فى العبارة، وأبو العيلاء فى البديهة، وعلى ابن أبى خالدة فى الخط، والجاحظ فى الحيوان، وسهل بن هرون فى الفقر، وعلى يوحنا فى الطب، وعلى ابن ربن فى الفردوس، وعلى عيسى بن دأب فى الرواية، وعلى الواقدى فى الحفظ، وعلى النجار فى البدل، وعلى ابن ثوبة فى التفقه، وعلى السرى السقطى فى الخطرات والوساوس، وعلى مزبد فى النوادر. وعلى أبو الحسن العروضى فى استخراج المعنى، وعلى بنى برمك فى الجود، وعلى ذى الرياستين فى التدبير^(١٦). ويتضح من كتب التوحيدى مدى اهتمامه ونقله والإشارة عنده إلى أعلام الثقافة أصولها وتياراتها حتى عصره. وإشادته دائمة بأستاذه النحوى أبى سعيد السيرافى (المتوفى ٣٦٨هـ/ ٩٧٨م) بوصفه ممثلا للثقافة الإسلامية توازى إجلاله واعتزازه بأستاذه فى المنطق أبى سليمان المنطقى (المتوفى بعد ٣٩١هـ/ ١٠٠١م).

وهذا الموقف من لقاء الثقافات، فى إطار العربية، جعل القصور فى الأداء اللغوى عند الفلاسفة والمناطقية مثلبة ومنقصة، وجعل الأداء اللغوى السليم مقوما ثقافيا منشودا، جعل الصقل ضرورة والفصاحة مطلبا ثقافيا. وفى الوقت نفسه يكون التدقيق فى أداء المعانى هدفا لغويا. ولهذا كان تحرير (المقابسات) عند التوحيدى أمرا مهما. كتب التوحيدى:

«هذا آخر المقابلة التى أتت على حدود هذه الأشياء، وهى وإن كانت تحتل التخفيف، فبعض المطالبة والاعتراض ببعض الاستقصات قد حوت معانى غريبة وطرقا واضحة، وقد كنت عرضت أكثر هذا على أبى سليمان وعلى غيره

فما أصبت عند أحد منهم ما يحكى إلا ما قاله جماعة من النحويين فإنهم بهرجوا كلمة بعد كلمة منها من ناحية الإعراب والصوغ، فأعدت على أبى سليمان ذلك فقال: إذا استقام لك عمود المعنى فى النفس بصورته الخاصة فلا تكثر ببعض التقصير فى اللفظ؟ قال: وليس هذا منى فى تصحيح اللفظ واختلاف التزيق وتخير البيان، ولكن أقول: متى جمع اللفظ ولم يوات، واعتاص ولم يسمح، فلا تفت نفسك خصائص المطلوبات وغايات المقصودات، فلأن تخسر صحة اللفظ الذى يرجع إلى الإصلاح أولى من أن تعدم حقيقة الغرض الذى يرتقى إلى الإيضاح. ولولا هذا الذى قاله هذا الشيخ لما اخترت نشر هذه الحدود على ما عرفتكم من أعلامها واطراد القول عليها، ومن بحر الحكمة تدفقه فقد أوتى فضلا كثيرا وفاز فوزا عظيما وأحرز ملكا كبيرا^(١٧).

رابعاً: المصطلحات الأساسية:

المصطلحات الأساسية للبحث اللغوى عند التوحيدى محدودة، وحدودها الفاصلة لم تكد تتعين بشكل حاسم. وكان التوحيدى مدركا لصعوبات الفكر باللغة عن اللغة. كتب التوحيدى:

«إن الكلام على الكلام صعب. قال: ولم؟ قلت: لأن الكلام على الأمور المعتمد فيها على صور الأمور وشكلها التى تنقسم بين العقول وبين ما يكون بالحس ممكن وفضاء هذا متسع، وانجال [فيه] مختلف. فأما الكلام على الكلام فإنه يدور على نفسه، ويلتبس ببعضه ببعضه، ولهذا شق النحو وما أشبه النحو من المنطق، وكذلك النثر والشعر وعلى ذلك^(١٨).

إن مصطلح «الكلام» وكذلك عبارة: «الكلام على الكلام» مختلفان، من حيث الدلالة فى الكلمة الثانية على

المادة اللغوية من جانب والدلالة في الكلمة الأولى على تناولها العلمي من الجانب الآخر.

كتب التوحيدى:

«ووقف أعرابي على مجلس الأخفش فسمع كلام أهله في النحو وما يدخل معه، فحار وعجب، وأطرق ووسوس، فقال له الأخفش: ما تسمع يا أبا العرب؟ قال: أراكم تتكلمون بكلامنا في كلامنا بما ليس من كلامنا. وقال أعرابي آخر:

ما زال أخذهم في النحو يعجمنى

حتى سمعت كلام الزنج والروم

وقال أبو سليمان: نحو العرب فطرة، ونحونا فطنة، فلو كان إلى الكمال سبيل لكانت فطرتهم لنا مع فطنتنا، [أو كانت فطنتنا لهم] مع فطرتهم» (١٩).

وهنا نجد ثنائية مهمة في المفاهيم، المحور الأول يتضمن: كلام العرب، نحو العرب، الفطرة، للدلالة على مستوى المادة اللغوية، والمحور الثاني يتضمن الكلام على الكلام، كلام في النحو، كلام النحاة، للدلالة على التعبير عن الجهد في التحليل النحوي.

وهناك مصطلحان آخران، هما «اللغة» و«اللسان»

يتضح من نصوص التوحيدى أن استخدامه كلمة لغة والجمع لغات كان يدل على النظام اللغوي أو النظم اللغوية. قال عن النشر:

«ومن شرفه أيضا أن الكتب القديمة والحديثة السالزة من السماء على السنة الرسل بالتأيد الإلهي مع اختلاف اللغات كلها منشورة مسوطة، متباينة الأوزان، متباينة الأبنية، مختلفة التصاريف، لا تنقصد للوزن، ولا تدخل في الأعاريض هذا أمر لا يجوز أن يقابله ما يدحضه، أو يعترض عليه بما يحرضه» (٢٠).

وفي كتابات التوحيدى ومعاصريه أخذت كلمة لغة تستقر للدلالة على اللغة الإنسانية بصفة عامة وعلى اللغة المفردة.

ولكن كلمة «لسان»، والجمع «ألسنة»، كانت نذل على الأداء الفردي أو الأداء عند الأفراد. وفي نصوص التوحيدى:

«اجتمعنا عند عبد الملك بن مروان، فقال: أى الآداب أغلب على الناس؟ فقلنا فأكثرنا فى كل نوع، فقال عبد الملك: ما الناس إلى شئ أحوج منهم إلى إقامة ألسنتهم التى بها يتعاورون القول، ويتعاطون البيان، ويتهادون الحكم، ويستخرجون غوامض العلم من مخابثها، ويجمعون ما تفرق منها، إن الكلام فارق للحكم بين الخصوم، وضياء يجلو ظلم الأغاليط، وحاجة الناس إليه كحاجتهم إلى مواد الأغذية.

وقد قال زهير:

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده

فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

فقلنا: لم يقله زهير، إنما قاله زياد الأعجم، فقال: لا، قاله من هو أعظم تجربة وأنطق لسانا منه».

وتتضح هذه الدلالة من تراكيب، مثل: إقامة الألسنة، لسان الفتى، أنطق لسانا منه. كما تتضح - أيضا - من عبارة التوحيدى. ثم قال بلسانه الذليق، ولفظه الأنيق (٢١).

واستخدام كلمة «اللسان» للأداء الفردي يتضح أيضا من عبارة التوحيدى: الكلام صلف تياه لا يستجيب لكل إنسان، ولا يصحب كل لسان، وخطره كثير، ومتعاضيه مفرور، وهو يتسهل مرة ويتعسر مرارا، ويذل طورا ويعز أطوارا، ومادته من العقل [والعقل] سريع الحوّل خفى الحداع، وطريقه على الوهم، والوهم شديد السيلان ومجره على اللسان، واللسان كثير الطغيان، وهو مركب من اللفظ

اللفوى والصوغ الطباعي، والتأليف الصناعي، والاستعمال الاصطلاحي^(٢٢). وهذه هي مقومات الأداء اللفوى.

أما مصطلح «الكلام» عند التوحيدى فهو بعيد عن مصطلح «الكلم» عند النحاة المبكرين، وله صلة أكثر بفلسفة اللغة التى تبحث اللغة الإنسانية بوصفها من الظواهر الطبيعية، كتب التوحيدى عن أبى الحسن العامرى. قال:

«ماحد الكلام، الجواب: أنه مؤلف من صوت وحرف ومعان. يقال: كيف يحصل؟ الجواب: يجذب الإنسان الهواء بالحركة الطبيعية وحصره فى قسبة الرئة ودفعه ومصاكنه بالحركة الإرادية للهواء الخارج بحروف تجذبها آلة اللهوات. وهذه مركبة دالة بحروف اتفاق واتساق مع معانى فكر النفس بالمنطقية، بقدر الهواجس الطارئة، والخواطر السانحة، والصواب المؤيد من العقل، والأثر الحاصل فى القلب»^(٢٣).

والمفاهيم الأساسية المتضمنة هنا وهى: صوت، وحرف، ومعان، كلام تجدها عند المتكلمين، ولها صلة بالفكر الفلسفى فى اللغة عند الفارابى، على وجه الخصوص^(٢٤).

فى مواضع كثيرة من كتب التوحيدى نجد «النحو» و«المعنى»، وهذه المواضع التى يقوم بعضها على اقتباسات - وبعضها من كلام التوحيدى - تؤكد أهمية النحو لفهم المعانى، كتب التوحيدى:

«اعلم أنك لو قلت لنحوى: ما فائدة علمك بالنحو، وما غاية غرضك فيه؟ لقال: معرفة المعانى، وتجليه ملتبسها، والتوغل فى دقائق معانى كلام الله عز وجل، وكلام المبعوث بالحق إلى الخلق، ولولا علمى بالنحو لظل مراد كثير، وجهل باب كبير، فيقول له: ما أحسن ما توخيت، إنك لسعيد»^(٢٥).

ولذلك، فإن للنحو أهمية كبيرة فى صقل الفكر وتدقيق العبارة. كتب التوحيدى:

«قال المبرد: إذا وضع الرجل كتاباً، أو قال شعراً استهدف فإن أحسن استشرف، وإن أساء استتدف. وذكر أبو العباس يوماً النحو فقال: [هو عيار الأشياء، وحلى الألسن، وجلاء الأسماع]»^(٢٦).

وتتصل هذه الثنائية فى مواضع أخرى بثنائية «اللفظ» و«المعنى»، وهنا نجد مستوى التعبير يعبر عنه تارة بالنحو وتارة أخرى باللفظ. كتب التوحيدى: سمعت شيخاً من النحويين يقول: المعانى هى الهاجسة فى النفوس، المتصلة بالخواطر، والألفاظ ترجمة للمعانى، وكل ما صح معناه صح اللفظ به، وما بطل معناه بطل اللفظ به، فالاسم ما وقع على معنى غير مقرون بزمان محصل، ويعرف أيضاً بدخول الجر عليه، ويصلح فيه ضرئى ونفعنى، ويدخل عليه أيضاً الألف واللام على واحد وثنيته، والفعل يعم ما تصرف بالزمن: كقولك ضرب للماضى، ويضرب للحال، وللمستقبل من الزمان، والحرف: ما كان جامداً لا يدل على معنى، نحو هل، وبلى، وقد، وكأنه يريد أن معانى الحروف تتضح بقراءتها، فكأنه لا تأثير لها بتجديدها حتى يصحها غيرها^(٢٧).

ويبدو أن تأكيد النحاة لأهمية النحو كان مثار معارضة من بعض الفقهاء، كتب التوحيدى:

«وتعجب عنده من أبى حنيفة الصوفى حين قال لك: إن الله عز وجل أمرنا بالطاعة والإيمان، وإن لم يأمرنا بالنحو، وإلا فهات: إنه يدل على أنه أمرنا بأن نتعلم: ضرب عبد الله زيدا، وقد رأيت روغانه عن تحصيل الحجة فى معرفة ذلك ألا يعلم أن الكلام كالجسم، والنحو كالحلية، وأن التمييز بين الجسم والجسم إنما يقع بالحلى القائمة، والأعراض الحالة فيه، وأن حاجته إلى حركة الكلمة بأخذه وجوه الإعراب حتى يتميز الخطأ من الصواب كحاجته إلى نفس الخطاب، وليس على كلامه قياس، ولا فى ركابة بنى جنسه التباس، وإنما غره من هو أنقص منه فطرة، وأخس نظراً وفكرة، أنراه يصل إلى تحليل

للطبيعة. والنفس متقلبة للعقل - وكانت الألفاظ على هذا التدرج والتنسيق من أمة الحس، والمعاني المقولة فيها من أمة العقل. فالاختلاف فى الأول بالواجب، والاتفاق فى الثانى بالواجب» (٢٩).

وتتصل بهذا كله وظيفة اللغة فى عملية التواصل بين الناطق والسامع. كتب التوحيدى:

«وبالجملة الألفاظ وسائط بين الناطق والسامع، فكلمة اختلفت مراتبها على عادة أهلها كان وشيها أروع وأجهز، والمعاني جواهر النفس. فكلمة اختلفت حقائقها على شهادة العقل كانت صورتها أنصع وأبهى، وإذا وفيت البحث حقه فإن اللفظ يجزل تارة ويتوسط تارة، بحسب الملازمة التى تحصل له من نور النفس وفيض العقل وشهادة الحق وبراعة النظم، وقد يتفق هذا لتعويل الإنسان يمزاجه الصحيح وطبيعته الجيدة واختياره المحمود، وقد يفوته هذا الوجه فيتلافاه بحسن الاقتداء بمن سبق بهذه المعاني إليه، فيكون اقتداؤه حافظاً عليه نسبة البيان على شكله المعجب، وصورته المعشوقة: ومدار البيان على صحة التقسيم. وتخير اللفظ وترتيب النظم وتقريب المراد، ومعرفة الوصل والفصل، وتوخى الزمان والمكان، ومجانبة العسف والاستكراه، وطلب الغفو كيف كان» (٣٠).

وفى كتب التوحيدى استمرار للفكر فى اللغة فى إطار العناصر الطبيعية. قال أبو الخطاب:

«هل للخواطر والألفاظ والآراء والمقالات نسبة إلى المزاج والطينة والهواء، وإلى العناصر بالجملة؟ فقال: نعم، لها نسبة قوية، وعلاقة شديدة، ورباط متين، إلى هذه الأمور التى تنظر فيها، أو تطيف بها، أو تطل عليها، ولا سبيل مع ذلك إلى اتفاق الناس فى حال من الأحوال، وسبيل من السبل ولو أمكن ذلك لوجد: ألا ترى

اللفظ المبني على معنى، دون اللفظ المبني على معنى آخر، إلا يحفظ الأسماء وتصريفها، أو تراه (يقف) على تحصيل المعنى المدفون فى هذا اللفظ دون المعنى المدفون فى هذا اللفظ إلا بتمييز وجوه حركات اللفظ، فبان لك أن الحالف بالتورية فى يمينه: والله ما رأيته، وهو يريد ما ضربت رثته، والله ما قلبته وهو يريد ما ضربت قلبه، ليدفع عن نفسه ضيماً نزل به بما يفهم من الرثة والقلب هو العكس إنما يراً من الحنث ويتخلص من الضيم لقيامه بحفظ اللغة، كذلك من يعرف الفرق الواقع بين الإعراب الذى هو حركة آخر الكلمة» (٢٨).

وفى هذا النص نجد أهمية منظومة المصطلحات: وجوه الإعراب، وجوه حركات اللفظ، حركة الكلمة، اللفظ، حركة آخر الكلمة على مستوى التعبير، وذلك فى مقابل: المعنى، المعنى المدفون، الفرق على مستوى المحتوى.

خامساً: قضايا الفكر اللغوى:

هناك قضايا كثيرة، نجدها عند التوحيدى امتداداً واستمراراً وتنمية لمناقشات فى الفكر اللغوى تقوم فى المقام الأول على الفكر الفلسفى. كتب التوحيدى:

«قلت لأبى بكر القومى - وكان كبير الطبقة فى الفلسفة، وقد لزم يحيى بن عدى زماناً وكتب لنصر الدولة، وكان حلو الكتابة، مقبول الجملة -: ما معنى قول بعض الحكماء: الألفاظ تقع فى السمع، فكلمة اختلفت كانت أحلى، والمعاني تقع فى النفس، فكلمة اتفقت كانت أحلى؟ فقال: هذا كلام مليح، وله قسط من الصواب والحق، إن الألفاظ يشملها السمع، والسمع حس، ومن شأن الحس التبدد فى نفسه، والتبدد بنفسه. والمعاني تستفيد من النفس، ومن شأنها التوحد بها والتوحيد لها، ولهذا تبقى الصورة عند النفس قنية وملكة، وتبطل عند الحس بطولاً، وتمحى محواً، ولا حس تابع

وتتصل العلاقة بين النحو والمنطق بالوظيفة الاتصالية للغة ومستويات الأداء اللغوي على المستوى الشفافي. كتب التوحيدى:

«وكما أن التقصير فى تحبير اللفظ ضار ونقص وانحطاط، فكذلك التقصير فى تحرير المعنى ضار ونقص. وانحطاط، وحد الإفهام والتفهم معروف، وحد البلاغة والخطابة موصوف، والحاجة إلى الإفهام والتفهم على عادة أهل اللغة أشد من الحاجة إلى الخطابة والبلاغة، لأنها متقدمة بالطبع، والطبع أقرب إلينا، والعقل أبعد عنا، والبدئية منوطة بالحرص، وإن كانت معانة من وجهة الحر، وليس ينبغى أن يكتفى بالإفهام كيف كان، وعلى أى وجه وقع، فإن الدینار قد يكون ردئ ذهب، وقد يكون ردئ طبع، وقد يكون فاسد السكة، وقد يكون جيد الذهب عجب الطبع حسن السكة، فالناقد الذى عليه المدار، وإليه العيار، يهجره مرة براءة هذا، ومرة براءة هذا، ويقبله مرة بحسن هذا، ومرة بحسن هذا، والإفهام إفهامان: ردئ وجيد، فالأول لسفلة الناس، لأن ذلك غايتهم وشبيه برئيتهم فى نقصهم، والثانى لسائر الناس، لأن ذلك جامع للمصالح والمنافع، فأما البلاغة فإنها زائدة على الإفهام الجيدة بالوزن والبناء، والسجع والتقنية، والحلية الرائعة، وتخير اللفظ، واختصار الزينة، بالركة والجزالة والمتانة، وهذا الفن لخاصة النفس، لأن القصد فيه الإطراب بعد الإفهام والتواصل إلى غاية ما فى القلوب لذوى الفضل بتقويم البيان» (٣٢).

عند التوحيدى تعريفات كثيرة تمثل تكامل التخصصات، من ذلك طرح أسئلة تربط المجالات، وتقدم رؤية لمفهوم ما من خارج التخصص الدقيق، من ذلك تعريف النحو عند أبى سليمان المنطقى. كتب التوحيدى:

أنه لا سبيل إلى أن يكون الناس كلهم طوال القدود أو قصورها، وضخام الرؤوس أو صغارها، وفصحاء الألسنة أو لكننها، أو على مذهب واحد أوحد، ومتقابلة واحدة؟ كيف يكون هذا أو يظن، والطبيعة إنما تعطى صورتها لكل شئ بحسب قبوله وتهيئته وموانئه؟ فليس الزند من عطية الطبيعة، ولكن على قدر قبوله. وصلابة الحجر من عطية الطبيعة ولكن على قدره. فاختلف الصور إنما ينشأ من اختلاف المواد. وهذا أصل لا أصل له، وعلة لا علة لها، لأنه لم يفعله فاعل على ذلك، بل الصورة من شأنها هذا، والمادة من شأنها ذلك، والأمر مسبب على سنن ما ترى، فعلى هذا كل أحد ينتحل ما شاكلة مزاجه، ونبض عليه عرقه، ونزع إليه شوطه. وعجن به طينه، وجرى بعد ذلك على دأبه وديده» (٣١).

اللسان العربى والاعتبار النظرى جانبان متكاملان عند التوحيدى للفكر اللغوي، وإثبات هذا رأى نجد عنده ثلاث مقابسات عن أبى سليمان المنطقى فى العلاقة بين النحو والمنطق: كتب التوحيدى:

«قلت لأبى سليمان: إني أجد بين المنطق والنحو مناسبة غالبية ومشابهة قريبة، وعلى ذلك فما الفرق بينهما، وهل يتعاونان بالمناسبة، وهل يتفاوتان بالقرب به؟ فقال: النحو منطق عربى، والمنطق نحو علقى، وجل نظر المنطقى فى المعانى، وإن كان لا يجوز له الإخلال بالألفاظ التى هى لها كالحلل والمعارض، وجل نظر النحوى فى الألفاظ، وإن كان لا يسوغ له الإخلال بالمعانى التى هى لها كالحقائق والجواهر، ألا ترى أن المنطقى يقول بخبر وهو يفعل، والنحوى فيما خلاه اللفظ؟ ونظائر هذا المثال شوائع ذوات فى عرض الفنين والنظرين، أعنى المنطق والنحو».

يرتب المعنى ترتيباً يؤدي [إلى] الحق المعترف به من غير عادة سابقة. والشهادة في المنطق مأخوذة من العقل، والشهادة في النحو مأخوذة من العرف، ودليل النحو طباعى، ودليل المنطق عقلى. والنحو مقصور، والمنطق مبسوط، والنحو يتبع ما فى طباع العرب، وقد يمتريه الاختلاف، والمنطق يتبع ما فى غرائز النفوس، وهو مستمر على الاختلاف. والحاجة إلى النحو أكثر من الحاجة إلى المنطق، كما أن الحاجة إلى الكلام فى الجملة أكثر من الحاجة إلى البلاغة، لأن ذلك أول، وهذا ثان. والنحو أول مباحث الإنسان، والمنطق آخر مطالبه. وكل إنسان منطقي بالطبع الأول، ولكن يذهب عن استنباط ما عنده بالإهمال، وليس كل إنسان نحويًا فى الأصل» (٣٤).

وهنا فكرة عموم المنطق، وخصوص النحو بلفظ محددة. ونجد التقابل بين المنطق والنحو يتخذ جملة من المصطلحات، منها: العقل والعرف، الغرائز والعادة، ومنها أساسية النحو. رفعة المنطق.

ونوضح المقابلة الفرق بين النحو والمنطق ببيان نوع الخطأ فى الأداء: كتب التوحيدى:

«الخطأ فى النحو يسمى لحناً، والخطأ فى المنطق يسمى إحالة. والنحو تحقيق المعنى باللفظ. والمنطق تحقيق المعنى بالعقل. وقد يزول اللفظ إلى اللفظ. والمعنى بحاله لا يزول ولا يحول، فأما المعنى فإنه متى زال إلى معنى آخر تغير المعقول ورجع إلى ما عهد فى الأول. والنحو يدخل المنطق، ولكن مرتباً له. والمنطق يدخل النحو، ولكن محققاً له، وقد يفهم بعض الأغراض، وإن عرى لفظه من النحو، ولا يفهم شئ منها إذا عرى من العقل. فالعقل أشد انتظاماً للمنطق، والنحو أشد النجاس بالطبع. والنحو شكل سمعى، والمنطق شكل عقلى. وشهادة النحو طباعية، وشهادة المنطق عقلية» (٣٥).

«قلت له: فما النحو؟ فقال: على ما يحضرني الساعة من رسمه على غير تصفية حده وتنقيحه: إنه نظر فى كلام العرب يعود بتحصيل ما تألفه وتعتاده، أو تفرقه وتعلل منه، أو تفرقه وتخليه، أو تأباه وتذهب عنه، وتستغنى بغيره».

وهنا نجد - أيضاً - استخدام مصطلح «كلام العرب» للدلالة على النظام اللغوي، والنحو هنا عمل علمي، إنه: «نظر فى كلام العرب». وكان السؤال إلى أبى سليمان المنطقي عن المنطق أيضاً. كتب التوحيدى:

«قلت: فما المنطق؟ قال: آلة بها يقع الفصل والتمييز بين ما يقال: هو حق أو باطل، فيما يعتقد، وبين ما يقال: هو خير أو شر، فيما يفعل، وبين ما يقال: هو صدق أو كذب، فيما يطلق باللسان، وبين ما يقال: هو حسن أو قبيح بالفعل. قلت: فهل يعين أحدهما صاحبه؟ قال: نعم، وأى معونة إذا اجتمع المنطق العقلى والمنطق الحسى؟ فهو الغاية والكمال» (٣٦).

وهنا نجد مجموعة مفاهيم تعبر عن الفكر اللغوي فى تلك الفترة، فالمنطق أداة تميز بين الدلالات. والمنطق «عقلى»، ولكن «كلام العرب» أو «الكلام» بصفة عامة له وجود «حسى»، أى مادي.

ونمضي المقابلة إلى فوائد النحو وأهمية المنطق فى الوصول بالأداء اللغوي إلى مستوى رفيع. كتب التوحيدى:

«قال: ويجب أن تعلم أن فوائد النحو مقصورة على العرب بالقصد الأول، قاصرة عن عادة غيرهم بالقصد الثانى، والمنطق مقصور على عادة جميع أهل العقل من أى جيل وبأى لغة أبانوا، إلا أن يتعذر [وجود] أسماء عند قوم وتوجد عند قوم، فحينئذ الحال فى التقصير على تعذر الأسماء أو على وضعها على الخلاف، إما بالتواطؤ والاصطلاح، وإما بالطبع والإسماع».

قال: وبالجمله، النحو يربط اللفظ ترتيباً يؤدي إلى الحق المعروف أو إلى العادة الجارية، والمنطق

ولكن قضية المكانة تظل مطروحة، مكانة النحو وأهميته ودوره ومكانة المنطق وأهميته وأثره. وهنا نجد أبا سليمان المنطقي يمثل رأى المناطقة: وما يستعار للنحو من المنطق حتى يتقوم أكثر مما يستعار من النحو للمنطق حتى يصح ويستحكم. فالمنطق وزن لعميار العقل، والنحو كيل بصاع اللفظ، ولهذا قيل في النحو الشذوذ والنادر، وردئ المنطق ما جرى مجراهما، فهذا ما استهدف من قوله، وهذه القضية ظلت مستمرة في إطار لقاء الثقافات، ولو كانت البيئات الثقافية المختلفة قد استمرت متوازية وغير متلاقية لما كان ثمة طرح لهذه القضية.

لقد تجاوز الفكر اللغوى فى المقاييسات ملامح النظرية العامة إلى المسائل اللغوية التى تتجاوز وصف البنية اللغوية إلى محاولة تعرف فلسفتها وعلاقات جزئياتها. كتب التوحيدى:

«قلت لأبى سليمان: كنا أمس فى مجلس أبى على القومى فجرى كلام فى الظرف فقال له الأندلسى: أيها الشيخ، لم صار الظرف المخصوص بالزمان أكثر من الظرف المخصوص بالمكان؟ فسكت هنيهة ثم قال: لا أدرى. وليس هذا من النحو، وإنما النحو فى هذا أن تعرف أن الظرف ظرفان، ظرف زمان وظرف مكان، وتخصى أسماء هذا وتميزها من أسماء هذا، وتقف على المواضع المخصوصة بهما والإعراب اللازم لهما وبهما. فقال أبو سليمان: صدق أبو على، فلقد ظلمه الأندلسى: من أين يعلم ذلك وليس عليه فى صناعته أن يبحث عنه؟ لأن مبادئ كل صناعة مأخوذة من ناس آخبرين قوامين عالمين» (٣٦).

وهنا نجد الفرق بين عمل النحوى تصنيفاً للظرف وتحديد المواضع استخدامه ولأحكام إعرابه من جانب، والبحث عما وراء ذلك من علاقات من الجانب الآخر.

ولكن الفكر اللغوى الذى يبحث اللغة فى إطار الظواهر الطبيعية يتعامل برؤية أخرى، كتب التوحيدى عن رأى أبى سليمان المنطقي:

«فقال: الظرف الزمانى أطف من ظرف المكان، والمكانى أكثف من ظرف الزمان، وكأن المكان من قبيل الحس، والزمان من قبيل النفس، وكأن الزمان من حد المحيط، والمكان من حد المركز، فوجب لهذا أن يكون تصرف الألف أكثر من تصرف الألف، وبحسب تصرفه تكون أسماء أحواله فى تصرفه أكثر، والزمان منسوب إلى حركات الفلك، فجوهره شريف. والمكان من جوهر المحيط. فجوهره محطوط. والفلك أقرب من الأمور العالية، فكذلك مرسومه الذى هو الزمان. قال: وما يشهد أن الزمان أطف، أنك تقول: زمان حاضر، زمان ماض، وزمان مستقبل. هذا بالنظر الأول، وقد أحس به كل الناس، وهو يزيد بالمنطق على هذه القسمة زيادة بينة، ومن أجل تصرف الزمان فى الوجوه الكثيرة، استخراج يحيى بن عدى المنطقي من قول القائل: القائم غير القاعد، وجوها تزيد على عشرين ألف وجه بآلاف، ورسائله فى ذلك حاضرة، ثم قال: وما يزيد لطافة الزمان وضوحاً أن الزمان الواحد يجر إلى أكثر من واحد، إلى ما لا آخر لهما، والمكان الواحد متى شغل بالواحد عجز عن الثانى».

المقاييسات الثانية التى تعد مثالا لتجاوز الوصف اللغوى إلى الفكر النظرى، أوردها التوحيدى عن كلمة «طبيعة»، ودلالة هذا الوزن: سألتى أبو سليمان يوماً عن الطبيعة وقال: كيف هى عند أهل النحو واللغة؟ أهى فعيلة بمعنى فاعلة، أو بمعنى مفعولة؟ فسألت أبا سعيد عنها فقال: هذا من قبيل الأسماء المحضة، لا من قبيل الأسماء المشوبة، فلا يقال لذلك إنه فعيل بمعنى فاعل، كقدير بمعنى قادر، ولا يقال إنه فعيل بمعنى مفعول، كذبيح [بمعنى مذبح] ولكن يقال هو فعل فى أصله كجبير وأثير، ومع هذا فمعنى الفعل به أقرب من معنى الفعل منه، ولفعيل أسرار ووجوه، وقد كان بعض الناس زل فيه عند بعض الأمراء. وإذا لم يكن بد من اعتباره على طريقة هذا السائل، فلا أن يكون بمعنى مفعول

وختام هذه المقايسة يتضمن مصطلحين دالين، أحدهما: «اللسان العربي» والثاني «الاعتبار النظري» برؤية تحاول تكامل المعرفة من الجانبين. قال:

«وإذا وقف على هاتين الحالتين، الأولى بموجب اللسان العربي، والثانية بقضية الاعتبار النظري، لم يبق في الطبيعة من هذا النسق ما يفتقر إلى إيضاحه والإبانة عنه، لأن التصفح قد أتى على كل ما كان في القوة من هذين الوجهين. فأما حدّها الذي هو لها بالتحقيق، وهو ما قال أرسطوطاليس إنه مبدأ الحركة والسكون. وإيضاح هذا بين في الكتب الموضوعة فيه وفي أشكاله، وإنما قويت العناية في شرح هذا القول على قدر ما بدا من المسئلة والجواب».

وبذلك اكتملت فكرة التكامل بين النحو واللغة بكلام أبي سليمان المنطقي وما ذكره السيرافي، وكل هذا بعبارة التوحيدى، وختامها:

«تابعت حاطك الله من هذه المقابسات الثلاث لأنها متواخية في بابها، أعنى أنها في حديث النحو واللغة والمنطق والنظر، وبهذا تبين لك أن البحث عن المنطق قد يرمى بك إلى جانب النحو، والبحث عن النحو يرمى بك إلى جانب المنطق، ولولا أن الكمال غير مستطاع لكان يجب أن يكون المنطقي نحويًا، والنحوي منطقيًا، خاصة والنحو واللغة عربية، والمنطق مترجم بها ومفهوم عنها. والخلل على قدر ذلك قد دخل فيها بنقل بعد نقل، وشرح بعد شرح».

سادسًا: النحو والمنطق بين العلوم:

كتب التوحيدى رسالته في العلوم في إطار فكرة أساسية، وهى أهمية كل فروع العلم وتكوين علاقات بينية بينها، وضرورة تكاملها من أجل «العلم». عرف التوحيدى النحو بقوله:

أولى، وذلك أنا نقول: طباعه كذا وكذا، وطبيعته، أى ما طبع عليه، وبمعنى فعل، والمفعول فيه أبين، وأخواته يدللن على ذلك، أعنى الضريبة، والسليقة، والسجية، والغريزة، والنحيزة.

ولكن التكامل بين النحو والمنطق يجعل هذه المقايسة نضم - أيضا - رأى أبى سليمان المنطقي في كلام السيرافي مع الإضافة إليه:

«فقال: هذا حسن مقبول، وبدل [على] أن ما سمعته من هذا الشيخ غيضى من فيض، وشرارة من حريق». ولكن التكامل المعرفى يتطلب رؤية علمية وفلسفية لمفهوم الطبيعة. ثم قال:

«وإنما يصح قوله هذا إذ لخص المعنى الذى خصت الطبيعة به من قبولها من النفس، والقيادة لتصرفها وانفعالها بتفعيلها، فإن الطبيعة كالمهدف لما عنى النفس، وكالشئ الشاحى فاه لما يلقي إليه ويرسم له، لا يتعدى حكمه، ولا يعصى أمره، ولا يخالف نهجه، وهذا شأن النفس مع العقل، ولكن على من هذا، لأن الفيض الأول والوجود الأول لا واسطة له ولا شوب ولا عارض عليه، ولا كره فيه ولا اختلاف، يفيض ذلك كله في الطبيعة بصباياتها وصفافاتها، ويقوافيها ومعانيها وتظهر عند ذلك الأشكال المختلفة في الأشخاص، وتبدو قواه بوسائط المسانح والإحساس، فأما إذا وفي حقها فيما يقبل منها ما دونها، وينقاد لها ويأتمر لأمرها، ويجرى على رسمها، ويظهر أشكالها في الأجزاء المتشابهة المختلفة العناصر، المختلطة والتسمية، والمواد المستعدة والأبوية، والأشتات الثلاثمة والمتبانية، فإنها في حد الفاعلة التى تطيع وتنقش، وتصلح وتجمع، وتؤلف وتنقض، وتحظر وتبيح، وتندر وتستخرج. وهذه الرتبة حصلت لها من تقبلها للنفس لأنها أعطتها صورتها وكانت فاعلة بها، ولأنها قبلت منها فكانت منفعة لها، فلها المرتبتان والحدان، بنظر ونظر، ووجه ووجه».

«وأما النحو» فمقتصور على تتبع كلام العرب في إعرابها، ومعرفة خطتها وصوابها، واعتقاد ما تواطأت عليه وألفت استعماله، ولولا انفتاح أبواب المعاني به لم يكن في النحو أكثر من مخالفة الحركة باللفظ لكن قد صح بالتجربة والاستعراض، أن في مخالفة حركات الألفاظ فساد المعاني والأغراض، ولا بد لنا ما دنا تبعاً لهذه الأمة، أعنى العرب، من الاقتداء بهم، والاقتفاء لأثرهم، من غير تحريف، ولا تجزيف، ألا ترى أنك تتبع نبأ اللفظ في قولهم: أذهب؟ إذا نووا استفهاماً، وفي قولهم: سيذهب، إذا نووا خبراً منتظراً، وفي قولهم: قد ذهب، إذا نووا خبراً ماضياً، كذلك تتبع حركات اللفظ لأن حد الإعراب هو تغيير أواخر الكلم كالبدال من زيد. ألا ترى أنك تقول: جاءني زيد ومررت بزيد ورأيت زيدا، فزيد هو واحد في هذه المواضع، لكن صورته مختلفة للإعراب الفاصل بين مراد ومراد، وفنون هذا الباب كثيرة وعللها عويصة والناظر فيه يقوم بمعابنة على حسب عنايته ودرايته» (٣٧).

وهذا التعريف يتضمن عناصر مهمة توضح رؤية التوحيدي لهذا الفرع العلمي، تتركز هذه العناصر في المصطلحات المفاتيح المكونة لهذا التعريف، وهى: «تتبع كلام العرب»، و«معرفة خطتها وصوابها» و«أبواب المعاني». وهنا نجد المادة اللغوية العربية والهدف المعيارى والربط بين البنية اللغوية والمعنى.

عرف التوحيدي اللغة:

«وأما اللغة» فجدها عظمة ومنافعها جمة لأنها مادة الكلام، والنحو صورة من صورها ولأنها تحيط بالاشتقاق وأصوله والتصريف وأبنيتها، والوزن وأمثله، وبابها مردود إلى توسع السماع، كما أن باب النحو موقوف على تتبع الطباع، فكل من تكامل حظه من اللغة وتوفر

نصيبه من النحو كان بالكلام أمهر، وعلى تصريف المعنى أقدر، وازداد بصيرة فى قيمة الإنسان، المفضل على جميع الحيوان، وعرف عوار المتكلمين ووقف على عادة الفقهاء فى أمر فإن شدا بعد ذلك شيئاً من المنطق فقد سبق جميع الناظرين. وأنا أصف لك» (٣٨).

وهنا نجد المصطلحات المفاتيح المكونة لهذا التعريف تتضمن: «الاشتقاق» و«التصريف» و«الوزن» و«السماع».

وفى الوقت نفسه، نجد تقابلاً بين النحو واللغة، ذلك أن النحو يمثل النمط المختزن من بنية اللغة فى العقل «النحو صورة من صورها»، ويقوم على «تتبع الطباع» حتى يمكن تعرف ملامح ذلك النظام. أما اللغة فإن «بابها مردود إلى توسع السماع». وهذه الفكرة عبر عنها التوحيدي فى موضع آخر:

«وياك أن تقيس اللغة، وقد رأيت فقيها من الناس وقد سئل عن قوم فقال: هم خروج، فقبل ما تريد بهذا؟ قال: قد خرجوا، كأنه أرادهم خارجون، قيل: هذا ما سمع، قال: هو كما قال الله تعالى: «إذ هم عليها قعود» أى قاعدون فضحك به» (٣٩).

وهكذا يحدد التوحيدي الفروق بين النظام اللغوى بقواعده وقياسه من جانب والمفردات وسماعيتها.

وآخر التعريفات ذات الدلالة فى نسق هذا البحث تعريف المنطق:

«أما المنطق فهو اعتبار معاني الكلام فى اعتدالها وانحرافها، واختلافها واتسلافها، وإيهامها وإيضاحها، وإغماضها وإفصاحها، وتمييزها والتباسها، وإطرادها وانعكاسها، واستمرارها واستقرارها، وبه تفصل الحجة من الشبهة، وتنفى الشبهة عن الحجة، وتعرف حيلة المغالط ونصيحة المحقق، وهو آلة عند أربابه كالميزان يزنون به كل مختلف فيه ومتفق عليه، وليس فيه كفر ولا

جهل ولا دين ولا مذهب ولا نحلة ولا مقالة. وإنما هو تصفية المعاني وتنقية الألفاظ، فمن غمره الشك في هذا القول واعتراه الريب عند هذا الوصف فليتقدم ناظراً فيه، متصفحاً لأوائله وثوابه، فإنه يجد بيان هذا القول حاضراً، والشاهد فيه ظاهراً، وقد عابه ناس ولكن كانوا عامة أو أشباه عامة، فأما الخاصة وأشباه الخاصة فلا يعيونه ولا يجيزون عيبه، والصور الماثلة للعين والأحوال الجارية في العالم، والمعاني القائمة بالعقل والأمور الثابتة في النفس هي كلها لا تخرج عن هذا الاعتبار المنطوي على الإضافات، والتخصيصات والتعميمات، وهذا لأن العالم منوط ببعضه ببعض، ومنسوب بعضه إلى بعض ومتبسبب بعضه على بعض. والناظر في الطب غرضه حفظ الصحة إذا وجدها، وطلبها إذا فقدها، وهو خادم للطبيعة بالعلم والعمل علم يحيط بعين العلة وعمل يأتي على اجتلاب الصحة» (٤٠).

وهنا نجد المصطلحات المفاتيح الدالة في تعريف المنطق: «معاني الكلام»، «اعتدال وانحراف»، و«الميزان» «مقيس بعضه على بعض»، وهي مصطلحات تتداخل بدرجة ما مع مصطلحات النحاة، ونجد أيضاً - مصطلحي «التخصيصات والتعميمات». ولكن من أهم ماورد في هذا التعريف عبارة التوحيدى التي تواجه الدعوة إلى عدم التكامل المعرفى فى عصره، وتعارض الاتجاه إلى إبعاد المنطق عن نسق الثقافة العربية الإسلامية، وهذه العبارة المدافعة عن المنطق نصها: «وليس فيه كفر ولا جهل ولا دين ولا مذهب».

سابعا: الموازنة بين اللغات:

كانت قضية الموازنة بين اللغات من أهم قضايا الفكر اللغوي في نهاية القرن الرابع الهجرى. كانت العربية لغة الثقافة الرائدة، ولكن الفارسية كانت تنهض شيئاً فشيئاً لتكون لغة رسمية في شرقى الدولة الإسلامية، وكان للغة اليونانية حضور ثقافى متجدد. خصص التوحيدى فى (الإمتاع والمؤانسة) الليلة السادسة للمفاضلة بين الشعوب:

«ثم حضرته ليلة أخرى، فأول ما فاح به المجلس أن قال: أنفضل العرب على العجم أم العجم على العرب؟ قلت: الأمم عند العلماء أربع: الروم، والعرب، وفارس، والهند، وثلاث من هؤلاء عجم، وصعب أن يقال: العرب وحدها أفضل من هؤلاء الثلاثة، مع جوامع ما لها، وتفاريق ما عندها. فقال: حد الوصف في التزيين والتقبيح مختلف الدلائل على ما يعتقد صوابه وخطؤه، متباين، وهذه مسألة - أعنى تفضيل أمة على أمة - من أمهات ما تدارأ الناس عليه وتذافعوا فيه، ولم يرجعوا منذ تناقلوا الكلام في هذا الباب إلى صلح متين واتفاق. فقلت: بالواجب ما وقع هذا، فإن الفارسى ليس فى فطرته ولا عادته ولا منشئه أن يعترف بفضل العربى، ولا فى جبلة العربى وديده أن يقر بفضل الفارسى. وكذلك الهندى والرومى والتركى والديلمى. وبعد، فاعتبار الفضل والشرف موقوف على شيئين: أحدهما ما خص به قوم دون قوم فى أيام النشأة بالاختيار للجد والردى، والرأى الصائب والفائل، والنظر فى الأول والآخر. وإذا وقف الأمر على هذا فلكل أمة فضائل ووزائل ولكل قوم محاسن ومساو، ولكل طائفة من الناس فى صناعتها وحلها وعقدها كمال وتقصير، وهذا يقضى بأن الخيرات والفضائل والشرور والنقائص مفاضة على جميع الخلق، مفضوضة بين كلهم» (٤١).

إن هذا الموقف الذى يقوم على عدم التعصب ويفتح آفاق الانطلاق ويعطى لكل طائفة مجالها فى الإبداع والتقدم لم يكن مألوفاً على مدى عدة قرون. كتب التوحيدى:

«وها هنا شئ آخر، وهو أصل كبير لا يجوز أن يخلو كلامنا من الدلالة عليه والإيماء إليه. وهو أن كل أمة لها زمان على ضدها، وهذا بين مكشوف إذا أرسلت وهمك فى دولة يونان والإسكندر، لما غلب وساس وملك ورأس وفتق

ورثق ورسم ودبر وأمر، وحث وزجر، ومحا واطر، وفعل وأخبر، وكذلك إذا عطفت إلى حديث كسرى أنوشروان وجدت هذه الأحوال بأعيانها، وإن كانت فى غلف غير غلف الأول، ومعارض غير معارض المتقدم، ولهذا قال أبو مسلم صاحب الدولة حين قيل له: أى الناس وجدتهم أشجع؟ فقال: كل قوم فى إقبال دولتهم شجعان. وقد صدق، وعلى هذا كل أمة فى مبدأ سعادتها أفضل وأنجند وأشجع وأمجى وأسخر وأجود وأخطب وأنطق وأراى وأصدق، وهذا الاعتبار ينساق من شئ عام لجميع الأمم، إلى شئ شامل لأمة أمة إلى شئ حار لطائفة طائفة، إلى شئ غالب على قبيلة قبيلة، إلى شئ معتاد فى بيت بيت، إلى شئ خاص بشخص شخص وإنسان إنسان.

وهذه الرؤية الإنسانية ترتبط عند التوحيدى بفكرة فيض الله تعالى على كل الشعوب وإمكان كل شعب أن يحقق الرقى والتقدم.

ولكن هذه الرؤية العامة تختلف بدرجة ما عن عبارات التوحيدى فى الموازنة بين اللغات، كتب التوحيدى:

«وقد سمعنا لغات كثيرة - وإن لم نستوعبها - من جميع الأمم. كلغة أصحابنا العجم والروم والهند والترك وخوارزم وصقلاب وأندلس والزنج، فما وجدنا لشيء من هذه اللغات نصوع العربية، أعنى الفرج التى فى كلماتها، والفضاء الذى نجده بين حروفها، والمسافة التى بين مخارجها، والمعادلة التى ندوقها فى أمثلتها، والمساواة التى لا تجحد فى أبينتها، وإذا شئت أن تعرف حقيقة هذا القول، وصحة هذا الحكم، فالنظر عرض اللغات الذى هو بين أشدها تلابسا وتداخلا، وترادفا وتعاطلا وتمسرا وتموصا، وإلى ما بعدها مما هو أسلس حروفا، وأرق لفظا، وأخف اسما، وألطف أوزانا، وأحضر عيانا، وأحلى مخرجا

وأجلى منهجا وأعلى مدرجا، وأعدل عدلا، وأوضح فضلا، وأصح وصلا إلى أن تنزل إلى لغة بعد لغة، ثم تنتهى إلى العربية، فإنك تحكم بأن المبدأ الذى أشرنا إليه فى العوائض والأغماض، سرى قليلا قليلا حتى وقف على العربية فى الإفصاح والإيماض. وهذا شئ يجده كل من كان صحيح البنية، بريئا من الآفة، متنزها عن الهوى والعصبية، مجبا للإنصاف فى الخصومة، متحررا للحق فى الحكومة، غير مسترق بالتقليد، ولا مخدوع بالإلف، ولا مسخر بالعادة، وإنى لأعجب كثيرا ممن يرجع إلى فضل واسع، وعلم جامع، وعقل سديد، وأدب كثير، إذا أبى هذا الذى وصفته، وأنكر ما ذكرته، وأعجب أيضا فضل عجب من الجيهانى فى كتابه وهو يسب العرب، ويتناول أعراضها ويحط من أقدارها» (٤٢).

وهنا نجد رؤية أبى حيان التوحيدى للعربية وتميزها. إن اللغات التى وردت فى ذلك النص تمثل المنطقة الممتدة من الهند إلى الفرس واليونان والصقالبة والترك واللغات الأفريقية، وهى لغات تمثل أفرعا لغوية وفصائل لغوية شتى. وتفضيل العربية يقوم فى رأيه على المعرفة بلغات أخرى وموازنتها من حيث خصائص البنية والمفردات. كتب التوحيدى فقال:

«هذا لا يبين لنا إلا بأن نتكلم بجميع اللغات على مهارة وحذق، ثم نضع القسطاس على واحدة واحدة منها حتى نأتى على آخرها وأقصاها ثم نحكى حكما بريئا من الهوى والتقليد والعصبية والمين، وهذا مالا يطمع فيه إلا ذو عاذه؟ ولكن قد سمعنا لغات كثيرة من أهلها، أعنى من أفاضلهم وبلغائهم، فعلى ما ظهر لنا وخيل إلينا لم نجد لغة كالعربية، وذلك لأنها أوسع مناهج، وألطف مخارج، وأعلى مدارج، وحروفها أتم، وأسمائها أعظم، ومعانيها أرغل، ومعارضها أشمل، ولها هذا النحو الذى حصته منها حصّة المنطق من العقل، وهذه

وبعد، فإن البيئة العلمية التي التقت فيها كل هذه التيارات الممثلة لثقافات شتى أتاحت، بما قدمت من معلومات عن اللغة طبيعتها ووظيفتها وعلاقتها بالمجتمع بالفكر وبالحضارة، أن تبدأ مرحلة جديدة في الفكر اللغوي الذي يتجاوز وصف جزئية أو جزئيات في لغة واحدة أو تعليمها إلى الفكر في طبيعة اللغة الإنسانية، وتنوع اللغات وتعدد نظم الكتابة، وعلاقة النحو بالمنطق وتكامل العلوم، وغير هذا وذلك من القضايا اللغوية العامة، وهنا موقع التوحيدى الذى التقت فى كتاباته كل هذه الروافد التى مهدت لنهضة كبيرة فى علوم اللغة، من حيث النظرية ومناهج البحث، فى أواخر القرن الرابع وفى القرن الخامس الهجرى، ولا يمكن تصور حدوث تلك النهضة إلا فى إطار أهمية لقاء الثقافات.

خاصة ما حازتها لغة على ما قرع أذاننا وصحب أذهاننا من كلام أجناس الناس، وعلى ما ترجم لنا أيضا من ذلك، ولولا أن النقص من سوس هذا العالم وتوسه لكان علم المنطق ببيئة الطبيعة بالعربية، وكانت بسوق العربية إلى طبائع اليونانية، فكانت المعانى طباقا للألفاظ، والألفاظ طباقا للمعاني، وحينئذ كان الكمال ينحط إليه عن كسب، والجمال يصادفه بلا رغب ولا رهب» (٤٣).

وهذا رأى يقوم - عند التوحيدى - على خصائص صوتية ومعجمية ودلالية، وبنية لغوية تتيح للعربية درجة عالية من التعبير المنطقى الدقيق.

الهوامش

(١) حول رسالة العلوم، انظر الطبعة الأخيرة المحققة التى نشرها مارك بروجيه:

M. Bergé, *Epître sur les Sciences*, in: *Bulletin d'études Orientales* (Damas) XVIII (1963 - 1964), XII (1968). ملحقة بكتاب الصداقة والصديق، نشرهما أحمد فارس الشدياق فى مجلد عنوانه: رسالتان للعلامة ... التوحيدى، مطبعة الجوائب، استانبول ١٣٠١ / ١٨٨٤ فى الصفحات ٢٠٠ - ٢٠٨، كما طبعت فى الأدب والإنشاء فى الصداقة والصديق، القاهرة ١٣٢٣ / ١٩٠٥.

(٢) انظر: كتاب العين للخليل بن أحمد، تحقيق عبدالله درويش، بغداد ١٩٦٧، مادة ل ذ ع، ص ٢٢٢، والمغرب للجوالقى، تحقيق أحمد شاكر، طبعة دار الكتب بالقاهرة ١٩٦٩، ص ١١٦، وكتاب سيويه بتحقيق عبدالسلام هارون، القاهرة ١٩٧٥، ٤ / ٣٠٣ - ٣٠٦. وحول قضية النظائر الصوتية فى اللغات السامية، انظر: ١٩٢ - ١٨٢، S. 192 - 182، G. Bergsträsser, *Einführung in die semitischen Sprachen*, München², 1963، بحث محمود فهمى حجازى، مجلة مجمع اللغة العربية، بالقاهرة ١٩٩٥.

(٣) انظر: المغرب للجوالقى، ص ٥١ - ٦٠، والمزهر، للسيوطى ١ / ٢٦٨ - ٢٤٩.

(٤) جمع سركين أهم الجهود فى فلسفة اللغة وعلاقة النحو بالنطق فى المجلد التاسع من كتابه - F. Sezgin, *Geschichte des arabischen Schrifttums*, Brill - Leiden 1984. s. 228 - 237 وكتب عن جابر بن حيان فى الصفحات ٢٣٠ - ٢٣٢، اعتمادا على كتبه: كتاب الإخراج، وكتاب المنطق، وكتاب الموسيقى.

(٥) انظر: الفهرست لابن النديم ٢٩٤، وعيون الأنباء لابن أبى أصيبعة ١ / ٢٠٠، وأحكامه للفنقى ١٧٣.

(٦) مخطوط أباصونيا ٤٨٣٢، انظر: G. Celentano, in: *Due scritti medicei di al-Kindī*, in: *AION* 39 (1979) Suppl. 18, Fasc. I, p. 57 - 75.

(٧) انظر التبييه على حدوث التصحيح لحزمة الأصفهاني ص ٣٥ - ٣٦، وما كتبه روزنثال: F. Rosenthal, Ahmad b. al-Tayyib as-Sarhazi, New Haven, Conn 1943. p. 56 واما كنه أشرس G. Endress بعنوان: المناظرة بين المنطق الفلسفى والنحو العربى فى عصور الخلافة، فى: مجلة تاريخ العلوم العربية، حلب (١٩٧٧)، ص ٣٤٧ وما بعدها.

(٨) انظر عيون الأنباء لابن أبى أصيبعة ١٣٦ / ٢.

(٩) عن الفارابى وفكره اللغوى، انظر: إحصاء العلوم تحقيق عثمان أمين، القاهرة، والألفاظ المستعملة فى المنطق، تحقيق محسن مهدى، بيروت ١٩٦٨، وكتاب الحروف بتحقيقه أيضا، بيروت ١٩٧٠، وما كتبه أرنالديز: R. Arnaldez, *Pensée et langage de la philosophie de Fārābī*, in: *Studia Islamica* 45، وما كتبه غايج: H. Gajge, *Die Gliederung der Sprachlichen Zeichen nach al-Fārābī*, in: *Islam*, 47 (1971) s. 1 - 24. 57 - 65 (1977) وما كتبه جانييه.

- (١٠) انظر نص المناظرة في: الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي (محقق أحمد أمين وأحمد الزين، القاهرة ١٩٥٣/٥٢) ١٠٨/١ - ١٢٨، ونقلها ياقوت الحموي في إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ١٠٥ / ٣ - ١٢٣.
- (١١) عن يحيى بن عدى، انظر: مقالة في تبيين الفصل بين صناعتى المنطق الفلسفى والنحو العربى، مخطوط طهران، مجلس، طباطبائي ٣٣٧٦ الورقات ١ - ٧، من القرن الحادى عشر الهجرى، عن:
- G. Endress, The works of Yahuā ibn Adī, Wiesbaden 45-46.
- (١٢) رسائل إخوان الصفا، ٢ / ٤٠٧.
- (١٣) انظر الفهرست لاس النديم، طبعة القاهرة، الصفحات ٢٩ - ٣٠، وكلمة مأخوذة عن اليونانية *etymologia*، مكونة من *etymon* بمعنى أصل أو حقيقة و *Logos* بمعنى كلمة أو دراسة، والكلمة المركبة تعنى معرفة الأصول والقواعد.
- (١٤) انظر مفاتيح العلوم للخوارزمي، ص ٤١ - ٥٣.
- (١٥) انظر: سزكين - في الأصل الألمانى ٢ / ١٨٦.
- المعروف بعنوان: عيون الأخبار.
- (١٦) انظر: الإمتاع والمؤانسة ١ / ٥٨ - ٥٩.
- (١٧) انظر: المقابسات، ٣١٨، ٣١٩.
- (١٨) الإمتاع والمؤانسة، ٢ / ١٣١.
- (١٩) المرجع نفسه، ٢ / ١٣٩.
- (٢٠) المرجع نفسه، ٢ / ١٣٢.
- (٢١) المرجع نفسه، ١ / ١٩.
- (٢٢) المرجع نفسه، ١ / ٩.
- (٢٣) المقابسات، ٣٠٩ - ٣١٠.
- (٢٤) انظر الأثرى، مقالات الإسلاميين، ٢٧٢ - ٢٧٣.
- (٢٥) البصائر والذخائر تحقيق إبراهيم الكيلانى، دمشق (١٩٦٤ - ١٩٦٦) ٢ / ١٥٠.
- (٢٦) المرجع نفسه ٢ / ٧٢.
- (٢٧) المرجع نفسه، ١ / ٢٠٧ - ٢٠٨.
- (٢٨) المرجع نفسه، ١ / ٢١٦.
- (٢٩) المقابسات، رقم ٦، ص ١٤٥.
- (٣٠) المقابسات، رقم ٦، ص ١٤٥.
- (٣١) المقابسات، رقم ١١، ص ١٥٢.
- (٣٢) المقابسات، رقم ٢٢، ص ١٦٩ - ١٧٠.
- (٣٣) المقابسات، رقم ٢٢، ص ١٧٠ - ١٧١.
- (٣٤) المرجع نفسه، رقم ٢٣، ص ١٧١ - ١٧٢.
- (٣٥) المرجع نفسه، رقم ٢٣، ص ١٧١، ١٧٢.
- (٣٦) المرجع نفسه، ص ١٧٣.
- (٣٧) رسالة العلوم، - طبعة الشدياق، استنبول ١٨٨٤، ص ٢٠٣ - ٢٠٥.
- (٣٨) المرجع نفسه، ص ٢٠٤.
- (٣٩) البصائر والذخائر، ١ / ٤٦.
- (٤٠) رسالة العلوم، ص ٢٠٤.
- (٤١) الإمتاع والمؤانسة، ١ / ٧٠.
- (٤٢) الإمتاع والمؤانسة، ١ / ٧٨ - ٧٩.
- (٤٣) المقابسة، رقم ٨٨، ص ٢٩٣.

الرؤية اللغوية عند أبي حيان التوحيدي

نصر الدين صالح سيد*

تمهيد

يعرض هذا البحث للمنهج اللغوي عند أبي حيان من خلال النصوص التي تتعلق بمجالات البحث اللغوي. ويهدف إلى تعرف مفهوم التوحيدي عن اللغة ومجالاتها من خلال دراسة مجموع النصوص التي ينتقياها؛ حيث إنها تعكس اقتناعه بها من ناحية، وإعجابه بها من ناحية أخرى، وهذه النصوص يمكن أن تكون علامات فكرية تقودنا إلى رؤية التوحيدي المنهجية. ومن الملاحظ أن أبا حيان لا يكتفى بإيراد النصوص كما هي عند أصحابها، بل إنه يتدخل بالزيادة أو الحذف وفق رؤيته اللغوية الخاصة، ويعترف في أكثر من موضع من كتبه بأنه يستنفذ الطاقة في تنقية النصوص التي يختارها، ويتوخى الحق فيها، وقد اتبع التوحيدي المنهج نفسه حين نقل نصوصاً لم ينسبها إلى غيره من العلماء^(١).

كما يعرض البحث للنصوص التي تسجل مسائل صرفية ونحوية، أو تلك التي تحمل في طياتها رسائل لغوية تعكس جهد أبي حيان التطبيقي. ومن الملاحظ أن أغلب الدراسات التي تناولت تراث أبي حيان تلعبه بالنحوي واللغوي^(٢)، على الرغم من عدم وجود مؤلف خاص به يجمع بين دفتيه هذا الجانب أو ذاك، دون غيره من معارف. ولم تمن هذه الدراسات ببيان رؤية أبي حيان اللغوية أو منهجية النظرى والتطبيقي، بل اكتفت بعرض بعض المسائل والآراء المتفرقة في كتب التوحيدي، مع ذكر أساتذته وبيان تأثيره ببعضهم، من مثل السيرافي والرماني وغيرهما.

ويتناول البحث مفهوم اللغة عند أبي حيان في ضوء علم اللغة القديم والحديث، ومفهوم المعنى، مع بيان العلاقة بين الألفاظ والمعاني وإبراز وعى أبي حيان ومن نقل عنهم بأهمية السياق بشقيه اللغوي وغير اللغوي.

* كلية الآداب، فرع الخرطوم، جامعة القاهرة.

الحيوان في أن اللغة الإنسانية نظام مركب معقد من الرموز»^(٧).

ويقترح تعريف أبى حيان من تعريف ابن جنى للغة الذى يوضح أن حد اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم^(٨)، وهو تعريف يتضمن العناصر الأساسية للغة.

ويكشف أبو حيان بعد ذلك عن إدراكه الحقائق العلمية التى توضح نشأة الصوت الإنسانى، ومصدره. كما يكشف عن معرفته التفسيرية حيث يعنى أن الصوت إنما يتكون من عمود الهواء المنقطع من الرئتين، ثم اعتراض سيره فى نقطة معينة فى جهاز النطق:

«فالإنسان يقوم بجذب الهواء بالحركة الطبيعية، وحصره فى قصبة الرئة، ودفعه ومصاعته بالحركة الإرادية للهواء الخارج بحروف تجذبها آلة اللهاوت»^(٩).

ويتفق ذلك مع الدراسات العلمية والفسولوجية الحديثة التى تفسر نشأة الأصوات، وشروط تكونها عند الإنسان؛ فالصوت يتكون من هواء الزفير، ولذا لابد من أن يوجد تيار الهواء خارجاً من الرئتين، عبر القصبة الهوائية، لكى يتم النطق، وعندما يمضى تيار الهواء خلال أعضاء النطق تحدث عدة عمليات تؤدى إلى تمييز صوت عن آخر^(١٠).

ويتوقف أبو حيان إزاء المعانى ويربطها بالعلاقة الكامنة عند الجماعة اللغوية التى اصططلحت عليها حتى صارت منطقاً يتحكم فى تحديد المعنى، ويصنع الاتفاق والاتساق إذ يقول:

«وهذه - أى الأصوات - مركبة دالة بحروف اتفاق واتساق مع معانى فكر النفس بالمنطقية»^(١١).

ونشير تلك المقولة إلى وعى التوحيدى بوظيفة التمايز السيمانتيقى للأصوات، وهى خاصية الأصوات المؤثرة فى تغيير المعنى^(١٢). كما نشي هذه المقولة أيضاً بوعيه بأهمية «الفونيم» الذى يشكل أساس اللغة؛ أى الكلمات ومعانيها^(١٣).

وبعرض البحث أيضاً لمفهوم النحو، والعلاقة بين النحو والإعراب، ووظيفة كل منهما وتقسيماتها، كما يعرض للمسائل النحوية التى أوردها أبو حيان، ويميز البحث طبيعة العلاقة بين النحو والمنطق ويعرض لرؤية أبى حيان وتأثره بشيوخه فى هذا المجال.

ويدرس البحث أيضاً المسائل اللغوية التى تعكس رؤية أبى حيان التطبيقية، وتتناول تلك المسائل والمفردات وعلاقاتها من حيث العلاقة الصرفية، أو العلاقات الدلالية، كما يعرض البحث فى هذا المجال للنصوص اللغوية التى تعد رسائل لغوية تبرز جهد أبى حيان المعجمى، ويوضح البحث - أخيراً - منهج أبى حيان فى عرضها، ويصنفها وفق مادتها اللغوية، كما يتناول ما ورد من نصوص تندرج تحت العلاقات السياقية.

٢ - طبيعة اللغة ووظيفتها

يعرف أبو حيان اللغة^(١٤)، من خلال مناقشته لحد الكلام^(١٥)، بأنها المؤلف من «صوت وحرف ومعان»^(١٦)، ونجد أن هذا التعريف يجمع بين عناصر أساسية للغة، وهى الطبيعة الصوتية، والطبيعة الرمزية، والطبيعة الاصطلاحية.

ويعكس هذا التعريف وعى أبى حيان بأن اللغة نظام صوتى فى الأساس، يعتمد على الأصوات المفردة التى يتألف بعضها مع بعض، وفق نسق خاص بها، لتكون رموزاً مفهومة هى الحروف والكلمات. فالأصوات المفردة لا معنى لها، ولكننا نركب من الأصوات المركبة التى تستخدمها جماعة لغوية معينة حروفاً وكلمات اصططلحت تلك الجماعة على دلالتها^(١٧).

ولقد تنبه التوحيدى إلى أن المهم فى طبيعة اللغة. وخصوصيتها ليست الأصوات فى حد ذاتها بل فى دلالتها ومعانيها التى تصطلح عليها هذه الجماعة أو تلك. ومن ثم، فإن ذكر أبى حيان «للمعاني» يبين إدراكه ضرورة الاتفاق على ترجمة هذه الرموز فى العقل إلى دلالات معينة:

«ولذا فاللغة الإنسانية تختلف عن نظم الاتصال الأخرى الموجودة عند الإنسان، والموجودة عند

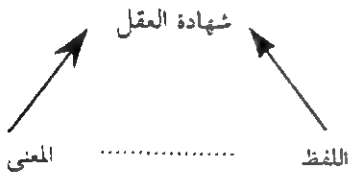
وتتفق تلك الرؤية مع التفكير الذى سيطر على القدماء؛ حيث ربطوا بين الألفاظ ومدلولاتها ربطاً وثيقاً، وجعلوها سبباً طبيعياً للفهم والإدراك، فلا تؤدي الدلالة إلا به، ولا تخطر الصورة فى الذهن إلا حين النطق بلفظ معين، لذا أطلقوا على تلك الصلة بين اللفظ ومدلوله الصلة الطبيعية أو الصلة الذاتية^(٢١).

ويبدو أن علماء العرب قد أخذوا هذا النوع من التفكير عن اليونان^(٢٢). وتكشف المناظرة التى دارت بين أبى سعيد السيرافى وأبى بشر متى بن يونس وجود ترجحات فلسفية ومنطقية عن اللغة اليونانية.

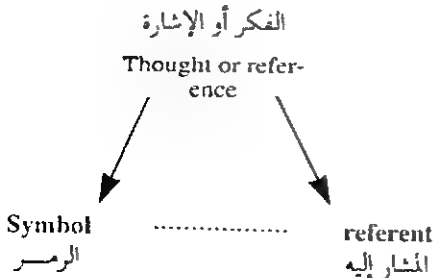
ويوضح التوحيدى أن فهم المعنى يتم عندما يتفق الكلام المسموع مع المعانى المستقرة المفهومة عند مستخدم اللغة، أو كما يقول التوحيدى: اتساق:

«دلالة ما سمع مع ما كان قاراً فى الصدر منسوخاً عند العقل»^(٢٣).

ويكشف ما نقله التوحيدى عن المنطقى والفيلسوف أبى بكر القومسى أن العلاقة بين اللفظ والمعنى ليست علاقة مباشرة؛ حيث إن اللفظ يمثل الحس، والمعنى يمثل جواهر النفس، والائتلاف بينهما يتحقق بشهادة العقل^(٢٤)، لذا يمكن تخيل العلاقة وفق الشكل التالى:



ويتفق ذلك الفهم مع علم اللغة الحديث؛ فالعالمان أوجدن وريتشاردز يريان أن العلاقة بين اللفظ والمعنى علاقة مثلية:



ولا يغفل أبوحيان عن صفة أثارها علماء اللغة فى العصر الحديث، وهى مقدرة:

«لغة البشر على الخلق أو الابتكار. والمقصود بهذه الصفة بإيجاز شديد هو أنه بمقدور الإنسان لا أن يركب من الأصوات المفردة مئات الألوف من المفردات فحسب، بل أن يركب من مفردات اللغة المختلفة عدداً لا يحصى من الجمل وأشباهها... وذلك حسب الموقف والظروف التى تتطلب الكلام»^(٢٥).

ويتضح تنبه التوحيدى لهذه الصفة فيما ذكره عن اتساق معانى فكر النفس المنطقية بقدر الهواجس، والخواطر السانحة، والصواب المؤيد من العقل والأثر الحاصل من القلب^(٢٥).

ويرى أبوحيان - نقلاً عن أستاذه السيرافى - أن وظيفة اللغة هى توصيل الأغراض المعقولة، والتعبير عن المعانى المدركة، ومن ثم يعجز المرء عن الوصول إليها إلا باستخدام اللغة^(٢٦)، واللغة أيضاً وسيلة يتفاوض الناس بها، ويتفاهمون أغراضهم بتصاريقها^(٢٧). فاللغة ما هى إلا «وسائط بين الناطق والسامع»^(٢٨).

مفهوم المعنى

لم يفرد أبوحيان بحثاً مستقلاً يعالج المعنى اللغوى، وجل ما فعله أن تعرض له تعرضاً متنوعاً فى مناقشات وحوارات متناثرة فيما أورده من نصوص ومناظرات، كما حدث فى تلك النقول التى كان يعرج فيها، من أن إلى آخر، على المعنى اللغوى فى معرض مناقشات تدور حول النحو والإعراب، أو مناقشات تتناول قضايا فلسفية تدور حول علة وقع الألفاظ فى السمع والمعانى فى النفس، أو حول إنشاء الكلام الجديد أيسر على الأدباء من ترقيع القديم^(٢٩).

يعرف أبوحيان المعنى - نقلاً عن شيوخه النحويين - بأنه الهاجس فى النفس متصل بالخاطر، واللفظ ترجمة له «وكل ما صحّ معناه صحّ اللفظ به، وما بطل معناه بطل اللفظ به»^(٢٠).

بمعنى أن العلاقة بين اللفظ والمعنى ليست علاقة مباشرة؛ حيث إن الصلة تتم عن طريق الفكر أو التصورات العقلية (٢٥).

وتبرز هذه النقول التي أوردها أبوحيان فبهم أصحابها ضرورة دراسة السياق بشقيه اللغوي وغير اللغوي، ولا يخلو نص يعالج قضايا الصرف والنحو والإعراب من الإشارة إلى وظيفتها في الكشف عن المعنى (٢٦). فهذه الجوانب مع غيرها من الجوانب الصوتية والسياقية تمثل الشق اللغوي من السياق.

أما السياق غير اللغوي - وفق هذه النقول - فقد تمثل في الظواهر شبه اللغوية التالية:

أ - الملابس. وهي تقابل مفهوم الموقف في الدراسات اللغوية الحديثة.

ب - الإنسان بمزاجه الصحيح.

ج - مراعاة عادة أهل اللغة. وهذه تقابل مفهوم السياق الثقافي في الدراسات الحديثة.

د - توخي الزمان والمكان (٢٧).

وهذا التقسيم يتفق مع الدرس اللغوي الحديث الذي يرى ضرورة الانتباه إلى الظواهر شبه اللغوية والسياقات المصاحبة للكلام، من مثل:

- البعد الفيزيقي بين المتكلم والسامع.

- الحالة المزاجية.

- تعبيرات الوجه.

- الإيماءات (٢٨).

- السياق الثقافي وسياق الموقف (٢٩).

وغیرها من ظواهر وسياقات.

٣ - مفهوم النحو

يتناول مفهوم النحو عند التوحيدى - سواء فى المصوص الذى ينسبها إلى نفسه أو ينسبها إلى غيره - كل ما

يتعلق باللغة من جوانبها الصرفية والنحوية؛ فالنحو عنده هو مابقى من الخطأ واللعن، ويحقق السلامة:

«بشروطه فى أسماء العرب وأفعالها وحروفها وموضوعاتها ومستعملاتها ومهملاتها» (٣٠).

والنحو عنده سجية وسليقة تحقق للمرء سلامة اللغة كما ينطقها العرب، ويتضمن تعريف النحو - لدى أبى حيان - قضية الإعراب، لذا فإن:

«من يتكلم بالإعراب والصحة، ولا يلحن ولا يخطئ، يجرى على السليقة الحميدة والضرية السليمة قليل أو عزيز، وإن الحاجة شديدة لمن عدم هذه النسجة وهذا المنشأ إلى أن يتعلم النحو ويوقف على أحكامه، ويجرى على منهاجه» (٣١).

ويرفض أبوحيان قبول الزعم بأن من يعبر عن نفسه بلفظ ملحون يفهم غيره؛ حيث إن الكلام يتغير المراد فيه باختلاف الإعراب (٣٢).

ويضرب مثلاً بوضع ذلك؛ فيذكر أن رجلاً سأل أعرابياً: كيف أهلك؟ بكسر اللام، فلم يفهم الأعرابى السؤال، فأجابه صلباً حيث ظن:

«أنه سأله عن هلكته كيف تكون، وإنما سأله عن أهله... وهذا وأشباهه بذلك على معرفة العرب بالمعاني التي اختلف بها الإعراب» (٣٣).

ويوضح أبوحيان فى تعريفه للنحو وعلاقته بالإعراب أن النحو: «كالحلية وأن التمييز بين الجسم والجسم إنما يقع بالحلى القائمة، والأعراض الحالة فيه، وأن حاجته إلى حركة الكلمة بأخذه وجوه الإعراب حتى يتميز الخطأ من الصواب» (٣٤).

وتظهر - هنا - رؤية أبى حيان إزاء تنوع التراكيب واختلاف بناء الجمل؛ حيث ترجع هذه الرؤية التنوع والاختلاف إلى النحو. ويقصد التوحيدى بالحلية العلامات المميزة والسماوات الفارقة لكل كلام دون غيره، على الرغم من أنه ينتمى إلى لغة واحدة. ويشي هذا الفهم بإدراك واع

لأن الإعراب ولأن النحو فى تنوع المستويات التركيبية للغة؛ إذ إن علامات الإعراب عنصر جوهري لتمييز عناصر التركيب وبيان ترتيبها، ووظيفتها فى أداء المعنى، ومن ثم تكوين تراكيب صحيحة وفق رؤية المتكلم وقواعد اللغة. ويقدم التوحيدى مفهوماً تقليدياً للإعراب، ويعرفه بأنه «حركة آخر الكلمة» (٣٥).

ويرى أبوحيان أن فائدة النحو وغرضه:

«معرفة المعاني وتجلية ملتبسها، والتوغل فى دقائق معاني الله عز وجل، وكلام المبعوث بالحق إلى الخلق صلى الله عليه وسلم» (٣٦).

فالنحو عنده لا يحقق الصحة والسلامة فى اللغة وحدها، بل يحقق الإيمان فى النفس، والخطأ فيه يوقع فى الكفر، حيث يقول: «وإننا نعلم فرقاً متى لم تقف عليه زلّ إلى الكفر، وذلك فى قوله «إن الله برئ من المشركين ورسوله» فرق يتوسط بين الصواب والخطأ، صوابه إيمان، وخطؤه كفر» (٣٧). وللنحو والإعراب وظيفة أخرى فى مفهومه، وهى الوظيفة الاجتماعية؛ حيث تتيح هذه الوظيفة للمرء توجيه الموقف حسبما يريد، وتساعد على التخلص من المآزق التى يواجهها فى مواقف اجتماعية معينة، كالتحايل على القسم بالتورية، أو رفع الضيم، ودفع الهلاك، ولن يتحقق ذلك:

«إلا بتميز وجوه حركات اللفظ، فبان لك أن الحالف بالتورية يمينه: والله ما رأيت وهو يريد ما ضربت. رثته. والله ما قلبته وهو يريد ما ضربت قلبه. ليدفع عن نفسه ضيماً به بما يفهم من الرثة والقلب الذى هو العكس، إنما يبرأ من الحنث، ويتخلص من الضيم لقيامه بحفظ اللغة» (٣٨).

ومن تلك الأمثلة التى رواها التوحيدى للتدليل على صدق تحقق هذه الوظيفة الاجتماعية، ما رواه عن الأصمعى من أن عبد الملك بن مروان قد أخذ رجلاً كان يرى رأى الخوارج - رأى شبيب - فقال له: أأنت القائل:

ومنا سويد والبطين وقعب

ومنا أمير المؤمنين شبيب

فقال الرجل:

إنما قلت: ومنا أمير - المؤمنين شبيب (بالنصب) أى يا أمير المؤمنين؛ فخلّى سبيله.

ويعلق التوحيدى على ذلك بقوله:

«أما ترى تيقظه ونقله الكلام بالإعراب عن سبيل هلكته إلى سبيل نجاته» (٣٩).

وتتفق نظرة التوحيدى للنحو والإعراب مع نظرة أستاذه السيرافى الذى يرى أن النحو يشمل كل جوانب اللغة الصرفية والنحوية. فالنحو عند السيرافى منقسم:

«بين حركات اللفظ وسكناته، وبين وضع الحروف فى مواضعها المقتضية لها، وبين تأليف الكلام بالتقديم والتأخير، وتوخي الصواب فى ذلك وتجنب الخطأ من ذلك» (٤٠).

ويعرف السيرافى الإعراب بقوله:

«الإعراب حركة تخل بآخر حرف من الاسم» (٤١).

وتابع أبوحيان - فى تقسيمه أبواب النحو - أستاذه وما شاع فى كتب النحاة من قبل، فهو يعرف الاسم، والفعل، والحرف، ويذكر تقسيمات الأفعال والأسماء كما وردت عندهم ومن الأمثلة الدالة على ذلك تعريفه للاسم بأنه ما وقع على معنى غير مقرون بزمان محصل، ويعرف بدخول الجر عليه، ويصلح فيه ضرني ونفعني، ويدخل عليه أيضاً الألف واللام على واحد وتثنيته (٤٢).

ويقسم الفعل على خمسة أقسام، كما سمعها من أرباب النحو؛ فمنها فعل لا يتعدى البتة مثل قام، وفعل يتعدى إلى واحد مثل ضرب زيد عمراً، وفعل يتعدى إلى مفعولين يقع المعنى عن أحدهما مثل كسوت زيداً ثوباً، وحرمت زيداً عطاءه، وفعل يتعدى إلى مفعولين لا يستغنى

عنهما مثل ظننت زيدا قائماً... وفعل يتعدى إلى ثلاثة لا غنى عنهم مثل: أعلم أن الله خلق زيدا بشراً خيراً الناس^(٤٣).

ولم تخرج المسائل النحوية التي أوردها أبو حيان عن هذا الإطار التقليدي، ودارت كلها في حلقة النخاة المعاصرين له والسابقين عليه، ومن تلك المسائل التي سجلها:

- وجوه الرفع^(٤٤).

- وجوه النصب^(٤٥).

- أنواع الفعل^(٤٦).

- نعم ونس^(٤٧).

- علّ وعسى^(٤٨).

- حاشا^(٤٩).

- معاني الحروف^(٥٠).

- زيد أفضل أخوته أو زيد أفضل الأخوة^(٥١).

- مراتب الأفعال^(٥٢).

ويلاحظ من كتابات أبي حيان تمكنه من النحو وقدرته على فهم قضاياها وتحليلها. ولقد أعطى ذلك كله قوة معنوية للتوحيدي جعلته يشعر بجدارته وتفوقه على الوزراء والأمراء، كما ساعده ذلك أيضاً على التصدي لخصومه وإبراز مثالبهم، ومنها قلة درايتهم بالنحو والإعراب، ومن هؤلاء أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الصابي كاتب الإنشاء ببغداد، وابن العميد، وقد أخذ على الأول قلة معرفته بالنحو، وعاب على الثاني ضعفه في هذا الجانب^(٥٣).

كما أن تلك الدراية الواسعة جعلت البعض يلقبه بالنحوي قديماً وحديثاً^(٥٤).

٤ - النحو والمنطق

وينبع شغف أبي حيان بالمنطق والفلسفة إلى دراسته على أستاذه اشتهروا بهذا اللون من المعارف. ويأتى أستاذه أبو سليمان محمد بن ظاهر بن بهرام المنطقي على رأس هؤلاء الذين أخذ منهم وتأثر بهم؛ حيث كان من المقربين والملازمين^(٥٥). ويؤيد ذلك أن كتاب (المقاييسات) يكاد

يقتصر - في الجانب الأكبر منه - على أحاديث فلسفية، ومناقشات جدلية في موضوعات تجمع بين المنطق وغيره من علوم.

وأناد التوحيدي - في شبابه - من أستاذه آخرين من أمثال جعفر بن محمد نصر الخلدی أحد أعلام التصوف، ووهب بن يعيش الفيلسوف اليهودي^(٥٦)، وثابت بن قرة، ومنهم أيضاً أبو بكر القومسي كبير الطبقة في الفلسفة^(٥٧)، ومنهم أيضاً أبو بكر محمد بن القفال الشاشي إمام عصره فيما وراء النهر، وناشر مذهب الشافعية، وكان يقول بالاعتزال، هذا بالإضافة إلى الرماني الإمام النحوي العروضي المتكلم ذائع الصيت في النحو والكلام والمنطق، وأستاذه أبو سعيد السيرافي.

لقد حرص أبو حيان - أيضاً - على الاختلاف إلى مجالس العلماء، والمشاركة في المناقشات والمناظرات التي تعبر عن اتجاهات مختلفة من فقه وفلسفة ومنطق، ولغة ونحو وغير ذلك من معارف^(٥٨). لذا، لم يكن غريباً أن تكون هذه كلها مكونات علمية شكلت منهجه في البحث، ووجهته إلى إدراك العلاقات بين هذه العلوم وبعضها البعض، ومن ذلك العلاقة بين النحو والمنطق.

ويظهر أثر ذلك في أكثر من موضع في كتابات التوحيدي؛ إذ يذكر - في مدار حديثه عن صعوبة الكلام بالكلام - أن النحو شبيه بالمنطق^(٥٩)، ويورد آراء أستاذه أبي سليمان الذي يرى أن حصة النحو من اللغة كحصة المنطق من العقل^(٦٠)، كما يوجه أبو حيان لأستاذه سؤالاً صريحاً عن العلاقة بين المنطق والنحو، فيقول:

«قلت لأبي سليمان: إني أجد بين المنطق والنحو مناسبة غالبية، ومشابهة قريبة، وعلى ذلك فما الفرق بينهما؟ وهل يتعاونان بالمناسبة؟ وهل يتفاوتان بالقرب به؟»^(٦١).

كما حرص التوحيدي على تسجيل المناظرة التي دارت بين السيرافي وأبي بشر متى بن يونس، بل وحفظها عن ظهر قلب^(٦٢).

ويرى أبو حيان أن المنطق يؤدي إلى النحو، كما أن النحو يؤدي إلى المنطق، ويقرر صراحة:

«أن البحث عن المنطق قد يرمى بك إلى جانب النحو، والبحث عن النحو يرمى بك إلى جانب المنطق، ولولا أن الكمال غير مستطاع لكان يجب أن يكون المنطقي نحويًا، والنحوي منطقيًا، خاصة والنحو واللغة عربية، والمنطق مترجم بها ومفهوم عنها»^(٦٢).

ويكشف النص عن تعلق أبي حيان بالمنطق واقتناعه بالعلاقة الفاعلة التي تربط بين العلمين، كما يثبت النص رؤية أبي حيان التكاملية، إذ يشير إلى ما يبنى أن يكون عليه النحوي والمنطقي، فكل منهما بحاجة إلى علم الآخر، كما يعرج إلى بيان خصوصية الرابطة بين النحو والمنطق وهي اللغة العربية.

أما النحو عند أبي سليمان فهو منطق عربي ويعني به: «أنه نظر في كلام العرب يعود بتحصيل ما تألفه وتمتاده، أو تفرقه وتعلل منه، أو تفرقه وتخله، أو تأباه وتذهب عنه، وتستغنى بغيره»^(٦٤).

ويتفق مفهوم أبي سليمان هذا ومفهوم أبي حيان؛ فكلاهما يرى النحو يجمع كل ما يتعلق باللغة من جوانبها المختلفة؛ الصوتية والصرفية والنحوية، كما يتضمن هذا المفهوم وظيفة النحو الذي يتحكم في بناء الكلام وترتيبه وسلامته من الخطأ، ويبعد عنه النفور، ويحقق التألف، ويتقيه من الشاذ والغريب.

ونستطيع أن نلمح أوجه اتفاق تجمع بين المنطق والنحو، اقتنع بها أبو حيان، فقلها عن أستاذه أبي سليمان وسجلها في مقابساته. وتمثل هذه الأوجه في أن كلا من النحو والمنطق آلة أو أداة تحقق السلامة^(٦٥) والصحة، وتمييز الصواب والخطأ، كل منهما في مجاله، كما أن وظيفة كل منهما الترتيب، فالنحو يرتب اللفظ، والمنطق يرتب المعنى.

ومن وظائفهما أيضا تحقيق المعنى، الأول باللفظ والثاني بالعقل^(٦٦).

كما أن كلا منهما يحتاج إلى الآخر، وبذلك يتكاملان؛ فالنحوي بحاجة إلى المنطق لأن التقصير في تحرير المعاني ضار ونقص وانحطاط، كما أن المنطقي بحاجة إلى النحو لأن نقصان تحبير اللفظ ضار ونقص وانحطاط^(٦٧).

أما أوجه الاختلاف بين النحو والمنطق فتتجلى في أن الأول يختص بالنظر في الألفاظ دون الإخلال بالمعاني، ويعني الثاني بالمعنى^(٦٨). ويعتمد النحو على العرف ودليله طباعي، يتبع ما في طباع العرب وقد يعتريه اختلاف، كما أن النحو شكل سمعي، وأشد التحامًا بالطبع. فشهادة النحو طباعية، والحاجة إلى النحو أكثر من الحاجة إلى المنطق؛ فالنحو أول مباحث الإنسان والمنطق آخر مطالبه. ويعتمد المنطق على العقل، ودليله عقلي، وهو يتبع ما في غرائز النفس، كما أنه شكل عقلي، ووزن لعيار العقل، وهو يفهم بعض الأغراض، وإن عرى لفظه من النحو، ولا يفهم شيء منها إذا عرى من العقل^(٦٩).

وإذا كان حوار أبي حيان مع أبي سليمان المنطقي يعكس رؤية توفيقية بين النحو والمنطق، فإن أبا حيان يخالف تلك الرؤية إلى حد ما في نقوله التي اختارها من المناظرة التي دارت بين أستاذه اللغوي النحوي أبي سعيد السيرافي وأبي بشر متى بن يونس، وهي مخالفة تتفق مع طبيعة الموقف وطبيعة المجلس الذي دارت فيه المناظرة. فالموقف موقف منافسة وشحن للعقل والأدلة والبراهين الممكنة لتحقيق الهدف، وإسكات الخصم، وإثبات عدم قدرته على مجاراته، وإقناع الجلوس بصواب ما يعرض من قضايا. أما المجلس، فهو مجلس الوزير ابن الفرات، وفيه مجموعة من العلماء وكبار القوم وبعض الرسل. وقد طلب الوزير من العلماء الحضور من يرد على أبي بشر متى، بل إنه تجاوز طلب الرد إلى إعلان رغبته صراحة في دحض ما يقوله أبو بشر وكسره ما يذهب إليه^(٧٠)، وارتقى الوزير برغبته إلى طلب الانتصار؛ حيث يوجه حديثه إلى السيرافي قائلاً:

«عليك الانتصار لنفسك، والانتصار في نفسك راجع إلى الجماعة بفضلك»^(٧١).

٥ - المفردات وعلاقاتها

يتناول هذا الجزء بالدراسة النصوص التي تحمل فى طياتها مسائل ورسائل لغوية تتناول الكلمة المفردة، من حيث الصرف والدلالة والعلاقات السياقية، وتعد هذه النصوص بمثابة تطبيقات تعكس رؤية التوحيدى، وقد قسم هذا الجزء إلى:

١ - العلاقات الصرفية.

ب - العلاقات الدالية والمعجم.

ج - العلاقات السياقية.

أ - العلاقات الصرفية

لا يخوض أبو حيان بنقله فى كل المسائل الصرفية؛ حيث يختار مسائل تتناول قضايا صرفية معينة، وهو لا يعرض القضية الصرفية كلها، بل يتتقى جانباً معيناً، وهو فى اختياره وانتقائه يتبع بوعى رؤية خاصة ترى أن الجدير بالعرض يتمثل فى النادر، أو ما كان فيه خلاف لا يعرفه إلا المدقق فى مسائل هذا العلم والعارف بشأذه وغريبه.

والباحث فى مؤلفات أبى حيان يدرك ذلك بوضوح؛ إذ تقاضيه عبارات تعكس هذا الحرص على النادر والغريب، من ذلك تلك العبارة التى يعقب بها على مسألة صرفية: «وهذه أحرف يسيرة جاءت نادرة»^(٨١).

ومن تلك المسائل التى عرضها أبو حيان مسألة «مصادر الأفعال التى على وزن أفعل»، فهو يختار من هذه المسألة الأفعال ذات المصادر الشائية؛ أى ما جاز أن يكون لها مصدران. وهذه الأفعال هى: أغار، أجاب، أعار، أطاف، أطاع. وهو يورد مصادرها مقرونة بمن أخذ المسألة عنه فيقول:

«قال يعقوب... أغرت على العدو إغارة وغارة، ومثلها أجتة: إجابة وجابة، وأعرتة إعارة وعارة، وأطفسته إطافة وطافة، وأطعته إطاعة وطاعة»^(٨٢).

ورؤية التوحيدى - وفق اختياره واختصاره - لها بعدان: الأول يؤكد أن النحو منطق والمنطق نحو؛ حيث ينقل عن أستاذه أبى سعيد السيرافى قوله: «النحو منطق ولكنه مسلوخ من العربية، والمنطق نحو ولكنه مفهوم باللغة»^(٧٢). وتنفى تلك المقولة ما يبدو من خلاف بينهما؛ فكلاهما يستمد مادته من اللغة، ويفهم باللغة وبها يدون، وهى العنصر المشترك بينهما.

كما أن كلاً من النحو والمنطق يعتمد على شهادة العقل، فلو أن إنساناً تكلم بلغة سليمة، ولكن كل جملة ناقضت غيرها من الجمل:

«لكان فى جميع هذا محرقاً، ومناقضاً وواضحاً للكلام فى غير حقه، ومستعملاً للفظ على غير شهادة من عقله وعقل غيره»^(٧٣).

ومن الأمثلة الدالة على ذلك ما ذكره السيرافى نفسه:

«ألا ترى أن رجلاً لو قال: نطق زيد بالحق ولكن ما تكلم بالحق، وتكلم بالفحش ولكن ما قال بالفحش... إلخ»^(٧٤).

أما البعد الثانى، فيتنصر للنحو والإعراب، ويرى أنهما جذبران وحدهما بمعرفة صحيح الكلام من سقيمه، وأن العقل يميز فاسد المعنى من صالحه^(٧٥)، وأن المنطق بحاجة إلى النحو والإعراب وتقسيماتهما^(٧٦).

كما يرفض رأى المنطقة القائل بأن المعانى:

«لا تعرف ولا تستوضح إلا بطريقهم ونظرهم وتكلفهم»^(٧٧).

وينمى على هؤلاء المنطقة ضعفهم ونقصهم اللغوى^(٧٨).

ويرفض أيضاً ادعاءهم بأن النحوى ينظر فى اللفظ دون المعنى، والمنطقى ينظر فى المعنى دون اللفظ لأنهم هم أنفسهم يعبرون عن أفكارهم باللفظ^(٧٩)، فالسيرافى يبين أن الأغراض المعقولة والمعانى المدركة لا يوصل إليها إلا باللغة الجامعة للأسماء والأفعال والحروف^(٨٠)، واختفت الحاجة إلى المنطق، وانمحت وظيفته.

ويكشف النص أيضاً إعجاب التوحيدى بأستاذه وبمنهجه في معالجة المسائل الصرفية وغيرها من المسائل، وذلك يبدو من حرصه على تسجيل خطوات أستاذه بدقة للوصول إلى الإجابة المطلوبة.

ب - العلاقات الدلالية والمعجم

تحتوي كتابات التوحيدى نصوصاً لغوية كثيرة تتعلق باللفظة المفردة من حيث العلاقات الدلالية والمعجم. وعلى الرغم من أن هذه الكثرة قد لفتت أنظار الباحثين القدماء والمحدثين لجهود التوحيدى اللغوية، مما دفعهم إلى تلقيبه باللغوي فإنهم لم يدرسوا منهجه في عرض هذه النصوص، ولم يصنفوها وفق مجالاتها اللغوية.

ويلاحظ على تلك النصوص أنها تتنوع من حيث الكثرة؛ فمنها ما يتناول عرض معاني كلمة واحدة أو كلمتين، ومنها ما يحوي مادة لغوية تشغل صفحة أو صفحات عدة، وهي تعد بمثابة رسائل لغوية، تكشف عن التمكن والأداء اللغويين اللذين يتمتع بهما التوحيدى، كما تبرز قوة حافظته.

لذا، اقتضت الضرورة تقسيم هذا الجزء على قسمين: الأول يتناول الأسماء المفردة، وفيه نعرض لمنهجه، ثم تصنيفها وفق العلاقات الدلالية. والثاني: يتناول الرسائل اللغوية - النصوص التي تحمل مواد لغوية كثيرة - ونعرض فيه أيضاً لمنهجه فيها، ولتصنيفها، ونبرز أهم سماتها.

أولاً: الكلمات المفردة

يورد أبو حيان الكلمات ومعانيها، وفق رؤية لغوية متعددة الجوانب، تتضح فيما يلي:

- ١ - إيراد الكلمة مع اختيار المعنى الغريب أو غير الشائع الذي لا يتنبه له، وذلك من مثل:
 - فاد يقيد فيداً وفيوداً إذا مات (٨٦).
 - الغطاط: أول الصبح (٨٧).
 - الهبول: الثكول (٨٨).

ويعرض التوحيدى لمسألة صرفية دقيقة ينفلها عن السيراني تجمع بين قضيتين؛ الأولى ما ينصرف وما لا ينصرف من الأسماء، والثانية التصغير؛ حيث تتناول المسألة الأسماء المصروفة التي إذا صغرت تمتع من الصرف، والأسماء غير المصروفة التي إذا صغرت صرفت، ومالا ينصرف من الأسماء في مصغره ومكبره (٨٣).

ويورد أبو حيان نص إجابة للسيراني عن سؤال وجهه - هو - إليه يدور حول كلمة «الطبيعة» هل هي اسم مشتق أم اسم جامد، وإذا كانت اسماً مشتقاً فهل هي «فعلية» بمعنى فاعلة أو بمعنى «مفعولة» (٨٤). وتحمل هذه المسألة في جانب من جوانبها أهمية مراعاة العلاقة بين الصيغة الصرفية والمعنى، كما تظهر فيها رؤية السيراني اللغوية العميقة لأهمية التفاعل بين الصيغة والمعنى؛ حيث إن الصيغ ليست قوالب جامدة، فالصيغة الصرفية الواحدة تصاحبها معان متعددة تستمد من القرائن اللغوية من ناحية، وما تصطلح عليه الجماعة اللغوية من ناحية أخرى، كما تعكس المسألة أيضاً شغف التوحيدى بمثل هذه المسائل وحرصه على تسجيلها في كتبه.

ويقرر السيراني - في إجابته - أن كلمة «الطبيعة»:

«إنما هي من قبيل الأسماء المحضة، لا من قبيل الأسماء المشوبة، فلا يقال لذلك إنه فعل بمعنى فاعل، كقدير بمعنى قادر. ولا يقال إنه فعل بمعنى مفعول كذبيح بمعنى مذبح. ولكن يقال هو فعل في أصله كجبير وأثير، ومع هذا فمعنى الفعل به أقرب من معنى الفعل منه... إلخ» (٨٥).

ويبرز هذا النص منهج السيراني في معالجة الصيغ، فهو لم يكتف بالنظر في الوزن والصيغة وحدهما، بل قابلهما بغيرهما من أوزان وصيغ ثم ربطهما بدلالاتهما المتعددة. وهو لا يتوقف عند هذا الحد في القياس، بل يبحث فيما تستخدمه الجماعة اللغوية وتصطلح عليه من صيغ ومعان، ثم يقر بعد ذلك الإجابة التي تجمع بين القياس واستخدام الجماعة اللغوية لها. وهو نهج بز السيراني به قراءه.

العلاقات الدلالية

وتتنظم هذه الكلمات في علاقات دلالية عدة، وقد كان أبويحيان على وعى بها؛ حيث أدرك بحسه اللغوى أهمية النظر في تنوع العلاقات الدلالية بين المفردات في إطار اللغة الواحدة. ومن هذه العلاقات: تعدد المعنى - المشترك اللفظي - الأضداد.

تعدد المعنى

تعنى هذه العلاقة دلالة اللفظ الواحد على معنيين أو أكثر^(٩٨).

ومن الأمثلة على ذلك:

- عتيق:

العتيق يقال على وجهين فأحدهما يشار به إلى الكرم والحسن والعظمة، وهذا موجود في قول العرب «البيت العتيق»، والآخر يشار به إلى قدم من الزمان المجهول. فأما قولهم (عبد عتيق) فهو داخل في المعنى الأول، لأنه أكرم بالعتق، وارتفع عن العبودية فهو كريم، وكذلك (وجه عتيق) لأنه أعشقتة الطبيعة من الدمامة والقبح، وكذلك (فرس عتيق)^(٩٩).

- العشر:

ضرب من الشجر والإبل تبقى تسعة أيام لا تسقى، ثم ترد اليوم العاشر^(١٠٠).

- خلق:

أما قولهم (هذا شئ خلق) فهو مضمن معنيين أحدهما يشار به إلى أن مادته بالية. والآخر أن نهاية زمانه قريبة^(١٠١).

وتبين هذه النصوص أن أبياحيان ومن نقل عنهم كانوا على وعى بأن تعدد السياقات أو المواقف من جانب والاستعمال المجازي من جانب آخر، يعدان من الطرق المهمة لتعدد المعنى.

٢ - إيراد الكلمات المتفقة الحروف المختلفة الحركات المأخوذة من جذر واحد مع بيان ما بينها من فروق في المعنى من مثل:

مَـتَر - سَـتَر^(٨٩).

الحِصان - الحِصان^(٩٠).

٣ - إيراد الكلمات الغريبة مع بيان معانيها، من مثل:

- الخطيطة: أرض لم يصبها مطر بين أرض مطرت^(٩١).

- الشاكد: المعطى من غير مكافأة^(٩٢).

- الأَحْظَبَاءُ: الغضب^(٩٣).

٤ - إيراد الكلمة الواحدة مع ذكر تنوع صيغها الصرفية ومعانيها من مثل:

- خلا: يقال في اللغة خلا المهد إذا انقضى، وخلا بغيره يخله إذا علقه الخلى وهو الرطب.

.... وقد أخليت الأرض إذا أبحت خلاها... وخليته: أرسلته... وفلان خال مال، وخايل مال إذا كان حسن القيام عليه^(٩٤).

- مصمع: يقال جاء بشريدة مصمعة إذا دققها وأحد رأسها، ومنه سميت الصومعة، وحرب صمعاء أى شديدة^(٩٥).

٥ - تصويب لفظ شاع استخدامه الخطأ من مثل: العنة (العنين بين التعنين، واجتنب قول الفقهاء بين العنة فإنه كلام مردول)^(٩٦).

ويعد هذا النوع الأخير امتداداً لما عرف في النصف الثاني من القرن الثاني، من الاهتمام بتأليف الكتب اللغوية الهادفة إلى تعليم الفصحى، والابتعاد عن التأثيرات العامية في الاستخدام اللغوى^(٩٧).

المشترك اللفظي

ويطلق هذا المصطلح على الكلمتين اللتين تتفقان في الناحية الصوتية وتختلفان في المعنى؛ إذ لا يوجد رابطة بين المعنيين من ناحية، ويعد لهما مدخلان في المعجم^(١٠٢).

ومن الأمثلة التي أوردها التوحيدى للدلالة على ذلك:
- أم:

يقال أم الرجل يؤرم أوأما من العطش، وأم الرجل يثيم إذا بقي بغير حليلة^(١٠٣).

- سور:

طعام الوليمة، وهى فارسية وبمعنى خندق^(١٠٤).

الأضداد

وبمعنى هذا المصطلح أن تدل الكلمة على المعنى وضده، ومن الأمثلة التي وردت فى كتابات التوحيدى:

عروب: المتحبة إلى زوجها - وهى الفاسدة:

«على ما حدثنا به أبو سعيد وابن السراج أنه من الأضداد. وهى المتحبة إلى زوجها وهى الفاسدة، مأخوذ من قولهم عربت معدته: إذا فسدت»^(١٠٥).

منخاب:

يمدح به ويذم، فإذا كان مدحاً فهو مأخوذ من النخب، وهو الاختيار. وإذا كان ذمّاً فهو مأخوذ من النخبة وهى الأست^(١٠٦).

منجاب:

إذا كان مدحاً فهو مأخوذ من الانتخاب وهو الاختيار. وإذا كان ذمّاً فهو مأخوذ من النخب وهو قشر الشجر^(١٠٧).

ثانياً: الرسائل اللغوية

يعنى هذا القسم بدراسة نصوص تعد رسائل لغوية، تدخل فى إطار الجهد المعجمى^(١٠٨)، وتخضع هذه الرسائل

لرؤية أبى حيان ومنهجه الذى يقوم على الانتقاء والاختيار من المادة اللغوية المتاحة من ناحية، وعلى اختيار المعيار الذى يقوم بتصنيف هذه المادة من ناحية أخرى.

ويعد أبوحيان التوحيدى إحدى حلقات الجمع المعجمى التى شاعت فى القرن الرابع الهجرى؛ إذ عرف هذا القرن عدداً كبيراً من اللغويين الذين أخرجوا لنا معاجم لغوية تمثل اتجاهات مختلفة فى التأليف المعجمى.

- وتمثل كتب (البارع) للقالى [ت ٣٥٦ هـ]، و (تهذيب اللغة) للأزهري [ت ٣٧٠ هـ] و (المحيط) للصاحب ابن عباد [ت ٣٨٥ هـ] معاجم الترتيب الصوتى.

- بينما يعد المؤلفان التاليان من معاجم الترتيب الهجائى وهما: (ديوان الأدب) للفارابى [ت ٣٥٠ هـ]، (الصاحح) للجوهري [ت ٣٩٣ هـ].

- أما المعاجم الموضوعية فيمثلها كتابا (جواهر الألفاظ) لقدامة بن جعفر [ت ٣٣٧ هـ]، و (تخير الألفاظ) لأحمد ابن فارس [ت ٣٩٣ هـ].

- أما من ألفوا فى الأبنية الصرفية فهم:

الزجاج [ت ٣١١ هـ]، الأنبارى [ت ٣٢٨ هـ]، التستري [ت ٣٦٠ هـ]، ابن القوطية [ت ٣٦٧ هـ]، ابن جنى [ت ٣٩٢ هـ]، ابن فارس [ت ٣٩٥ هـ]^(١٠٩).

وقد اختار أبوحيان نصوصاً تدرج تحت نوعين من الرسائل المعجمية:

- رسائل الأبنية الصرفية:

وهى تتناول الألفاظ فى إطار الوزن الصرفى، ومن هذه الرسائل ما هو خاص بالمشئى، وبالتذكير والتأنيث. وقد بلغ عددها سبع رسائل.

- الرسائل الموضوعية:

وهى تعنى بعرض الألفاظ وفق موضوعاتها، وقد بلغ عددها سبع رسائل.

رسائل الأبنية الصرفية:

توزعت هذه الرسائل على ثلاث مجموعات، الأولى خاصة بالوزن الصرفي، وتمثلها الرسائل التالية:

- ١ - ما ورد على وزن فَعِيل^(١١٠).
- ٢ - ما ورد على وزن فَعَل^(١١١).
- ٣ - ما ورد على وزن فَعَلَ^(١١٢).
- ٤ - ما ورد على وزن فَعَلْ^(١١٣).
- ٥ - ما ورد على وزن تَفَعَال^(١١٤).
- ٦ - ما ورد على وزن فَعَالِل^(١١٥).
- ٧ - ما ورد على وزن فَعَالِل^(١١٦).

المجموعة الثانية: رسائل خاصة بالمذكر والمؤنث: وقد ورد فيها رسالة واحدة تدور حول ما يجوز فيه التذكير والتأنيث^(١١٧).

المجموعة الثالثة: رسائل خاصة بالثنى: وتمثلها رسالة واحدة تتعلق بالألفاظ الدالة على المثنيات^(١١٨).

الرسائل الموضوعية

وتتوزع هذه الرسائل على أربعة موضوعات:

الأول: يتعلق بالحيوان ويضم ثلاث رسائل في:

- ١ - الألفاظ الدالة على شيات الخيل وألوانها^(١١٩).
- ٢ - الألفاظ الدالة على ألوان الذئب والضبع^(١٢٠).
- ٣ - الألفاظ الدالة على أعداد الإبل^(١٢١).

- أما الموضوع الثاني، فيتعلق بالإنسان، وقد وردت فيه رسالة واحدة في الألفاظ الدالة على مراحل عمر الإنسان، وألوانه، وصفاته، وأعضاء جسمه^(١٢٢).

- ويمثل الموضوع الثالث رسالة في الألفاظ الدالة على أقسام الجيش^(١٢٣).

- والموضوع الرابع تمثله رسالة في الألفاظ الدالة على الجهات الأربع^(١٢٤).

وتعكس هذه الرسائل وعى التوحيدى الذى يعد مرآة للجهود اللغوية فى عصره، ووعى من نقل عنهم بفكرة المجال الدلالى. كما تبرز فهمهم تراث القدماء السابقين عليهم؛ حيث بدأ هذا الجهد منذ القرن الثانى الهجرى، فالأصمعى قد ألف فى خلق الخيل، والإبل، والنبات^(١٢٥)، كما أن أبا عبيدة معمر بن المثنى، وابن الكلبي، وابن الأعرابي، والأنباري، والزجاج كانوا جميعهم من أوائل مؤلفي الخيل^(١٢٦).

ج - العلاقات السياقية

يورد أبوحيان بعض الكلمات التى يتتابع بعضها إثر الأخرى، وهى فى تألفها وتتابعها تنشئ علاقات سياقية، ويلاحظ أن التركيب بهذا الاعتبار يتألف دائماً من عنصرين أو أكثر، وتنشئ تلك التراكيب بفهم أبى حيان - وهو يبحث عن المعنى - ومن نقل عنهم أن تفاعل الكلمات بعضها مع بعض، وتتابعها وفق علاقات سياقية معينة يعطيها المعنى، ويكسبها الخصوصية، ويزيل الغموض والإبهام.

وما لاشك فيه أنهم قد أدركوا أيضاً أن النظر إلى الكلمات المفردة دون النظر إلى سياقاتها يفقدها المعنى الخاص الذى تتمتع به فى إطار تراكيب سياقية معينة، حرص التوحيدى على تلخيصها وتسجيلها.

ويلاحظ أن العلاقات السياقية فيما ورد من نصوص التوحيدى قد توزعت فى الأنماط التالية: التضام، وارتباط كلمتين أو أكثر فى علاقات سياقية، والتراكيب الثابتة.

- التضام

تحددت دلالة المصطلح فى الإشارة إلى اقتران مواد معجمية مفردة بغيرها، ويستخدم من جانب بعض اللغويين للإشارة إلى الظهور المشترك لتلك المواد المعجمية.

فالتضام نوع من العلاقات المعجمية التركيبية؛ حيث ترتبط أكثر من كلمة فى علاقة تركيبية معناها مفهوم من الكلمات التى تكونها^(١٢٧).

ارتباط كلمتين أو أكثر فى علاقات سياقية

يعد هذا النوع من التراكيب من أنواع التضام أو التلازم، وهو يعنى أن يستلزم أحد العنصرين الآخر^(١٣١). ومن أهم الأنماط التى وردت فى كتاب التوحيدى علاقة الفعل بالمفعول من مثل:

أنشَبَ + أظفاره^(١٣٢).

شَمَّتْ + العاطس^(١٣٣).

وعلاقة الفعل بحرف الجر من مثل:

تعريج + على

تعويج + على^(١٣٤).

التراكيب الثابتة:

يشير هذا المصطلح إلى مجموعة من الكلمات التى لها محتوى خاص، أو التعبيرات التى تتضمن نوعاً خاصاً من التضام، ويتميز هذا النوع من التعبيرات بعدم القدرة على تحديد معناها وفق أى من مكوناتها، فمعناها يفهم من مجموع مكوناتها^(١٣٥).

ومن الأمثلة التى وردت عند أبي حيان ما يلى:

- حبس حبس: يقال تركتهم فى حبس حبس،

ذا تركتهم فى ضيق^(١٣٦).

- شَكِسَ تَكِسَ: يقال إنه تشكس تكس

للدلالة على أنه عسر^(١٣٧).

- سَمَلَعَ هَمَلَعُ: يقال للخب الخبيث

إنه لَسَمَلَعُ هَمَلَعُ^(١٣٨).

ومن الملاحظ أن أباحيان يختار الغريب، ولكنها تراكيب تتميز بالتناسق الصوتى الذى يحرص عليه التوحيدى حرصاً بالغاً، مما أكسب تلك المواد سلاسة بالرغم من غرابتها، وقد زاد ذلك التناسق مراعاة الوزن الصرفى، فزادت التراكيب رونقاً لا يحس القارئ معها بجفوة أو جفاء.

ومن الملاحظ أن أباحيان - كعمده فى كل نصوصه - يختار تراكيبه اختياريًا، فمنها ما كان غريباً ولكنه يتميز بالتجانس الصوتى والوزن من مثل:

عَكْ أَكْ، فيقال يوم عك أَكْ: إذا كان شديد الحرارة، وليلة عَكْ.

ومنها ما كان معروفاً، يأتي به لتصويب فهمه من مثل: «إنه لكثير فضيض الكلام». يقول أبو حيان:

«قلت لأبى سعيد السيرافى شيخ الدنيا قال أبو زيد: يقال إنه لكثير فضيض الكلام. أيراد بهذا مدح المذكور أم الزرابة عليه؟ فقال لى: هو إلى الزرابة أقرب، لأن الفض كسر، ومنه: فضضت ختم الكتاب، ومنه: ضربه فصار فضاضا؛ والصحيح خير من المكسور، وكأنه يراد بهذا أنه يرمى بالكلام مكسراً غير صحيح»^(١٣٨).

فدقة أبى حيان اللغوية دفعته إلى عدم الاطمئنان لما يشاع على الألسن، ويظهر ذلك فى قوله: «قال أبو زيد: يقال». وعلى الرغم من أننا لا نشك فى أن أباحيان كان يمكنه تعرف حقيقة التركيب، فنحن نرى أنه أراد أن يثبت كل دليل ممكن يؤكد صواب رأيه، فتوجه بسؤاله إلى أستاذه السيرافى، ويبدو أن أباحيان أراد أن ينفى - من ناحية أخرى - عن ابن عباد سلامة اللغة ونقاء الأسلوب؛ حيث يذكر التوحيدى بعد ذلك أنه ما سأل السيرافى إلا «لأنه سأل مرة أبا السلم عن ابن عباد، فقال إنه لكثير فضيض الكلام، ثم مرّ بى لأبى زيد»^(١٣٩)، وهو سعيد بن أوس الأنصارى اللغوى.

ومن ذلك أيضاً:

وجع مخيف: يقال وجع مخيف إذا كان الناظر يخافه على صاحبه، أو يخاف منه على نفسه. هكذا قال العلماء، منهم يعقوب والفراء^(١٣٠).

- (١) أبو حيان التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة - تحقيق: أحمد أمين وأحمد الزين - المكتبة المصرية، بيروت د. ت. ج ٢، ص ١.
- المقاييسات، تحقيق وشرح: حسن السندوي - المكتبة التجارية الكبرى القاهرة ١٩٢٩، ص ٣٠٨.
- البصائر والذخائر، تحقيق: إبراهيم الكيلاني، دمشق - د. ت. ص ٣ - ص ٨.
- (٢) الطر: إبراهيم الكيلاني: أبو حيان التوحيدي، دار المعارف بيروت د. ت. ص ٧٥ - / ص ٧٦.
- أبو حيان التوحيدي: الهوامل والشوامل، تحقيق: أحمد أمين والسيد أحمد صفير، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥١ م، مقدمة الكتاب ص (و).
- أحمد محمد الحوفي: أبو حيان التوحيدي، مكتبة نهضة مصر، القاهرة ١٩٥٧ م ص ٣٤ - ص ٣٧.
- السيوطي: بقية الوعاة في طبقات النحاة، القاهرة ١٢٢٦ هـ ترجمة: أبي حيان.
- عبد الرزاق محي الدين: أبو حيان التوحيدي، مطبعة السعادة، مصر ١٩٤٩ م ص ١٢٧ - / ص ١٢٧.
- عبدالواحد حسن النسخ: أبو حيان التوحيدي وجهوده الأدبية والفنية، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب بالأسكندرية ١٩٨٠ م، ص ١٤٨ - ص ٢٦٦.
- محمد عبدالغني الشيخ: أبو حيان التوحيدي: وإبه في الإعجاز وأثره في الأدب والنقد، الدار العربية للكتاب، بيروت ١٩٨٣ م، ص ٣٣٦ - ص ٣٥٥.
- Marc Bergé: Pour un Humanisme Vécu Abu Hayyan Al - Tawhidi. Damas 1979, p. 363-370.
- ياقوت الرومي: معجم الأديباء، ط دار المأمون، القاهرة ١٩٣٦ م ج ١٥، ص ٥.
- (٣) ورد هذا التعريف ضمن المقابلة (٩١)، وهو يعكس خلاصة فكره الذي حصله من غيره من العلماء، ولم يشر في هذه المقابلة عن أخذ منه هذا التعريف، راجع: المقاييسات ص ٣٠٩ - ص ٣١٠.
- (٤) (الكلام) مصطلح يعني به التوحيد هنا (اللغة)، لذا فإن حد الكلام هو نفسه حد اللغة عنده.
- (٥) المقاييسات: ص ٣٠٩.
- (٦) نايف خرما: أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ١٩٧٨ م، ص ١٤٤.
- (٧) محمود فهسي حجازي: مدخل إلى علم اللغة، دار الثقافة للطباعة والنشر ١٩٧٨ م، ص ١٠.
- (٨) ابن جني: الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، الطبعة الثالثة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٦ م ج ١، ص ٣٤.
- (٩) المقاييسات: ص ٣١٠.
- (١٠) انظر: إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٩٠ م، ص ٨ وما بعدها.
- محمود فهسي حجازي: مدخل إلى علم اللغة، ص ٣٧.
- برنيل مالمرج: علم الأصوات، ترجمة: عبدالصبور شاهين، مكتبة الشهاب ١٩٨٦ م، ص ٣٧ وما بعدها.
- برنيل بالريج علم الأصوات، ترجمة: محمد حلمي خليل، المنظمة العربية للتربية، الخرطوم ١٩٨٥ م، ص ٤٥ وما بعدها.
- (١١) المقاييسات، ص ٣١٠.
- (١٢) كندراتوف: الأصوات والإشارات، ترجمة: شوقي جلال، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢ م، ص ١٧٨.
- (١٣) المرجع السابق، ص ١٨٠.
- (١٤) نايف خرما: أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، ص ١٤٩ - ١٥٠.
- (١٥) المقاييسات: ص ٣١٠.
- (١٦) الإمتاع والمؤانسة، ج ١، ص ١١١.
- (١٧) السابق، الصفحة نفسها.
- (١٨) المقاييسات، ص ١٤٥.
- (١٩) المصدر السابق، ص ١٤٤ - ١٤٥ - ١٥٣ - ١٦٩ - ١٧٠ - ١٧١.
- (٢٠) البصائر، ج ١، ص ٢٠٧.
- (٢١) إبراهيم أنيس: دلالة الألفاظ، الأنجلو ط ٥، ١٩٨٤ م ص ٦٢ - ٦٣.
- (٢٢) المرجع السابق، ص ٦٤.
- (٢٣) البصائر والذخائر، ج ٣، ص ٩٢.
- (٢٤) المقاييسات، ص ١٤٥.
- (٢٥) FR Palmer Semantics. Second Edition, Cambridge University press 1983, p. 24.
- انظر أيضاً: ترجمة صبري إبراهيم السيد لهذا الكتاب، ص ٤٦ - ٤٧. بالمر: علم الدلالة، دار قطري بن الفجاعة، الدوحة ١٩٨٦ م.
- (٢٦) انظر على سبيل المثال:

Keith Allan: Linguistic Meaning, Routledge & Kegan paul 1986, VI - p.36

Stephen Ullman: Semantics, Oxford 1972, p.32 - 48

- الإمتاع جـ ١، ص ١٠٦ .
 - البصائر جـ ٢، ص ٢١٤ - ص ٢١٥ .
 - المقابسات، ص ١٧٠ - ص ١٧١ - ص ١٧٢ .
 (٢٧) المقابسات، ص ١٤٥ .
 (٢٨)
 (٢٩)
 (٣٠) الإمتاع، جـ ١، ص ١٠٦ .
 (٣١) السابق جـ ١، ص ١٠٦ .
 (٣٢) نفسه جـ ١، ص ١٠٢ .
 (٣٣) البصائر، جـ ٢، ص ٩٨ .
 (٣٤) المصدر السابق جـ ١، ص ٢١٤ - ٢١٥ .
 (٣٥) نفسه جـ ١، ص ٢١٥ .
 (٣٦) نفسه، جـ ٢، ص ١٥٠ .
 (٣٧) نفسه، جـ ١، ص ٢١٦ .
 (٣٨) نفسه، جـ ١، ص ٢١٥ .
 (٣٩) نفسه، جـ ٢، ص ٩٧ .
 (٤٠) الإمتاع، جـ ١، ص ١٢١ .
 (٤١) البصائر، جـ ١، ص ٢٠٨ .
 (٤٢) السابق، جـ ١، ص ٢٠٧ - ص ٢٠٨ .
 (٤٣) نفسه جـ ١، ص ٢٨٩ .
 (٤٤) نفسه، جـ ١، ص ٢٢١ .
 (٤٥) نفسه، جـ ١، ص ٢٦١ - ٢٦٢ .
 (٤٦) نفسه، جـ ١، ص ٢٨٩ .
 (٤٧) نفسه، جـ ١، ص ٣٤٨ .
 (٤٨) نفسه، جـ ٣، ص ١٧٢ - ١٧٣ .
 (٤٩) نفسه، جـ ٣، ص ٢٤٨ - ص ٢٥١ .
 (٥٠) الإمتاع، جـ ١، ص ١١٧ - ١١٨ .
 (٥١) السابق، جـ ١، ص ١٢٠ - ١٢١ - البصائر، جـ ٣، ص ٢٥٩ .
 (٥٢) المقابسات، ص ١٧٥ - ١٧٦ .
 (٥٣) الإمتاع، جـ ١، ص ٦٧ .
 (٥٤) سبقت الإشارة إلى بعض هذه المراجع، راجع هامش (٢) .
 (٥٥) عبدالواحد حسن: أبوحيان التوحيدي، ص ١١٢ وما بعدها .
 محمد عبدالغنى الشيوخ: أبوحيان التوحيدي، جـ ١، ص ١٨٤ وما بعدها .
 (٥٦) السابق : ص ١٩٢ - ص ١٩٣ .
 (٥٧) المقابسات: من ٢٦٢ -، ص ١٤٤ .
 (٥٨) راجع - عبد الرزاق محيى الدين: أبوحيان التوحيدي، ص ١٢٣ وما بعدها
 محمد عبدالغنى الشيوخ: أبوحيان التوحيدي، ص ١٨٤ وما بعدها
 عبدالواحد حسن الشيوخ: أبوحيان التوحيدي، ص ١٣٩ وما بعدها .
 أحمد محمد الحرفي: أبوحيان التوحيدي، ص ٣٠ - ٣٥ .

Marc Bergé Pour un Humanise Vécu: Abū Hayyan Al-Tawhidi. P.92-99.

(٥٩) الإمتاع، جـ ٢، ص ١٣١ .

(٦٠) المقابسات ص ٢٩٤ .

(٦١) السابق: ١٦٩ .

- (٦٢) الإمتاع، ص ١٠٧ - ص ١١٢ .
 أخلاق الوزيرين ص ٤١٤ - ص ٤١٥ .
 (٦٣) المقابسات، ص ١٧٧ .
 (٦٤) السابق، ص ١٧٠ .
 (٦٥) نفسه، ص ١٧٠ - ص ١٧١ .
 (٦٦) نفسه، ص ١٧٢ .
 (٦٧) نفسه، ص ١٧٠ .
 (٦٨) نفسه، ص ١٧٠ .
 (٦٩) نفسه، ص ١٧١ - ص ١٧٢ .
 (٧٠) الإمتاع، ج ١، ص ١٠٨ .
 (٧١) السابق، ج ١، ص ١٠٩ .
 (٧٢) يذكر أبو حيان أنه اختصرها، ولكن الوزير ابن سعدان يذكر أنه كتب المأطرة على التمام. راجع. الإمتاع ج ١ - ص ١٠٧ - ص ١٠٨ .
 (٧٣) الإمتاع، ج ١، ص ١١٤ - ص ١١٥ .
 (٧٤) السابق، ص ١١٤ .
 (٧٥) نفسه، ص ١٠٩ .
 (٧٦) نفسه، ص ١١٥ .
 (٧٧) نفسه، ص ١٢١ .
 (٧٨) نفسه، ص ١٢١ .
 (٧٩) نفسه، ص ١١٩ - ص ١٢١ .
 (٨٠) نفسه، ص ١٠٩ .
 (٨١) البصائر، ج ٢، ص ٣١٦ .
 (٨٢) السابق، ص ٩٠ .
 (٨٣) نفسه، ص ١٥٩ .
 (٨٤) هذا السؤال وجهه أبو سليمان المنطقي لأبي حيان، وهو عن الطيعة وكيف هي عند أهل النحر واللغة؟ أهي فاعلة أم بمعنى مفعولة. المقابسات، ص ١٧٤ .
 (٨٥) المقابسات، ص ١٧٥ .
 (٨٦) البصائر، ج ١، ص ٢٤ .
 (٨٧) السابق، ص ٢٤ .
 (٨٨) نفسه، ج ٢، ص ٢٤٦ .
 (٨٩) نفسه، ج ١، ص ٢٨٨ .
 (٩٠) نفسه، ص ٢٤ .
 (٩١) نفسه، ج ٢، ص ٢٣٣ .
 (٩٢) نفسه، ص ١٩٢ .
 (٩٣) نفسه، ج ٣، ص ١٩٧ .
 (٩٤) نفسه، ج ١، ص ٣٤٩ .
 (٩٥) نفسه، ج ٢، ص ٢٤٧ .
 (٩٦) السابق ج ١، ص ٢٤ .
 (٩٧) محمود فهمي حجازي: علم اللغة العربية، ص ١١٥ .
 (٩٨) محمود فهمي حجازي: علم الدلالة، ص ١٧٠ .
 ستيفن أولمان: دور الكلمة في اللغة، ترجمة: كمال بشر، ص ١١٥ - ص ١١٦ .
 (٩٩) الإمتاع والمأطرة، ج ١، ص ٢٤ .
 (١٠٠) البصائر، ج ٢، ص ٧٧ .
 (١٠١) الإمتاع، ج ١، ص ٢٤ .

- (١٠٢) إبراهيم أنيس: دلالة الألفاظ، ص ٢١٤.
- محمود فهمي حجازي: علم الدلالة، ص ١٨١.
- نصر الدين صالح: التحليل الدلالي، ط جامعة القاهرة ١٩٩١م، ص ٩٧.
- ستيفن أورمان: دور الكلمة في اللغة، ص ١١٤.
- (١٠٣) الإمتاع، ج ٢، ص ١٩٤.
- (١٠٤) السابق، ج ٣، ص ٨٣.
- (١٠٥) نفسه، ج ٢، ص ١٩٧.
- (١٠٦) نفسه، ص ١٩٧.
- (١٠٧) نفسه، ص ١٩٧.
- (١٠٨) تعد هذه النصوص استكمالاً لما أورده أبرحيان من ألفاظ مفردة.
- (١٠٩) راجع: محمود فهمي حجازي: علم اللغة العربية، ص ٩٧ وما بعدها.
- (١١٠) البصائر، ج ٣، من ص ١٢٨ إلى ص ١٤٥.
- (١١١) السابق، ج ٣، من ص ١٦٤ إلى ص ١٦٧.
- (١١٢) نفسه، من ١٦٨ إلى ص ١٧١.
- (١١٣) نفسه، ج ١، ص ٢٢٢ - ص ٢٢٣.
- (١١٤) الإمتاع، ج ٢، ص ٣١٢.
- (١١٥) البصائر، ج ٣، من ص ٨٥ - إلى ص ٩٢.
- (١١٦) السابق، ج ٢، ص ٣١٦.
- (١١٧) البصائر ج ٢، من ص ١٤٢ إلى ص ١٤٤.
- (١١٨) المصدر السابق، من ص ٢٧٣ إلى ص ٢٧٥.
- (١١٩) نفسه، ج ٢، من ص ٤٤ إلى ص ٤٧.
- (١٢٠) نفسه، ص ٣١٦.
- (١٢١) الإمتاع، ج ٢، ص ١٩٣.
- (١٢٢) البصائر، ج ٢، من ص ٢٠٨ إلى ص ٢١١.
- (١٢٣) البصائر، ج ٢، ص ٨١.
- (١٢٤) السابق، ص ٢٢٢.
- (١٢٥) محمود فهمي حجازي مدخل إلى علم اللغة، ص ٧٦ - ص ٧٧.
- (١٢٦) راجع بحثنا: أسماء الخيل؛ دراسة في البنية اللغوية مجلة جمعية دار العلوم.
- راجع أيضاً: حسين نصار: المعجم العربي، ج ١، ص ١٢٥، ص ١٢٦.
- (١٢٧) تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها، ص ٢١، ص ٢١٦، ص ٢٣٩، ص ٣٣١.
- David Crystal: First Dictionary of linguistic and phonetics p. 68 - 69.
- (١٢٨) أخلاق الوزيرين، ص ٢٤٨.
- (١٢٩) السابق الصفحة نفسها.
- (١٣٠) البصائر، ج ٣، ص ٨٥.
- (١٣١) محمود فهمي حجازي: المعجمات الحديثة، ص ٦٧. تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها، ص ٢١٧.
- (١٣٢) البصائر، ج ٢، ص ٢٤٦.
- (١٣٣) السابق، ج ١، ص ٢٣.
- (١٣٤) نفسه، ج ٢، ص ٩.
- (١٣٥)
- (١٣٦) البصائر ج ٢، ص ٩٠، ص ٩١.
- (١٣٧) السابق، ص ٧٤.
- (١٣٨) نفسه، ص ٧٥.
- Hartmann and Stork Dictionary of language and linguistics. p106.

النصوص المنسوبة إلى السيرافى فى كتابات التوحيدى انماطها وقضاياها

هاشم محمد سويفى محمد*

كان أبوحيان التوحيدى دائرة معارف جيله وكتاب عصره، فقد جمع ما اختلفت عليه تلك الحركة العلمية الواسعة فى القرن الرابع الهجرى، وترجم له ياقوت الحموى، فقال :

«كان متفننا فى جميع العلوم، من النحو واللغة، والشعر، والأدب، والفقه، والكلام على رأى المعتزلة... فهو شيخ الصوفية، وفيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة، ومحقق الكلام، ومتكلم المحققين، وإمام البلغاء... وهو كثير التحصيل للعلوم فى كل فن حفظه واسع الدراية والرواية»^(١).

كما قال عنه «السبكي» :
«كان إماماً فى النحو واللغة، والتصوف، فقيها مؤرخاً»^(٢).

وفى إطار هذه الثقافة الموسوعية، كان للنحو واللغة مساحة كبيرة من هذه الثقافة، فقد تتلمذ على أيدى كثيرين من علماء اللغة والنحو، وإذا ذكرنا السيرافى^(٣) كفانا عناء ذكر آخرين. فقد كان هذا الأستاذ إمام وقته وحجة عصره، علما بنحو البصريين ونظماً لمذهب العرب، شرح (الكتاب) لسبويه فى ثلاثة آلاف صفحة. وكان أبو حيان قد قرأ عليه هذا الشرح، وعنه أخذ من مسائل اللغة والنحو والتفسير ما لعله يبلغ ألفاً وخمسمائة ورقة^(٤). وله كذلك من الكتب، كتاب (ألفات الوصل والقطع)، وكتاب (أخبار النحويين)، و(الوقف والابتداء)، وكتاب (صناعة الشعر والبلاغة)، وكتاب (شرح مقصورة ابن دريد)^(٥). ولم يكمل كتابه (الإمتاع فى

* قسم اللغة العربية، كلية الآداب، بجامعة القاهرة.

الحق) فتمممه ابنه يوسف الذي قال عن أبيه: «وضع أبي النحو في المزابل بالإمتاع»، يريد أنه سهله حتى لا يحتاج إلى مفسر، وغير ذلك من كتب^(٦).

وقد بلغت منزلة السيرافي العلمية شأواً كبيراً فتتلمذ على يديه الكثيرون غير التوحيدى، من ذلك ما يرويه ياقوت عن الأندلسي الذي تتلمذ له فقرت عينه بعد أن أحس بالغربة والندامة^(٧) والحسين بن مردويه الفارسي الذي درس عليه المدخل إلى كتاب سيبويه^(٨) ودرس كتاب (الكامل) للمبرد على تلاميذه^(٩). ويقال إن ابن عباد حضر مجلسه وعرف فضله، وعلمه فتعصب له وقدمه على أهل زمانه^(١٠)، وأعجب به أيضاً ابن العميد عندما تناقش السيرافي والعامري بمجلسه سنة أربع وستين وثلاثمائة^(١١).

ولم يدرس السيرافي النحو فقط لتلاميذه، بل درس لهم أصول الشريعة والأحكام الفقهية، كما كان ينشدهم كثيراً من الشعر سواء ما قرضه أو تمثل به^(١٢)، عن طريق الشيء بالشيء يذكر. وذهب ماسينيون^(١٣) إلى أن التوحيدى أخذ التصوف والزهد في الدنيا عن أستاذه، بل مثله الأعلى وشيخه، السيرافي الذي يقول عنه التوحيدى مصوراً ورعه وزهده وتقواه:

«مارأيت أحداً كان أحفظ لجوامع الزهد نظماً ونثراً، وما ورد في الشيب والشباب من شيخنا أبي سعيد، وذلك أنه كان ديناً ورعاً تقياً زاهداً عابداً خاشعاً، له دأب بالنهار من القراءة والخشوع، وورد بالليل من القيام والخضوع، صام أربعين سنة الدهر كله»^(١٤).

وبحثنا يدور حول النصوص المنسوبة إلى السيرافي في مؤلفات أبي حيان التوحيدى، وترجع أهمية هذا البحث إلى كثرة هذه النصوص وتنوعها بين نحو ولغة وإنشاء شعر للاستشهاد أو للرواية أو للمناسبة وتأكيد الكلام^(١٥)؛ تلك النصوص لم تخضع من قبل للدرس والتحليل لإبراز أنماطها وماتشيره من قضايا في مجالات شتى. ولذلك، يهدف هذا البحث إلى استقصاء هذه النقول وتصنيفها إلى الأنماط التي تؤدي إلى بلورة عدة قضايا نقوم بدرسها وتحليلها.

وبحثنا لهذه النصوص يقوم على ثلاثة محاور رئيسية، يضم كل منها قضايا فرعية عدة. وأول هذه المحاور هو أنماط

الاقتراس، ويتعرض لطرائق الأخذ أو التحمل لهذه النصوص، سواء كانت عن طريق الرواية الشفوية أو السماع أو كانت مأخوذة عن خط السيرافي. أما عن المحور الثاني، فيتعرض بالدرس والتحليل للقضايا التي تبلورت في مجموعة النصوص المأخوذة عن السيرافي، ومن هذه القضايا:

القضايا الصرفية، والقضايا الدلالية للمفردات، ثم القضايا النحوية التركيبية، ثم قضايا التراكيب والأساليب.

أما عن المحور الأخير، فيتناول بالدراسة أنواعاً أخرى من النصوص المنسوبة في روايتها إلى السيرافي، وتشمل الشعر وشروحه، والأقوال المأثورة والحكايات والتعليق عليها.

والمصادر التي استقى منها هذا البحث مادته هي مؤلفات التوحيدى التي وصلت إلينا، ومنها: (البصائر والذخائر)، و(الإمتاع والمؤانسة)، و(أخلاق الوزيرين)، و(المقاسبات)، و(الهمائل والشوامل)، و(الإشارات الإلهية)، وأخيراً (الصدقة والصدق).

ولقد بلغ حجم المادة التي جمعها الباحث مائة وتسعة وعشرين نصاً. كان القدر الأوفر من النصوص من نصيب كتاب (البصائر والذخائر) [٦٣ نصاً]، يليه كتاب (الإمتاع والمؤانسة) [٢٤ نصاً]، ثم كتاب (أخلاق الوزيرين) [٢٢ نصاً]، وأخيراً (المقاسبات) [٢٠ نصاً].

أولاً : أنماط الاقتباس

طبيعة العلاقة بين التوحيدى والسيرافي :

لقد لعبت شخصية أبي سعيد السيرافي، بما حوته من علم ومعرفة وزهد وتصوف وتقشف، الدور الأكبر في حياة أبي حيان التوحيدى، فتلمس خطاه وسار على نهجه علماً وعملاً. وليس من شك في أن عقلية التوحيدى الموسرعة قد لقيت في شخص السيرافي نموذجاً ممتازاً عملت على محاكاته والتأثر به، خصوصاً أن إلمام أبي سعيد بأصول النحو والكلام، والفقه والحديث كان متعمداً لعلوم الأوائل^(١٦). ومن ثم، كان التوحيدى دائم التعلق بالرجل، وكثيراً ما لهج لسانه بنعته بكل ما استطاع من عبارات المدح والثناء، فهو عنده تارة «شيخ الدنيا»^(١٧)، وأخرى «شيخ الدهر وقريع العصر والعديم المثل، المفقود الشكل»^(١٨)، بل هو

«عالم العالم وشيخ الدنيا ومقنع أهل الأرض»^(١٩)، وهو عنده أيضا :

«أجمع لشمل العلم وأنظم لمذاهب العرب، وأدخل في كل باب، وأخرج من كل طريق، وأنزم للجماعة الوسطى في الدين والخلق، وأروى للحديث، وأقضى للأحكام وأفقه في الفتوى»^(٢٠).

لذا، فإنه قد شغفه حبا فتعلق به، ونهل من علمه وثقافته الموسوعية تلك، فتارة يحضر مجالسه للإفادة ويسمع شرحه لرواد المجلس، فيقول عنه : «وحضرت المجلس يوماً آخر مع أبي سعيد وقد غص بأعلام الدنيا وبنود الآفاق»^(٢١)، فيفيد من ذلك العلم ويدونه. كما كان كثير السؤال له في كل ما يعن له من مسائل نحوية أو لغوية غفقت عليه اعترافاً بفضله، وثقة بعلمه. ومن يقرأ كتب التوحيدى على اختلاف مشاربها سوف يعلم أن السيرافى كان رافداً ثرياً أمد التوحيدى بمعرفة اللغة، وظهرت آثار ذلك في كتبه، فوجدناه ذا علم واسع بالنحو وطرق أهله، وباللغة واستعمالاتها، وتراكيبها، ومفرداتها. كما نعلم منه أيضاً كل ما كان يدور فى مجلسه عن النحو والفقه، والكلام، والتصوف، واللغة، والقراءات.

لقد كانت عادة أبى حيان أن ينشر آراءه فى كتبه دون أفراد أو تبويب أو ترتيب، وهو كذلك ينسب أغلب ما قاله إلى أساتذته أو قائله دون محاولة الإيهام بأن رأى أو القاعدة التى يروونها أو يقرها له، مما يبرز أمانته العلمية فى النقل.

وكان التوحيدى من بين تلاميذ السيرافى، وكان كثير النقل عن أستاذه فى كل ما كان يلقيه عليه، إما بالتحدث مع التوحيدى وزملائه، وإما بإجابته عن ما يسألونه عنه، وإما بإخبارهم أو بالنقل مما خطه السيرافى. ولهذا، اتخذ اقتباس التوحيدى عن أستاذه السيرافى مسلكين رئيسيين أحدهما: الرواية الشفوية، والآخر النقل عن خط السيرافى ومدرونيه.

(أ) الروايات الشفوية :

كان لطبيعة العلاقة بين الطالب والأستاذ أثر كبير فى أسلوب أخذ العلم وتلقيه عن الأستاذ، واتخذ ذلك أكثر من منحى، من ذلك:

- ما يتعلق بالطالب ويتمثل فى الاستماع والإنصات لكل ما يقوله الأستاذ؛ حيث يجب على الطالب أن يتخذ سمع التلميذ الذى يرنو وينصت بكل جوارحه لكل ما يلقيه عليه أستاذه. وقد يتخذ الطالب جانباً إيجابياً فيقرأ على أستاذه ما غمض عليه من نقاط منتظراً إيضاح أستاذه لها وإزالة غموضها.

- ومنها ما يتعلق بالأستاذ ويتمثل ذلك فى :

القول: وما يتضمنه من آرائه أو آراء غيره حول قضايا أثرت فى مجلسه.

الإنشاد: لأبيات من الشعر، سواء ما قرضه أو نمثل به^(٢٢) عن طريق الشئ بالشئ يذكر.

الحكى والحديث: عن حكايات وأخبار لطرافتها. وقد يكون لما تنطوى عليه من حكمة أو عبرة يريد أن يثبها فى سامعيه، وقد يذيلها بعبارات مأثورة قد يستفيض فى تفسير وتوضيح ما تتضمنه من قضايا لغوية.

- ومنها ما يبرز العلاقة الجدلية بين طالب غمضت عليه مسائل بعينها يريد استجلاءها فيطرحها على أستاذه، الذى ينبرى بدوره إلى إجلاء الحقيقة وإزالة ما يكتنفها من غموض ليشفى غلة تلميذه وعطشه إلى المعرفة.

ولقد كان لكل هذه المناحي نماذج ممثلة لها فى كتابات التوحيدى بصدد ما نقله عن أستاذه السيرافى، وسوف نعرض لهذه النماذج لبيان توجهاتها المختلفة.

* السماع :

وهذا المنحى يمثل جانب التلميذ الذى يدفعه تعطشه إلى المعرفة إلى الإنصات والاستماع بكل جوارحه إلى كل ما يتلفظ به أستاذه استزادة من علمه، وترواح التعبير عن هذا الاستماع بين تعبيرات عدة لكل منها خصوصيتها، فتارة يقول: «سمعت أبا سعيد السيرافى يقول:....»^(٢٣) ثم يسوق مسألة تحدث عنها السيرافى. ولكن عندما يعتمد التوحيدى إلى مناقشة قضية ويسوق رأيه فيها ويريد أن يدعم هذا رأى، فإنه يستدل على ذلك بما سمعه عن أستاذه السيرافى حتى يعطى انطباعاً لدى السامع بمدى رجاحة رأيه المستمدة من

«وجرت في مجلسه [أى السيرافي] مسألة، وهى: هل يصح أن يقال: هذا هذا هذا هذا هذا، فقال: تجعل الأول مبتدأ، والثانى توكيداً، والثالث فعلاً من قولك: هاذى يهاذى من المهاداة، والرابع توكيداً للفعل، والخامس مفعولاً به، والسادس توكيداً للمفعول به»^(٣٢).

ولا تخفى روح الدعابة سواء فيما طرح فى مجلس السيرافي أو فى رده على ما حوته الدعابة من تساؤل، عكس مفاكهة السيرافي لتلاميذه ليخفف عنهم جفاف أو جدية ما يدرسون.

وتارة أخرى تدور ملاحاة بين التلميذ وأستاذه يهدف منها الطالب استيضاح رأى أستاذه فى مسألة غمضت عليه، ويستمر فى الجدل بغية الاستزادة من علم أستاذه، ومن ذلك قول التوحيدى:

«قلت للسيرافي: ما يقال للشاطر؟ قال: الملع، قلت: فما الملع؟، قال: الخبيث»^(٣٣).

* الإنشاد:

كان السيرافي ينشد الشعر سواء كان شعراً هو قائله أو قاله آخرون. ومن ذلك ما قرضه من الشعر وساقه ليستعين به على تفسير معانى بعض المفردات ومناقشة ما تثيره هذه المفردات من قضايا بعينها، فيقول التوحيدى: «أنشد السيرافي: ...»، ثم يذكر ثلاثة أبيات يذيلها بشرح وتفسير لبعض مفرداتها. ولكى يدلل على صحة رأيه يسوق شطراً من بيت لطرفة بن العبد^(٣٤). وقد يسوق شعراً فيبادر أحد تلاميذه إلى سؤاله عن أشياء عنت له فيه ويدور حوار بين التلميذ وأستاذه يهدف منه الطالب إلى الاستزادة من علم أستاذه، ومن ذلك قول التوحيدى:

«أنشدنى هذا البيت أبو سعيد السيرافي، وقلت له: إن أباً وجزة إسلامى [يقصد قائل البيت]، قال: فما تصنع بقول بعض الأسديين وهو جاهلى»، ثم يسوق ستة أبيات للتدليل على صحة رأيه^(٣٥).

نفقة الناس فى السيرافي، ومن ذلك قول التوحيدى: «سمعت هذا من أبى سعيد»^(٣٦) أو قوله: «حصلته عن أبى سعيد السيرافي قراءة وسماعاً ومسألة ومراجعة»^(٣٧). كما نجد التوحيدى يقرن بين عبارتى «القول» من جانب السيرافي و«السماع» من جانبه للإشارة إلى مدى دقة ما نقله، بل إنه ينص على سماعه منه لفظاً، فيقول: «كذا قال السيرافي، سمعت ذلك منه لفظاً...»^(٣٨). وتارة يسمع التوحيدى من أستاذه رأياً سمعه بدوره من رجل آخر، مما يعكس أمانة الأستاذ فى نسبة الرأى إلى صاحبه وعدم ادعائه لنفسه، وكأنه يعطى لطلابه درساً ويرسخ فيهم قيمة الأمانة العلمية ودقة العالم، فيقول التوحيدى: «سمعت السيرافي يقول: سمعت نفظويه يقول: ...»^(٣٩). وتارة أخرى يكون مجلس السيرافي سياجاً لما سمعه التوحيدى ليس من أستاذه ولكن من رجل آخر ضمه المجلس، وفى هذه الحالة نجد السيرافي فى تعبيره عن رأيه فيما قيل يتخذ إحدى اثنتين، فإما أن يتخذ جانب الصمت وعدم التعليق مما يفيد إقراره لما قيل وموافقته عليه، نحو قول التوحيدى: «سمعت فى مجلس أبى سعيد شيخاً من أهل الأدب يقول: ...»^(٤٠)، وإما أن يبادر السيرافي إلى التعليق بإبداء رأيه الذى قد يكون مغايراً لما قيل، ومن ذلك قول التوحيدى «رأيت من فتح اللام فى مجلس السيرافي، فضحك منه ورده عليه»^(٤١). وفى أحوال كثيرة يتصدى التوحيدى التلميذ للدفاع عن أستاذه وإبراء ذمة هذا الأستاذ من رأى نسبته آخرون إلى السيرافي، وهو يرى أنه مزعوم لأنه لم يسمعه منه، فيقول: «زعم بعض أصحابنا أن السيرافي قال: هذا الإنسان من باب الطاق، وما سمعته منه»^(٤٢). والتوحيدى بهذا يريد أن يقول إنه ملم بكل ما صدر عن السيرافي، ولذلك فإن ما لم يسمعه من أستاذه يكون منحولاً عليه وليس من كلامه.

أما عن المنحى الذى يمثل جانب الأستاذ فيتمثل فى: (القول، الإنشاد، الحكى، الحديث):

* أما عن القول:

نجد التوحيدى تارة يسوق قول أستاذه فى مسألة بقوله: «قال السيرافي: ...»^(٤٣). وتارة أخرى يذكر رأى أستاذه وتعليقه على مسألة دارت فى مجلسه فيقول:

وقد يسوق السيرافي أبياتا من الشعر وينسبها إلى قائلها دون أن يعلق عليها، ومن ذلك قول التوحيدى: «أشدنا أبو سعيد السيرافي لأبى هفان يخاطب إبراهيم بن المدبر وقد خرج مصعداً إلى بغداد من البصرة» ثم يسوق الأبيات^(٣٦).

وقد تقرأ أبيات على السيرافي فى مجلسه، وقد يكون ذلك للتأكد من سلامتها اللغوية، ويكون صمته دليلاً على إقراره بها وعدم اعتراضه عليها، ومن ذلك ما قاله التوحيدى:

«قرئ على السيرافي وأنا أسمع، قرأه عبدالسلام البصرى، أخبركم ابن دريد قال، أنشدنى بندار ابن إبراهيم الكرخى»، ثم يذكر بيتين، وينهى كلامه بقوله: «هكذا قال»^(٣٧).

ونلاحظ هنا أن التوحيدى يجعل نفسه سامعاً وشاهداً على ما دار فى مجلس السيرافي، وبالتالي شاهداً على إقرار السيرافي بصمته وعدم تعليقه على سلامة هذه الأبيات لغوياً، لعدم اعتراضه عليها.

وفى موقف آخر وجدنا أن التوحيدى هو الذى أنشد أبياتا من الشعر على السيرافي، كان قد قرأها فى كتاب (اللغات) ليونس بن حبيب^(٣٨)، مصحوبة بشرح بعض مفرداتها، كأنه يريد أن يستطلع رأى السيرافي فى سلامة الأبيات من ناحية، وكنا رأيه فى تعليق ابن حبيب على بعض مفردات الأبيات؛ فنجد التوحيدى بعد: أن أنشد الأبيات وذكر تعليق ابن حبيب عليها يقول: «هكذا قال يونس فى كتاب اللغات»، وقرأته على أبى سعيد السيرافي^(٣٩).

* الحكى والحديث :

كان من الأساليب التى اتخذها السيرافي فى عرض آرائه فى قضايا النحو واللغة، أن يسوق حكاية يروى فى ثناياها أبياتا من الشعر تكون مادة لمعالجة القضية التى يريد إثارتها والتعليق عليها. ومن ذلك ما قاله التوحيدى من أنه قد «حكى أبو سعيد السيرافي أنه دخل إلى مسجد ابن دريد ورجل يشد...»، ثم يروى الأبيات ويتبعها بتعليق حول وقوع الشاعر فى الإقواء نتيجة التزامه بالقاعدة النحوية. إلا أن التوحيدى يعلق على هذه الحكاية بأنه «حدثنى بهذا الحديث بعض أصحابنا ولم أسمع منه»^(٤٠)، فى إشارة إلى عدم تيقنه من صحة نسبة هذا الحديث إلى أستاذه السيرافي. ومن

الجدير بالذكر أن التوحيدى عندما يشك فى نسبة رأى أو خبر إلى السيرافي يعقب عليه بعبارة «حدثنى بهذا بعض أصحابنا ولم أسمع منه»^(٤١)، أو يبدأه وبذيله بعبارة «زعم بعض أصحابنا أن السيرافي قال:... وما سمعته منه»^(٤٢).

وقد يكون السيرافي نفسه هو متلقى الحكاية؛ حيث يقرأها عليه أحد حضور مجلسه. وقد تكون الحكاية مكثفة وتنتهى بعبارة تبدو كالقول المأثور، ونجد أن التوحيدى لا يذكر تعليقاً للسيرافي على هذه الحكايات، مما يبرز إقرار السيرافي لما ورد فيها من عبارات، ومن ذلك ما ذكره التوحيدى من أنه قد «قرئ عليه [أى السيرافي]: سكر مزبد يوما وجاء إلى امرأته، فقالت: أسأل الله أن يفيض إليك النبيذ، فقال: وإليك القبيب»^(٤٣). وقال [أى السيرافي]: «وقرئ عليه: قيل لمذنبى: تحب رمضان؟ قال: ما أتهنا بشهور سائر السنة من أجله فكيف أحبه؟»^(٤٤).

وهناك من الحكايات التى ذكرها السيرافي ولم يشك التوحيدى فى نسبتها إلى أستاذه، وأبرز السيرافي من خلالها نقص فى معرفة العربية عند رجل من المتكلمين الكلاية. فيقول التوحيدى:

«حدثنا السيرافي أن رجلاً من المتكلمين الكلاية ببغداد بلغ من نقصه فى معرفة العربية أنه قال فى مجلس مشهور بين جماعة حضور: إن العبد مفطر بفتح الطاء، والله مفطر بكسر الطاء، وزعم أن القائل: الله مفطر كافر. فانظر أين يذهب به جهله، وعلى أى رذيلة دله نقصه...»^(٤٥).

وقد ينقل التوحيدى الخبر عن مصدرين أحدهما للسيرافي، إيماناً منه أن ورود الخبر عند أستاذه إنما هو دلالة على مدى صحته والثقة فيه، ومن ذلك ما ذكره التوحيدى من أنه «قال ابن المعتز: وحدثنى أبو سعيد عن الأثرم قال:...»^(٤٦)، إلا أن السيرافي لا يذكر تعليقاً على الحكاية وما تضمنته من أبيات شعر.

أما عن المتحى الأخير فيمثل العلاقة الجدلية بين الأستاذ المعلم من ناحية، والتلميذ المتعطر للاستزادة من فيض علم أستاذه. وتجلى ذلك فى علاقة طرح الأسئلة من

جانب التلميذ وانتظار الإجابة الشافية لغلته من جانب الأستاذ. ومن ذلك قال التوحيدى :

«سألت السيرافي عن قوله: (قائما بالقسط) [آل عمران ١٨] بم انتصبت؟ قال: بالحال؛ قلت: أين الحال؟ قال: لله تعالى. قلت: أيقال لله حال؟ قال: إن الحال هي للفظ لا لمن يلفظ بالحال عنه...» (٤٧).

وهنا نلاحظ تتابع الأسئلة من جانب التلميذ بهدف استقصاء أبعاد القضية بغية الاستزادة من علم أستاذه، وما يقابله من كرم الأستاذ وسعة صدره في توالي إجاباته عن أسئلة تلميذه.

وإذا كان التساؤل السابق عن مسألة تتعلق بآية من القرآن الكريم، نجد التوحيدى يتوجه بالسؤال لأستاذه بقوله :

«سألت السيرافي عن قولهم بررت إذا قالوا: صدقت وبررت، فقال: صدقت صدقا نافعا كأنك لم تصدق صدقا بحثا، ولكنك وصلت بالبر والراء مكسورة في بررت» (٤٨).

وقد يتخذ الأستاذ جانب التساؤل الذى يطرح سؤالا على تلاميذه، ولكن الهدف لم يكن الحصول على إجابة بقدر ما كان يرغب فى اختبار مدى ما حصلوه من علمه، وبعد ما استمع إلى ردهم اتخذ سمت الأستاذية وذكر لهم رأى الصائب، ومن ذلك ما ذكره التوحيدى عن عبارة «مالأت فلانا» :

«فإن السيرافي سأل أهل المجلس يوماً عنه فقال بعضهم: ما ملأتهم نفسى ولا ملأونى، فكأنه مفاعلة من الملء، فقال: قاربت، ولكن معناه الصحيح: ما دخلت فى ملأهم، وإنما قيل للملأ الملأ لأنهم يملأون العين جهازة والنفس جلاله» (٤٩).

(ب) النصوص المأخوذة عن خط السيرافي :

كان التوحيدى معتزاً بأستاذه السيرافي، كثير النقل عنه لثقته فيه، فلم يكتف بحضور مجالسه والاستماع إليه، بل إنه

كان يقتبس مما كتبه. وكان يؤكد فى هذا المقام نقله من خط السيرافي حتى يضى الثقة على ما نقله عن أستاذه، وبرز هذا التأكيد من جانب التوحيدى بعبارات متعددة؛ فثارة يكتفى بقوله: «كذا كان بخط السيرافي» (٥٠)، أو يقول: «هكذا وجدت بخط السيرافي» (٥١). وقد يضيف إلى ذلك مزيداً من التأكيد، فيقول: «وردت بشكل وخط السيرافي» (٥٢)، أو يقول: «هكذا كان بخط السيرافي فنقلته على هيئته» (٥٣). كما قد يقول: «هكذا كان بخط السيرافي ونقلتها كما وجدت وأنا أستعفى ما دونها»، فى إشارة إلى عدم ثقته إلا فيما نقله عن مدونات أستاذه. وفى موضع آخر، يجده يأنس بخط أستاذه لثقته فيما يدونه حتى إن كان ما ينقله عنه مشهوراً، فيقول: «هكذا وجدت بخط السيرافي، والخبر مشهور إلا أننى أنست بخطه» (٥٤). وثارة أخرى يؤكد أمانته العلمية فى النقل عن خط أستاذه وعدم إضافة أى شئ من عنده، بل التزم بمحاكاة خطه وشكله، فيقول فى التعقيب على ما نقله عن أستاذه :

«هذا آخر ما وجدته بخط السيرافي ولم أضف إليه شئاً.. وحكيت خطه وشكله» (٥٥).

ثانياً : القضايا :

النصوص المنسوبة إلى السيرافي فى مؤلفات التوحيدى أثارت قضايا عدة، أمكن تصنيفها فى أنماط متنوعة، منها: القضايا الصرفية، والقضايا الدلالية للمفردات، والقضايا النحوية والتركيبية، وأخيراً قضايا التراكيب والأساليب.

وسوف نتناول فيما يلى هذه القضايا بالبحث والتحليل والدراسة.

(أ) القضايا الصرفية :

إذا نظرنا إلى النصوص التى اقتبسها التوحيدى من أستاذه أبى حيان، والتى تتعلق بينة الكلمة أو البحث الصرفى أو علم الصرف، وجدنا أنها قليلة، وتعالج قضايا متفرقة لا يعمد إليها السيرافي، وإنما تأتى عرضاً ضمن تفسير أو شرح مفردات أو تراكيب تكون هى المقصودة بالبحث عنده.

ونسوة...^(٦٠) وإن كان هنا يذكر مثنى الكلمة إلى جانب حديثه عن صيغتي جمعها.

* كذلك ورد الحديث عن الاشتقاق عرضاً في تفسيره لدلالات المفردات ولم يكن مقصوداً لذاته في النصوص التي اقتبسها التوحيدى عن السيرافى، ومن ذلك قول السيرافى:

«والضرة: لحمه تحت الإبهام، والضرة امرأة يتزوجها الرجل على امرأة، فأحدهما ضرة للآخرى، كأنها مضارة، ويقال: الضرة: الثدى»^(٦١).

ويعلق التوحيدى على ذلك بقوله «وما أدرى ما يقول صاحب الاشتقاق»^(٦٢).

ومن ذلك أيضاً ما نقله التوحيدى عن أستاذه السيرافى، حيث يقول:

«وفلان يتمراً بنا أى يبدى مروته بسوء القول فينا، يقال: امرأة وامرأتان ونساء ونسوة، والمرء والمارة متقاريان عند القائل بالاشتقاق على تعسف فى التأويل...»^(٦٣).

فالسيرافى هنا، إلى جانب حديثه عن صيغتي المثنى والجمع لكلمة «امرأة»، ذكر أيضاً الاشتقاق الممكنة لهذه المادة. وشبهه بهذا الأمر كذلك قول السيرافى:

«أما الضائف فهو من ضفت فلاناً إذا كنت ضيفه، وأضفت فلاناً إذا كان ضيفك، وكأن ضفته ملت إليه، وأضفته أملت، كما يقال: أضاف كذا إلى كذا إضافة، هذا ذلك بعينه، ولكن الضيافة تفردت بمعنى، والإضافة تميزت بمعنى، وكلاهما معروفان فى الأصل، وقول الكتاب إنضاف هذا إلى هذا، وسينضاف، كلمة خطأ»^(٦٤).

ويعلق التوحيدى على ذلك التفسير بقوله:

«كذا قال أبو سعيد السيرافى، سمعت ذلك منه لفظاً، وتتبع ذلك فى كلام الأولين وهم الحجة فما عثرت عليه؛ يقال: ضيف وضيفان وأضيف وضيوف كل ذلك معروف، قال الله

* ولعل من بين النصوص القليلة التى اقتبسها التوحيدى عن أستاذه السيرافى، والتى عمد فيها إلى التنظير أو الحديث عن قضايا نظرية تتعلق بالبحث الصرفى، ما ذكره عن قضية القياس فى صياغة مفردات اللغة، فيقول:

«واعلم أن القياس فى اللغة من نحوين: نحو أيده السماع ودل عليه الطباع، فالقول حسن والمصير إليه جائز. سمعت هذا من أبى سعيد السيرافى»^(٥٦).

فهنا تكلم عن القياس فى اللغة وعن كونها اصطلاحية أو توفيقية، ولكنه لم يصل إلى رأى قاطع فى ذلك. وهناك نص آخر تحدث فيه عن طبيعة التذكير والتأنيث، حيث ذكر السيرافى أن «المذكر أصل، والمؤنث فرع، والمذكر أخف والمؤنث أثقل...»^(٥٧)، فلقد اكتفى بهذا القدر من الحديث عن المذكر والمؤنث ثم أكمل حديثه عن طبيعة النكرة والمعرفة، ثم الوصف والموصوف، دون تحليل أو تفسير لهذا الحكم الذى ساقه عن المذكر والمؤنث.

كما نجد بين النصوص المقتبسة من السيرافى حديثاً عن تذكير بعض المفردات أو تأنيثها؛ وذلك فى إطار تفسير دلالات الألفاظ، دون أن يكون هذا الحديث مقصوداً لذاته. ومن أمثلة ذلك حديثه عن تذكير كلمة «المراء»، وذلك فى قوله:

«المراء هو الإنسان، وخلوه من أمارة التأنيث دليل على التذكير، والمراء مذكر على هذا الذكر...»^(٥٨).

* ومن المباحث الصرفية الأخرى التى كانت أيضاً تأتى عرضاً فى ثنايا تفسيره وشرحه للمفردات، حديثه عن المفرد والجمع؛ حيث كانت ترد الإشارة إلى هذا الأمر دون أن يكون مقصوداً لذاته، ومن ذلك نجد أن السيرافى فى إطار تعليقه على كلمة «الأممة» التى ورد ذكرها فى أبيات أنشدها السيرافى لأحد الأعراب، ذكر أن الأعرابى:

«يريد بالأممة اللؤم... والألائم: اللثام، والملائم: الخصال اللثيمة، فأما الملائم فالعائب...»^(٥٩).

فلقد ذكر السيرافى صيغة الجمع «الألائم»، و «الملائم» كأمر منطقي يستدعيه الحديث عن صيغة المفرد. وفى الاتجاه نفسه يذكر أنه «يقال امرأة وامرأتان ونساء

تعالى: «إن هؤلاء ضيقي» (الحجر: ٦٨)، وقال:
«فأبوا أن يضيّقوهما» (الكهف: ٧٧)» (٦٥).

كما ورد حديثه عن المصدر باعتباره من المشتقات، وذلك في إطار تفسير السيرافي لكلمة «النعي»، حيث قال التوحيدى:

«سمعت أبا سعيد السيرافي يقول: النعي مصدر نعى بنعى، والنعى - بالتشديد - الناعى، والناعى هو الخير بالموت...» (٦٦).

* ومن النصوص التي اقتبسها التوحيدى من أستاذه السيرافي ما يتعلق بالصيغ الصرفية أو الميزان الصرفي، فكان منها ما يتعلق بصيغ المصادر، ومن ذلك قول أبي حيان:

«قال شيخنا أبو سعيد السيرافي الإمام: المصادر كلها على تفعّال بفتح التاء، وإنما تجئ تفعّال في الأسماء وليس بالكثير، وذكر بعض أهل اللغة منها ستة عشر اسماً لا يوجد غيرها» (٦٧).

ثم ذكر التوحيدى هذه الأسماء:

«ومنها التبيان، والتلقاء، ومر بهواء من الليل وبراك، وتمشّار، وهى مواضع، وتمسّاح للدابة المعروفة، والتمسّاح الرجل الكذاب أيضاً، وتجنّاف وتمثال، وتمراد: بيت الحمام، وتلفاق، وهو ثوبان يلفقان، وتلقام: سريع اللقمة» (٦٨).

وتحدث السيرافي عما ينصرف وما لا ينصرف في حالة التصغير، فلقد قال أبو سعيد السيرافي: في الأسماء المصروفة ما إذا صغر منع الصرف، وفي الأسماء ما لا ينصرف، وإذا صغر صرف، وفيها ما لا ينصرف في مصغر ولا مكبر... إلخ» (٦٩).

وهناك من القضايا الخاصة بالصيغ الصرفية التي أثارها السيرافي واقتبسها التوحيدى، والتي كانت تدور حول الصيغة الصرفية لكلمة، ومن ذلك حديث السيرافي عن كلمة زيتون، حيث:

«قال أبو سعيد: (زيتون) يجوز أن يكون فيعولا وفعلولناً، وهو أولى لأنه من الزيت وقد لزم الروا» (٧٠).

وتطرق السيرافي بالحديث كذلك لبعض المفردات التي بها حروف زائدة، ومن ذلك قول التوحيدى: «سألت السيرافي عن الزنباع ماهو، قال: السىء الخلق، والنون زائدة» (٧١)، ومن ذلك أيضاً قوله:

«سألت السيرافي عن قول من قال: المزاح سمي مزاحاً لأنه أزيح عن الحق، فقال: هذا محكى عن ابن دريد، وهو باطل، والميم من سنخ الكلمة في «مزححت أمزح» ومن «أزيح» تكون زائدة» (٧٢).

ومن القضايا التي أثارها التوحيدى على لسان السيرافي شيوع صيغ خاطئة، ومن ذلك قول التوحيدى:

«أما المعزول فمعروف، يقال: عزل الوالى أى صرف عن عمله، وانعزل فلان خطأ، وكان السيرافي يأباه ونظائر له، كقول العامة يندبع وينقتل وينحفظ وينضببط وينصرع، وقال غيره: جائز مقبول» (٧٣).

وفي الإطار نفسه ذكر التوحيدى أن:

«قول الكتاب «انضاف هذا إلى هذا، وسينضاف» كلمة خطأ، كذا قال أبو سعيد السيرافي سمعت ذلك منه لفظاً، وتبيعت ذلك في كلام الأولين وهم الحجة فما عثرت عليه...» (٧٤).

وأخيراً، فهناك من النصوص التي اقتبسها التوحيدى ما تعرض فيها السيرافي لدلالات بعض الصيغ الصرفية، ومن ذلك حديثه باستفاضة عن الطبيعة، وهل هى فعيلة بمعنى فاعلة، أو بمعنى مفعولة» (٧٥).

(ب) القضايا الدلالية للمفردات:

تنوعت المقولات المتعلقة بالقضايا الدلالية في كتابات السيرافي التي اقتبسها التوحيدى بين مقولات نظرية وأخرى وردت في سياق تفسيره للدلالات المعجمية للمفردات.

* ولقد كانت قضية اللفظ والمعنى من المباحث النظرية التي شغلت حيزاً من كتابات السيرافي التي اقتبسها التوحيدى، فلقد ذكر أبو سعيد - في المناظرة التي دارت بينه وبين أبي بشر متى -:

«قدر اللفظ على المعنى فلا يفضل عنه، وقدر المعنى على اللفظ فلا ينقص منه؛ هذا إذا كنت فى تحقيق شئ على ما هو به. فأما إذا حاولت فرش المعنى وبسط المراد فاجل اللفظ بالروادف الموضحة والأشياء المقربة، والابتعاعات الممتعة، وبين المعانى بالبلاغة، أعنى لَوْح منها لشيء حتى لا تصاب إلا بالبحث عنها والشوق إليها، لأن المطلوب إذا ظفر به على هذا الوجه عز وحلا، وكرم وعلا، وشرح منها شيئا حتى لا يمكن أن يمتري فيه، أو يتعب فى فهمه أو يعرج عنه لاغتماضه؛ فهذا المذهب يكون جامعا لحقائق الأشياء ولأشياء الحقائق»^(٧٦).

فالسيرافى يرى أن:

«المعاني ليست فى جهة، والألفاظ فى جهة، بل هى متمازجة متناسبة، والصحة عليها وقف، فمن ظن أن المعانى تخلص له مع سوء اللفظ... وقبح التأليف والإخلال بالإعراب، فقد دل على نقصه وعجزه»^(٧٧).

وبعبارة أخرى، فإن السيرافى يرى أنه يجب أن يكون اللفظ على قدر المعنى فلا يجوز أحدهما على الآخر، لأن المعانى والألفاظ على حد قوله متمازجة متناسبة. فإذا تطلب الأمر بسط المعنى لبيانه وتوضيحه، فيجب أيضا استجلاء اللفظ - على قوله - بالروادف الموضحة والأشياء المقربة، وذلك لأن المطلوب إذا ظفر به على هذا الوجه عز وحلا، وكرم وعلا. ورغم مقولته بأن الألفاظ والمعانى متمازجة متناسبة، فإنه يظل لكل منهما هويته الخاصة به، فهو يرى أن «الخلاف بين اللفظ والمعنى أن اللفظ طبعى والمعنى عقلى؛ ولهذا كان اللفظ بائداً على الزمان، لأن الزمان يقفر أثر الطبيعة بأثر آخر من الطبيعة، ولهذا كان المعنى ثابتاً على الزمان، لأن مستملى المعنى عقل، والعقل إلهى، ومادة اللفظ طينية، وكل طينى منهافت»^(٧٨).

وليس أدل على فصله بين اللفظ والمعنى من عبارته التى يحاور فيها أبا بشر متى، حيث يقول له :

«إذا سألتنى عن شئ أنظر فيه، فإن كان له علاقة بالمعنى وصح لفظه على العادة الجارية أجبت، ثم لا أبالى أن يكون موافقا أو مخالفا، وإن كان غير متعلق بالمعنى رددته عليك وإن كان متصلا باللفظ ولكن على وضع لكم فى الفساد على ما حشونتم به كتبكم رددته أيضا»^(٧٩).

* وتبرز قضية الترادف خلال معالجة السيرافى لقضية اللفظ والمعنى، حيث يرى أنه إذا تطلب الأمر بسط المعنى لبيانه وتوضيحه، فيجب أيضا استجلاء اللفظ بالروادف الموضحة والأشياء المقربة، أو باستخدام الألفاظ المترادفة، فيقول :

«إذا حاولت فرش المعنى وبسط المراد فاجل اللفظ بالروادف الموضحة والأشياء المقربة...»^(٨٠).

فهذا يكشف اقتناعه بوجود المترادفات فى اللغة وأنها ليست من قبيل العيب أو السرف الفكرى، بل هى ضرورة منطقية أوجبتها الحاجة للتمييز بين الفروق الدقيقة القائمة بين المعانى المتشابهة أو المتداخلة، لأنه «يجب أن يكون بين كل لفظتين - إذا تواقتا على معنى، وتعاورتا عرضا - فرق»^(٨١).

* وكان لقضية تعدد المعنى جانب من اهتمام السيرافى جعله يقر المقولة التى ذكرها رجل من أهل الأدب عن تعدد المعنى، فلقد قال التوحيدى :

«سمعت فى مجلس أبى سعيد شيخاً من أهل الأدب يقول: ومن الأفعال ما له وجهان. كشيء ينصرف على معنيين، مثل: أصاب عبدالله مالا، وأصاب عبدالله مال، إذا أصابه مال من قسمة، ووافق زيد حديثنا، إذا صادفهم يتحدثون، ووافق زيدا حديثنا إذا سره وأعجبه، وأحرز زيد سيفه إذا صانه فى غمده، وأحرز زيدا سيفه إذا خلصه من القتل وشبهه؛ ولو قلت أحرز امرؤ أمله لم يجز، لأن الرجل لا يحرز أمله، ولكن أمله يحزره. إلا أن تذهب إلى قولك: أحرزت أجلي بالعمل الصالح»^(٨٢).

طرة الغلام وطرة الثوب. فأما طر - بالفتح -
فمعناه نبت، يقال طر وير الناقة إذا بدأ صفاره
وناعمه^(٨٧).

وفي مواضع أخرى يذكر المعاني المختلفة للكلمة
الواحدة، من قبيل تعدد المعنى للصفة اللغوية الواحدة، على
نحو ما ورد الحديث عنه أنفا يصدد كلمة «الضرة»^(٨٨) في
إطار حديثنا عن قضية تعدد المعنى.

وفي أحوال أخرى يقوم بتأصيل الكلمة، ثم يذكر
معناها، ومن ذلك قول السيرافي :

«والرف... هو من كلام العرب، وهو الذي
يضاف إلى الحائط ليوضع عليه شيء»^(٨٩).
ونحو قوله :

«أما المقلول فالذي تضرب قلته، لا أعرف غير
ذلك، وقول العامة هذا على المقلول خطأ لا وجه
له في العربية البتة»^(٩٠).

ومن منهجه أيضاً، يصدد الحديث عن دلالات
الألفاظ، ذكره معنى الكلمة ثم يبين الزائد عن صيغتها
الصرفية، فمن ذلك قول التوحيدى «سألت السيرافي عن
الزنباع ما هو، قال: السوء الخلق، والنون زائدة»^(٩١).
كذلك كان يذكر معنى اللفظة ثم يذكر الصيغ الصرفية
الخاطئة^(٩٢).

(ج) القضايا النحوية التركيبية :

تتناول دراستنا لهذه القضايا أربعة مباحث، أول هذه
المباحث يتصدى للقضايا النظرية في علم النحو من خلال ما
اقتبسه أبو حيان من أستاذه أبي سعيد السيرافي، وثانيها
يتصدى بالدراسة للمصطلحات النحوية التي تعرضت لها
النصوص، وثالثها يقوم بدراسة التراكيب والأساليب، وآخرها
يعالج قضايا النحو وأثره في العروض وفق ما كشفت عنه
نصوص السيرافي في كتابات التوحيدى.

المبحث الأول: القضايا النظرية:

* شغلت قضية الفرق بين النحو والمنطق قدراً كبيراً
من اهتمام السيرافي، فأفاض في الحديث فيها خاصة في

فمن هذا النص تبرز قضية تعدد المعنى، حيث الكلمة
الواحدة قد تكون ذات معنيين أو أكثر، إلا أن النص هنا قصر
هذه القضية على الأفعال بينما هي كائنة أيضاً في الأسماء،
ومن ذلك ما ورد عنده بصدد الحديث عن كلمة «الضرة»^(٨٣)
حيث ذكر معانيها المتعددة.

* وفي إطار الحديث عن دلالة المفردات، عمد أبو
سعيد إلى منهج اطرده استخدامه له بصدد تفسيره للمفردات؛
حيث دأب على ذكر المعنى المباشر للكلمة، ثم التعرض
لمشتقات الكلمة مع ذكر معانيها. وفي كثير من الأحيان
يعلق على الكلمة بعد ذكر معناها بقوله: «هذا اللفظ
غريب»^(٨٤). ومن النماذج المثلة لهذا المنهج قوله في
التعليق على كلمة وردت في أبيات من الشعر، فذكر أن
الشاعر :

«يريد باللأمة اللؤم، هذا لفظ غريب، فإن اللأمة
الدرع، وكذلك يقال: استلأم الرجل إذا دخل
في شكتته، والشكة: السلاح؛ فأما استلم - بغير
همز - فلمس الحجر، والحجر هو السلام،
والألأم: اللثام، والملائم: الخصال اللثيمة، فأما
الملاوم فالمعايب، ومنه «فأقبل بعضهم على بعض
بتلاومون» (القلم ٣٠)..^(٨٥)

وفي أحوال أخرى كان يبدأ بذكر اشتقاقات الكلمة،
وكيفية نطقها قبل أن يذكر معناها، ومن ذلك قول
التوحيدى :

«سمعت أبا سعيد يقول: النعى مصدر نعى ينعى.
والنعى - بالتشديد - الناعى، والناعى هو المخبر
بالموت»^(٨٦).

وتارة أخرى يعلق السيرافي على نطق كلمة وردت في
أبيات من الشعر، ويحذر من نطقها على نحو معين يؤدي بها
إلى دلالة ليست هي المقصودة في الأبيات، ثم يذكر نطقها
الصحيح الذى يؤدي إلى المعنى الذى ترمى إليه اللفظة فى
سياق الأبيات. فمن ذلك ما ذكره التوحيدى فى التعليق
على لفظة وردت فى أبيات من الشعر :

«سمعت السيرافي يقول: إياك أن تنشُد: طُرُّ
شاربى. لأن طر قطع. ومنه الطار والطارار، ومنه

مناظرته مع أبي بشر متى، التي أوردها أبو حيان في كتابه (الإمتاع والمؤانسة)، بالإضافة إلى مقولات عدة في كتابه (المقابس).

فالسيرافي يرى أن «النحو هو عيار الأشياء، وحلى الألسن، وجلاء الأسماع»^(٩٣)، فهو يرى أن النحو، بالإضافة إلى دوره في تمييز الأشياء وتحديد معانيها، يضيف على الكلام حسن الصنعة بما يضيفه عليه من الفصاحة، ويربح الأذن لكونه فصيحاً ينسجم مع الذوق اللغوي، وذلك لأن :

«صحيح الكلام من سقيمه يعرف بالنظم المألوف والإعراب المعروف إذا كنا نتكلم بالعربية؛ وفاسد المعنى من صالحه يعرف بالعقل إذا كنا نبحت بالعقل»^(٩٤).

أى أن النظم المألوف والكلام المعروف هو الطريق إلى معرفة صحيح الكلام من فاسده إذا كان الجديث بالعربية. أما صلاح المعنى من فساد، فيعرف بالعقل وليس بالمنطق. المنطق مجرد شكل وصياغة، أما الحدس فهو أداة المعرفة، والتجربة المباشرة طريق إليها. وفهم الكلام بالقصد وليس بالمنطق، فالمعنى قصد، والقصد شعوري وليس عقلياً، يعبر عنه في كلام تعرف قواعده بالنحو.

«والنحو يرتب اللفظ ترتيباً يؤدي إلى الحق المعروف أو العادة الجارية. والحاجة إلى النحو أكثر من الحاجة إلى المنطق»^(٩٥). فمعد أهل النحو نفى اللغة عن المنطق. فاللغة منطق العرب كما أن المنطق لغة اليونان. والكلام والمنطق واللغة واللفظ والإفصاح والإعراب والإبانة والحديث والإخبار والاستخبار والغرض والتعني والنهي والحض والدعاء والنداء والطلب منطق العرب. النحو منطق ولكنه مستمد من اللغة العربية، والمنطق نحو ولكنه مفهوم باللغة»^(٩٦).

أما عند أهل المنطق، فالخلاف بين النحو والمنطق هو خلاف بين اللفظ والمعنى، والمعنى أهم من اللفظ. اللفظ طبعي والمعنى عقلي. لهذا كان اللفظ بائناً في الزمان؛ لأن الزمان يقف أثر الطبيعة بأثر آخر من الطبيعة. والمعنى ثابت على مر الزمان لأنه مستمد من العقل، والعقل إلهي. اللفظ طبعي مادي والمعنى روحي سماوي^(٩٧). لذلك، لا يحتاج المنطق إلى النحو في حين أن النحو في حاجة إلى المنطق.

المنطق يبحث عن المعنى والنحو يبحث عن اللفظ. وتناول المنطق اللفظ بالعرض، وإن تناول النحو المعنى فبالعرض. والمعنى أشرف من اللفظ واللفظ أوضع من المعنى. فعند المنطقي المنطق والنحو تخصصان متميزان، المنطق للمعنى والنحو لللفظ. ولوسائل المنطقي عن النحو لما أفاده، ولو سئل النحو عن المنطق لما عرف^(٩٨). ولذلك، قال أبو بشر متى لتبرير عجزه عن تفسير بعض التراكيب النحوية التي طرحها عليه السيرافي:

«لو نثرت أنا أيضاً عليك من مسائل المنطق أشياء لكان حالك كحالي»^(٩٩).

ورفض السيرافي هذا التمايز بين المنطق والنحو. فإن النحو ينظر في علاقة اللفظ بالمعنى من حيث سلامة اللفظ وجريه على العادة. وإذا لم يكن اللفظ متعلقاً بالمعنى فإنه يكون خارج البحث ولا يرد إلى المنطق ولا إلى النحو؛ إذ يكون مجرد حشو. ولا توجد لغة موازية للغة الألفاظ المقررة بين أهلها. لغة المنطق كالسبب والآلة والإيجاب والموضوع والمحمول والكون والفساد والمهملة والمحصور أقرب إلى المعنى والفهامة منها إلى اللغة والمنطق. والمنطقي لا يعرف النحو ويخوض فيه، ولا يعرف الشعر والخطابة ويخوض فيهما، وقول المنطقي إن النحو ينظر في اللفظ دون المعنى وإن المنطق ينظر في المعنى دون اللفظ مجرد ادعاء؛ لأن المنطقي يجبل فكره في المعاني ويرتب ما يريد بالسانع والخابر والحدس والوهم. فإذا ما أراد التعبير عن ذلك للمتعم والمناظر له فإنه يحتاج إلى اللفظ الذي يشتمل على مراده ويكون مطابقاً لقصده، ولهذا يرفض السيرافي ثنائية اللفظ والمعنى نظراً لحاجة كل منهما إلى الآخر^(١٠٠).

ويرى السيرافي أن الفرق بين المنطق والنحو يتلخص في أن النحو من الفطرة والطبيعة، والمنطق من العقل والصنعة مما قد يقني الإنسان عن المنطق دون النحو. فعند السيرافي يقني الطبع والفطرة والبديهة وعادة الناس في الكلام عن المنطق. فالإنسان يتعلم من اللغة أولاً بالنشأة والوراثة، بالطبيعة والاكْتِسَاب قبل المنطق الذي هو اجتهد في المعنى بالنظر والرأى. وإذا كانت الحاجة ماسة إلى كتاب (البرهان) كما يقول أهل المنطق فكيف استدلل الناس قبل ظهور علم المنطق؟ وإذا كان الناس قد استطاعوا البرهنة قبل كتاب

بالتقديم والتأخير وتوحي الصواب في ذلك وتجنب الخطأ من ذلك، وإن زاع شئ عن هذا التعت فإنه لا يخلو من أن يكون سائفا بالاستعمال النادر والتأويل البعيد، أو مردوداً لخروجه عن عادة القوم الجارية على فطرتهم. فأما ما يتعلق باختلاف لغات القبائل فذلك شئ مسلم لهم ومأخوذ عنهم، وكل ذلك محصور بالتنتيع والرواية والسماع والقياس المطرد على الأصل المعروف من غير تحريف» (١٠٤).

فالسيرافي يرى أن هناك معايير عدة تحدد لنا معنى التركيب النحوي، وتتضافر جميعها لتعطي الدلالة المقصودة من هذا التركيب. ومن بين هذه المعايير صياغة الكلمة وبنيتها، وهي ما أشار إليه بعبارة «حركات اللفظ وسكناته». ثم أشار إلى الأدوات التي تقسم علاقة بين لفظ وآخر داخل التركيب النحوي، وعنى به «وضع الحروف في مواضعها المقتضية لها»، إذ إن استبدال حرف بآخر قد يغير دلالة التركيب النحوي. ثم يحدثنا عن معيار نظم المفردات داخل التركيب وما يؤدي إليه التقديم والتأخير في تأليف الكلام ونظمه من إبراز دلالة التركيب النحوي وإنعكاسه على جماليات الكلام وما تحدثه من أثر في نفس المتلقي. كما أشار السيرافي إلى أن هذه المعايير إنما تتم وفق قواعد تحكمها. ولكن ليس كل خروج عن هذه القواعد يعد خطأ؛ لأنه قد يكون سائفاً في أحيان كثيرة بالاستعمال النادر والتأويل البعيد، أو قد يكون مردوداً لخروجه عن عادة القوم الجارية على فطرتهم. والتمييز بين هذا وذاك إنما هو محصور بالتنتيع والرواية والسماع والقياس المطرد على الأصل المعروف من غير تحريف.

* ومن القضايا النحوية التركيبية كذلك قضية معاني الحروف، وهي مرتبطة بقضية معاني النحو التي تحدثنا عنها آنفاً، وذلك لأنه إذا كان وضع الحروف في مواضعها المقتضية لها في التركيب النحوي له أهميته الحيوية في نظم الكلام وتأليفه، فإن معرفة معاني الحروف يكون حيوياً لإدراك أي منها نستعمله ليكون منسجماً مع تأليف الكلام من ناحية، وللوصول إلى الدلالة المنشودة من هذا التركيب النحوي من ناحية أخرى. فمن المعاني التي قيلت:

(البرهان) فإنهم قادرون على ذلك بعده ودون معرفته، ومن ثم يمكن الاستغناء عنه؛ خاصة لو كان تخليطاً وزرقاً وتهويلاً ورعداً وبرقاً. كل المنطق، أشكاله، قضاياها، وطرق استدلاله، خرافات وترهات، ومغالق وشبكات، يغنى عن ذلك كله جودة العقل، وحسن التمييز، ولطف النظر، وثقب الرأي، ونور النفس بعون الله وفضله، ومن منح الله الهنية، ومواهبه السنية، يخص بها من يشاء من عباده. ويجهل أهل المنطق النحو من بدل ووجوه، ومعرفة وأقسامها، ونكرة ومراتبها. ولا يكفي أن يكون المنطق من عمل العقل؛ لأن المنطق على وجوه عدة منها اللغة واللسان، في حين أن النحو يساعد على فهم المراد من الكلام وقدر اللفظ على المعنى، فلا يفضل عنه، وقدر المعنى على اللفظ فلا ينقص عنه» (١٠١).

ويرى السيرافي أنه برغم وجود الاختلافات بين النحو والمنطق، فإن هناك نوعاً من التكامل بينهما؛ إذ لما كان النحو منطق اليونان، وكان المنطق نحو العرب، فالمنطق نحو عقلى، والنحو منطق عربى. المنطق لغة الفكر، والنحو منطق اللغة. فالخلاف بين المنطق والنحو ظاهري يعبر فقط عن خصائص الشعوب، اليونان والعرب. ولكنهما وظيفياً يؤديان المهمة نفسها، الضبط والإحكام، والتقنين والتعميد. فهو يرى أن المنطق عقلى والنحو طباعى، ولما كان المنطق بالعقل والنحو بالطبع وكان الطبع أقرب إلينا من العقل، وكانت الحاجة إلى النحو أشد من الحاجة إلى المنطق، وكان النحو أول مباحث الإنسان في حين إن المنطق آخر مطالبه. لذلك، فإنك إذا قلت لإنسان: «كن منطقياً» فإنك تريد: كن عقلياً أو عاقلاً، أو اعقل ما تقول... وإذا قال لك آخر: «كن نحويًا لغويًا فصيحاً» فإنما تريد: «افهم عن نفسك ما تقول، ثم رم أن يفهم عنك غيرك» (١٠٢). فالبحت عن المنطق قد يرمى بك إلى جانب النحو، والبحث عن النحو يرمى بك إلى جانب المنطق، ولولا أن الكمال غير مستطاع لكان يجب أن يكون المنطقى نحويًا، والنحوى منطقياً (١٠٣).

* ومن القضايا النظرية في إطار القضايا النحوية التركيبية، قضية معاني النحو، حيث يرى:

«أبو سعيد أن معاني النحو منقسمة بين حركات اللفظ وسكناته، وبين وضع الحروف في مواضعها المقتضية لها، وبين تأليف الكلام

«إن «فى» هى للوعاء، وإن «فى» تقال على وجوه: يقال: «الشئ فى الإناء»، «والإناء فى المكان»، «والسائس فى السيانة»، «والسياسة فى السائس»... كما يقولون إن البساء للإصاقي» (١٠٥).

وفى إطار الحديث عن وضع الحروف والأدوات فى مواضعها المقتضية لها وفقا لما تقتضيه دلالة التركيب النحوى، تحدث السيرافى عن استعمال «ما» لغير العاقل، و «من» للعاقل، وذلك من خلال شرحه لقوله تعالى: (فانكحوا ما طاب لكم من النساء) (١٠٦)، حيث يشير إلى أن «ما» هاهنا وقعت على من يعقل، وهن النساء، والأصل أن «ما» تقع على من لا يعقل، و «من» على من يعقل، فإن هذا جائز؛ ألا ترى إلى قوله «والسماء وما بناها» (١٠٧)، أى: ومن بناها، وإن كان قد قيل فيه وجه آخر هو: «والسماء وما بناها» أى وبناؤها، قال: ويجوز أن تكون «ما» هاهنا بمنزلة «الذى»، كأنه قال: الذى طاب لكم من النساء، فإن قيل على هذا الوجه، فكيف تكون بمعنى الذى وهو للمذكر، قيل: هذا يجوز لأنه عبارة عن الجنس، ألا ترى إلى قولك: من فى الدار صحيح، مع علمك أن فى الدار امرأة أو رجلا، وكما قال تعالى: «النار الذى كنتم به تكذبون» (١٠٨)، ويكون هاهنا عائداً على اللفظ نفسه؛ قال: وهذا وجه صالح. قال: ويجوز على معنى ثالث وهو أن تكون «ما» عبارة عن أى وقت وزمان كأنه قال: «وانكحوا من النساء ما طاب أى وقت طاب، وقال: إن صح هذا فهو جيد» (١٠٩).

وبالإضافة إلى حديث السيرافى عن معانى الأدوات والحروف، تحدث أيضا عن معنى الضمير «هو»؛ فلقد قال أبو سعيد السيرافى: «هو» عبارة عن اسم منكور، كما أن قولنا «فلان» عبارة عن كل اسم علم ما يعقل» (١١٠). كما ذكر أن «التكرة أخف من المعرفة. لأن التكرة حال الاسم فى الأول...» (١١١).

* ومن بين القضايا النحوية التركيبية قضية الإعراب ومفهومها؛ حيث قال التوحيدى:

«سمعت أبا سعيد السيرافى يقول: والإعراب حركة تحل بأخر حرف من الاسم كالدال من

زيد، وكان غيره يقول: الأسماء أصول والأفعال فروع منها» (١١٢). وهو يرى أن:

«صحيح الكلام من سقيمه يعرف بالنظم المألوف والإعراب المعروف إذا كنا نتكلم بالعربية» (١١٣).

ولما كان «من يتكلم بالإعراب والصحة ولا يلحن ولا يخطئ؛ ويجرى على السليقة الحميدة والضرية السليمة قليل أو عزيز»، فإن الحاجة شديدة إلى «من عدم هذه السجية وهذا المنشأ إلى أن يتعلم النحو ويقف على أحكامه ويجرى على منهاجه، ويفى بشروطه فى أسماء العرب وأفعالها وحروفها وموضوعاتها ومستعملاتها ومهملاتها؛ ومتى اتفق إنسان بهذه الحلية وعلى هذا النجار، فلعمري إنه غنى عن تطويل النحويين كما يستغنى قارض الشعر بالطبع عن علم العروض...» (١١٤).

ولقد نظر السيرافى إلى اللحن فى اللغة نظرة اجتماعية، أو بعبارة أخرى نظرة طبقية، فلقد قال السيرافى:

«سمعت نبطويه يقول: «لحن الكبراء النصب والجسر، ولحن الأواسط الرفع، ولحن السفلة الكسر» (١١٥).

المبحث الثانى

المصطلحات النحوية:

تناولت النصوص المنسوبة إلى السيرافى فى كتابات التوحيدى مصطلحات نحوية عدة، منها ما يتعلق بالاستثناء ومنها ما يتعلق بمعنى، وكذلك ما يتعلق بالأسماء المصروفة وغير المصروفة.

* أما عن الاستثناء فقد تحدث عن قضيتين، هما: «حاشاء»، و «غير».

وبعد أن يسوق أبو حيان قول السيرافى فى ذلك، يعلق بقوله: «هذا آخر كلام أبى سعيد، سفته لأنه تمام المعنى فى لفظ مختلف فيه» (١١٦).

وفى باب الاستثناء أيضا تحدث السيرافى عن «غير» - وهى أحد أدوات الاستثناء - ولكنه ذكر أنها تستعمل

بمعنى «مثل»، وذلك فى تعليقه على ثلاثة أبيات وردت كلمة «غير» فى واحد منها، فلقد قال حارثة بن بدر الغداني: [البسيط]

يا كعب ما طلعت شمس ولا غربت

إلا تقرب آجالا لميعاد

يا كعب صبرا على ما كان من حدث

يا كعب لم يبق منا غير أجداد

إلا بقيات أنفاس نحشرجها

كراحل رائج أو باكر غاد

قال أبو سعيد: «فإن «غير» هاهنا بمنزلة «مثل»، كأنك قلت: لم يبق منا أجداد إلا بقيات أنفاس، وعلى هذا أنشد الناس هذا البيت للفرزدق: [البسيط]

ما فى المدينة دار غير واحدة

دار الخليفة إلا دار مروانا

جعلوا «غير» صفة بمنزلة مثل، ومن جعله بمنزلة الاستثناء لم يكن له يد من أن ينصب أحدهما، وهو قول ابن أبى إسحاق: (١١٧).

* أما عن «عسى» فقد «قال أبو سعيد: فى عسائك وعسانى ثلاثة أقوال:

أحدها قول سيبويه، وهو أن عسى حرف بمنزلة لعل ينصب ما بعدها وهو الاسم، والخبر مرفوع والكاف اسمها وهى منصوبة، واستدل على النصب فى عسائك بقول: عسانى، والنون والياء فيما آخره الألف لا تكون إلا للنصب.

والقول الثانى قول الأخفش: إن الكاف والياء والنون فى موضع رفع، وحجته أن لفظ النصب استعير للرفع فى هذا الموضع كما استعير له لفظ الجر فى لولاي ولولاك.

والقول الثالث قول المبرد: إن الكاف والياء والنون فى عسائك وعسانى فى موضع نصب بمعنى، فإن

اسمها فيها مرفوع، وجعله كقولهم: عسى الغوير أبوساً، وحكى أنه قدم فيها الخبر لأنها فعل، وحذف الفاعل لعل المخاطب به فعل صحيح لا يدخله الاختلاف فيه» (١١٨).

* كما يذكر التوحيدى قول السيرافى فى الأسماء المصروفة:

«ما إذا صغر منع الصرف، وفى الأسماء مالا ينصرف، وإذا صغر صرف، وفيها مالا ينصرف فى مصغر ولا مكبر... إلخ» (١١٩).

المبحث الثالث:

التركيب والأساليب:

كشفت النصوص المنسوبة إلى السيرافى فى كتابات التوحيدى عن قضايا تركيبية وأسلوبية عدة، عالجهما السيرافى من نواح عدة، منها ارتباط دلالة التركيب بضبط إحدى مفرداته، ومنها استخدام أداة مكان أخرى وما يشير ذلك من تأويلات دلالية مختلفة، ومنها أيضا الحديث عن فروق دلالية بين تراكيب بينها قدر من الاختلاف فى التركيب، وأخيرا التراكيب التى تبرز أثر النحو فى حدوث الضرورة الشعرية.

* أما عن ارتباط دلالة بعض التراكيب بضبط إحدى مفرداته، فقد تجلّى ذلك فى تعليق السيرافى على تراكيب عدة، منها:

الحديث عن انتصاب كلمة «قائما» على الحال فى قوله تعالى: «قائما بالقسط» (١٢٠)، فلقد قال أبو حيان سألت السيرافى عن قوله «قائما بالقسط» بم انتصبت «قائما»؟ قال: بالحال، قلت أين الحال؟ قال: لله تعالى، قلت أيقال لله حال؟ قال: إن الحال هى للفظ لا لمن يلفظ بالحال عنه. ولكن الرحمة لا تستوفى حقيقة المعنى فى النفس إلا بعد تضوع الوهم. هذه الأشياء صناعة تمكن إليها النفس ويقنع بها القلب» (١٢١).

* أما عن استخدام أداة مكان أخرى وما يشير ذلك من تأويلات دلالية، فمعناها قول التوحيدى: «سمعت السيرافى يقول «فانكحوا ما طاب لكم من النساء» (١٢٢). «ما» هاهنا

وقعت على من يعقل، ومن النساء، والأصل أن «ما» تقع على من لا يعقل و «من» على من يعقل، فإن هذا جائز؛ ألا ترى إلى قوله «والسما» وما بناها» (١٢٣)، أى ومن بناها، وإن كان قد قيل فيه وجه آخر وهو: «والسما» وما بناها» أى وبناها؛ قال: ويجوز أن تكون «ما» هاهنا بمنزلة «الذى»، كأنه قال: الذى طاب لكم من النساء، فإن قيل على هذا الوجه، فكيف تكون بمعنى الذى وهو للمذكر، قيل: قد يجوز لأنه عبارة عن الجنس، ألا ترى إلى قولك: من فى الدار صحيح، مع علمك أن فى الدار امرأة أو رجلا، وكما قال تعالى «النار الذى كنتم به تكذبون» (١٢٤)، ويكون هاهنا عائدا على اللفظ نفسه؛ قال: وهذا وجه صالح. قال: ويجوز على معنى ثالث وهو أن تكون «ما» عبارة عن أى وقت وزمان كأنه قال: وانكحوا من النساء ما طاب أى وقت طاب، وقال: إن صح هذا فهو جيد» (١٢٥).

* أما عن الفروق الدلالية بين تراكيب بينها قدر من الاختلاف وقدر من التشابه فى التركيب، فمنها:

عبارة «زيد أفضل الإخوة» ومدى اختلافها دلاليا عن عبارة «زيد أفضل إخوته» (١٢٦).

ومن التراكيب التى أدلى فيها السيرافى برأيه فى دلالتها، قول أبى حيان:

«قلت لأبى سعيد السيرافى شيخ الدنيا: قال أبو زيد: يقال: إنه لكثير فضيض الكلام، أيراد بهذا مدح المذكور أم الزرابة عليه؟

فقال لى: هو إلى الزرابة أقرب؛ لأن الفض كسر، ومنه: فضضت ختم الكتاب، ومنه: ضربه فصار فضاضا؛ والصحيح خير من المكسور، وكأنه يراد بهذا أنه يرمى بالكلام مكسرا غير صحيح» (١٢٧).

ومن التراكيب التى ساقها لوجود فروق دلالية بينها دون أن يفسرها أو يعلق عليها:

«لهذا على درهم غير قيراط؛ ولهذا الآخر على درهم غير قيراط» (١٢٨) وكذلك عبارة: «قال رجل لصاحبه: «بكم الثوبان المصبوغان». وقال آخر: «بكم ثوبان مصبوغان». وقال آخر: «بكم ثوبان مصبوغين» (١٢٩).

ومنها أيضا قوله: «قال قائل: «من الكلام ما هو مستقيم حسن، ومنه ما هو مستقيم محال، ومنه ما هو مستقيم قبيح ومنه ما هو محال كذب، ومنه ما هو خطأ» (١٣٠).

ومن التراكيب التى ساقها دون تفسير أو تعليق كذلك قول السيرافى:

«قال قائل: «لفلان من الحائط إلى الحائط» ما الحكم فيه؟ وما قدر المشهود به لفلان؟ فقد قال ناس: له الحائطان معا وما بينهما. وقال آخرون له النصف من كل منها. وقال آخرون: له أحدهما» (١٣١).

ولقد علق السيرافى على التراكيب السابقة بقوله إن «علاقتها بالمعنى العقلى أكثر من علاقتها بالشكل اللفظى» (١٣٢).

ومن التراكيب التى ذكرها السيرافى، والتى تبرز أثر النحو فى حدوث الضرورة الشعرية، ما ذكره التوحيدى من أنه قد

«حكى أبو سعيد السيرافى أنه دخل إلى مسجد ابن دريد ورجل ينشد: [الوافر]

تغيرت البلاد ومن عليها

فوجه الأرض مغبر قبيح

تغير كل ذى طعم ولون

وقل بشاشة الوجه المليح

فقال أبو بكر: هذا والله عجب، أول من قال الشعر أقوى؛ قال، قلت: له مخرج فى النحو إذا ترك الإقواء؛ قال: ما هو: قلت: وقيل بشاشة الوجه الصبيح، بحذف التنوين وبنصب، والتنوين يراد، ويكون نصه على مذهب التمييز...» (١٣٣).

ثالثا: أنواع أخرى من النصوص المنسوبة إلى السيرافى:

ويتناول هذا المحور الأخير من البحث دراسة أنواع أخرى من النصوص المنسوبة إلى السيرافى فى كتابات أبى حيان التوحيدى، وتشمل الشعر وشروحه، الأقوال المأثورة والحكايات والتعليق عليها.

كما ساق السيرافي أبياتا من الشعر لخارجي في زيد
بن علي بن حسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام لما
قتل: [الكامل]

يا با حسين والحوادث جمعة
أولاد درزة أسلموك وطاروا
يا با حسين لو شراة عصابة
علقتك كان لوردهم إصدار
إن يقتلوك فإن قتلك لم يكن
عاراً عليك ورب قتل عار (١٣٧)

ثم ذيل السيرافي هذه الأبيات بالتفسير اللغوي
لكلمات وردت فيها، هي: «أولاد درزة»، و«شراة عصابة»،
فقال:

أولاد درزة: الخياطون، وإنما يعنى أرذال الناس
وسفلتهم، وشراة عصابة: مزاح عن حقه، أراد:
عصابة شراة، وإنما قالوا: نحن شراة أى نحن
شرينا أنفسنا أى بعناها في ذات الله. (١٣٨)

أما عن أبيات الشعر التي أنشدها السيرافي دون
تعليق، فمنها ما كان من نظم غيره، ومن ذلك قول
التوحيدي:

«أنشدنا أبو سعيد: [الكامل]

أولاد درزة أسلموه مهسلا
يوم الخميس لغير ورد الصادر

تركوا ابن فاطمة الكريم جدوده

بمكان مسخرة لعين الناظر

وعزاها إلى بعض الخوارج. (١٣٩).

ومن ذلك أيضا

«أنشدنا أبو سعيد السيرافي لأبي هفان يخاطب
إبراهيم بن المدبر وقد خرج مصعدا إلى بغداد من
البصرة: [الرملة]. (١٤٢)

* أما عن الشعر الذي ورد على لسان السيرافي في
كتابات التوحيدي، فتراوح بين أبيات مصحوبة بتعليق عليها،
وأخرى ساقها دون تعليق.

أما عن الأبيات التي ساقها مصحوبة بتعليق، فقد كان
في أغلبه لغويا، كما كان بعض هذه الأبيات من إنشاده
وبعضها الآخر رواها عن آخرين.

أما عن الأبيات التي لم ينسبها إلي أحد وفي الأغلب
كانت من نظمه؛ حيث ساقها ليستعين بها على تفسير
معاني بعض المفردات لغويا، ومناقشة ما تثيره هذه المفردات
من قضايا بعينها، فمنها قول التوحيدي:

«قال أبو سعيد السيرافي: إن هذا لزيد إذا كان
المشار إليه هو زيد، وكسروا اللام ليزول اللبس،
وأصلها الفتح، لأن الباب في الحروف المفردة أن
تبنى على الفتح فإذا وصلت بالكنى عادت إلى
أصلها من الفتح، وذلك قوله: إن هذا له، وإن
هؤلاء لنا، لأنك تقول في مكى المرفوع: إن هذا
لأنا، وإن هؤلاء لنحن، وإن هذا لهو، وأنشد:
[الطويل]

وإني امرؤ من عصبة خندفية

أبت للأعداء أن تنيخ رقابها» (١٣٤)

فلقد ناقش السيرافي قضية كسر اللام وفتحها، ثم ذيل
رأيه ببيت من الشعر من إنشاده كشاهد على صحة رأيه. وفي
موضع آخر بدأ بإنشاد أبيات. هي في الأغلب من نظمه، ثم
علق عليها بالتفسير اللغوي لبعض المفردات التي وردت فيها،
ولكى يدلل على صحة تفسيره؛ روى شطراً لشاعر آخر
جاهلي هو طرفة بن العبد (١٣٥)

ولقد أورد السيرافي أبياتا من نظم الآخرين كشاهد
على صحة رأيه إزاء مناقشته لقضية لغوية. ومن ذلك تفسيره
لكلمتي «الوعد» و«الوعيد»، ثم دلل على صحة تفسيره
ببيت «لأبي وجزة السعدى يقول مادحا بلسانه جاريا على
فطرته: [الكامل]

صدق إذا عد الرجال وأوعدوا

فأحث بادرة وأوفى موعد» (١٣٦)

وهناك من أبيات الشعر ما ذكره على سبيل مناسبتها لمقتضيات الموقف (١٤١)، وهناك أيضاً أبيات من الشعر قرئت على السيرافي لاستطلاع رأيه فيها، فصحت ولم يبد تعليقاً عليها، مما يوحى بإقراره لها وموافقته عليها (١٤٢).

* أما عن الأقوال المأثورة والحكايات التي ذكرها السيرافي، فمنها الأقوال التي وردت رداً على أسئلة مرتبطة بمواقف معينة، ومن مثل هذه الأقوال على سبيل المثال: «قبل لمديني أتحب رمضان؟ قال: ما أثنأ بشهور سائر السنة من أجله فكيف أحبه؟» (١٤٣). ومنها أيضاً: «سكر مزبد يوما وجاء إلى امرأته فقالت: أسأل الله أن يغض إليك النبيذ، فقال: وإليك القيب» (١٤٤).

وبالنسبة إلى الحكايات فقد أورد السيرافي بعضها مفسراً بعض مفرداتها لغوياً، ومنها ما ساقه لما فيه من الحكمة والعبرة.

ومن الحكايات التي ساقها لتفسير بعض مفرداتها لغوياً قوله:

«دخل عطية بن عبد الرحمن الثعلبي على مروان بن محمد، فلما صار على طرف البساط تكلم. فملأه سروراً. ثم قال: ايذن لي يا أمير المؤمنين أقبل يدك. فقال له مروان: قد عرف أمير المؤمنين مكانك في قومك وفضلك في نفسك. والقبلة من المسلم ذلة، ومن الكافر خدعة، ولا حاجة بك إلى أن تذل أو تخدع. وأنت الأثير عندنا على كل حال. الخاء من «خدعة» كانت مضمومة... وفتحها لغة رسول الله ﷺ وآله، وضمها جائزه» (١٤٥).

أما عن الحكايات التي ساقها دون تعليق ولكن مضمونها يوحى بالحكمة والعبرة، فمنها ما نقله التوحيدى عن خط السيرافي من أن:

«عبد الملك بن عمير قال - وأوماً بيده إلى قصر الإمارة بالكوفة -: دخلت هذا القصر فرأيت عجباً؛ رأيت عبيد الله بن زياد جالساً على سريره

وبين يديه ترس فيه رأس الحسين بن على عليهما السلام ولعن قاتلهما، ثم دخلت هذا القصر فرأيت المختار جالساً على السرير وبين يديه ترس فيه رأس عبيد الله بن زياد، ثم دخلت هذا القصر فرأيت مصعب بن الزبير بن العوام وهو جالس على السرير وبين يديه ترس فيه رأس المختار، ثم دخلت هذا القصر فرأيت عبد الملك ابن مروان جالساً على السرير وبين يديه ترس فيه رأس مصعب...» (١٤٦).

خلاصة القول، أن النصوص المنسوبة إلى السيرافي في كتابات أبي حيان التوحيدى كشفت عن أمور عدة لها أهميتها. ولعل أهمها أن طرق نقل أو تحمل هذه النصوص أبرز أمانة تحمل التلميذ عن أستاذه، فضلاً عن أمانة النقل عند الأستاذ. فكل منهما لم ينسب أو يدعى لنفسه رأياً لم يكن صادراً منه، مما يؤسس ويرسخ أديبات الأمانة العلمية لدى التلميذ والأستاذ على حد سواء.

ولقد كشفت هذه النصوص عن معالجة قضايا متنوعة، فكان منها ما يتعلق ببنية الكلمة وما يرتبط بها من قضايا صرفية تتعلق بالميزان الصرفي أو المصادر والاشتقاق.

وأبرزت النصوص كذلك القضايا المتعلقة بدلالة المفردات، وكشفت عن منهج السيرافي في معالجتها وإبراز دلالتها، كما كانت قضية اللفظ والمعنى من المباحث التي شغلت حيزاً من كتابات السيرافي، فضلاً عن معالجته لقضية الترادف، وقضية تعدد المعنى.

كما تعرضت النصوص للقضايا النحوية التركيبية، وقضايا التراكيب والأساليب، وأمكن تصنيفها في أربعة مباحث، هي قضايا نظرية في علم النحو، وقضايا المصطلحات النحوية، وقضايا التراكيب والأساليب وأخيراً النحو وأثره في حدوث الضرورة الشعرية.

كما تضمنت النصوص المنسوبة إلى السيرافي ألواناً مختلفة، فكان منها ما يعالج قضايا نظرية ومنها ما يتصدى لقضايا تطبيقية، فضلاً عن النصوص الشعرية وشروحها، والأقوال المأثورة والحكايات والتعليق عليها.

المصادر والمراجع

(أ) المصادر:

- أبو حيان التوحيدى:
أخلاق الوزيرين، مثالب الوزيرين، صاحب ابن عباد وابن العميد. حققه وعلق على حواشيه: محمد بن ثابت الطنجى، دار صادر، بيروت ١٩٩٢م، ١٤١٢هـ.
الإشارات الإلهية. حققه عبد الرحمن بدوى. وكالة المطبوعات. الكويت، ١٩٨١م.
الإمتاع والمؤانسة. صححه وضبطه وشرح غريبه: أحمد أمين، أحمد الزين. منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت. لبنان، د.ت. وأيضا منشورات لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة، ١٩٣٩م.
البصائر والذخائر. تحقيق: وداد القاضي. دار صادر. بيروت، ط١، ١٩٨٤م.
رسائل أبي حيان التوحيدى مصدرة بدراسة عن حياته وآثاره وأدبه. تحقيق: إبراهيم الكيلانى. دمشق، دار طلاس، ١٩٨٥م.
الصدافة والصدق. تحقيق: إبراهيم الكيلانى. دار الفكر، دمشق، ١٩٦٤م.
المقابسات. تحقيق وتعليق حسن السندوبى. دار المعارف للطباعة والنشر. سوسة. تونس. ط١، حويله ١٩٩١م. ط٢ دار سعاد الصباح ١٩٩٢م.
الهوامل والشوامل. نشره أحمد أمين، السيد أحمد صقر. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة ١٩٥١م، ١٣٧٠هـ.

(ب) المراجع:

- أحمد محمد الحرفى: أبو حيان التوحيدى. مطبعة نهضة مصر. ط١، ١٩٥٧، ط٢، ١٩٦٤م.
عبد الرزاق محى الدين: أبو حيان التوحيدى، سيرته وآثاره. مطبعة السعادة، مصر. ط١، ١٩٤٩م.
عبد الواحد حسن الشيخ: أبو حيان التوحيدى وجهوده الأدبية والفنية. الهيئة المصرية، الإسكندرية، ١٩٨٠م.
محمد عبد الغنى الشيخ: أبو حيان التوحيدى وأبه فى الإعجاز وأثره فى الأدب والنقد. الدار العربية للكتاب. بيروت، ١٩٨٣م.
محمود إبراهيم: أبو حيان التوحيدى. الدار المتحدة للنشر، بيروت، ١٩٧٤م.
ياقوت الحموى: معجم الأديباء. حققه إحسان عباس، دار الغرب الإسلامى. بيروت، ١٩٩٣م.
يوسف شارونى: الحب والصدافة فى التراث العربى والدراسات المعاصرة. دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٧٥.

الهوامش

- ١ - معجم الأديباء ج١: ١٥، ص ٥، ط دار المأمون.
- ٢ - طبقات الشافعية ج٤: ط مصر.
- ٣ - انظر: الفهرست لابن النديم ص ٩٩، وفيات الأعيان ص ٧٨، وفيات الوعاة ص ٢٢٥. هو الحسن بن عبدالله بن المزيان، وأصله من فارس ومولده بسيراف، ومن ثم قيل له السيرافى نسبة إليها. قرأ القرآن الكريم على أبى بكر بن مجاهد - أحد القراء السبعة - وتعلم اللغة على ابن دريد، والنحو على أبى بكر بن السراج النحرى، وكان أعلم الناس فى عصره بنحو البصريين.
- ٤ - الإمتاع والمؤانسة ج١: ص ١٣٠ ط. اللجنة ١٩٣٩م.
- ٥ - الفهرست ص ٩٩.
- ٦ - معجم الأديباء: ج٨: ص ١٥٠.
- ٧ - المصدر السابق: ج٨: ص ١٥١.
- ٨ - المصدر نفسه: ج٨: ص ١٥٣.
- ٩ - المصدر نفسه: ج٨: ص ١٥٤.
- ١٠ - أخلاق الوزيرين: ص ٤٠٠.
- ١١ - المصدر السابق: ص ٤١١، ص ٤١٣. وانظر: الإمتاع والمؤانسة ج١: ص ١٣٠.
- ١٢ - معجم الأديباء: ج٨: ص ١٥٥.
- ١٣ - إبراهيم الكيلانى أبو حيان التوحيدى: ص ١٤، زكريا إبراهيم، أبو حيان التوحيدى: ص ٣٣.
- ١٤ - معجم الأديباء: ج٨: ص ١٧٢، والإمتاع والمؤانسة: ج١: ص ١٣٢، ص ١٣٣.
- ١٥ - انظر على سبيل المثال: البصائر ج٢: ص ٧٧٠.

- ١٦ - زكريا إبراهيم، أبو حيان التوحيدي: ص ٢٣.
- ١٧ - أخلاق الوزيرين: ص ٢٤٨.
- ١٨ - معجم الأدياء: ج ٨: ص ١٥٢.
- ١٩ - المقابسات: ص ١٧٥.
- ٢٠ - الإمتاع والمؤانسة: ج ١: ص ١٢٩.
- ٢١ - أخلاق الوزيرين: ص ٤١٤، ونشر معجم الأدياء ج ٨: ص ١٥٣، والبصائر: ج ١: ص ٢١٤.
- ٢٢ - معجم الأدياء: ج ٨: ص ١٥٥.
- ٢٣ - البصائر والذخائر: ج ٢: ص ١٩٢.
- ٢٤ - المصدر السابق: ج ٩: ص ٦٣.
- ٢٥ - المصدر نفسه: ج ١: ص ٣٧.
- ٢٦ - المصدر نفسه: ج ٥: ص ٨٧، ص ١١٨.
- ٢٧ - المصدر نفسه: ج ٦: ص ٢١٨.
- ٢٨ - المصدر نفسه: ج ١: ص ١٧٩.
- ٢٩ - المصدر نفسه: ج ٢: ص ٢٢١.
- ٣٠ - المصدر السابق: ج ٥: ص ١٣١.
- ٣١ - المصدر نفسه: ج ٤: ص ٢٠٧، ج ٥: ص ١٤٢، ص ١٤٣، ص ٢٠٠، ص ٢٠٨، ص ٢١٨، ج ٦: ص ١٠٨، ج ٨: ص ١١٠، وانظر: أخلاق الوزيرين: ص ٦٨، ص ٣٠٧.
- ٣٢ - البصائر والذخائر: ج ٦: ص ١٩٨.
- ٣٣ - المصدر السابق: ج ٦: ص ٢٠٦.
- ٣٤ - المصدر نفسه: ج ٩: ص ١٧٨، ص ١٧٩.
- ٣٥ - المصدر نفسه: ج ١: ص ١٧٨.
- ٣٦ - المصدر نفسه: ج ٢: ص ٨٧.
- ٣٧ - المصدر نفسه: ج ٦: ص ١٩٦، ص ١٩٧.
- ٣٨ - كتاب اللغات لبونس بن حبيب، ذكره ابن النديم في الفهرست: ص ٤٨، وانظر: وفيات الأعيان: ج ٧: ص ٢٤٥.
- ٣٩ - البصائر والذخائر: ج ٢: ص ٤٢.
- ٤٠ - المصدر السابق: ج ٤: ص ٢٢٠.
- ٤١ - المصدر نفسه: ج ٤: ص ٢٢٠.
- ٤٢ - المصدر نفسه: ج ٥: ص ١٣١.
- ٤٣، ٤٤ - المصدر نفسه: ج ٦: ص ١٩٧. وانظر أيضا: ص ١٩٨.
- ٤٥ - المصدر نفسه: ج ٤: ص ٢٣٢.
- ٤٦ - المصدر نفسه: ج ٩: ص ٦٧.
- ٤٧ - المصدر نفسه: ج ٣: ص ١٤٩.
- ٤٨ - المصدر نفسه: ج ٣: ص ١٤٩.
- ٤٩ - المصدر نفسه: ج ٣: ص ١٢٢.
- ٥٠ - المصدر نفسه: ج ٧: ص ١٣٦.
- ٥١ - المصدر نفسه: ج ٧: ص ١٢٧.
- ٥٢ - المصدر نفسه: ج ٧: ص ١١٦.
- ٥٣ - المصدر نفسه: ج ٧: ص ١٣٠، ص ١٣١.
- ٥٤ - المصدر نفسه: ج ٧: ص ١٣٣.
- ٥٥ - المصدر نفسه: ج ٧: ص ١٥٦، ص ١٥٧.
- ٥٦ - المصدر نفسه: ج ٩: ص ١٦٣.
- ٥٧ - المصدر نفسه: ج ١: ص ١٧٥.
- ٥٨ - المصدر نفسه: ج ٥: ص ٩٥.

- ٥٩ - المصدر نفسه: ج١: ص ٣٦، ص ٣٧.
 ٦٠ - المصدر نفسه: ج٥: ص ٩٥.
 ٦١، ٦٢ - المصدر نفسه: ج٤: ص ٢٣٢.
 ٦٣ - المصدر نفسه: ج٥: ص ٩٥.
 ٦٤، ٦٥ - المصدر نفسه: ج٥: ص ٨٧.
 ٦٦ - المصدر نفسه: ج٢: ص ١٩٣.
 ٦٧، ٦٨ - الإمتاع والمؤانسة: ج٢: ص ٢، ص ٣.
 ٦٩ - البصائر والذخائر: ج٦: ص ١٠٨، ص ١٠٩.
 ٧٠ - المصدر نفسه: ج٥: ص ٢١٨.
 ٧١ - المصدر نفسه: ج٨: ص ٥١.
 ٧٢ - المصدر نفسه: ج٩: ص ٢٠.
 ٧٣ - المصدر نفسه: ج٨: ص ١٤٧.
 ٧٤ - المصدر نفسه: ج٥: ص ٨٧.
 ٧٥ - المقابسات: ص ١٧٤، ص ١٧٥.
 ٧٦ - الإمتاع والمؤانسة: ج١: ص ١٢٥.
 ٧٧ - البصائر والذخائر: ج٥: ص ٥٠.
 ٧٨ - الإمتاع والمؤانسة: ج١: ص ١١٥.
 ٧٩ - المصدر السابق: ج١: ص ١٢٢.
 ٨٠ - المصدر نفسه: ج١: ص ١٢٥.
 ٨١ - الهوامل والشرايل: ص ٥.
 ٨٢ - البصائر والذخائر: ج١: ص ١٧٩.
 ٨٣ - لنظر المصدر السابق: ج٤: ص ٢٣٢.
 ٨٤ - المصدر نفسه: ج١: ص ٣٧.
 ٨٥ - المصدر نفسه: ج١: ص ٣٧.
 ٨٦ - المصدر نفسه: ج١: ص ١٩٣.
 ٨٧ - المصدر نفسه: ج٣: ص ١٠٥.
 ٨٨ - المصدر نفسه: ج٤: ص ٢٣٢.
 ٨٩ - المصدر نفسه: ج٥: ص ١١٨.
 ٩٠ - المصدر نفسه: ج٨: ص ١٤٨.
 ٩١ - المصدر نفسه: ج٨: ص ٥١.
 ٩٢ - المصدر نفسه: ج٨: ص ١٤٧.
 ٩٣ - البصائر والذخائر: ج٦: ص ٧٢.
 ٩٤ - الإمتاع والمؤانسة: ج١: ص ١٠٩.
 ٩٥ - المقابسات: ص ١٧١.
 ٩٦ - انظر الإمتاع والمؤانسة: ج١: ص ١١٤.
 ٩٧ - انظر المصدر السابق: ج١: ص ١١٥.
 ٩٨ - المصدر نفسه: ج١: ص ١١٤.
 ٩٩ - المصدر نفسه: ج١: ص ١٢٢.
 ١٠٠ - المصدر نفسه: ج١: ص ١٢٢، ص ١٢٣.
 ١٠١ - المصدر نفسه: ج١: ص ١١٦، ص ١١٧، ص ١٢٣، ص ١٢٤.
 ١٠٢ - المصدر نفسه: ج١: ص ١٢٤، ص ١٢٥.
 ١٠٣ - المقابسات: ص ١٧٧.
 ١٠٤ - الإمتاع والمؤانسة: ج١: ص ١٢١.

- ١٠٥ - المصدر السابق: ج١: ص ١١٧
- ١٠٦ - سورة النساء: ٣
- ١٠٧ - سورة الشمس: ٥
- ١٠٨ - سورة الطور: ١٤
- ١٠٩ - البصائر والذخائر: ج٦: ص ٢١٦، ص ٢١٧
- ١١٠ - المصدر السابق: ج١: ص ١٧٥
- ١١١ - المصدر نفسه: ج٥: ص ١٤٢
- ١١٢ - المصدر نفسه: ج١: ص ١٧٥
- ١١٣ - الإمتاع والمؤانسة: ج١: ص ١٠٩
- ١١٤ - المصدر السابق: ج١: ص ١٠٦، ص ١٠٧
- ١١٥ - البصائر والذخائر: ج٦: ص ٢١٨
- ١١٦ - المصدر السابق: ج٥: ص ٢٠٠ - ص ٢٠٢
- ١١٧ - المصدر نفسه: ج٤: ص ٥٩
- ١١٨ - المصدر نفسه: ج٥: ص ١٢٣
- ١١٩ - المصدر نفسه: ج٦: ص ١٠٨، ص ١٠٩
- ١٢٠ - سورة آل عمران: ١٨
- ١٢١ - البصائر والذخائر: ج٣: ص ١٤٩
- ١٢٢ - سورة النساء: ٣
- ١٢٣ - سورة الشمس: ٥
- ١٢٤ - سورة الطور: ١٤
- ١٢٥ - البصائر والذخائر: ج٦: ص ٢١٦، ص ٢١٧
- ١٢٦ - البصائر والذخائر: ج٥: ص ٢٠٨، ص ٢٠٩. وانظر كذلك الإمتاع والمؤانسة: ج١: ص ١٢٠
- ١٢٧ - أخلاق الوزيرين: ص ٢٤٨
- ١٢٨، ١٢٩ - الإمتاع والمؤانسة: ج١: ص ١٢٢
- ١٣٠ - المصدر السابق: ج١: ص ١٢٦
- ١٣١ - المصدر نفسه: ج١: ص ١٢٥، ص ١٢٦
- ١٣٢ - المصدر السابق نفسه: ج١: ص ١١٨
- ١٣٣ - البصائر والذخائر: ج٤: ص ٢٢٠
- ١٣٤ - المصدر السابق: ج٩: ص ١٧٨
- ١٣٥ - المصدر نفسه: ج٩: ص ١٧٨، ص ١٧٩
- ١٣٦ - المصدر نفسه: ج١: ص ١٧٨
- ١٣٧ - المصدر نفسه: ج٦: ص ١٨٢
- ١٣٨ - المصدر نفسه: ج٦: ص ١٨١
- ١٣٩ - المصدر نفسه: ج٦: ص ١٨٢، ص ١٨٣
- ١٤٠ - انظر المصدر نفسه: ج٢: ص ٨٧. وانظر أيضا أبحاثاً أخرى: ج٤: ص ٢٦، ج٥: ص ٤٦، ج٦: ص ١٩٨، ج٩: ص ٦٧.. وانظر أيضا: الإمتاع والمؤانسة: ج١: ص ٢٧
- ١٤١ - أنظر البصائر والذخائر: ج٤: ص ٢٦، ص ٢٧
- ١٤٢ - المصدر السابق: ج٢: ص ٤٢، وانظر أيضا: ج٦: ص ١٩٦، ص ١٩٧
- ١٤٣ - المصدر نفسه: ج٦: ص ١٩٧
- ١٤٤ - المصدر نفسه: الصفحة نفسها. وانظر أقوالاً أخرى: ص ١٩٨
- ١٤٥ - المصدر السابق: ج٧: ص ١١٦
- ١٤٦ - المصدر السابق: ج٧: ص ١٣٣، ص ١٣٤. وانظر أيضا حكاية أخرى على النسق نفسه ص ١٣٥، ص ١٣٦

التوحيدى مترجما للرجال من خلال كتاب الإمتاع والمؤانسة

هانى العمدة*

مقدمة

حتى وقتنا الراهن، لم تحظ الترجمة عند التوحيدى بالاهتمام اللائق والجدية الكافية عند الباحثين، وذلك على الرغم من وجود دراسات وافية أصدرها عدد منهم، وجميعها تتعلق بأدبه وحياته وفلسفته. وباستثناء بعض سطور هنا وهناك، فإن من كتب عن التوحيدى لم يشغل نفسه بما يمكن أن يجعل من مادة التراجم مادة لها أبعادها وتأثيراتها؛ إذ إننا ونحن نقرأ فى كتاب (الإمتاع والمؤانسة)، وهو أكبر كتب التوحيدى احتواء على التراجم، يمكننا أن نتساءل: ما عناصر الترجمة عند التوحيدى، وما مذهبه فيها، وما الغاية التى سعى إلى تحقيقها؟

والحقيقة التى لا ينبغي أن تغيب عن بالنا هى عدم وجود نظرية عامة وشاملة ومقبولة بشكل عام خاصة بالترجمة، يمكن أن تفسر السبل الفنية لهذا الفن. لقد

كانت المحاولات الأولى للكتابة حول هذا الموضوع قليلة جداً، بل إن مصطلح الترجمة أو التراجم نفسه لم يستعمل قبل القرن السابع الهجرى، عندما استعمله ياقوت الحموى^(١) فى مقدمة كتابه (معجم الأدباء)، ليدور هذا المصطلح بعد ذلك فى محيط قنوات ضيقة. وعلى الرغم من وجود أنماط متعددة للترجمة، كالتراجم العامة والتراجم المتخصصة وتراجم المدن والقرون والسنين والطبقات، وعلى الرغم من أن كثيراً من مؤلفى كتب التراجم قد حددوا موضوعات تراجمهم وسجلوا فى مقدماتهم اهتماماتهم المباشرة وحددوا سماتها، فإن هذه الأنماط لم تخضع للتحليل والتعليل لأسباب متعددة منها: إن التحليل - إن وجد - لم يوضع فى سياقه الصحيح، ولم يمس المنظومات الصغيرة فضلاً عن الأشكال الكبيرة، هذا إلى جانب أن الترجمة قد ألفت أو كتبت بعد زمن من حياة صاحبها، لذلك جاءت فى معظمها داخلة فى باب المجاملة والتأييد المذهبى، أو

* أستاذ الأدب العربى، الجامعة الأردنية.

جاءت مظهره المساوي والعيوب، ومخالفة كل المخالفة لما درج عليه كتاب التراجم.

ولذا كانت بعض التراجم فى بعض الكتب قد حظيت باتساع وامتداد، وعمق وكشافة، وكانت أكبر من مجرد مستودع للبيانات التاريخية، وحفلت بالتقريب والمديح، فإن ثمة بعض التراجم التى كانت مختصرة ومبتسرة وحفلت بالنقد والجدل والمؤاخذه واللوم. ولا شك فى أن كتاب التراجم قد تعرضوا للتقريع والتجريح عندما أظهروا بعض جوانب معينة دون غيرها من حياة من يترجمون لهم. فإذا حدث وأصبح كاتب الترجمة مدركا بعض المعلومات التى تثير الجدل حول شخص معين، فهل كان يقوم باستبعادها أم إثباتها؟ وإن قرر أن يثبتها ويضمنها تراجمه، فكيف كان يعرضها؟ والآن: أين موقع التوحيدى من كتاب التراجم، وما نوع الترجمة التى كتبها، وما الدوافع لكتابة التراجم! ومن كان وراء التوحيدى الذى كتب هذه التراجم أو طلب منه أن يكتبها؟ وهل نمادى التوحيدى فى نقد الرجال لدرجة أثرت على الآخرين الذين عندما فكروا فى ترجمته أحجموا عن ذلك؟

ولعل هذا البحث، بما لدى الباحث من متسع، يجب عن هذه الأسئلة وغيرها، ولكنه يود قبل ذلك أن يحدد الإطار الذى سيدور فيه؛ ذلك أن المنهج الذى سينهجه الباحث هو المنهج الوصفى، متخذا من نصوص التراجم التى أودعها فى كتاب (الإمتاع والمؤانسة) مادة للبحث والحوار والجدل والنقد، وكللى أمل فى أن أقدم على حقل جديد من حقول التوحيدى المتعددة، لعلى أصيب فيما أذهب إليه، فإن كان ذلك متاحا فلعلى أضيف جديدا فى اتجاه لم يتناوله الباحثون بالتفصيل المطلوب.

دوافع كتابة الترجمة عند التوحيدى

لم يؤثر عن التوحيدى أنه كتب كتباً فى تراجم الرجال. ولذلك فإنه لم يحتل موقعا متميزا من هذه الناحية، إلا بعد أن ألف رسالة^(٢) فى الوزيرين: الصاحب ابن عباد وأبى الفتح ابن العميد، وقد يكون التوحيدى اشتهر بعد ذلك

بوصفه مترجما للآخرين أو مصورا بارعا، أو ناقدًا للرجال، وعلينا أن نعترف كذلك بأن التوحيدى كان ناقدًا للواقع الذى عاشه، وكانت لديه حاسة بصيرة وأذان صاغية وقدرة استثنائية على تجسيد الواقع، وربما أظهر هذا النقل على شكل قصة أو أقصوصة.

ومن يتتبع تقاليد كتابة الترجمة عند التوحيدى، سيلاحظ مظهرا جديدا لم يألفه الكتاب من قبل، وطريقة فريدة من نوعها فى معالجة بعض الأحداث المثيرة للجدل. وما من شك فى أن صنيعه قد خلف ردود فعل قوية، ليس فى أثناء حياته فحسب، وإنما امتد تأثيرها على ما بعد موته، وهذه الدراسة سوف تخضع تراجم التوحيدى لجماعة عصره للمناقشة والتحليل والتعليل، مع قناعتي التامة بأنها ليست بتاريخ حياة كامل لكل واحد منهم. بل إنها تراجم منقوصة فى جملتها لأنها لم تكتمل كتاريخ للرجال. والأكثر أهمية أن هدفها ليس شرح حقيقة تاريخية معينة وتفسيرها، بل الأقرب إلى الصحة هو أنها تتناول بعض المعانى والصفات التى وجدها التوحيدى فى بعض من ترجم لهم.

ورغم أن ذلك لا بد أن يقتصر بمظاهر حياة الشخص، من حيث هى قيمة تكمن فيها الاستقلالية التامة، قادرة فى حد ذاتها على التطور، فإنه لا بد من مراعاة رأى الآخرين بالترجمة الواحدة، كما لا بد من استعراض مجمل التراجم التى تتعلق بسيرة شخص معين، وتعرف اتجاه هذه التراجم، إن كانت ذات اتجاه أدبي أم ذات اتجاه تاريخي؟ أم ذات اتجاه لغوي ولفظي ومعنوي؟ أم ذات اتجاه قيمي ناقد للمجتمع من خلال الرجال؟

وما هو واضح لدينا أن التوحيدى لم يكن راغبا فى وصف الرجال، ولا كان ذلك حاجسه أو ما يتطلع إليه، وإنما دفع إلى ذلك دفعا، وإنه نزل عند رغبة أبى عبد الله العارض^(٣)، الذى بادر إلى سؤال التوحيدى عن حديث أبى سليمان المنطقى^(٤): «كيف كان كلامه فينا، وكيف كان رضاه عنا، ورجاؤه بنا؟» ومرة أخرى يطلب أبو عبد الله العارض أن يحدثه عن درجته فى العلم والحكمة، ويعرفه^(٥) محله فيهما من محل أصحابنا: ابن زرعة وابن الخمار وإن

السمع والقومسى ومسكويه ونظيف ويحيى بن عدى وعيسى ابن على

«عندئذ قال التوحيدى: وصف هؤلاء أمر متعذر وباب من الكلفة شاق، وليس مثلى من جسر عليه، وبلغ الصواب منه، فإنما يصفهم من نال درجة كل واحد منهم، وأشرف بعد ذلك عليهم، فعرف حاصلهم وغائبهم وموجودهم ومفقودهم».

مما يعنى أن أبا عبد الله العارض هو الذى كان وراء حث التوحيدى على أن يصف الرجال.

والحقيقة أن أبا عبد الله العارض كان وراء تحديد منهج وصف الرجال، فمرة يريد أن يحدثه عن كلام أبى سليمان المنطقى فى الوزير، ورضاء عنه ورجاؤه فيه، لا سيما أن التوحيدى أقرب الناس إليه، فهو يعرفه حق المعرفة. ومرة يطلب أن يحدثه عن درجة أبى سليمان فى العلم والحكمة، ويعرفه محله من محل المتفلسفة الآخرين من أصحاب أبى عبد الله العارض، مما يعنى أنه كان على علم بأن التوحيدى قد تكونت لديه القدرة على وصف الآخرين باعتباره قريبا منهم، عارفا بهم لأنه كان على صلة بهم.

على أن التوحيدى يظهر عدم رغبة فى وصف الرجال الذين طلبهم العارض، بدليل قوله: «وصف هؤلاء أمر متعذر وباب من الكلفة شاق، وليس مثلى من جسر عليه، وبلغ الصواب منه...».

وما من شك فى أن محاولة التوحيدى الاعتذار لم تلق من الوزير آذانا صاغية، وربما جاءت من باب الاعتذار المتكلف، فقد رغب التوحيدى فى أن يظهر نفسه، بعد أن واجه من حالات الصد والمواجهة والاحتقار من الآخرين، بمظهر الرجل المتواضع، الذى يتمنى أن ينال درجة كل واحد منهم. ويشرف بعد ذلك عليهم، فيكون قد عرف حاصلهم وغائبهم وموجودهم ومفقودهم، عندئذ اعتبر الوزير ما سمعه تخايلا لا يقبله مؤكدا^(٦):

«هذا تخايل لا أرضاه لك، ولا أسلمه فى يدك، ولا أحتمله منك».

وإمعانا فى طلب الوزير من التوحيدى ذلك، ورغبته فى وصف الرجال، فإنه يقوم بتصويب ما يطلبه، وتوضيح ما يرغب فى سماعه، موجها التوحيدى إلى وجهة مهمة قد تكون غابت عن التوحيدى عندما يقول له^(٧): «ولم أطلب إليك أن تعرفهم بما هو معلوم الله منهم وموهبه لهم، ومسوقه إليهم، ومخلووع عليهم، على الحد الذى لا مزيد فيه ولا نقص...». والحقيقة أن أبا عبد الله العارض هنا يظهر فهما عميقا لشخصية التوحيدى وديدنه فى الوصف والطلب والتجريح، ويحذره من أنه لا يريد ما يعلمه الله منهم، وما وهبه لهم وعرف عنهم وشاع بين العام والخاص، وما خلقه الله فيهم وخلعه عليهم، وإنما أراد أبو عبد الله العارض أن يذكر^(٨) له التوحيدى «من كل واحد ما لاح منه لعينك، وتجلى لبصيرتك، وصار له به صورة فى نفسك، فأكثر وصف الواصفين للأشياء على هذا يجرى، وإلى هذا القدر ينتهى».

من هنا يتضح أن أبا عبد الله العارض يريد من التوحيدى أن يكون اهتمامه بتراجم الرجال أو وصفهم مساويا لاهتماماته الأخرى. ولكنه يريد فى الوقت ذاته أن يضع للتوحيدى بعض الكوابح والضوابط، تماما مثلما فعل عندما لفت نظره إلى المنهج الذى يريده فى اللبالي، ومن جهة أخرى لا يريد أبو عبد الله العارض إلا اتباع سنة الآخرين فى الوصف، ذلك لأن^(٩) «أكثر وصف الواصفين للأشياء على هذا يجرى، وإلى هذا القدر ينتهى». مما يعنى أن أبا عبد الله العارض كان راغبا فى توجيه التوحيدى الوجهة التى يراها مناسبة فى تراجم الرجال.

ومن جهة ثانية، نلاحظ أن أبا عبد الله العارض يشير إلى ما شاع فى القرن الرابع الهجرى من أسلوب لتراجم الرجال، عندما يذكر بأن أكثر وصف الواصفين للأشياء على هذا يجرى، مما يعنى أن قبالب الترجمة التى نجد لها أمثلة عند ابن النديم كان لها أسلوب شائع وطريقة متبعة مألوقة، لا يخرج عنها أهل القرن، ولا كان يفترض أن يخرج عنها التوحيدى.

ويبدو أن التوحيدى قد نجح فى الامتحان الأول عندما حدث الوزير عن أبى سليمان المنطقى^(١٠) ونجح فى الامتحان

الثانى عندما بدأ يترجم للجماعة، فبدأ مجددا بأبى سليمان المنطقى^(١١). ولكنه فى هذه المرة كان مقارنا وموازنا بينه وبين الآخرين، وأتبعه بابن زرعة^(١٢) وهكذا حتى آخر الجماعة. ودليلا على ذلك هو أن أبى عبد الله العارض أعلن أن^(١٣) «هذا كلام تام». ومرة أخرى يعلن «هذا فى الحسن نهاية» مما يعنى رضاه عما حدث به التوحيدى، ولكنه يحاول أن يرد التوحيدى إلى الطريق الذى خرج عنه، فيطلب منه أن يتم أمامه ما كانا فيه، فيسأله عن علم أبى سليمان المنطقى فى النجوم، وهكذا.

ويجب أن نسجل للتوحيدى نقاطاً عدة مضيئة فى هذا المجال. فمن يرغب فى التصدى لترجمة الآخرين عليه أن يكون قد عاش معهم زمنا طويلا، إذا ما أراد لترجمته الدقة والموضوعية. حتى يتمكن من معرفة ملامح الشخصية الخاصة والعامة، ويختبر ظاهرها وباطنها، فهو يرى أن زمنا مقداره أقل من شهر^(١٤) لا يؤكد الأنس، ولا يرفع الحشمة ولا يحكم الثقة، وبالتالي لا يقع فى هذه المدة القصيرة الاسترسال والتشاور، ولم يكن هذا رأى التوحيدى فحسب، وإنما كان لأبى عبد الله العارض رأى مشابه؛ حيث قال عندما ذكر انطباعاته عن الصاحب ابن عباد، الذى شاهده بهمدان لما وافى^(١٥): «ولكنى لم أعجمه لأن اللبث كان قليلا» وهذا يعنى أن من شروط التصدى لترجمة معاشة صاحب الترجمة أطول مدة ممكنة لتخرج الترجمة بالشكل اللائق.

ومن المقاييس التى يضمها التوحيدى طول العشرة والجيرة، حيث يظهر على أثرها الخفاء، وتتضح أشياء كثيرة كان يمكن أن تظل مجهولة. ومنها كذلك الملائمة والاستفادة من العلم والتجارب والخبرة، وكذلك اتباع الأسلوب الخاص بالعلم والتحصيل؛ إذ إن فى ذلك استمراراً لطرائق العلماء، التى أثبتت نجاعتها وأهميتها. هذا فضلا عن أن كثيرا من التلاميذ يكونون مستودعا لشيوخهم، فيحفظون أخبارهم ويطلعون على أسرارهم وخفائهم.

والأصل فى الترجمة أن يجمع لها المترجم الملاحظات والآراء والانطباعات جميعا ميدانيا وواقعا، وأن يحدده الصدق فى كل خطوة يخطوها فى هذا الاتجاه. وإذا

اختلطت عليه بعض الأمور، فإن عليه أن يسأل الراسخين فى العلم عما أشكل عليه وغاب عنه، وقد سلك التوحيدى هذا السبيل، بدليل قوله^(١٦): «سألت جماعة عن هذا، فأجابنى كل واحد بجواب» والحق أن التوحيدى لم يسلك هذا السبيل فى معظم تراجمه، وكان فرديا فى إصداره الأحكام والصفات وربما كان مغرقا فى فرديته من هذه الناحية. ومع ذلك فقد سجل فى بعض تراجمه معظم الآراء التى سمعها، حتى يبدو محايدا، ويظهر موضوعيا.

ومرة أخرى، يظهر أبو عبدالله العارض قدرته على تقصى أخبار العلماء، لاسيما رسل سجستان^(١٧) الذين يزورهم أبو سليمان المنطقى، فيظل عندهم طاعما ناعما، وبصحبه التوحيدى نفسه، ثم يسأل عن من يحضر ذلك المكان؟ ويحبيه التوحيدى بأنهم جماعة. وآخر من كان فى هذا الأسبوع الماضى: ابن جبلة الكاتب وابن برمويه وابن الناظر.... وما يلبث أبو عبدالله العارض أن يسأل التوحيدى: ما الذى حفظت من حديث عنهم؟ وما يجوز أن يلقى إلينا منهم؟ فقال: سمعت أشياء، ولست أحب أن اسم نفسى بنقل الحديث، وإعادة الأحوال، فأكون غامزا وساعيا ومفسدا، قال: معاذ الله من هذا، إنما تدل على رشد وخير، وتضل عن غى وسوء. وهذا يلزم من أثر الصلاح الخاص والعام لنفسه وللناس، واعتقد الشفقة، وحث على قبول النصيحة.

ومن الواضح أن التوحيدى هنا يراعى حرمة المجالس، فلا يحاول المساس بها أو الاعتداء عليها، بنقل الأخبار والمعلومات. لذلك نراه يعلن بأنه سمع أشياء ولا يجب أن يسم نفسه بنقل الحديث وإعادة الأحوال فيكون عينا على الآخرين، ومع ذلك فأبو عبدالله العارض، باعتباره رجلا دولة، يحب أن يكون على بينة من أمر الرعية، لاسيما الخاصة منها، فيطلب من التوحيدى أن يقدم له الحديث والأحوال ما يجوز أن يلقى إليه منه. وحتى يطمئن أبو عبدالله العارض التوحيدى على أن ما سيقدمه من معلومات عن الرجال كان ولا يزال أمرا مألوفاً، وأن ما سيتفوه به أو يدلى به مما سمعه أو رآه متداول، فإنه يسر طلبه ببعض الحقائق فيقول^(١٨):

فهو يستغرب كيف استكفى أبو عبد الله العارض هذه الجماعة حوله، وكيف يظهر هو بها ويسكن إليها؟ وما فيهم إلا من وكده الرجس والإفساد والأخذ بالمصانعة وإغراء الأولياء.... وفى الله هذا الإنسان الحر المبارك الكريم الرحيم، فإنه شريف النفس طاهر الطوية، لين المريكة، كثير الديانة، وهذه أخلاق لا تصلح اليوم مع الناس.

ويشهد ابن جبلة بأن الوزير كان عارفا بهم، ومستبظنا لأمرهم، ولكن لا بد لمن كان فى محله^(٢٣) ورفعته من جماعة يقربهم، ويرجع إليهم ويسمع منهم، وينظر بأعينهم، ويصغى بآذانهم، ويتناول بأيديهم، فقال له ابن برمويه مجابوا: إن كان عارفا بهم، ومستبظنا لأمرهم، وخبيراً بشأنهم، فلم سلطهم وبسطهم وحدد أنيابهم وقوى أسنانهم، وفتح أشداقهم، وطول أعناقهم وقطع أرباقهم، وأبظروهم فأسكرهم، حتى صاروا يجهلون أقدارهم، وينسون ما كانوا فيه من القلة والذلة.... والحقيقة أن ابن برمويه كانت لديه القدرة على أن يقارن بين ما صنعه عضد الدولة فيهم عندما ساسهم وقوم زيفهم وقلم أظفارهم، وشغلهم بالحاجة عن البطر والأشر، وبالكفاية عن القلق والضجر، وتقدم إليهم بترك الخوض فيما لا مرجوع له بخير، وكانوا لا يشكرون الله على نعمته عليهم... وبين المكاسب التى حصلوا عليها فى زمن أبى عبد الله العارض. مما يعنى أن ابن برمويه يقارن حالتهم فى زمن عضد الدولة، الذى كان عارفا بهم، كاشفا خفايا ما فى نفوسهم، وحالتهم فى زمن ابن العارض الذى استكفى هذه الجماعة التى جبلت على الرجس والإفساد والمصانعة.

والحقيقة أن التوحيدى إنما أراد أن يطلع أبا عبد الله العارض على حقيقة الرجال الذين كانوا يترددون إلى مجلسه، وينقل إليه ما وجده ابن برمويه فيهم وما سمعه عنهم، وهو الذى كان لا يحب سماع اسمه، ومن جهة ثانية يدلنا هذا الموقف على تلهف العارض على جمع الرجال حوله، ومساعدتهم وتقديرهم للمون لهم؛ الأمر الذى أتاح للتوحيدى الفرصة لكى يهاجمهم عن طريق نقل الأحوال والكلام.

وابن العارض يريد أن يسأل التوحيدى عن بعض الرجال، لأنه^(٢٤) انتجعهم وخبرهم وحضر مجالسهم، كما

والنبي ﷺ قد سمع هذا وسأل عنه، وكذلك الخلفاء بعده، وكل أحد محتاج إلى معرفة الأحوال إذا رجع إلى مرتبة عالية أو محطوة.

وهذه الواقعة إن دلت على شئ فإنما تدل على حرص أبى عبد الله العارض على تعرف ما يدور فى الاجتماعات واللقاءات من أحداث تمس الوزارة، والحالة العامة والحالة السياسية، وتخبر عن الصفات التى يتمتع بها كل فرد، وبالتالي فإنه أراد التوحيدى أن يزوده بكل ما يدور فى المجالس من هذه الأحداث. وربما أظهر التوحيدى أن ما يقوم به من وصف لهؤلاء الرجال إن هو إلا نقل لما يدور فى تلك المجالس من أحداث وإعادة الأحوال، وغمز وسعاية وفساد. ومع ذلك، فإنه سرعان ما أخبر بأن ما يقوم به إنما هو رشد وخير، وإصلاح عام وخاص، ومظهر من مظاهر الحفاظ على الناس والشفقة عليهم، وليس غيا وسوء تصرف.

وما تظهره الليلة الثالثة هو أن كثيرا من (رسل سجستان) ولا سيما من سأل عنهم أبو عبد الله العارض كانوا يظهرئون العداء للعارض وللدولة. فابن شاهويه^(٢٥) كان يتعاطف مع المخرمين القرامطة وبهرام مجوسى وابن مكينا نصرانى أرعن خسيس وابن طاهر رجل دعى.... ومعلوم أن ابن برمويه^(٢٦) قاتم على ابن عبد الله العارض وقتله، ثم استوزر لمصمصام الدولة مشتركا فى الوزارة مع أبى القاسم عبدالعزيز ابن يوسف، وغيرهم. ويظهر أن (رسل سجستان) كانوا يخصصون جزءا من مجلسهم للتأمر على أبى عبد الله العارض، والدلالة على ذلك هو ما كان يحفظه التوحيدى عنهم فى أثناء جلساتهم، فقد كانوا يغمزون ويفسدون، ويعملون ضد الصالح العام، وكان ابن برمويه أشدهم عداوة لأبى عبد الله العارض، وكان يوجه النقد الشديد له، كما فى قوله^(٢٧): ما هذا الاسترسال كله إلى ابن شاهويه؟ وما هذا الكلف ببهرام؟ وما هذا التعصب لابن مكينا؟ وما هذا السكون إلى ابن طاهر؟ وما هذا التعميل على ابن عبدان؟ وما من هؤلاء أحد إلا يربش عدوه ويبريه، ويضل صاحبه ويغويه.

والحقيقة أن النقد^(٢٨) الذى يقدمه ابن جبلة لهذه الجماعة، والذى جاء على لسان التوحيدى، كان نقدا حارا.

يقومهم ويصفهم. وكان، حتى يتمكن من الوصول إلى اليقين، يسعى إلى إيجاد من يقارن بينهم، ويظهر الفروق، أو مواضع التشابه. فقد سأل التوحيدى ذات يوم^(٢٨): هل كان فى زمان هؤلاء من يلحق بهم، ويدخل فى زميرهم؟ عندئذ كان التوحيدى يورد الأسماء التى سيقارن بها، زيادة فى التوضيح والشرح.

وقد يطلب أبو عبد الله العارض أن يصل حديثه عن بعض الشخصيات بحديث بعض الشعراء، فيطلب منه أن يصف جماعتهم، ويذكر بضاعتهم، وما خص كل واحد منهم. وكعادة التوحيدى يحاول التهرب من الإجابة، فيقول^(٢٩): لست من الشعر والشعراء فى شئ، وأكره أن أخطو على دحض وأحتسى غير محض، قال أبو عبد الله العارض: «دع هذا القول، فما خضنا فى شئ إلى هذا الوقت إلا على غاية ما كان فى النفس، ونهاية ما أفاد من الأنس».

وإذا كان أبو عبد الله العارض قد أبدى للتوحيدى بعض ما يخطر على باله، وطلب منه تنفيذ المنهج المقرر، ووضع شروطا مقبولة للترجمة، فإنه اتصف بقدرته على متابعة الأمور، والإلحاح على استكمال القضايا المطروحة، وبحثها من كل جانب. كما يدلنا هذا الطلب «ألا تتم ما كنا بدأناه؟» مما يعنى أن التوحيدى ربما يكون ساهبا عن إتمام ما طلبه أبو عبد الله العارض أو لأنه كان دائما صاحب المبادرة فى قطع الحديث والبدء فيه. أو لأنه أراد أن يمنح التوحيدى فرصة للبحث فى الموضوع واستكمال ملامحه.

وربما طلب أبو عبد الله العارض بعض الأمور التى يرغب فى سماعها، فيسهو التوحيدى عن إيراد بعض المعلومات، وقد حدث ذلك مرارا، وتظهر فطنة العارض عندما يتحدث التوحيدى عن شئ له صلة بمعلومات قديمة كان سمع شيئا منها، مؤكداً للتوحيدى^(٣٠): «لم يكن هذا الحديث عندي»، مما يدل على فطنته وذكائه وحرصه على سماع الجديد، ومعرفة أبعاد الصورة الواحدة، واكتمال حلقاتها، ومن جهة ثانية يدلنا هذا الاهتمام على قدرة التوحيدى على التذكر، كما يدلنا على طبيعة أحاديث التوحيدى، وأسلوبه فى الحديث والإخبار.

يرغب فى أن يسأله عن أخلاقهم ومذاهبهم وعباداتهم، وعن علمهم وبلاغتهم... وابن العارض يعترف للتوحيدى بهذه المزية عندما يقرر^(٣٥): «فما أظن أنى أجِد مثلك فى الخبر عنه والوصف له. كما يعلن عن قصوره فى هذه الناحية لأن المدة التى يمكن أن توفر له المعلومات عن الرجل من خلال، كانت قليلة، والشغل كان عظيما والمائق كان واقعا. لذلك كان لا بد أن يسأل من كان قريبا منهم، عارفاً بهم، ولم يكننا اعتذار العارض هذا بغريب، فالرجال متباعدون واتجاهاتهم الثقافية والفكرية مختلفة، والاختلاط بهم وتعرفهم كان قليلا.

ومن المقاييس التى كانت عند أبى عبد الله العارض التردد على العلماء والجلوس إليهم، والتوريق لهم ويقول^(٣٦):

«ولك معه نوادر مضحكة وبنادر معجبة، ومن طالت عشرته لإنسان صدقت خبرته به، وانكشف أمره له، وأمكن اطلاعه على مستكن رأيه وخافى مذهبه وعويص طريقته».

ويحاول التوحيدى إشراك أبى عبد الله العارض فى مسؤولية الترجمة، عندما يقول له:

«فقلت: أيها الوزير، هو الذى تعرفه قبلى قديما وحديثا بالتربية والاختبار والاستخدام، وله منك الأخوة القديمة والنسبة المعروفة».

والحقيقة أن بعض التراجم التى قدمها التوحيدى كانت غير خافية على أبى عبد الله العارض، ومثل هذه التراجم تنسم بالموضوعية إلى حد بعيد، كما هو الحال فى ترجمة زيد بن رفاعه^(٣٧) الذى نلاحظ - كما هو واضح - أن أبى عبد الله العارض كان على صلة طيبة به، عندئذ لا تبدو الترجمة انطباعات شخصية أساسها المواقف، وإنما تبدو ترجمة علمية، لها مكانتها المرموقة وتأثيرها القوي على أبى عبد الله العارض وعلى التوحيدى نفسه.

ويعترف التوحيدى بأن لدى أبى عبد الله العارض ملكة ناقذة، وحسا مرهفا، فى معرفة الرجال والبحث عن

أحاديث تمسه أو تمس حكومته، فطلب حديثهم بصرف النظر عما إذا كان الحديث لصالح أبى عبد الله العارض أو ضده، فما كان يريده حقاً هو السؤال عن أخلاقهم ومذاهبهم والربط بين عصاة العلماء وإظهار الفروق بينهم، وما يدور في مجالسهم.

صور الترجمة واتجاهاتها وموضوعاتها

يفترض في الترجمة أن تكون مستودع بيانات تاريخية وشخصية، كما يفترض أن تكون أداة للتقريب والنقد. وليس ذلك بغريب على المترجم والمترجم؛ إذ إن لكل واحد منهما أسلوبه الخاص في التعامل مع السلوك والهيئة والتصرف ومراحل العمر.. وإذا تصادف أن أثرت بعض النقاط التي تتعلق بشخص ما، فإن تسجيلها سلباً أم إيجاباً، سيكون مثاراً للجدل والنقاش.

وربما كان من الضروري ابتداء الإشارة إلى أن تراجم التوحيدى ستظل مثيرة للنقاش، لأنها ليست تاريخ حياة لمن ترجم لهم، لأسباب كثيرة منها: إنها لم تكتمل كتاريخ أو سيرة، لخلوها من خصائص الترجمة أو السيرة، ولأن هدفها ليس شرح حقيقة تاريخية وتفسيرها، بل قد تكون أقرب إلى الانطباعات الشخصية والنقد الذاتى الشخصى؛ وهو أمر مستغرب أن يتم في القرن الرابع الهجرى على هذه الصورة التى صاغها التوحيدى، فى كتابه (الإمتاع والمؤانسة) وهو القرن الذى تميز بتشكيل كثير من العلوم واتخاذها المسارات العميقة. والحقيقة الظاهرة للعيان أن بيانات الترجمة فى كتاب التوحيدى - إن جاز أن نسميها بيانات - تنبذ كلياً عن المعلومات الجوهرية الأساسية، المتمثلة بتاريخ الميلاد والوفاة، ومسار التعليم وأماكنه وشيوخه، وتلاميذه وما قدموه. هذا فضلاً عن مجموعة العناصر الأخرى التى تتمثل فى شهادات المعاصرين، وبعض الوثائق المستمدة من المصنفات والشعر والرسائل، ومذهبه ومسلكه واستظهار قدراته العلمية، وغير ذلك. والتوحيدى فى هذه التراجم لا ينقل شهادات الآخرين فيمن يترجم لهم أو يستند فيها إلى الوثائق التى قد تجيب عن كثير من التساؤلات، إلا ما ندر. كما لا يتحدث عن التلاميذ والأتباع، والقيم والشيوخ والحسب والنسب، وغير ذلك مما هو مألوف فى كتب التراجم المعاصرة نوعاً ما.

وإذا كانت بعض الليالى تظهر قدرة أبى عبد الله العارض الاستثنائية فى تنظيم التراجم، وطلبه مزيداً منها، والبحث عن الجديد فيها، فإن قدرته كذلك تظهر بوضوح فى ضرورة الربط بين عصاة العلماء، والإتيان بتراجم تفسر تراجم أخرى، ودليلنا على ذلك قوله (٣١):

«وجب أن نصف قبل هذا عصاة العلماء فلم تركنا ذكرهم ونحن لا نخلو من حديثهم من غرة لائحة، وفائدة نافعة، وصواب زائد فى العقل وفضيلة على الأدب، وحلم يزدان به فى وقت الحاجة، وحكمة يستعان بها فى داهمة، ورأى يكون مثيلاً للتمييز عند نهجنا به».

فهو يطلب الترجمة لهم لأنهم مجال الحديث، الذى يتضمن الفوائد النافعة فى الأدب، وفضيلتهم فى الحلم والحكمة والرأى، ولأن فى تراجمهم ما يضىء الدرب ويفسر بعض القضايا والظواهر التى يحتاج إليها فى المجالس.

وإذا كان التوحيدى قد نقل كلام أبى عبد الله العارض كما حدث فعلاً، وكما سمعه، فإن العارض يظهر لنا ناقدًا ومصورًا ودقيقًا فى تعابيره، بشكل لا يقل بحال من الأحوال عن التوحيدى نفسه، فى معرفة الرجال، وقدرته على وصفهم وتقديمهم وتصوير علاقات بعضهم ببعض ونتائجهم وأخلاقهم... مما يعنى أن كتاب (الإمتاع والمؤانسة) يعد سجلاً حافلاً لحياة أبى عبد الله العارض الثقافية والسياسية والفكرية فى الربع الثالث من القرن الرابع الهجرى.

وهكذا تظهر لنا دوافع كتابة التراجم عند التوحيدى الذى كان مدفوعاً للحديث عن الرجال، دون أن يبدى رغبة فى ذلك، ولا كان هذا الأمر حاجسه، ولكنه نزل عند رغبة أبى عبد الله العارض الذى كان وراء تحديد منهج وصف الرجال له. وقد طلب من التوحيدى أن يكون اهتمامه بتراجم الرجال أو وصفهم مساوياً لاهتماماته الأخرى، واتباع سنن الآخرين فى الوصف، وكان التوحيدى قريباً من هؤلاء الرجال، عارفاً بهم متقصياً أخبارهم، لأنه انتجع بعضهم وخبرهم وحضر مجالسهم. وقد حرص أبو عبد الله العارض على تعرف ما يدور فى المجالس والاجتماعات واللقاءات من

ويغلب على الظن أن أبا عبد الله العارض إنما أراد من التوحيدى أن يصف له حال العلماء، ويظهر اتجاهاتهم الفكرية والمذهبية والثقافية، ويبين اهتماماتهم، والقضايا التي تشغلهم وتستولي على تفكيرهم، لعل في ذلك ما يعينه على معرفة أحوالهم، كما يظهر أن أبا عبد الله العارض أراد الاطلاع على صلات بعضهم ببعض، ومدى تألفهم أو اختلافهم، وأسباب ذلك، وتعرف مجريات أحداثهم، وما ينال العارض منها.

والحقيقة أن البدء في ترجمة شخصية أبي سليمان المنطقي له أكثر من معنى، فقد أراد أن يعرف موقعه بين العلماء الآخرين ودرجته في العلم والحكمة، فهو يطلب أن يعرفه^(٣٢) «محلّه بينهما من محل أصحابنا ابن زرة وابن الخمار...»، وكان أبا سليمان المنطقي أصبح المحور الذي تدور حوله الأحداث والأفكار، والسند الذي يرجع إليه القرن الرابع كله.

والثقة التي أولاها أبو عبد الله العارض للتوحيدى هي التي جعلته يطلب منه هذا الطلب. ومن جهة أخرى، لعله وثق بالتوحيدى ثقة مطلقة وقبل حكمه على الآخرين. فقد عرف فيه قدرات التحليل والتعليل، وكان على علم تام بظروف العلماء والأدباء والفلاسفة والمتكلمين الخاصة والعامة. وكان التوحيدى في الوقت نفسه عارفا بما أراده الوزير، لذلك قدم له تراجم مثابة، حتى يمكن حصرها في مساحة محددة من الكتاب، وتمكن من إحصاء علماء العصر ومثقفيه ومفكره، إحصاء أصبح من السهل خلاله تعرف ظروف القرن الرابع واتجاهاته الفكرية والسياسية وغيرها. ومع تسليمنا التام بأن التوحيدى قد استثنى عددا من رجالات القرن الرابع، أو أهمل ذكرهم، إلا أن ذلك لا يعنى الموقف الشخصى، بمقدار ما يعنى الاستجابة لمنهج أبي عبد الله العارض، والرضوخ لرؤيته.

والملاحظة التي تسترعى الانتباه هي أن معظم التراجم التي سجلها التوحيدى في كتابه جاءت في الجزء الأول. ويسميه إحسان عباس^(٣٣) الفصل الأول، ويجعله شاملا لليالي الثماني الأولى، ويجعل الموضوع الرئيسي فيه هو نقد

المعاصرين، وكان أبو سليمان المنطقي أول شخصية يترجمها في هذا الجزء، فكان محتوى الليلة الثانية هو مجموعة أخرى من العلماء. وكذلك كان حال الليلة الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة، أما الجزء الثاني فيتضمن عددا محصورا من التراجم، وربما كانت الليلة الثامنة والعشرون أكثر ليلة تضم تراجم إحصائية، حيث يعدد فيها التوحيدى أسماء المغنين والمغنيات، وأخبار بعض السامعين ووصف أحوالهم عند سماع الغناء.

على أن هذه الملاحظة لا ينبغى أن تقلل من شأن الأجزاء الأخرى من الكتاب أو الليالي المتتابعة، فقد يعثر الباحث في أثناءها على ما يفيد التراجم، ويلقى الضوء على بعض خفاياها، وما اكتنفها من غموض وتعمية، ذلك أن تراجم التوحيدى ليست كلها بالغة التنظيم، كما أنها لم تجتمع في زاوية واحدة من الكتاب، وإنما تناثرت على صفحات كثيرة العدد. لذا نختتم على الباحث أن يبحث عن تراجمه في أثناء الكتاب ويجمع التراجم ذات الصلة، والمعلومات المساعدة التي تلقى الضوء على هذه التراجم فتزيدها توضيحا.

ومهما يكن من أمر هذه المجموعة من التراجم التي حشدها التوحيدى في الجزء الأول من كتابه^(٣٤)، فقد كان غرض أبي عبد الله العارض إظهار ملامح التراجم العامة وليس الخوض في خفايا النفس الإنسانية وتحليل انعكاسات الزمان والمكان والمجتمع عليها. ومن جهة ثانية ينصب الوزير أبو عبد الله العارض التوحيدى حكما عندما يفوضه بذكر من كل واحد ما لاح منه لعينيه، وتجلى لبصيرته، وصار له به صورة في نفسه. مما يعنى أن التراجم قد قدمت بناء على طلب الوزير، وأن أبا حيان التوحيدى قد أعفى نفسه من المسؤولية الأدبية.

تنقسم التراجم في كتاب التوحيدى إلى قسمين اثنين: قسم يعنى بالتراجم الطويلة وقسم يعنى بالتراجم القصيرة. وهذا القسم هو الأغلب ويسيطر في اتجاهاته وخصائصه على التراجم الأخرى. ولعل أطول التراجم كانت من نصيب أبي سليمان المنطقي والصاحب ابن عباد وأبي

سعيد السيرافى. على أنه يمكن تجميع المعلومات الخاصة ببعض التراجم القصيرة فى أثناء الكتاب؛ بحيث تصبح تراجم تقع موقعا وسطا بين التراجم الطويلة والتراجم القصيرة، وهذه التراجم على قلتها يمكن أن تدرس أجزاؤها لتقدم لنا نمطا جديدا من تراجم التوحيدى.

وما من شك فى أن التوحيدى قد أودع تراجمه الطويلة كثيرا من الآراء المفيدة للدارس. وفى الوقت ذاته حرمتنا من هذه الآراء فى تراجمه القصيرة. ولا يستطيع الباحث منذ الوهلة الأولى الادعاء بأن التوحيدى كان نمطيا فى تراجمه، ذلك أن تناوله لشخصياته كان تناولا متنوعا ومختلفا ومتشعبا. وكان دقيقا فى وصف الأشخاص والأحوال. وإذا كان ذاتيا فى هذا المجال، وأصدر حكمه على كثير من الرجال، وجاء حكما متمسكا فى بعض الحالات، فإنه قد سلك هذا المسلك مدفوعا بموامل متعددة، منها أن نقده لهم كان منصبا على قدراتهم العلمية، وعبوبهم الشخصية والنفسية. وربما كان محكوما فى ذلك كله بموقف شخصى بحت. وقد وجد فيما أقدم عليه تجاوبا من أبى عبد الله العارض، لذلك اتسمت تراجمه فى مجملها بسمات معينة قلما نجد بينها اختلافا وتباينا. وإذا كان قد ابتعد عن ذكر خفايا الأمور فإنه بذلك يكون قد رضخ لطلب أبى عبد الله العارض. ومع ذلك، فقد تمكن التوحيدى من ذكر المحاسن والعيوب والمزايا والمآخذ، والسلبيات والإيجابيات... وبذلك يكون قد صنع موازنة طريفة، ووقف موقفا وسطا وأتقذ نفسه من المساءلة وحفظ خط الترجمة كما يقال.

ودلينا على هذه الموازنة نشاهده فى الترجمة الواحدة، أو فى ترجمتين لشخصية واحدة. وحتى نتبين موازنة التوحيدى، سنحاول أن نحصى هذه الصفات التى أطلقها على من ترجم لهم. ونبدأ بالعيوب، ونلاحظ أنه كان بارعا فى التقاط العيوب، وكان من خلالها مصدرا للنواقص التى ينكرها الناس، ونراه فى هذه الأثناء مستشهدا بآراء الآخرين حتى يبدو محايدا... فهو يلصق ببعض الرجال تهمة الانحراف والجشع وقلة الدين وخيب الباطن وقلة اليقين وغلظة الطباع والغيرة والحسد والتخالف وشرب الخمر والرعونة والسوداوية والمزاج المتشيط والخسة والغرور والادعاء وقلة الحظ من النحو

والضعف الفاضح فيه والأخطاء التى تفسد الكلام وقلة المعانى والتكلف والسخف والهزل وغشائى اللفظ وغلظته وكثرة التعقيد، وقلة السلاسة وتقطيع العبارة والشك فى النبوات، وقلة الحفظ والتحقيق، ورداءة العبارة، وكثرة الإيهام والتمويه، والشؤم والشماتة والتشفى والسرقة، وقلة البديع وكثرة الغناء، وتوزع الفكر فى التجارة وحب الربح، والتبذير والتنديد، والزهو والصلف، وقلة النظر فى الكتب، واللكنة الناشئة عن العجمة، والعمى، والبخل فى العلم، والحسد، والحقد، وخلط الدرة باليعة، وإفساد السمين بالعث، وترقيع الجديد بالثر. وحتى يبدو التوحيدى متوازنا ومتوسطا ومنصفا للرجال فإنه يصفهم بصفات تنم عن تقدير عال لهم وحبه لبعضهم. ومن الأوصاف المحببة التى ذكرها: دقة النظر وصفاء الفكر، والذرع الواسع والصدر الرحب فى العبارة، وحجة فى النقل والترجمة والتصرف فى فنون اللغات وضروب المعانى والعبارات، التقليب بخزان الكبراء، كثرة المحفوظ، حضور الجواب، فصاحة اللسان، حسن القيام بالمعروض والقوافى، غزارة الحفظ وجودة الترجمة وصحة النقل، كثرة الرجوع إلى الكتب، الفصاحة، النفس المديد، العنان الطويل، النقل المرضي، حلاوة الكلام، اتساق النظام، سعة المذاهب، لطف الملابس، غزارة المحفوظ، صحة النحت، كثرة البديع، شاعر الوقت، الحذو على مثال سكان البادية، رقة حواشى اللفظ، غزارة السكب، السميت والوقار والدين، أجمع لشمل العلم، أنظم لمذاهب العرب، أدخل فى كل باب، أخرج من كل طريق، ألزم للجادة الوسطى فى الدين والخلق، أروى فى الحديث، أفضى فى الأحكام، أفقه فى الفتاوى، أشد تفردا بالكتاب، علو الرتبة فى النحو واللغة والكلام والمعروض والمنطق، براعة اللفظ، اتساع الحفظ، غزارة النفت، كثرة الرواية، حلاوة الكتابة، كثرة الفقر المعجمية، جمع الكتب، اللفظ القويم وسهولة الكلام، سعة أطراف الكلام، قوة التدريس، طول النفس فى الإملاء، المعرفة الحسنة باللسان والجدل والصبر على الخصم، كثرة الحيلة، دقة الكلام، الذكاء والفطنة، والحفظ لأيام الناس.

وبذلك يكون التوحيدى قد بين الجوانب المختلفة فى الشخصية الواحدة، وإن دلت هذه الإحصائية على شئ فإنما

تدل على التوازن الذي أحدثه التوحيدى فى تراجمه، عندما ذكر السلبيات والإيجابيات والسيئات والحسنات، وأظهر فى جميع الأحوال، ما تتميز به كل شخصية، أو ما يعاب عليها من حيث القدرات الفكرية والسياسية والثقافية واللغوية والمذهبية.

وهكذا، يتضح لنا أن تراجم التوحيدى ستظل مثيرة للجدل لأنها ليست تاريخ حياة، وإنما وردت مختصرة، وكان غرضها إظهار أحوال العلماء واتجاهاتهم واهتماماتهم، وإذا كان قد بدأ بأبى سليمان المنطقى فلأنه اعتبره نقطة جذب واستقطاب، ولقد جاءت معظم التراجم فى أثناء الجزء الأول من الكتاب، وأن هذه التراجم يمكن أن تقسم: إلى قسمين كبيرين: قسم يعنى بالتراجم الطويلة، حيث أودعها التوحيدى كثيرا من الآراء المفيدة، وقسم يعنى بالتراجم القصيرة، وفى جميع الأحوال كان التوحيدى دقيقا فى الوصف، وذاتيا فى النقد وجاء حكمه متعسفا فى بعض الحالات، وكان نقده منصبا على القدرات العلمية والشخصية والنفسية، وربما كان محكوما فى بعض نقده ببعض المواقف الشخصية، وكان يذكر جميع ما يراه فى الشخصية الواحدة، الظاهر منها وغير الظاهر، والواضح وغير الواضح.

نقد العلماء والأدباء والوزراء

لعله ظهر لنا بوضوح الدوافع التى دفعت التوحيدى إلى كتابة تراجمه، والتقليد الذى اتبعه ونزوله عند رغبة أبى عبد الله العارض، وبالتالي قيام العارض بتحديد المنهج الذى ينبغى أن يتبعه التوحيدى فى ذلك، خوفا من الإطالة أو الخروج عن اللياقة والمألوف، أو ربما أبدى اعتذارا متكلفا، لأن التوحيدى كان - فيما يظهر - مغرما بنقل الأحاديث وإعادة الأحوال، ولأنه انتجع بعض الرجال وخبرهم وحضر مجالسهم. وحيث إن التوحيدى أودع تراجمه معلومات قصيرة، وتعامل مع رجال العصر، وتناول سلوكهم وحياتهم وتصرفاتهم، فإن تراجمه ستظل مثيرة للجدل، لأنها لم تكن تاريخ حياة بالمفهوم العلمى، وإنما هى نقد لرجال العصر ووصف لأحوالهم واتجاهاتهم الفكرية والمذهبية والثقافية، وإظهار لاهتماماتهم وتعرف القضايا التى تشغلهم وتستولى

على تفكيرهم، وصلات بعضهم ببعض، ومدى تألفهم أو اختلافهم، وما إلى ذلك من القضايا التى يهتم لها وزير يرغب فى تعرف أصحاب الفكر والثقافة فى بلاده.

وعلى الرغم من أن التوحيدى ترجم لرجال عصره وتحدث عن كثير من الأمور ووصل بينها وبين من ترجم لهم، وكان مولعا بربط الأحداث بالناس، فإنه صمت عن الخوض فى ماضيه صمعا يكاد يكون تاما. وإذا كان قد أكثر الحديث عن نفسه وعن حوله فى منتصف عمره وأواخره، إلا أنه لم يحدثنا عن طفولته؛ الأمر الذى دفع من ترجم له إلى البحث عن حوادث بعيدة العهد للاستدلال على فقدان أبويه صغيرا، ويتمه وكفالة عمه الذى يسى معاملته ويفضه. ويدو أن التوحيدى لم يجد فى هذه الفترة ما يشجعه على الحديث عن ماضيه، فلم يصور طفولته وجمال أيامها، ولم يسترجع زما رضيا يمكن أن يشير إليه، غير تلك الملاحظة التى تذكر حديث الوالدة^(٣٥)، وعدم قدرته على نسيانها، وذلك على الرغم من أنها صارت إلى جوار ربها وهو غلام.

عندما كان الحديث يتناول سمو منزلة الأم قاده بالضرورة إلى أن يذكر لنا مساوئ كفالة العم فى بعض مواقع من كتبه^(٣٦)، كما أنه قد يستشف من حديثه عن حجه ماشيا^(٣٧) مع بعض الصوفية قدرته على التحمل، وقيادته لهم، هذا فضلا عن جهارة صوته وقوة نبراته وصياحه، وما إلى ذلك، مما لا يشكل ركائز يمكن الاعتماد عليها فى هذا المجال.

ويميل مارجوليوت^(٣٨) إلى القول بأن التوحيدى كان متحررا فى أفكاره، جريئا فى الإعلان عن مبادئه، حتى أدى به ذلك إلى الخروج عن المألوف، وكان كثير التنقل مغرما بالأسفار، بحثا عن الرزق أو سعيا وراء المعرفة. وهذا الأمر بحد ذاته يستدعى الكتابة والتذكير. ومع ذلك، فقلما نجد ما يربطه بماضيه. وحيث إنه لم يلتزم بمذهب بعينه، لذلك كان فى نقده صريحا ومندفعيا حتى إنه لم يوقر أصحاب المناصب السياسية أو أصحاب المناصب الفكرية والثقافية والتعليمية، ولم يفلت من نقده أحد من الوزراء أو الأدباء أو الشعراء أو الأمراء... كما يذكر ياقوت^(٣٩) أنه «كان صوفى

أوقات كثيرة، إلى أكل الخضر في الصحراء وإلى التكفف
الفاضح عند الخاصة والعامة.

وعندما يتحدث عن فقدانهم من الأصحاب والأهل
يقول^(٤٥):

«والله ياسيدى، لو لم أتعظ إلا بمن فقدته من
الإخوان الأخدان فى هذا الصقع من الغرباء
والأدباء والأحباء لكفى، فكيف بمن كانت
العين تقربهم، والنفس تستنير بقربهم، فقدتهم
بالعراق والحجاز والجبل والرى، وما إلى هذه
المواضع، وتواتر إلى نعيمهم... فهل أنا إلا من
عنصرهم، وهل لى محيد عن مصيرهم؟»

وتدل نظرة التوحيدى إلى الزمان^(٤٦) على أنه زمان
تدمع له العين حزنا وأسى، ويتقطع عليه القلب غيظا وجوى
وضنى وشجى، وما يصنع بما كان وحدث وبأن، ويعترف
التوحيدى فى الرسالة التى كتبها إلى القاضى أبى سهل على
بن محمد بأنه^(٤٧) يعيش فى حالة انكسار النشاط وانطواء
الانبساط، لتعاود العلل عليه، وتخاذل الأعضاء منه، فقد كل
البصر وانعقد اللسان وجمد الخاطر وذهب البيان، وملكت
الوسواس وغلب اليأس من جميع الناس، ويسمى الوراقة
حرفة الشؤم^(٤٨)، ويعترف بأنه عاد إلى مدينة السلام^(٤٩)،
بعد انتجاعه الصحاب ابن عباد بغير زاد ولا راحلة، ولم يعطه
فى مدة ثلاث سنين درهما واحدا ولا ما قيمته درهم واحد،
وبسبب هذا الحرمان الذى قصده به وأحفظه عليه، أخذ
يملى فى ذلك بصدق القول^(٥٠) عنه وسوء الثناء عليه،
فذكر ما جرعه من مرارة الخيبة بعد الأمل، وحمله عليه من
الإخفاق بعد الطمع، مع الخدمة الطويلة والوعد المتصل
والظن الحسن.

ويظهر أن التوحيدى كان يحس بأنه ذو أسلوب فريد،
وفقر كالغرر^(٥١) وشذو كالدُرر، تدور فى المجالس، ويتساءل
الصاحب ابن عباد عن ذلك بقوله^(٥٢): من أين لك هذا
الكلام المفوف المشوف، الذى تكتب به إلى فى الوقت بعد
الوقت؟ ولكن الصاحب يرفض فى الوقت نفسه، بعد أن
يظهر التوحيدى أنه من تأثير رسائله، أن يكون فى كلامه:

السمت والهيئة... وهو شيخ فى الصوفية، وفيلسوف الأدباء
وأديب الفلاسفة، ومحقق الكلام ومتكلم المحققين...
والنتيجة التى يخرج بها ياقوت بهذا الشأن أنه كان سخيلا
اللسان، قليل الرضا عند الإساءة إليه والإحسان، الذم شأنه
والثلب دكانه.

والحقيقة أن ثمة إشارات تدل على حالة ضياع وقلق
وسوء طالع تطارده، فهو مع علمه وفضله وفصاحته ومكانته
وتحصيله العلوم، ودرايته وروايته، محدود^(٥٣) محارف،
يتشكى صرف زمانه ويكى فى تصانيفه على حرمانه. وشهد
على حالته تلك أبو سعيد السيرافى الذى قال له^(٥٤): تألى
إلا الاشتغال بالقدح والذم وثلب الناس، فأجابه التوحيدى:
أدام الله الإمتاع، شغل كل ناس بما هو مبتلى به، مدفوع
إليه. ويعترف بأنه يعانى الضرر والفاقة، ويقاسى الشدة
والإضافة.

ولأنه متهم فى دينه عند العوام مقصودا من جهته تماما
مثل أبى بكر القومسى ويخاطبه بقوله^(٥٥): ما أعرف لك
شريكا فيما أنت عليه وتتقلب فيه وتقاسيه، سوى. ولقد
استولى على الحرف وتمكن منى نكد الزمان إلى الحد الذى
لا أسترزق، مع صحة نقلى وتقييد خطى، وتزويق نسخى
وسلامته من التصحيف والتحريف، بمثل ما يسترزق البليد
الذى ينسخ النسخ ويمسخ الأصل والفرع.

يعترف التوحيدى، وهو بصدد حديثه عن مؤلفاته،
بأنها^(٥٦) حوت من أصناف العلم، سره وعلايته. فأما ما
كان سرا فلم أجد له من يتحلى بحقيقته راغبا، وأما ما كان
علاية فلم أجد من يحرص عليه طالبا. على أنى جمعت
أكثرها للناس وأطلب المثالة منهم، ولعمد الرياسة بينهم، ولد
النجاه عندهم، فحرمت ذلك كله، ولا شك فى حسن ما
اختاره الله لى، وناطه بناصيتى، وربطه بأمرى، وكهرت مع
هذا وغيره أن تكون^(٥٧) حجة على لا لى. هذا إلى جانب
فقدته الولد النجيب والصديق الحبيب والصاحب القريب
والتابع الأديب. ولم يكن التوحيدى راغبا فى تركها لأناس
جاورهم عشرين سنة، فما صح له من أحد وداد، ولا ظهر له
منهم حفاظ، حتى اضطر بينهم بعد الشهرة والمعرفة فى

الكذبة والشحن والتضرع والاسترحام؟ كلامي في السماء
وكلامك في السماد! ويقول التوحيدى: هذا - أيدك الله -
وإن كان دليلا على سوء جدى، فإنه دليل أيضا على
إخلاعه وخرقه وتسرع ولؤمه.

وفى الرسالة التى وجهها إلى أبى الفتح ابن العميد،
يعترف بأنه تصفح الناس فوجدهم أحد رجلين^(٥٣): رجل إن
نطق نطق عن غيظ ودمنة^(٥٤)، وإن سكت سكت عن ضغن
واحنة. ورجل إن بذل كدر بامتثانه بذلك، وإن منع حسن
باحتياله بخله. ومثل هؤلاء الرجال يورثون الألم والضجر
والشعور بطول الغربة وشظف العيش وقلة المال وجفاء الأهل
وسوء الحال وعادية العدو وكسوف البال.

وهكذا، يلاحظ الباحث أننا إذا كنا حرمانا ترجمة وافية
للتوحيدى، فإن ما أورده ياقوت الحموى وغيره، وما تنأثر فى
كتبه ورسائله من إشارات، تشكل جميعها محطات مهمة
يمكن الوقوف عندها لتعرف مكونات شخصية التوحيدى،
ومواقفه، وأحواله النفسية والثقافية والفكرية، وبالتالي تعرف
الأسباب التى أحقدته على بعض شخصيات العصر، أو
الأسباب التى أحقدت بعض الشخصيات هذه عليه. مما يعنى
أن الباحث عندما يرغب فى تقويم تراجمه لمعاصريه وغير
معاصريه، عليه أن يأخذ بعين الاعتبار مجموعة الصفات
والطبائع التى تمكنت من شخصيته، وساعدت على تكوينه
واستعداده. وقد تكون هذه الصفات والطبائع - كما
يقول^(٥٥) محمد عبد الغنى الشيخ - قد تحدت إليه عن
طريق الوراثة والتربية والبيئة والمصر الذى عاش فيه وما لاقاه
فى حياته من مشاكل وعقبات. فهو ليس مسؤولا عنها
تماما، لأنه لا يملك لها دفعا وإنما هو مطالب بأن يغير من
هذه الطبائع بقدر استطاعته البشرية فحسب. وهذه بعض
الأسباب والعوامل التى أوجدت له من الأعداء ما لا يحصى.

ويرجع بعض الباحثين^(٥٦) أسباب الخصومات إلى
صراحته وجرائه، والحسد الذى تعرض له من نظرائه، ومباهاته
بعلمه، وتبع أحوال الناس وإيراز عيوبهم وتكبيرها، وغير ذلك
من الأسباب. وقد انعكست هذه المواقف على تراجمه، وعلى
الرغم من أن أبا عبد الله العارض هو الذى طلب من

التوحيدى تقديم كشف بأحوال الرجال ووصف أخلاقهم،
وما يفترون به ويجمعون عليه من غرائب الأمور وطوائف
الأحوال، فإن هذا الحديث قد وجد فى نفس التوحيدى ميلا
شديدا إلى الإدلاء به والإعلان عنه، مما يعنى أن التوحيدى قد
أفرغ ما كان قد ملأ صدره غيظا على بعض الرجال، أو
إعجابا بهم، إفرغا تاما، وأنه مسؤول مسؤولية مطلقة عما
ذكره.

وما من شك فى أن حياة التوحيدى العريضة
واختلاطه بكل الطبقات الاجتماعية قد أورثاه مجموعة
خصوم وأعداء وحساد ومبغضين. هذا إلى جانب قدرته على
تأليب الخاصة والعامة والمفكرين وغير المفكرين والوزراء وغير
الوزراء، والكتاب وغير الكتاب عليه، مما يعنى أننا إزاء شخصية
جريئة يفترض أن يكون لها خصوم من مستويات اجتماعية
مختلفة، وإن هذه الشخصية لابد أن نخشى بأسهم، وتعمل
لهم ألف حساب. ومن يستعرض ما أودعه التوحيدى من
تراجم، فيجد أنه أمام طوائف من العامة والخاصة، فقد نقد
العلماء والوزراء والأدباء وهاجم الأغنياء وكشف زيف
الشعراء، وهاجم أهل المذاهب والمتكلمين وأهل الاعتزال
والفقهاء وغيرهم، واتخذ فى أثناء نقدهم بعض المعايير
والمقاييس، فلم يكن - على سبيل المثال - معجبا بمن كانوا
على صلة بابن عباد، ولا كان يحترم أهل الاعتزال، من مثل
أبى على الفسوى الفارسى، ولا كان يهادن الفقهاء
والفلاسفة وأهل المنطق والمتكلمين الذين يطنون خلاف ما
يظهرون، ولا كان قادرا على التعامل مع المقلدين لكبار
الأدباء المصطنعين لأسلوبهم، من أمثال الجاحظ وغيره، ولم
يحترم أصحاب المال والبخلاء... ومن لا يرجع إلى ود
وصدق وعهد محفوظ، ولا إلى من فقد الديانة والمروءة، ولا
إلى الأدعياء، مشوهي الترجمة، رديئي العبارة، كما ظهر لنا،
وإنما كانت للتوحيدى مقاييس واضحة أودعها أكثر تراجمه.
وعليه، فإن علينا أن لا نعجب أن انقسمت تراجمه إلى
قسمين كبيرين، أساس كل قسم النقد الأخلاقى. كما لا
ينبغى أن يدهش الباحث إن وجد تحليلا من نوع ما
للسلوكيات، والتركيز على الحقائق المتعلقة ببعض
الشخصيات. ودليلا على ذلك هو وجود حظوظ مشتركة

خبرهم وجالسهم وأفاد منهم ودرس أحوالهم، وبحث فى شؤونهم ونقب عن خفائهم، وشهد دروسهم، وانتفع بعلمهم وفضلهم، كما يقدم لنا نتائج خبرته وصلاته واختلاطه بهم. ولكن هذه الصورة سرعان ما تبدل عندما نعلم أن التوحيدى لم يتوان عن أن يظهر لنا صورة أخرى غير جميلة مصاحبة للصورة الجميلة التى رسمها. فأبو سليمان المنطقى^(٦٣) صاحب عبارة متقطعة، ولكنه ناشئ من العجمة وقلة نظر فى الكتب، وفرط استبداد بالخاطر. وأبو الحسن الرمانى^(٦٤) يخيل بكلمة واحدة، ونصيح على ورقة فارغة، لسودائه الغالبة عليه، ومزاجه المشيط بها. ويحى بن عدى^(٦٥) لم يكن يلوذ بالإلهيات، كان ينهر فيها ويضل فى بساطتها، ويستعجم عليه ما جل، فضلا عما دق منها.

وأما مسكويه^(٦٦) فقير بين أغنياء، وعيبى بين أبناء لأنه شاذ، مع كلفه بالكيمياء، وإتفاق زمانه وكذبته قلبه فى خدمة السلطان، واحترقه فى البخل بالمدايق والقبراط والكسرة والخرقه.

ومن يتأمل الصورتين يلاحظ أن التوحيدى تمكن بقدراته اللغوية الفائقة من الجمع بينهما بإيجائيهما وسلبائيهما. ومن ناحية أخرى، أظهر وعيا من نوع فريد فى تشريح أساتذة له وضعهم تحت مجهر النقد اللاذع. فهو يذكر المحاسن والمساوى بدقة متناهية، ولم يسع إلى المهادنة حتى مع أقرب الناس إليه. صحيح أن نقده للرجال كان فى غير حضورهم أو مواجهتهم، ولكن ما ظهر أن التوحيدى أراد بذلك أن يكسب بهذا النقد ثقة أبى عبدالله العارض، وأن يبين أن كبار الأساتذة لا يخلون من النقائص والمآخذ.

وتكاد معظم تراجم التوحيدى للرجال تدور على هذا المنوال، بصرف النظر عن كونهم وزراء أو كتاب أو شعراء أو فلاسفة أو متكلمين. ومن الوزراء الذين نقدهم أبو الفضل ابن العميد^(٦٧) (ت ٣٦٠ هـ) حيث يقول: سمعت ابن ثوبان يقول: أول من أفسد الكلام أبو الفضل، لأنه تخيل مذهب الجاحظ، وظن أنه إن تبعه لحقه، وإن تلاه أدركه، فوقع بعيدا عن الجاحظ. وأبو الفتح ابن العميد^(٦٨) (ت ٣٦٦ هـ) الذى «تشبه بالجاحظ فافتضح فى مكابته

بين من ترجم لهم فى كل قسم، الأمر الذى يمكننا من معرفة نموذج الرجال الذى كان يريده التوحيدى. ومن جهة ثانية، على الباحث أن لا يدهش إذا لاحظ أن صوت جرائته وصراحتة ووضوحه يخفت كثيرا عندما يتناول نقده الشخصيات البارزة، إذعانا منه إلى ضرورة المهادنة والمهادنة والتزلف من أجل إنقاذ نفسه من الحساب والعقاب والملاحقة. ولا أدل على ذلك من الحوار الذى جرى بينه وبين صاحب ابن عباد^(٥٧). وحتى تتمكن من تعرف هذا الاتجاه، نبدأ بتراجمه لأساتذته. والمتعلم دائما يكن لأستاذه الاحترام والتقدير والمحبة، ويدين له بكل النجاحات التى قد يصادفها.

فأبو سليمان المنطقى^(٥٨) (ت ٣٨٠ هـ)، ظنا، وهو يقارنه بأساتذته الآخرين، يراه أدقهم نظرا، وأقهرهم غوصا وأصفاهم فكرا، وأظفرهم بالدرر، وأوقفهم على الفرر... وأبو الحسن الرمانى^(٥٩) (ت ٣٨٤ هـ) له الذرع الواسع والصدر الرحب فى العبارة، حجة فى النقل والترجمة والتصرف فى فنون اللغات والعبارات. وقد تصفح ما لم يتصفح كثير من هذه الجماعة، وقلب بخزائن الكبراء والسادات وأعين بالعمر الطويل والفراغ المديد... أما أبو سعيد السيرافى^(٦٠) (ت ٣٦٨ هـ)، فهو صاحب السميت والوقار والدين والجد. وهذا شعار أهل الفضل والتقدم. وكان أبو على الفسوى يكتسب الحسد لأبى سعيد الذى كان أجمع لشمل العلم، وأنظم لمذاهب العرب، وأدخل فى كل باب، وأخرج من كل طريق. وألزم للجادة الوسطى فى الدين والخلق، وأررى فى الحديث وأقضى فى الأحكام وأفقه فى الفتوى. وأما يحيى بن عدى^(٦١) (ت ٣٦٤ هـ) فشيخ لين العريكة، فروقة، مشوه الترجمة ردى العبارة. لكنه كان متأنيا فى تخريج المختلفة، وقد برع فى مجلسه أكثر هذه الجماعة. أما مسكويه^(٦٢) (ت ٤٢١ هـ) فلطيف اللفظ، رطب الأطراف، رقيق الحواسى، سهل المآخذ، قليل السكب، بطئ السبك، مشهور المعانى، كثير التوانى، شديد التوقى، ضعيف الترقى.

ومن الملاحظ أن ما سجله التوحيدى هنا من انطباعات عن أساتذته يدل على تقدير عال لهم، وكيف لا وقد

لإخوانه ومجانيته في كلامه، ومساائله لمعلمه التي دلتنا على سرقة وغارته، وسوء تأنيبه في تسرته وتغطيه.

ومن شاء حمق نفسه، وكان مع هذا أشد الناس ادعاء لكل غريمة، وأبعد الناس من كل قربة، وهو نذ المعاني، شديد الكلف باللفظ، وكان أحمد الناس لمن خط بالقلم، أو بلغ باللسان، أو فليج في المناظرة والصاحب ابن عباد (٦٩) (ت ٣٨٥ هـ) كثير المحفوظ، حاضر الجواب فصيح اللسان، قد تنف من كل أدب خفيف أشياء، وأخذ من كل فن أطرافاً، والغالب عليه كلام المتكلمين المعتزلة، وكتابته مهجنة بطرائقهم، ومناظرته مشوبة بعبارة الكتاب، وهو شديد التعصب على أهل الحكمة والناظرين في أجزائها، ولا يرجع إلى الرقة والرأفة والرحمة، والناس كلهم محججون عنه لجرائته وسلطته واقتداره وبسطته، شديد العقاب، طفيف الثواب، طويل العقاب، بذئ اللسان، مغلوب بحرارة الرأس، سريع الغضب، بعيد النفثة، قريب الطيرة، حسود حقوق حديد، وحسده وقف على أهل الفضل، وحقده سار إلى أهل الكفاية، أما الكتاب والمتطرفون فيخافون سطوته.

ومن الواضح أن التوحيدى قد أظهر عداً منقطع النظر للوزراء. ومعروف أن سبب هذا العدا هو التوحيدى نفسه، فإنه لم يتمكن من المعيش طويلاً مع هؤلاء الوزراء الذين كان من أهدافه الانتجاع عندهم وخدمتهم لقاء الأجر. مما يعنى أن التوحيدى يتحمل جزءاً كبيراً مما حدث من عداً قام بينه وبين هؤلاء الرجال، وإن كان هو لا يقر بذلك، وقد يعود السبب إلى التكوين النفسى لشخصية التوحيدى التى كانت كبيرة فى طموحاتها، عزيزة على الأمر والنهى، لا تقبل بنش الماضى، والتعامل معه باعتباره كان وراقاً وناسخاً وكتاباً فقط. وقد يكون سبب ذلك الحسد الذى كان يستشعر به وهو فى خدمتهم. والأحداث التى يسوقها ياقوت الحموى فى أثناء ترجمته للتوحيدى تشكل دليلاً قوياً على أن الرجلين كانا ندين قوتين، فكل منهما يشعر أنه متفوق على خصمه فى اللغة والأدب والثقافة والفكر. وكان من نتائج خصوماته مع الوزراء هؤلاء أن ألف كتاب (مثالب الوزيرين) أو (أخلاق الوزيرين) أودعه نفسه (٧٠) الغزير ولفظه الطويل والقصير.

ومن الفئات التى نقدها التوحيدى ووجه لها اللوم والتأنيب المتكلمون. ويبدو التوحيدى فى (الإمتاع والمؤانسة) أقل منه فى كتبه الأخرى، نعيماً على المتكلمين والسخرية منهم. وعلى الرغم من أنه لقب بالتوحيدى، كما يدعى بعض الباحثين - لأن المعتزلة يسمون أنفسهم أهل العدل والتوحيد، إلا أنه كان حرباً على المتكلمين وعلى أهل الاعتزال كذلك. فأبو إسحق النصيبى يشكك فى النبوة، والقاضى الباقلانى يزعم أنه ينصر السنة ويفهم المعتزلة وينشر الرواية، وهو فى أضعاف ذلك على مذهب الخرمية وطرائق الملحدة. ومن الفقهاء الذين حط التوحيدى من شأنهم، وغض من منزلتهم، ابن شاهويه الفقيه (ت ٣٦٢ هـ) الذى يراه التوحيدى شيخ إزراء وصاحب مخرفة وكذب ظاهر. كثير الإيهام، شديد التهميه، لا يرجع إلى ود صادق، ولا إلى عقد صحيح وعهد محفوظ. وإنما كان الماضى يقره لغرض كان له فيه من جهة هؤلاء المخربين القرامطة.. وليس هناك كفاية ولا صيانة ولا ديانة ولا مروءة.. أما الداركى (ت ٣٧٥ هـ) فقد اتخذ الشهادة مكسباً، وهو يأكل الدنيا بالدين ويغلب عليه اللواط، ولا يرجع إلى ثقة وأمانة، ولقد تهتك بنيسابور قديماً، وبغداد حديثاً، وهو اليوم قاضى الرى. وابن عباد يكنفه، ويقره ليكون داعية له ونائباً عنه، وهو اليوم قارون.

والحقيقة أن النظرة إلى هؤلاء الرجال قد انطلقت من كون التوحيدى (٧١) يرى أن الطريق التى سلكها هؤلاء المتكلمون والفقهاء لا تفضى بهم إلا إلى الشك والارتباك، لأن الدين لم يأت بكم وكيف فى كل باب. ولهذا كان لأصحاب الحديث أنصار الأثر مزينة على أصحاب الكلام وأهل النظر، ولم يأت الجدل بخير قط، وقد قيل: من طلب الدين بالكلام أهد. ولم أر متكلماً فى مدة عمره بكى خشية، أو دمت عينه خوفاً، أو أفلح عن كبيرة رغبة، يتناظرون مستهزئين ويتحاسدون متعصبين، ويتلاقون متخادعين ويصنفون متحاملين. جذ الله عروقهم، واستأصل شأفتهم وأراح العباد والبلاد منهم.

ومن الفئات التى ترجمها التوحيدى الشعراء. وله فى الشعر والشعراء فى زمانه نظرية. فعندما طلب أبو عبد الله العارض أن يصل حديثه بحديث أصحابه الشعراء، ويصف له

هـ) فليس من هذه الزمرة بشيء، لأنه سخييف الطريقة بعيد من الجذ، قريع من الهزل. ليس للعقل من شعره مثال، ولا له في قرضه مثال. على أنه قوييم اللفظ، سهل الكلام، وشماله نائية بالوقار عن عادته الجارية في الخسار. وهو شريك ابن سكرة في هذه الغرامة. وإذا جد أقمي، وإذا هزل حكى الأفعى.

وهكذا، نلاحظ أن التوحيدي، على الرغم من اعتذاره عن نقد شعر وشعراء الوقت، قد أظهر اهتماما بالشعراء وبشعرهم، لا يقل عن اهتمامه بالموضوعات الأخرى، ونراه يضع بعض المعايير لتفوق بعضهم، فالذين يكثرون من البديع ويسلكون الطريق المستوية ويميلون نحو سهولة الكلام، ويقدمون الألفاظ اللطيفة، سهلة المأخذ، المتسقة النظام التي تبعث في النفس الراحة، وتلتصق بالقلب وتبعث بالروح، ولا يؤثرن الألفاظ المعقدة، البعيدة عن المؤلف يقدرهم التوحيدي، وينزلهم المنزلة العالية، ولا يميل إلى الشعراء الذين يتشبهون بشعراء البادية؛ حيث كثرة التعقيد، وغلظة الألفاظ وغبابة التشبيهات ووعورة الكنايات والاستعارات، ولا يرغب في الشعر الهزلي والطريقة السخيفة البعيدة عن الجذ والاحتشام، غير المنتمية إلى العقل والوقار.

ومن الرجال الذين ترجم لهم كذلك: ابن الخمار وبهرام وابن مكينا وابن طاهر وأبو طالب الجراحي وبشر بن هارون والجعل أو الجمل وابن الملاح وابن المعلم وابن خيران وابن السمع والقومسي ونظيف وأبو الحسن الفلكي وأبو علي الفسوي الفارسي وابن المراغي وزيد بن رفاعه والمرزباني وابن شادان وابن القرمسي وابن حيويه وابن فارس، وغيرهم.

ومن الواضح أن التوحيدي لم يترجم معظم رجال القرن الرابع الهجري، أو المشهورين منهم، أو حتى أولئك الذين كانوا يتقاربون في مذاهب واتجاهات من ترجمهم. وهذا يعني أن التوحيدي لم يكن له خيار في تراجمه، وإنما كان مدفوعا في الاتجاه الذي رسمه أبو عبد الله العارض. وبذلك يكون التوحيدي قد دخل في هذا النطاق وأصبح محصورا فيه. ولو ترجم رجال القرن الرابع الهجري المشهورين، الذين لعبوا الأدوار المرموقة، لجاءنا علم كثير،

جماعتهم ويذكر بضاعتهم وما خص كل واحد منهم، قال (٧٢): «لست من الشعر والشعراء في شيء، وأكره أن أخطو على دحض، وأحتسى غير محض. ويبدو أنه كان معجبا ببعض الشعراء، لا من حيث منزلتهم ومكاسبهم وحظوتهم، ولكن من حيث إتقانهم للغة والنحو، وأنساق النظم ولطافة المأخذ وغير ذلك. وكل من نجح منهم في الامتحان النقدي تقدم عنده وارتفع عن النقد والتجريح الذي انصب على الآخرين. لذلك كان لبعض الشعراء منصفا ولأحوالهم عارفا، ولبضاعتهم مزجيا، فالسلامي (ت ٣٩٤ هـ) (٧٣):

«حلو الكلام متسق النظام، كأنما يسم عن ثغر الغمام، خفى السرقة، لطيف الأخذ، واسع المذهب، لطيف المنارس، جميل الملابس، لكلامه ليطة بالقلب، وعبث بالروح، ويرد على الكبد».

وأما الحاتمي (٧٤) (ت ٣٨٨ هـ):

«فغليظ اللفظ، كثير العقد، يحب أن يكون بدويا قحا، وهو لم يتم حضريا، غزير المحفوظ، جامع بين النظم والنثر، على تشابه بينهما في الجفوة وقلة السلاسة...».

وأما ابن جلبات (٧٥) (ت ٣٨١ هـ) «فمحزون الشعر، متفاوت اللفظ، قليل البديع، واسع الحيلة، كثير الذوق، قصير الرشاء، كثير الغشاء، غره نفاقه، ونفقه نفاقه». وأما الخالغ (٧٦) (ت ٣٨٨ هـ) «فأديب الشعر، صحيح النحت، كثير البديع، مستوى الطريقة، متشابه الصناعة... كان ذو الكفايتين يقدمه بالرى، ويقبله على النشر والطنى...» وأما مسكويه (٧٧) فلطيف اللفظ، رطب الأطراف، رقيق الحواشي، سهل المأخذ، قليل السكب، بطئ السبك، مشهور المعاني، كثير التواني. وأما ابن نباتة (٧٨) (ت ٤٠٥ هـ) فشاعر الوقت لا يدفع ما أقول إلا حاسد أو جاهل أو معاند. وقد لحق عصابة سيف الدولة وعدا معهم ووراءهم، حسن الحذو على مثال سكان البادية، لطيف الانتمام بهم، خفى المغاص في واديه، ظاهر الإطلال على ناديه. هذا مع شعبية من الحنون وطائف من الوسواس. وأما ابن حجاج (٧٩) (ت ٣٩١ هـ)

ولأضلعنا على كثير من الأمور التي اختلف إلتقاد والمؤرخون والأدباء عليها.

على أن ما يلتفت النظر في هذا المجال هو اهتمام التوحيدى بتراجم المطربين. وقد خصص الليلة الثامنة والعشرين^(٨٠) لموضوع الطرب والمطربين والغناء والمغنين. وعلى الرغم من أن هذه التراجم لا تسمن ولا تغنى من جوع، فإنها تصور الطريقة التي يطرب بها بعض الشخصيات، كما تدلنا على روح العصر واتساع ثقافته الفنية، وتأثير الغناء في نفوس الناس، لاسيما العلماء والأدباء، فابن فهم الصوفى بعد أن يسمع غناء «نهاية» جارية ابن المغنى، يضرب بنفسه على الأرض، ويتمرغ في التراب ويهيج ويزيد ويعفر شعره. ويقول^(٨١):

«وهات من رجالك من يضبطه ويمسكه، ومن يجسر على الدنو منه، فإنه يعض بنانه، ويخمش بظفره، ويركل برجله، ويخرق المرقعة قطعة، ويلطم وجهه ألف لكمة في ساعة».

وابن غيلان البزاز^(٨٢) يطرب على ترجيعات (بلور) جارية ابن اليزيدى؛ فإذا سمع منها انقلبت حماليق عينيه، وسقط مغشيا عليه، وهات الكافور وماء الورد، ومن بقرأ في أذنه آية الكرسي والمعوذتين، ويرقى بها شراها^(٨٣).

وقد تفيدنا هذه التراجم في تعرف الجانب الآخر من حياة بعض من ترجم لهم التوحيدى من مثل: ابن حجاج الشاعر^(٨٤) الذى كان يطرب على غناء «قنوة البصرية»، وهى جازته وعشيقته وله معها أحاديث، ومع زوجها أعاجيب، وأبى سليمان المنطقى^(٨٥) إذا سمع غناء هذا الصي الموصلى النابغ، الذى فتن الناس وملأ الدنيا عبارة وجسار، وافتضح به أصحاب النسك والوقار، وأصناف الناس من الصغار والكبار، بوجهه الحسن، وثغره الجئسم وحديثه الساحر، وظرفه الفاتر، وكذلك طرب أبى عبيد الله المرزبانى وغيره. وقد أحصى التوحيدى وهو مع جماعة فى الكرخ أربعمائة وستين جارية فى الجانيين، ومائة وعشرين حرة، وخمسة وتسعين من الصبيان البدور، يجمعون بين الحذق والحس والظرف والعشرة.

ومن الفئات التي ذكرها التوحيدى فى كتابه (الإمتاع والمؤانسة) فئة العامة. وإذا كان التوحيدى قد ذكر هذه الفئة باعتبارها جماعة من الناس، فإنه لم يذكر بعض أفرادها، أو أنه لم يسم من تنطبق عليهم صفة العوام. وكان للتوحيدى رأى بالعامة من الناس. ومع أنه قدم لنا ما يدل على عذائه لها، فإننا لم نشهد الصلة التي قامت بينه وبين العامة حتى نبرز هذا العداء. فالتوحيدى^(٨٦) يرى أنهم مجموعة من الهمج الرعاع، لا عقول لهم، أولهم أشياء شبيهة بالعقول ولا تتعدى اهتماماتهم إخراج الغريق وإطفاء الحريق وإيناس الطريق وشهادة السوق ويرى أن من يتحدث إليهم ينزل إلى مستوى الحضيض؛ لأن فى ذلك امتنانا للكرامة. واقترح عليه أبو عبد الله العارض ذات مرة أن يقص عليه من أخبار العامة شيئا، فقال له^(٨٧): «إن التصدى للعامة خلوة، وطلب الرفعة بينهم ضعة، والتشبه بهم نقيصة» وما تعرض لهم أحد إلا أعظامهم من نفسه وعلمه وعقله ولوته ونفاقه وريائه أكثر مما يأخذ من إجلالهم وقبولهم وعظائمهم وبذلهم». ويرى التوحيدى أن القاص فى هذه الحالة، إما رجل أبله، لا يدري ما يخرج من أم دماغه، وإما رجل عاقل يزدرى لتعرضه لجهل الجبال، وإما قابسا لهم. وعلى الرغم من تعاطف أبى عبد الله العارض مع العامة هنا، فإنه يعلن فى بداية الليلة الرابعة والثلاثين^(٨٨) أنه قد صان صدره بالغيظ لما بلغه عن العامة من خوضها فى:

«حدثنا وذكرها أمورنا وتبعها لأسرارنا وتنغيرها عن مكنون أحوالنا، ومكتوم شأنا. وما أدري ما أصنع بها. وإنى لأهم فى الوقت بعد الوقت بقطع السنة وأبد وأرجل وتنكيل شديد، لعل ذلك يطرح الهيبة ويحسم المادة ويقطع هذه العادة».

عندئذ يبادر التوحيدى ويقدم جوابين: أحدهما رأى أبى سليمان المنطقى وثانيهما ما سمعه من شيخ صومى. ثم يقص عليه وقائع الجوابين المفيدتين على ما فيهما من خشونة.

ومهما يكن من أمر هذه التراجم، فإنها - كما لاحظنا - متنوعة. وجميعها نابع من تجارب التوحيدى وصلاته

كما يقول زكريا إبراهيم^(٨٩) - وقد لاحظ إبراهيم الكيلاني^(٩٠) أن التوحيدى قد رزق حاسة فنية. ومن مظاهرها، تصوير شخصيات عصره الأدبية والعلمية. ويقوم التصوير عند التوحيدى على أسس نقدية تأثرية فى الغالب. ويرى أن هذا الفن كثير المداخل، ملتوى الأساليب يعتمد على مواهب قوية. ويتطلب ذكاء وقاء، وفهما للطبيعة الإنسانية، وإحاطة بتفسيات المعاصرين. ومن ملاحظات الكيلاني القيمة ما ذكره بشأن الصور ذات المنحى النقدى أو الهزلى، التى تكثر على الغالب فى عهود الفوضى والاضطرابات كالعصر البيهقى، الذى ضعفت فيه روح التناهد بين الأفراد وانحلّت فيه الروابط الاجتماعية، فنغدو الصورة أداة للتنفيس عما تشعر به الجماعات من شعور الخيبة والقلق فى ساعات الحرج والضييق. ويرى إحسان عباس^(٩١) أن الثلب وتهجم العلماء والأدباء بعضهم على بعض من المظاهر البارزة فى عصر أبى حيان. فقد كان بعض الفلاسفة يخاطب أحدهم الآخر بما لا يتخاطب به الجهال، كما كانت المناظرات مجالا خصبا للتهجم والتجريح. وكان يرسم صوره المروية لمن يعاديههم بانفعال. وكان موقف أبى حيان ضعيفا - كما يرى إحسان عباس^(٩٢)، لأنه كان يتعلق بأقدام المرتفعين فى المجتمع ويحاول إسقاطهم. وكان موقفه ضعيفا أيضا، لأنه كان يصرح بأنه يثلب ويعيب، انتقاما لإخفاقه منهم. أما غيره فكان يثلب ويعيب، متذعرا بالدفاع عن رأى أو فكرة أو طريقة.

ويميل زكريا إبراهيم^(٩٣) إلى الاعتقاد بأن اهتمام التوحيدى باستقصاء عيوب الناس لم يكن فى الأصل مظهرًا لبحشه عن أمارات التدنى الأخلاقى، وإنما كان عرضا مصاحبا ليله إلى استجلاء ما غمض وخفى من سرائر النفس البشرية. ويضيف زكريا إبراهيم^(٩٤):

«ومهما يكن من شيء، فقد قدم لنا التوحيدى صورا فنية جميلة، حتى حينما وصف لنا عيوب الناس ونقائصهم، فأنبت لنا بذلك أن القسح نفسه سرعان ما يستحيل إلى جمال رائع، إذا امتدت إليه يد الفنان بعصاها السحرية.... فليس من عجب أن نرى أبا حيان يصور لنا سلوك

بلاخرين. وليس من شك فى أن تعرف شخصية التوحيدى يصلنا بالأسباب التى حقد بعض الشخصيات عليه، أو أحقدته على بعض الشخصيات، مما يعنى ضرورة تعرف صفاته وضايعه، وكل ما ساعد على تكوينه واستعداده.

ولقد ظهر لنا بوضوح مكونات شخصيته التى انحدرت عن طريق الوراثة والتربية والبيئة والعصر، كما بينا أسباب الخصومة. وربما ردت إلى صراحته وجرائته والحسد الذى تعرض له من الأقران والنظراء، وإلى مباحاته بعلمه وولعه بتتبع أحوال الناس وإبراز عيوبهم وتكبيرها. هذا إلى جانب اختلاطه بالطبقات الاجتماعية المختلفة.

وعندما استعرضنا أسلوبه فى الترجمة، لاحظنا - على الرغم من نقده فئات مختلفة من الأساتذة والوزراء والمتكلمين وأهل الاعتزال والشعراء واللغويين والمطربين والعامية - أن هذه التراجم متشابهة. كما تشابه أسلوبه النقدى. وكانت له معايير ومقاييس نقدية وفنية وشخصية تتم عن مدى علاقته وصلاته بالمرجمين، وكان يظهر دائما الصورتين المتوازنتين المتقابلتين اللتين تجسمان الحسنات والسيئات.

موقع التوحيدى فى فن التراجم

لاحظ كثير من الدارسين القدماء والحديثين ولع التوحيدى فى نقد الرجال فى معظم كتبه، وربما بدأ هذا الاهتمام بعد كتابه الأشهر فى هذا المجال (مثالب الوزراء) الذى نجد فيه نقدا حقيقيا لرجلين من رجالات العصر. وإذا كان التوحيدى قد جعلهما مركزا لنقده وتجريحه، فإنه استعان طائفة من كانوا حولهما من الرجال، واستشهد بأرائهم وأقوالهم. ليقدم الدليل على أنه لم يكن متحاملا على الرجلين، وإنما يشاركه رأى طائفة من كانوا حولهما وعملوا معهما، وخبروهما عن قرب.

وربما انتقل الاهتمام بنقد الرجال بعد ذلك واتشر فى معظم كتبه، لاسيما كتاب (الإمتاع والمؤانسة) الذى نقد فيه معظم شخصيات العصر الأدبية والفكرية التى عاصرها. فكان بذلك أبرز أديب نقدى انضاعى فى القرن الرابع الهجرى

الشخصيات التي يريد أن يسخر منها على أنه سلوك آلي رتيب، يصدر فيه الفعل مطردا على وتيرة واحدة، وتخرج فيه العبارة معادة يكررها اللسان على فترات منتظمة».

مما يعني أن زكريا إبراهيم يرغب في أن يظهر التوحيدى مصورا حركات مهجوبة، وإخراجها بصور ساخرة مثيرة للضحك والسخرية.

وما من شك في أن صلات التوحيدى الواسعة، ومعرفته بشخصيات العصر، وانتقاله المفاجئ بين الطبقات الاجتماعية المختلفة والمتفاوتة، قد أكسبته خبرة واسعة بأمور الناس، وطبائع الحلق. ولا حظ زكريا إبراهيم^(٩٥) كذلك أن صلات التوحيدى الكثيرة كانت سببا في تمرسه بأحوال الناس، ووقوفه على أمور معاشهم، وإدراكه شواهد نوازعهم. لذلك، فعلينا أن لانتغرب حديثه عن الكثير من الشخصيات السوية أو المنحرفة التي التقى بها في حياته.

والظاهر أن التوحيدى^(٩٦) كان مولعا باستقصاء عيوب الناس، وجمع مخازيهم. وكان مسوقا^(٩٧)، بحكم طبيعته وغريزته وحقده على الناس، إلى التنقيب عن النقائص، واقتناص العيوب، فهو يتلمس من الملامح والطباع كل ما يرمز إلى التدنى الخلقي، في الشخصية نفسها، وفي المجتمع الذي تعيش فيه.

ويرى محمد عبد الغنى الشيخ^(٩٨) أن التوحيدى يدخل العوامل الذاتية والوجدانية من حب وبغض في نقده. لذلك كان نقده انطاعيا، تحكمه وتؤثر فيه بدرجة كبيرة العوامل الوجدانية، ونقده نقد تأثرى. وهو يرسم لمن ينقدهم صورة خاطفة سريعة، تحيط بجميع خصائص الموصوف النفسية والخلقية والفكرية. وكان يحرص دوما على إعطاء القارئ صورة إجمالية للموصوف من أقرب سبيل بتجنب الحشو والتحليل اللذين يفسدان وحدة الصورة وتكاملها. ويضييعان معالمها، فهي صورة صغيرة، تحوى فى سطور قليلة ما يغنى عن صفحات، مما يدل على قدرة فنية عجيبة.

وأكد لا أميل إلى رأى القائل بأن التوحيدى وصف معاصريه ليوهم أبا عبد الله العارض بأنه أبرع من وصف الشخصيات المعاصرة، وأن تراجمه قد اتسمت بالصدق

والصراحة، عندما تحدث عن جوانب الشخصية المختلفة. وهذا الرأى إن كان صحيحا، فلا يصح أن يكون مطلقا إلا من حيث القدرة على تحليل الشخصيات والكشف عن المزايا والعيوب بطريقة عميقة ودقيقة وواضحة. وقد يكون هذا الرأى مستندا إلى أن التوحيدى كان من القلة القليلة من بين علماء عصره، الذى تمتع بهذه القدرة.

وذلك واضح في وصفه حاشية أبى عبد الله العارض، ووصفه بعض العلماء والشعراء والمتكلمين والعامة والمفنيين. وهو ما ذهب إليه الحوفى^(٩٩) الذى يرى أن من خصائص التوحيدى التي انفرد بها، وصفه الرجال وتحليل نفسياتهم، والكشف عن مواهبهم وميزاتهم وبيان مكانتهم، وما لهم وما عليهم. وقد وصفه^(١٠٠) بأنه كاتب وهو كاتب فكرة حيث يعبر عن فكرة ما، وهو كاتب عاطفة حيث يصور عواطفه. ولقد يكتب عن الفكرة بقوة وحرارة، فيخرج عاطفته بفكرته لأنه يدين بما يقول وينافع عن رأى أو مذهب. والسؤال الآن: إلى أى مدى كان التوحيدى صادقا فى تصويره الرجال ونقده لهم؟ وهل اتجه التوحيدى نحو المبالغة والتهويل، سواء أراد التعظيم أو التحقير؟ وهل كان متطرفا فى رضاه أو سخطه، فى فرحه أو غضبه...؟

ولكى نستبين حقيقة الأمر، يمكن مقارنة ما كتبه التوحيدى من انطباعات حول بعض الشخصيات، وما كتبه الآخرون، ليظهر لنا الفروق بين ترجمة التوحيدى وترجمات غيره. ونبدأ بالرماني أستاذ التوحيدى، الذى يترجمه بقوله^(١٠١):

«له الذرع الواسع، والصدر الرحيب فى العبارة. حجة فى النقل والترجمة... ولكنه مع هذا الفضل الكثير بخيل بكلمة واحدة، ونصبح على ورقة فارغة، لسودائه الغالبة عليه، ومزاجه المشتيط بها».

فى حين يصنفها الخطيب البغدادي^(١٠٢) بقوله:

«كان من أهل المعرفة، مفننا فى علوم كثيرة، من الفقه والقرآن والنحو واللغة والكلام على مذهب المعتزلة».

ويقول ابن خلكان^(١٠٣):

«أحد الأئمة المشاهير. جمع بين علم الكلام والعربية».

ويقول السيوطي^(١٠٤):

«كان يعرف بالإخشيدي وبالوراق. وهو بالرماني أشهر. كان إماما في العربية، علامة في الأدب، من طبقة الفارسي والسيرافي، معتزليا، كان يمزج النحو بالمنطق».

حتى قال الفارسي: «إن كان النحو ما يقوله الرماني فليس معنا منه شيء، وإن كان النحو ما نقوله نحن فليس معه منه شيء». ويقول ياقوت الحموي^(١٠٥):

«كان تلميذ ابن الإخشيد المتكلم أو على مذهبه، لأنه كان متكلماً على مذهب المعتزلة. وكان إماماً في العربية، علامة في الأدب، في طبقة أبي علي الفارسي وأبي سعيد السيرافي. وكان يمزج كلامه في النحو بالمنطق، حتى قال أبو علي الفارسي: إن كان النحو ما يقوله الرماني، فليس معنا منه شيء وإن كان النحو ما نقوله فليس معنا منه شيء. وكان يقال: النحويون في زماننا ثلاثة: واحد لا يفهم كلامه وهو الرماني، وواحد يفهم بعض كلامه وهو أبو علي الفارسي، وواحد يفهم جميع كلامه بلا أستاذ وهو السيرافي».

ويقول التوحيدي^(١٠٦) في موضع آخر من كتاب (الإمتاع والمؤانسة):

«وأما علي بن عيسى فعالى الرتبة في النحو واللغة والكلام والعروض والمنطق، وعيب به. إلا أنه لم يسلك طريق واضح المنطق، بل أفسد صناعة، وأظهر براعة. وقد عمل في القرآن كتاباً نفيساً. هذا مع الدين الثخين والعقل الرزين».

وأول ما نلاحظ قيام التوحيدي بتقديم ترجمتين اثنتين للرماني الذي يعد من أقرب الناس إليه، وفيهما يكشف عن علو شأن أستاذه في العلم واللغة والنقل والترجمة. ولكنه في الوقت ذاته يرى أنه بخيل في العلم وغير العلم، وهو سوداوي ومزاجه متشيط. وفي الترجمة الثانية يعترف بعلو رتبة أستاذه في النحو واللغة والكلام والعروض. ويلاحظ أنه على الرغم مما لحقه من عدم توثيق جراء اشتغاله في المنطق، يدافع عنه من هذه الناحية، ويرى أنه لم يسلك طريق واضع المنطق، وتفرد في صناعته وأظهر فيها البراعة الكافية. ومن جهة ثانية، نلاحظ أن التوحيدي يختار من شخصية الرماني تقاطعات خطيرة لم تكن في صالحه. فالرجل يحمل نفسية غريبة قوامها السوداوية، وهو حاد المزاج، وحتى تظهر لنا قيمة ملاحظات التوحيدي، رأيت أن أجمع ما ذكره المترجمون الآخرون في هذا المجال. وقد أجمع كل من ترجم للرماني على أنه كان يذهب مذاهب المعتزلة، ويعيب عليه السيوطي ميله إلى المزج بين النحو والمنطق، حتى إنه يستشهد بكلام أبي علي الفسوي الفارسي الذي يردده كذلك ياقوت الحموي. على أن ابن خلكان يقف من هاتين الملاحظتين موقفاً وسطاً، عندما يراه يجمع بين علم الكلام والعربية، مما يعني أن التوحيدي عندما ترجم الرماني جمع بين الناحية العلمية والناحية الشخصية، وهو ما لم يشاهد عند من ترجم للرماني.

وواضح هنا أن التوحيدي يرسم صورة مركبة للرماني، تجمع بين خصائصه النفسية والخلقية والفكرية، ويقدمه لنا في هيئة إجمالية، متجنباً الحشو والتطويل والتحليل. وعلى الرغم من أن الترجمة قليلة وقصيرة ومحدودة الجمل، فإنها تفسر الكثير من خلال هذا السياق السردى. ولكن الذي يظهر أن التوحيدي أراد من خلال هذه الترجمة، التي يمكن أن توصف بأنها تقريرية نتائجية، أن يدو أمام أبي عبد الله المعارض ملماً بشخصياته، عارفاً بهم وباتجاهاتهم ونوازعهم، مظهراً جوانب الضعف في هذه الشخصيات.

ومن يتأمل التراجم التي قدمها المترجمون الآخرون، فيلاحظ التزامهم بعدم ذكر ما يعيب المترجم، وذلك على الرغم من أنه كان بمقدورهم أن يسندوا هذا العيب إلى رجل

مثل التوحيدى. ومع ذلك، فإنهم لم يلتفتوا إلى ذلك لسببين اثنين، وهما: إما أنهم قد ترفعوا عن ذكر العيوب، وهذا موقف أخلاقي اتصف به معظم كتاب التراجم، وإما لأنهم لم يوافقوا التوحيدى فيما ذكره، وتشككوا فى أقواله.

مما سبق يتضح أن التوحيدى يقدم لنا تراجم لمعاصريه بشكل مثير للجدل. وربما تمثل إشكال تراجم التوحيدى فى أنه يقدم نمطين من المؤثرات، ليصنع داخل الترجمة الواحدة محورين مختلفين كل الاختلاف، فهو يمدح ويذم، ويعلو ويسفل ويجرح ويدأوى... وفى جميع ذلك يسعى إلى إبراز المؤثرات التى تساعد على التأثير فى أبى عبد الله العارض وإقناعه، بما يقدمه من ألفاظ الدهشة التى يحولها إلى منظور متحرك أو يفسر بها غموضا.

وعندما نتناول ترجمته لأبى إسحاق الصابى (١٠٧) نلاحظ أنه يسلك الأسلوب نفسه فى الترجمة، فهو يبدأ بكيل عبارات المديح عندما يقول: فأما أبو إسحاق فإنه أحب الناس للطريقة المستقيمة وأمضاهم على المحجة الوسطى. ثم يعود إلى أسلوب النقد، فيقول: وإنما ينقم عليه قلة نصيبه من النحو. وليس ابن عباد فى النحو بذلك، ولا كان أيضا ابن العميد إلا ضعيفا، وكان يذهب عنه الشئ اليسير. ثم يعود التوحيدى إلى أبى إسحاق فيقول:

«وأبو إسحاق معانيه فلسفية، وطباعه عراقية، وعاداته محمودة... وقال لنا: أماسمى ابن عبدكان. وهو قد أوفى عليه، وإن كان احتذى على مثاله. وفنونه أكثر وماخذه أخفى، وخاطره أوقد، وناظره أنقد، وروضته أنضر، وسراجة أزهز ويزيد على كل ما تقدم بالكتاب «التاجي» فإنه أبان عن أمور، وكنى فى مواضيع...».

وبفرد الثعالبى لأبى إسحاق ترجمة فى الباب الثالث يصفه فيها بأنه:

«أوجد العراق فى البلاغة، ومن به تشنى الخناصر فى الكتابة، وتتفق الشهادات له ببلوغ الغاية، من البراعة والصناعة. وكان قد خنق التسعين فى

خلافة الخلفاء، وخلافة الوزراء، وتقلد الأعمال الجلائل مع ديوان الرسائل. وحلب الدهر أنظره، وذاق حلوه ومره، ولايس خيره، ومازس شره، ورئس ورأس، وخدم وخدم، وقدمه شعراء العراق فى جملة الرؤساء... ويحكى أن الخلفاء والميوك والوزراء أرادوه كثيرا على الإسلام، وأداروه بكل حيلة وتمنية، حتى إك عر الدولة بختيار عرص عليه الوزارة إن أسلم. وكان يعاشر المسلمين أحسن عشرة.... وكان المهني لا يرى إلا به الدنيا، ويحن إلى براعته وتقدم قدمه...»

وبلغنى أن صاحب كان يحنى انحيازه إلى جنبه، وقدمه إلى حضرته... وكان يقول:

«كتاب الدنيا وبلغاء العصر أربعة: الأستاذ ابن العميد، وأبو القاسم عبد العزيز بن يوسف، وأبو إسحاق الصابى، ولو شئت لذكرت الرابع، (يعنى نفسه)....».

ويصفه ابن خلكان بأنه (١٠٨):

«صاحب الرسائل المشهورة: والنظم البديع. كان كاتب الإنشاء ببغداد، وتقلد ديوان الرسائل. وله شئ حسن من المنظوم والمنثور. ورناء الشريف الرضى بقصيدته الدالية المشهورة:

أرأيت من حملوا على الأعواد

أرأيت كيف خبا ضياء النادى

وعاتبه الناس فى ذلك لكونه شريفا يرئى صائبا، فقال: إنما رثيت فضله.»

وصفه ياقوت (١٠٩) بأنه:

«أوجد الدنيا فى إنشاء الرسائل، والاشتمال على جهات الفضائل. كان بيته وبين صاحب مراسلات ومواصلات ومناحفات، وبينه وبين الرضى أبى الحسن بن محمد بن الحسين

الموسوى مودة ومكاتبات. فأما بلاغته، وحسن ألفاظه فقد أعتتنا شهرتها عن وصفها. وكان المهلبى لا يرى إلا به الدنيا، ويحن إلى براعته، ويصطفيه لنفسه، ويستدعيه فى أوقات أنسه، وكان الصاحب يحبه أشد الحب، ويتعصب له...».

مما سبق تظهر لنا معادلة جديدة للتوحيدى فى مجال التراجم. فلم يجد ما يظهر جوانب الضعف فى شخصية الصابى إلا من خلال ضعفه بالنحو. ولم يقف عند هذا الحد فقد استغل هذا الضعف الذى نراه واضحا ليقض به شخصين هما: ابن عباد وابن العميد. وشخصية ثالثة هى شخصية ابن عبدكان المعروفة فى عالم الكتابة، عندما يقارن بين هذه الشخصية وشخصية الصابى. مما يعنى أن الصابى ربما كان أكثر الشخصيات حظوة عند التوحيدى، فأحاطه بنعوت محبة، وأظهر فيه العادات المحمودة، وعلى الرغم من أن معظم الذين ترجموا هذه الشخصية الأدبية الكبيرة ذكروا صلاته بالشريف الرضى والمهلبى وغيرهما، فإن التوحيدى قد امتنع عن ذكر هذه الصلات. كما امتنع عن الإشارة إلى صلاته بالصاحب ابن عباد وتعصبه له. ولم يسجل مقولته المشهورة: «كتاب الدنيا وبلغاء العصر أربعة».. مما يدل على أن الترجمة عند التوحيدى فى الغالب هى انطباعات شخصية، أساسها المواقف الشخصية الانتقائية، وأنها لم تكن تاريخية، وإنما كانت تقريرية، وقلما أظهر التوحيدى العلاقة بينه وبين رجالات العصر الذين أخضعهم للنقد.

وقد تأثرت تراجمه بصلاته بالناس، فمن أحبهم وناصرهم ومال إليهم، دافع عنهم أمام منافسيهم، ومن أبغضهم وأزور عنهم حمل عليهم، وهاجمهم والتقط عيوبهم، وخير شخصية يمكن الاستشهاد بها فى هذا المجال هى شخصية أبى على الفسوى الفارسى^(١١٠) (٢٨٨ - ٣٧٧ هـ) الذى كان منافسا لأبى سعيد السيرافى، وكان يكتم الحسد له نتيجة للمناظرة التى دارت بينه وبين أبى بشر متى بن يونس. يقول التوحيدى^(١١١):

«وأما أبى على فأشد نفردا بالكتاب، وأشد إكسانا عليه، وأبعد من كل ما عداه مما هو علم الكوفيين. وما تجاوز فى اللغة كتب أبى زيد، وأضرافا مما لغيره. وهو متقّد بالغيط على أبى سعيد، وبالحسد له، كيف تم له تفسير كتاب سيويه، من أوله إلى آخره، بغريبه وأمثاله وشواهد وأبياته (وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء) لأن هذا ما تم للمبرد ولا للزجاج ولا لابن السراج ولا لابن درستويه مع سعة علمهم، وفحص كلامهم...».

فى حين يقول ابن خلكان:

«كان إمام وقته فى علم النحو. وجرت بينه وبين أبى الطيب المتنى مجالس. وبالجملة فهو أشهر من أن يذكر فضله ويعدده».

وكان متهما بالاعتزال، وصحب عضد الدولة ابن بويه، وتقدم عنده، وعلت منزلته، حتى قال عضد الدولة:

«أنا غلام أبى على الفسوى فى النحو. وصف له كتاب «الإيضاح والتكملة» فى النحو. ونقته فيه مشهورة».

وقال النطشى^(١١٢):

«علت منزلته فى النحو».

وقال الخطيب البغدادى^(١١٣):

«قدم بغداد فاستوطنها، وعلت منزلته فى النحو، واشتهر ذكره فى الآفاق وبرع له غلمان حدائق، مثل عثمان بن جنى وعلى بن عيسى الشيرازى وغيرهما. وخدم الملوك... وتقدم عند عضد الدولة فسمعت أبى يقول، سمعت عضد الدولة يقول: أنا غلام أبى على النحوى الفسوى فى النحو، وغلام أبى الحسين الرازى الصوفى فى النجوم. وكان متهما بالاعتزال».

ولكن الأخذ بحكم المروءة أولى، والإعراض عما يجلب اللائمة أخرى.

وعلى هذا جرى التوحيدى فى معظم تراجمه، ونال من ترجم لهم، وانتقد العلماء والوزراء والأدباء والكتاب والشعراء نقدا التزم فيه أبعد حدود الصراحة، بعد سقوط الكلفة بينه وبين الوزير، مما جعله يرجو أبا الوفاء^(١١٥) كتمان هذه الأحاديث وإخفاءها عن عيون الحاسدين العيابين، بعيدا عن تناول أيدي المفسدين.

ولكن إلى أى مدى كان التوحيدى منفعا عندما كتب تراجمه؟ وهل الترجمة كانت نوعا من القياس المتألف من متخيلات قد أثرت فى نفس المعارض، ودفعته إلى الانفعال والتصديق والتعجب، تمهيدا للاقتناع بما يقوله التوحيدى جملة وتفصيلا، بصرف النظر عن صدق التوحيدى أو عدم صدقه، وعن محاولاته المستمرة تصغير الناس والتقليل من شأنهم؟ إن الغالب على تراجم التوحيدى أنها كانت موجهة إلى شخصية لا تعرف هذه الشخصيات ولا تقدر قيمة كل شخصية. لذلك رأى التوحيدى أن تكون الأوصاف التى طلبها أبو عبد الله المعارض لشخصيات العصر وللجماعة مقولة باللفظ البليغ الفصيح، واللغة البسيطة التى تعتمد على الإثارة بتركيبها المتعمد وبصورها الحسنة أو القبيحة.

ولقد وجد التوحيدى بغيته وراحته واطمئنانه عندما ساق نماذج من التراجم، لا لينظر فيها نظرة المنشئ إلى إنشائه، والكتاب إلى براعة أسلوبه، وإنما لينظر فيها نظرة الناقد المحلل. وكان يقصد من ورائها إقناع أبى عبد الله المعارض بعالم هؤلاء الرجال الذين لا يعدو كل واحد منهم أن يكون من البشر، الذين لهم أخطاؤهم ومآخذهم، وحسناتهم وبراعتهم وسيئاتهم ونفوقهم.

وما من شك فى أن مراد التوحيدى كان إظهار ضعف الشخصية، حتى لو كانت أعظم شخصيات العصر. لتأمل الذى كتبه فى ابن الخمار. يقول^(١١٦):

«وأما ابن الخمار ففصيح، سبط الكلام، مديد النفس، طويل العنان، مرضى النقل، كثير

المعروف تصنيفه ورسمه. أوحد زمانه فى علم العربية. كان كثير من تلاميذه يقول: هو فوق المبرد. وكان صافى الذهن، خالص الفهم. كان أبو طالب العبيدى يقول: لم يكن بين أبى على وبين سيبويه أحد أبصر بالنحو من أبى على. كان على صلة بالصاحب ابن عباد. وجرى ذكر الشعر. فقال أبو على: إني لأغبطكم على قول هذا الشعر، فإن خاطرى لا يواتينى على قوله وكان الجوالقى مقدا لأبى سعيد السيرافى على أبى على الفارسي رحمهما الله..

إن من يستعرض هذه الشهادات المقدمة من كتاب التراجم يلاحظ أن التوحيدى يكاد أن يكون الوحيد من بينهم الذى ينفرد بترجمة سلبية لأبى على الفسوى الفارسي. ولم تكن هذه الترجمة بمستغربة على التوحيدى الذى كان على ثقة من صلة أبى على بالصاحب ابن عباد من جهة، ومن اتهامه بالاعتزال من جهة ثانية، ومن صلاته غير المحمودة مع أستاذه أبى سعيد السيرافى. والحقيقة أن التوحيدى انتقص من قدر أبى على من أكثر من ناحية؛ فهو لم يذكر شهادة عضد الدولة به وبعلمه، ولم يشر إلى الفائدة التى استفادها منه، ولا إلى الذين برعوا على يديه. كما يلاحظ أنه لم يذكر مجموعة مؤلفاته، ثم إنه انتقص من علمه، عندما رأى أنه لم يتجاوز كتب أبى زيد وأطرافا مما لغيره، ولم يتعد علمه كتاب سيبويه.

وعندما يقارن بينه وبين أبى سعيد السيرافى، يصور لنا مشاهد الحسد والبغض التى تعتمل فى صدره وهو يرى نجاحات أبى سعيد السيرافى المتلاحقة. وعندما يقارن بين الشخصيتين بعيدا عن النحو واللغة، نلاحظ أنه يصور أبا على^(١١٤) متخالعا، يحتسى الخمر، مفارقا هدى أهل العلم وطريقة الريانيين وعادة المتسكين. ويضيف التوحيدى إمعانا فى النقد والتجريح:

«ولولا الإبقاء على حرمة العلم، لكان القلم يجرى بما هو خاف، ويخبر بما هو مجمم،

البشر والمعادن وما إلى ذلك، وإنما ميزته الحقيقية تكمن في ما ألم به المؤلف من أحداث ارتبطت بالقرن الرابع الهجري، وما قدمه من صور تعبر عن الحالة الواقعية للعامة والحالة الفكرية والثقافية للعلماء والأدباء، وفي تحليله شخصيات الوقت تحليلًا مختصرًا، وفي نقد الواقع نقداً مختصاً.

ويعرض لنا التوحيدي نماذج من شخصيات العصر بصورة فريدة من نوعها، فالشخصية الواحدة تظهر لنا بكل ما تحس وتفكر وبما يصدر عنها. لذلك ظهرت شخصيات القرن الرابع، على اختلاف أنماطها، وتباين انتماءاتها واتجاهاتها الفكرية والثقافية والعقائدية والدينية، كأنها لوحات تشكيلية تضمونها معرض حفل بالألوان والأطياف. وقد رسم التوحيدي هذه اللوحات بكل ما أوتى من سعة اطلاع وقدرة بارعة على سبر أحوال النفس وتجسيد ما تشعر به وتحس، وما يجتمع بها من طبع بارد أو حار، أو رهافة شعور أو بلاهة، أو توقد ذكاء أو ضعف علم، أو بلاغة وفصاحة، أو ركاكة وضعف، أو شذوذ وتأخر وطمع وكذب ونمويه ورعونة... وما إلى ذلك.

وما من شك في أن قدرته اللغوية قد ساعدته على ذلك. وتقوم القدرة اللغوية عادة على بنية لغوية داخلية تشكل من الصوت واللفظ والتركيب والدلالة والموسيقى والإيقاع. ونحن نعرف أن كل بنية لغوية معنوية لها وظائفها ومعادلاتها، فضلاً عن قدرات أخرى، ربما تمثلت في الدوافع النفسية وراء خلق هذه النصوص وتشكيل النتائج الأدبية واتسامه بسمات فارقة، تمهيدا للنهوض بوظائف مميزة.

والأصوات الهجائية متعددة المخارج كما هو معروف، وكل صوت يختلف عن الصوت الآخر، حتى تلك التي تكاد تخرج من مكان واحد من الحنجرة. كما أن منها ما هو مهموس ومجهور، وشديد ورخو ومطبق ومنفتح... وما من شك في أن لكل حرف قدرات وإمكانات وآثار ووظائف. وإن من شأن استعمال حرف واحد كالطاء مثلاً أو الراء... أن يدلنا على دلالات معينة. وأن اقتران بعض هذه الحروف ذوات الأصوات المعينة بعضها ببعض يترتب عليه بعض النتائج

التدقيق، لكنه يخلط الدرة بالبعرة ويقسد السمين بالغث، ويرقع الحديد بالرخ، ويشين جميع ذلك بالزهو والصلف... وما يعطيه بالملطف يسترده بالعنف، وما يصفيه بالصواب يكدره بالإعجاب. ومع هذا يصرع في كل شهر مرة أو مرتين».

إذا تأملنا هذه الترجمة فنلاحظ أن الأوصاف التي يقدمها التوحيدي لا تترك للشخصية الواحدة محمداً واحدة، وما يقوله من محامد في البداية يسترده في النهاية، بل يجعل المحامد وسيلة لذكر المساوئ والمآخذ والعيوب.

وإذا افترضنا أن بعض كتاب التراجم أجمعوا على بعض النقص والعيوب في الشخصية، فإن التوحيدي لديه القدرة على تقديم مدركات، يثبها في السياق النصي، فتتقلب إلى بنية شديدة التميز، بحيث لا تنتمي إلا إلى ذاتها؛ إذ الأصل في عمليات التخيل أن تكسب واقعا ملموساً منسباً مرناً، فتقدم لنا بوساطة الخيال رؤية جديدة لها صلة من نوع ما بالواقع، ولكن ليس الواقع كله، وإنما الواقع الذي يراه التوحيدي، وبروق لأبي عبد الله المعارض سماعه.

في ضوء ذلك نرى أن نتاج التوحيدي من التراجم لا ينبغي أن يفلت من دون رقابة ومحاسبة، ومن دون تعرف نفسية التوحيدي، والتسليم بعدم انفصال إنتاجه الأدبي في (الإمتاع والمؤانسة) و (مثالب الوزيرين) عن واقعه؛ أي ضرورة دراسة التراجم من خلال مؤلفها لا من خلال أصحاب هذه التراجم فقط. وستتيح لنا هذه الدراسة جوانب كثيرة ولكنها قد تخبرنا من بعض الإضاءات، كاشفة لكثير من أخبايا العمل وجوانب تفسير شخصيات الآخرين. ونحن إذا قمنا بهذا الأمر فستظهر لنا علاقات جديدة تصل بين المؤلف وأصحاب التراجم، بحيث لا تترك زيادة لمستزيد.

بناء نص التراجم للفظ والمعنى

قد أُنق مع كثير من النقاد^(١١٧) الذين ذهبوا إلى أنه لا فضل للتوحيدي في كتابه (الإمتاع والمؤانسة) في الفصول المجموعة عن الفلسفة والحيوان والأحاديث والأكل وطبائع

الصوتية. وقد يحدث مشكلات واختلافات جديدة تترتب على التقارب أو التباعد في الإخراج، أو الائتلاف في النطق، أو افتقاده وربما تعذر القيام به، كما هو الحال في الحروف الحلقية إذا اجتمعت معا.

ومن يستعرض ترجمة واحدة من ترجمات (الإمتاع والمؤانسة) كالترجمة التي سجلها لأبى بكر القومسي، حيث قال (١١٨):

«وأما القومسي، أبو بكر، فهو رجل حسن البلاغة، حلو الكناية، كثير الفقر العجيبة، جماعة للكتب الغريبة، محمود العناية في التصحيح والإصلاح والقراءة، كثير التردد في الدراسة. إلا أنه غير نصيح في الحكمة، لأن قريحته ترابية، وفكرته سحابية، فهو كالمقلدين المحققين، والتابع للمتقدمين، مع حب للدنيا شديد، وحسد لأهل الفضل عتيده».

فسيلاحظ أن التوحيدى لم يخص حرفا من الحروف، بل نراه يلتقط حروف العربية جميعها ويضعها تحت تصرف الترجمة، باسطا لها قدرات هذه الحروف لتؤدى الغرض المطلوب.

وإذا كان التوحيدى قد اختار منها شيئا، فإنما اختار ما يفيد النص ويؤدى المعنى المطلوب. ومن جهة ثانية، لم يؤثر التوحيدى أصواتا على أصوات، ولا التزام السجع الذى يملى عليه الالتزام بحرف واحد إلا فى بعض الحالات، كما ظهر لنا من السياق. ولذلك ظهرت لنا عذوبة صوتية وثناء معجمي ومرونة نحوية. ذلك: «أن الخاصية الخطية للغة تنجم عن أن جهاز التصويت البشرى ليس بوسعه أن ينطق بأكثر من حرف واحد فى اللحظة نفسها، كما لاحظ صلاح فضل^(١١٩). ولعلنا لاحظنا كذلك أن المادة الصوتية قد ظهرت فيها إمكانات تعبيرية قوية، عندما توافقت الأصوات فى الكلمات، وتوافقت الكلمات مع الكلمات، وظهرت الفواصل الصامتة أو المتحركة التى فصلت معنى عن معنى. حتى لقد تضمنت الأصوات بحد ذاتها طاقة تعبيرية، فإنها نطل فى طور القوة والكمون مادامت الدلالة والظلال

العاطفية للكلمات مناهضة لها، أو غير مكترثة بها. فإذا توافقت معها انطلقت من عقالها، وانتقلت إلى طور الظهور والغفالية، كما يقول^(١٢٠) بعض الباحثين.

وقد تولد أصوات الألفاظ أصواتا موسيقية معبرة، ترناح إليها ضمائنا وغرائزنا. لأنها، نقيم علاقة من نوع ما بين المشاعر والمؤثرات الحسية التى تنتجها اللغة بأصواتها. وإذا كانت تراجم التوحيدى موجهة أساسا لتوصيل بعض المعلومات الصادقة أو غير الصادقة إلى شخصية مرموقة تعرف أصحاب هذه التراجم أو لا تعرفها، فإن التوحيدى حاول أن يقتنع المعارض بمعلوماته تلك من خلال النطق ووحدة الدلالة، فضلا عن قدراته اللغوية والبلاغية الأخرى. ولم يتعارض هذا الموقف مع الطابع الأساسى لقوة التعبير المعتمد على الوحدة والتركيز.

والحقيقة أن أصوات الألفاظ عند التوحيدى لا تحتاج إلى نبرات. وهذا أمر طبعى، لأن حروف اللغة العربية مكثفة بذاتها، ولا تحتاج إلى إشارات مركبة، مما يريح اللغة ويجعل طابعها الخطى هو الأساس.

لذلك، جاءت أصوات التوحيدى بميزتين اثنتين هما: التلازم والاقتضاء، وذلك على الرغم مما فيهما من تعارض مستمر مع الطابع الخطى لسبب بسيط هو أن أصواته متلازمة ومتوافقة مع منطوق الحروف. وليست هذه الحقيقة بغريبة على اللغة العربية^(١٢١)، فوضوح القول يحتم علينا ألا نحمل الكلمة الواحدة أو الحرف الواحد أكثر مما يحتمل. وهذا ما فعله التوحيدى فى بنائه الجملة الواحدة، بعد أن اختار لها الكلمات المحددة، والأصوات المناسبة، فالجملة (جماعة الكتب الغريبة) مكثفة بذاتها، وجملة (حلو الكناية) نذل على المعنى المطلوب. وهكذا.

وتشكل الألفاظ نقطة الارتكاز فى تراجم التوحيدى، وعليها تقوم فلسفته فى التراجم. فهى تشكل عنده حجر الزاوية، ومرحلة التركيب ومادة الوصف. وحتى ندرك أهمية ذلك علينا أن نرحل كلمة واحدة فى البناء النصي، ونضع مكانها كلمة من عندنا، لنذكر إلى أى مدى يتقلقل المعنى ويضطرب، مما يعنى أن الألفاظ تؤدى وظيفة حساسة، تبث

قريحته تستجيب له، وغائمه تدر عليه. ولكنه
مبدد مند، وحب الدنيا يعمى ويصم».

فقد أراد التوحيدي أن يتحول من خلال ألفاظ المديح
إلى ألفاظ النقد والهجاء، كما أراد أن يغير المعنى، ويسوق
الألفاظ التي تؤدي وظيفة تعبيرية لما سبق الحديث عنه.

وساعدت المفردات التوحيدى في تأدية المعانى
المتتابعة، سلباً أو إيجاباً، ولا سيما تلك التى استنبتها من
ماضى الشخصية، مروراً بحاضرها، فجاءت الألفاظ ماضية
في مسارها الطبيعي دون أن نشعر بقدرتها على استحضار
الماضى البعيد المنقضى. هذا فصلاً عن أن التداعبات التى
يعتمد عليها وعينا باللغة ومفرداتها لم تكن فى مستوى واحد
من التاريخ، وهذا ما أراده التوحيدي فى أكبر الظن.

وهكذا، تكون الألفاظ عند التوحيدي قد اكتسبت
دلالتها عندما أُرخت مراحل نمو الشخصية وتطورها فكان
لكل طور ألفاظه، نستدل على ذلك من قوله^(١٢٥):

«وأما ابنه ذو الكفایتین، فلو عاش كان أبلغ من
أبيه. كما كان أشعر منه... ولقد تشبه بالجاحظ
فاتضح فى مكانته لإخوانه، ومجائته فى كلامه
... وكان مع هذا أشد الناس ادعاء لكل غريبة،
وأبعد الناس من كل قرية....».

فالحديث هنا يستحضر ألفاظ الماضى تمهيداً
لاستغلال طاقات هذه الألفاظ، ويضعها فى سياقها الماضى
لننل على ماضى الشخصية. ومع ذلك، فإننا نراه يستحضر
ألفاظ المضارع الحاضر، فيقول فى معرض نقده للصاحب
ابن عباد^(١٢٦):

«فتراه عند هذا الهذر وأشباهه يتلوى ويتسم،
ويظير فرحاً، ويتقسم ويقول: ولا كلنا ثمرة
السبق لهم، وقصرنا أن نلحق بهم، أو نقف
أثرهم ونشق غبارهم، أو نرد غمارهم. وهو فى
كل ذلك يتشاكى ويتحايى، ويلوى شذقه،
ويتلع ريقه....».

من خلالها إشعاعاً فى اتجاهات مختلفة، وترتد إليه إشعاعات
تلك الاتجاهات لتولد جميعها طاقات جديدة تنعكس على
الدلالة السياقية والدلالة الإيحائية، فى ضوء الاستحضار
العقلى لمختلف البدائل التى كان يمكن أن خل محلها.

وقد لاحظ صلاح مرزوق أن الباقلانى^(١٢٢) فى
(إعجاز القرآن) نبه إلى القيمة الخاصة للفظ، بحسب مواقع
الكلام ومتصرفات مجارى النظام. فإن إحدى اللفظتين قد
تنفر فى موضع، وتنزل عن مكان لا تنزل عنه اللفظة الأخرى.
وانسحب هذا الاهتمام على جهود قدامة فى تحديد نموت
الجودة والرداءة فى الألفاظ، ومحاولات القاضى عبدالجبار
فى حصر أوصاف الكلمة مفردة ومتضامة، وآراء ابن سنان
فى صوغ شروط فصاحتها، وقناعات الرازى فى أوصاف
المفردات الموسيقية التى تصحبها، فنتج تأثيراً جمالياً. هذا إلى
جانب ما ذكره نقاد آخرون، اعتنوا بهذه القضايا القديمة
الجديدة.

ومن يزن تراجم التوحيدي بالميزان النصى، يلاحظ أن
الألفاظ عنده قد امتلأت بالمعانى الواسعة، والدلالات
البعيدة، النحوية منها والصرفية والصوتية والمعجمية، وما إلى
ذلك. وكان التوحيدي من أولئك الكتاب الذين جمعوا هذه
القدرات، فكان عالماً باللغة^(١٢٣)، خبيراً بدقائقها، قادراً على
التعبير بها، والتصوير الرائع من خلالها. وقد أظهر قدرة فائقة
على امتلاك اللغة وتسخيرها لخدمة تراجمه، عندما أعطى
كل من ترجم لهم حقهم من التعبير، فانتخب بحرية مطلقة
الألفاظ المناسبة للتعبير عن المعانى التى تتميز بها كل
شخصية من الشخصيات.

ومن مظاهر امتلاك التوحيدي اللغة، قدرته الفائقة على
الجمع بين المتناقضات التى تتمتع بها الشخصية الواحدة،
قابن رزعة^(١٢٤):

«حسن الترجمة، صحيح النقل، كثير الرجوع
إلى الكتب، محمود النقل إلى العربية... ولولا
توزع فكره فى التجارة، ومحبته فى الربح،
وحرصه على الجمع، وشده على المنع، لكانت

فالوقائع اللغوية يدرسها من خلال التاريخ، ويحاول الربط بين معناها ومبناها وعلاقاتها التاريخية بالشخصية المترجمة.

وما من شك في أن معاني الألفاظ المفردة والانطباعات التي تتوالد منها، في الماضي والمضارع، تسير مبشرة بالمستقبل. وهكذا تضع اللغة عملياتها الدائرية التي لا تكاد تنقطع، وتمضي في مسارها، دونما تأثير من الزمن. هذا بالإضافة إلى أن التدايعات، كما يقول بعض الباحثين^(١٢٧)، التي يعتمد عليها وعينا باللغة ومفرداتها، تبدو أمامنا كأنها تحدث في مستوى واحد.

وعندما تنتقل إلى التركيب نلاحظ أنه من الخطأ الاكتفاء بالصحة النحوية فقط في هذا المجال. فالكتاب بعامة، والتوحيدى بخاصة، يراعون هذه الناحية، ويكتفون بالإجراءات التعبيرية التي تقوم عادة بوظائفها بطريقة طبيعية. وهكذا أصبح لزاما على الباحثين التنبيه إلى قضايا أخرى أكثر فائدة، ومجالات أكثر نفعاً، شريطة أن يتقدم عليها النظم الذى تتفاضل في ضوئه الأساليب والتأليف.

وأولى صور التركيب هو اقتران كلمة بكلمة. ويكاد هذا اللون من التركيب يكون فلسفة التوحيدى ودينه. وبه تبدأ مشكلة العلاقات الداخلية، للوحدات التعبيرية. وخير مثال على ما نذكر قوله في ترجمة ابن الخمار^(١٢٨):

«وأما ابن الخمار ففصيح، سبط الكلام، مديد النفس، طويل العنان، مرضى النقل، كثير التدقيق...».

فالصحة اللغوية والصحة النحوية قائمتان، وما هو قائم كذلك مستوى التمييز الذى تتمتع به الصور المتلاحقة. وكل صورة مكونة من كلمتين (مضاف ومضاف إليه). وقد ولد التابع في الكلام تراكم المعانى، وجاء كل معنى متميزاً عن المعنى السابق واللاحق، بميزات تركيبية ومعنوية.

وتتجلى قوة التعبير عند التوحيدى من انسجام الفكر العاطفى التعبيرى مع الواقع النفسى والتجربة المعيشة، وهى إمكانات تحققت عنده دون غيره. فالشخصيات التي يترجمها

كانت قريبة منه، أو كان قريباً منها. لذلك جاءت تراجمه متوافقة مع الإحساس، معبرة تعبيراً احتفظ بقوته إلى أمد غير محدود.

وعلى الرغم من أن التكرار الآلى للتدايعات ينقص الانطباعات المترتبة عليها، فإن التوحيدى جعل تأثيرات اللغة استثناء من هذه القاعدة فالإشارة التعبيرية لشخصية من الشخصيات تختلف في مفهومها وسياقها وتركيبها ووقائعها عن الإشارات المخصصة للشخصية الأخرى.

وهكذا نرى أن تراجم التوحيدى لم تتراخ تدرجياً، وتفقد طاقتهما، ولم تسيطر عليها النزعة الفكرية التجريدية، وإنما جاءت كل ترجمة بتراكيب مختلفة وبصور متعددة من المجاز، والتقديم والتأخير، والروابط اللغوية والمعنوية الأخرى. هذا فضلاً عن تحقيق المواءمة لإيجازاً وإطناباً على نحو اختيرت معها حركة التنامى لبنية العمل الفنى. كما يتبع ذلك القيم الشكلية الناتجة عن ضروب التحسين اللفظى المعروفة.

وعلى الرغم من أن جعل التوحيدى قد امتازت بالقصر والبساطة، والتعادل في الطول، مما أتاح لها الإيقاع الموسيقى المميز، فإنه نوع في جملة؛ فثمة الجملة الاسمية كما في قوله وهو يترجم مسكويه^(١٢٩): «والعمر قصير، والساعات طائفة، والحركات دائمة، والفرص بروف تأنق، والأوطار في غرضها تجتمع وتفترق...». وثمة الجملة الفعلية، كما في قوله وهو يترجم يحيى بن عدى^(١٣٠): «ولم يكن يلوذ بالإلهيات. كان ينبهر فيها، ويضل في بساتنها، ويستعجم عليه ماجل»، في حين كان يمزج بين الجمل الاسمية والجمل الفعلية، وينوع في الأساليب كالطلب والنهى والنفى والتمنى والشرط والاستفهام والاستثناء، كما في قوله في ترجمة عيسى بن على الرمانى^(١٣١):

«وأما عيسى بن على، فله الذرع الواسع والصدر الرحيب في العبارة، حجة في النقل والترجمة، والتصرف في فنون اللغات... ولكنه مع هذا الفضل الكثير، بخيل بكلمة واحدة، ونصيح على ورقة فارغة...».

كالممتنع... كما يتجه نحو تفريع المعنى الواحد، مما يعنى أن التوحيدي لم يقف عند أسلوب واحد فقط، وإنما كان متنوع الطريقة، يقيمها على التأمل الداخلى للعلاقات القائمة بين أشكال التعبير ونوازع الفكر وصيغ التعبير. لذلك جاءت تداعياته وإحياءاته من خلال الاستعمال الحى للغة التى يعاصر كيانها، ينطبق على فترة زمنية عاشها، مع نظرق واضح إلى الأنماط التعبيرية التى تصلح لدلالات التعبير.

إن جملة الترجمة التى تقع داخل هذه المدركات الحسية تتوافر على مجموعة من المعانى السيكلوجية، حاول التوحيدي أن يؤثر من خلالها على الشخصية الثانية التى امتحنها التوحيدي فى أثناء حديثه عن هذه الشخصيات، عندما خاطب غير أبى عبد الله العارض، ومن ثم دفعها إلى الاقتناع بما يقدم، فكانت شخصية أبى الوفاء المهندس. وذلك عندما قدم مجموعة من قضايا تخص الشخصية الواحدة، وكان يقدمها على شكل إنتاج كان قدمه إلى العارض. ومن يدري، فقد يكون التوحيدي تجاوز فى أثناء ذلك دوائر الكم والكيف والتقابل والتضاد، إلى المستوى النفسى الوجدانى للشخصية الجديدة، لتصبح الجملة مقنعة وغير قابلة للتفتت. وبذلك يكون التوحيدي قد أعاد تنظيم علاقات جمل الترجمة، بمنطق يختلف عن نسخته الأولى. وكان فحوى التنظيم يدور حول الإدماج والتوحد والتركيب والإمتاع، سواء أجاأ ذلك عن طريق توليد صور، تعصم الفكرة وتكفل لها الاستواء وعدم التناقض، ومن ثم طرائق القياس والاستدلال والبرهان، أم جاء على شكل تأثير نفسى ولدته اللغة.

ومهما يكن من أمر النسخة الأولى الخاصة بأبى عبد الله العارض، والنسخة الثانية الخاصة بأبى الوفاء المهندس، فإنه يجب ألا يغيب عن بالنا أن إيقاع الكلمات وتناغمها يضافان إلى عناصر الجملة التى نظرينا كلماتها بسبب إيقاع بعض الحروف. وما من شك فى أن التفات الباحث فى هذا المجال إلى هذه الناحية سيفتح له باب اختبار صدق أحاسيس التوحيدي نحو مواقفه من التراجم، مدحا أو ذما، كما سيطلعنا على صدق التجربة، وقياس التدفق العاطفى، الذى يظهر عادة من خلال التدفق الموسيقى، عبر مسار التجربة

كما استعمل أفضل التفضيل ببلاغة متناهية، كما فى قوله وهو يترجم أبى سليمان المنطقى (١٣٢):

«أما شيخنا أبو سليمان فإنه أدقهم نظرا، وأقمرهم غوصا، وأصفاهم فكرا، وأظفرهم بالدرر، وأوقفهم على الغرر...».

وكما فى قوله وهو يترجم شيخه أبى سعيد السيرافى (١٣٣): «أبو سعيد أجمع لشمل العلم، وأنظم لمذاهب العرب، وأدخل فى كل باب، وأخرج من كل طريق... وأروى للحديث، وأقصى فى الأحكام...».

ولقد كان يتصرف فى جملة وعبارته بحرية تامة، فكان يقدم ويؤخر الفاعل على الفعل، والمفعول به على الفعل والفاعل. وكان يسلك أسلوب الشرط، ويبدأ جملة بحرف من حروف الجر، ويدخل فى أسلوبه الجمل الاعتراضية، لتشوق القارئ، وتدخله فى دلالات أخرى وأغراض جديدة، نجى عادة على شكل دعاء أو وصف أو تفسير، ليعود بعدها ويواصل الحديث.

وعلى الرغم من قلة جمل السجع فى (الإمتاع والمؤانسة) فإن التوحيدي نعمد، فيما يبدو، إيراد بعض الجمل المسجوعة، لأنه يرى (١٣٤): «أن السجع فى الكلام كالملح فى الطعام». مما يعنى أن السجع لم يكن مطلباً يسعى إليه التوحيدي. ومن يرجع إلى ترجمة من التراجم، يلاحظ أنه يجمع بين الكلام المرسل والسجع، الذى يبدو أنه متكلف فى بعض الحالات، كما فى قوله عندما ترجم الشاعر السلامى (١٣٥):

«أما السلامى فهو حلو الكلام، متسق النظام، كأنما يسم عن نحر الغمام...» ودليلنا على ذلك هو أن التوحيدي ما يلبث أن يعود إلى أسلوبه المرسل، كما فى قوله (١٣٦): «خفى السرقة، لطيف الأخذ، واسع المذهب، لطيف المغارس»، وهذا الأمر ينطبق على الازدواج؛ الأمر الذى ميز جملة بالقصر وبالبساطة فى التركيب والتعادل فى فقراتها.

ومن الأساليب الطريقة التى اتبعها التوحيدي جملة المشكلة كما فى قوله: «يعطى كثيرا ويرد كالأخذ ويأخذ

ورحلة البناء التعبيري، كما يذكر بعض الباحثين^(١٣٧). هذا فصلا عما يكون للإيقاع الموسيقي من دور ذاتي خالص في إدراك الاستجابة المرجوة عند المتلقي، خاصة في جانب الإمتاع والتأثير الذي يعد ركبا أصيلا في وظيفة العمل الأدبي.

وتأسيسا على ما سبق، فإن الباحث في تراجم التوحيدى لا يسعه إلا الوقوف أمام القيم التي تضمنتها هذه التراجم، والمنظور الذي قدمه المؤلف، وكشف أن من خلاله كثيرا من الدلالات، من خلال تعبيراته اللغوية والفنية ودقة التصوير وبراعة التخيل. والحق أن التوحيدى قدم نماذج من تراجم فريدة من ناحيتين: الناحية الأولى الجدة والطرافة في الأسلوب، والناحية الثانية البراعة في توصيل الرسالة التي أرادها التوحيدى. وظهرت أهمية هاتين الناحيتين من خلال إنجاز مهمة تأثيرية، تطلبت إعمال الفكر وإمعان النظر وطول التدبر والروية. ومن جهة ثانية، تطلبت العملية هذه عادة توفعات مفادها ضرورة المواجهة من خلال التفسير والتأويل، وفهم الصورة الحقيقية والمجازية، وتفسير الرمز نفسيا يعين على استمرار عظمته وإدراك مدى خصوصيته وثرائه، ومن ثم البحث عن الجذور البعيدة لخلفيات التوحيدى، وهي كثيرة وتعرف بميوله ونزعاته وثقافته وإنجازاته وصداقاته وآماله المحببة وخيبات فنه المتنامية، وخصوصياته وأوهامه، وما إلى ذلك.

أما قضية المعنى فعلينا أن لاندب بعيدا وأمانا كتاب (الإمتاع والمؤانسة)، حيث يمتلي بالشواهد الدالة على فضيلى اللفظ والمعنى. فالتوحيدى^(١٣٨):

«يرى أن أحسن الكلام ما رق لفظه ولطف معناه، وتلا لأرونقه، وقامت صورته بين نظم كأنه نشر، ونشر كأنه نظم، يطمع مشبهوده بالسمع ويمتتع مقصوده على الضع».

ويحو التوحيدى نحو الموازنة بين اللفظ والمعنى. ودليلنا على ذلك ما نقله عن أستاذه أبى سليمان المنطقى الذى قال^(١٣٩):

«كل من غلب عليه حفظ اللفظ وتصريفه وأمثته وشكله، معد من معالى اللفظ. والمعالى صوغ العقل، واللفظ صوغ اللسان. ومن معد من المعانى قل نصيبه من العقل».

ومن قبل غاب التوحيدى على ابن العميد^(١٤٠) أنه كان نزر المعانى، شديد الكلف باللفظ. كما عاب على صاحب^(١٤١) لأنه يثين اللفظ ويحيل المعنى. فأما شينه للفظ فبالجفوة والعظفة والإخلال والمجاجة

ويرى عيسى بن زرة^(١٤٢) أن اللفظ نظير اللفظ فى أغلب الأمر، وليس المعنى نظير المعنى فى أغلب الأمر. واللفظ كله من واد واحد فى التركيب بنفء كل أمة والمعانى تختلف فى البساطة على قدر العقل والعقل والعاقل والعاقل... وإذا كانت^(١٤٣) المعانى مختلفة طلبنا لها أسماء مختلفة، ليكون ذلك معونة لنا فى تحديد الأشياء، أو فى وصف الأشياء، من طريق الإقناع الكاف للجل والتهمة، أو من طريق البرهان القاطع بالحجة، الرافع للشبهة، أو من طريق التقليد الجارى على السنن والعادة.

وعندما يقوم أبو الوفاء المهندس^(١٤٤) بتحديد المنهج للتوحيدى فى (الإمتاع والمؤانسة)، يطلب منه أن لا يمتشق اللفظ دون المعنى، وأن لا يهوى المعنى دون اللفظ. وعندما يقوم أبو سعيد السيرافى بمحاورة أبى بشر متى بن يونس فى الليلة الثامنة، يسط أمامه رأيه فى هذا المجال، فيقول^(١٤٥):

«وقدر اللفظ على المعنى فلا يفضل عنه، وقدر المعنى على اللفظ فلا ينقص منه، هذا إذا كنت فى تحقيق شىء على ما هو به، فأما إذا حاولت فرش المعنى وبسط المراد، فأجل اللفظ بالروادف الموضحة والأشياء المقررة، والاستعارات المستعنة، وبين المعانى بالبلاعة أعنى لوح منها لشيء حتى لا تصاب إلا بالبحث عنها والشوق إليها.... وشرح منها شيئا حتى لا يمكن أن يمتري فيه، أو يتعب فى فهمه»

والنثر، وغير ذلك. وإذا كان هذا التساؤل نابعاً من نفس التوحيدي، فربما جاءه من عند أبي سليمان المتطفي أو من عند عيسى بن زرعة ومسكويه وغيرهم، الذين كان همهم تحديد معاني الألفاظ والمصطلحات، وتحديد الفروق والمترادفات، كالفرح والسرور والأمل والرجاء والخلاف والاختلاف.. ويسوق لنا التوحيدي فروقا بين السروح والنفس^(١٤٨)، والإرادة والاختيار^(١٤٩)، والمحبة والشهوة^(١٥٠)، وضروب البلاغة^(١٥١)... وما ذلك إلا لاستكمال نزعة التوحيدي التساؤلية التي امتدت كذلك إلى اللغة. ولم تغب عن باله العلاقة التي تجمع بين الفكر واللغة. فكان يقرن أسئلة الفلسفة بأسئلة اللغوية.

إن الدراسات اللغوية التي نشطت بين القرن الرابع نشاطاً ملحوظاً دفعت التوحيدي إلى الاعتناء باللغة^(١٥٢) وقد انحاز التوحيدي بكليته إلى اللغة العربية وإلى العرب. فهو ينقل عن أبي سليمان، في معرض مقارنة اللغة العربية بغيرها، أنه لم يجد كالعربية لغة، فهو يراها واسعة المناهج، لطيفة المخترج، عالية الخارج، حروفها أتم، وأسمائها أعظم، ومعانيها أوغل، ومعاريفها أشمل.. كما ورد ذلك في كتاب (البصائر والذخائر) [ص ٥٨].

ويستشهد بما سجله ابن المقفع^(١٥٣) الذي رأى أن العرب صحيحو الفطرة، ومتقديو الطبع، واسمو اللغة. وهم يجولون في لغتهم، فيتصرفون في أسمائها وأفعالها وحروفها واشتقاقاتها وبديعها واستعاراتها وخرائب تصرفها في اختصاراتها ولطف كذاياتها في مقابلة تصريحاتها، ومقاربتها في حركات لفظها، ويقول ابن المقفع: وقد سمعنا لغات كثيرة.. وإن لم نستوعبها - مع جميع الأمم، كلغة أصحابنا المعجم والروم والهند والترك وحوارزم وصقلاب وأندلس والزرخ، فما وجدنا لشيء من هذه اللغات نصوع العربية، أعنى الفرج التي في كلماتها، والنضاء الذي تجده بين حروفها، والمسافة التي بين مخارجها، والمعادلة التي تذوقها في أمثلتها، والمساواة التي لا تجحد في أبنيتها.

ومن يتعمق ما أظهره ابن المقفع يلاحظ أن اللغة العربية قد أوجدت لنفسها نظاماً للعلاقات، وذلك مقارنة بين اللغات الأخرى. ويظهر أن ابن المقفع قد تعامل مع اللغة

ومن الواضح أن أبا سعيد السيرافي يمثل العلماء الذين يؤمنون بضرورة العناية بالكلام، ورصد الخواص الجمالية، التي تتصل بالتعبير، وضرورة الموازنة بين المعنى والمبنى. وذلك يتمثل في الكشف عن التركيب اللغوي من حيث الربط بين الرمز والمدلول.

وإذا كان التوحيدي وقبله أبو سعيد السيرافي وأبو الوفاء المهندس وعيسى بن زرعة يربطون بين مدلول اللفظة وطريقة أداء المعنى، أو بين اللفظ والنوع الأدبي وطرق صياغته، وكذلك إظهار الصلة بين المدلول، وبين شخصية المبدع ومقدرته الفنية، وبينه وبين الغرض الذي يتضمنه النص، فإنهم ربطوا كذلك بين مفهوم الكلمة ومفهوم النظم الذي يمثل الخواص التعبيرية في الكلام. بل إن أبا سعيد السيرافي^(١٤٦)، ذهب إلى أبعد من هذا عندما طالب باستعمال حق المبدع في فرش المعنى بما يحتاجه من توضيح، والسعي إلى جلاء اللفظ بالروادف الموضحة، والأشياء الغريبة والاستعارات والشرح.... مما يعني أن أبا سعيد السيرافي يقدم نظرية مكتملة يمكن اعتبارها بحثاً أسلوبياً في المجال النظري والتطبيقي.

والحقيقة أن مادعا إليه التوحيدي وغيره من العلماء يقرئنا أو يصلنا بحركة الدرس الأسلوبى، عندما دعوا إلى التمازج والربط بين النقد والبلاغة والنحو، حيث يعد النحو وسيلة مهمة لتقويم الأسلوب ورصد خواصه، في حين يقف النقد والبلاغة في صلب البحث الأسلوبى، ويبدآن بالنص وينتهيان به، تماماً مثلما اتخذت الأسلوبية الحديثة منهجها، كما لاحظ بعض الباحثين^(١٤٧)، وذلك يتمثل في رصد الخواص الجمالية التي تتصل بالتعبير والكشف عن مناحي الجمال في التركيب اللغوي، من حيث الربط بين الرمز والمدلول في صور الكلام، وحسن النظم والتأليف، وتعدد المعنى لتعدد المبنى.

ولقد أثار التوحيدي تساؤلات كثيرة بلاغية ولغوية ونحوية. فهو يتساءل مثلاً: لماذا تؤنث العرب الشمس وتذكر القمر؟ ويتساءل عن الفرق بين الكلمة المفردة والكلمة المسموعة، وبلاغة القلم وبلاغة اللسان، والفرق بين معاني بعض الكلمات، من مثل العتيق والخلق، والحدثان والحدثان،

العربية وحلل معطياتها وقدراتها المتمثلة فى الأسماء والأفعال والحروف والاشتقاق والبديع والاستعارة والتصريف.... فلاحظ أنها مفاهيم ترتبط بذهن الناطقين بها، كما لاحظ أن دراسة التركيب العام لهذه اللغة تفرض على الباحث إيجاد العلاقة بين صوت الكلمة واتساع مفهومها الذى يتأتى من خلال المثلثات اللغوية وتغير الحركات للحرف الواحد لينتج كلمات مختلفة معنى لا مبنى، فاتسع فضاءها، وتباعدت مخارجها.

والحقيقة أن من يتمعن هذه الملاحظات التى صدرت عن التوحيدى أو أساتذته وسجلها التوحيدى فى مؤلفاته ولا سيما (الإمتاع والمؤانسة)، فسيلاحظ أن النقاد العلماء والبلاغيين واللغويين قد ربطوا بين مدلول اللفظ وطرق أداء المعنى، وبين النوع الأدبى وطرق صياغته، وبين شخصية المبدع وقدراته. وبين مفهوم الكلام ومفهوم النظم الذى يمثل الخواص التعبيرية فى الكلام. وإذا كانت اللغة العربية أكثر أنظمة التعبير العالمية تنظيما، فإنها أكثرها تميزا بخصائصها. ودون إدراك ما فى اللغة العربية من تجانس أشار إليه العلماء منذ القرن الرابع، فسوف نعجز عن إدراك العملية التواصلية التى انفردت بها اللغة العربية عبر المسافات الزمنية المتباعدة. ومعروف أن كل تنظيم لغوى يعطى ثماره المفيدة عندما تكون له مجموعات لغوية وبلاغية ونحوية ينتمى كل منها إلى الآخر، وترتبطها علاقات أخوية تشكل ابتداء من الفعل والاسم والحرف إلى التركيب العام للنظام اللغوى والبلاغى النقدى.

نظرية الترجمة عند التوحيدى

اهتم محمود إبراهيم (١٥٤) فى دراسته القيمة لأبى حيان التوحيدى بدراسة قضايا الإنسان عندما ركز اهتمامه على الكائن البشرى، بكل ما يحس به ويفكر فيه ويصدر عنه، ويقول: فلا غرو إذن أن نجد فى كتابات التوحيدى على اختلاف أنماطها، وتباين الفترات الزمنية التى كتبت فيها خلال حياته الطويلة، معرضا لكل ما يتصل بالإنسان من أفكار وهواجس ومشاعر. ومن ثم معرضا فسيحا حافلا بالدران التعبير عن حياة الإنسان وتجاربه، وأشواق النفس الإنسانية

وتطلعاتها. كما لاحظ أنه تغلغل فى مشاعر الناس وأفكارهم، ومن ثم أبان عنها بالكلمة الدقيقة الموحية، على شاكلة قل أن نجد لها نظيرا فى الفكر العربى القديم.

والحقيقة أن الإحاطة بأحوال الناس والطبقات والشخصيات أمر ليس سهلا، كما أن تشرىح النفس البشرية وما يتمل فى داخلها أمر أكثر صعوبة؛ لأن تلك تحتاج إلى مودات وصدقات وصلات، وهذه تحتاج إلى جرأة وقدرة وصراحة لم يعتدها كثير من المجتمعات، فضلا عن الأفراد. وكان التوحيدى - فيما يبدو - قادرا على الفوص فى أعماق الآخرين والإحاطة بخصائصهم وعيوبهم. وكان قادرا على تسجيل كشف بمكوناتهم وتصرفاتهم وخصائصهم. وتصادف أن كان التوحيدى مولعا بالتنقىير عن الإنسان ونوازعه، كما لاحظ ذلك كثير من أساتذته ومعاصريه. كما كان قادرا فى الوقت ذاته على الكشف عن مكونات النفس والمشاعر، واستقراء الأحوال والخفايا والمكنونات، لأن «الإنسان سواء أكان ممثلا فيه هو، أم فى الناس من حوله، كان موضوعه الأول فى كتاباته على اختلاف أنماطها»، كما يقول محمود إبراهيم (١٥٥).

وساعده على أن يكون صريحا فى نقد الآخرين فكره الحر المنطلق الذى لا يحده حد، ولا يقف فى طريقه مانع.

يقول ماجد يوسف (١٥٦):

«كان التوحيدى مفكرا حرا بالمعنى الذى نقصده. ولم ينتم لمذهب ولم ينضو فى جماعة، ولم يتحزب لرأى. ولم يكن هذا كما يفسره البعض لانتقاره إلى موقف ورؤية».

وهذا واقع نلمسه فى حياة التوحيدى من أولها إلى آخرها، الأمر الذى جعله حرا منطلقا فى آرائه، لا يستأذن أية جهة عندما يرغب فى الإعلان عنها، ولا كان مع هذه الأحزاب التى دخلت «التعرة فى إناف أصحابها، وظهرت الخنزوانة» (١٥٧) بينهم... ولما كانت أوائل الأمور على ما شرحت، وأواسطها على ما وضعت، كان من نتيجتها هذه الفتن والمذاهب، والتعصب والإفراط، وما تفاقم منها وراود...

ذلك أن المدائح لاتعلى من قدر الإنسان بمقدار ماتضره؛ إذ إننا لايمكن أن نصور إنساناً ما، مهما بلغ الغاية من الأدب واللفظ بلا منقصة وقصور وعيوب ومآخذ.

أضف إلى ذلك أن الوساطة من خلال ذكر السلبات والإيجابيات والمحامد والمناقص؛ كانت مذهبا من مذاهب القرن الرابع الهجرى، ويكفى أن نذكر فى هذا المجال كتاب الأمدى (الموازنة بين الطائفتين) وبعده كتاب الجرجانى (الوساطة بين المتنبى وخصومه)، لنذكر أن هذا التوسط، وتلك الوسطية كانا أسلوبا شائعا عند النقاد فى ذلك العصر، ومن خلالهما استطاعوا إنتاج النقد الراقى الذى أظهر الجوانب المختلفة من حياة النابهين وغير النابهين، وبذلك يكون التوحيدى ابن عصره.

ومهما يكن من أمر شخصية التوحيدى وحالتها العامة والخاصة، فقد انعكست على تراجمه التى نقل إلينا من خلالها أداء متميزا، ومن خلال هذه الوسطية أبلغنا بكثير من الحقائق عن شخصيات عاشت فى زمانه، وخبرها عن قرب فيما يبدو، ولا يتم النقل عادة إلا من خلال اتفاق بين المؤدى والمؤدى إليه. فكان المؤدى التوحيدى، والمؤدى إليه أبو عبدالله العارض.

وربما اتضح لنا من خلال مسار النقد أن التوحيدى كان فى نقده ذاتيا، وأن الذاتية طغت عنده على ما سواها. وإذا كان ثمة ما يفيد بوجود نظرية نقدية لها امتيازها الفنى واستحقاقها الأدبى، فإنه يفترض أن تكون قد حققت جانبين: جانب الإنصاح عن حياة الرجال وكياناتهم وأجوائهم التى عاشوها، وجانب التعبير الذى يفترض أن يتضمن بعض الجزئيات والوقائع والأفكار والعواطف، وهذا الجانب هو الذى يعكس لنا مواقف التوحيدى المعروفة.

وقد يقودنا هذا المسار إلى أن نفترض أن التوحيدى أراد من خلال تراجمه استعراض حصيلة الثقافية والفكرية أمام أبى عبد الله العارض. ولم يكن يقصد إلى الوقوف عند حدود معرفة الرجال، بل قصد إلى ضرورة فهم نفسياتهم قبل التعامل معهم. والحديث عنهم وتصنيفهم قبل التقليل من شأنهم. كما قصد إلى إرضاء رغبة العارض فى تعرف

وصار الناس أحزابا فى النحل والأديان... وهذا يعنى أن المجتمع الذى عاش فيه التوحيدى كان مجتمعا متفرقا مشتتا تسوده الفرقة، ومفسد الحكم. مما يعنى التزلف والتفاد وانتشار المظالم وضياح الأمن وسوء المعاملة وسفك الدماء وكثرة الجدل ومصادرة الأموال وانتعاش الرشوة... وقد صور ذلك كله فى كتبه، ولا سيما (الإمتاع والمؤانسة)، وبث فيه فكريا ناقدا صريحا، لم يكن مقبولا عند الحكام وذوى الشأن. وإذا كان التوحيدى قد أقبل فى بداية عمره على الحياة وعلى العلم، فإنه مع ذبول زهرة العمر واعتلال الصحة، مال نحو التشاؤم والسوداوية، وغلب عليه الحزن والانطواء.

ولعل فى هذه الأبعاد مجتمعة أو متفرقة مايدل على أن التوحيدى لم يكن فظ الطبع أو منحرف المزاج، ولم يكن مأزوما نفسيا فقط، وإنما كان حائرا فى كيفية إصلاح مجتمع يخطو نحو السقوط والهزيمة. فكان يطرح الأسئلة فلا يجد لها جوابا، ويشكو زمانه فلا يجد من يأخذ بيده وينقذه مما هو فيه وربما دفعته حالة الخوف والقلق والحيرة والتناقض والتدهور الفكرى والحضارى والثقافى والأخلاقي إلى أن يكون فى الوسط حتى يحفظ لنفسه موقعا، وربما انعكست هذه الوسطية على تراجمه ومعتقداته وآرائه وأفكاره فاحتار، هل يكتب الحقيقة أم يلون هذه الحقيقة بالغموض والازدواج؟.. ولقد لاحظ ماجد يوسف (١٥٨) هذا التناقض والازدواج، وقال: نستطيع أن نفسر مسألة الغموض (أحيانا) بين الأفكار والألفاظ، فأبو حيان حين يكثُر فى أسلوبه من ألفاظ الازدواج والمقابلة، إنما يكشف عن شخصية تحيا التناقض والمفارقة.

وإذا كانت الوسطية تعد عيبا عند بعض الدارسين، لأنها تساعد النقاد على إجراء التسوية وتمنحهم القدرة على المجاملة، وتبرئهم من تحمل المسؤولية وإصدار الأحكام الفنية، فإنها تعد معادلة مهمة عند المشتغلين بتراجم الآخرين. وإذا ظن بعض الباحثين أن هذا الموقف يشكل عيبا واضحا فى التراجم التى تذكر السلبات والإيجابيات، ولاتظهر المواقف الواضحة التى تشكل قناعات ثابتة عند النقاد، فإن علينا أن نتصور تراجم مادحة فقط لنذكر مقدار الكذب الذى سيدخل فى عالم المترجم، ومايمكن أن يلحق به ذلك من أضرار،

شخصيات العصر، ولكن ليس من خلال أسلوب المترجمين، وإنما من خلال انتقاء المواقف، واختيار ما يصلح لجعله الرجل المتفرد الذى يسمو على كل من عده.

وإذا كان التوحيدى أراد إرضاء رغبة العارض الشديدة فى تعرف الرجال، فإنه قد يكون أراد أن يسدد حسابات قديمة كانت بينه وبين عدد من الرجال. كما أراد أن يؤثر على نفسية العارض، ويحدث تفاعلات مؤثرة على الأوضاع الثقافية والنقدية والفكرية كافة.

وأكبر الظن أن التوحيدى كان يدرك، عندما بدأ بالإجابة عن أسئلة أبى عبدالله العارض، أن ما يتقوه به صادر عن قناعات يؤمن بها، ودليلنا على ذلك أنه قصد إلى إثارة الفكر لدى العارض وإيقاظ إحساسه، وتنبيهه إلى ما كان عليه وإلى ما سيكون. وكان يهدف إلى الوصول إلى غاية فنية وأخلاقية، وإلى تنبيه العارض إلى ضرورة تغيير بعض القيم الراسخة فى نفسه حول بعض الشخصيات، وتحريك الدوافع والمشاعر والأحاسيس بحيث تبلغ غايتها من القدرة على الابتكار والخلق. أو ربما قصد إلى تغيير جوهرى فى فهم الشخصيات، وإدراك ما فى دواخلهم وتزويد عقل العارض بسلاح المعرفة والفهم لهؤلاء الذين تعامل أو قد يتعامل معهم، أو سمع عنهم أو قد يتعرفهم.

ولقد توجه التوحيدى بهذه المجموعة من التراجم، وهو يدرك أنه يوجه خطابه إلى وزير متعلم ومثقف ثقافة عالية. وربما ظن التوحيدى أن البواعث النفسية هي الأصل فى توضيح الصورة، وإلى ما تقدمه من مدركات. لذلك أدرك أن ما يحدث به العارض إنما يحرك فى نفسه بواعث الشعور ويدفعه إلى أن يتخذ بعض الخطوات الإدراكية فى هذا المجال، وعليها أن نمترف بأن التوحيدى سعى سعيًا حثيثًا إلى اشتقاق الدلالات، وحاول التقاط المعانى واستخلاصها من المحصلة الرئيسية. وكان هذا الجانب كأنه حجر الزاوية فى فكر التوحيدى النقدي بأكمله. مما يعنى أن التوحيدى سعى إلى غاية محددة ووصل إليها - ومن يدري فقد يكون سعى إلى غاية ووصل إلى غيرها.

ولم يهتم التوحيدى بالتفسير أو التعليل فى تراجمه، وهذا واضح كل الوضوح فيما كتبه، على قلته. لذلك نراه يسلك الطريق التالى:

- اللجوء إلى المعانى الذهنية المتلاحقة، مما يدل على شعور فورى وأنى وسريع. وهذه حالة من الشعور تورث الصدمات للمستمع من جهة، وتقدم المعانى غير الدقيقة وربما الكاذبة من ناحية أخرى.

- الوقوف وراء حالة نفسية آنية، بصرف النظر عن الموضوعية. فجاءت تعبيراته عاكسة بعض المكونات والأسرار والخفايا. وقد كشف لنا عن نتائج خطيرة، عندما لم يمعن فى التفسير والتعليل. كما حدث عندما تحدث عن القرامطة، أو أشار إلى (ألف ليلة وليلة) أو ذكر بعض الحوادث المعاصرة. والتوحيدى من أولئك الذين قدموا أدياً لا يقبل التفسير والتعليل، تماماً مثل الشعر؛ فالتعبير لابد أن يقف إلى جانب الأسس المعنوية للأدب الراقى، والتفسير لابد أن يقف إلى جانب الأصول المعرفية للأدب. وهذا باب دخله التوحيدى، وأثبت أنه يقدم نشراً من غير تكلف أو تصنع.

- الحرية فى الانتقال من ترجمة إلى أخرى، ثم العودة إلى بعض الترجمات، ومن مقارنات إلى أخرى داخل الترجمة الواحدة، ومن وضع إلى وضع داخل مجالات الدلالات والمعانى وأوضاع المترجمين.. وكان قادراً على اشتقاق العلاقات على استخلاص الماهيات، وعدم الالتفات إلى تفرع المعانى وقوة جاذبيتها. وإذا كان قد شيد مذهبه الذى رأيناه واضحاً فى (مثالب الوزيرين) على بعض هذه الظواهر، فإنه رأى أن يعكس الآية فى تراجمه فى (الإمتاع والمؤانسة)؛ ذلك أن ظروف الكتاب الممتع لا تسمح له بذلك، وظروف التحديث والقص والإخبار لا تختمل الركض وراء ما تملبه النفس من اندفاعات.

وقد يسهل على الباحث تكذيب الخبر الذى يسوقه التوحيدى إذا قارنه بواقع حال بعض المترجمين التى جاد بها الزمان قبل زمن التوحيدى وبعده، فنحن نميل إلى إنكار التوحيدى بعض الحوادث التى قد تكون فى صالح المترجم،

الراقي المقاييس العادلة، لظهر له بوضوح أنه والقارئ سيتفحان فيما بينهما على حقيقة ما، مثلما اتفق والعارض على كثير من الحقائق.

وهكذا، نلاحظ أن التوحيدي - الذي لم يفكر، فيما يظهر، عندما بدأ يترجم الرجال في (الإمتاع والمؤانسة) في تقديم نظرية في التراجم - قدم نماذج من التراجم، جاءت معبرة عن موقف من مواقف التوحيدي المعروفة، كما دفع أمانا بأدوات تمثل اتجاهها من الاتجاهات، وتحمل دلائل من نوع ما يمكن أن تشكل في مجموعها نظرية، كذلك التي سلكها صاحب (الفهرست) في كتابه التميز، وهي النظرية التي تكاد تقترب منها في الشكل وتبتعد عنها في المضمون. والحقيقة أن النقد لا يكون نقدا إلا إذا عاصرت الشواهد، وتقدمته الأمثلة، وتمت مقارنة هذه الشواهد بنظائرها. كما أنه لا يكون نقد الرجال نقدا يعتد به ويستشهد بمضامينه ووثائقه إلا إذا كان الناقد معاصرا لمن يكتب عنهم، وهذا ما نسجله للتوحيدي. كما نسجل للتوحيدي - باعتباره ناقدا للرجال - جرأته وصراحته، وأنه لم يضطر إلى التعديل في منظوراته، أو إلى المهادنة والمصالحة. ولم يكن سهل المجاملة، وكان إنسانا قلقا ينظر حوله بعين الناقد المستريب، ولم يكن سهلا عليه أن يفلق عينه على خطأ، أو يفلق عقله المفتوح على وهم. وإدراكا منه لهذه الحقائق، وشعورا منه بالخوف من عين الرقيب وسيف صاحب السلطة، فقد طلب أن تصان (رسالته) بل رسائله وكتبه بعد أن شعر أن ما قام به يمس الآخرين ويؤذي شخصياتهم، فبدت عليه علامات الخوف والقلق والأرق من الصدق والصراحة، في مجتمع لا يحترم الصدق والصراحة.

ومع ذلك، فإن التوحيدي ظهر في تراجمه وسطيا معتدلا توفيقيا، تماما مثلما ظهر كذلك وهو بصدد معالجة القضايا الفكرية والأدبية واللغوية الكبرى، من مثل: مسألة الذات الإلهية، واللفظ والمعنى، والنثر والشعر، فقد كان في تراجمه ثائبا وكان كذلك عندما قدم القضية الواحدة من زاويتين مختلفتين كل الاختلاف، ولم يكن يميل إلى ناحية دون ناحية، وكأنه يريد أن يقدم رؤية شاملة، غير محددة ولا

إذ تأكد للباحث، كما أثبتت بعض الوقائع، أن التوحيدي يستبعد بعض الخصائص والميزات لبعض من ترجم لهم. وربما أدرك بعض حقائقها، ولكنه لم يأخذ بها، أو ربما تعمد عدم ذكرها. هذا فضلا عن أنه لم يظهر لنا الفواصل الدقيقة بين حقائق الأشياء والأدوات والوسائل التي كانت غير خافية على أحد من المعاصرين أو ممن جاءوا بعد عصر التوحيدي، إلى جانب أنه ربما اخترع مواقف وهمية لإقناعنا بوجهة نظره، مع أن الضرورة تقتضي أن يقدم لنا الحقائق الثابتة أو ما يوحى بها.

ولأن التوحيدي كان يشعر بأنه أمام عقلية ترحب بما يقدم من نقد، وتسلم بما كان يستحضر من لغة وصور وفكر وأدب، تقرب جميعها الأشياء المركبة، وتنحو نحو الأشياء البسيطة البعيدة عن التعقيد، فقد رأى أن يوجه نظر أبي عبدالله العارض إلى ضرورة الاعتماد عن كل ما يتزعزع الثقة، ويمنع من التسليم بالأفكار المطروحة. وبذلك اكتسب كلامه الدرجة القطعية في عدم المناقشة.

وسلك التوحيدي سبيل الاعتماد على الجملة، وما تختزنه من دلالات، في الوقت الذي أخذ فيه بأطراف الفكر ولم يتعمقه، ووقف عند حدود الآراء التي يرغب في إبلاغها. ولو شفع التوحيدي آراءه في الرجال بشئ من العمق لأنج لنا فكريا راقيا جميلا وأسلوبيا فريدا في التراجم، كالذي فعله في (مشالب الوزراء)، ولكنه في (الإمتاع والمؤانسة) لم يحاول دفع التفكير في المعنى خطوة واحدة إلى الأمام. وكل ما فعله هو الاعتماد على العبارة البليغة، التي أراها أن تقترب بمعان كثيرة، تخيل أنها ربما تصل إلى القارئ بالمستوى نفسه الذي وصلت فيه إلى العارض.

وإذا كان أبو عبدالله العارض قد قنع بأن لدى التوحيدي حاسة نقدية ممتازة، وأنه كان مسرورا بسماعها، وأن لديه قدرة على الوعي بما يقال، وفكرا قويا نافذا يبلغ قرارة المعنى ويعرف الفرق بين الاستخدام والاستعمال، فإن قارئ التراجم قد لاحظ عدم وجود فرق بين التقاطع والتوازي اللذين لا تصرف المعاني إلا بهما. ولو قام التوحيدي بعمليات المقارنة والمعاينة اللتين توفران للأدب

محصورة. إلى هذا المدى يذهب حُسنى سالم (١٥٩) الذى يرى أن العديد من المشكلات الكبرى التى احتدم حولها الصراع الفكرى الاجتماعى فى العصور الإسلامية قبل القرن الرابع الهجرى نفسه، كان التوحيدى يقف منها الموقف المعتدل الذى يتوسط بين طرفين.

وعليه، فإننا نرى أن تراجم التوحيدى لم تكن سطحية أو تقريرية، ولا جاءت للتقليل من شأن المترجمين، أو المساس بشخصياتهم. أو الطعن فى مذاهبهم واتهماتهم فقط، أو أنه لم يوفر أو يوفر، أو أنه كان متأثرا بالجاحظ (١٦٠) الذى أخضع أسلوبه لشخصياته بينما أخضع التوحيدى شخصياته لأسلوبه. كما لم يشأ التوحيدى أن يبدأ بالنسب والحسب. الذى لم يكن من مظاهر تراجم القرن الرابع فيما يظهر، وأن يطيل بالتالى فى تراجمه، لأن من مظاهر هذا القرن كان الاقتصاد فى الأسلوب، والدقة فى إصابة المعنى، كما ذكر ذلك صاحب (الفهرست) (١٦١) الذى ذهب إلى أن النفوس تشرئب إلى النتائج دون المقدمات، وترتاح إلى الغرض المقصود دون التطويل فى العبارات.

وإنما كان راعيا فى إظهار الحقائق وكشف الخفايا، وتقديم الناجز، كما ظهر متحررا ودقيقا فى معظم ما ذكره، وكان يسند كثيرا من الأقوال إلى أصحابها، ويقارن ويقارب بين من وجه إليهم النقد وغيرهم من رجالات العصر، أو ممن ينتسبون إلى المذهب نفسه.

وإذا كان معظم من ترجم لهم التوحيدى ممن يعملون فى السلطة، فليس هذا مما يؤخذ عليه بمقدار ما كان فى جانبه. فقد حاول أن يقلل الثقة بهم، ويغمر من علمهم، ويقلل من شأنهم، ولم يكن معهم مهادنا أو مجاملا. وكان منصفا لهم أشد الإنصاف، عندما ذكر فضل بعض العلماء والفلاسفة والحكماء واللغويين والشعراء، وسبواهم. وعلى كل الأحوال، فإن التوحيدى اختار محطات معينة من أعمار شخصياته، من أجل إظهار بعض الحقائق المتعلقة ببعض الشخصيات، بقصد تحريك الوعى الأخلاقى، والإيهام بأنه يقوم بالنقد من خلال المشاهدة والملاحظة، وتحليل الظواهر تحليلا محايدا، يجمع بين الإيجابيات والسلبيات.

وأحسب أن التوحيدى قد نجح فى كونه مترجما للرجال وناقدا لهم عندما أظهر قدرات من ينقدهم، وكان على بينة من ظروفهم الخاصة والعامة، وأبرز النواحي التى اهتم بها دون غيرها، لاسيما نقاط الضعف والقوة ولم يكن مجاملا على حساب هذه الحقائق ولا كان مهادنا فى إصدار الأحكام.

وإذا كنا قد لاحظنا التناقض فى بعض تراجمه، والوسطية المتأنية فى إصدار الأحكام، فلأن مرد ذلك هو حيرته وقلقه وأزماته التى كان يعيشها. وإذا كانت حالة التوحيدى قد حيرت قبلنا ياقوت الحموى فلم يتمكن من توصيف الرجل، فخلع عليه مرة صفة: الاعتزال، ومرة مسلك الجاحظ، ومرة شيخ الصوفية، ومرة فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة، ومحقق الكلام، ومتكلم المحققين وإمام البلغاء.. فإننا لا نزال نفث حيارى أمام ظاهرة التوحيدى، على الرغم من كثرة ما كتب عنه.

النتائج :

يتضمن هذا البحث مقدمة وخاتمة وستة أقسام هى: دوافع كتابة الترجمة عند التوحيدى، وصورة الترجمة واتجاهاتها وموضوعاتها، وأسلوب نقد العلماء والأدباء والوزراء، وموقع التوحيدى من فن التراجم، وبناء نص التراجم: اللفظ والمعنى، وأخيرا نظرية الترجمة عند التوحيدى.

والحقيقة التى ستظل ظاهرة للعيان هى أن تراجم التوحيدى ستبقى ماثرا للجدل، لأنها ليست تاريخ حياة بالمعنى المفهوم، التى أصبحت سمة من سمات التراجم بعد القرن الرابع الهجرى، وأن التوحيدى لم يكن راعيا فى وصف الرجال، ولا كان ذلك هاجسه، وإنما استجاب لرغبة مضيفه الوزير أبى عبدالله العارض. لذلك كان العارض وراء تحديد منهج وصف الرجال، وكان راضيا عما قدمه التوحيدى، فكان يعلن عن رضاه بما يسمعه. وإذا كان التوحيدى غير راغب فى البداية فى نقل الأحاديث والأخبار وإعادة الأحوال، فإن أبى عبدالله العارض كان قد

طلب ذلك، لأنه يود أن يطلع على أحوال الرجال، وتعرف خفاياهم وأخبارهم واتجاهاتهم الفكرية والمذهبية، وما إلى ذلك.

يبدأ التوحيدى فى ترجمة أبى سليمان المنطقى، ويعتبره نقطة ارتكاز وجذب واستقطاب، وقد لاحظت أن معظم الترجمات التى تعد بالمشرات جاءت فى الجزء الأول. وفى هذا الجزء يظهر المنهج الذى يرسمه المعارض ونجده سائلا ومستفسرا فى حين نجد التوحيدى ناقدا، يتعسف فى حكمه على الرجال ويخصص نقده لقدرات الرجال العلمية وعيوبهم الشخصية. وكان محكوما فى ذلك بمواقف شخصية. ومع ذلك، فقد كان فى تراجمه متوازنا، يذكر الحسنات والسيئات والإيجابيات والسلبيات. ولذلك كان لتراجمه سمة محددة، سنظل مثار جدال ونقاش.

وعلى الرغم من أن التوحيدى ترجم لمعظم معاصريه، فإنه صمت عن الخوض فى ماضيه هو نفسه صمتا تاما، ومع ذلك، فقد تمكنت من استخراج بعض الدلالات من بعض المصادر التى تفيد هذه الدراسة من حيث نظريته إلى الآخرين، ومتى تبدأ شخصيته ومتى تبدأ شخصيات الآخرين. ولقد ترجم التوحيدى طوائف من الرجال، كان منهم: الأساتذة والوزراء وأهل الاعتزال والمتكلمون والشعراء واللغويون والمطربون وغيرهم. وكان فى نقده يظهر الصورة المتوازنة المتقابلة.

ونظرا لأهمية بناء نص التراجم عند التوحيدى، فقد أظهرت نظريته فى مجال اللفظ والمعنى والتركيب والدلالة. كما لاحظت عنده بواحد نظرية قديمة جديدة، هى محاولة الربط والمزج بين النقد والبلاغة والنحو، فقد أثار تساؤلات كثيرة فى هذا المجال، وكان منحازا إلى لغة العرب، ويستشهد بآراء أبى سعيد السيرافى وابن المقفع، مما يدل على محاولة ربط محكم بين مدلول اللفظ وطرق أداء المعنى، وبين التنوع الأدبى وطرق صياغته، وبين شخصية المبدع وقدراته ومفهوم الكلمة ومفهوم النظم.

ولقد تمكن التوحيدى، من خلال تراجمه، من الإحاطة بأحوال الناس والطبقات والشخصيات. وكان قادرا على الغوص فى أعماق الآخرين، والإحاطة بفضائلهم وعيوبهم، والكشف عن مكنوناتهم وتصرفاتهم، ويبدو أنه كان مولعا بالتنقيب عن الإنسان ونوازعه. وساعده على ذلك فكر حر لا يحده حد، وكان غير منتم إلى مذهب أو جماعة. وربما دفعه خوفه وقلقه وحيرته إلى أن لا يذهب بعيدا فى طرفه، فكان عليه فى مجتمع يمتلأ بالحساد والرقباء، أن يقف المواقف الوسطية. وكان فى ذلك كثير من الفوائد حيث أبلغنا بكثير من الحقائق.

ولقد كان التوحيدى فى نقده ذاتيا، وحقق من خلال نقده جانبا من الإفصاح عن نفسيات بعض الرجال، وكان يسمى بذلك إلى استشفاف الدلالات والتقاط المعانى واستخلاصها من المحصلة الرئيسية. وكان حرا فى تنقلاته من ترجمة إلى أخرى، ثم العودة إلى بعض الترجمات. وبمقارنة ما كتبه التوحيدى فى هذا المجال بما كتبه غيره، نلاحظ أن التوحيدى فى بعض تراجمه أخذ بأطراف الأفكار ولم يتعمقها، ولم يوفر لنا المعالجة والمقارنة لتكون مقاييس عادلة، كما كان انتقائيا يأخذ من المواقف ما يراه مناسباً لإسماعه لأبى عبد الله المعارض.

ومعظم تراجم التوحيدى تعبر عن مواقف سياسية وفكرية وثقافية ومذهبية. وفيها سجل التوحيدى جراءة مقبولة، والدلالة على ذلك أنه لم يضطر إلى التعديل من منظوراته أو إلى المهادنة والمصالحة. ومع ذلك فلم تكن تراجمه سطحية أو تقريرية، وإنما كانت مليئة بالدلالات والبيانات التى يحتاجها من يترجم للرجال. وبذلك يكون التوحيدى قد نجح فى كونه ناقدا للرجال ومترجما لهم، ولم يجامل على حساب الحقائق، ولا كان مهادنا فى إصدار الأحكام. وإن كان ثمة تناقض فى بعض تراجمه فمرد ذلك يعود إلى حيرته وقلقه ووسطيته فى إصدار الأحكام.

- (١) معجم الأديباء، ٤٦١.
- (٢) الإمتاع والمؤانسة، ١: ٥٤.
- (٣) أبو حيان التوحيدي: سيرته - آثاره، ص ٢٩٤ وما بعدها لتعرف مكتبته صاحب ذيل تجارب الأمم ومكتبته النقاد الآخرون.
- (٤) الإمتاع والمؤانسة، ١: ٢٩٠.
- (٥) المصدر السابق: ١: ٣٢.
- (٦) نفسه ١: ٣٣.
- (٧) نفسه.
- (٨) نفسه ١: ٣٧.
- (٩) نفسه ١: ٣٢.
- (١٠) نفسه ١: ٢٩، وما بعدها.
- (١١) نفسه ١: ٣٣ - ٣٧.
- (١٢) نفسه ١: ٣٩.
- (١٣) نفسه ١: ٤١.
- (١٤) نفسه ١: ٥١.
- (١٥) نفسه ١: ٥٣.
- (١٦) نفسه ١: ٦١.
- (١٧) نفسه ١: ٤٢.
- (١٨) نفسه ١: ٤٣.
- (١٩) نفسه ١: ٤٤.
- (٢٠) نفسه ١: ٤٢.
- (٢١) نفسه ١: ٤٣.
- (٢٢) نفسه ١: ٤٥.
- (٢٣) نفسه ١: ٤٧.
- (٢٤) نفسه ٢: ٤.
- (٢٥) المصدر نفسه.
- (٢٦) نفسه ١: ٥٣.
- (٢٧) نفسه (والمقصود هنا صاحب ابن عباد).
- (٢٨) نفسه ١: ٦٨.
- (٢٩) نفسه ١: ١٣٤ - دحى: مزلة ومزلة للأقدام انظر كذلك: رأى الأستاذ عبد الرزاق محيى الدين فى موضوع الشعر ص ١٣٨ وما بعدها.
- (٣٠) نفسه ١: ١٣٩.
- (٣١) نفسه.
- (٣٢) نفسه ١: ٣١.
- (٣٣) إحسان عباس: أبو حيان التوحيدي، ص ٨٥.
- (٣٤) الإمتاع والمؤانسة، ١: ٢٩.
- (٣٥) المقابسات، ص ٢٧٥.
- (٣٦) البصائر والذخائر، ٢: ٤٧٥.
- (٣٧) الإمتاع والمؤانسة، ٢: ١٥٥ - ١٥٦.
- (٣٨) دائرة المعارف الإسلامية، ١: ٤٥٩.
- (٣٩) معجم الأديباء، ١٥: ٥ - ٦.
- (٤٠) المصدر السابق ١٥: ٦.
- (٤١) نفسه ١٥: ٩ وانظر كذلك مكتبته عبد الرزاق محيى الدين فى كتابه: أبو حيان التوحيدي: سيرته - آثاره، ١٤ - ٢٩.

- (٤٢) نفسه ٥: ١٣.
- (٤٣) نفسه ٥: ١٨ - ١٩.
- (٤٤) الضمير هنا يعود إلى المصنفات التي أحرقتها.
- (٤٥) نفسه ٥: ٢٠ - ٢١.
- (٤٦) نفسه ٥: ٢٢.
- (٤٧) نفسه ٥: ٢٤.
- (٤٨) نفسه ٥: ٢٨.
- (٤٩) نفسه ٥: ٣٢.
- (٥٠) نفسه ٥: ٣٣.
- (٥١) نفسه ٥: ٣٤.
- (٥٢) نفسه ٥: ٣٥ - ٣٦.
- (٥٣) نفسه ٥: ٣٨.
- (٥٤) دمنة: حقد قديم، إحنة الحقد في الصدر.
- (٥٥) أبو حيان التوحيدي رأيه في الإعجاز وأثره في الأدب والنقد، ١: ٢٢٤.
- (٥٦) المرجع السابق ١: ٢٢٤ وما بعدها.
- (٥٧) معجم الأدياء ١٣: ١٥ وما بعدها.
- (٥٨) انظر ترجمته في المصادر التالية: الإمتاع والمؤانسة (الليلة الثانية ١: ٢٩ وما بعدها) ومواضع أخرى. تاريخ حكماء الإسلام ١٥: ٨٢٢، أخبار الحكماء ١٨٥، الفهرست ٥٣٥، أعلام الزركلي ٦: ١٧١.
- (٥٩) انظر ترجمته في المصادر التالية: الإمتاع والمؤانسة ١: ٣٦، ١٣٣، ومواضع أخرى. وكذلك بغية الوعاة ٢: ١٨٠، وفيات الأعيان ٣: ٢٩٩، تاريخ بغداد ١٢: ١٦، نزهة الألباء ٣٨٩، إنباء الرواة ٢: ٢٩٤، معجم الأدياء (تحقيق إحسان عباس) ٤: ١٨٢٦ - ١٨٢٨، الفهرست ١٢٨، ٣٦٢ أعلام الزركلي ٤: ٣١٧.
- (٦٠) انظر ترجمته في المصادر التالية: الإمتاع والمؤانسة ١: ١٢٩ وما بعدها (الليلة الثالثة ١: ١٠٤ وما بعدها)، وفيات الأعيان ٢: ٧٨ - ٧٩، تاريخ بغداد ٧: ٣٤١، بغية الوعاة ١: ٥٠٧ وما بعدها، معجم الأدياء ٢: ٨٧٦ وما بعدها (إحسان عباس) طبقات الزبيدي ١٢٩، نزهة الألباء ٢١١، الفهرست ١٢٦.
- (٦١) انظر ترجمته في المصادر التالية: الإمتاع والمؤانسة ١: ٣٧، أخبار الحكماء ٢٣٦ - ٢٣٨، طبقات ابن أبي أصيبعة ٢: ٢٧٧، حكماء الإسلام ٩٧، الفهرست ٥٣٤، مفتاح الكنوز ٣٧٢، الأعلام للزركلي ٨: ١٥٦.
- (٦٢) انظر ترجمته في المصادر التالية: الإمتاع والمؤانسة ١: ٣٥، ١٣٦، ومواضع أخرى، يتيمة الدهر ٥: ١١٥، أخبار الحكماء ٢١٧ - ٢١٨، طبقات ابن أبي أصيبعة ٢: ٢٤٦، معجم الأدياء ٥: ٥ وما بعدها، آداب اللغة العربية ٢: ٣١٧، الفهرس التمهيدى ٢٩١، ٤٦١، الذريعة ٤: ٦٦، هدية العارفين ١: ٧٣، دائرة المعارف الإسلامية ١: ٢٧٧، أعلام الزركلي ١: ٢١١ - ٢١٢.
- (٦٣) الإمتاع والمؤانسة، ١: ٣٣.
- (٦٤) المصدر نفسه ١: ٣٧.
- (٦٥) المصدر نفسه ١: ٣٧.
- (٦٦) الإمتاع والمؤانسة ١: ٣٥.
- (٦٧) انظر ترجمته في المصادر التالية: الإمتاع والمؤانسة ١: ٦٦، ومواضع أخرى، يتيمة الدهر ٣: ١٨٣ وما بعدها، معجم الأدياء ٥: ٢٣٣ وما بعدها، وفيات الأعيان ٥: ١٠٣ وما بعدها، الفهرست ٢٦٠، معاهد التصحيح ٢: ١١٥، شذرات الذهب ٣: ٣١، الكامل ٨: ٦٥٥ - ٦٠٦، أمراء البيان ٤٦٦ - ٥٧٠، أعلام الزركلي ٦: ٩٨.
- (٦٨) انظر ترجمته في المصادر التالية: الإمتاع والمؤانسة ١: ٦٦، ومواضع أخرى، يتيمة الدهر ٣: ٢١٥ وما بعدها، نكت الهميان ١٢٥، معجم الأدياء ١٤: ١٩١ وما بعدها، الكامل في التاريخ ٨: ٦٠٥ وما بعدها، وفيات الأعيان ٥: ١١٠، أعلام الزركلي ٤: ٢٢٥.
- (٦٩) انظر ترجمته في المصادر التالية: الإمتاع والمؤانسة ١: ٥٤ وما بعدها ومواضع أخرى، يتيمة الدهر ٣: ٢٢٥ وما بعدها، وفيات الأعيان ١: ٢٢٨ وما بعدها، بغية الوعاة ١: ٤٤٩ وما بعدها، معجم الأدياء ٥: ١٦٨ وما بعدها، معاهد التصحيح ٤: ١١١، ابن الوردى ١: ٣١٢، المنتظم ٧: ١٧٩، إنباء الرواة ١: ٢٠١، نزهة الحليس ٢: ٢٨٤، لسان الميزان ١: ٤١٣، الكامل في التاريخ ٩: ١١٠ وما بعدها، الفهرست ٢٦٠.
- (٧٠) الإمتاع والمؤانسة ١: ٥٤، وانظر كذلك كتاب عبد الرزاق محي الدين أبو حيان التوحيدي: سيرته - آثاره لتعرف صلاته بابن عباد ص ٢٧٣ وما بعدها.
- (٧١) الإمتاع والمؤانسة ١: ١٤٢.
- (٧٢) المصدر نفسه ١: ١٢٤ - (الدحض: الزلق، الغض: اللبن الخالص لم يخالطه ماء).
- (٧٣) انظر ترجمته في المصادر التالية: الإمتاع والمؤانسة ١: ١٣٤، يتيمة الدهر ٢: ٤٦٦ وما بعدها، وفيات الأعيان ٤: ٤٠٣ وما بعدها، البداية والنهاية ١١: ٣٣٣، مرآة الجنان ٢: ٤٤٦، تاريخ بغداد ٢: ٣٣٥ أعلام الزركلي ٦: ٢٢٦.

- (٧٤) انظر ترجمته في المصادر التالية: الإمتاع والمؤانسة ١: ١٣٥، بيمة الدهر ٣: ١٢٠، وما بعدها، وفيات الأعيان ٤: ٣٦٢، تاريخ بغداد ٢: ٢١٤، ومعجم الأدباء ١٨: ١٥٤.
- (٧٥) الإمتاع والمؤانسة ١: ١٣٥.
- (٧٦) انظر ترجمته في المصادر التالية: الإمتاع والمؤانسة ١: ١٣٥، بيمة الدهر ٣: ١٤١ - ١٤٢، بغية الرعاة ١: ٥٣٨، اللباب ١: ٣٤، معجم الأدباء ١٠: ١٥٥، وما بعدها.
- (٧٧) انظر ترجمته في المصادر التالية: الإمتاع والمؤانسة ١: ٣٥ - ١٣٦، بيمة الدهر ٥: ١١٥، أخبار الحكماء ٢١٧ - ٢١٨، طبقات الأطباء ٢: ٢٤٦، معجم الأدباء ٥: ٥ وما بعدها.
- (٧٨) انظر ترجمته في المصادر التالية: الإمتاع والمؤانسة ١: ١٣٦، بيمة الدهر ٢: ٤٤٧، وفيات الأعيان ٣: ١٩٠، وما بعدها، تاريخ بغداد ١٠: ٤٦٦.
- (٧٩) انظر ترجمته في المصادر التالية: الإمتاع والمؤانسة ١: ١٣٧، وما بعدها، بيمة الدهر ٣: ٣٥، وفيات الأعيان ٢: ١٦٨، وما بعدها، تاريخ بغداد ٨: ١٤، روضات الجنات ٢٤، معاهد التخصيص ٣: ١٨٨، دائرة المعارف الإسلامية ١: ١٣٠، البداية والنهاية ١١: ٣٢٩، الأعلام الزركلي ٢: ٢٣١.
- (٨٠) الإمتاع والمؤانسة ٢: ١٦٥ - ١٨٩، وانظر كذلك الليلة الحادثة والمشرين ٢: ٨٢، وما بعدها.
- (٨١) المصدر السابق ٢: ١٦٦.
- (٨٢) نفسه ٢: ١٦٦ - ١٦٧.
- (٨٣) هياشراها كلمة عبرانية (معناها: ياحي يا قيوم).
- (٨٤) نفسه ٢: ١٧٢.
- (٨٥) نفسه ٢: ١٨٣.
- (٨٦) نفسه ١: ٢٠٥.
- (٨٧) نفسه ١: ٢٥٥.
- (٨٨) نفسه ٣: ٨٥، وما بعدها.
- (٨٩) أبو حيان التوحيدى: أذهب الفلاسفة وفلاسوف الأدباء، ص ٢٦٥.
- (٩٠) إبراهيم الكيلاني: أبو حيان التوحيدى، ص ٦٦ وما بعدها.
- (٩١) إحسان عباس: أبو حيان التوحيدى، ص ١٣٠.
- (٩٢) المرجع السابق، ص ١٣٠.
- (٩٣) زكريا إبراهيم أبو حيان التوحيدى، ص ٢٦٥ - ٢٦٦.
- (٩٤) المرجع السابق، ص ٢٦٦.
- (٩٥) زكريا إبراهيم: أبو حيان التوحيدى، ص ٢٠٣.
- (٩٦) المرجع السابق، ص ٢٦٤.
- (٩٧) إبراهيم الكيلاني أبو حيان التوحيدى ص ٦٨.
- (٩٨) أبو حيان التوحيدى: رأيه في الإعجاز، ص ٣٠١ - ٣٠٢.
- (٩٩) أحمد محمد الحوتى: أبو حيان التوحيدى، ط ٢، ص ٣٧٠.
- (١٠٠) المرجع السابق، ص ٣٦٧.
- (١٠١) الإمتاع والمؤانسة ١: ٣٧، والمنشيط تمنى المنتهب. والضمير فيها عائذ على السرداء.
- (١٠٢) تاريخ بغداد ١٢: ١٦.
- (١٠٣) وفيات الأعيان ٣: ٢٩٩.
- (١٠٤) بغية الرعاة ٢: ١٨٠، وما بعدها.
- (١٠٥) معجم الأدباء بتحقيق إحسان عباس ٤: ١٨٢٦ - ١٨٢٨.
- (١٠٦) الإمتاع والمؤانسة ١: ١٣٣.
- (١٠٧) انظر ترجمته في المصادر التالية: الإمتاع والمؤانسة ١: ٦٧، وفيات الأعيان ١: ٥٢، معجم الأدباء ٢: ٢٠ - ٩٤، النجوم الزاهرة ٣: ٣٢٤، الكامل في التاريخ ٩: ١٠٦، شذرات الذهب ٣: ١٠٦، بيمة الدهر ٢: ٢٨٧ - ٣٦٨، وانظر كذلك: بيمة الدهر ١: ٣٠٩، وما بعدها لتعرف مادار بينه وبين أبي الفرج البهاء، الفهرست ٢٥٩.
- (١٠٨) وفيات الأعيان ١: ٥٢.
- (١٠٩) معجم الأدباء ٢: ٢٠ - ٩٤.
- (١١٠) انظر ترجمته في المصادر التالية: الإمتاع والمؤانسة ١: ١٢٩، وما بعدها، وفيات الأعيان ٢: ٨٠ - ٨٣، إنباه الرواة ٢٥٣، بغية الرعاة ١: ٤٩٦، تاريخ بغداد ٧: ٢٧٥، معجم الأدباء ٧: ٢٢٢، وما بعدها، نزهة الألباء ٣٨٧، الفهرست ١٢٩ - غاية النهاية ١: ٢٠٦.

- (١١١) الإمتاع والمؤانسة ١: ١٢٩.
- (١١٢) إنباء الرواة ص ٢٥٣.
- (١١٣) تاريخ بغداد ٧: ٢٣٢ - ٢٦١.
- (١١٤) الإمتاع والمؤانسة ١: ١٣٢.
- (١١٥) الإمتاع والمؤانسة ٢: ١.
- (١١٦) الإمتاع والمؤانسة ١: ٣٣ - ٣٤.
- (١١٧) إحسان عباس أبو حيان التوحيدي، ص ٨٧.
- (١١٨) الإمتاع والمؤانسة ١: ٣٤ - ٣٥.
- (١١٩) علم الأسلوب: مبادئه وإجراءاته، ص ٢٢.
- (١٢٠) المرجع السابق.
- (١٢١) في اللغة العربية غناء تام من هذه الناحية، ففيها توافقات ومخالفات تشمل مجموعات معينة من الأصوات أو الحروف ذوات طبيعة خاصة، مثل: أحرف العلة وأصوات المد واللين، والأصوات الصامتة والأصوات القوية، والأصوات المكورة، وغير ذلك.
- (١٢٢) إعجاز القرآن ص ١٤ - ١٥ تحقيق السيد أحمد صقر، وانظر كذلك: صلاح مرزوق كذلك: أدبية النص ص ٣٠ - ٣٣.
- (١٢٣) محمود إبراهيم أبو حيان التوحيدي في قضايا الإنسان واللغة والعلوم، ص ٧١ وما بعدها.
- (١٢٤) الإمتاع والمؤانسة ١: ٣٣.
- (١٢٥) المصدر السابق ١: ٦٦.
- (١٢٦) المصدر نفسه ١: ٥٩.
- (١٢٧) علم الأسلوب: مبادئه وإجراءاته ص ٢٤.
- (١٢٨) الإمتاع والمؤانسة ١: ٣٣.
- (١٢٩) المصدر السابق ١: ٣٥.
- (١٣٠) نفسه ١: ٣٧.
- (١٣١) نفسه ١: ٣٦.
- (١٣٢) نفسه ١: ٣٣.
- (١٣٣) المصدر نفسه ١: ١٢٩.
- (١٣٤) البصائر والذخائر ٢: ٦٨.
- (١٣٥) الإمتاع والمؤانسة ١: ١٣٤.
- (١٣٦) المصدر السابق ١: ٥٥ - ٥٩.
- (١٣٧) أدبية النص، ص ٢٢٢. وانظر كذلك: أنماط الشكل التعبيري في كتابات أبي حيان التوحيدي إعداد الطالب غازي عبد العزيز عاشر، إشراف الأستاذ الدكتور محمود إبراهيم (رسالة ماجستير) الجامعة الأردنية، ١٩٩٤.
- (١٣٨) الإمتاع والمؤانسة ٢: ١٤٥، وانظر كذلك: الفرق بين مراتب النظم والنثر في الليلة الخامسة والمشرين ٢: ١٣٠ وما بعدها.
- (١٣٩) المصدر السابق ٣: ١٢٧.
- (١٤٠) نفسه ١: ٦٦.
- (١٤١) نفسه ١: ٦٢.
- (١٤٢) الإمتاع والمؤانسة ٣: ١٣٤.
- (١٤٣) المصدر السابق ٣: ١٣٥.
- (١٤٤) نفسه ١: ١٠.
- (١٤٥) نفسه ١: ١٢٥.
- (١٤٦) نفسه ١: ١٢٥.
- (١٤٧) البلاغة والأسلوب ص ١١٧.
- (١٤٨) الإمتاع والمؤانسة ٢: ١١٣.
- (١٤٩) المصدر السابق ٣: ١٠٥.
- (١٥٠) نفسه ٣: ١٠٥ - ١٠٦.
- (١٥١) نفسه ٢: ١٤٠ - ١٤١.
- (١٥٢) أبو حيان التوحيدي: سيرته - آثاره ١٣٢ - ١٣٧.

- (١٥٣) الإمتاع والمؤانسة ١: ٧٧ - ٧٨.
- (١٥٤) محمود إبراهيم أبو حيان التوحيدي، في قضايا الإنسان واللغة والعلوم، ص ٤٧ ومابعدا.
- (١٥٥) المرجع السابق، ص ٥٧.
- (١٥٦) ماجد يوسف «حوار العقل وسؤال الحرية»، مجلة أدب ونقد (القاهرة، يونيو ١٩٩٤) ص ٣١.
- (١٥٧) الإمتاع والمؤانسة ٢: ٧٦ ومابعدا.
- (١٥٨) «حوار العقل وسؤال الحرية»، ص ٥٣.
- (١٥٩) حلمي سالم «الرؤية الجمالية عند التوحيدي»، مجلة أدب ونقد، القاهرة، يونيو ١٩٩٤، ص ٧٧.
- (١٦٠) المرجع السابق، ص ٩١.
- (١٦١) الفهرست، ص ١٩.

المصادر

- (١) ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم / عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ط ٣. بيروت: دار الثقافة ١٩٨١م.
- (٢) ابن خلكان، أبو العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم / ولغات الأعيان.. تحقيق إحسان عباس بيروت: دار صادر، ١٩٦٨م.
- (٣) التوحيدي، أبو حيان علي بن محمد بن العباس / الإمتاع والمؤانسة، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين لبيروت: دار خليفة الحبا، (د.ت).
- (٤) التوحيدي، أبو حيان علي بن محمد بن العباس / البصائر والذخائر تحقيق وتمليق إبراهيم الكيلاني دمشق/ مكتبة أطلس، ١٩٦٤م.
- (٥) التوحيدي، أبو حيان علي بن محمد بن العباس / المقابسات/ تحقيق وشرح حسن السندوبى / القاهرة المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٢٩م.
- (٦) الثعالبي، أبو منصور - عبد الملك بن محمد بن إسماعيل / يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر شرح وتحقيق مفيد محمد قمحية / بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٣م.
- (٧) الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي: تاريخ بغداد، دار الكتاب العربي (د.ت).
- (٨) دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة محمد ثابت الفندى وآخرين. القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٣ - ٣٣٣ - ٣٣٥.
- (٩) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد / بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. بيروت: الملكية المصرية، (د.ت).
- (١٠) القفطي، جمال الدين علي بن يوسف / إخبار العلماء بأخبار الحكماء. القاهرة: مطبعة السعادة، ١٣٢٦هـ.
- (١١) باقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله. الرومي / معجم الأدياء. القاهرة، عيسى الباني الحلبي ١٩٣٨.
- (١٢) باقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله الرومي، معجم الأدياء، تحقيق إحسان عباس. بيروت / دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٣م.

المراجع

- (١) إبراهيم الكيلاني أبو حيان التوحيدي، القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٧.
- (٢) إحسان عباس أبو حيان التوحيدي، بيروت: دار بيروت، ١٩٥٦.
- (٣) أحمد محمد الحورني أبو حيان التوحيدي ط ٢، القاهرة: نهضة مصر، ١٩٥٧.
- (٤) حلمي سالم «الرؤية الجمالية عند التوحيدي»، مجلة أدب ونقد (القاهرة، يونيو، ١٩٩٤).
- (٥) زكريا إبراهيم / أبو حيان التوحيدي: أديب الفلاسفة وفلاسف الأدياء، القاهرة: المؤسسة المصرية العامة، (د.ت).
- (٦) صلاح فضل علم الأسلوب: مبادئه وأجروا، ط ٢ القاهرة: الهيئة المصرية العامة، ١٩٨٥.
- (٧) صلاح مرزوق أدبية النص. القاهرة: دار الثقافة العربية، ١٩٨٩.
- (٨) غازي عبد العزيز عاشير أنماط الشكل التعبيري في كتابات التوحيدي، رسالة ماجستير، إشراف محمود إبراهيم. الجامعة الأردنية، ١٩٩٤.
- (٩) ماجد يوسف «حوار العقل وسؤال الحرية»، مجلة أدب ونقد (القاهرة، يونيو، ١٩٩٤).
- (١٠) محمد عد الغني الشيخ أبو حيان التوحيدي: رأيه في الإعجاز وأثره في الأدب والنقد، ٢ ج بيروت: الدار العربية للكتاب، ١٩٨٣.
- (١١) محمد عد المطلب البلاغة والأسلوبية. القاهرة: الهيئة المصرية العامة، ١٩٨٤.
- (١٢) محمود إبراهيم أبو حيان التوحيدي في قضايا الإنسان واللغة والعلوم. بيروت: الدار المتحدة للنشر، ١٩٧٤.
- (١٣) عبد الرزاق محي الدين أبو حيان التوحيدي: سيرته - آثاره، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٤٩.

مخطوطات التوحيدى فى المكتبات التركية

أحمد بولوط*

المؤلف

أبو حيان على بن محمد بن العباس التوحيدى (توفى
بعد سنة ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م).

مخطوطات الكتب والرسائل وأوصافها:

1 - أخلاق الصاحب وابن العميد = أخلاق الوزيرين
مثالب الوزيرين (E11 , 126):

أسعد أفندى 3542 / 3 : 177 x 210 (145 x 167)
م، 45 ب - 92 آ، 28 سطراً، نسخ، القرن السابع أو الثامن
تخمينا. عنوان المخطوطة: أخلاق الصاحب وابن العميد.

أوله: بسملة.. الحمد لله رب العالمين وصلواته على
خير خلقه محمد وآله الطيبين أمتك الله بنعمته عليك
وتولاك يحسن معرفته لك..

* كلية الإلهيات، جامعة أولوطاغ، بورصة، تركيا.

2 - كتاب الإمتاع والمؤانسة (كشف الظنون GAL SI)
: 436 ;EII, 127 ؛ 167 /1

طوبقايى سرايى موزه سى كتيبخانه سى، أحمد الثالث
2389 : 260x175 م، 429 و، 15 سطراً، نسخ، بخط شرف
ابن أميرة، 815 هـ.

أوله: قال أبو حيان التوحيدى نجا من آفات الدنيا من
كان من العارفين... أما بعد فأنى أقول مبنيتها النفسى ولمن
كان من أبناء جنسى...

- مختار من كتاب الإمتاع والمؤانسة:

أسعد أفندى 5/3542 : 95 آ - 101 ب، مختلف
السطور، نسخ. انظر إلى أخلاق الصاحب وابن العميد.

3 - كتاب البصائر والذخائر (كشف الظنون EII, 127;
246/1) = بصائر القدماء ورسائل الحكماء (GAL S)

(I, 436) = بصائر القدماء وبشائر الحكماء = كتاب

البصائر والبشائر / الذخائر (GALS I: 436).

جسار الله أفندي 1647: 243X157 (193X110) م،
255 و، 15 سطرا، نسخ، مشكول قسما، 603 هـ، في
الصحيفتين 1 ب و 2 أ خاتم للوقف.

أوله: بسملة... اللهم أسلك...

آخره: وختم لنا ولك بأحمد العقبي والحمد لله
الذي.. ثم كتاب البصائر والذخائر.. إن شاء الله تعالى.

الجزءان الأول والثاني من كتاب البصائر والذخائر على
حسب ظهر المخطوطة ولكن هي الجزء السادس والجزءان
الثامن والتاسع.

فاتح 3695: 155X160 (130X125) م، 76 و، 15/14
سطرا، نسخ، غير معجمة غالبا 628 هـ.

أوله: بسملة.. اللهم إني أسلك جدا مقرونا بالتوفيق..

الجزء الأول من كتاب البصائر والذخائر. رقم الأرشيف
في مكتبة سليمان 310.

فاتح 3696: 83 و. الجزء الأول نفسه.

أوله: بسملة.. اللهم إنك الحق المبين وإله المعبود..

الجزء الثاني من الكتاب. رقم الأرشيف في مكتبة
سليمان 311.

فاتح 3697: 75 و. الجزء الأول نفسه.

أوله: بسملة.. اللهم أنت الحي القيوم والأولى الدائم
والإله القديم..

الجزء الثالث من الكتاب. رقم الأرشيف في مكتبة
سليمان 312.

فاتح 3698: 91 و. الجزء الأول نفسه.

أوله: بسملة.. اللهم عليك أتوكل وبك أستمع.

الجزء الرابع من الكتاب. رقم الأرشيف في مكتبة
سليمان 313.

فاتح 3699: 96 و. الجزء الأول نفسه.

أوله: بسملة.. اللهم اجعل غدونا إليك مقرونا بالتوكل
عليك..

الجزء الخامس من الكتاب. رقم الأرشيف في مكتبة
سليمان 314.

ديانت إشرى باشقانليني كتبخانه سي 162 :
230 x 130 (170x80) م، سطرا، نسخ بارع، بخط مصطفى
بن أحمد بن محمد العلائي، 1168 هـ.

أوله: بسملة.. الحمد لله الذي وقف دون إدراك
عصمته.. أما بعد فهذا كتاب جليل ومصنف حفيظ...

آخره:.. وخاتم النبيين وحبيب رب العالمين وعلى آله..
وعلى من تعلق يحمد بهم ومعهم بإحسان إلى يوم الدين
وحسبنا الله ونعم الوكيل قد وقع الفراغ..

في الصحيفة الأولى قيد وقف لأبي ساجد محمد
الخادمي تأريخه 1177 هـ.

عنوان المخطوطة: بصائر القدماء وبشائر الحكماء.

4 - رسالة أبي بكر الصديق إلى علي بن أبي طالب =
حديث السقيفة = رسالة السقيفة:

كوبريلي كتبخانه سي، فاضل أحمد باشا:
1617/3 162X120 (125X85) م، 125 ب - 134 أ، 21
سطرا، نسخ بخط أبي البدر محمد بن إبراهيم الملقب ثاني
الحماسي، 726 هـ.

أولها: قال الشيخ العالم الفقيه العدل كمال الدين
أبو الفضل أحمد بن علي بن الحسين بن شمدويه
الصريغيني..

آخرها: قال أبو عبيدة فرجع عمر رضى الله عنه وهذا
أصعب ما مر بناصيتي بعد موت رسول الله صلى الله عليه
وسلم.

كوبريلى كتيخانه سى، فاضل أحمد باشا: 1/1600
170X125 (245X177) م، 1 آ - 11 ب، 17 سطرا، نسخ
بخط على بن عثمان المغربى الشافعى، 728 هـ، قد قوبلت
وصححت، فى الصحيفة 1 آ: من كتب العبدوسى سنة
1020 .

أولها: حدثنى أبوحيان على بن محمد التوحيدى
البغدادى قال سمرنا ذات ليلة عند القاضى أبى حامد أحمد
ابن بشر المرورذى العامرى ببغداد فى دار أبى حيشان..
آخرها: ... والغابة السحابة أو الغيرة أو الظلمة والأحمر
الثقل والكاهل أعلى الظهر.

حاجى محمود أفندى / 4 : 207X145 (160X76)
2057 م، 10 ب - 17 آ، 21 سطرا، نسخ، مشكول بعض
الكلمات، 1002 هـ.

أولها: بسملة.. قال الراوى لها أخبرنا أبوحيان على بن
محمد التوحيدى قال سمرنا ليلة عند القاضى أبى حامد
أحمد بن بشر المرورذى ببغداد..

آخرها:.. بعد فراغ رسول الله.. ونعم الوكيل.

عنوان المخطوطة: رسالة أبى بكر الصديق إلى على بن
أبى طالب وجواب على ومتابته إياه.

كوبريلى كتيخانه سى، فاضل أحمد باشا: 17/1581
198X136 (80X60) م، 89 ب - 102 آ، 13 سطرا، نسخ،
القرن الحادى عشر تخميناً.

عنوان الرسالة: رسالة أبى بكر الصديق وأتباع عمر بن
الخطاب وأبى عبيدة لها إلى على بن أبى طالب وجواب على
عنها ومبايعته لأبى بكر.

أسعد أفندى 19/3682 : 209X150 م، 195 ب -
200 آ، مختلف السطور، تعليق، القرن الثانى عشر تخميناً.

أولها: بسملة.. أبو الفرج عمر بن محمد بن الليث
بهمدان قال حدثنا أبوحيان السراوى قال سمعت من أتق به

بمدينة شيراز قال سمعت القاضى أبى حامد أحمد بن بشر
المرورذى العامرى فى بغداد..

آخرها: قال أبو عبيدة وانصرف عمر وهذا أصعب ما مر
بناصيتى بعد فراق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

رشيد أفندى 13/1027 : 202X142 م، 122 ب -
126 ب، 25/24/23 سطرا، تعليق، القرن الثانى عشر تخميناً.

أولها: بسملة.. وصلى الله على محمد وآله رسالة أبى
بكر الصديق وأتباع عمر بن الخطاب لها إلى على مع أبى
عبيدة بن الجراح وجواب على عن ذلك ومبايعته لأبى بكر
رضى الله عنهم. وعن أبى حيان على بن محمد التوحيدى
البغدادى قال سمرنا ليلة عند القاضى أبى حامد أحمد بن
بشر..

آخرها.. قال أبو عبيدة وانصرف عمر.. قال أبو حيان
روى لنا هذا كله أبو حامد.. من مسامرة ابن العربى.

عاشر أفندى 2/400 : 217X126 (142X58) م، 94
ب - 113 ب، مختلف السطور، تعليق، بخط مصطفى
عاشر، 1207 هـ، قد قوبلت، وفى جوانب النص بعض
الفوائد.

أولها: بسملة.. وصلى الله على مولانا محمد وصحبه
حدثنى أبوحيان على بن محمد التوحيدى البغدادى قال
سمرنا ذات ليلة عند القاضى أبى حامد أحمد بن بشر
المرورذى العامرى..

آخرها: قال أبو عبيدة وانصرف عمر وهذا أصعب ما مر
بناصيتى بعد فراق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

حفيد أفندى 1/32 : 215X150 (157X70) م، 1 ب -
8 ب، 25 سطرا، تعليق، القرن الرابع عشر تخميناً.

أولها: بسملة.. صلى الله على محمد. حدثنى أبوحيان
على بن محمد التوحيدى البغدادى قال سمرنا ذات ليلة عند
القاضى.

آخرها: .. والحمد لله رب العالمين.

5 - رسالة الحياة (GAL SI, 436) :

أولها : بسملة.. أطال الله بقاءكم وأدام كرامكم
وحرس نعمة عليكم.

شاهد على باشا 1/1186 : 179X125 (119X66) م،
1 ب - 22 آ، 15 سطرا، تعليق 963 هـ.

آخرها:.. وبيدك خزائن الأرض والسماء يا ذا الجلال
والإكرام.

أولها: بسملة.. وهو حسبي ونعم الوكيل رب نعم
الحمد لله... اللهم اجعل فكرنا...

عنوان المخطوطة: رسالة في العلوم.

8 - رسالة إلى أبي الفتح بن العميد : أسعد أفندي 3542 :
في ضمن المجموعة صحيفتان.

آخرها:.. وإليه المعراج والمعرج وعليه التوكل تمت
الرسالة والحمد لله حق حمده والسلام على من لا نبي
بعده وعلى آله وأصحابه أجمعين.

عناوين المكتبات :

لإزمير ملي كتيخانه سي 3/860 : 200X135 (130X60) م،
56 ب - 77 آ، تعليق.

Süleymaniye Kütüphanesi, Bayezid/Istanbul:

في ضمن مكتبة سليمانية:

أولها: الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله
اللهم اجعل فكرنا في ملكوت سمايك وأرضك...

Asir Efendi عاشر أفندي.

آخرها:.. وبيد الله الفرج وإليه العراج والمعرج وعليه
التوكل تمت الرسالة والحمد لله حق حمده.

Esad Efendi أسعد أفندي.

6 - رسالة في الصداقة والصدق (GAL I, 244,S) (I,436):
EII, 127

Carullah Efendi جابر الله أفندي.

Fatih فاتح.

أسعد أفندي 1/3542 : 1 ب - 43 آ. انظر إلى أخلاق
الصاحب وابن العميد.

Haci Mahmud Efendi حاجي محمود أفندي.

أولها: بسملة... اللهم خذ بأيدينا فقد عثرنا واستر
علينا...

Hafid Efendi حفيد أفندي.

آخرها: والحمد لله رب العالمين وصلواته على نبيه
مصطفى محمد وآله الطيبين الطاهرين أجمعين وحسبنا الله
ونعم الوكيل.

Rasid Efendi رشيد أفندي.

Shhid Ali Pasa شهيد علي باشا.

Koprulu Kutuphanesi, Cemberlitas / Istanbul

Topkapi Sarayi Muzesi Kutuphanesi, Istanbul

7 - رسالة في العلوم = رسالة العلوم = رسالة أبي حيان
في العلوم:

Diyanet Isleri Baskanligi Kutuphanesi, Ankara

أسعد أفندي 2/3542 : 43 ب - 45 آ. انظر إلى
أخلاق الصاحب وابن العميد.

Izmir Milli Kutuphanesi, Izmir

منه خذ العجوة القديمة أصعب من الخمر ماء رطل واحد
 سبعين حيلة الخمر من مفعه ليكن على الله وأحرص
 من تعلم ولا تخسر ان تسموا كفا ما في علمك لا تترش
 حرم ورك بالكل منه في فانك دونه في ناضد
 منه فان لم استعمل الراسه قبل جسمك قال ابو حامد
 قال ابو عبيد لا تودن عا احاط خطا في خلقه يستفيد
 منك ويخذلك عدوا **سدا العرقاني** وهو مقلع
 الكلب وقد غرمت فيه وصاا شربه يحكم مرور
 واذا بالمرسد واصل لا قويه وروعا بدمه في ذلك
 برواها السايك وبحث خطها صاعا وراسه
 تحركت وقفت لجنبها فيك وحررت عيونها اداك
 كتحوصا بالحداد معا اداك في حق معسليه
 والفصل **سار اليه بالبلندر كانهما الفصل**
 مجيئا ثم العريه عند السلطان فيسأل اخوان
 لمساعد الحصورم الذي لا مل تكرله عليك ولا كاره

[illegible]

عليك الحمد؟ غلب النار المروية وخار من الغاية
المنجية والبدا إلى ما لا يخارج من كذا حبت و...
الفس روج اخذك اكل سيء له خل وطلبك
بواه خل و قال لله نكالي الهزلية بنا وبك وانزع
التموق عليك وعليك ورضي عنا وعنك وحملنا اياتك
النفوي وختم لنا ولك يا ارحم الراحمين

[illegible]

التوحيدى بين الألمان

هارتموت بوبتين*

كان أول من أشار فى ألمانيا إلى التوحيدى وأهميته جوستاف فلوغل (١٨٠٢ - ١٨٧٠)، وذلك فى دراسة له حول (إخوان الصفاء) نشرت سنة ١٨٥٩ فى مجلة جمعية المستشرقين الألمان. وذكر فلوغل فيها من مؤلفات التوحيدى (المقابسات) و(الإمتاع والمؤانسة)، و(البصائر)، و(مثالب الوزيرين). وكان مصدر فلوغل، آنذاك، كتاب (تاريخ الحكماء) للقفطى.

وفى نهاية القرن التاسع عشر، نشر كارل بروكلمان كتابه المشهور (تاريخ الأدب العربى) الجزء الأول، ومجد فيه نصف صفحة عن التوحيدى. ومما يلفت النظر شيان:

١ - عدد مؤلفات التوحيدى التى يسردها بروكلمان أقل من التى يسميها فلوغل فى مقاله المذكورة؛ إذ يذكر

* رئيس قسم اللغويات، جامعة إيرلانجن، ألمانيا.

بروكلمان ثلاثة مؤلفات فقط، وكلها أعمال مخطوطة محفوظة فى مكتبات أوروبية. وهذه الأعمال هى:

(أ) المقابسات - مخطوطة ليدن ١٤٤٣.

(ب) الرسالة فى علم الكتابة - مخطوطة فيينا. الأكاديمية القنصلية.

(ج) الإشارات الإلهية - مخطوطة برلين، سهرنغر رقم ٨٨٧.

٢ - مما يجدر ذكره أن بروكلمان عالج التوحيدى فى باب «الموسوعات» - وذلك مباشرة بعد الخوارزمى وكتابه المعروف (مفاتيح العلوم). وهذه المجاورة نبرهن، بكل الوضوح، على المعرفة الجزئية بأعمال التوحيدى، فى الوقت الذى ألف بروكلمان فيه الجزء الأول من تاريخه. وطبعاً لا أريد أن ألوم بروكلمان على هذا!

نفسها، وإنما حالت وفاته دون هذا المشروع. وعرض روزنتال فى مقدمته بشكل خاص مشكلة مؤلف هذه الرسالة، وتساءل عما إذا كان التوحيدى هو مؤلف هذه الرسالة، ورأى أن هذه مسألة لا تسمح بحل دون أية شكوك.

وفى عام ١٩٥٢، كتب هيلموت ريتشر فى مجلة «oriens - الشرق» - (التي كان هو مؤسسها ومحررها) فى مناسبتين عن التوحيدى. والمناسبة الأولى هى نقد من ثمانية سطور فقط لأطروحة إبراهيم كيلانى: «أبوحيان التوحيدى كاتب مقالات من العصر الرابع الهجرى: مدخل إلى مؤلفاته». وأشاد ريتشر بهذا الكتاب، بوصفه مدخلاً موجزاً دقيقاً إلى حياة «كاتب هذه المقالات، الفيلسوف المشائم».

وكتب مستشرق ألماني آخر، وهو يوهان فوك، نقداً إيجابياً للكتاب نفسه الذى تناول فى مقالته النقدية تحقيق الكيلانى لثلاث رسائل للتوحيدى. ومن خلال هذه المقالة، أبرز فوك أهمية التوحيدى فى تاريخ الأدب العربى، وتطرق إلى ذكر ما كتبه آدم مitzer عن التوحيدى فى كتابه المشهور (الحضارة الإسلامية فى عصر النهضة).

والمساهمة الثانية لريتشر فى مجلة «الشرق» هى أيضاً مقالة نقدية، وهى لتحقيق (الإشارات الإلهية) بعناية عبدالرحمن بدوى. وفى هذه المقالة الموجزة يجمع ريتشر أن يصف، بدقة مقنعة، النوعية، الأدبية الخاصة لـ (الإشارات الإلهية). وي طرح السؤال عما إذا كان التوحيدى قد اخترع ما نسميه بالمناجاة، ويقترح مقارنة (الإشارات الإلهية) بالأعمال المتأخرة لفريد الدين العطار الفارسية، من حيث الأسلوب.

وللأسف الشديد، لا تتوفر إلى يومنا هذا دراسة شاملة للتوحيدى باللغة الألمانية، ولا حتى مقالة مطولة. ومع ذلك، يمكن القول إن روزنتال - الذى طرده الحكم النازى من ألمانيا - قد شجع تلميذه بويل كيرمر على أبحاثه فى أبى سليمان السجستانى المنطقى وحلقته، وقد تناول كيرمر فى هذا السياق التوحيدى بالتفصيل. ونشر كيرمر أبحاثه فى مجلدين صدرتا باللغة الإنجليزية، عن دار نشر بريل فى ليدن عام ١٩٨٦. وهذان الكتابان هما: (الإنسانية فى نهضة

وأضاف أوسكار ريتشر فى سنة ١٩١٢ إلى معلومات بروكلمان بالإشارة إلى طبعة رسالتى التوحيدى اللتين صدرتا فى اسطنبول سنة ١٣٠١ هـ (١٨٨٧م). الرسالتان هما: «رسالة فى الصداقة والصديق»، و«رسالة فى العلوم». ولكن ريتشر لم يعط أية معلومات مفصلة حول مضمون الرسالتين. وهذا ما قام به الأستاذ أبلهارد ويديمان (١٨٥٢ - ١٩٢٢) فى سنة ١٩١٨ لـ «رسالة فى العلوم». وكان ويديمان أستاذا للفيزياء فى جامعة إيرلانجن، وكان قد درس إلى جانب الفيزياء (وذلك على يد أبيه!) اللغة العربية على يد فلايشر، أحد كبار المستشرقين فى ألمانيا فى القرن التاسع عشر.

وأخذ ويديمان ينشر منذ عام ١٨٧٦ مقالات عن تاريخ العلوم فى الإسلام. وذلك بصفة منتظمة غير منقطعة (وأعيد طبع هذه المقالات المتفرقة بعناية الأستاذين فيشر وسيزجين، فى خمسة مجلدات ضخمة، فى سنتى ١٩٧٠ و١٩٨٤)، وكان ويديمان من الباحثين الأوائل الذين كانوا يهتمون بمسألة تنظيم العلوم فى الإسلام وترتيبها. وفى هذا السياق نشر سنة ١٩٠٧ مقالة عن كتاب (إحصاء العلوم) للفارابى، وترجم بعد ذلك بعض الفصول من كتاب (مفتاح العلوم) للخوارزمى، وتناول سنة ١٩١٨ «رسالة فى العلوم» للتوحيدى وترجم منها فصلاً عن الطب وعلم الفلك وعلم الحساب والهندسة، واكتفى فى نهاية عمله بالملاحظة القصيرة التالية:

«مما يجدر ذكره هو موقف التوحيدى السلبى من علم الفلك (أى: Astrology لا: Astronomy)».

والعمل التالى الذى لا بد من ذكره صدر عام ١٩٤٨ فى مجلة «Ars islamica» أى «الفن الإسلامى»، وهو من قلم فرانسز روزنتال وعنوانه: «Abu Hayyan on Penman-ship» (أى: «أبوحيان حول علم الكتابة»). وبعد مقدمة موجزة حافلة بالمعلومات القيمة، عرض روزنتال تحقيق الرسالة فى الكتابة مع ترجمة إنجليزية وبعض الهوامش. والتحقيق على أساس المخطوطة المذكورة المحفوظة فى فيينا. وذكر روزنتال فى مقدمته أن أحد تلاميذ فلايشر، وهو هاينريش نوربيكى (١٨٣٧ - ١٨٩٥)، كان ينوى تحقيق المخطوطة

الإسلام: النهضة الحضارية في عصر البويهيين)، و(الفلسفة في نهضة الإسلام: أبو سليمان السجستاني وحلقته). وقد يمكن القول إن بحوث كريم تمثل متابعة المدرسة الاستشراقية الألمانية في الولايات المتحدة.

وأخيراً، أريد أن أذكر تلميذاً آخر لروزنتال، وهو هانز هنريش بيسترفيلد. وفي كتاب له، لم ينشر بعد، يعرض بحثاً مهماً حول تنظيم العلوم في الإسلام، وعنوان هذا الكتاب هو: (فروع العلم. نظرية العلوم وتصنيفها في الإسلام في وصف ابن فاريجون) [بوجوم ١٩٨٧]، وفي هذا الكتاب، يعالج بيسترفيلد «رسالة في العلوم» للتوحيدى، في إطار المناقشات التي سادت آنذاك حول ما يسميه «أهرسة العلوم». ويشير إلى أن للتوحيدى مكاناً خاصاً ومستقلاً بين نظامين: نظام العلوم الإسلامى، ونظام العلوم اليونانى (الهلينىستى). وكان التوحيدى ينوى، فيما يقول المؤلف:

«أن يبرهن على الوظيفة الشاملة للمنطق، وعلى استحالة نقد المنطق من حيث المضمون. ويمثل باب المنطق مركز الرسالة في العلوم، مما يلاحظ من حيث التفصيلية والمستوى النظرى والالتزام

الشخصى. ويلى باب المنطق أهمية بابا النحو واللغة، ثم علم البلاغة والتصوف. البقية عبارة عن مواضيع جانبية».

وبلاحظ الاهتمام بالمنطق في أعمال أخرى للتوحيدى، مثل (الإمتاع والمؤانسة)؛ حيث نجد النص المشهور للمناظرة بين المنطق والنحو. ولقد نشر جيرهارد إيندريس سنة ١٩٨٦ دراسة مفصلة مهمة عن هذا الموضوع، على أساس هذا النص للتوحيدى، وعنوانها: «النحو والمنطق. فقه اللغة العربية والفلسفة اليونانية في حالة المنافسة». وإذا كان موقف التوحيدى من هذه المسألة لا يمثل محور هذه الدراسة، فإنما أذكرها لسبب مهم كان قد أبرز في محاضرات أخرى: أهمية التوحيدى، بوصفه مصدراً لمعلومات عدة متفرقة.

وفي النهاية، لا بد أن أعترف بخيبة أملى فيما يتصل بقلّة النتاج الألماني في دراسات التوحيدى.

وأرجو أن يشجع توحيد ألمانيا - في أوساط المستشرقين - الدراسات التوحيدية.

شهادت



التوحيدى: مغامرة اللغة الطقسية

أحمد عبد المعطى حجازى*

علاقة الكاتب باللغة أشبه بالعلاقة التى تكون بين ملكة النحل واليعسوب، علاقة اصطفاء ووحشة، شهوة عارمة وموت محتوم. فاليعسوب هو فحل الخلية الموعود بمطاردة الملكة حتى تمكنه من نفسها، فإن بلغ الوصال ذروة التوهج انطفأ اليعسوب.

امتلاك الكاتب ناصية اللغة امتياز يرفعها عن الابتذال بقدر ما يمنعها من الإفصاح، أقصد الإفصاح السهل المبذل، ويعطلها عن أن تكون لغة، أى أداة تفهم واتصال. امتلاك الكاتب ناصية اللغة إيغال فى الصمت، واعتناق للوحشة. فاللغة تبعد بقدر ما تكتشف، وتنقطع بقدر ما تعرف، وتخسر ضمير مخاطب بقدر ما تربح ضمير المتكلم. هكذا لغة أبى حيان التوحيدى، التى يبدو لى أن محتته فيها أشد وأقسى من محنتنا نحن كتاب العصور الحديثة. لقد استطعنا أن نقرب بين اللغة والعالم المجهول، وأن نخفف من حدة المفارقة بين مطلق الفكرة ونسبية التجربة الحية، ونلون إبداعنا بألوان ذاتية دافئة وإشارات واقعية محسوسة، ونطوع لأنفسنا أدوات أكثر ديمقراطية، كأنها آلة وسطى تصل بيننا وبين الآخرين. أما الكاتب القديم فقد كان عليه أن يستعمل كل أدواته لكى يصل إلى لغة تامة الصنع، مفارقة، مكتفية بذاتها عن الكاتب والقارئ معا، نجد مثلها الأعلى فى التقابلات المنطقية، والتقاطعات الهندسية، والتوازنات الرياضية، التى

توغل في القطيعة بقدر ما توغل في النقاء، فإذا كانت لغة الكتاب القدماء مفارقة بالنسبة إلى لغتنا الحديثة، فلغة أبي حيان مفارقة للفتن، من هنا تتضاعف محنة كاتب كأبي حيان، امتلك أدوات الكتابة، وسيطر سيطرة هرقلية على قوانينها كلها، وألوانها الأساسية والفرعية، وتنوعاتها المختلفة، ومشتقاتها البسيطة والمركبة، حتى وجد نفسه في النهاية وحيدا متفيا في لغته الفريدة، منتظما معزولا عن عامة القارئين والكاتبين؛ ومنهم أنا شخصا أو أنني كنت منهم إلى عهد قريب.

إلى أواسط الثمانينيات كنت لا أعرف التوحيدى إلا بالاسم، على حين كانت علاقتى مع غيره من الكتاب القدماء كالجاحظ أفضل بكثير، حتى جاء «السجوقى» إلى باريس مع فرقة مسرحية يقدم عرضه الممتع المأخوذ عن (الإمتاع والمؤانسة) وذهبت لأشاهده، فكان مدخلي لقراءة الكتاب، وهو ليس غير مؤلف واحد من مؤلفات أبي حيان، التى أصبح معظمها محققا منشورا. ثم مرت سنوات استغرقتنى خلالها مطالب راهنة لم يكن منها شيء يفرض على العودة لأبي حيان حتى دعانى جابر عصفور لكتابة شهادة عنه، بمناسبة احتفال المجلس الأعلى للثقافة فى مصر بألفية التوحيدى، وقد حاولت التملص، فأنا لا أعرف المختفى به، وقد يكون فى وسع الناقد أو الباحث أن يكتب فى موضوع جديد عليه لم تربطه به صلة سابقة، أما أن يكتب شهادة فهذه ليست فى وسعى، إذ لا بد فى الشهادة - كما أفهمها - من صلة حميمة، تمكن الشاهد من كشف أسرار لا يستطيع الباحث أو الناقد أن يكشفها وحده أو يصل إليها بسهولة.

القضاة والمحكمون يملكون النصوص، ويفتشون فى الوثائق، أما الشهود فهم الذين رأوا بعيونهم وسمعوا بأذانهم، غير أنى لم أجد مفرا من القبول، فإذا لم تكن بينى وبين أبي حيان صلة وثيقة، فهذه الصلة تربطنى بجابر عصفور، الذى زودنى أيضا بما احتجت لقراءته من مؤلفات أبي حيان، فإذا لم يكن الاحتفال بالألفية إلا أن تدفع أمثالى ممن يشتغلون بالأدب إلى الاهتمام بأبي حيان وقراءته، فقد بلغ الاحتفال هدفه.

وقراءة أبي حيان لا بد أن تكون متشقة، موحشة، فأبو حيان عقل ضخم، ونفس جياشة مضطربة، ولغة ظاهرها ليس أقل صعوبة من باطنها، بل إن صعوبة الظاهر هى أصل صعوبة الباطن، لأن أباحيان وسواه ممن اتقنوا الكتابة بحقها لا يستطيعون أن يقولوا شيئا إلا باللغة، فكل إضافة أو رهاقة هى لغة قبل أى شيء آخر، وكل عمق جديد فى الفكرة عمق جديد فى الكتابة، لهذا أغبط الذين يبلغون لذتهم من لغة أبي حيان إذا ألموا بشيء من مطابقاته، أو وصلهم شيء من إيقاعاته، وأعجب ممن ينظرون فى كتابة أبي حيان كما ينظرون فى الصحف اليومية، فيخلطون بين ما الزائدة وما النافية، ويظنون أن التحرى استطراد، وأن الإيغال استعراض:

«يا هذا: اعتاصت واللغة الغاية على الغاية، وانتهت النهاية إلى النهاية، وأدرحت الآية فى الآية، فلهذا ما صار الدواء داء، والأسور جراحا، والعطاء سلبا، والبلاغة عيا، والرشاد غيا، والنشر طيا، والقبول ردا، والوصال صدا، والكمال نقصانا، والرجحان وكسا، والتوجه استبدارا، والتبسم استعارا، والريح خسرانا، والزيادة نقصانا، والرضا سخطا، والأمر فرطا، والمستقيم محالا، والثابت مرالا، والطاعة ذنبا، والإجابة قلبا، وعلى هذا إلى أن يتفد القول، ويضمحل الاسم، ويسيد الفعل، وينحرف الحرف، وينسى التأليف، ويضوى الضم، وينشر النشر، وتغنى العبارة، وتزول

الإشارة، وإلى أن يقال للقاتل قل فلا يقول، ويقال للسامع اسمع فلا يسمع، ويقال للمتحرك اسكن فلا يترمم، ويقال للساكن تحرك فلا يتهمهم.

فلم لم يكتف أبو حيان بأن يقول إن الزمان قد بلغ نهايته وتجاوزها؟ فكل لحظة قادمة أدعى إلى اليأس وأقرب إلى مطلق العدم، لم لم يقل هذا، وهو إن قال أفصح وأفاد؟ أظن أنه لا يخبرنا عن العدم، بل هو يبينه، مستخدماً في بناء العدم كل ما في اللغة، ما يضيف إلى السلب سلباً، وإلى النفي نفياً، وإلى الإبادة إبادة. ليس في هذه السطور استطراد، وليس فيها استعراض، بل هي معاناة جسدية للفكرة المجردة، تتحول بها هذه الفكرة إلى وجود لغوي مركب، نقى نقاء الخلو لا نقاء البساطة أو التكرار، من هنا صعوبة لغة أبي حيان، وما تلقاه فيها من وحشة، لكننا لا نعدم في هذه الوحشة الأنيس، ألا وهو الشعر، الذي يستلهمه أبو حيان من تقاليد اللغة النطقية، وعناصرها المعنوية والإيقاعية، أكثر مما يحققه بسوى ذلك من عناصر لغة الشعر. وإذا كان النص السابق يحيلنا إلى (الإشارات الإلهية)، فالخصائص الشعرية التي أشرت إليها لا تميز كتاباته الصوفية وحدها، بل هي ميزة تتحقق على نحو أو آخر في كتاباته العلمية والفلسفية أيضاً. فمن الطبيعي أن تكون لغة أبي حيان ملتبسة، غامضة، غنية بالاحتمالات، خطيرة، وعرة كأنها نخفى في كل كلمة شركاً، أو كأنها تخم لك إلى هاوية غير مكشوفة. هذا هو الرعب الذي يصيب الإنسان من كل لغة نطقية، وخصوصاً حين تستخدم في رحلة سرية، لا يعرف عنها أو عن أهلها شيئاً، فمن الطبيعي أن يتهم بعض الفقهاء أبا حيان بالكذب، والزندقة. لقد تخلصت لغة التوحيدي من المعجم السائد، والنحو الشائع، والفكر التابع، وانطلقت في مغامرتها الخطرة بنى نفسها بأدواتها الخاصة، ففقدت هي نفسها هذا اليقين، الذي تتميز به كل لغة تأخذ من اللغة السائدة المألوفة، وتجعل الاتصال غاية مقدمة على الأساس الذي يقوم عليه الاتصال، وهو الاتفاق الذي توهمنا اللغة الاصطلاحية بوجوده، وتؤكد هذا الوهم باغماكة والتكرار، حتى يتحول إلى سلطة مطلقة، سواء فيها الدال والمدلول، اللغة والفكر، الشكل والمضمون. فإذا خرج الكاتب، والكاتب القديم خاصة على هذه اللغة الاصطلاحية، انقطع عن الآخرين من ناحية، وداخله الشك في نفسه من ناحية أخرى، فيما يكتب وفيما يرى، وأخذ يقلب بين وجوه الحقيقة، فيجد أن كلها نسي، وأن أي وجه يساوي أي وجه آخر، وأن الترجيح مجازفة، واليقين مستحيل.

كتابة الغربية

وأبو حيان التوحيدي

إدوار الخراط*

لم يعد من الغرابة في شيء أن يتناول الباحثون، والمحبون، والمريدون موضوع الغربية في كتابة أبي حيان التوحيدي، فقد عالجوه كثيراً، سواء كان ذلك برصانة أو بافتتان.

ليست هذه الكلمة بحثاً، أو ورقة عمل، أو شيئاً من هذا القبيل، بل هي أقرب إلى التجوى والاستعادة، أو لعلها بوح من عرف شيئاً من مضى الغربية خاض فيه غمرات شعر قديم حديث معاً.

ولعل هذه «الكلمة الشهادة» ليست إلا مجرد وشل شحيح بجانب نبع التوحيدي الشر الفياض، أو قطرة بجانب خضم كتابته العميق.

لعلني صاحبت أبا حيان التوحيدي منذ غرارة الصبا، ولعل (الإشارات الإلهية) التي لازمتني سنين عدداً كانت مؤنستي، أنا أيضاً، في وحشة ليل طويل يؤذن الآن بالأفول إلى غير إصباح ولا انجلاء.

وكم وجدت نفحة من القربى الوثيقة - على الغربية - في الصبا الأول وأنا أكابد كتابة ما أشد غراستها - وغربتها - بمعايير ذلك الزمان الذي يبدو صحيحاً الآن، وما أقره مع ذلك، في الأربعينيات، ثم بعد ذلك عندما قرأت للتوحيدي:

* قاص وروائي وناقد، مصر.

«وأما ظاهرى وباطنى فما أشد اشتباههما. لأننى فى أحدهما متلطخ تلطخا لا يقربنى من أجله أحد، وفى الآخر متبذخ تبذخا لا يهتدى فيه إلى رشد... وأما قرارى واضطرابى فقد ارتهنى الاضطراب حتى لم يدع فى فضلاً للقرار... وأما يقينى وارتيايى فلى يقين ولكن فى درك الشقاء. فمن يكون يقينه هكذا كيف يكون خبره عن الارتياب؟».

ثم أجد نفسى بعد نحو نصف قرن، أكتب رواية أظنها ضربت فى تيه «يقين العطف»، وأسأل بالالتئاع القديم نفسه:

«هل يقين العطف من يأس التحقق، ونفاد الصبر على الألم، ونقض اليد من الطلب المستحيل، والتوجس من قصور الحول وسقوط المنة؟ يقين ليس نهائياً، بالطبع، بل هو موضوع للسؤال، ككل شيء آخر.

اليقين منكوك فيه، مضروب بالمعطب».

فمن كان اليقين عنده فى موضع الشك، فكيف يكون الشك؟

وأما الظاهر والباطن - على اشتباههما بمعنى من الشبه أو الشبهة على السواء - فقد كان ذلك هو حلم الكتابة عندى منذ الأربعينيات الباكورة ومازال، فهل سقط الحد حقاً فى هذه الكتابة بين دواخل النفس وظواهر العالم؟

جلسى غنى عن البيان أن الغربة عند التوحيدى - وعلى إطلاقها أيضاً - ليست عرضاً ظاهرياً ولا مجرد ارتحال أو نأى عن الأوطان (أيا كانت دلالة الأوطان)، وإنما الغريب عنده وعند الإطلاق هو ذلك الذى «طالت غربته فى وطنه وقتل حظه من حبيبه وسكنه» «وأغرب الغرباء من صار غريباً فى وطنه».

وهل ثم أوجع من قوله:

«لقد أُمسيت غريب الحال، غريب اللفظ، غريب النحلة، غريب الخلق، مستأنساً بالوحشة قانعاً بالوحدة، معتاداً للصمت، ملازماً للحيرة، متحملاً للأذى، يائساً من جميع من أرى».

وهل لنا أن نتأمل، لحظة، ربطه بين غربة الحال وغربة اللفظ؟ أو بين الغرابة فيهما على السواء، فما أشبه الغرابة بالغربة، على اختلافهما، وكأنما الغربة فى الحال واللفظ إنما هى شأن الحس الداخلى، والغرابة فيهما شأن التلقى الخارجى.

وكانما الغربة حس جوانى، أما الغرابة فهى فى تلقى أو نظرة الآخرين.

وأيا كانت التفسيرات الاجتماعية التى تؤول هذه الغربة بإحالتها إلى اضطراب المعايير القيمية وتخلخل البنى الاجتماعية وغلبة سمادير التعمية والظلامية والتضليل وفساد الأمور ومن أوليها، وهى كلها صحيحة صحة مطلقة، إلا أن الغربة هنا - ودائماً - هى ما فصله التوحيدى تفصيلاً هو فى الحدائيه أدخل، وبالمعاصرة أشبه، وبالتأمل العميق النافذ أوثق:

«قد قيل: الغريب من جفاه الحبيب. وأنا أقول: بل الغريب من واصله الحبيب.. بل الغريب من حبابه الشريب، بل الغريب من نودى من قريب.. بل الغريب من هو فى غربته غريب»... «الغريب من إن حضر كان غائباً، وإن غاب كان حاضراً».

أما حال الحضور - الغياب فهو من الأحوال التى ما أنى أراودها وتراودنى فى عمل بعد الآخر، من أول (رامة والتنين) و (مخلوقات الأشواق الطائرة) حتى (أمواج الليالى) و (الزمن الآخر).

*

أريد أن أشير، بمجالة و وجازة، إلى سمات أسميتها حدثية فى كتابة الغربة عند التوحيدى، لعل أولها هو المزج بين المتناقضات، ليس فقط كما هو الشأن عند كل الصوفية وأهل الحدر - كما رأينا فى تلك الإشارة إلى الحضور والغياب، أو إلى غربة من يحابه الشرب - بل كذلك فى أسلوب بنية العبارة وتركيب الجملة.

ما يدهنا، ويشدهنا، هنا، أن للتوحيدى عبارة رصينة، موقعة، وفى أحيان كثيرة، مسجعة، ومتقابلة الأطراف، محبوكة الصنعة، لا يميزها البديع اللفظى أو الترصيع الزخرفى - أو على الأصح ما يبدو كذلك وليس به - وإنما تلك فيما أتصور حيلة يلجأ إليها الكاتب ليحكم جيشان ما تمرر به النفس، ويحيد عرام اضطرابها، بل اضطرابها، وإلا أقلت منه العيار، وبانتظام الخارج تنضيدته ينجو من غلبة غليان الداخل وتقويضه.

ليس هذا المزج بين النقيض جديداً كل الجدة، بطبيعة الحال، وإنما يحفزنى هنا حس لا أستطيع ولا أريد أن أقاومه، فى أن أقارن بين أسلوب التوحيدى وأسلوب فنانين مثل ماجريت أو سلفادور دالى؛ إذ تجمع هذه الأساليب كلها بين تمكن الصنعة وفرط تجويدها والسيطرة على أدائها بيد لا أورد فيها، من ناحية، وبين غربة - وغربة - الداخل واستيحائه بل وحشيته (أكاد أقول وحشيته)، من ناحية أخرى. فهذه - فى هذا الضوء - إحدى سمات الحدثية التى تتحدى الانتساب إلى حقبة تاريخية أو الاقتصار عليها.

مما يفضى بنا إلى سمة ثانية هى خصيصة الحدثية، لا بمعنى الجدة؛ فالحدثية عندى وعند آخرين ليست زمنية ولا هى تاريخية، وهى بهذا المعنى تبقى فى زمن «مابعد الحدثية»، كما أنها ماثلة قبل ظهور «الحدثية» الأوروبية بالمعنى الحضارى أو الثقافى العام، وهى مازالت معاصرة وإن لم تكن قد لحقنا بها، ولهذا بالطبع تفصيل ليس هنا مجاله.

وإنما ما أعنيه عند التوحيدى هو أن التفسير الاجتماعى التاريخى للغربة فى حدسه بها وبوجه اللاعج بشعاليها، تفسير على صحته، كما قلت، قاصر أشد القصور، لأن ما يعنيه بالغربة يوشك أن يكون سمة لصفة بالإنسان - كما نعرفه حتى الآن - لصوقاً وثيقاً، فهى إذن - فى حدود العرضية الإنسانية نفسها - لا تاريخية ولا زمنية ولا يمكن ردها أو اختزالها إلى الظروف والأوضاع الاجتماعية أو إلى البيئة الثقافية التى أحاطت بالتوحيدى، ولعلها أطبقت عليه، بل هى مجاوزة لهذه الأوضاع التاريخية - شأنها فى ذلك شأن مفهوم الحدثية الذى أشرت إليه لتوى.

إن الجمع - أو المزج على الأصح - بين النقيض خصيصة للحدثيين وللصوفية، وفى هذا السبيل لا أوضح من تجوى التوحيدى:

«حبيبي.. أما ترى ضعيتي في تحفظي؟ أما ترى رقدتي في تيقظي؟ أما ترى تفرقي في تجمعي؟
أما ترى غصني في إساغتي؟ أما ترى ضلالي في اهتدائي؟ أما ترى رشدي في غيبي؟ أما ترى
عبي في بلاغتي؟ أما ترى غيبي في حضوري؟ أما ترى كموني في ظهوري؟».

وفي طريقة إدارة هذه النجوى - أو هذا البوح - ما يؤدي بي إلى السمة الثالثة والأخيرة في هذا المجال من سمات خطاب التوحيدي؛ فهو إذ يوجه الخطاب إلى آخر - أي كان الآخر - فإنما هو وفيّ لخصيصته في الانقسام الاجتماع، أو التفارق الاتحاد.

وفي حسي أن الذات هي هي الآخر هنا، وأن النجوى إلى الآخر سواء كان مدعوا «حبيبي!» أو «يا هذا...!» إنما هي في حقيقة الأمر موجهة إلى الذات، كما ذهب إلى ذلك من قبل عبدالرحمن بدوي وآخرون، «فالأنا - الآخر» هنا وحدة جدلية غير سكونية، والآخر قد يكون هو المطلق المفارق أو قد يكون هو الند المتوهم - وليست الندية مسلما بها قط - ولكنه في كل الأحوال ومع كونه الآخر المتسامي أو الآخر الدنيوي، فإنه هو الأنا في نهاية الأمر: «امح البينونة بينك وبينه. أندري ما البينونة؟ البينونة هي الكينونة» (١ هـ). فهل ثم سبيل إلى القضاء على البينية (أو الفرقة) إلا بالتوحد، أي بالكينونة؟

*

ولتر بعد ذلك إلى توصيف التوحيدي لكتابته - سواء كانت كتابة الغربة أو كتابة البينونة:

«لم أدع للكتابة قوة إلا عصرنها عند العثور عليها» (١٣٥).

«والله ما نبت، من هذه السطور الكثيرة والورقات المتصلة، بحرف إلا بعد الخناق الشديد وعصر
الفؤاد بالكره، وإلا بعد التلويح في المنام، وإلا بعد الإلقاء والإلام... فرأيت الخطر بالبوح - مع هذا
الحث المتوالي - أهون من الصمت - مع هذا البعث المتعالي».

كل سمات الكتابة الإشرافية هنا، فليس «عصر الفؤاد بالكره» نمعلا وتكلفا وقسراً للنفس أو سوماً لإياها على ما تنفر منه. على العكس، إن «عصر الكتابة عصراً - بعد ومضة الإلهام عند العثور عليها - هي مكابدة
المحب أو الامتثال للبعث المتعالي، ذلك أن الحث المتوالي على الكتابة ليس سوقاً بل انسياقاً، والإلحاح ليس اقتحاماً
ولا تقحماً، بل استجابة لنداء داخلي.

ومع أن أبا حيان يقول عن نفسه: «لست من الشعر والشعراء في شيء.. وأكره أن أخطو على دحض وأحتسى
غير محض»، ففي تقديري أن في كتابته من الشعر ما يفوق ما اقترفه الجمع الغفير ممن سمو أنفسهم شعراء، وهم
ليسوا منهم شيء، وعندى أن في كتابته من نفحات الدفء والحرارة والإيقاع ما يدرجها بحق في سمط الشعر
الحق، كما نفهمه الآن، وكما لعله يصدق على كتابة معظم الصوفية القدامى. فما أصغى كتابته من الشوائب
التي قد تخيلها إلى ما هو «غير محض» بعبارة.

وكأنما يرد التوحيدي - منذ ألف عام - على ما ترمي به كتابته وكل الكتابة الحق من غموض أو ما يجري

مجراه:

«إشفاقى على من لا يفهم لكدر طباعه أو لبلادته فهمه أو لغالب جهله، أو لعصبية تعتريه شديدة...،
فإننا لله وإنا إليه راجعون».

ليس على كل «من لا يفهم» إلا أن يصفى أو يحسن الإصغاء إلى نداء مشترك لا بد أن جنبت نفسه هو
تتردد فيها أصداؤه حتى لو كانت خافتة.

فهل كان فى الاستجابة لمثل هذا النداء - على تباينه - وفى التجوى لذات هى نفسها ذات أخرى كأنها
الخدينة القديمة فى نائية ابن الفارض، ابتعثنا لما انبجس فى كتابتى منذ الأربعينيات المبكرة وما يستعاد الآن فى
التسمينات المتأخرة، فى تجاوب أو تراسل أو استلهايم على نحو ما لغرية لعلها تقارب ما عرفه التوحيدى من غربة،
ولعلها تساق ما ند عنه من نداء؛ إذ يمتعت هذه الكتابة، بالنداء، تلك الخدينة - الذات الخائبة المتماهية والأخرى
المفارقة المتسامية: «يا غريبة عنى»:

«هأنذا قد عدت وملء يدي حصاد حياة مثقلة أفلة

تطوف بى أحلام بالية،

مزقا مهلهلة تتعلق بحواف الليل الصامت القادم

هل يشرق النوم بصبح بهيم

هل صخر السماء صابت - كالعادة - لا يجب

هل تظل ترودنى فى نظرتك ابتسامة ملغزة؟

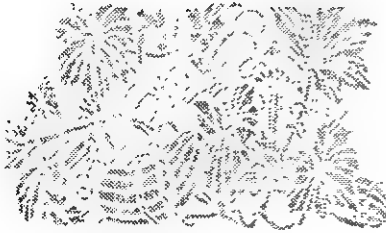
ذلك أننى فى النهاية - لا أعرفك

تظلين على قربك الحميم.. غريبة عنى.

هل أنا أعرفك؟ يا للسؤال!

نعم أعرفك.

وتظلين - على معرفتى - غريبة عنى».



أخى الذى لم أره

جمال الفيطنى*

طوال هذه الندوة كنت أشعر أن أبا حيان يصفى إلينا من موقع ما، من مكان ما، ربما كان هذا الباب، ربما كان فى أعلى المكتبة. بشكل ما هو موجود، ولا أعرف بالضبط التعبير الذى يمكن أن يكون مرتسما على وجهه، وهو يسمع هذه الأبحاث وهذه الرؤى العميقة القيمة. هذا الشعور ناتج عن معايشة طويلة ليست للتوحيدى فقط، ولكن لأثمتى وشيوخى من التراث، اعتدت على إقامة هذه الصلة، اعتدت على تجاوز دورات الفلك والأمكنة، حتى يصبح ما بينى وبين أبى حيان أضييق مما يفصل خاتمى عن إصبعى. أقيمت هذه العلاقات مع شيوخى الأجلاء، أذكر منهم ابن إياس الحنفى المصرى صاحب (بدائع الزهور) وهو بمنزلة المعلم لأنه يخبرنى عما جرى، وعندما يخبر الإنسان عما جرى فإنه يعلم ويهدى بعلمه، فأنا منه فى موقع التلميذ، أعرف منه أسرار تلك اللحظات الفانية التى تمت إلى القرن السادس عشر الذى قدر له أن يعيش قبلى، ولذلك أقول عه معلمى. أقيمت أيضا صلة عميقة مع مولاي الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى الحانمى، ولكن هذا بمثابة شيوخى، والشيخ لا يدنو منه المرید إلا متهيأ، بل إن له طقوساً وآداباً فى الزيارة، والمشول بين كتاباته، ولذلك أرهه وهو يأخذ بيدى ليخوض بى لحة الروح ومجرات الكون النفسية التى يعرفها جيداً، وحتى الآن لا أجرؤ إلا على قدر من الصحبة فى عالمنا الحصب.

* قاص وروائي مصرى، رئيس تحرير جريدة «أنبار الأدب»

أما أبو حيان التوحيدي الذي تعرفته، لحسن حظي، مبكرا في مبنى دار الكتب العريقة في باب الخلق وأنا دون العشرين، فأشعر نحوه بألفه ومعجبة وحضور، ولذلك لا أبالغ إطلاقا عندما أقول إنه «أخى الذي لم أره»، أما الألفه فلأنه الوحيد الذي قرأته في التراث العربي وأنا أعني النثر وليس الشعر الذي أُنَجِّرنى بدخائله، هذا نوع نادر من الشر الذاتي لا نجد له، مثيلا في المؤسسة العربية المتوارثة، التي توازي في تقديري المؤسسات السياسية الطاهرة والتي تناقضها تلك الكتابة الذاتية التي تبلغ أوجها وقمتها عند الصوفية، الذين إذا اتسعت رؤاهم ضاقت عباراتهم عن استيعابها، هذا هو التوحيدي، وهذه هي قيمته في مجرى النثر العربي.

عندما قرأته للمرة الأولى، وكان ذلك في كتاب (المقابسات) الذي نشر للمرة الأولى في عام ١٩١٦ في مصر (نشره حسن السندوبي في مجلة المسامرات) فوجئت حقيقة بالمشاكل والتضاي التي يطرحتها. وفي حدود ما قرأت من نثر لم ألقُ بكلمة «مقابلة» عند أي كاتب من الكتاب، أو فيلسوف من الفلاسفة. فوجئت بعمق الطرح، وجدة تناول، لمس التوحيدي القضايا الكونية الإنسانية الدائمة الأبدية والأولية المستمرة أبدا.

لماذا نشهد هذا الحشد المهيّب الذي يجمع خلاصة المفكرين والمنقّفين في العالم العربي؟

من أجل التوحيدي الذي غاب عنا منذ ألف عام، ولم يكن معروفا قبل بداية هذا القرن، لم يكن معروفا على الإطلاق، فقد طالته إحدى القسّمات السيئة في الحياة الثقافية العربية، وهي تلك الشائعات التي تنطلق أحيانا على البعض وتطاردهم حتى الممات وتُغبر القرون؛ شائعات أنه زنديق، وقد تجددت في هذه الندوة، وأول أمس في مقال قرأته لأحد المحترمين يتهمه بالزندقة مع أنني لا أريد أن أنزلق إلى ناحية أخرى وأدافع عن إيمانه، فكتبته تشهد له، ولكنني أقول إن جوانب كثيرة في التراث العربي ضحية شائعات، وما زلنا نمضي على ذلك حتى الآن، كذلك الشائعة مثلا التي تطارد (أولاد حارتنا) أبو غيرها من الكتب.

لماذا نحشّفل بهذا الرجل وهذه الكتابات بالذات؟ لأن الإجابات التي قدمها عن تساؤلات كثيرة لا تزال إجابات حالية معاصرة، على العموم؛ ولذلك كان التوحيدي، في كتاباته القليلة التي وصلتنا - فترات التوحيدي كله لم يصل إلينا للأسف - أتمس حظا من الجاحظ والآخرين. فالتوحيدي وصل إلينا بعض كتبه، وليس كل الكتب.

يتساءل أحدها: هل كان التوحيدي منصوفا؟ وكأن التصوف له مواصفات وطلبات التحاق كطلبات المدارس والكلليات. التوحيدي له كتاب مهم جدا في التصوف لم يصل إلينا، ويكفي كتابه (الإشارات الإلهية). المهم أن التوحيدي أحد الأدباء النادرين في التراث العربي الذي لمس الحقيقة الإنسانية الجوهرية. لمس الحقائق الإنسانية الأبدية الأولية عندما قال: «الوقت حاد فكُن من حدثه على حذر». فهو هنا يلمس حقيقة علاقة الإنسان بالزمان الذي يطوى، الذي لا نستطيع أن نبطئ منه أو نؤثر فيه، ولكن يطوينا باستمرار. وكانت وسيلة التوحيدي في مقاومة هذا الفناء المستمر تتمثل في الكتابة. التوحيدي ليس كاتبا ولكنه مكتوب، هو نفسه كتاب، ولذلك عاش ووصل إلينا في نصوصه، والنص المخلص الحقيقي الناتج عن موجبة عظمية كموجبة التوحيدي، يستطيع أن يلمس الحقيقة الإنسانية، ويحفظها، كما يستطيع هذا النص أن يمتد على صاحبه حيا، يسعى ويمشي بيننا.

عرفت التوحيدي في دار الكتب للمرة الأولى ثم أقبلت على كتبه كلها، وأذكر أنني قرأت كتاب (المهمال والشرامل) وبحثت عنه فلم أجده. وأنا تجمع بيني وبين التوحيدي أوجه شبه كثيرة، فأنا كُنت نفسى بطريقة عصامية مثله، وكنت إذا لم أستطع شراء كتاب من الكتب التي تعجبني في دار الكتب أقبل على نسحه كاملا

حتى أقتنيه، وقد نسخت (الهوامل والشوامل) فى نسخة مازلت أحتفظ بها حتى الآن. وللأسف الشديد هذا الكتاب أصبح أنفس من المخطوطات، وما نسخته علق بذهنى أكثر مما قرأته، من هنا نستطيع أن نحد مصدراً من مصادر تكوين ثقافة التوحيدى، أعنى النساخة (الورقة) التى مارسها وأفادته وكرته

معاناة التوحيدى هى نفسها معاناة المتنبي، وأريد أن يقوم أحد الباحثين بدراسة مقارنة لمعاناة المتنبي ومعاناة التوحيدى، لقد عاشا فى عصر واحد، ومعاناتهما هى معاناتى أيضاً ومعاناة أى أديب ينتمى إلى ثقافتنا العربية.

من نكد الدنيا على الحر أن يرى

عدوا له ما من صداقته بد

أليس هذا موقف التوحيدى فى كتاب (الصداقة والصدق)؛ هذا الكتاب الذى نشر فيه تأملاته حول الصداقة؟ ولكن هذا الكتاب، فى الوقت نفسه، هو رسالة حنين عميقة جداً.

البعض يلوم التوحيدى لأنه كان يتقرب من السلطة. هذا رجل جاع وأكل العشب فى الصحراء، وهو لم يتخرج من أن يخبرنا بذلك، فلم يمتد أحد على هذه الصراحة فى الكتابة القديمة أو حتى الحديثة. الرجل أفضى إلينا بكل شئ، لذلك أقول إنه «مكتوب». انظروا إلى هذا الحوار عندما ذهب ليطلب الرزق، قال له الصاحب: أبو من؟ فقال له: أبو حيان. قال له الصاحب بلغنى أنك تتأدب، فقال له: تأدب أهل الزمان، فقال له: أبو حيان ينصرف أو لا ينصرف؟ (هو يمتحنه! ولا بد أن يعرف الحاكم أكثر مما يعرف الأديب!) فقال له: إذا قبله مولاي لا ينصرف. لم يعجب الصاحب هذا الكلام، و«برطم» بالفارسية. هكذا كان دائماً الأديب، أو الشاعر، لا بد أن ينبجج، ولا بد للمنافق أن ينافق. ونجد أمثلة كثيرة لهذه المواقف فى الشعر العربى. وأبو حيان لم يتخرج من أن يقول ذلك، وبلغ الأمر أن الصاحب عندما عينه ناسخاً ومَرَّ فى أحد الأيام فوقف يحبيه فغضب وقال: هل وصل الأمر أن النساخين يقفون لتحيتنا. هذه المعاناة كتبها أبو حيان بصراحة لم تنعود عليها، ولذلك كانت كتابته غريبة. ثم سارت الشائعة أن من يقتنى كتبه يدركه الشؤم إلى آخره، وتراكم فوقها الغبار إلى أن بدأ ينجلي.

وهنا نتوقف أمام هذا الدرس العميق الذى يجب أن تستوعبه كل الحكومات وكل الأنظمة وكل الأحزاب، سواء كانت فى الحكم أو فى المعارضة: أنه لا شئ يحول دون الموهبة، لا شئ يحول دون ظهورها، لا شئ يحول دون انتشارها عبر الأزمنة، ومرور ألف سنة لا يمكن أن يخفيها أو يقمعها. لا يمكن لأحد أن يلمع موهبة زائفة. الموهبة الحقيقية التى يدرك صاحبها جوهر الإنسانية ويعبر عنها، هى ما يبقى، وهى ما يجعل الوجود لشخص غاب عنا منذ ألف سنة أكثر قوة وحضوراً من هؤلاء الذين يسرون الآن على أرجلهم، ويمشون بيننا.

قال أبو حيان فى كتاب (الإشارات): آخر ما يبقى من الإنسان الفكر. وأذكر أن والدى رحمه الله، وكان أمياً، قال لى: إن الإنسان يبقى فى النهاية منه سيرة. وأظن أن كتابات أبى حيان لم تبقه فحسب، ولكنها جعلته خالداً إلى الأبد.

أبوحيان

محنة المثقف العربى الشريف

خيرى شلبى*

حارت الأفهام والألباب فى تفسير شخصية أبى حيان التوحيدي على كثرة ما كتب عنه وعنهما من دراسات وأبحاث ومقدمات لكتبه. فهو لم يكن شخصية سهلة أو بسيطة؛ ساهمت فى تعقيدها وتركيبها ظروف كثيرة متنوعة: اجتماعية واقتصادية وسياسية؛ بالإضافة إلى وضعيته بوصفه منتجاً للثقافة، فهو فيلسوف ومتكلم وأديب وعالم وفقه ومتصوف ونحوى ومنطقى وفنان ومفكر. كل جانب من هذه الجوانب أو موهبة من هذه المواهب لها تأثيرها الخاص على شخصيته. فإذا علمنا أن الأديب والعالم والفقيه والمتصوف والنحوى والفنان والمفكر لكل منهم شخصيته المستقلة ولكل منهم عناء وجهود ومكابدة؛ أدركنا أن اجتماع كل هذه الشخصيات فى شخصية واحدة أمر يصعب دراسة هذه الشخصية دراسة موضوعية دقيقة.

ربما لهذا السبب أحجم الكثيرون عن التعرض لدراسة شخصية التوحيدي، فى حين انصبت كل الاهتمامات على دراسة نتاجه من أدب وعلم وفقه وتصوف ونحو ومنطق وفن وفكر. بعضهم حاول استشفاف شخصيته من خلال هذه الأنشطة الذهنية التى لا بد أن تنعكس شخصيته عليها، إلا أن زكريا إبراهيم أفرد فصلاً إضافياً عن شخصية التوحيدي فى كتابه البديع: (أبوحيان التوحيدي - أديب الغلاسة وفيلسوف الأدباء). وسوف يكون هذا الفصل هو العمود الفقري الذى يقوم عليه هذه الشهادة المتواصلة.

* روائى وقاص، رئيس تحرير مجلة «الشعر» القاهرية.

فكاتب هذه السطور لا يجزئ على الزعم بأنه قد فهم شخصية أبي حيان، أو امتلك عنها تفاصيل جديدة أو تكونت لديه وجهة نظر جديدة أو حتى لديه ما يمكن اعتباره إضافة إلى ما سبق أن قيل في هذه الشخصية الفذة. إنما أنا أدب مفتون بشخصية أبي حيان وأدبه، والمفتون بشخصية يجب دائماً أن يتحدث عنها، فمجرد الحديث - حتى ولو كان معتمداً على ما قاله الآخرون - فيه لذة وفائدة، وفيه فرصة لإعادة النظر في بعض ما قيل، ولنفي واستبعاد ما يظهر خطله، وتثبيت ما تثبت أحقيته.

اهتمامي بشخصية أبي حيان ينبع من حقيقة ماثلة؛ هي أن أبا حيان بما وصل إلينا من معلومات عن حياته، يلخص مأساة المثقفين العرب الشرفاء كافة منذ الأزل وحتى اليوم: المثقف الحر الشريف ذو الرأي النافذ والمنطق الحاد كيف تكون مواهبه وبالا عليه؟ كيف يدفع ثمن شرفه باهظاً؟ كيف يجتمع عليه العدوان من كل حذب وصوب؟ كيف ينفر منه الأمراء والوزراء والخلفاء وذوو السلطان؟ كيف يكون لقمة سائغة لكل متهور متطرف؟ كيف يعلو عليه ويسرق حياته كل دعي انتهازي مفرغ من المضمون؟

تلك كانت محنة أبي حيان حتى بعد رحيله. أراد أن يعيش في عزوة من ثقافته وعلمه ومواهبه باعتبارها الكنز الذي لا يفنى، يحقق بها رغد العيش الكريم محتفظاً بكبريائه وشموخه وحرية رأيه، ينادد الكبراء والأمراء بعظمته العلمية ومكانته الثقافية.. فإذا هو يتلقى أعنف الصدمات؛ لأن المجتمع الطبقي السلطوي لم يسمح له بذلك؛ بل يضربه بالنعال، يحكم عليه بالتشريد والتجويع، وبأن يظل العمر كله يلعب تراب الأرض حتى تضطره إلى لحس عتب الأمراء والمناحين لقاء المدح والملق، أو تخمد مواهبه وتنكسر نفسه ويخبو أوار فكره فتجف ينابيعه وتضمحل. لكن الرجل الذي احترق مهنة الوراقة في صدر شبابه ينتسخ الكتب لمن يطلبها لقاء أجر زهيد، أصبح يألف الصبر في شيخوخته؛ أكسبته ثقافته الموسوعية العميقة حكمة بالغة وقدرة خارقة على الاحتمال والزهد في المباهج؛ أصبح يعيش تحت مستوى الفقر بأمال طويلة، لدرجة أنه كان يعيش بتكلفة زهيدة جداً لا تتجاوز دينارين اثنين في العام. على أن ذلك لم يكن لبف من عضده، فالعلم كان زاده المشيع، وفي اكتشاف المعنى مباهجه، وفي ازدياد محصوله من العلم ورفاق الفكر رفاهيته.

كان بين مصيرين لا ثالث لهما: إما أن يكون تابعا للأمير ذليلاً يباهه يقدم له ما يرضيه من ملق وزيف وكذب، وإما أن يطرد نهائياً من النعيم. ولكن التوحيدى لم يترخص في حياته إلا مرة واحدة بالرسالة التي بعث بها - من فرط الضيق والفاقة والعوز والشعور بالغبن - إلى ابن العميد يستجديه العطف؛ ولعل من حسن حظه أنها لم تنجح، فلم يكررها طول عمره؛ فانطبق عليه القول المأثور: «عز من قنع»، كما أنه كان تجسيدا للمثل العربي الشهير: استغن عن الشيء تكن نده، واطلب الشيء تكن عبده؛ لقد درب نفسه على الاستغناء، وهو القائل في كتابه (الهوامل والشوامل): الكلمة الحسناء أشرف عندى من الجارية العذراء.

مثل هذا الرجل الذي لم تهزمه الحاجة ولم يكسر الفقر كبريائه فشذ عن جميع مثقفي عصره واستطاع الاستغناء عن منح الأمراء ورعاية الوزراء وحماية الخلفاء؛ كان لابد أن يثير عليه أحقاد الحاقدين، فرموه بكل نقيصة، وألصقوا به معايهم. وحينما أرخ له ياقوت الحموى قال عنه إنه رجل حسيس يعتره الضعف أكثر مما تعتره القوة ويقع في الخطأ أكثر مما يقع على الصواب!! كما قال: كان سحيق اللسان قليل الرضا عند الإساءة إليه والإحسان، الذم شأنه، والثلب دكانه!!

حق لنا أن نضع الكثير من علامات التعجب بعد هذا التحامل الواضح على مثل هذا الرجل الفاضل. فمثل هذه الأوصاف الجائرة لا تنطبق على رجل زهد الحياة تماما ولم يعد له منها غرض يطلب من أحله مالا أو جاهاً. أبداً لم يكن التوحيدى خسيساً يعتره الضعف أو قليل الرضا عند الإحسان، لسبب بسيط هو أنه لم يتلق إحساناً أصلاً.

حكايته مع أبى الوفاء المهندس تنفى هذا الزعم. كان أبو الوفاء المهندس من وجوه عصره اللامعين، وكان صديقاً لكل من التوحيدى والوزير أبى عبدالله العارض وزير صمصام الدولة البويهى. فقرب أبو الوفاء أباحيان من الوزير. يقول الأستاذ أحمد أمين - ووصله به - ومدحه عنده، حتى جعل الوزير أباحيان من سمارة، فسامره سبعا وثلاثين ليلة كان يحادثه فيها، وي طرح الوزير عليه أسئلة فى مسائل مختلفة فيجيب عنها أبوحيان. ثم طلب أبو الوفاء من أبى حيان أن يقص عليه ما دار بينه وبين الوزير من حديث، وذكره بنعته عليه فى وصله بالوزير. فأجابه أبوحيان إلى طلبه، وفضل أن يدون ذلك فى كتاب يشتمل على كل ما دار بينه وبين الوزير، فكان من ذلك كتابه الرائع (الإمتاع والمؤانسة).

هذا فى الحق سلوك رجل نبيل لا يمكن أن يوصم بالخسة، مع أن أبى الوفاء المهندس قد من عليه وأساء إليه وغيره بسوء مظهره وبفقره وبنفور الناس منه، فكان الأخرى به أن ينقم عليه ويقذح فيه، أو على الأقل لا يلتفت إلى طلبه؛ لكنه بكل أريحية وكرم أخلاق يجلس ليدون كل ما دار بينه وبين الوزير على امتداد سبع وثلاثين ليلة، محتملاً عناء التدوين ومشقة التذكر لكل صغيرة وكبيرة وردت فى حوارهم مع الوزير. لقد ارتفع به واجب رد الجميل على الإحساس بالإهانة، فكان هو الأكرم من كليهما؛ المهندس والوزير. ها هو ذا يفتتح مقدمة كتابه بعبارة تكشف عن مضمونه النفسى، إذ يقول:

«نجا من آفات الدنيا من كان من العارفين، ووصل إلى خيرات الآخرة من كان من الزاهدين، وظفر بالقبوز والنعيم من قطع طمعه من الخلق أجمعين».

ثم يسترسل فى كتابه ذاكرة كل صغيرة وكبيرة، ليلة بعد ليلة.

وقد استعلى أبوحيان التوحيدى على عصره الذميم المنحط، بأن انسحب منه وانصرف إلى علمه يحميه، وإلى نقواه فيعمقها، وإلى التصوف فيبحر فيه مع (الإشارات الإلهية). فلما وجد أن هذا العلم يجر عليه بلاء معاصريه وأحقادهم، وأن آراءه وصراحتة توغر الصدور ضده، احتقر كل شئ، وجمع ما كتبه كله فأشعل فيه النار بكل بساطة، قائلا قوله الشهيرة:

«إني جمعت أكثرها للناس ولطلب المثالة منهم، ولعقد الرئاسة بينهم، ولد الجاد عندهم، فحرمت ذلك كله... ولقد اضطررت بينهم بعد العشرة والمعرفة فى أوقات كثيرة إلى أكل الخضر فى الصحراء، وإلى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة.. إلخ».

من حسن الحظ أن الكتب التى وصلتنا، والتى أفلتت من الحرق، كانت توجد منها مخطوطات عند بعض الأصدقاء.

أحرق التوحيدى كتبه احتجاجاً على ضياع كرامة العلم والعلماء فى عصر سادته الجهالة والتناق والرياء والملتق

فى كتابه (الإمتاع والمؤانسة) يسأله الوزير: «لم لا تتدخل صاحب ديوان، ولم ترضى لنفسك بهذا اللبس؟».

فقال: «أنا رجل حب السلامة غالب على، والقناعة بالطفيف محبوبة عندى».

فقال الوزير: «كنت عن الكسل بحب السلامة، وعن الفسولة بالرضا باليسير».

فقال التوحيدى: «إذا كنت لا أصل إلى السلامة إلا بالفسولة، ولا أنطعم الراحة إلا بالكسل، فمرحبا بهما».

ما أبعد مثل هذا الرد الموجز عن الخسة والتدنى.

ويأخذ عليه خصومه أنه عنى بذكر المعائب والمثالب فى كتابه الشهير (مثالب الوزيرين)، وهما ابن العميد والصاحب ابن عباد. وقد نسى هؤلاء أن التوحيدى بطبيعة تكوينه الثقافى عقلية نقدية فذة، وأنه لا يعرف المجاملة أو النفاق أو الرياء. وفى ظنى أن من عابوا عليه ذكر مثالب الوزيرين قد عابوا عليه فى حقيقة الأمر خروجه عن جوقة المادحين المأجورين، الذين هم بعض أصواتها. لقد خالف العقلية العربية التى درجت على المدح أو الذم فحسب؛ أما هو فكان تمثيلا للتطور، وبداية للعقلانية الصرفة، التى تقوم على التحليل الموضوعى فتذكر العيوب والمخاسن معا، وتبحث عن الحقيقة دون زيف أو تزويق.

وإذا كان الوزيران المذكوران قد عمدا إلى الإساءة إليه والخشونة فى معاملته والسخط عليه مجرد أنه أثناء مجالسته لهما كان يتعامل معهما كند يأنف من الملق والمجاملة؛ فإن ذلك لم يكن السبب الحقيقى وراء بحثه فى (مثالب الوزيرين) وإن كان بعض السبب، إنما الدافع الحقيقى هو ميل التوحيدى إلى الفكر النقدى. وثورة الساخطين عليه بسبب هذا الميل ربما كانت هى أحد الأسباب المؤثرة فى موت الفكر النقدى فى العقلية العربية، مما أدى بنا إلى التأخر حتى اليوم بسبب غياب الفكر النقدى الحق.

الثابت أن التوحيدى كان واعيا باحتياج العقلية العربية إلى قيام الفكر النقدى. يقول ردا على خصومة الذين عابوا عليه هذه الحضيضة؛ الذين هم فى الواقع يدافعون عن مصالحهم من خلل الدفاع عن أولياء نعمتهم بمقاومة هذا الفكر النقدى الذى قد يفسد عليهم بلهية العيش. يقول:

«متى كان ذكر المهتوك حراما، والتشنيع على الفاسق منكرا، والدلالة على النفاق خطلا، وتحذير الناس من الفاحش المتفحش جهلا؟ هذا مالا يقوله من قد قام بالموازنة والمكايلة، وعرف الفرق بين المكاشفة والمجاملة. وإنما غزر الأدب، وكثر العلم، وجزلت العبارة.. واستفاضت التجارب، لما وقف عليه من أنباء الناس وقصصهم وأحاديثهم فى خيرهم وشرهم، وفى وفائهم وغدرهم، والحسن الذى شاع عنهم، والقبيح الذى لصق بهم، والمكارم التى بقيت لهم، والفضائل التى ركبت عليهم».

هو، إذن، نمط مختلف بين مثقفى عصره، نموذج للمنكر الحر وسط عالم من الزيف والحداع. فشيبة التحامل منفية عنه. والقول بأنه كتب (مثالب الوزيرين) استجابة لأحقاد شخصية، بسبب سوء معاملة الوزيرين له، مردود عليه فى الكتاب نفسه، وبشكل تلقائى غير مقصود؛ إذ يروى أن صديقه مسكويه قال له يوما: «أما ترى إلى خطأ صاحبنا - يقصد ابن العميد - فى إعطائه فلانا ألف دينار ضربة واحدة! لقد ضاع هذا المائ الخضير فيمن لا يستحق!».

فقال له أبوحيان:

«أيها الشيخ، أسألك عن شئ واحد، واصدق، فإنه لا مدب للكذب بينى وبينك، ولا هبوب لريح التمجويه علينا. لو غلط صاحبك فيك بهذا العطاء وأضعافه وأضعاف أضعافه، أكنت تتخيله فى نفسك مخطئاً، ومبذراً، ومفسداً أو جاهلاً بحق المال؟ أو كنت تقول: ما أحسن ما فعل، وليته أربى عليه! فإن كان ماتسمع على حقيقته. فاعلم أن الذى بدد مالك، وردد مقالك، إنما هو الحسد وشئ آخر من جنسه، فأنت تدعى الحكمة، وتتكلم فى الأخلاق، وتزيف منها الزائف، وتختار منها المختار، فافطن لأمرك، واطلع على شرك وشرك».

هكذا كان التوحيدى حاداً فى ردوده، بما يعكس كرهه الشديد للملق والنفاق باعتبارهما من أفكك أمراض الفكر الحر. وإذا تبدو القسوة فى أحكامه، فإننا يجب أن نوليها انتباهنا بدلاً من النفور منها واستنكارها، لأنها صادرة عن عقلية تعلم الكثير عن دخائل النفس البشرية، ونوازعها، ولها فى علم النفس اجتهادات عميقة سبقت مؤسسى هذا العلم المحدثين بأزمنة طويلة. وإلى جانب علمه بالنفس هو فيلسوف ذو بصيرة واعية. وصاحب مثل هذه العقلية يصعب علينا الاقتناع بأنه كان حسوداً.

ثمة فرق بين الممرور، والحسود. والتوحيدى كان «ممروراً»، ما فى ذلك شك. سبب المرارة شعوره الدائم بالغبن، والظلم الواصل أحياناً إلى حد الإنكار، فى مقابل ما يراه من صور الإغداق على من هم دونه مرتبة فى العلم. يعلم علم اليقين أن هؤلاء الذين ينالون البرهم فى الأصل مؤهلون لذلك، بحكم التربية والنشأة والاستعداد الفطرى والذكاء الاجتماعى؛ لديهم دائماً بضاعة تناسب المقام؛ كل ما يحتاجه المجتمع الحاكم من أشياء ترضيه؛ تقدم له التسلية الرخيصة والمالأة تزيف له الحقائق؛ لذلك للحاكم فى المواضع الحساسة التى يستلذ تدليكها؛ يعملون على استتباب حكمه وظلمه وجوره؛ يعاونونه على تنفيذ مخططاته الاستبدادية. أما هو، التوحيدى، فتمط مختلف تماماً، عقلاًنى صرف، يؤمن بسفور الحقيقة إيمانه بالتجليات الإلهية، وبالعدل والمساواة. لم يكن يحسد الفائزين على فوزهم، فهو فى نظره فوز رخيص فان. ولا ينقم على المانحين تذييرهم لأنهم أغدقوا على غيره دون أن يشملوه بعطفهم؛ إنما النقرة على سيادة هذا الوضع نفسه، ففوضى المنح والمنع تبعاً لأهواء الأمير هى فى النهاية فساد فى ضمير السلطة مضاد لمصلحة الجميع. إذ الأمير هنا يدد أموال بيت المال فى التكريس لحكمه الجائر على حساب العدل والبرورة والشرف، بشراء المادحين واكتساب الأنصار.

تركيز التوحيدى على ما فى بعض الناس من مثالب ومعائب، نبع من شدة إحساسه بأنه يعيش فى مجتمع مسكون - كما هو مفترض - بالخير والكمال الإنسانى، مجتمع وليد أمة ذات تراث عريق فى السؤدد والشجاعة والكرم والبرورة والتضحية والإيثار؛ ولكل هذه الأخلاق أدبيات شامخات ذات مستوى رفيع فى البيان المؤيد بالمواقف التاريخية والسلوكات المعاصرة والحوادث المعبرة والحكايات الدالة. ففكره النقدى - إذن - يعكس حرصه على نصاعة الثوب الإنسانى العربى، على سلامة مجتمعه وأمته. قسونه فى نقد المثالب تتبع من كون هذه المثالب ضارة بالأمة؛ هى قسوة تعكس حباً شديداً للأمة من ناحية، وللمبادئ الإنسانية العظيمة التى رسخها الإسلام من ناحية أخرى. كان يمتلى شعوراً بأنه ينتمى لأمة يجب أن تكون بالفعل خير أمة أخرجت للناس كما أرادها الله سبحانه وتعالى.

والتأمل فى كتاب (الإشارات الإلهية) يرى إلى أى حد حمل التوحيدى هموم النفس الباحثة عن الكمال الإنسانى، المتطلعة للسمو الأخلاقى، والصفاء والطهر، حتى تكون جذيرة بالاقتراب من الله سبحانه الذى شرف هذه الأمة بالاقتراب منها بأن أرسل إليها قرآنه برسوله.

نلمح فى (الإشارات الإلهية) فكرة أن النفس الإنسانية تنقسم فى حقيقة أمرها إلى نفسين: النفس الخيرة القريبة من روح الله؛ والنفس الأمارة بالسوء الملتصقة بالعالم الأرضى، بالطين. والنفس الخيرة تخاطب هذه النفس الأمارة بالسوء خطابا تتجلى فيه (الإشارات الإلهية)، تقول لصاحبها مثلا:

«يا هذا: إذا زخر بك وادى الدعاء فاعلم أنك مراد بالإجابة، وإذا تابع لك المزيد فى النعمة، فاعلم أنك معرض للتكر، وإذا اكتنفتك الكرب من كل ناحية فاعلم أنك مطالب بالتصفية، وإذا توالى عليك هاتف العلم فاعلم أنك محثوث على العمل، وإذا أشهدت غيب حالك فاعلم أنك مخصوص باليقظة، وإذا غابت عن شاهد أمرك فاعلم أنك غير قابل واقع الموعظة، وإذا استوحشت من بقاع الذكر فاعلم أنك معزول عن الولاية، وإذا عميت عن الاعتبار بآثار السلف، فاعلم أنك مخلى من يمن الهداية، وإذا استحسنت القول واستثقلت العمل فاعلم أنك بعيد من التوفيق والعناية».

وفى الجزء الأول من كتاب (الإمتاع والمؤانسة) يقول:

«أصبح الدين وقد أخلق لبوسه، وأوحش مأنوسه، واقتلع مغروسه، وصار المنكر معروفا، والمعروف منكرا، وعاد كل شئ إلى كدره وخائره، وفاسده وضائره؛ وحصل الأمر على أن يقال: فلان خفيف الروح، وفلان حسن الوجه، وفلان ظريف الجملة، حلو الشمائل، ظاهر الكيس، قوى الدست فى الشطرنج، حسن اللعب فى النرد، جيد فى الاستخراج، مدبر للأموال، بذول للجهد، معروف بالاستقصاء، لا يفضى عن دائق، ولا يتغافل عن قيراط؛ إلى غير ذلك مما يأنف العالم من تكثيره، والكاتب من تسطيره».

والتأمل فى هاتين الفقرتين يسهل عليه التأكد من مواجد هذا الرجل وكثرة همومه الروحية. فحامل هذه الهموم لابد أن يكون حاد اللسان فى نقده. كما أن حامل هذه الهموم لا ينبغى أن يشك فى دينه، كما أرجف المرجفون الذين زعموا بأنه زنديق.

فى الفقرة الثانية يذكرنا بشكاوى الفلاح الفصيح وثورته على اندحار القيم وضياح الأخلاق والتقاليد.

هو، إذن، نائر فنان، يجب أن نفتش وراء حديثه الظاهرى عن المعنى الخفى الكامن بين السطور.

لو عدنا إلى كتابه (الإمتاع والمؤانسة) وقرأنا المقدمة التى يرفع بها الكتاب إلى صديقه أبى الوفاء المهندس، لرأيناه يفرط فى الثناء عليه بمبالغة شديدة، ويفرط فى التحقير من شأن نفسه بمبالغة شديدة أيضا. وهذه المبالغة، فى تقديرى، هى بيت القصيد لأنها مقصودة عن عمد، ولهذا دلالة. وفى رأى زكريا إبراهيم أن ما يبدو فى هذه المقدمة من ذلة وخنوع لا ينبغى أن تؤخذ على أبى حيان لأنه كان يحاطب صديقا لا وزيرا أو أميرا؛ هى رسالة من صديق لصديقه وليس بين الأصدقاء من تحفظات. ويقول زكريا إن

التوحيدى كان غنياً فى ذمه وهجائه متطرفاً فى مدحه وثنائه، فليس بغريب أن نجدته يقرط فى التعبير عن شعوره نحو صديقه أبى الوفاء المهندس.

وقد قلنا آنفاً إن أبى الوفاء المهندس حينما قدمه إلى الوزير ابن سعدان عاد فطلب منه أن يحكى له مدار طوال الليالى، لكنه لم يطلب منه هذا الطلب بشكل كريم، بل قال له ما معناه لقد كنت فقيراً منفر الشكل لا يحترمك أحد ولا يأبه بك أحد وقد خدمتك بتقديمك للوزير فلا أقل من أن تروى لى ما حدث بينكما بالتفصيل كأننى كنت حاضراً معكما. والإهانة واضحة هنا، وكان من الصعب على أبى حيان ذى اللسان النحاد والعقلية النقدية المطبوعة أن يتلع هذه الإهانة، وأن يكتفى بتدوين ما دار فى كتاب يرفعه إليه، وفوق ذلك يبالغ جداً فى تحقير نفسه وتفخيم صديقه. فما الأمر إذن؟

أقول إن السر كامن فى هذه المبالغة.

ففى ظنى أن التوحيدى لم يكن يعنى هذا الثناء وهذا الإفراط فى التحقير من شأنه، بل لعله كان يقصد العكس تماماً.

ففيما بين التحقير من شأنه، والمبالغة فى الثناء على الآخر؛ يوجد أسلوب معروف فى البلاغة العربية بتأكيد النقص. فكأنه يقول لصديقه إن الزمن الأعمى الذى رفع من شأنك وخفض من شأنى قد عكس الآية لكنه أعطاك الجاه والمال وأعطانى مرئىة العلم، فأنت تحتاج لعلمى وأنا لا أحتاج لمالك وجاهك. فلتنعم بجاهك ومالك ولأقع أنا بعلمى وفاقتى وما دمت أنت مفتون بالجاه فأليك المزيد منه.

إن المبالغة فى تحقير شأنه فى مقابل المبالغة فى رفع شأن الآخر هى مبالغة بالقدر نفسه فى إدانة الوضع كله. وهى أبلغ رد من رجل كريم النفس على إهانة وجهت إليه من صديق يعتز به.

فشبهة إظهار الذلة والخنوع لا يجب أن تكون واردة عند التوحيدى بالذات لأنه رجل مستغن، قانع، غير ضائق بفقره، إنما هو - فحسب - ضائق بالفن الأدبى، بضياح حقوقه الأدبية. وشدة شعوره بهذا الفن تقف وراء كبريائه الحاد ورغبته الدائمة فى مناداة الأمراء والوزراء والكبراء. ثم إن سوء مظهره الناتج عن سوء وضعه المادى كان يزيد من تضخم كبريائه، ويزيد من حساسيته تجاه أموال الآخرين، حتى ليكاد فى كل لحظة يعلن أنه غير محتاج إليهم. ولعلنا نتذكر محاورته مع الوزير ابن سعدان حول سوء المظهر وقعوده عن السعى إلى ربط نفسه بالدواوين - يعنى مجالس الأمراء والوزراء - وكيف رد عليه التوحيدى رداً قاطعاً حاداً.

يقول فى ختام كتابه (مثالب الوزيرين):

«اللهم صن وجوهنا باليسار، ولا تبذلها بالإقتار، فنستزق أهل رزقك، ونسأل شرار خلقك، فنبتلى بحمد من أعطى، وذم من منع، وأنت من دونهما ولئى الإعطاء، وبيدك خزائن الأرض والسماء، يا ذا الجلال والإكرام».

لكنه يقول لكل الوزراء والأمراء والكبراء فى عصره: هذا أنا وهذا حالى مع أمثال هذين الوزيرين: النقد والكشف وفضح الزيف، ورزقى فى النهاية على الله، فمن شاء منكم قبولى على علانى هذه فأهلاً به ومن لم يشأ فليزور عنى.

فى ءءءءءه لكءاب (الهوامل والشوامل) فقول أءمء أمن:

«إن أبا ءىان ءءىر الشءوى من الزمان والسكان، والشءوى من المءءءن قء ءءىر فى النفس عاظة الءنو والرءمة، وقء ءءىر عاظة الاشءماء والءءزز، وهى فى ذلك ءءءف باءءلاف الشءل وأمالفب الاسءءءاء. فقء فكون الشءل باءءا على العطف والرءمة وقء فكون باءءا على ءنفور. وكذلك أسلوب الاسءءءاء، فقء فكون أسلوبا رففقا فستءرء العطف، وقء فكون أسلوبا ءافا مشوبا بالإءلال والءءظفم ففءىر السءط وفعء على الءرمان. وفظهر أن أبا ءىان ءءوءىءى كان من ءقفبل ءاىى، رفء أن فسءلى على المسءول وأن ففءهم أن هءا ءق لا إءسان، فءر من اسءءى منهم...»

المأساء ءلها فى المءءع الطءقى السلىوى ولفسء فى أبى ءىان، مءءمع العفن ءى لا ءعلو على الءاءب، الذى لا فطق ءءء ولا فءءمل الفءر ءءءى. أفس ءرفا وءالا فى ءهاة القرن العشرفن فى البلاد العربفة لانزال ءءءر ءءء هءوما، فءر عفبه بالهءوم. ءءء عءءا لا فزال فى نظر الءءرففن مءر عءوان.

اىءوءىءى، إذن، هو مؤسر الفءر ءءءى، وفءب أن ءءب إلى هءه الرفاءة وءءءها ءق قءءها.

بهءه الءصففة كان شاهءا على عصره بمعنى الءءمة، فسءل ءل صءففة وءببفة ءءفن السلوك البشرى. وهءا نابع، فى الواقع، من شءة فمائه بالءء الإنسانى المءءل فى الءفن الإسلامى، الساعى ءوما إلى هءا المءء.

ولاشء أن ءءاب (الإشاراء الإلهفة) هو إلا مءاولة روءفة للوصول إلى هءا المءء الإنسانى. إنه ءءرفباء روءفة وفءرففة وءأملفة فصل من ءلالها - ءما فسصل القارئ المءمعن - إلى الآفاق البعفة ءفء فبءأ عءءها الارتقاء، ارتقاء الإنسان بفءسه إلى المرفبة القرففة من الءاء الإلهفة.

لقد صءم ءءوءىءى فى الإنسانفة قءر صءمءه فى اءءشافه عءم ءءوى العلم والفءر؛ فلم فقق أمامه ءفر ءءصوف، إلا أن ءصوفه فءمفز عن ءفره من الصوففة بأنه فعلى من شأن العقل والءءس معا. فعلى الرءم من السءءاء الروءفة الوءءائفة فى بءار الءءس العمففة فإن ءءلفباء العقل ءصء بوهءها إلى آفاق عالفة، فإذا هو بءءقل بسلاسة وءعومة من هموم الوءء إلى قضافا العلم والفءر الإنسانى؛ إذ إنه فسمى إلى أن فصفى العلم من أءراضه الشررفة، فالعلم إن لم فكن من أءل الارتقاء الإنسانى فصبح وبالا على البشر.

فقول فى إءءى فقراء (الإشاراء الإلهفة):

«فس إلى البغة سبل، ولا على ءرك الرضا ءلفل. للءقل صلف شءفء، فإذا قءءه إلى ءءلفء ءمع. وللمءس برق ظاهر، إذا أشرء له إلى ءسمء ءاب وعاء، وءبء واعءاء؛ والإنسان بفءهما أسفر، إن أراد طاعءهما ءاءاء وشافاء، وإن مال إلى أءءهما اءءمعا عفبه وءقاء. فكفف فطفب عفش من فففض صءره بهءه الءفاظ، وفغلى سره بهءه المءاظ! ما فطفب والله لءقة عفن!»

ويقول:

«العلم بلاء، والجهل عناء، والعمل رياء، والقول داء، والسكوت هباء، والنظر عداء، وكل ذلك سواء. فأما بلاء العلم فلأنه يهوى بصاحبه إلى لجج الفكر؛ وأما عناء الجهل، فلأنه يقحم صاحبه في شغاب النكر؛ وأما رياء العمل، فلأنه يجلب على صاحبه جميع الكد؛ وأما داء القول فلأنه يصب العجب على أهله في كل قبول ورد؛ وأما هباء السكوت فلأنه يعرّى صاحبه من كل فائدة؛ وأما عداء النظر فلأنه يعود على صاحبه بكل آبدء؛ وأما سواء كله؛ فلأنه علم لذوى النهى باحتمال كله. فهات الآن حالا ليس للعلم فيها نسب، ولا للجهل فيها سبب، ولا للعمل فيها بقية، ولا للقول فيها خيبة، ولا للسكوت معها علاوة، ولا للنظر عندها علاقة، ولا لعله فيها استواء، ولا لبعضه منها التواء...».

هذا الكتاب رحلة في نفس التوحيدى، لفرز كل ما فيها من تناقضات. وهو لشدة افتقاده التوازن النفسى، يرى أن فقدانه التوازن النفسى إن هو إلا انعكاس لما فى الواقع الإنسانى العام من خلخلة هي مصدر الضلال والغنى، وهي أيضا العائق للإنسان عن الوصول إلى مرحلة التكامل. لقد حاول التوحيدى أن يعرف نفسه على حقيقتها، لعله إن عرفها جيدا يعرف سر النقص فى الإنسان بوجه عام.

يقول زكريا إبراهيم:

«والحق أن أهم القدرات التى تساعد على تحقيق التكامل النفسى إنما هي القدرة على التمييز أولا، والقدرة على الكف الإرادى وضبط النفس ثانيا. والظاهر أن حظ أبى حيان من هاتين القدرتين كان محدوداً، بدليل أننا نجد دائما مندفعاً متهوراً، عاجزاً عن التمييز بين ما ينبغي أن يقال وما لا ينبغي أن يقال. وربما كان السر فى سوء التفاهم الذى نشأ بينه وبين كل من ابن العميد وابن عباد هو أنه لم يكن يحسن التصرف فى حضرة الوزيرين، بل كان يسلك نحوهما كما لو كانا شخصين عاديين من سواد الناس! والتوحيدى نفسه يروى لنا أنه حضر مأثدة الصاحب ابن عباد يوماً، فقدمت مضيرة، فأمن التوحيدى فيها، فقال له الصاحب: يا أبا حيان إنها تضر بالمشايخ! فقال أبو حيان: إن رأى الصاحب أن يدع التطبب على طعمه فعل! ولاشك أن هذه الإجابة لم تكن تخلو من تهور وسوء تصرف، ولكن التوحيدى نفسه يعلق عليها بقوله: فكأنى ألقمته حجراً، إذ خجل واستحيا، ولم ينطق إلى أن فرغنا.

«وليس فى وسعنا - بطبيعة الحال - أن نعلل عجز أبى حيان عن التمييز بين المواقف المختلفة، وعدم تمكنه من ضبط نفسه والتحكم فى إرادته، فإن جهلنا بنوع التربية التى تلقاها فى صباه، وأسلوب الحياة الذى درج عليه فى طفولته، يحول بيننا وبين تفسير مثل هذا الانحراف. ولكننا نميل إلى الظن بأن هناك عاملين أساسيين عملا على احتلال تكامله النفسى، ألا وهما: فساد ترقية الوجدانى ونقص نضجه الانفعالى من جهة، وعدم اكتسابه لمادة تنظيم شئون الحياة فى مختلف مظاهرها المادية والمعنوية من جهة أخرى...».

الاندفاع أو التهور أو ما يسميه زكريا إبراهيم بعدم النضج الانفعالى هو نوع من جلالة الفنان الذى تعرضت حياته لتجربة اجتماعية قاسية. فهو ابن رجل يبيع الثمر، فقير الحال، ولكن وضعه الطبقي -

أقصد أبا حيان - الصعب، لم يحل بينه وبين طلب العلم؛ فاجتهد فى طلبه معتمدا على قدراته الذاتية فحسب. وجاء اشتغاله وراقا ينسخ الكتب للناس بأجر زهيد، بمثابة المعلم الأكبر له، فكان وهو ينسخ الكتب يستوعبها جيدا، حتى تكون عقله ونمت حصيلته من العلم. إلا أن روحه كانت روح فنان، فيها الكثير من البوهيمية والجلافة والخشونة، سيما وأنه لم يختلط فى صغره بالطبقات الراقية فلم يحط علما بقواعد البروتوكول وفن التعامل مع الشخصيات العامة الكبيرة.

فنان هو، أوتى عقلا كبيرا جادا، حال بينه وبين الانطلاق فى آفاق الفن المتحررة ليعبر عن نفسه بأشكال فنية، خاصة أن الدين الإسلامى يحرم الفنون تقريبا. فى الوقت نفسه لم يخل نشاطه العقلانى الصرف من انفعالات الفنان التى قد تبدو هوجاء؛ إذ هو يتعامل مع الأشياء كافة بقلبه، بوجدانه، حتى وهو يناقشها مناقشة عقلانية.

إن التناقض الحاد بين الفنان الموهوب، غير المطالب بالتبرير قدر ما هو مطالب بالتصوير والتعبير، وبين المفكر العقلانى الصارم؛ إضافة إلى حرمانه من موهبة الذكاء الاجتماعى؛ ذكاء التعايش فى مودة ومجاملة واكتساب للأنصار والمريدين - هو الذى أظهره فى هذه الصورة التى تقربه أحيانا من الحمق.

هذا النموذج الإنسانى - فى الواقع - ليس جديدا ولا شاذًا، بل هو متكرر فى الكثيرين من أصحاب المواهب الصادقة الواعية. وهم دائما فى حالة خصام مع المجتمع يحول بينهم وبين الاندماج التام فيه، ربما لشذوذهم، ربما لشعورهم بالتميز، ربما لاستغراق المجتمع فيما لا يجونه من مبادئ باطلة. وهذا الخصام القائم باستمرار هو النبع الفنى الذى يستقون منه أفكارهم ومادة فنهم؛ الأمر الذى لم يكن متاحا لأبى حيان إلا فى نطاق النشاط العقلانى الصرف، المحفوف بالكثير من المشاكل والقيود والتحفظات.

عدم توازن التوحيدى مع مجتمعه، وضيقه الشديد والدائم بهذا المجتمع المنحرف عن جادة الصواب، كما يرى، كل ذلك قد يكون دليلا على خلل ما فى نفسية التوحيدى وشخصيته بوجه عام؛ ولكنه فى الوقت نفسه دليل على خلل أكبر وعدم توازن فى ذلك المجتمع نفسه. فكل ما يعانى به التوحيدى فى حياته من قلق وعناء وشظف وإنكار وجفاء؛ لم يكن هو المسؤول الأوحده عنه، بل ربما كان سببه الأكبر سوء معاملة المجتمع له؛ سوء تركيبة المجتمع أيضا.

وصحيح أن التوحيدى مسؤول عما يحدثه فى الناس حوله من نفور وازورار؛ إلا أن المجتمع بدوره كان يعانى من الحلل نفسه فى النضج وعدم التوازن؛ الدليل على ذلك أنه لم يستوعب شخصية أبى حيان. فتاريخ الفكر البشرى يمتلئ بعابرة كانوا فى منتهى السفالة والوضاعة فى ممارساتهم العادية، بعيدا عن عبقرياتهم، ولكن لأن مجتمعاتهم كانت ناضجة ومقدمة فقد استوعبتهم وحت عليهم وأولتهم الكثير من الرعاية والعناية.

يطبق زكريا إبراهيم على شخصية التوحيدى نظرية العالم السويسرى كارل يوج عن الشخصية المنظرية والشخصية المنبسطة؛ بوصفهما نموذجين ينقسم إليهما بنو البشر. ويؤكد بادئ ذى بدء أن التوحيدى ينتمى إلى نموذج الشخصية المنظرية. وبالطبع يجد فى تفاصيل شخصيته الكثير مما يندرج تحت هذا النموذج.

إلا أنني أرى أن التوحيدى عصى على الانضواء تحت مثل هذه التعريفات والنظريات التى تستداحتها، كما ثبت أن الإنسان أضخم وأغنى من أن نحشره قسراً فى تعريفات محددة وبطريات قاصرة. شخصية التوحيدى أعقد وأعمق. من هذه النظرية التى نرى فى فكر التوحيدى نفسه وعلمه عن النفس الإنسانية - خاصة فى كتاب (المقاسبات) - ما هو أعمق وأشمل من هذه النظرية وأكثر بياناً.

الرأى عندى أن التوحيدى إذا كان فى شخصيته ما يتوافق مع نموذج الشخصية المنطوية فعيها الكثير مما يتوافق مع نموذج الشخصية المبسطة.

انطواء التوحيدى كان إرادياً، يحمل معنى الرفض المبرر. ولعلنا لا نشط إذا اعتبرنا أن سلوكه وأفكاره وما يبدو أنه حماقة وتهور وعدم نضج انفعالى وعدم تكامل نفسى كل ذلك يؤكد أنه «موقف»، إذ من الواضح أنه يمارس كل هذا بوعى كامل، ويسجله على نفسه فى كتاباته.

التوحيدى عبارة عن موقف متشدد من كل ما يدينه بما فى ذلك معاييه هو نفسه، تلك التى يتكشفها فى (الإشارات الإلهية).

وأبدا لا نستطيع الاقتناع بأنه كان يلجأ إلى عالم الخيال والوهم ليستغرق فيه مرتداً عن الواقع. هذا قد ينطبق على شخصية رومانسية حاملة، أما هو فشخصية غارقة حتى أذنيها فى الواقع.

أما الفقرة التى يقدمها زكريا من كتاب (مثالب الوزيرين) ليدلل بها على انطوائية التوحيدى وأوهامه، وهى فقرة أثبتتها التوحيدى فى كتابه المذكور يصف بها ما دار على مائدة الصحاب ابن عباد، وفترة أخرى يصف فيها معاملة الصحاب له؛ فإنهما دليل على أن التوحيدى يترك نفسه للتلقائية المعبرة عن موقفه المباشر بالانفعال المباشر.

ما بين موهبة الفنان وموهبة المفكر فى شخصية واحدة يوجد هذا الإنسان العاجز أحياناً عن تفسير بعض البديهيّات.

والتوحيدى الذى تحدث كثيراً عن النفس البشرية حتى اعتبره الكثيرون أحد مؤسسى علم النفس قبل ظهوره مبلوراً فى الثقافة الأوربية الحديثة، والذى من الواضح أنه عرف الكثير عن حقائق النفس البشرية وما تبطنه من غوامض وأسرار، ما كان ليهرب إلى عالم الأوهام، كما يصفه زكريا إبراهيم. ورغم ما فى شخصيته من انبساطية، فإنه ضد هذه الشخصية التى يرسمها زكريا للانبساطى، ولم يكن ليقبالها من أجل أن يتناغم مع البيئة الخارجية ويشارك الآخرين من الناحية الوجدانية مشاركة عاطفية متزنة، أو من أجل أن يتكيف وجدانياً مع الأشخاص الذين كان عليه أن يطلب ودّهم. فهذه الصورة التى يرسمها زكريا إبراهيم للشخصية المبسطة هى صورة طبق الأصل من الشخصية الانتهازية، صاحبة الذكاء الاجتماعى، التى تمتلئ بها اليوم حياتنا العامة وحياتنا الثقافية بوجه خاص.

يقول زكريا إبراهيم:

«وحيثما كانت المواقف الجديدة تضطره إلى تغيير بعض تلك المبادئ، أو تخوير بعض تلك القوانين؛ فإنه لم يكن يجد فى نفسه من المرونة ما يستطيع معه القيام بمثل هذا التعديل».

حسن، تلك هى شخصية التوحيدى وتلك هى ميزته. فبهذه الخصيصه خسر الدنيا كلها وكسب نفسه.

الكتابة

تراجيديا التوحيدى

نص الخيبة والنور

واسينى الأعرج*

«أين يذهب بنا وعلى أى باب نخط رحالتنا؟»، (١)

هكذا صرخ التوحيدى منذ ألف سنة وهو جانس بنأمل مشهد الحرائق كبالبوذى وهى تلتهم صراخاته وكتبه وجسده. فهل غيرت الرحلة الفاصلة بيننا وبينه فيما هو جوهرى وقائم؟ هل امحت ملامح العصر البويهى من ذاكرتنا؟ هل تغيرت علاقة الفنان بمحيط يتهاوى بشكل متسارع ومخيف ومعه أحلام كثيرة كانت منارات لأجيال متعاقبة. أشياء كثيرة انكسرت وأخرى آتية وعقل يتوضأ بالدم والخوف.

أتساءل وأنا أعيد قراءة أعمال التوحيدى منذ أكثر من سنة، وأنا أضع اللمسات الأخيرة على الكتابة الأولى لروايتى (نص الإشارات): هل كتبت عن القرن العشرين وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة أم عن القرن العاشر الميلادى الذى لايزال فينا؟

تراجيديا التوحيدى، من هذا المنظور، ليست فردية ولكنها حالة وممارسة تمس البنيان الكلى للمجتمع والحصارة فى مواجهتها لأسئلتها المستعصية. يصبح التوحيدى حالتها الرمزية إذ لم يكن إنساناً عادياً. كان نموذجياً، ومثقفاً موسوعياً.

* جامعة باريس الثالثة/ السوربون، جامعة الجزائر المركزية.

«فيلسوفاً مع الفلاسفة، متكلماً مع المتكلمين ولغوياً مع اللغويين ومتصوفاً مع المتصوفين»^(٢).

ويصبح بأس التوحيدى ليس حالة من الإخفاق والفشل، ولكن صورة عميقة عن المجتمع المتخفى la société invisible فى دواخلنا. المجتمع الذى نجده وراءنا دائماً، نحبه لأننا نلوذ به أحياناً، ونخافه لأنه قيامتنا. مجتمع التراجيدى والصفاء الذهنى. عندما نخسر العقل، لامربع إلا دهشة الطفولة الأولى والبحث عن حميميتها الضائعة وملامسة الجرح الأسمى.

«هيهات. غامت سماء العلم وأظلم جو البيان وانكسر فقار الدين وتحطم عمود الشباب وقل نصير الأدب وتقوض بناء الخير وبلى ثوب المروءة وغارت عين الحياة ... لا باب للعرف إلا وهو مسدود ولا جرف للعقل إلا وهو منهار ولا جانب للفيض إلا وهو مثلم ولا ثغر للحكمة إلا وهو مستباح. فالمصيبة عامة وإن كان العزاء خاصاً والبلاء شاملاً»^(٣).

هل يمكن فهم تراجيدى الخيبة والأمل عند التوحيدى خارج هذا النسق؟

١ - تراجيدى الصورة.

تبدأ هذه التراجيدى من الصورة التى قدم بها النقد العربى جانباً من صورة التوحيدى، كاشفاً عن سلبية كبيرة على الصعيد الفردى والذاتى، وإن اعترف له بعلمه وسعة معرفته.

فهو حيناً رجل متسخ مستعد لفعل أى شئ من أجل التقرب من السلطان بمختلف درجاته من الأمير الحاكم إلى الوزير إلى ندماء الوزير.

وحياناً، رجل حقوق، يصفى حسابات ذاتية وشخصية ضد أناس لم يتل حظوة لديهم.

وحياناً رجل حسود، يشوه كل ما يلصقه وكل ما لا يسير وفق منطقته الذاتى.

وحياناً رجل محب للمال. كلما أكرم، طالب بالمزيد.

تراجيدى الوراق، الذى ظل رواقاً صغيراً حتى مات. ظل يحلم بأن يخترق المهنة، فاخترقه. ولم تدفع به النرجسية المفرطة إلا إلى مزيد من التآكل والخوف والانهيار.

يكاد النقد العربى من قديمه (ياقوت مثلاً) إلى حديثه (أحمد أمين مثلاً) يجمع على أغلب هذه الصفات، وفى أحيان كثيرة يبرزها كطباع مترسخة فى الكاتب وذات أهمية كبيرة فى قراءته، مستنداً فى ذلك على نصوص التوحيدى ذاتها.

هل يمكن أن يكون شخص إشكالى كالتوحيدى بهذه الصورة البسيطة؟ وهل فهم هذه التفاصيل الحياتية وبهذا الشكل بالذات يفيدنا فى التقرب من محنة التوحيدى التى تنطلق من طفولة منكسرة معذبة لم يعرف فيها لا أمّاً ولا زوجاً، ولا ابناً^(٤) ولا نديماً، وتنتهى عند حافة التسمين التى دفعته نحو أسئلته الأولى التى قفز عليها خوفاً أو على الأقل أجلاً، أى نحو النار التى أكلت مجهوده والماء الذى محا أحرفه. نار التطهر تصيح قاتلة وماء الحياة يصير نقياً للكتابة والسر.

إذا كان من الصعب محو هذه الصفات أو إنكارها، فإن مؤدياتها ليست كما قدمت على الأقل. فهي تؤكد الشخصية القلقة للفنان الذى لا يستقر على قرار، لكنه دائماً فى نهاية المطاف، ينتصر لما هو جوهرى فيه؛ صدقه. أعتقد أن ذلك يشكل مفتاحاً لفهم شخصية التوحيدى. وكل ما يحيط به لا يعمل إلا على تعميق هذه الحالة من الارتباك والقلق والخوف. فهو يواجه زمناً بوهياً قاسياً، زمن المكائد والقتل السهل. عصراً «مغيباً بالظلام»^(٥) كما يصفه الأستاذ أحمد أمين، وحكاماً لا يرتاحون إلا إذا أذلوا المتقرب إذلالاً كبيراً. يصف التوحيدى استقبال ابن عباد له فى (مشالب الوزيرين)^(٦):

«حين وصلت إليه قال أبو من؟ قلت أبو حيان. فقال: بلغنى أنك تتأذب! فقلت تأذب أهل الزمان. فقال: أبو حيان ينصرف أو لا ينصرف؟ فقلت: إن قبله مولانا لا ينصرف. فلما سمع هذا، تنمر وكأنه لم يعجبه... ثم قال: الزم دارنا وانسخ هذا الكتاب. فقلت أنا سامع مطيع. ثم أنى قلت لبعض الناس فى الدار مسترسلاً: إنما توجهت من العراق إلى هذا الباب، وزاحمت منتجى هذا الربيع لأنخلص من حرقة الشؤم. فإن الوراقة لم تكن ببغداد كاسدة».

رد فعل الفنان الطبيعى، الذى بنى أوهاماً وهو يتقرب من السلطان، ثم يكتشف فجأة أن ما كان يظنه جنة، لا يندو أن يكون مكاناً للجلافة وكشف العقد الكامنة والحسابات الصغيرة. كل تقرب فى مثل هذه الحال يقود صاحبه إما إلى الانتفاء والمحو والإذلال وإما إلى تحمل ما هو جوهرى فيه، أعنى حدسه الصادق ومواجهة الداء. وهذه هى مأساة التوحيدى، كلما ظن أنه فتح باباً لدى الآخر الحاكم، زاد انغمسه فى الهم والمطاردة. فهو رجل وجد ليكون ضد الصمت عندما يصمت الجميع. وهو يعرف مسبقاً - ضمن الشرط المعيش - ألا أحد قادر على إنصافه إلا هو. فيدافع عن نفسه دون خسران للحقيقة؛ إذ يقف عارياً أمام هذه الحقيقة الجارحة، محولاً كلامه إلى نقد ذاتى لا ذع قل ما رأيناه عند كاتب غيره:

«لقد اضطررت بينهم بعد الشهرة والمعرفة فى أوقات كثيرة إلى أكل الخضر فى الصحراء وإلى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة وإلى بيع الدين والروء، وإلى تعاطى الرياء بالسمعة والنفاق وإلى ما لا يحسن بالحر أن يرسمه بالقلم»^(٧).

الجوهرى فى التوحيدى أن يكون مع الموضوعية، أى نصيراً للعقل، حتى عندما تنقلب هذه «الآلة» ضده وتكشف عما يطنه أمام الناس، مقدماً سلاحاً آخر لهم. فالاعتماد على «لغة التوحيدى» المباشرة، لتكبيله وتحميله تبعات عصره بكامله لا يحل شيئاً مما غمض فى هذه الشخصية التى ظل العقل منارته حتى عندما اضطرت فى الكثير من الأحيان إلى سلك طريق الفقهاء، طريق التوفيقية الممضنة التى ليست إلا الوجه الآخر لآلة قمعية شملت القرن الرابع الهجرى والقرون التى تلت. حتى عندما تتاح له الفرصة لتصفية الحسابات القديمة، يقفز فوقها معطياً الفرصة لجنون الفنان ولتبصر العالم:

«جرى بينى وبين أبى على مسكويه شئ. قال لى أما ترى إلى خطأ صاحبنا وهو يعنى ابن العميد فى إعطائه فلاناً ألف دينار ضربة واحدة. لقد أضاع هذا المال الخطير فيمن لا يستحق! فقلت بعدما أطل الحديث وتقطع بالأسف: - أيها الشيخ. أسألك عن شئ واحد، فاصدق فإنى لا مدب للكذب بينى وبينك! لو غلط صاحبك فيك بهذا العطاء وبأضعافه وأضعاف أضعافه، أكنت تتخيله فى نفسك مخطئاً ومبذراً ومفسداً أو جاهلاً بحق

كل محيطه المأسوى، حتى الإيجابي منه، دفع به إلى اختراق حاجز التردد والخوف وخوض تجربة القول فى أقصى وأبهى معانيها وأعنفها والتلفظ جهراً بالمسكوت عنه، والاندفاع أكثر فى عمق الأشياء والتفاصيل الفكرية اليومية كانشغاله بفلسفة الوجود والعقل والقوة واللغة والإنسان، وتركيزه أكثر على الأسئلة المخرجة التى لا تقود دائماً إلى إجابات يقبلها مجتمع غارق ضمن نزعة لاهوتية خارجة عن كل معرفة ونبصر. مما حدا به إلى العيش مغترباً بين ذويه وداخل جو مشحون بالضغائن والدسائس ومسير بالمال والنميمة. نارة يلبس القناع العام، ويدخل المجتمع بأسلحة القرن الرابع الهجرى، فيتعاطى الرياء بالسمعة والنفاق^(٩)، وفى أغلب الأحيان ينتصر عقل المثقف التنويرى، فيزيل القناع ويلعن اللعبة من أساسها ويصرح جهاراً بكل ما خبأه فى قلبه وما اختزنه فى ذاكرته، بكل ما لم يقله إما خوفاً أو حفاظاً على منصبه. وبطل العقل فى كل الأحوال آلهة الحاضرة وليس أى عقل، ولكن ذلك الذى يتغير ويغير بعلمه ومعرفته:

«إن العلم - أحاطك الله - يراد للعمل، كما أن العمل يراد للنجاة. فإذا كان العمل قاصراً عن العلم كان العلم كلاً على العالم. وأنا أعوذ بالله من علم عاد كلاً وأورث ذلاً وصار فى رقة صاحبه غلاً»^(١٠).

هذا العقل الذى يقبل التعدد ويتنقد النموذج والمطلق الذى لا وجود له إلا فى أذهان أصحابه الذين يفصلون العالم والمصالح على مقاساتهم الخاصة. تعددية الرأى وأحقية الإنسان فى اختيار الطريق الذى يراه الأسلم والأفضل له، نابعة من ثوابت التوحيدى. ينطلق من ذاتيته التى يريد لها حرة، حتى عندما يقمعها تمرد عليه وينتهى إلى الذات العامة التى من حقها أن تبحث عن مسالكها من خلال خبرتها. أليس هذا دعوة إلى التمرد والتأمل، تتجاوز حالة الذاتية التبسيطية. رداً على سؤال معرج ودقيق ومفكر فيه بعمق، حول «إمكانية تنقل الإنسان من بين المذاهب دون الاستقرار والثبات» بعيداً عن الدوجماتى والجهاز، يجيب مسكويه ضمن المسار نفسه الذى تبطنه السؤال:

«لو كانت الإقناعات ومراتبها متساوية فى جميع الآراء لما أنكرت ما ذكرته ولكن وجدت مراتب الأدلة والإقناعات فيها متفاوتة. فمنها ما يسمى يقينا ومنها ما يسمى دليلاً وقياساً إقناعياً، بحسب مقدمات ذلك القياس ومنها ما يسمى ظناً وتخيلاً وما أشبه ذلك. فأنكرت أن تستوى الأحوال فى الآراء مع تفاوت القياسات الموضوعية فيها»^(١١).

هذا المسار العقلانى حكم حتى بنية نصوصه الموسوعية التى تبدو دون نظام ولكنها محكومة بنظام الكتاب ومادته المقترحة؛ فالعقل والبرهان ماثلان، وتبنى الأسئلة الصعبة والمنوعة خاصة من خاصيات التوحيدى. فى (البصائر والذخائر)^(١٢) الأنطولوجى يحدد أغلب متونه الأساسية التى ينبج على أساسها مؤلفه الموسوعى: كتب الجاحظ، (النوادر) لابن زياد الأعرابى، (الكامل) لابن يزيد الشمالى، (العيون) لابن قتيبة، (الأوراق) للصولى، (الوزراء) لابن عبدوس و (الجوابات) لقدامة. وفى (الهوامل والشوامل) تنشطى الأسئلة المخرجة من سؤال مركزى لتصبح شبكة معقدة لا تحلها إلا الحوارية المتكافئة فى الصوغ وفى الإجابة بينه وبين مسكويه، كأنى أمام الغيطانى وهو يساجل نجيب محفوظ مثلاً. وهكذا ببقية الكتب التى يفرض كل واحد منها علينا تأملاً منهجياً خاصاً ضمن خاصية عقلانية يعطيها التوحيدى كل جهده وفكره وهو يعرف مسبقاً أن الاشتغال بالعقل فى عصر كعصره، ليس أمراً هيناً. يفتح قبر صاحبه قبل أن يلفظ بكلماته الأولى. فالعقل:

«نوره أسطع من نور الشمس ... التكليف تابعه، والذم والحمد قريناه والثواب والعقاب ميراثه» (١٣).

والعقل عند التوحيدى، هو ثمرة الجهد الكلى الذى تشترك فيه المثاقفة مع فعل الإنجاز. يأخذ عن سقراط وهوميروس وأفلاطون وديمقريطس، وفيثاغورس، مثلما يأخذ عن مسكويه، وعن أبى سليمان بن محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني وعن أبى بشر بن متى والسيرافى والرماني وغيرهم. فلا بدبل آخر عن العلم بمعناه الإنسانى الشمولى؛ إذ لا خصلة فى الدنيا كما يقول أبو القاسم عيسى بن على بن عيسى «يحسن الإنسان فيها إلى نفسه ويحمد عليها إلا العلم» (١٤)، دون أن يعيد إنتاج المعرفة السابقة بشكل سلبى. كتابة التقاطع والتناص، بعلامات غريبة، وبإبداعية ذاتية خلاقة. من هذا المنظور، فالتوحيدى كان حدائياً من حيث إنه أغنى العقل العربى بأسئلته وإحراجاته التى لم تجد دائماً أجوبتها الصحيحة، ولكنها على الأقل امتلكت جرأة التناؤل فى قضايا محرم الخوض فيها. وإذا لم يستطع أن يتخطى عقبة الدينى ومحرمات الفقيه، فقد كان فى خفاء ما يعمل على تدمير اليقينيات والمطلقات ويضع المعرفة مثار أسئلة وسجاليات مختلفة، رغم ما يديه من تخوفات الخوض فيما هو حساس وصعب:

«فى هذا الخلق غيب لا يعرف مآبه ولا يفتح بابه ولا يقع القياس عليه ولا يهتدى الإحساس إليه. ومن أجله سقط الاعتراض ووجب التسليم والانقياد. وأدع هذا فهو سلم طويل وفضاء عريض» (١٥).

«وفى السكوت أبناك الله، أمان من هذا كله، وليس القلم كاللسان ولا الخط كالبيان ولا ما يذهب مع الأنفاس كما يبقى وسمه بين الناس» (١٦).

وفى هذا التداخل بين عقليات ثلاث متباعدة: عقلية العالم الباحث، عقلية الفقيه الخائف من الزلل وعقلية المبدع الذى لا يجد لجنونه أى لحريته يكمن جزء آخر من مأسوية التوحيدى، الذى كلما حاول أن يوفق بين ما لا توفيق بينه وجد نفسه ضحية إطلاقيته الإبداعية التى لا تضبطها إلا الرغبة الكامنة للوفاء لكل ما هو جوهرى فى الإنسان. تعرف هذا التقاطب الثلاثى الذى يشكل الإبداع دائرته المركزية:

○ صرامة العقلانية // صرامة الفقيه.

○ صرامة العقلانى والفقيه // جنون المبدع وحرته.

قادر على إرشادنا نحو معرفة أعمق بشخصية التوحيدى، وقيمتها الحضارية والإنسانية. التوحيدى لم يكن مؤهلاً للدخول ضمن النسق المهيمن: المثقف الذى يعيد إنتاج كلام السلطان والفقيه المختبى تحت جلبابه. فهو نفسه، من حيث تكوينه صورة للتعددية والاختلاف الذى هو حالة ثابتة وليست استثنائية، مما دفع بالكثير من «ناس الحواشى» إلى اتهامه بالإلحاد والكفر. وأتعجب أحياناً كيف استطاع الخروج من محنة سقط عند عتبتها الكثيرون وأحرق آخرون.

يقول أحمد بن فارس (١٧):

«كان أبو حيان قليل الدين والورع عن القذف والمجاهرة بالبهتان. تعرض لأمر جسام من القذح فى الشريعة والقول بالتعطيل. لقد وقف سيدنا صاحب كافى الكفاة على بعض ما

كان يدخله ويخفيه من سوء الاعتقاد، فطلبه ليقته، فهرب، والتجأ إلى أعدائه ونفق عليهم بزخرفه وإفكه ثم عثروا منه على قبيح دخلته وسوء عقيدته وما يطنه من الإلحاد وبرومه فى الإسلام من الفساد وما يلصقه بأعلام الصحابة من القبايح ويضفيه إلى السلف الصالح من الفضائح فطلبه الوزير المهلبى، فاستتر منه ومات (؟) فى الاستتار، وأراح الله منه ولم يؤثر عنه إلا مثلبة أو محزبة.

ويقول الحافظ الذهبي: «كان عدو الله خبيثاً وكان سئ الاعتقاد» أما أبو الفرج بن الجوزى فيقول فى تاريخه: «زنادقة الإسلام ثلاثة: ابن الراوندى وأبو حيان التوحيدى وأبو العلاء المعرى. قال: وأشدّهم على الإسلام أبو حيان لأنه مجمم ولم يصرح».

فحرية القول فى كتابات أبى حيان التوحيدى هى مغامرة أخرى تذهب بالكتابة إلى مداها الخطير الذى يتجاوز حاجز الخطاب المهيمن وحاجز النموذجية التى خطت واستقرت عليها الأفلام وفعل الكتابة، من حيث هو فعل ترديد لموجود سابق، بحدود وحواجز يصعب تخطيها. وهو ما حدا بأحمد أمين إلى القول:

«ولكن يؤخذ عليه أننا من حين لآخر نرى فيه فحشاً لا يتفق مع الجلال والوقار ... ونحن نستضعفها اليوم لأن أسلوبنا فى الحياة وفى التأليف الإيماء البعيد لا القول الصريح، والهمس فى السر لا القول فى الجهر» (١٨).

القصد ليس فقط التلية، تلية القارئ بعد الشعر والفلسفة، ولكن الذهاب بعيداً لاكتشاف المجتمع المتخفى فى دواخلنا، الذى نهتز تشنجاً عندما نسمعه ونجده فى لحظات الحميمية الخاصة. والكتابة هى هذه اللحظة الحميمية عند التوحيدى، حيث تتعزى اللغة وتتجاوز حواجزها وموانعها. ونقول ما يقال وما لا يقال. من هنا خطورتها ومأسوتها بحيث تنطلق من مشروعية التعبير لتتحول إلى تهمة أخرى تنضاف إلى سجل التهم المتراسة ضده. فتفسيها يجعل المعرفة ناقصة ومندرجة ضمن المنظومة السائدة، والتوحيدى كان مبدعاً قبل أن يكون أى شئ آخر. وحاسة المبدع نحو اللغة ومنظوماتها قوية. لا خطاب إلا بها، والأخلاقي السائد ليس هاجسها المركزى:

«إياك أن تعاف سماع هذه الأشياء المضروبة بالهزل، الجارية على السخف، فإنك لو أضربت عنها جملة، لنقص فهمك وتبلد طبعك ولا يفتق العقل شئ كتصفح أمور الدنيا ومعرفة خيرها وشرها وعلايتها وشرها» (١٩).

أسلوب السخرية، واسطة ومتكأ لكشف ما يختفى تحت القشرة اللامعة للناس وللنظم، للأفراد والجماعات. من خلال هذه السخرية عرفنا الكثير من النماذج الذين يتخبأون وراء الدين والمعرفة والفلسفة واللغة. فهو يكشف عن زيف مؤسسة بكاملها؛ اقتحمها تقريباً، فخرج منها ناقماً، متخلياً عن الأقعة التى اضطر إلى لبسها ارتضاء لمحبة الآخرين. ولكن صدق حدس الفنان أو حاسته الموهبة أبعدته عن هذه التفاصيل التى لم يخلق لها ولم تخلق له. وسخريته من الدقة؛ بحيث تدفع بنا - بعد ألف سنة - إلى التساؤل؛ إذا لم يكن يقصد عصرنا؟

«أتى عتاب بن ررقاء بخوارج فيهم امرأة فقال: يا عدوة الله، ما دعاك إلى الخروج؟ أما سمعت قول الله عز وجل: كتب القتل والقتال علينا * وعلى الغايات جر الذبول (٢٠) فقالت: يا عدو الله، إنما أخرجني حسن معرفتك بكتاب الله» (٢١).

وقصة ابن ثوبان (٢٢) مع المهندس والهندسة التي تحولت بين يديه إلى ضرب من ضروب السحر، تحمل الكثير من الدلالات العميقة عن حكام القرن الرابع الهجري الواقعيين بين سحرية مظهر السلطان وخرابه المعرفى الداخلى، ولا يختلف فى ذلك عن أى شخص بسيط يسكن أطراف الصحراء، من حيث المعرفة، وأقل منه طبعاً عفوية وصدقاً.

«قال لى غير متعظم: إن هذا الخط طول بلا عرض. فتذكرت صراط ربى المستقيم وقلت له: قاتلك الله أتدرى ما تقول؟ تعالى صراط ربى المستقيم عن تخطيطك وتشبيهك وتحريفك وتضليلك... أتطمح أن ترحزنى عن صراط ربى وحسبتي غرا غبيا لا أعلم ما فى باطن ألفاظك ومكنون معانيك. والله ما خططت الخط وأخبرت أنه طول بلا عرض إلا مثله بالصراط المستقيم لتزل قدمى عنه وأن تردىنى فى جهنم. أعوذ بالله وأبرأ إليه من الهندسة وما تدل عليه وترشد إليه. إني يرى من الهندسة وما تعلنون وتسرون» (٢٣).

وهناك نصوص متعددة تيسر على هذا الشكل من الكتابة التى تضع الأشياء فى أماكنها الحقيقية بعد أن نزيل عنها كل الفشوات الإيهامية. والتوحيدى بهذا، لا يزرع الدعاية فقط بين السطور، ولكنه يهدم بهدوء قدسية السلطان وقدسية النظام الذى يتحرك داخله، وهو نظام لا تحكمه المعرفة والفكر والعقل، ولكنه ينشأ ويحافظ على ديمومته من خلال إنتاج وإعادة إنتاج خطابات الزيف المتوالية التى تفسح عن كل شئ إلا عن جوهرها. وهو ما كلفه الخوف، والمنفى والتخيؤ، هرباً من بطش الذين لا يفرقون بين خط مستقيم، وصراط مستقيم. وأغلب الظن أنه هو (التوحيدى) الذى أشاع خبر موته بعدما طلبه صاحب ابن عباد لقتله والوزير المهلبى، درأ لهذا الشر؛ إذ إن ابن فارس يقول عنه إنه مات فى الاستتار.

فالتشرد وعزلة الخوف، وخسران المحيط الزائف هى التى دفعت به إلى كتابة نصه التراجيدى (الإشارات الإلهية) بحيث يبدو كل شئ منكسراً، وداخل الحطام يبحث عن صرخة عميقة، أو عن بؤرة نور صغيرة يتسرب منها شعاع الذهول والدهشة. لا أعتقد أنه كتب لصديق سوى لنفسه التى يحاول أن يصدقها وهو يتأملها فى المرأة بعد رحلة تجاوزت السبعين سنة، ملامساً لصمتها وصراخها، لعقلها وحدها، خوفها وشجاعته، بشكل هادئ قل ما رأيناه عند التوحيدى، وضمن لغة تتجاوز مسمياتها ومعانيها الأليفة، قادرة على التعبير عن اليأس الكبير، والخسارات الفادحة. لغة لا نقول ذاتها إلا لتجاوزها وتنخطأها بألم وحينئذ. لغة الفنان حينما تنقلب أبواب الدنيا حوله ولا يجد وطناً سوى اللغة كمنفى يثق به ويوح له بسره. مزيج من الخوف والحب والحنين والموت القريب والبحث عن سبل الحياة، وفق منطق آخر ومجرى مخالف. فالأنا تتعدد وتصير آخراً ثم آخرين، تارة حكيمة واضحة، وتارة صوفية دون منتهى. هو يتكلم، وهو الآخر الذى يسمع إلى صوت صاف يصادفه للمرة الأولى. خسر كل شئ وريح كل شئ. نص (الإشارات)، بهذا المعنى، هو عودة إلى الذاتية المقموعة وتسريحها لتقول ما تريد قوله، وبوسيلة تحمل العمق نفسه والكسر نفسه. فالمرأة لا تعكس فقط ولكنها تتكلم بأبعد ما يقوله المصدر. تنطق بالإشارة التى

ترفض أن تحولها إلى عبارة لأنها عندما تصير كذلك تختفى. تتحدث عن كل شيء، لا من موقع السالب ولكن من موقع التأمل الذى يحافظ على عمق كل ما هو جوهرى فى هذا الوجود، ولا يأبه كثيراً بالزائل المتحول:

«يا لسان الوقت، وواحد هذا الورى وعين الزمان: اسمع حديثى عن شوق إليك لاهب، ووجد به غالب وعين نحوك رانية ونفس فى يدك عانية ... وحال إذا قام خطيبها بشرحها فضح وافتضح، ووديعه إن طلبها صاحبها جرح واجترح ورأى كلما صفى كدر، وكلما عرف نكر، وأمر فى الجملة لا ينأى وليده وسر فى التفصيل لا تنأى وفوده» (٢٤).

«هذا وصف غريب نأى عن وطن بنى بالماء والطين ...

يا هذا الغريب فى الجملة من كله حرقه وبعضه فرقة وليله أسف ونهارة لهف وغذاؤه حزن وعشاؤه شجن ورؤاه ظنن وجميعه فتن، ومفرقه محن وسره علن وخوفه وطن» (٢٥).

«أيها صاحب المستأنس بهذا الفن، المسافر إلى هذا الوطن، الساكن فى هذا الموطن، المستخبر عما ظهر فيه ووطن. الكاره لأن يقال فيه نوههم وطن، المعجب بأن يسمع فيه حقق واستيقن: هل شهدت حالا نقلك عن الزمان والمكان اللذين يتقرب منهما كل إنس وجان؟ هل ورد عليك ما محاك عنك وسلبك منك وتركتك بلا أوان تجده واسطة فيما أنت مجبور به، محيا فيه، محوى عليه» (٢٦).

لقد تمرن التوحيدى أكثر من سبعين سنة ليكتب (الإشارات الإلهية).

وصرخ تسعين سنة ليحرق فى النهاية كتبه ويمحو بالماء ما تبقى منها.

وعملية الحرق والمحو، هى أهم ثالث حدث فى حياة التوحيدى، بعد عزلة المنفى والخوف، ونص (الإشارات الإلهية). فقد تم ذلك كله ضمن شرطية لإنسانية، معادية للاختلاف والمعرفة والنبوغ والإبداعية، وزمن «تدمع له العين حزناً وأسى ويتقطع عليه القلب غيضاً وجوى وضنى وشجن» (٢٧).

هل هو حرق غضب وعجز فردى، أم حالة تسم العصر وتدينه؟ فقد جاء بعد حالة تأملية يائسة وحالة صوفية خسرت كل شيء إلا لغتها وإشاراتنا المثقلة بالأسرار.

فعل يشابه من حيث جوهره فعل الانتحار، إن لم يكن هو الانتحار الأعمق بعينه، واستمرارية فى التدرجية الصوفية التى تقود إلى التلاشى فيما هو مطلق. ورغبة محمومة فى العودة إلى طفولة الأشياء الأولى لبدء رحلة أخرى مدفونة فى عمق الإشارات.

الحرق والمحو أداة التوحيدى المتبقية ليثبت حريته وقدرته فى مواجهة الاستبداد والخوف والقدرة على التقاض مع مستقبل غامض. هزم الآخرين من حيث كان يريد تفادى ظلمهم. ابتغى المحو والموت؛ إذ إن الحرق معناه حرق الذاكرة من اسم اسمه التوحيدى، لكن عمق التراجمية التى لا تقبل بمصير غير الذى تخطه، جعلت التوحيدى يخرج من رماده كطائر الفينيق ويصل بالضرورة إلى عمق اللغة. فالإنسان الذى ضيع الأثر ويضيع محيطه وهو الآن بصدد خسران جسده ماذا يبقى له من غير اللغة؟ ماذا تريدون ياسيدى!

إنها الكلمات، هكذا أجاب صامويل بيكيت سائله. الإنسان تفتقره اللغة ولا يستطيع محاربتها إلا بذاتها أى باللغة (٢٨). اللغة أنقذت التوحيدى من الانتحار ولكنها قادتة نحو التطهر بالنار والماء، نحو تراجيديا هى فى نهاية المطاف مآل الفنان الذى بقدر ما يحاول تخاشيها، يؤكد أكثر مصيره الحتمى، المصير الذى يهدم اليقينيات والمقدسات بما فى ذلك جسد الفنان نفسه.

أتساءل إذا كان حقيقة قد تحدث التوحيدى عن القرن العاشر ولم يتحدث عن القرن العشرين، وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة. ففي عصر الكمبيوتر والانترنت، والهوائيات، والسوبر سونيك والسيدى روم (C. d. Room)، وفى بلداننا الغائبة عن عصرها، صار بإمكان أى رجل لم يقرأ حرفاً واحداً مما كتبت أن يكفرك أو ينفيك أو يقتلك. الذى أمر بقتل الروائى الطاهر جاووت، كان مصلح سيارات والذى نفذ عملية الاغتيال كان يباع حلوى متجول. عندما سئل هل يعرف ما كتبه جاووت. قال قيل لى إنه كافر، وإن لغته تسحر المسلمين وتبعدهم عن دينهم. والذى اغتال المسرحى الكبير عبد القادر علولة فشل فى دراسته فاشتغل مهرباً، لم يعرف من علولة إلا صورته التى زوده بها القتل، وتفاصيل خروجه ودخوله والتهمة التى كتبها قبل عشرة قرون أبو الحسن أحمد بن فارس.

ينتابنى الإحساس العميق أن التوحيدى لم يمت ولكنه اغتيل على يد خضار لم يقرأ له حرفاً واحداً مما كتب.

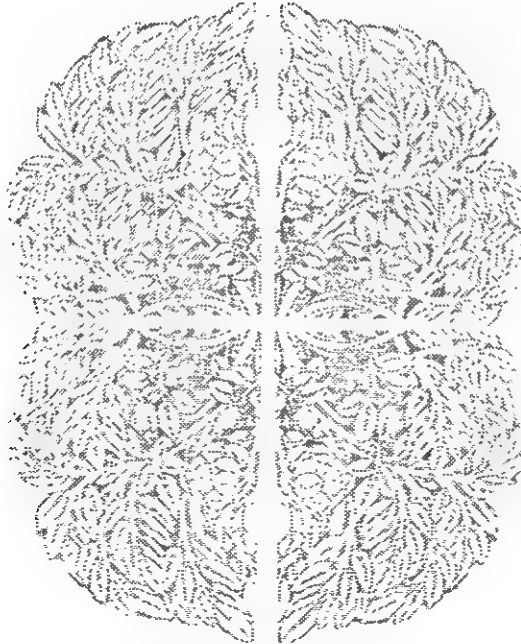
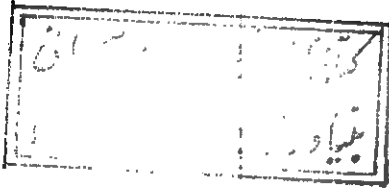
هل كان محققاً عندما أحرق التوحيدى كتبه وصرخ مثلما فعل قبله سفيان الثوري وهو يمزق نصوص ألف جزء ويطيرها فى الريح:

«ليت يدي قطعت من ها هنا. بل من ها هنا ولم أكتب حرفاً» (٢٩).

الهوامش

- (١) من رسالة التوحيدى إلى القاضى أبى سهل على بن محمد بعد حرق كتبه.
- (٢) من مقدمة أحمد أمين لكتاب أبى حيان التوحيدى: الهوامل والشوامل. مطبعة لجنة التأليف الفاهرة ١٩٥١، ص ٩.
- (٣) رسائل أبى حيان التوحيدى. تحقيق: إبراهيم الكيلانى. المعهد الفرنسى بدمشق للدراسات العربية، دمشق ١٩٥١، ص ٥٣.
- (٤) إبراهيم زكريا: أبو حيان التوحيدى، ص ١٨ - ١٩.
- (٥) من مقدمة الإمتاع والمؤانسة. منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ص ف.
- (٦) مطالب الوزيرين (أخلاق الوزيرين).
- (٧) من رسالة التوحيدى الموجهة إلى القاضى أبو سهل على بن محمد. وكان ذلك سنة ٤٠٠ هـ.
- (٨) مطالب الوزيرين.
- (٩) رسالة التوحيدى إلى القاضى أبى سهل على بن محمد، بعد حرقه كتبه ومحوه لها.
- (١٠) المصدر نفسه.
- (١١) الهوامل والشوامل. (محاورة مع مسكوبه) تحقيق: أحمد أمين وأحمد صقر. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥١، ص ٣٦٨.
- (١٢) الصائر والذخائر. تحقيق: أحمد أمين وأحمد صقر. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ط ١، ص ٦.
- (١٣) المصدر نفسه، ص ٨.

- (١٤) التوحيدى، المقابسات. تحقيق وتقديم: حسن السندوى. المطبعة الرحمانية بمصر. القاهرة. ط ١، ١٩٤٩، ص ٣٤٨.
- (١٥) التوحيدى، المقابسات. ص ١١٧.
- (١٦) المصدر نفسه، ص ١١٨.
- (١٧) لغوى وفيلسوف، ت. ٣٩٠.
- (١٨) من مقدمة البصائر والذخائر. ص ٥.
- (١٩) البصائر والذخائر، ص ٤٩.
- (٢٠) البيت الشعرى لعمر بن أبى ربيعة.
- (٢١) البصائر والذخائر، ص ١١٨.
- (٢٢) أحد كتاب الدولة العباسية. والقصة موجودة بكاملها فى المقابسات. تحقيق: حسن السندوى، ص ٦١.
- (٢٣) المقابسات ص ٦٦.
- (٢٤) أبو حيان التوحيدى. الإشارات الإلهية، تحقيق: وداد القاضى. دار الثقافة، بيروت، ص ٧٣.
- (٢٥) الإشارات، ص ٨١ - ٨٤.
- (٢٦) الإشارات، ص ٣٦٤ - ٣٦٥.
- (٢٧) رسالة التوحيدى الموجهة إلى القاضى على بن محمد، بعدما أحرق كتبه.
- (٢٨) Jean - Marie Domenach, Le Retour du Tragique. Seuil, Paris 1967. p. 267.
- (٢٩) رسالة التوحيدى إلى القاضى على بن محمد.



رسالة إلى أبي حيان التوحيدى

شعر، أبو همام
عبد اللطيف عبد الحليم*

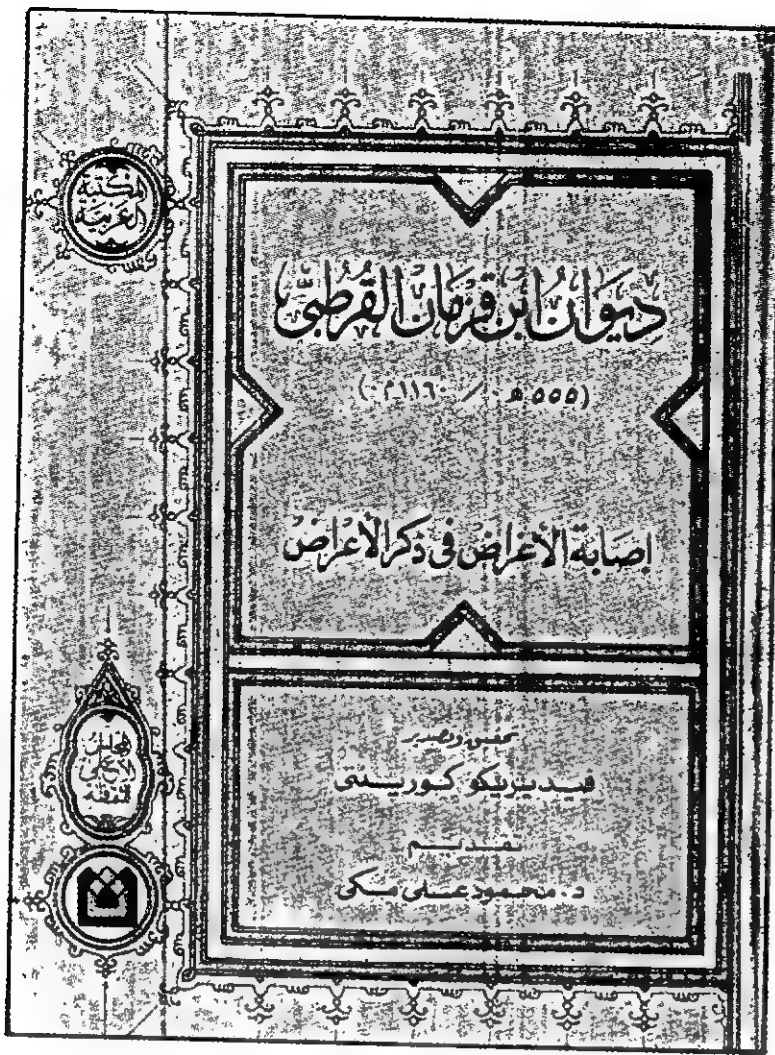
احتفلى؛ ما الرماد يحتفل يا جذوة فى الخمود تشتعل
أضحت نلذ الرقاد، والألم الضارع، يغشى عروقها الكسل
يطفئها الوهى، والرخاوة، والأمن، تمطى بعمقها الرجل
تخثرت فى الدماء دفقتها، واحترمتها الأوصاب والعلل
انتفضى يا رياح، واحتفلى، أفراس نار، بالجمر تكتحل
تحتصد الموت، والضراعة، والخوف عتيا، والعجز تعتقل
تعتصر السحب والنجوم، تشد الشمس، تعنو لجذبها الخصل
تهزم فيها الرعود، يسرجها البرق، تجن الغيوث نهمل
تشق صمت الأجداد، تبتعث الموتى، تخور الأكفان تشتعل
احتفلى؛ فالعروق يعمفها، أن دماء الحياة تحتفل

* أستاذ الأدب الأندلسى، كلية دار العلوم، القاهرة.

وأن نار الرجولة انتفضت، وغادتها الشكاة والملل
وأن سوق الزبوف كاسدة، وكل نكر إذا خلا بطل
وأن شوق الحروف تسكره قافية، نبض وقعها ثمل
وأننا نحفل الحياة، نعاف الموت، نخشى الهمود يسدل

معذرة صاحبي، إذا سكنت فينا الدواعي، وأبطأ الرسل
باصحابي التوحيدي، أسألك الغفران، ضاقت بذنبنا الحيل
أخت علينا القرون، واستمر البغات فينا، واستنق الجمل
وانخني الصائجون، وانثقب الفحول منا، واستأث الرجل
وغام معنى الكلام، يحسبه السامع معنى، وأفصح الفسل
وأصبح التوحيدي، صورته تنكر منا الوجوه، تمتثل
تدابير المعلوات، تدفعها، ترتع فيها الملامح الذلل
وأنت بين الزحام، يشرق في الجبين حزن، يشوبه جذل
تنهب كأس الحياة فارغة، وكل جود بخمرها بخل
وتخني القرن شاكيا، تل الصخور ماء، وفيضها ونل
تخادن الشكو، والخصاصة، والمال على طول نأيه زحل
تأنس للزهد، والتصوف، والسكون بالعارفين تنتصل
تغازل الموت، والفناء مع المحبوب، تهفو بشوقك المقل
تمل تلك الوجوه شائثة، ليت زمانا قد طال تختل
أو ليته أسلس اليسار، وقد أيسر فيه الأصنام والعطل
أو ليته أبطأت مناحسه، تنسد فيه الركاب والسبل
أو ليته قد أعطاء صاحبة، يضي منها الشعور والغزل
أو ليته أسلس الصديق، أو استقام منه الوفاء والأمل
أو ليته تملأ الطروس مدى حياته، أو يزوره الأجل
أو ليته صابر الحياة، وقد أرخى لها في زمامها طول
أو ليت لم يحترق بأحرفه، حين طواه السقام والملل

معذرة صاحبي، إذا جمحت بي الأمانى، وشدنى العذل
عصر ككاب، وأنت مغترب، والوزراء الخصيان قد وصلوا
والصدق نار، تظل تشعلها، تحرق زيف التطبيع، تختمل
ترفض طعم السكوت، تلفظه، ينطق فيك البيان، يقتل
على الوزيرين ساخطا، تثب الحروف جمرا، شواظها هطل
تصد طيف الخذلان، تمقته، تنزو بفيك الألفاظ، تنفعل
تخاف موت الحياة، يتنفخ الباطل فيها، يسيطر الزغل
وجهك خلف القرون، ترمقه منا عيون، بالصمت نكتحل
تود أن تدرك «البيان»، ولو يرحل خلف الممات، ترحل
يا صاحبي التوحيدى، عصر ك قد نعيشه، والظلال تنتقل
نحرق فيه الطروس، نحرقنا، وليتنا بالطروس نشعل



ندوة



ندوة ديوان ابن قزمان

أعدها للنشر
على علفى

المشاركون :

- جابر عصفور : أستاذ النقد الأدبي، كلية الآداب، جامعة القاهرة.
- الطاهر مكي : أستاذ الأدب المقارن، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة.
- محمود على مكي : أستاذ الأدب الأندلسي، كلية الآداب، جامعة القاهرة،
عضو مجمع اللغة العربية.
- فيديريكو كورينتي : مستشرق، أستاذ بجامعة سرقسطة، إسبانيا.
- فرحان صالح : رئيس تحرير مجلة «الحدائق»، بيروت.
- عبد الحميد شيحة : أستاذ الأدب الأندلسي، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة.
- أحمد درويش : أستاذ الأدب المقارن، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة.
- عبد الرحمن الأبنودي : شاعر، مصرى.
- محمود السيد : أستاذ الأدب الأندلسي، كلية الآداب، جامعة القاهرة.
- عونى عبد الرؤوف : أستاذ اللغويات العربية، كلية الألسن، القاهرة.

تقديم : محمود على مكى

كان

من أهم الأحداث فى عالم النشر خلال سنة ١٩٩٥ صدور ديوان ابن قزمان القرطبي، كبير زجالي الأندلس، فى طبعة محررة أنيقة ضمن مشروع «المكتبة العربية» التى يقوم بإصدارها المجلس الأعلى للثقافة. وأثار الديوان منذ خروجه إلى النور اهتماما كبيرا فى أوساط الأدباء والنقاد فى مصر، وكان من مظاهر ذلك أن وقع الاختيار عليه فى معرض الكتاب الأخير بصفته أحسن ما صدر من كتب فى مجال تحقيق التراث. وتمثل تكريم الكتاب فى الاحتفال الكبير الذى أقيم فى مكتبة القاهرة الكبرى، والذي قام فيه السيد رئيس الجمهورية بنفسه بتسليم الشهادة الخاصة بذلك ضمن الكتب التى تم اختيارها باعتبارها أفضل ماصدر خلال سنة ١٩٩٥ فى مختلف المجالات المعرفية.

وعلى أثر ذلك قرر المجلس الأعلى للثقافة - ممثلا فى لجنة الدراسات اللغوية والأدبية - تنظيم ندوة لتقديم الكتاب إلى جمهور المثقفين المصريين، فاستدعى الأستاذ فيديريكو كورينتى محقق الديوان من إسبانيا، وتم عقد الندوة المذكورة يوم ١٩٩٦/٣/٦ بحضور الدكتور جابر عصفور الأمين العام للمجلس والدكتور الطاهر أحمد مكى مقرر لجنة الدراسات اللغوية والأدبية والدكتور محمود على مكى الذى قام بتقديم النص المطبوع للديوان.

وبدأت الندوة بحديث لمحقق الديوان المستشرق الإسباني فيديريكو كورينتى حول الجهود التى بذلت لإخراج هذا الديوان منذ اكتشافه فى أواخر القرن الماضى وطبعته الأولى التى كانت تصويرا فوتوغرافيا لمخطوطته الوحيدة فى سنة ١٨٩٦. وتطرق الحديث إلى الزجل الأندلسى ونشأته وما يمثله فى تاريخ الفن الشعرى العربى، وإلى شخصية ابن قزمان صاحب الديوان والموضوعات التى تناولها وعروض الزجل وصلته بالموشحة وإلى لغة الزجل القزمانى التى تعد وثيقة نادرة للغة الكلام الملحونة فى الأندلس، وإن كانت على مستوى فنى رفيع يعلو على لغة التخاطب العادى. ودار بعد ذلك حوار ممتع بين محقق الديوان وزملائه الجالسين معه على المنصة وعدد من الأدباء والنقاد الحاضرين، حول عدد من القضايا الفكرية والفنية واللغوية التى فجرها نشر الديوان بحروف عربية لأول مرة، وذلك لأن الديوان قد عرف من قبل فى عالم الاستشراق الأوروبى فى طبعتين سابقتين، إلا أنه نشر فى كليتهما بحروف لاتينية مما جعلهما بعيدتين عن متناول القارئ العربى. أما الأولى فكانت طبعة المستشرق التشيكي أ. ر. نيكل فى مدريد سنة ١٩٣٣، والثانية كانت طبعة المستشرق الإسباني إميليو غرسية غومس فى مدريد أيضا سنة ١٩٧٢. وكان المستشرقين الجليلين على فضلهما وجهودهما المشكورة فى نشر الديوان ودراسته كانا يريان أنه ينتمى إلى التراث الأدبى الأوروبى بسبب لغته الملحونة التى تختلط فيها عامية أهل الأندلس باللاتينية الدارجة وهى أصل اللغة الإسبانية الحالية. أما فيديريكو كورينتى، فقد رأى أن الديوان جزء من تراثنا الأدبى العربى، وأنه ينبغى أن يرد إلى أهله، فيُنشر بالحروف العربية حتى يشترك مؤرخو الأدب العربى ونقاده فى دراسته ويحث مايثيره من قضايا، لاسيما وأن الزجل الأندلسى كان أول أدب يكتب فى العربية بلغة ملحونة، وكان بذلك منطلقا لما نظم فى سائر أقطار العالم العربى من شعر ملحون أو مايعرف باسم «شعر العامية».

وتشعب الحوار بعد ذلك إلى مسالك عدة وإلى إثارة قضايا على جانب كبير من الخطر، منها الصلة بين الفنين اللذين كان للأندلسيين فضل ابتكارهما، وهما الموشحة والزجل، وما كان من هذين الفنين أسبق فى الظهور، فقد درج الباحثون سواء من العرب أو المستشرقين على عد الموشحة هى السابقة، وكان تصورهم لذلك مبنيًا على أن الموشحة

كانت تنظم فى الأندلس بلغة عربية فصيحة فيما عدا «الخرجة» أى القفل الأخير الذى كان ينظم بلغة عامية تختلط فيها العربية بالعجمية، أى اللاتينية الدارجة، ثم أتى الزجل الذى كان ينظم كله بالعامية. أما فيديريكو كورينتى، فقد رأى أن الزجل كان أسبق فى الظهور من الموشحة، وأن الموشحة استعارت خرجتها العامية من الزجل، ودلل على ذلك - إلى جانب ما تؤيد إليه الدراسة اللغوية النظرية حول لغة الأندلس الملوحة - بشاهد من شعر عامى ينتمى إلى أوائل القرن الرابع الهجرى ورد فى القسم الخاص بتاريخ عبد الرحمن الناصر لدين الله من كتاب (المقتبس) لابن حيان، أى فى تاريخ سابق لأول موشحة أندلسية معروفة بقرن من الزمان. على أن القضية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالتاريخ الذى ولد فيه الزجل الأندلسى، إذ إن هذه مسألة ما زال يلفها الغموض. فابن قزمان صاحب أول ديوان زجلى يصل إلينا كاملاً أو شبه كامل، ولد على الأرجح بعد سنة ٤٧٨ (١٠٨٥) بقليل وامتدت به الحياة إلى سنة ٥٥٥ (١١٦٠) أى إنه عاش فى فترة ازدهرت فيها صناعة التوشيح، وهو لا يشير فى ديوانه إلا إلى واحد من سابقيه فى صناعة الزجل هو أخطل بن نمارة. ولم تفدنا المصادر بشئ حول أخطل هذا ومتى عاش. وإذا كان ابن سعيد المغربى وابن خلدون يريان أن الزجل ظهر تقليداً للموشحة فإن دراسة فيديريكو كورينتى للموضوع قد انتهت به إلى النتيجة التى أسلفنا ذكرها، وهى أن الزجل هو أسبق الفنين إلى الظهور. وعلى كل حال، فإن القضية محتاجة إلى مزيد من التأمل والبحث.

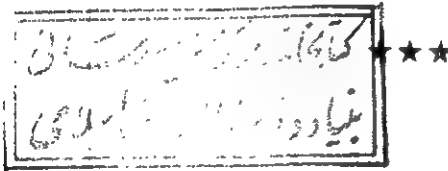
ومن القضايا التى أثارت فى الندوة مسألة عروض الزجل القزمانى والأندلسى بصفة عامة. ولعل هذه أعقد المشكلات المتعلقة بالزجل. ولهذا، فإن عبد العزيز الأهوانى - وهو الباحث العربى الوحيد الذى اهتم بنشأة الزجل الأولى والذى قدم دراسة قيمة حول ابن قزمان ظهرت منذ أربعين سنة - رأى أن يتجنب الخوض فى هذا الموضوع حتى تتوافر بين يديه مادة كافية له. وكان من أول من تعرض لهذه القضية المستشرق الإشبانى خوليان ريبيرا الذى رأى أن الزجل لا يخضع للعروض الخليلى الذى ينظم على أساسه الشعر العربى التقليدى، وإنما ينضبط على الأساس المقطعى المتبع فى الشعر الأوروبى. ثم أتى غرسية غومس فتبنى هذا الرأى وطبقه على جميع أزجال ابن قزمان فى نشرته للديوان (سنة ١٩٧٢)، بل إنه رأى أن الموشحة الأندلسية نفسها: تخضع للعروض المقطعى. وأما فيديريكو كورينتى فقد طرح تصوراً آخر معارضاً لنظرية غرسية غومس، وهو أن الزجل - ومعه خرجات الموشحة - يخضع لموازن العروض التقليدى، غير أن الأندلسيين أدخلوا على هذه الأعارىض بعض التحوير والتعديل بحيث تتكيف فى البيئة الأندلسية وتلائم ذوق أهل البلاد وطريقتهم فى نطق العربية، وذلك بأن اعتمدوا «النبر» على بعض المقاطع. ويُسَبَّحُ كورينتى ما أحدثه الأندلسيون على عروض الشعر العربى - بغير أن يمسوا جوهر أوزانه التقليدية - بما حدث بالنسبة للشعر اللاتينى حينما تطورت اللغة فى إسبانيا من اللاتينية الفصحى إلى «الرومانشية» أى اللاتينية الدارجة (إسبانية اليوم) من اعتماد النبر أيضاً على بعض مقاطع الشعر.

كذلك كان من القضايا المثارة مسألة التأثير المحتمل للشعر الدورى الأندلسى - أى الموشحات والأزجال - فى نشأة الشعر الأوروبى، سواء فى إسبانيا أو فيما يجاورها من البلاد. وهى قضية احتدم حولها جدل طويل بين الباحثين الأوروبيين والعرب طوال القرن الحالى، ولم تقل فيها الكلمة الأخيرة حتى اليوم. وكان مجمل رأى فيديريكو كورينتى فيها أن الشعر العربى الأندلسى قد ترك بصماته على الأقل فى الشعر الإشبانى سواء فى طريقة النظم أو فى المضامين والصور، على أنه قصر هذا التأثير على شعر الموشحات والأزجال، وأما الشعر التقليدى المنظوم بالعربية الفصيحة فقد استبعد تأثيره فى الشعر الإشبانى والأوروبى لأن التعامل بين الأندلسيين ومساكنيهم من النصارى إنما كان يتم باللغة الدارجة، والشعر التقليدى الفصحى يقتضى ثقافة ومعرفة واسعة بالعربية ما كانت لتتوافر لدى عامة الشعب. وهنا دار حوار طويل بينه وبين الدكتور محمود مكى الذى رأى أن الشعر الإشبانى ثم الأوروبى بشكل عام تأثر بالشعر العربى

بشقيه الفصيح والعامى على السواء، ودلل على ذلك بشواهد عدة، منها ما أورده المؤرخ ابن حيان فى خبر غزوة النورمنديين لمدينة برشتر فى أقصى شمالى إسبانيا سنة ٤٥٦ (١٠٦٣) من إعجاب هؤلاء الغزاة القادمين من شمال أوروبا بالأغاني العربية المنظومة باللغة الفصيحة وطريهم لها، إلى جانب شواهد أخرى ومنها أن بعض رجال الدين المسيحيين كانوا يحفظون بعض سور القرآن ومقامات الحريري وهى ماهى من صعوبة اللغة، وذلك مما يتضح من خبر المناظرة التى جرت بين أديب أندلسى يدعى ابن رشيق المرسى وأحد كبار القساوسة فى نحو منتصف القرن السابع الهجرى.

وطرح الأستاذ عبد الرحمن الأبنودى مسألة القيام بتسجيل أزجال ابن قزمان تسجيلًا صوتيًا، ولاحظ أن اللهجة الأندلسية كما تبدو فى الديوان تشبه اللهجة التونسية وأن ذلك التشابه قد يسهل قراءة الزجل الأندلسى. ورد كورينتى على ذلك بأن الملاحظة صحيحة فى جوهرها، فهناك مشابهة بين لهجة الأندلسيين ولهجات الشمال الأفريقى فى المغرب وتونس بل فى مصر أيضا، غير أنه ينبغى توخى الحذر فى ذلك، فالتشابه لايعنى التطابق، وهناك خصائص للهجة أهل الأندلس فى كلامهم العامى لا تتفق دائما ولهجات البلاد الإفريقية، وعلى من يقوم بذلك التسجيل الصوتى أن يراعى ما كان الأندلسيون يلتزمون به من النبر فى مقاطع معينة من الإلفاظ .

ولا يتسع المجال لتتبع كل ما دار حوله الحوار الطويل الممتع فى تلك الأمسية الحافلة ، غير أن فيما أورده شاهدًا على مدى الاهتمام الذى فجّره فى أوساط الأدباء والنقاد المصريين نشر هذا الديوان الأندلسى الذى «ردّ الله غربته» فنشر لأول مرة بالحرف العربى بفضل ذلك المستشرق الإشبانى الجليل فيديريكو كورينتى.



الندوة:

□ جابر عصفور:

أولا مرحبا بكم جميعا فى هذه الأمسية الخاصة فى هذا اليوم، بعاصفته الربيعية. والعاصفة الربيعية دائما تحمل غبار الطلع، علامة على الخصب والتجدد. والواقع أن نشر ديوان ابن قزمان علامة من علامات الخصب والتجدد. فمن ناحية، نشر هذا الديوان يمثل كشفا عن جانب إبداعى ظل مجهولا لا أقول لسنوات وإنما لقرون. وهو يدل على أننا أخذنا ننتبه إلى الهامش من الإبداع الذى لم نكن نحتفى به من قبل، ولم نكن نضعه فى المكانة اللائقة من ثقافتنا وإبداعنا. والحمد لله، المجلس الأعلى للثقافة بدأ الاحتفاء بالهامش أو الذى كان يعد هامشيا من الإبداع الشعبى، فهناك لجنة فاعلة من لجان المجلس النشطة، هى لجنة الفنون الشعبية، ولها إسهامها فى تأكيد معنى الإبداع وتحطيم حدود الهامشية التى فرضت على ألوان متعددة من الإبداع لوقت طويل. وواضح أن هذه الروح السمحة قد امتدت إلى بقية لجان المجلس؛ فلجنة الشعر التقليدية صاحبة القرارات المشهورة التى أحالت بعض قصائد الشعر الحر إلى لجنة النشر للاختصاص ضمت

بين أعضائها شعراء العامية. والآن أصبحت جوائز الدولة التشجيعية في الشعر مفتوحة أيضا للكتابة بالعامية، على أساس أن الإبداع لا يجب أن نميز بعضه عن بعض بواسطة اللغة أو اللهجة، لأن اللغة أو اللهجة هي وسيلة من وسائل الإبداع. وتكتمل هذه المسيرة التي تحتفى بالهامشي وتضعه في الصدرة، لما ينطوي عليه من قيم إبداعية، بإصدار ديوان ابن قزمان.

والواقع أنني شخصيا سعدت كل السعادة عندما حمل إلى أستاذي الدكتور محمود على مكي مخطوطة الديوان، ولم يكن مصدر هذه السعادة نابعا فحسب من أن الأستاذ فيديريكو كورينتي الذي نشرف بصحبته اليوم ونسعد، والذي أمضى سنوات وسنوات طويلة في تحقيق المخطوط وأصدر عملاً متميزاً بكل معنى الكلمة من الناحية الجامعية والأكاديمية، وإنما هناك بجانب هذا السبب الأول للسعادة أسباب أخرى؛ منها أن أستاذي الذي أجله وأدين له بالكثير، عبد العزيز الأهواني، رحمه الله، كان يحدثننا دائماً ونحن طلاب في جامعة القاهرة عن أهمية ابن قزمان، وعن شعره وعن الجوانب الإبداعية في هذا الشعر، وعن الدور الذي لعبه ابن قزمان في فن الزجل. ويضاف إلى ذلك أيضاً أنني - منذ وقت غير قصير - أرى أن الإبداع الذي يوجد في مناطق الهامش يكون، في حالات كثيرة، أكثر قوة وعمقا وجذرية في مساعدة الإنسان على الانتقال من مستوى الضرورة إلى مستوى الحرية، من الأدب الذي ينظر إليه دائماً بوصفه أدب المركز. والحق أنني لاحظت - بعد أن تصفحت مخطوطة هذا الديوان - أنه كان يزيد من جوانب السعادة، وأنا إزاء عمل أكاديمي رائع، وإزاء شاعر كنا نجهله قبل ذلك ونتحدث عنه دون أن نطالع حقا، وإزاء إبداع بكل معنى الكلمة.

وقد أخرجنا الديوان وكانت الفرحة التي رأيتها في أوساط المهتمين فرحة جديدة بأن نقلها الآن للأستاذ فيديريكو كورينتي حتى يعرف حجم السعادة التي أثارها فينا بسبب هذا الجهد المتميز. ولهذا كنا سعداء بنشر الديوان وكنا سعداء بدعوة الأستاذ فيديريكو كورينتي إلى المجلس الأعلى للثقافة في سلسلة اللقاءات التي يقيمها المجلس بين المثقفين المصريين والمثقفين في كل أنحاء العالم. وأنتم تذكرون أننا منذ فترة قريبة التقينا بمارتن برنال، وعمما قريب سوف نلتقي بمثقف آخر كبير، لنؤكد بعدا إنسانيا جديدا من الأبعاد التي ينهض عليها دور المجلس الأعلى للثقافة. وكنا سعداء أيضا حين اختارت اللجنة العليا كتاب فيديريكو كورينتي (ابن قزمان) بوصفه أفضل تحقيق للتراث في هذا العام. وقد كرم التحقيق وكرم صاحب التحقيق. لكنني أتصور أن التكريم الحقيقي له هو أن يتحاور معكم وأن يحدنكم عن تجربته في هذا الديوان ومع هذا الديوان، وأن نطرح عليه نحن مجموعة من تصوراتنا وأفكارنا وخواطرننا، فالتكريم الحقيقي للعالم هو الحوار معه الذي يكشف عن المزيد من الأبعاد ويؤكد المزيد من قيم العلم. وسوف نبدأ هذا اللقاء بكلمة قصيرة من الأستاذ الدكتور الطاهر مكي، مقرر لجنة الدراسات الأدبية التي قررت ابتداء نشر هذا الديوان مع لجنة الشعر في المجلس الأعلى. فليفضل الدكتور الطاهر مكي.

□ الطاهر مكي :

في الواقع، أود في البداية أن أتحدث، من الناحية التاريخية، حديثا قصيرا عن ديوان ابن قزمان لكي نعرف أننا تأخرنا كثيرا لكي نصل إليه.

هذا الديوان اكتشفه المستشرق الروسي كراتشوفسكى فى منتصف القرن الماضى. ثم جاء مستشرق ألماني فصور جانباً منه تصويراً فوتوغرافياً سنة ١٨٩٦ انتشر على نطاق ضيق جداً، ثم جاء المستشرق التشيكى نيكول المهاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية ونشره سنة ١٩٣٣ فى مدريد، وقد نشر المقدمة باللغة العربية وترجمها، ونشر النص بحروف لاتينية ثم ترجم بعضها من قصائد ابن قزمان، وكانت محاولة لا بأس بها، إلى أن جاء المستشرق الإسباني العظيم إميلييو غرسية غومس فاهتم بالكتاب ومنحه جهداً عظيماً؛ حققه ودرسه وأصدره فى ثلاثة مجلدات فى مدريد عام ١٩٧٢. ولكن الأستاذ غومس، شأنه شأن نيكول، كان يرى أنهما يتوجهان بالكتاب إلى عامة المثقفين الأوروبيين؛ ليس المستشرقين فحسب وإنما الذين يتخصصون فى الدراسات الرومانية، على اعتبار أن الزجل كان وراء الأشكال الشعرية فى الأدب الأوروبى فى عصر النهضة، وأن العلماء الأوروبيين فى الدراسات الرومانية ليسوا بحاجة إلى معرفة المعنى وإنما بحاجة إلى رؤية الشكل؛ فكتب لهم النص العربى بحروف لاتينية. وعلى هذا النهج سار إميلييو غرسية غومس ثم جاء الصديق الأستاذ الدكتور فيديريكو كورينتى دى كرده، ورأى أننا مع كتابة النص بالحروف اللاتينية لابد أن نرد إليه غريبته، وأن نكتبه بحروف عربية أيضاً، فحقق النص بحروف عربية وكتبه أيضاً بحروف لاتينية، ودرسه فى مقدمة تناولت عروض الزجل وقوافيه وبناءه فى منهج جديد مغاير فى آرائه لآراء غرسية غومس وآراء نيكول، وصدر كتابه عن المعهد العربى الإسباني فى مدريد سنة ١٩٨٠. والآن، بعد ستة عشر عاماً، يصدر المجلس الأعلى للثقافة فى القاهرة هذا الديوان محققاً للأستاذ الدكتور فيديريكو كورينتى.

الأستاذ الدكتور فيديريكو الذى صحبته سنوات، حيث عشت فى إسبانيا سنوات وعرفت عدداً لا بأس به من المستشرقين الإسبان وغيرهم، يتميز بأنه لا يعرف اللغة العربية فحسب، وإنما يتكلمها ويجيدها، وكان فى سنوات شبابه ينشد علينا شعراً باللغة العربية من نظمته، لا أدري هل هو مستمر فى نظم الشعر هذا أم أقلع عنه مثل كثيرين. كما أنه ترجم كثيراً من التراث العربى إلى اللغة الإسبانية، وبعض ما ترجم إلى اللغة الإسبانية كان صعباً، فهو قدم للمرة الأولى الملاحظات فى لغة إسبانية جميلة. وكان أيضاً هذا العمل الذى أعده عملاً رائعاً ومتميزاً ثمرة جهد كبير.

قد نتفق أو لا نتفق فى الآراء التى قدمها الأستاذ كورينتى، ولكن الجهد الذى بذله جدير بأن نحترمه، والنظريات التى اهتدى إليها جديرة بأن نعرفها. ولن أتحدث عنها بأكثر مما سوف يتحدث هو عنها بنفسه. فقط أرحب به هنا فى المجلس الأعلى للثقافة، باسم لجنة الدراسات الأدبية واللغوية، وأرجو له معنا، ليس هذا اللقاء فحسب وإنما لقاءات متعددة فى قادم الأعوام إن شاء الله تعالى، ليسهم معنا فى صحوة ثقافية بدأت ولن تتوقف ونرجو أن تؤتى ثمارها. شكرًا له مرة أخرى.

□ جابر عصفور :

بعد كلمة الأستاذ الدكتور انطاهر مكى عن لجنة الدراسات الأدبية، الكلمة للأستاذ الدكتور محمود مكى الذى قدم للديوان فليتفضل.

فى البداية أقول إن الدكتور جابر عصفور أوصانى بأن أختصر فى كلمتى عن فيديريكو وفى تقديمى له، وأنا مضطر إلى هذا الاختصار ولو أن هذا أمر فى الحقيقة صعب، وذلك لأن فيديريكو يمكن أن نتحدث عنه ساعات طويلا. فيديريكو كورينتى كرده هذا هو اسمه، وكما نرى أحد اسمى عائلته؛ فالأسماء الإسبانية دائما تحتفظ باسمى عائلة الأب وعائلة الأم. أحد هذين الاسمين هو كرده أى قرطبة، وهذا يدل على صلته بقرطبة عاصمة الخلافة القديمة، التى كانت أيضا هى مسقط رأس ابن قزمان نفسه.

كان هناك ارتباط لفيدريكو بالثقافة العربية منذ قديم، وأنا أذكر فيديريكو حينما كان طالبا فى كلية الآداب بجامعة مدريد منذ أقل قليلا من أربعين سنة، وقد كان أمرا مذهلا حينما تعرفت به، فإذا به - وهو دون العشرين من عمره - يجيد اللغة العربية كتابة وقراءة، بل إنه كما ذكر أخى الدكتور الطاهر مكى كان ينظم الشعر بالعربية. وكان هذا أمرا مذهلا للجميع. إلا أنه كان باحثا أيضا. وقد تمكن، فى أثناء دراسته اللغات السامية، من عدد من اللغات السامية الحية والميتة، ولذلك فإنه بعد تخرجه كنا نتنازع. كان قسم اللغة العربية وأقسام اللغات السامية الأخرى يتنازعون على فيديريكو يريدون أن يستأثروا به، وكان من حظنا أنه اختار الدراسات العربية. وبعد تخرجه مباشرة عين مديرا للمركز الثقافى الإبانى فى مصر، حيث قضى ثلاث سنوات اتصل فى أثناءها بالأوساط الأدبية فى مصر، وأتقن لهجتنا المصرية، ثم بعد ذلك امتدت به حياته وتنقلاته، ذهب إلى أمريكا فدرس فى جامعة بنسلفانيا اللغات السامية إلى جانب اللغة العربية، وإلى المغرب أيضا حيث أتقن لهجات المغرب، وهذا يصور اهتمامه الكبير باللغويات العربية، وباللغة العربية الفصحى التى ترجم عنها كما ذكر الطاهر مكى المعلقات ثم بعد ذلك ترجم إلى الإسبانية (عودة الروح) لتوفيق الحكيم، واتسعت دراساته بعد ذلك فى اللغة وفى الأدب العربيين، ولاسيما فى الأندلس، فأخرج دراسات لا أستطيع أن أحصرها؛ إذ تشمل عشرات من الكتب والمقالات المتعلقة بمجالات كثيرة فى اللغة وفى الأدب، واهتم بصفة خاصة بالشعر الدورى، بالموشحات والأزجال التى كان الأندلسيون مبتكرها، والتى انتقلت إلى المشرق وأثرت تأثيرا كبيرا فى آدابنا المشرقية.

وقد تناولت دراسات فيديريكو كورينتى اللغة الأندلسية بصفة خاصة، فأخرج عديدا من الأبحاث حول الموشحة ولاسيما «الخرجة» التى تعتبر العنصر الرئيسى والمشكل فى الموشحة، وضم إلى ذلك أبحاثه عن الزجل. ونحن نعرف أن ابن قزمان - هذا الشاعر الكبير، أو هذا الزجال الذى كان مبتكرا - هو الزجال الوحيد الذى وصل إلينا ديوانه شبه كامل، وقد كان اهتمام المستشرقين به كبيرا، ولكنهم كانوا يعتبرونه تراثا أوروبا أكثر منه عربيا، ومن أجل هذا فقد كانت نشرتنا نيكل وغرسية غومس بالحروف اللاتينية.

أما فيديريكو فإنه اهتم بنشر الديوان بحروف عربية؛ ليس لمجرد أن الديوان كان مكتوبا بالعربية وإنما لمحاولة رد الاعتبار للغة العربية. ثم إنه يفتح مجالا للدارسين بالعربية الذين لا نعرف منهم أحدا قبل أستاذنا - نغمده الله برحمته - عبد العزيز الأهواني؛ فقد كان هو الوحيد فى العالم العربى كله الذى اهتم بابن قزمان، والذى أدارت مساجلات بينه وبين غرسية غومس على

صفحات مجلة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد وعلى صفحات مجلة الأندلس الإسبانية حول ابن قزمان. وقد أعاد فيديريكو النظر في العمل كله، وصحح كثيرا فيه، حتى إنه صحح نفسه أبصا، إذ صحح الطبعة التي صدرت في سنة ١٩٨٠ في مدريد وأضاف إليها إضافات كثيرة، حتى خرج لنا هذا الديوان في صورته الأخيرة التي استطعنا أن نقدمها، بفضل المجلس الأعلى للثقافة وبفضل الأستاذ الدكتور جابر عصفور، في مصر؛ بحروفه العربية بوجهه المشرق المضي وكما كتبه وكما قاله صاحبه ابن قزمان.

أود في الحقيقة أن أعود مرة أخرى إلى ما نبهت إليه من الاختصار؛ فالحديث عن فيديريكو كورينتي والحديث مع فيديريكو كورينتي قد بطول، وطوله إنما هو متعة حقيقية، فأترك الكلمة الآن لفديريكو حتى يحدثكم وحتى تستطيعوا أن تحاوروه، وله بعد ذلك الشكر، وللمجلس الأعلى للثقافة الشكر أيضا على إتاحة هذه الفرصة لنا لكي نلتقي بهذا العالم العظيم الذي أشرب حب الثقافة العربية وأشرب حب مصر، ونحن نشكروه على ذلك ونتمنى أن تتكرر لقاءاتنا به. شكرا لحسن استماعكم وأترك الكلمة الآن للأستاذ فيديريكو نفسه.

□ جابر عصفور :

شكرا للدكتور محمود مكي على هذا التقديم. سوف نستمع الآن إلى الأستاذ فيديريكو وبعد أن نستمع إليه سوف نفتح الباب للحوار معه. وبعد أن نفتح الباب للحوار، أتم جميعا على دعوة للاحتفاء به وتعريفه. واسمحوا لي باسمكم جميعا أن أرحب بالضيف العزيز فيديريكو كورينتي في القاهرة وفي المجلس الأعلى للثقافة، وأقدمه إلى حضراتكم بكل فرح وفخر. فليتفضل.

بعض الآراء في فوائد تحقيق التراث العربي الأندلسي

□ فيديريكو كورينتي :

شكرا. مساء الخير. الحقيقة أنني لو كنت متراضعا لقتلتهموني خجلا، ولكني - لحسن الحظ - لا أتمم بهذه الصفة!

من البديهيات أن العالم العربي والغرب، مجرد كونهما متجاورين، محتوم عليهما التفاهم والتعامل كما أثبتته التاريخ طيلة القرون. وإن تخللتها فترات تباعد وتجاهل بل، وتحارب أحيانا، والأظفار تلفت إلى الشر عادة أسرع منها إلى السلام، ولكنه يجوز القول أيضا بأن كلا العالمين - حتى أشد أوقات تقاربهما وأحسن أحوال تعايشهما - اقتصرت علاقتهما - أو كادت - على صعيد السياسة والتجارة وقلما جاوزتها إلى الحضارة والثقافة، (إن استتبنا ما اقتبسناه من أوروبا من العلوم في الأندلس خلال أعالي العصور الوسطى)، حتى عصر التنوير الأوروبي وأيام النهضة العربية، عندما بدأ بعض العلماء من أهل الطائفتين يهتمون بأحوال حيرتهم غير المادية كالأدب والفن والفلسفة والعقائد، فنشأ من هذه النزعة صنفان من الناس لعبا دورا جوهريا في تعارف العرب والغربيين وتقوية الروابط الحضارية بينهم بعد طول انقطاعها شبه التام، هما المستشرقون الغربيون الذين أضلعوا مواضعهم على خصال التمدن الإسلامي وإخازنه، ورجال البعثات العربية الوافدين إلى أوروبا الذين أضلعوا على ثقافتها أضلاعا جيدا، فعادوا إلى

بلادهم بعلم يقين عن أوصافها وميزها، ويزاد لا بأس به من فوائد علمية وأدبية، ما لبث أن أثرت في تطور الحضارة العربية المعاصرة.

إلا أن هذا الموضوع الكثير الأوجه والأبواب أوسع من معارفى وأبعد من هدفى فى هذه الساعة، وإنما مقصدى الآن أن أعالج أحد تلك الأوجه، وهو تحقيق التراث العربى الأندلسى وما ترتب عليه من فوائد شتى، مشيدا بذكر جهود من سبقنا إلى العمل فى هذا الميدان ومغريا بالمضى فيه لاحقين من الأجيال القادمة.

ومن المعلوم أن سيطرة بعض الدوائر الدينية المتطرفة على جنوبى أوروبا، بعد سقوط آخر معاقل الأندلس فى أيدى القشتاليين فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى، منعت العلماء فى تلك الديار، فضلا عن غيرهم، عن أبسط مظاهر العناية بعلوم المسلمين؛ إذ كانت محاكم التفتيش تضطهد المتهمين بذلك بأشد العقوبات، فكانت نتيجة ذلك أن الكتب العربية الخط حُرقت أو دُفنت أو أُلقيت فى الآبار، كلما عثر عليها - قبل قراءتها والتأكد من مضمونها - وأن الناطقين بلغة الضاد، وكانوا كثيرين من مسلم ومسيحي ويهودى، اضطروا إلى إكراك علمهم ذلك خوفا من التعرض لتهمة العطف على الإسلام دون اعتناقه المترتبة عليها عقوبة الإعدام مع نزع الأملاك عن أنسألهم وإشراكهم فى الخزى والريية لمدة أجيال عدة. وطرد المورسكيون أخيرا عن وطن أسلافهم بعد إنقال كواهلهم بالضرائب الباهظة وإكراههم على الارتداد عن دينهم، ولو فى الظاهر، وتعرضهم مع ذلك لجميع أبواب الشكال والذل. ولم يبق فى جميع أراضى العاهل الإسبانى التسعة إذ ذاك، أى فى أوائل القرن السابع عشر الميلادى، إلى البرتغال وأقطار أخرى فى جنوبى أوروبا وأواسطها، أى أثر مادى للحضارة الإسلامية سوى مبان عدة مشهورة كالحمرء بخرناطة، وجامع قرطبة، ومثذنة جامع إشبيلية، وقليل غيرها.

وكانت لذلك التعصب أسس شتى غير منحصرة فى التشبث بالعقيدة والحرص على تبشيرها، منها الخوف من تغلب الدولة العثمانية على بقية أوروبا، ومنها حذر الملوك والأمراء من الخلافات الدينية لدى رعاياهم التى قد تؤدى إلى الحروب الأهلية وتداعى ممالكهم كما جرى بالفعل فى أواسط أوروبا بعد نشوء البروتستانتية، ومنها وعى رجال الدين بأن تحرر العقول والاعتراف بمبدأ حرية العقيدة المقترنين بفلسفة النهضة الأوروبية سوف يسلبهم من سلطانهم شبه الكامل على أمور الدنيا والآخرة الذى كان لهم أثناء العصور الوسطى. وخلاصة القول أن مثل تلك الظروف قضت على العناية باللغة العربية وآدابها ومعرفتها وتعليمها فى المملكة الإسبانية قضاء تاما لمدة طويلة، فلم يعد يعنى بعلوم المسلمين أحد من أبنائها أثناءها، كما يتبين لنا مثلا فى معاجم اللغة الإسبانية العظيمة المؤلفة حينئذ؛ فهى تذكر أصول الألفاظ الكثيرة المقتبسة من العربية على جانب كبير من الحيرة والتردد بين الصحيح والباطل من الاشتقاقات، مهما عظم شأن بعض تلك المعاجم والدراسات اللغوية وشاعت شهرة أصحابها من أمثال كوبرابوياس وألدرىتى، وذلك نتيجة لانعدام مجيدى اللغة العربية فى إسبانيا عندئذ واستحالة الاتصال بعلمائها فى مضانهم.

ومارالت الأحوال كذلك إلى القرن الثامن عشر الميلادى، عندما ولى الأمر الملك كارلوس الثالث المؤيد للمنورين أيماء تأييد، وقد فهم أن العلم والتعليم خير على كل حال من الجهل والظلامية، وأن لا بد له من اتحاذهما وسيلة وحيدة للحاق بالأأم الأوروبية المتقدمة التى كانت إسبانيا قد تخلفت عنها عقب شاطئ تلك الدوائر الدينية المتعصبة المضادة للرقى، أو يكون مصير مملكته مزيدا من الهزائم والتقهر والتراجع عن منافسة الدول العالمية الكبيرة. وكان بطبعته أمل إلى اللين والمسألة منه إلى الشدة والمخاربة، فعاد يقيم علاقات سلمية دبلوماسية وتخابرة مع الدولة العثمانية فى المشرق ومع الدولة الشريفة فى المغرب، وشجع العلماء وحررهم من قيود المراقبة على

الأذهان المتسم بها عهد أسلافه، فسرعان ما ازدهرت ثانية علوم أضحت منسية؛ منها علم العربية وتاريخ الإسلام والأدب وسائر ما كان قد ألف بالعربية من كتب ومقالات في الطب والصيدلة والرياضيات وعلمى النبات والحيوان .. إلخ، مع أن معظم ذلك لم يتحقق إلا في القرن التاسع عشر، بعد غزو نابليون لإسبانيا والبرتغال الذي أسفر عن تساؤل الحكم المطلق فيهما وبدء الاعتراف بحق الجماهير، لا الحواص فقط كما كان الأمر من قبل، في التربية والثقافة.

فشرع المستشرقون الإسبان عند ذلك في نشاط مكثف من تحقيق التراث العربي الأندلسي وترجمته إلى الإسبانية بهدف تعميم منفعته، واهتموا أول الأمر طبعا بالمؤرخين، ونشر غايانغوس وكوديرا وغيرهما سلسلة مهمة من المؤلفات العربية في تاريخ الأندلس، إما محققة في أصولها وإما مترجمة إلى الإسبانية أو غيرها من اللغات الغربية، فعادت أذان الإسبان تسمع أسماء ابن الأبار وابن بشكوال والفرضي وابن القوطية .. إلخ، فأصبحوا يحترمون علوم الإسلام ويعترفون بشأنها أيام ازدهارها بعد جهلهم واحتقارهم لها أثناء قرون، ثم جاء دور العناية بالجغرافيين وأصحاب كتب الفلاحة والعلوم الطبيعية والرياضية، ولم يأت دور العناية بالفلسفة والفقه والدين والأدب قبل القرن العشرين إلا نادرا، لأن عدد المتخصصين في هذه الميادين كان ولم يزل قليلا نسبيا. ومع ذلك، إذا تذكرنا أن أحوال إسبانيا السياسية أثناء هذه الفترة كلها كانت مضطربة جدا لتواتر القلق الاجتماعي والسياسي واستمرار الأزمة الاقتصادية، كما دل عليه وقوع الانقلابات المتتالية بل والحروب الأهلية مرات عدة، فعلينا أن نعترف بأن مشاركة الاستشراق الإسباني في هذه الدراسات جدير بالتقدير والإعجاب، أضف إلى ذلك أنه كان، في أكثر الحالات، على خلاف الشأن في دول أوروبية أخرى، متميزا بعدم تلبسه بالمغامرات الاستعمارية غير خادم لمصالح الزائعين عن الاستقامة والعدالة.

أما الفوائد الناتجة من ذلك النشاط التحقيقي والتأليفى؛ فمنها فائدة معنوية وفائدة مادية. نعى بالمعنوية أنها لا تقدر تقديرا نقديا مباشرة وإن لم تعدم أثرا في تطور أحوال الناس المادية، ومن أبوابها الفائدة العلمية المنعكسة في الاطلاع على حقائق التاريخ وأسباب أوضاع البلدان الحالية، ولا شك أن الإنسان غير المبالي بماضيه وأصوله قد سقط من بعض إنسانيته، والفائدة الثقافية الحاصلة من تعارف الأمم كيانا وحضارة، الذي أسفر في حالة إسبانيا المذكورة عن ترك التنافر المتوارث عن حملات التبغيض العنصرى أو الملئى المشنونة في الماضى البعيد أو القريب، بل الواقعة في الحاضر أحيانا، ولها بواعث متعددة الأنواع سيطول ذكرها مع كونها معروفة. فتقاربت الأمتان العربية والإسبانية ثانية بعد تباعدهما وتجافيفهما خلال القرون، كل ذلك نتيجة لزواج كتب تصف العرب والإسلام وصفا أكثر حيادا وأقرب إلى الواقع، منها ترجمات قصائد أهم شعراء العرب على يد الأستاذ جارسيا جوميس التي أثرت تأثيرا بالغا في جيل الأدباء الإسبان المسمى بجيل السنة السابعة والعشرين في هذا القرن، من أمثال جارسيا لوركا، وهو أشهرهم، على أن معظمهم متميزون لهذا السبب بنظرة إيجابية إلى الإسلام والعرب أو على الأقل بحب الاستطلاع على أمورهم، خلاف الشأن في الأجيال السابقة من الكتاب الإسبان غير المكتثرين بما تسمى فيما بعد بالعالم الثالث، وليس إذا طلبنا الحقيقة إلا أحد أجزاء العالم الوحيد الذى يسكنه البشر وهو بيته الصغير الذى لا يتزكم فيه إنسان إلا وعطس جاره.

فأخذ الإسبان بسبب ذلك النشاط التحقيقي يفتخرون بمآثر الأندلس ورجالها المشاهير على أنها من مآثرهم وأنهم من رجالهم أيضا، فبدأنا نرى ما لم يكن أجدادنا ليصدقوه لو نشروا اليوم، أى شوارع ومجاري وميادين في مدنا تحمل أسماء الشعراء والفلاسفة والعلماء الأندلسيين، منصوبة فيها تماثيلهم في بعض الأحيان، ولا دليل

أقوى على أن أذهان الناس قد تغيرت عما كانت عليه وتطورت نحو الاعتراف بحقائق ماضينا، والفضل في ذلك راجع إلى جهود المستشرقين الذين اشتغلوا شغلا علميا جديا مستمرا غير منقطع ولا مائل مع أهواء الأزمنة، لا يكسبهم أرباحا طائلة ولا شهرة كبيرة على نطاق بلادنا، فاستظاعوا بذلك أن يلقوا الأضواء على الظلمة وأن يشروا بعض العلم حتى في قلوب المتجاهلين.

ومع أن لعلمهم فوائد مادية أيضا كما قلنا، إذ إن نتائج جهودهم شجعت عمليات التبادل السياسي والتجارى والسياحى .. إلخ، فإننى بحكم اختصاصى بالبحث والتحقيق أعلق مزيدا من الأهمية على تلك الفوائد المعنوية التى كانت أساس انقلاب قلما يرى مثله فى موقف أمة كاملة من قضية تاريخية بالغة الشأن، كما هى قضية الإسلام والعرب ودوره الحضارى فى أوروبا عن طريق وجودهم فى الأندلس، ولا شك أن رواد هذه الحركة التشقيفية لم يكونوا غير أولئك المستشرقين المتورين المواطنين الذين أرشدوا مواطنيهم إلى تفكير أصح وأعدل، ونبهوهم إلى ما كانوا قد نسوه من حقائق ماضيهم وجذور كيانهم.

وقد أعقبت ذلك فترة جديدة من فترات تاريخ إسبانيا المعاصر متميزة بازدهار الدراسات العربية والإسلامية إلى درجة غير معهودة منذ سقوط الأندلس، أنشئت فيها كراسى لتعليم العربية فى أهم جامعاتها، وتكاثرت البعثات إلى الأقطار العربية، لا سيما مصر، ثم وضع حوران أساسيان فى بناء التعاون الثقافى بين أمتينا عند إنشاء المعهد المصرى للدراسات الإسلامية سنة ١٩٥٠ والمعهد الإشباني العربى للثقافة سنة ١٩٥٤، وهما المنظمستان اللتان - بالاشتراك مع الجامعات ومراكز الأبحاث - تزعمتا نشاط الأساتذة الإشبان والعرب المعنيين بالتراث الأندلسى عن طريق إصدار كتب ومجلات ذات مهام تدريسية وبحثية وثقافية كان من شأنها توثيق الروابط الثقافية والحضارية بين إسبانيا والعالم العربى فى مرحلة ثانية أقوى نشاطا وأنت قدما وأثرى ثمرات من المراحل السابقة لهذه الظاهرة التاريخية المعاصرة المهمة، أى عودة تلاقى العرب والإشبان وتعاونهم على تحقيق تراثهم المشترك.

فى هذه الفترة الموافقة النصف الثانى من القرن العشرين نقلت إلى الإسبانية تحف الأدب العربى من المعلقات إلى كتاب (البخلاء) إلى روايات طه حسين ونجيب محفوظ ومسرحيات توفيق الحكيم، كما عُرِيت أهم كتب الأدب الإشباني؛ من (دون كيموته) إلى مسرحيات جارسيا لوركا، فضلا عن بعض آثار الأدب لأمرىكى اللاتينى، ونشر المعجمان الإشباني العربى والعربى الإشباني المتعدمان أنفا، ووضعت كتب قواعد العربية بالإسبانية وقواعد الإسبانية بالعربية، وحقق ديوان ابن قزمان ثلاث مرات حتى وقع الرضى عنه على قدر الإمكان، عند نشر تحقيقنا الأخير بالقاهرة الذى نال جائزة تحقيق التراث فى هذه السنة، وهو تحقيق عربى يرد هذا الكتاب للمرة الأولى لجمهورية العربى، على النمط العربى من أولى صفحاته إلى آخرها، على خلاف المحاولتين السابقتين، قد قدمه ابن الأندلس إلى إخوانه العرب مقدمة بسيطة يبرجو بها مقابلة بعض الفضل الذى أنعم به أسلافهم على أرضه.

وفى هذه الفترة نفسها، قليلة السنين كثيرة الإنجازات، عُثر على الخرجات المسماة بالأعجمية فى بعض الموشحات الأندلسية، فثارَت مناقشة شديدة ما انفكت أصدائها رنانة لدى علماء يتجاذبونها، منهم من ادعى نسبتها إلى أقدم مراحل الأدب الغربى، ومنهم من اعترف بكونها جزءا من تراث الأندلس الإسلامى مزدوج اللغة، على أنه لا يمكن إنكار قيمتها الشعرية الشعبية وأهميتها لمعرفة فنون الشعب فى بقعة من العالم الإسلامى فى عصر سابق لأقدم آثار أمثالها الأوروبية بما لا يقل عن قرنين؛ الأمر الذى يثبت أن الفولكلور، وإن كان لفظه إنجليزية حديثا، قد سبق العرب، لا سيما منهم الأندلسيون، إلى معناه؛ إذ اعتنوا بأشعار العوام وأمثالهم فى القرن

الحادى عشر الميلادى على الأقل، بينما كان المثقفون الأوروبيون القليلون إذ ذاك، ومعظمهم من القساوسة والرهبان، لا يرون أية قيمة لقول بغير اللغة اللاتينية، وقد اشتهر قولهم G. N. L. أى المكتوب باليونانية لا يقرأ، ولا يرجعون للعامة ولغاتنا حقاً فى الفن، وهى أوضاع لم تتغير جذرياً مع أنها تطورت وتحسنت نوعاً ما فيما توالى من القرون، إلى القرن الماضى عند قيام الرومنطيقية وانكباب العلماء على دراسة آداب الشعب وفنونه.

وفىها أيضاً قامت على قدم وساق دراسة الأدب المورسكى، أى أدب المسلمين الأندلسيين الباقين فى بلادهم بعد استيلاء النصارى عليها، الناطقين بالإسبانية فى آخر مدتهم، مع استعمالهم فى كتاباتهم الحروف العربية واحتفاظهم بالإسلام ديناً وبأدب إسلامى المواضيع والأساليب فى الغالب، وهى دراسة ألقت أضواء كثيرة على بطولتهم العجبية ومساعدتهم الحميدة فى سبيل إبقاء حضارتهم ومثلهم العليا وقيمهم الأخلاقية وسط بيئة معادية لها جميعاً، مع انتماء أكثرهم إلى أبسط الطبقات الاجتماعية، من فلاحين وصناع ومكاريين، غير مهذبين خاضعين لرقابة محاكم التفتيش الشديدة إلا أنهم لم يقبلوا حرمانهم من تقاليدهم، بما فيها العناية ببعض العلوم الإنسانية كالتاريخ والأدب خاصة، وبعض العلوم الدينية كالقراءات القرآنية والفقه والحديث .. إلخ. وكانت دراسة أحوالهم قد بدأت فى القرن الماضى فاستمرت فى النصف الأول من قرننا هذا، ولكن النصيب الأوفر منها وافق هذه الفترة نفسها الملأى نشاطاً لم يكن له نظير فى أى عصر سالف لها.

ونتيجة هذه الأعمال المذكورة أن مستقبل الدراسات العربية والإسلامية فى إسبانيا وفى أقطار أمريكا اللاتينية مضمون، مع عونه تعالى، وكذلك شأن دراسة الحضارة الإسبانية فى البلاد العربية، ومعنى ذلك أيضاً أن عصور التنافر والمناهضة بين أمتينا قد ذهبت إلى غير رجوع، والفضل فى هذه البركة والنعمة أو جزء كبير جداً منهما راجع إلى نشاط هؤلاء الأساتذة العرب والإسبان الذين اعتنوا بتحقيق تراثنا واسترجعوا من خزانات المخطوطات ما كان فى غير متناول الأيدى من أخبار وأشعار ذكرتنا بما كاد أن ينسى من ماضينا، على أنه أساس حاضرنا، وأذرتنا بأننا أجمعين، إن نسينا ماضينا، ما سلمنا من تكرار أخطائه، وبأن العلم الصحيح زاد فى الدنيا للإنسان يدينه من قضاء أكثر مآربه، ونقى يقربه من الله وخلقه، وما رضى سبحانه وتعالى لعباده بالجهل كما جاء فى القول المأثور.

وأخيراً، أريد أن أختتم كلمتى هذه بالتعبير عن شكرى واحترامى غير المحدودين لهؤلاء العلماء الصالحين الذين حبسوا أنفسهم على هذه الرسالة السنية، الراحلين والمثريثين منهم على السواء، من ناجحين مشاهير أو مجتهدين متوسطين، فإن الأعمال بالنيات، ومن إسبان وعرب، أخص منهم بذكر الحنان والامتنان أستاذى الجليل ومعلمى الصابر وصديقى العزيز محمود على مكى الذى أبلى بلاء حسناً فى حبة فرسان العلم والفلم والبحث والتدريس، وهو من لقتنى ما تعلمته من أسرار العربية وأسدى على أيدى بيضاء لا تعد، فنعم الأستاذ والصديق، ولكم وددت لو حظى بمثله زملائى وتلاميذى المسؤولون الآن معى، أو بعدى عما قليل، عن إحياء هذا التراث وإثرائه وإبقائه للأجيال القادمة، رحمنا الله أجمعين، وعليكم سلامه ورحمته وبركاته، ومن عبده الضعيف لكم أفضل الأمانى وأجزل الشكر.

□ جابر عصفور :

باسمكم نوجه الشكر إلى عبده الضعيف الذى لسا نراه ضعيفاً، على الإطلاق! والآل نفتح الباب للحوار مع الأستاذ فيديريكو فلتفضلوا.

فى سنة ١٩٩٥، وبالتحديد فى ٩/٢٠ من ذلك العام؛ عقد فى لبنان المؤتمر الأول للشعر العامى هناك. وقد تناول المشاركون فى المؤتمر المساهمات المتعلقة بالثقافة الشعبية فى لبنان، وبخاصة ثقافة الزجل، وبالتأكيد كان من ضمن المسائل التى تم تناولها والحديث حولها مسألة ابن قزمان بالتحديد. ابن قزمان بين لنا أن التراث الزجلى ربما الأسبق بالشرق، وذلك لأن الحالات الأولى للتفكير بالزجل كانت موجودة بمنطقة معينة بالعراق اسمها نصيبين، وبالتالى سريان هذه الثقافة موجودة عندهم بشكل واسع جدا. ومن ضمن هذه الوضعية يمكن متابعة مارأفرام السريانى الذى ينسب إليه الفضل فيما يتعلق بالمحاورات الزجلية التى عرفت عمليا حوالى سنة ٣٧٦ بالتحديد. لذلك أفترض أن الأرضية الأولى للثقافة الزجلية وجدت بمنطقة نصيبين فى العراق، على يد مارأفرام السريانى بالتحديد. ولكن كيف انتقلت هذه الثقافة إلى مناطق أخرى؟

أعتقد أن هناك إمكانا لوجود اجتهادات حول هذه الوضعية، يتمثل فى مسألة متغيرات ديموجرافية وسكانية، وقد كانت منطقة المشرق العربى ساحة واسعة جداً لهذه المتغيرات التى دفعت إلى هجرة سكانية آنذاك. وربما كان القرن الرابع والسابع الميلاديين من المراحل الأساسية التى عرفت فيها المتغيرات السكانية. وأثناء انتقلت الثقافة الزجلية من العراق إلى سورية فلبنان. وربما بعد سنة ٦٣٠ نتيجة الفتوحات الإسلامية التى تمت على صعيد المغرب العربى ثم الأندلس، انتقلت هذه الثقافة الزجلية آنذاك وعبر رواد معينين ساهموا فى هذه النقلة. هذا أحد الاجتهادات التى تم تناولها على صعيد المؤتمر الذى أشرت إليه.

وبالإضافة إلى هذه المسألة، هناك رؤية أخرى متعلقة بالموضوع ربما تتمثل فى الإشارة إلى المؤثرات السريانية، ليس فقط فيما يتعلق بالزجل بل أيضا فيما يتعلق بمسائل اللغة. فالرهاوى الفيلسوف اللغوى المهم جدا (٦٦٠م) آنذاك كان معاصرا لأبى الأسود الدؤلى، وقد تبين لنا خلال المؤتمر أن الصرف والنحو اللغويين عند السريان قد نقلوا بواسطة الرهاوى إلى أبى الأسود الدؤلى فى عام (٧٧٠)، حيث نقلت آنذاك الثقافة اللغوية السريانية عبر إسحق بن حنين إلى الفراهيدى، على اعتبار أن السريان كانوا على علاقة وثيقة جدا بالثقافة الهيلينية. وكانت الثقافة الهيلينية آنذاك ذات حد أدنى من الاكتمال فيما يتعلق بمسألة اللغة. لذلك، ربما، ساهم العلماء السريان بالتحديد مساهمة أساسية فى نمو اللغة العربية وتطورها، ووصولاً لإضافات ربما أسست لانطلاقة لغوية ثقافية أخرى مهمة. وشكرا.

□ فيديريكو كوريتى:

لا يفاجئنى أن مختلف الأنظار العربية تتنازع أصل الأزجال كما يتنازع كل ثمين لكنه ينبغى، دفعاً للالتباس، ألا نخلط بين الزجل والشعر الشعبى على العموم. أما الزجل، الزجل الأندلسى، فليس شعرا شعبيا فقط، بل له خصائص معينة محدودة، وله بنية لغوية تتمثل فى استعمال العامية الأندلسية، ثم بنية عروضية هى استعمال لتحوير خاص للعروض الخليلى، ثم بنية دورية هى ترتيب الأفعال والأغصان ضمن الدور أو البيت. كل شعر شعبى يعدم بعض هذه الأوصاف ليس زجلا أندلسيا، أو ليس زجلا فى الاصطلاح المقبول لدى معظم الدارسين. فأخشى أن هذا النوع من

الأشعار التي ذكرتها لا يكون أزجالا صحيحة، وإنما يكون أشعارا شعبية. ومما يقوى هذا الافتراض أن الحلّى العراقي الذي كتب، كما هو معروف، أهم المقالات عن الزجل عموما، لم يذكر للزجل غير أصل أندلسي. فلعل في هذا الافتراض بعض الالتباس بين الزجل. وأنواع أخرى من الشعر الشعبي العربي، فيما أظن.

□ عبد الحميد شبيحة:

أرحب أولا بضيفنا العزيز الكبير، وأشكر المجلس الأعلى للثقافة في شخص الأستاذ الدكتور جابر عصفور على ترتيب هذه اللقاءات الثقافية الثرية. وبصفتي محسوبا على الدراسات الأندلسية، (فقد درست في الماجستير بعض موضوعات الأدب الأندلسي، ونشرت أو ترجمت كتابا عن الموشح الأندلسي (لصمويل شتيرن، وهو مستشرق إنجليزي معروف) وقد وجدت صعوبات جمّة في ترجمة شتيرن للإشارات التي يذخر بها كتابه «الموشح الأندلسي»، والمقالات والدراسات التي تابعت هذا الكتاب فيما بعد تابعها ستير في دراساته عن الموشح الأندلسي والأزجال. لذا فإنني أتساءل: هل يقف ديوان ابن قزمان مثالا وحيدا على الزجل الأندلسي حتى الآن، أم أن هناك دواوين أخرى يمكن أن تصدر لتكشف تلك العلاقة القائمة والحميمة بين الموشح الأندلسي والأزجال الأندلسية؟ وهل اكتشاف الزجل والخرجات سوف يساعد على فك كثير من الخرجات الأعجمية العامة الرومانسية الموجودة في الموشحات الأندلسية؟ شكرا لكم.

□ فيديرىكو كورينتى :

هذا كلام فيه أبواب مختلفة، ولعلنا نحتاج إلى محاضرات - ولا أقول محاضرة أخرى - لتفسير كل ما سألت عنه، لكن سأحاول.

أولا: كتاب شتيرن الذي هو أساس من أسس دراسة الشعر الدورى، سواء منه الزجل أو الموشح، قد أتى عليه عدد من السنين، فبعض نظريته أكد والبعض الآخر دحض، كما هو طبيعي وربما كما سيحدث لما نقول اليوم. لكن ضمن هذا التطور الذي تم في هذه الدراسات، قد ثبتت بعض المبادئ التي كان شتيرن يشك فيها أو كان على غير يقين منها. فنحن، مثلا، نستطيع أن نقول الآن، بثقة، إن الزجل أقدم من الموشح. لماذا؟ لأن الخرجة - التي تضاف إلى آخر الموشح - وقد يقال إنها أساس الموشحة العروضية كله - وهذا جائز - ليست إلا قطعة زجل، فلا بد من كون الزجل سابقا على التوشيح. وأنا قد كنت محظوظا بالعثور على قطعة شعرية في المجلد الخامس من مقتبس ابن حيّان يحتوى على ما سمّيته «شبه الزجل»، ولم أقل زجلا لأنه لا يحتوى إلا ثلاثة أسطر فلا يكفي ذلك لكي تظهر البنية الدورية، فلما على يقين هل هذا الشعر لو كان أطول كان موافقا بنية التوشيح أم لا. ولكن «شبه الزجل» هذا يتضمن البنية العروضية التي نحددها في كل من الموشح ومن الزجل، ونستعمل فيه اللهجة الأندلسية. معنى ذلك أنه من البنى الثلاث التي ذكرتها قبل قليل نجد بنيتين، وهذا في نظري كاف لتأكيد أن هذا إما زجل وإما شبه زجل والقضية يبدو أنها محلولة، وهي قضية مهمة جدا: إذ إن الكثيرين من العلماء كانوا يحسبون الزجل، تقليدا عاما للموشح، وبهذه النظرية طبعاً ظلت مشكلة الخرجة غير محلولة. على أنا إذا قبلنا أن الزجل أسبق من التوشيح، حللنا مشكلة أصل الخرجة، هذا من ناحية.

ثم ذكرت مشكلة الخرجات الأعجمية التي أنا أسميها المسماة بالأعجمية، لأن معظمها ليس أعجمياً صرفاً وأظن أن من الستين خرجة المتوفرة سبع أو ثمان هي أعجمية تماماً، أما الأخرى فمختلطة اللغة. وفي نظري أن كون أو إبراد بعض الخرجات باللغة الأعجمية إنما يدل على شيء معروف، وهو أن أهل الأندلس كانوا مزدوجي اللغة، وكانوا في أكثر الأحيان - لأغراض الشعر - يستعملون في الشعر العربية سواء كانت فصيحة أو عامية. إلا أن بعضهم، لتأخرهم في العربية، وحتى في العامية، قد لجأوا إلى استعمال الأعجمية، وهذا ما يفسر لنا لماذا توجد خرجات أندلسية أعجمية أو نصف أعجمية. فيما يتعلق بنصوصها الضعيفة، فقد نشرت في الستين الأخيرتين ثلاث مقالات أعدت النظر فيها وصححت ٢٠٪ من النصوص المعتمدة إلى الآن. وأظن، وقد قلت قبل دقائق عدة، إنني لست متواضعا!! أنني قد أضفت تحسينات مهمة جداً على أساسين، أولاً على أساس عملي السابق في اللهجة الأندلسية، لأن الذين سبقوني في دراسة الخرجات كان من نقائصهم أنهم لم يهتموا إلى أمر مهم جداً، وذلك أن اللغة الفصحى لا يمكن أن تستعمل في خرجة أعجمية، فإذا كان الإنسان لا يجيد العامية العربية فكيف سيستعمل الفصحى. هذا أمر مهم ساعدني على إبعاد بعض القراءات التي لا محل لها إذ إنها ليست أندلسية. ولم أتمكن من ذلك إلا بفضل دراستي المظولة للهجة الأندلسية التي وضعت فيها كتابين لقواعده ولخصائصها، هذا أساس ساعدني واعتمدت عليه، ثم هناك أساس آخر مهم جداً هو أنني أعدت النظر في عروض الرجل والتوشيح والخرجات ووجدته عروضاً خليطاً محورياً مع بعض الضرورات. فطبعا اعتمدت على الأساسين الضروريين لتحقيق نص شعري، أي اللغة والعروض، فبفضل هذين الأساسين الجديدين نسبياً - وهما جديدان لأن الأبحاث السابقة لم تعتمد عليهما اعتماداً كافياً - استطعت، فيما أظن، أن أحسن القراءات، وليس معنى ذلك أنني متأكد مائة في المائة من أنه لا توجد فقرات صعبة الفهم، ولكنني قللت من أعدادها واتساعها بصورة مهمة فيما أظن. وأستطيع أن أشير إلى هذه المقالات التي لم تظهر في مقالة استشراف وإنما ظهرت في مقالة إسبانية مخصصة لفقه اللغات، لما يتميز به هذا المجال من الأهمية للدراسات الرومانسية، وقد كان هذا هو السبب الذي جعلني أنشرها في مقالة ليست استشرافية، إذ كانت دراسة متعلقة بالخرجات الأعجمية ومليئة بأخبار مهمة جداً حول اللغة الأعجمية القديمة وهي لغة رومانسية واسم هذه المجلة التي نشرتها فيها بالإسبانية (مجلة فقه اللغات الإسبانية).

□ أحمد درويش:

أردت فقط أن أساهم في تحية المشرق الكبير، وأن أؤكد أنني لست متخصصاً في الإسبانية بالمرّة. لكن السؤال الذي يراودني، بوصفي فارساً، أنه إذا كان قد أمكن الآن بعملكم هذا أن يعاد إحياء الحرف العربي الذي كان مطموراً في ديوان ابن قزمان، وأن يكتسى هذا الديوان مرة أخرى الثوب الذي كتب به أولاً، فإن القضية التي تثار، خاصة بالنسبة إلى الشعر الشعبي والرجل، هي قضية كيف كان ينطق، وهي قضية حتى الآن لا تزال تعاني منها في كتابة الشعر الشعبي المعاصر. فعندما يقرأ نص شعبي لا بد أن يقرأ بطريقة معينة حتى يستقيم إيقاعه، وربما تكون حروف اللغة نفسها عادة، أفقر من أن تستجيب لكل التوزيعات الصوتية الضرورية اللازمة لكتابة النص الشعري القديم. وأنا عندما أنظر الآن في نص ابن قزمان أقول لو أنه قرئ باللهجة عراقية قد يختلف عن قراءته باللهجة مغربية، كما قد يختلف عن قراءته باللهجة مصرية. هل هناك، من باب الحلم

العلمي، إمكان أن يعاد تصور النطق؛ بمعنى أن يصدر ديوان صونى عن الطريقة التى كان ينطق بها ديوان ابن قزمان من خلال دراستكم اللهجة الأندلسية؟ وأيضاً إلى أى حد يساعد هذا النوع من محاولة إحياء الإيقاع المطمور أو المفترض، على تقريب الفجوة بين هذه الخرجات التى كانت تنطق بالأعجمية؟ إلى أى حد كان يستقيم أيضاً إيقاعها الموسيقى مع هذه اللهجة التى تقربها من السمط الحليلي كما قلت الآن، أو تقربها من نمط معين؟ هل فى الإمكان أن نحلم بإعادة تسجيل ديوان ابن قزمان وبصوت ماء، إلى أى لهجة ينتمى لكى نعيد تصور فن عظيم يمكن أن تكون إفادتنا به أكثر؟ وشكراً.

□ جابر عصفور :

قبل أن يجيب الأستاذ كوريتى، أود الإشارة إلى أن هناك تجربة جميلة لعبد الرحمن الأنبودى. وأنا أفشى سرا الآن؛ هو أن عبد الرحمن الأنبودى، بمجرد صدور الديوان، بدأ يقوم بتجارب على قراءته، وإنشاده، ويبدو أن معرفته باللهجة التونسية والمغربية ساعدته على ذلك، فليته يحدثنا الآن عما قام به بهذا الخصوص، قبل أن يجيب الأستاذ كوريتى عن التساؤلات حول الموضوع بأكمله.

□ عبد الرحمن الأنبودى :

لن أتحدث عن جوانب كثيرة فى تجربتى. ولكنى أتصور أن صدور هذا الديوان يمثل لنا حدثاً مهماً، وأن هذا الديوان نفسه لا يزال بالنسبة إلينا عالماً مغلقاً، لسنا قادرين - بعد - على الإفادة الكاملة منه. والحقيقة أننى غصت قليلاً فى هذا الديوان، وساعدنى على ذلك أننى عشت فترة فى تونس، وتمرست بأدائها الشعبية، خلال قيامى بجمع السيرة الهلالية، وخلال ذلك أملت ببعض القضايا الخاصة بالتسكين والإدغام والمند وما إلى ذلك.

هذا الديوان بسيط جداً على مستوى قراءته، ويمكن أن يقرأ بسهولة. لكن من العار أن نقرأه بالفصحى، أو نترجمه إلى الفصحى، لكى تسهل علينا قراءته. لذا أقترح، بمساعدة ضيفنا الراحل، أن نقوم باختيار بعض القصائد المهمة من هذا الديوان، وأن نقرأها باللهجة التى كتبها بها ابن قزمان. فهذا، دون شك، يساعدنا على إضاءة عالم هذا الديوان، وعلى تحقيق الإفادة الكاملة منه. وشكراً.

□ فيديريكو كوريتى :

القضية معقدة جداً، لأن اللهجة الأندلسية - كما تعلمون - منقرضة. ونحن نعلم أن الأرجال كانت تؤلف بالأندلسية حتى فى المشرق، وكان الزجال الشرقى - على الرغم من كونه ابن لهجة أخرى - يحاول أن يقلد اللهجة الأندلسية.

ومن مميزات الزجل، كما قلت، إن له بنية لغوية وهى استعمال اللهجة الأندلسية. بالطبع الأرجال غير الأندلسية فيها ركافة لغوية، لاشك فى ذلك، إلا أن ازدهار اللهجة الأندلسية فى المشرق لمجرد غرض قول الأرجال قد اضمحل. ولا أظن أن طريقة إنشاد المعاربة والتونسيين و الجزائريين فى

أيامنا هذه، على الرغم من تشابه لهجاتهم وتقاربها من اللهجة الأندلسية، لا أظن أنها يمكن أن تعتبر تمثيلاً جيداً للكلام الأندلسيين.

هذه هي الحقيقة. إننا لا نستطيع أن نلجأ إلى سماع المنشدين المقلدين لطريقة إنشاد الزجل القديمة؛ هذا واضح لسوء الحظ. ثم: هل عندى فكرة، بعد طول دراستى للهجة الأندلسية، عن طريقة إخراج اللهجة؟ بالطبع عندى. لأن هناك، مثلاً، شواهد واضحة، لاشك فيها، على مواقع النبر، ونعرف أن الأندلسى لم يقل «لَيْسَ»، وإنما كان يقول «لَيْسَ» مثلاً. هذا معروف، وكل متحرك العين كان منبوراً فى العين، وكان يعاد سماع ذلك ليشكل (أى ليضبط بالشكل)، وهذا ثابت أيضاً بملاحظة القوافى؛ فإذا لاحظنا القوافى رأينا أن نطق الأندلسية كان يخالف اللهجات الشرقية فى نقاط كثيرة واللهجات المغربية فى نقاط أخرى أيضاً، لأن هذا النطق ينتمى إلى لهجة ذات شخصية وخصائص مميزة، لاشك فى ذلك. أما القول بأننا - أو بأننى بوصفى دارساً للهجة الأندلسية - نستطيع أن ننشد أزجال ابن قزمان إنشاداً وأداءً جيداً، فأشك فى ذلك كل الشك.

□ محمود السيد:

أشكر الأستاذ فيديريكو. أولاً على هذه المحاضرة الرائعة، وأرحب به فى مصر. وسؤالى يتركز حول: الشائع أن التأثيرات العربية، فى مختلف المجالات فى الفكر والأدب الإسباني وفى الأجناس الأدبية الإسبانية كافة، معروفة ولا خلاف عليها، وقد دلت - فيما يتعلق بالشعر بوجه خاص - داماس ألونسو على بعض التأثيرات الخاصة بتكوين الصورة الأدبية العربية، وخصوصاً فى شعر المعتمد ابن عباد فى الأشعار الإسبانية فى العصر الذهبى فى القرنين السادس عشر، والسابع عشر...

هل هناك تأثير للزجل فى الشعر الإسباني الذى كتب بالإسبانية، سواء فى العصور القديمة أو فى الشعر الحالى؟ هذا هو السؤال.

□ فيديريكو كورينتى:

السؤال، كمعظم الأسئلة المطروحة اليوم، له أجزاء. تأثير الشعر العربى الفصيح فى الشعر الأوروبى ولا أقول القشطالى أو الإسباني فقط؛ لأن الأشعار الأوروبية متعلق بعضها ببعض، لاشك فى ذلك. هذا جزء أول من السؤال، ثم هناك جزء ثان: هل للزجل تأثير فى الأشعار الإسبانية؟ أنا لا أوافق الذين يظنون أن الشعر الفصيح أثر فى الشعر العربى، لسبب بسيط هو أن الشواهد جميعها تثبت أن الأوروبيين عندما دخلوا الأندلس لم يعتنوا بالشعر الفصيح، ولم يتعلموا الفصحى. فأنى لشاعر قشطالى أو قطلانى أو بروفنسالى أن يقرأ قصائد المعتمد ابن عباد؟ محال. اللغة فوق مستواه بكثير، فأظن أن هذا التأثير مستبعد، إلا أن الحالة مختلفة تماماً فى حالة الزجل، والدليل الواضح على ذلك أن هذا التأثير قد وجد بالفعل عند خوان ريس القسيس هيتا الذى كتب أزجالاً (أو لا يبعد أن تسمى أزجالاً) تقلد الأزجال القزمانية، فهذا ظاهر، وهذا مهم لأن كثيرين من المهتمين بدراسة التأثير والتأثر بين الحضارتين فى شبه الجزيرة الأيبيرية، ربما ينسون هذه النقطة المهمة؛ أن الاتصال اللغوى بين الناطقين بالعربية والوافدين من بلدان الشمال كان دائماً يجرى بالعامية. أما إذا قالوا الفصحى فلا أجد أدلة على ذلك من أى نوع، وأظن أن فى هذا جواباً على سؤالك.

□ عوني عبد الرؤوف:

نحن لا نتكلم عن الفصحى باعتبارها فصحي، وإنما نعتبر الكلام والتأثر أو التأثير بالعربية على ما ظهر في أوروبا من المنيحج والتروبادور سواء كان ذلك من ناحية البناء، بناء شكل التروبادور أو المنيحج والموضوعات التي تناولها هذا الشعر في يوم من الأيام ثم انقضت هذه الفترة وانقضى عصر التروبادور وغيره. لقد كانت هناك صلة ما، وأنصوّر أن هذه الصلة كانت بين الشعر الفصحى وليس فقط الرجل وإنما الموشح الذي كتب بالعربية، شكراً، نريد التعليق.

□ فيديريكو كوريتي:

لا ننسى أن الأرجال أنواع، منها أرجال شعبية جداً يمكن أن نسميها أرجالاً فولكلورية، ومنها أرجال نسميها أرجالاً قصيرة، ومنها أرجال تقلد الموشح أو تقلد القصيدة. وخلال تتبع هذا النوع من الأرجال، نجد في بعض الأحيان المواضيع والأساليب المميزة للشعر المقصّد، فمن هذه الطريقة يمكن أن نقبل أن هناك تأثيراً للشعر العربي الفصحى في الشعر الأوروبي. ولاشك في أن هذا التأثير من الأندلس إلى غرب أوروبا قائم، أما عن التأثير المباشر من الأشعار المقصّدة من القصائد باللغة الفصحى إلى لغات أوروبا الغربية وآدابها، فلا نجد قرائن كافية على ذلك. وعندما نبحث عن مثل هذه القرائن، نواجه مصاعب جمة. فالأوروبيون الوافدون إلى الأندلس لدراسة الطب أو الصيدلة أو السحر... إلخ، لم يكونوا يجيدون الفصحى. وعندما يذكرون تجاربهم عن حياتهم في الأندلس لا يشيرون أبداً إلى أى اتصال مع الشعراء الأندلسيين، ولا نجد في مؤلفاتهم أية إشارة يمكن أن نفهم منها أنهم اتصلوا بهذا الشعر أو فهموا منه كلمة.

□ محمود السيد:

أعتقد أننا لا يجب أن نساوئ بين تأثير الفكر العربي، أو تأثير الأدب العربي، في إسبانيا وتأثير الأدب العربي في فرنسا أو في إيطاليا.

□ فيديريكو كوريتي:

إسبانيا هي القنطرة، الجسر.

□ محمود السيد:

ولكن أعتقد أنه لا يجب أن نساوئ بين التأثير في إسبانيا والتأثير في أية دولة أخرى لأن التأثير في إسبانيا تم خلال معاشرة استمرت لفترة طويلة جداً، لدرجة أننا نجد هذا التأثير مازال موجوداً حتى الآن. وقد تفضلتم بالإشارة إلى ذلك، فقد وجد عند أنومونو، ولم يقتصر على مجرد الأشكال الشعرية. إنما التيار - كما يسميه حتى غونو لايم وفي رأي كوريتي - ليس من الضروري أن يكون مباشراً، ولكن كان هذا التأثير غير مباشر نتيجة المعاشرة الطويلة، فلا أستطيع أن أعلق قصة تأثير الشعر العربي في الشعر الإسباني على مجرد موضوع القراءة، بل يجب أن أعالجها على أن الإسبان لم يكونوا يقرأون العربية الفصحى، ولكن هذا التأثير قد يمكن أن يتم بطريقة غير مباشرة، في إعادة الرؤية.

□ فيديريكو كورتيني:

طبعاً، أنا معك فيما تقول، وقد أشرت إلى ذلك. إن الطرق غير المباشرة ممكنة وثابتة، ولكنني سأضرب لكم مثلاً يوضح إلى أية درجة كان الأوروبيون المثقفون الوافدون إلى الأندلس لتعلم العلوم يجهلون الفصحى. عندنا مثلاً في اللغات الأوروبية كلها أسماء الكواكب عربية الأصل، وإذا لاحظناها وأمعنا النظر فيها وجدنا أن نطقها نطق عامي، فمثلاً نجد كلمة «فوما الحوت». طبعاً «فوما الحوت» ليس كلاماً فصيحاً: «فم الحوت»، لكن «فوما الحوت» - بفتح الحاء - من مميزات كلام الأندلسيين. وإذا كان هناك بعض العلماء الذين كانوا يقرأون نصوصاً عربية فصيحة، إلا أنهم لجهلهم بالفصحى كانوا يقرأونها بالعامية، وأظن أن في ذلك دليلاً كافياً على ما قلنا من أنهم لم يتوصلوا أبداً إلى درجة مقبولة من فهم الفصحى، وفي ذلك محال واسع للتفكير. وهكذا نجد جميع أسماء الكواكب في اللغات الأوروبية بنطق عامي وليس بنطق فصيح.

□ جابر عصفور:

قبل أن أترك الكلمة للدكتور الطاهر مكى والدكتور محمود مكى، فلدى كل منهما كلمة، عندي سؤال لكنه من وجهة نظر النقد الأدبي وليس من وجهة نظر العلاقات التاريخية.

في النقد الأدبي نتحدث كثيراً، في هذه الأيام، عن نظرية لواحد من الشكليين الروس، هو ميخائيل باختين، التي تسمى «الكرنفالية». وباختين يرى أن الكرنفال كان الشكل الإبداعى الذى نمرد به المقموعون على أساليب القمع التى تمثلها السلطة الدينية والسلطة الاجتماعية وسلطة الحكم. ومن يقرأ ديوان ابن قزمان - على الأقل فيما فهمته من هذا الديوان بمساعدة عبد الرحمن الأنودى أحياناً وهو ينشد - يلاحظ درجة لافتة للانتباه فى نقد المؤسسة الرسمية. فابن قزمان ينقد بشدة الفقهاء وتزمت الفقهاء ونفاق المشايخ، وينقد بشدة السلطة السياسية بأشكالها، وينقد السلطة الاجتماعية، وذلك إلى درجة يمكن للمرء أن يسارع فيها بالحكم بأن هذه الأرجال تجسيد لفظى لشكل من أشكال الكرنفال الذى يريد أن يدمر السلطة.

سؤالى هنا: هل كان زجل ابن قزمان ينشد إنشادا عادياً أم كان يؤدي ضمن شكل احتفالى هو نوع من التمرد على السلطة الاجتماعية والدينية إلى آخره؟ وإذا كان هذا صحيحاً، هل هذا الشكل كان أحد الأشكال التى انتقلت إلى بقية أوروبا وأسهمت فى تأسيس معنى الكرنفالية؟ لعلنا إذا استوضحنا هذه النقطة يمكن أن نكتشف بعداً جديداً فى نظرية الكرنفالية عند باختين، وهذا يستلزم سؤالاً خاصاً بملاحظة أخرى قد لاحظتها: ابن قزمان يبدو إلى حد ما - كما لاحظت فى قراءتى البسيطة الساذجة له - شبيهاً بأبى نواس، فهو عنده أكثر من شخصية، فعندما يتوجه إلى الممدوح - وجزء كبير من قصائد الديوان هى قصائد مدح - يتحدث بطريقة مختلفة عن الطريقة التى يتحدث بها بعيداً عن الممدوح، بل إنه فى قصيدة المدح، عندما يتغزل مثلاً، يختلف صوته عن صوت الخطاب المتوجه للممدوح، كما لو كان هناك أكثر من شخصية. وهذا شبيه بالفارق الذى نلاحظه بين أبى نواس الذى يقول:

هذا زمان القروء فاحضع
وكن لهم سامعاً مطيعاً

وأبى نواس الذى يتخذ مظهرها رسميا جدا فى خطابه للحليفة. فهل هذه الازدواجية عند ابن قزمان - إذا صحت - كانت أثرا من آثار علاقته بالسلطة التى يتوجه إليها، أم أنها كانت صفة عامة فى الشعر الأندلسي؟ وهل البعد الذى كان يدمر به هذه السلطة شكل لغوى لاحتفالية كرفالية سرعان ما انتقلت إلى أوروبا؟ طبعاً نريد جواباً صريحاً.

□ فيديريكو كورينتى:

لقد طرحت على بساط المناقشة عشرة مواضيع على الأقل؛ فمنها مثلاً صدق الزجال، أو صدق ابن قزمان: هل كان صادقاً فيما يقول فى أحيان كثيرة؟ لا ليس صادقاً، فيما أتصور. فعندما كان ابن قزمان يتحدث عن المنجون مثلاً، هل كان ماجناً إلى تلك الدرجة، لا، ولكن «طراز الزجل» كان يقتضى أقوالاً من ذلك النوع. لا يجب أن نصدق ابن قزمان عندما يصف نفسه فى أزجاله كما فعل بعض العلماء ونظروا إلى ذلك الوصف على أنه حقائق. ثم نحن إنما «بدأنا» ندرس ابن قزمان وركزنا على المشاكل اللغوية التى عالجناها لأنها أساسية لتحقيق النص. أما القضايا المضمونية، فلم نطرقها بعد. لا بد، فى البداية، من دراسة ابن قزمان وغيره من الزجالين ومنهم عدد كبير، إلا أن دواوين كاملة لم تبق لنا غير ابن قزمان والششتري وقد حققته أيضاً لكن على مستوى مختلف. كذلك، بالطبع، تختلف مناسبات الأزجال جداً، فلا يمكن أن نقارن أزجاله الانتقالية عندما يطلق عنان خياله ومشاعره وينتقد الفقهاء أو المرابطين، ويكرههم كرهاً مميّزاً للأندلسيين تجاه أهل العلوه. طبعاً هذه المناسبات تختلف، وباختلاف المناسبة يختلف الأسلوب وطريقة التعبير، ونحن إنما بدأنا نقطع أبلى مراحل دراسة ابن قزمان وزجل الأندلس وما يتصل بهذا من قضايا أدبية تاريخية؛ فمثلاً ابتداء من عصر المرابطين بدأ ملوك الأندلس - سواء منهم المرابطون ثم الموحدون ثم الناصريون - فى مسابقاتهم الشعرية، يضمنون باباً واحداً للزجل، ولم يوجد ذلك قبل عصر المرابطين. ففى أيام الأمويين أو فى عهد الطوائف لم يسمع - والدكتور محمود مكى أعلم منى بذلك - لم يسمع بأن ملكاً احتفل بحفلة شعرية أشادت فيها أزجال. هذا مهم جداً؛ لأن معناه أن الأذواق فى المجتمع قد تضررت وتغيرت. وكما قلت لك، لا أريد أن أطيل وأن أسنهلك صبركم فوق الحدود المعقولة، وإذا أطلنا هذا الحديث، ما انتهينا أبداً.

□ جابر عصفور:

سنكمل فى مرة أخرى إن شاء الله. الدكتور الطاهر مكى عنده تعقيب.

□ الطاهر مكى:

نعم. عندى تعقيب بسيط لن يأخذ وقتاً كثيراً. لقد فهمت من الأستاذ فيديريكو كورينتى أنه يرى أن الزجل هو الذى نشأ أولاً، وأن الرجل أو أن الموشحة بنيت على الموشحة. أود أن أقول رأتى، وهو أن هذا الأمر مجرد افتراض؛ لأن أول من ابتدع الموشحة أو الزجل هو مقدم بن معافى القبرى الذى عاش فى أواخر القرن التاسع الميلادى وأوائل العاشر، وأول موشحة وصلنا تعود إلى عام ١٠٢٥ ميلادية وتسبب إلى عبادة القزاز. فلدينا موشحات وأزجال مائة سنة كاملة لا نعرف عنها شيئاً على الإطلاق. ومن هنا لا يمكن القول بأن الرجل هو الأول أو أن الموشحة هى الأولى، أو أن الموشحة بنيت على خرجة عامية.

والباحثون المحدثون بماؤون هذه الفجوة باستعارة مناهج العلم الأخرى، بعضهم استعان بمناهج علم الاجتماع التي تضع قواعد التقليد وهو أنه يكون من الأدنى للأعلى، قرأوا أن ما صنعه وشاحو أو زجالو القرن العاشر الميلادي هو الموشحة، وأن الطبقة الدنيا عندما وجدت الطبقة العليا تتغنى بالموشحة صنعت الزجل لأن الزجل في الأندلس ليس هو المكتوب باللغة العامية فقط وإنما هو المكتوب باللغة العامية التي وردت في الموشحات.

النقاد الشكليون الروس يقولون إن الأنواع الأدبية تبدأ في الطبقة الدنيا بلغتها وتقاليدها، ثم تأتي الطبقة العليا وتأخذ هذه الأشياء وتصلها وتعطيها شكلا مهذبا وجميلا، والباحثون الذين ينطلقون من هذه الفكرة يميلون إلى القول بأن ما ضاع من إبداع القرن العاشر الميلادي كان زجلا ولم يكن موشحة، وأن الزجل عندما شاع وذاع، أصابت الغيرة أصحاب القصور فصنعوا لأنفسهم أزجالا باللغة الفصحى التي تسمى موشحات. واذن، فلا يمكن القول على الإطلاق برأى محكم حول ما أنشئ في البدء هل كان موشحة أو كان زجلا، وإنما يكون فقط مجرد الافتراض، ومن ثم لا يمكن القول إطلاقا بأن الموشحة أخذت الحرجة العامية من المستعربين أو من أية فئة أخرى وبنيت عليها؛ لأن الموشحات الأولى ضاعت كلها، ويظل الأمر قائما على التخمين، وليس أكثر من هذا. شكرا.

□ فيديريكو كوريتي:

لا أضن أن هناك إمكانا للرد لأنني أجد فوارق كبيرة بين النظريتين، ولكل فريق الحق في السبيل الذي يختاره.

□ جابر عصفور:

الإجابة واضحة. الآن الكلمة للدكتور محمود مكي.

□ محمود علي مكي:

أرجو ألا أكون مطيلا. لي تعليق حول ما أثير من تعقيبات وردود. وأبدأ بمسألة اختراع الزجل والتنازع بين أقطار عديدة على الاستثثار بهذا الاختراع. وأذكر ما قاله الأخ الكريم الأستاذ اللبناني الذي تحدث عن كون الزجل مخترعا من قبل السريان في بلاد الشام. في الحقيقة كان الزجل، كما قال الأستاذ فيديريكو، شيئا ثمينًا، ولذا تم التنازع على من سبق إلى اختراعه، كما يحدث دائما في كثير من الفنون التي يدعى كل بلد الأسبقية إليها. وأذكر بهذه المناسبة أننا كنا في هذا الصباح في محاضرة ألقاها الأستاذ فيديريكو أيضا في كلية الآداب في جامعة القاهرة. وقد تلقى سؤالا يقول إن بعض الأساتذة يصبر على أن الزجل أصله مصري (ابن سودون)، رغم أن ابن سودون متأخر، إذ ينتمي إلى القرن الثامن. وأيضا قال أستاذ يعني إنه قرأ «في مقدمة» ابن خلدون أن مقدم بن معافي الذي نسب إليه اختراع الزجل، كتب في الطبعة القديمة من مقدمة ابن خلدون في الطبقة الشائعة «القيري» وليس «القبري»، «القبيري» هو نسبة إلى مدينة مازالت موجودة في إسبانيا تسمى «قبره»، وقد فرح هذا الأستاذ اليماني لأنه رأى أن هذا الاسم «القيري» ينطبق على بلدة في اليمن، فقال إن الزجل يعني!! هذه القضايا طعما محسومة، لأنه من المعروف

أن الزجل - كما اعترف الجميع وكما ذكر الأستاذ فيديريكو وقبل ذلك الشاعر العراقي صفي الدين الحلبي الذي توفي في سنة ٧٥٠ في منتصف القرن الثامن - كان أولى أن يدعى نسبة الزجل والموشحة أيضا إلى العراق، ولكن الرجل لم يفعل، وله كتاب كامل اسمه (العاضل الحالي والمرخص الغالي) وهو في الفنون الشعبية عامة، وقد تحدث عن الموشحة والزجل وأنواع أخرى من الشعر الشعبي، ولم يعمل أبدا على نسبة الموشحة ولا الزجل إلى أي بلد شرقي، فهذه مسألة أعتقد أنها محسومة.

هناك المسألة المتعلقة بالسؤال الخاص بتسجيل أرجال ابن قزمان، والمحاولة التي يقوم بها الأستاذ عبد الرحمن الأبنودي وأنا أعتقد - على الرغم من تشكك الأستاذ فيديريكو في إمكان نجاح هذا العمل - أنه ينبغي أن نقوم به مهما كان فيه. ثم إن هناك تشابها، بغير شك، بين اللهجة الأندلسية ولهجات المغرب، لا أقول إن هناك تطابقا بطبيعة الحال، ولكن هناك أيضا بعض الكتب التي تعيننا على معرفة كيف كانت تنطق العربية الملوحة لدينا، وخصوصا وثائق أندلسية في غاية الأهمية تبدأ من أبي بكر الزبيدي الإشبيلي الذي توفي سنة ٣٧٩ أي ٩٨٩ في القرن العاشر الميلادي، لأن له كتابا كاملا في لحن عامة الأندلس. ثم بعد ذلك لدينا كتب أخرى توالى؛ مثل كتاب ابن هشام اللخمي الذي توفي في القرن السادس أي الثاني عشر الميلادي، واكتشفت نصوص أخرى مثل (الجمانة في إزالة الرضانة)، وهي في اللهجة العامية في تونس والمؤلف في القرن الثامن. ثم إننا نعرف أن الأندلسيين الموريثيين قد انتقل معظمهم إلى تونس، وقد احتفظوا بكثير من تراثهم الأدبي فأثروا في تونس تأثيرا كبيرا. من أجل هذا أقول إن المحاولة حقيقة جديرة بأن نهتم بها، وجدير بنا ذلك حتى لو كان فيها بعض الأخطاء؛ لأن هذا من الممكن تصحيحه فيما بعد. وأنا أرجو أن يتم تعاون بين أخي عبد الرحمن الأبنودي و الأستاذ فيديريكو على هذا العمل، وأن يسجل هذا على شرائط ثم ينظر فيه ويصحح إذا احتاج الأمر إلى تصحيح أو مراجعة؛ فإن ذلك سوف يكون مفيدا جدا. ولا يجب أن ننسى أن هناك تشابها بين اللهجة الأندلسية العامية واللهجة المصرية، بل إنني رصدت كثيرا من مظاهر هذا التشابه؛ ليس بين اللهجة المصرية بشكل عام، وإنما بين اللهجة الأندلسية العامية واللهجة الصعيدية.

□ فيديريكو كورينتي:

ذلك لسبب معروف، لأنها من العناصر القحطانية في الصعيد وفي الأندلس.

□ محمود مكي:

بالفعل، فيما يتعلق بتأثير الأدب الفصيح في الشعر الأوروبي وهذه قضية قد أثرت.

□ جابر عصفور:

هل هذا يعني أن «الصعايدة» أندلسيون؟!

□ محمود مكي:

أنا أعتقد أن الأندلسيين يتصلون بـ «عرق صعيدى».

□ محمود مكى:

أود أن أقول إننى أعترض على الأستاذ فيديريكو فيما قاله بشأن تأثير الشعر الفصيح على الشعر الأوروبي. هو يقول إنه ليس هناك شاهد أبداً على هذا التأثير، وأنا أذكر شاهدين صغيرين يمكن أن نضيف إليهما شواهد أخرى. الأستاذ فيديريكو خير من يعرف أنه فى سنة ٤٥٦هـ، التى تقابل ١٠٦٣ ميلادية، قام النورمانديون باحتلال مدينة باربيشر التى تسمى باربيسترو الآن، وهى تقع على سفح جبال البورنات، جبال البرنيه الفاصلة بين إسبانيا وفرنسا، وكانت هذه المدينة مزدهرة جداً فى العصر الإسلامى، واستطاعوا أن بأسروا عدداً كبيراً يقدر بستة آلاف من القيان، أو من النساء، ووزعت هذه القيان على من اشتركوا فى الحملة لأن الحملة كانت أوروبية؛ لم تكن فقط نورماندية وإنما اشترك فيها عدد كبير من الأوروبيين بما فيهم البابا. ويذكر المؤرخ الأندلسى الكبير ابن حيان الذى ذكر هذا الخبر أنه كان هناك بعض النساء الشريقات اللاتى أسرن لدى النورمانديين، فكانت هناك محاولات لافتكاكهن ولدفع الفدية لهن. ويذكر يهودى - وقد كان اليهود هم الوسطاء - كان يحسن العربية ويحسن اللغات الأوروبية أنه ذهب سفيراً لى يقوم بهذه المهمة فوجد «علجاً» أى أعجمياً لديه جارية تغنى بشعر عربى فصيح لسليمان بن مهران السرقسطى، وتضرب على العود. وفاوضه اليهودى فى استنقاذها على أن يدفع له مالا كثيراً، فقال اليهودى إن هذه الجارية لديه أعز عليه من الدنيا بأسرها. ويقول هذا اليهودى إنه كان يستمع إلى هذا العزف على العود وإلى قراءة هذا الشعر الذى كان مكتوباً لا بالترجل ولا بالموشع وإنما شعراً عربياً عمودياً فصيحاً، وأنه كان يعجب إعجاباً شديداً حتى إنه كان يشق ثيابه طرباً.

□ فيديريكو كورينتى:

لا تنس أن الرجل نورماندى وليس أندلسياً، فأنى له فهم الأعجمية الأندلسية؟

□ محمود على مكى:

إذا كان نورماندياً فإن الأندلسيين أولى بأن يعرفوا هذه العربية الفصيحة. مثل الآخر، ولا أريد أن أطيل، حدث فى منتصف القرن السادس عشر. يذكر لنا وهذا شئ يعرفه الأستاذ فيديريكو جيداً، فهناك نص متعلق بمساجلة ومناظرة بين أندلسى من مرسيا، هو ابن رشيق المرسى، وأحد القساوسة ورجال الدين الكبار فى مرسيا. هذا الحوار كان حول إعجاز القرآن، وهذا القس يصفه ابن رشيق بأنه يتقن اللغة العربية إتقاناً كاملاً ويحفظ كثيراً من نصوصها ويعرف القرآن الكريم، وقد كان حواراً دائماً مهذباً جداً مع الأندلسى، ناقشه فى مسألة إعجاز القرآن قائلاً إن القرآن إذا كان معجزاً فإن هناك نصوصاً عربية أخرى معجزة، والدليل على ذلك ما ورد فى إحدى مقامات الحريري: البيتان المشهوران اللذان طرفاهما من جنس واحد (سمسمه):

«واشكر لمن أهدى ولو سمسمه».

ذلك لأن الحريري فى هذه المقامة السادسة والأربعين من مجموع مقاماته، قال إن هذين البيتين لا يمكن أن يعززا بثالث؛ أى أنه تخدى الأدب: على أن ينظموا مثل هذا الشعر وعجزوا جميعاً

عنه. هذا ما قاله القس، وكان يحفظ هذه الأبيات ويعرف مقامات الحريري، ونحن نعرف مدى صموبة لغة المقامات.

□ فيديريكو كورينتي:

يمكن أن يكون من المستعربين لأن كثيرا من القساوسة في ممالك الشمال كانوا من المستعربين من طليطلة، هاجروا إلى الشمال.

□ محمود علي مكي:

وهناك دلائل على أن من بينهم من كان يعرف العربية، والعربية الفصحى.

□ جابر عصفور:

أرجو أن نمنح الفرصة للدكتور محمود علي مكي ليواصل حديثه!

□ محمود علي مكي:

هذا يدل على أن اللغة العربية الفصيحة - بل أعز نصوصها: النصوص القرآنية ونصوص المقامات، وهي أصعب ما نعرف من اللغة ولا سيما مقامات الحريري - كانت معروفة وكانت محفوظة لدى هؤلاء من رجال الدين. ومن الممكن أن تأتي بشواهد أخرى، ولكن من يدرينا؟ لأن التراث الأندلسي معظمه ضاع، وربما كانت هناك شواهد أخرى كثيرة على ذلك؛ لأن هذا لا يستبعد.

من ناحية أخرى، فيما يتعلق بما أثاره الأستاذ الدكتور جابر عصفور حول الاحتفالية الكرنفالية، أنا أعتقد أن الزجل إنما كان ينشد ويغنى في طبقات أدنى في قاع المجتمع، ربما دلنا على ذلك حياة زجال وفقه عاش في آخر عصور الإسلام في الأندلس في منتصف القرن التاسع الهجري، أي الخامس عشر الميلادي، هذا الأديب يسمى الفقيه عمر الزجال، كلمة الزجال هذه تدل بغير شك على أن شهرته الأولى كانت في الزجل ولو أنه مع الأسف لم يصل إلينا شيء من زجله، ولكن وصلتنا قصيدة طويلة تبلغ نحو مائة بيت أولها:

«تعالى نجددها طريقة ساسان»

وهذه القصيدة يصف فيها طائفة في غاية الغرابة، وقد قمت بدراسة قارنت بينها وبعض أزجال ابن قزمان لأنها تتعلق بطائفة غريبة أشبه ما تكون بما يذكر عن الفجر.

□ جابر عصفور:

كلمة «ساسان» في المقامات تشير إلى المكدين...

□ محمود علي مكي:

طبعاً، نعم. لكنه يصف طريقة هؤلاء الناس الذين كانوا أشبه بـ«البيكاروس» أو بأهل الشطارة، لأنهم يقومون بخداع الناس، وباحتراف الرقص والغناء وتسلية الناس. وهو يصف أنه ينتمى إلى هذه الطائفة، وبأنها طريقة منظمة تماماً، مع كونه زجالاً في الوقت نفسه. يبدو أنه لذلك صلة بهذه الطائفة التي وجدت في آخر عصور الإسلام في الأندلس. وبعد ذلك، نحن نعرف أن

كلمات كثيرة مما يستخدم في الغناء «الفلامنكو»، الغناء الأندلسي، هي ألفاظ عربية، مثل «سامرا» وأنا أذكر أن كالديرون المسرحي الإسباني الكبير الذي توفي في سنة ١٦٨٠ له مسرحية عن آخر ثورة قام بها الموريسكيون في جبال البصريات لاس اليوخري، وقد أورد فيها على لسان بعض هؤلاء الموريسكيين شعرا إسبانيا مختلطا بالعربية تماما، على هيئة الزجل أو على هيئة الموشحات التي يمكن أن نسميها زجلية؛ لأن هناك أيضا تشابكا بين الموشحة والزجل. وأعتقد أن كل هذا يدل على أن هناك تراثا جمع بين هؤلاء الموريسكيين الذين كانوا يعيشون في قاع المجتمع الإسباني والفجر الذين يلاقون الاضطهاد نفسه. ومن هنا اشترك هذان وتبادلا التأثير، وأعتقد أن هذا الغناء الأندلسي الذي يسمى «الفلامنكو» يتضمن تأثيرات عربية لا يمكن إنكارها، وهي ترجع إلى ذلك التراث المشترك. أشكركم، وأعتذر عن الإطالة.

□ جابر عصفور:

التعقيب الأخير للأستاذ فيديريكو كورينتي.

□ فيديريكو كورينتي :

أشكر الأخوان والأسانذة على ملاحظاتهم القيمة وعلى تفسيراتهم. ولكنني، كما قلت في أول الحديث، أظن أن المجال واسع أماننا، وأن البحث يجب أن يستمر حتى نتأكد مما نشك فيه الآن؛ لأن خطانا في هذا المجال لا تزال خطي بدائية، وفي أمور كثيرة لسنا على يقين، ويجب أن نقبل الاجتهادات جميعا، والاتجاهات جميعا، والاقتراحات جميعا، ثم بعد سنين - إن شاء الله - ستبدو الحقيقة وستبطل الأباطيل، هذا هو ما يمكن أن يحدث وما يجب علينا أن نتوقعه.

□ جابر عصفور:

أظن، بعد هذا الحديث، يبدو أن نشر ديوان ابن قزمان هو بداية لنشاط علمي واسع. في الثالث والعشرين من هذا الشهر (مارس ١٩٩٦)، سيعقد المجلس الأعلى للثقافة ندوة قومية يشرف عليها وينظمها الأستاذ عبد الحميد حواس عن بيرم التونسي وشعر العامية، ونرجو أن يكون هذا بداية لإعادة النظر في قضية شعر العامية وقصيدة العامية والزجل في نقاءات ومؤتمرات وندوات أخرى. وناسمكم جميعا أرحب مرة أخرى بالأستاذ فيديريكو كورينتي في القاهرة وفي المجلس الأعلى للثقافة، ونهنته على أن يحققه قد نال أفضل جائزة تحقيق التراث هذا العام. والواقع أن شكر فيديريكو كورينتي يجب أن يقترن بشكر محمود عالى مكي، لأنه هو الذي تخمس أولا لنشر الديوان، وانتقلت الحماسة منه إليّ. وقد بذل الدكتور محسود مكي، بالفعل، وقتا وجهدا في الإشراف على طباعة الديوان، فله الشكر على أن قدم إلينا الديوان وعلى أن جعلنا نتعرف عبده الضعيف - الذي ليس بضعيف على الإطلاق!! والمتواضع الذي لا يعرف التواضع، الأستاذ فيديريكو كورينتي.

□ □ □